تيسير التفسير
(١)

تيسير
تفسير الميزان

تيسير تفسير الميزان للعلامة الطباطبائي
مع الاحتفاظ بكل محتوياته

١١

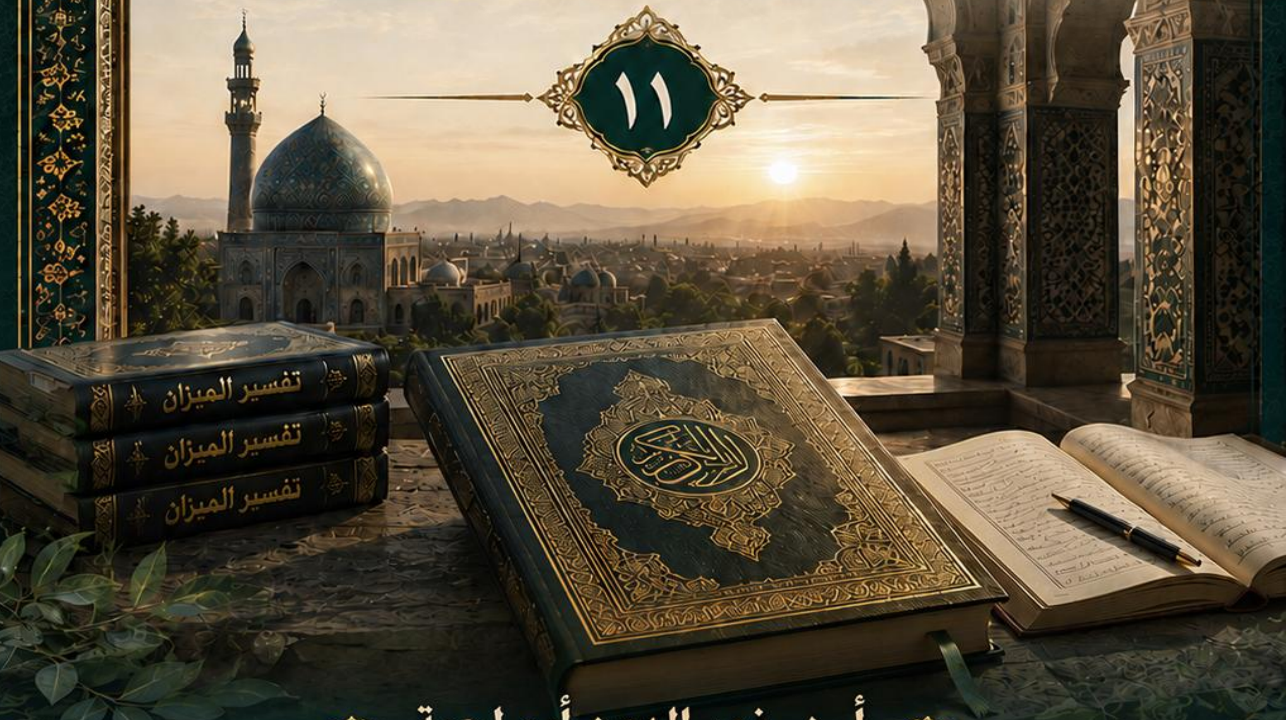

أ. د. نور الدين أبو لحية

دار الأنوار
للنشر والتوزيع

تيسير التفسير

(١)

تيسير تفسير الميزان

تيسير تفسير الميزان للعلامة الطباطبائي مع الاحتفاظ بكل محتوياته

١١

أ. د. نور الدين أبو لحية

الطبعة الأولى: ١٤٤٨ هـ - ٢٠٢٦ م

دار الأنوار للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس المحتويات

فهرس المحتويات	٧
سورة غافر	٧
مقاصد السورة ومحتوياتها:	٧
مقاطع السورة ونظمها:	٧
١. تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم الغافر:	٩
٢. جدال الكافرين في آيات الله وتكذيب الأمم السابقة وإهلاكهم:	١١
٣. الملائكة يحملون العرش ويدعون للمؤمنين:	١٣
٤. مقت الله للكافرين:	١٧
٥. اعتراف الكفار وطلبهم الخروج من النار:	١٨
٦. آيات الله وإنزال الرزق:	٢١
٧. الإخلاص والدرجات والعرش ويوم التلاق:	٢٢
٨. يوم الآزفة والظالمون:	٢٦
٩. الله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء:	٢٧
١٠. السير في الأرض والنظر في عاقبة المكذبين:	٢٨
١١. إرسال موسى بآياته إلى فرعون وهامان وقارون:	٢٩
١٢. فرعون يطلب قتل موسى خوفاً من تبديل الدين أو إفساد الأرض:	٢٩
١٣. استعاذة موسى بربه من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب:	٣٠
١٤. دفاع مؤمن آل فرعون عن موسى:	٣٠
١٥. فرعون يدعي أنه يهدي قومه سبيل الرشاد:	٣٢
١٦. تخويف مؤمن آل فرعون قومه من عذاب الأمم السابقة:	٣٢
١٧. تخويف مؤمن آل فرعون قومه من يوم القيامة:	٣٣
١٨. تذكير مؤمن آل فرعون قومه بمجيء يوسف بالبينات:	٣٣
١٩. طلب فرعون بناء الصرح للاطلاع على إله موسى:	٣٤
٢٠. دعوة مؤمن آل فرعون قومه إلى سبيل الرشاد:	٣٥
٢١. تحذير مؤمن آل فرعون قومه من النار وأن مرجعهم إلى الله:	٣٦
٢٢. تفويض مؤمن آل فرعون أمره إلى الله:	٣٨

٢٣. وقاية الله لمؤمن آل فرعون من مكرهم وحلول العذاب بآل فرعون: ٣٨
٢٤. تخاصم أهل النار وطلب الضعفاء من المستكبرين النجاة: ٤٠
٢٥. استغاثة أهل النار بخزنتها: ٤١
٢٦. نصر الله لرسله والمؤمنين: ٤٢
٢٧. إيتاء موسى الهدى وإرث بني إسرائيل الكتاب: ٤٣
٢٨. أمر النبي بالصبر والاستغفار والتسبيح: ٤٣
٢٩. جدال الكافرين وكبرهم: ٤٤
٣٠. خلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس: ٤٥
٣١. عدم استواء المؤمنين والمسيئين: ٤٦
٣٢. أمر الله بالدعاء والوعد بالاستجابة: ٤٧
٣٣. نعم الله في الليل والنهار وكل شيء وجحود العباد: ٤٨
٣٤. فضل الله على عباده في الأرض وفي صورهم ورزقهم: ٤٩
٣٥. التوحيد والدعاء والإخلاص: ٥٠
٣٦. النهي عن عبادة غير الله والإسلام لرب العالمين: ٥٠
٣٧. مراحل خلق الإنسان: ٥١
٣٨. جدال الكفار في آيات الله وتكذيبهم: ٥٢
٣٩. الصبر ووعد الله الحق: ٥٤
٤٠. إرسال الرسل وقضاء الله بالحق وخسران المبطلين: ٥٥
٤١. تسخير الأنعام للركوب والأكل والكثير من المنافع: ٥٦
٤٢. السير في الأرض والنظر في عاقبة المكذبين: ٥٦
٤٣. فرح المكذبين بما عندهم من العلم: ٥٧
٤٤. إيمان الكفار عند رؤية البأس: ٥٨
سورة فصلت ٦٠
مقاصد السورة ومحتوياتها: ٦٠
مقاطع السورة ونظمها: ٦٠
١. تنزيل القرآن الكريم وإعراض أكثر الناس عنه: ٦١
٢. بشرية النبي والدعوة للتوحيد والاستقامة والاستغفار: ٦٤
٣. خلق الأرض في يومين وتقدير الأقوات في أربعة أيام: ٦٥

٤. خلق السماوات وتزيين السماء الدنيا بالمصابيح: ٦٩
٥. إنذار المشركين بصاعقة مثل عاد وثمود: ٧٦
٦. استكبار عاد وإرسال الريح الصرصر عليهم: ٧٧
٧. استكبار ثمود على الهدى: ٧٨
٨. حشر أعداء الله إلى النار وشهادة السمع والأبصار والجلود عليهم: ٧٨
٩. النار مثوى للكافرين: ٨٥
١٠. تقيض القرناء وتزيين الكفر والخسران المبين: ٨٥
١١. الكفر واللغو والغلبة: ٨٦
١٢. النار جزاء الكافرين: ٨٧
١٣. طلب الكفار رؤية من أضلهم من الجن والإنس: ٨٧
١٤. تنزل الملائكة على المستقيمين بالبشرى والجنة والأمان: ٨٨
١٥. الداعي إلى الله والعمل الصالح والإسلام: ٩٠
١٦. دفع السيئة بالحسنة وفضل الصبر والعاقبة الحسنة: ٩١
١٧. الاستعاذة بالله من نزغ الشيطان: ٩٢
١٨. آيات الليل والنهار والشمس والقمر والسجود لله وحده: ٩٢
١٩. إحياء الأرض الميتة وإحياء الموتى: ٩٣
٢٠. وعيد الملحدين في آيات الله ومصيرهم: ٩٤
٢١. كفر الكفار بالقرآن العزيز المحفوظ من الباطل: ٩٥
٢٢. ما يقال للنبي هو ما قيل للرسل من قبله: ٩٧
٢٣. القرآن والهدى والشفاء والوقر: ٩٧
٢٤. إيتاء موسى الكتاب واختلافهم فيه: ٩٨
٢٥. العمل الصالح للنفس والإساءة عليها: ٩٩
٢٦. علم الساعة عند الله وبراءة المشركين من شركائهم: ٩٩
٢٧. الخير والشر واليأس والرحمة: ١٠٠
٢٨. إعراض الإنسان عند النعمة ودعاؤه العريض عند الشر: ١٠٢
٢٩. إنكار الكفار للقرآن وضلالهم: ١٠٢
٣٠. آيات الله في الآفاق والأنفس وتبيين الحق: ١٠٣
سورة الشورى ١٠٦

مقاصد السورة ومحتوياتها:	١٠٦
مقاطع السورة ونظمها:	١٠٦
١. الوحي من الله العزيز الحكيم:	١٠٨
٢. السماوات والتفطر والتسبيح والاستغفار:	١١٠
٣. الأولياء والحفيظ والوكيل:	١١٢
٤. إنزال القرآن عربياً للإنذار ويوم الجمع:	١١٣
٥. الله هو الولي المحيي المميت القادر على كل شيء:	١١٦
٦. الاختلاف حكمه إلى الله:	١١٧
٧. الله الفاطر والأزواج والسمع والبصر:	١٢٠
٨. مقاليد السماوات والأرض وبسط الرزق وتقديره:	١٢١
٩. شرع الدين ووصية نوح وإبراهيم وموسى وعيسى بإقامة الدين:	١٢١
١٠. كبر التوحيد على المشركين واجتباء الله لمن يشاء:	١٢٤
١١. تفرق الأمم بعد العلم بغياً:	١٢٥
١٢. الأمر بالدعوة والاستقامة والإيمان بجميع الكتب والعدل:	١٢٦
١٣. المحاجة في الله بعد الاستجابة:	١٢٩
١٤. إنزال الكتاب والميزان والساعة حق:	١٣١
١٥. لطف الله بعباده ورزقه من يشاء وحرث الآخرة والدنيا:	١٣٣
١٦. الشركاء والشرع والعذاب:	١٣٤
١٧. خوف الظالمين مما كسبوا والمؤمنون في روضات الجنات:	١٣٥
١٨. بشرى المؤمنين والمودة في القربى ومضاعفة الحسنات:	١٣٥
١٩. رد قول المفترين على الله وختم القلب ومحق الباطل وإحقاق الحق:	١٣٧
٢٠. قبول التوبة والعفو عن السيئات واستجابة المؤمنين وزيادة الفضل:	١٣٩
٢١. الرزق والقدر والبغي:	١٤٠
٢٢. الغيث والقنوط والرحمة:	١٤٢
٢٣. خلق الكائنات والقدرة على جمعها:	١٤٢
٢٤. المصيبة بما كسبت الأيدي والعفو عن كثير:	١٤٤
٢٥. آيات الله والصبر والشكر:	١٤٧
٢٦. متاع الدنيا زائل وما عند الله خير وأبقى:	١٤٩

٢٧. اجتناب كبائر الإثم والفواحش: ١٤٩
٢٨. الاستجابة لله وإقامة الصلاة والشورى والإنفاق: ١٥٠
٢٩. الانتصار عند البغي والجزاء بالمثل أو بالعفو: ١٥١
٣٠. خسران الظالمين يوم القيامة وعذابهم المقيم: ١٥٣
٣١. التحذير من عدم الاستجابة لله: ١٥٥
٣٢. الإعراض والبلاغ والفرح: ١٥٥
٣٣. الملك والخلق وهبة الذكور والإناث: ١٥٦
٣٤. كيفيات تكليم الله للبشر: ١٥٨
٣٥. إيحاء الله الروح إلى النبي: ١٦١
سورة الزخرف ١٦٧
مقاصد السورة ومحتوياتها: ١٦٧
مقاطع السورة ونظمها: ١٦٧
١. الكتاب والقرآن العربي وأم الكتاب: ١٦٩
٢. تحذير المستهزئين بسنة الإهلاك في الأمم السابقة: ١٧١
٣. آيات الله في الخلق والإحياء دليل البعث: ١٧٢
٤. تسخير الفلك والأنعام للتذكير بنعم الله: ١٧٣
٥. توبيخ من نسب البنات لله وكراهته لهم: ١٧٤
٦. ضعف من ينشأ في الزينة عن البيان والخصام: ١٧٥
٧. الإنكار على من زعم أن الملائكة إناث وسؤالهم عن ذلك: ١٧٦
٨. حجة المشركين الباطلة في اتباع الآباء دون علم: ١٧٦
٩. سنة الله في انتقامه من المكذبين المترفين: ١٧٩
١٠. إبراهيم يتبرأ من الشرك ويترك كلمة التوحيد لعقبه: ١٧٩
١١. رد اعتراضهم على نزول القرآن وتفاوت الأرزاق: ١٨٢
١٢. زخرف الدنيا متاع للكفار والآخرة للمتقين: ١٨٦
١٣. عاقبة الإعراض عن ذكر الله وقرين السوء: ١٨٧
١٤. اشتراكهم في العذاب لا ينفعهم يوم الظلم: ١٨٩
١٥. لا يستطيع النبي هداية الضالين والانتقام لله: ١٩٠
١٦. التمسك بالوحي والصراط المستقيم: ١٩١

١٧. سؤال الرسل عن التوحيد وإبطال الشرك: ١٩٢
١٨. موسى يدعو فرعون وآله إلى الله فيكذبونه: ١٩٣
١٩. فرعون يفتخر بملكه ويستخف قومه فيطيعونه: ١٩٤
٢٠. إغراق فرعون وجنوده وجعلهم عبرة للآخرين: ١٩٥
٢١. عيسى عبد الله ومثل لبني إسرائيل لا إله: ١٩٦
٢٢. عيسى علامة على الساعة: ٢٠١
٢٣. عيسى يدعو إلى الحكمة والتقوى: ٢٠١
٢٤. الأخلّاء يوم القيامة أعداء إلا المتقين: ٢٠٢
٢٥. دخول المؤمنين الجنة ونعيمها الخالد: ٢٠٣
٢٦. المجرمون في عذاب جهنم خالدون لا يفتّر عنهم: ٢٠٥
٢٧. الله يعلم بسرّ الكفار وكيدهم: ٢٠٦
٢٨. نفي الولد عن الله وتسبيحه وترك المكذبين: ٢٠٧
٢٩. الألوهية والحكم والعلم والشفاعة: ٢٠٨
٣٠. إقرار المشركين بالخالق وأمر النبي بالصفح والسلام: ٢١٠
سورة الدخان ٢١١
١. تنزيل القرآن في ليلة مباركة: ٢١٢
٢. الدخان عذاب أليم وبعده البطشة الكبرى: ٢١٧
٣. إغراق فرعون وقومه بعد فتنة موسى: ٢١٩
٤. الجنات والعيون والإرث: ٢٢١
٥. نجاة بني إسرائيل واختيارهم وآياتهم البينة: ٢٢٣
٦. إنكار المشركين للبعث واستهزاؤهم به: ٢٢٤
٧. خلق السموات والأرض بالحق لا للعب: ٢٢٦
٨. يوم الفصل لا ينفع فيه مولىً ولا نصير: ٢٢٧
٩. الزقوم والحميم والعذاب: ٢٢٨
١٠. المتقون في جنات وعيون: ٢٣٠
١١. تيسير القرآن للذكر: ٢٣٢
سورة الجاثية ٢٣٤
مقاصد السورة ومحتوياتها: ٢٣٤

مقاطع السورة ونظمها:	٢٣٤
١. تنزيل الكتاب وآيات الله الكونية للمؤمنين الموقنين:	٢٣٥
٢. الأفاك الأثيم وصفاته ومصيره:	٢٤٠
٣. تسخير النعم والشكر:	٢٤٢
٤. المؤمنون يغفرون والجزاء على العمل:	٢٤٣
٥. فضل الله على بني إسرائيل واختلافهم بعد العلم:	٢٤٥
٦. اتباع الشريعة وترك أهواء الظالمين:	٢٤٧
٧. القرآن بصائر وهدى ورحمة للموقنين:	٢٤٨
٨. المساواة بين المحسن والمسيء ظلم والجزاء بالحق:	٢٤٩
٩. من اتخذ إلهه هواه لا هادي له:	٢٥١
١٠. إنكار المشركين للبعث وردّ الله عليهم:	٢٥٣
١١. حشر الأمم يوم القيامة لتجزى بما عملت:	٢٥٦
١٢. جزاء المؤمنين والكافرين يوم القيامة:	٢٦٠
١٣. موقف المشركين من وعد الله وبدوّ السيئات:	٢٦١
١٤. نسيان المشركين لقاء النار واغترارهم بالدنيا:	٢٦٢
١٥. الحمد لله رب العالمين وله الكبرياء:	٢٦٢
سورة الأحقاف	٢٦٤
مقاصد السورة ومحتوياتها:	٢٦٤
مقاطع السورة ونظمها:	٢٦٤
١. تنزيل الكتاب بالحق وخلق السموات والأرض:	٢٦٥
٢. تحدي المشركين لإثبات شركهم:	٢٦٦
٣. ضلال من يدعو من دون الله وعداوة المعبودين لهم:	٢٦٨
٤. رد نسبة الافتراء إلى القرآن الكريم:	٢٦٩
٥. رسول الله نذير مبين يتبع ما يوحى إليه، ولا يعلم الغيب:	٢٧١
٦. شهادة شاهد من بني إسرائيل على صدق القرآن:	٢٧٤
٧. تكذيب الكفار للقرآن وكتاب موسى إمام ورحمة:	٢٧٦
٨. الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا لهم الجنة:	٢٧٧
٩. الوصية بالوالدين وتحمّل الأم ودعاء الولد الصالح:	٢٧٨

١٠. قبول الحسنات والتجاوز عن السيئات: ٢٨١
١١. عاقبة العاق لوالديه المكذب بالبعث: ٢٨٢
١٢. عرض الكفار على النار وتوبيخهم باستمتاعهم بالدنيا: ٢٨٤
١٣. إنذار هود لقومه واستهزاؤهم به وإهلاكهم: ٢٨٧
١٤. تمكين عاد وعدم انتفاعهم بسمعهم وأبصارهم: ٢٨٩
١٥. إهلاك القرى وتصريف الآيات وضلال آلهتهم عنهم: ٢٩١
١٦. استماع الجن للقرآن وإنذار قومهم ودعوتهم للإيمان: ٢٩٢
١٧. الله قادر على إحياء الموتى: ٢٩٤
١٨. عرض الكفار على النار وإقرارهم بالحق: ٢٩٤
١٩. أمر النبي بالصبر كأولي العزم وعدم الاستعجال: ٢٩٥
سورة محمد ٢٩٨
مقاصد السورة ومحتوياتها: ٢٩٨
مقاطع السورة ونظمها: ٢٩٨
١. إحباط أعمال الكفار وإصلاح حال المؤمنين: ٢٩٩
٢. حكم القتال والأسرى والمنّ والفداء: ٣٠١
٣. الامتحان والنصر: ٣٠٢
٤. هداية الشهداء وإصلاح حالهم وإدخالهم الجنة: ٣٠٣
٥. نصر الله للمؤمنين وإحباط أعمال الكفار: ٣٠٤
٦. السير في الأرض للنظر في العواقب: ٣٠٥
٧. جنات المؤمنين وتمتع الكفار كالأنعام: ٣٠٧
٨. إهلاك القرى وعدم الناصر لهم: ٣٠٨
٩. جنة المتقين وأنهارها المختلفة ومقارنتها بالنار: ٣٠٨
١٠. طبع الله على قلوب المعاندين: ٣١٠
١١. الساعة وأشراطها: ٣١١
١٢. التوحيد والاستغفار وعلم الله: ٣١٣
١٣. تذمر المنافقين من السورة التي يذكر فيها فيها القتال: ٣١٤
١٤. التولي يؤدي إلى الإفساد وتقطيع الأرحام: ٣١٦
١٥. الحث على تدبر القرآن وذم الإعراض عنه: ٣١٧

١٦. ارتداد المنافقين وتسويل الشيطان لهم وإسرارهم:	٣١٧
١٧. ضرب الملائكة للكفار عند وفاتهم وإحباط أعمالهم:	٣١٨
١٨. إخراج الله لأضغان المنافقين:	٣١٩
١٩. ضرورة الابتلاء للتمحيص والتمييز:	٣٢١
٢٠. الكفر والصد عن سبيل الله ومشاقة الرسول تحبط الأعمال:	٣٢١
٢١. الأمر بطاعة الله والرسول والنهي عن إبطال الأعمال:	٣٢١
٢٢. جزاء الكافرين الصادون عن سبيل الله:	٣٢٣
٢٣. النهي عن الوهن والدعاء إلى السلم:	٣٢٣
٢٤. الدنيا لعب ولهو والإيمان والتقوى خير من المال:	٣٢٤
٢٥. الدعوة للإنفاق والنهي عن البخل:	٣٢٤
سورة الفتح	٣٢٦
مقاصد السورة ومحتوياتها:	٣٢٦
مقاطع السورة ونظمها:	٣٢٦
١. الفتح المبين والمغفرة والنعمة والصراط المستقيم:	٣٢٧
٢. إنزال السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً:	٣٣٥
٣. إدخال المؤمنين الجنات وتكفير سيئاتهم:	٣٣٨
٤. عذاب المنافقين والمشركين الظانين بالله ظن السوء:	٣٣٩
٥. لله جنود السموات والأرض:	٣٤٠
٦. إرسال النبي بشيراً ونذيراً:	٣٤٠
٧. بيعة المؤمنين تحت الشجرة:	٣٤١
٨. اعتذار المتخلفين وكذبهم:	٣٤٣
٩. ظن المنافقين واستحقاقهم السعير:	٣٤٥
١٠. طلب المتخلفين الخروج إلى المغانم واتهامهم المؤمنين بالحسد:	٣٤٦
١١. دعوة المنافقين إلى قتال أولي البأس:	٣٤٧
١٢. الأعذار في القتال لمن له عذر:	٣٤٨
١٣. رضا الله عن المؤمنين وإنزال السكينة والفتح القريب:	٣٤٨
١٤. المغانم الكثيرة والهداية إلى الصراط المستقيم:	٣٥١
١٥. سنّة الله في نصر المؤمنين وخذلان الكافرين:	٣٥٣

١٦. كف أيدي الكفار عن المؤمنين في بطن مكة: ٣٥٣
١٧. صد الكفار عن المسجد الحرام: ٣٥٤
١٨. الكفار وحمية الجاهلية والمؤمنون والسكينة وكلمة التقوى: ٣٥٥
١٩. تصديق رؤيا النبي بدخول المسجد الحرام آمناً: ٣٥٧
٢٠. إرسال الرسول بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله: ٣٦٣
٢١. صفات من تشرفوا بمعيّة النبي: ٣٦٣
٢٢. مثل من تشرفوا بمعيّة النبي وجزاؤهم: ٣٦٤
سورة الحجرات ٣٦٨
مقاصد السورة ومحتوياتها: ٣٦٨
مقاطع السورة ونظمها: ٣٦٨
١. تقديم طاعة الله والرسول والتقوى: ٣٦٨
٢. التحذير من رفع الصوت فوق صوت النبي: ٣٧١
٣. فضل الذين يغضون أصواتهم عند الرسول: ٣٧٣
٤. ذم الذين ينادون من وراء الحجرات وأمرهم بالصبر: ٣٧٥
٥. وجوب التثبت في خبر الفاسق: ٣٧٥
٦. عدم التسليم للرسول والعنت: ٣٧٧
٧. الإصلاح بين طائفتي المؤمنين والعدل: ٣٨٠
٨. أخوة المؤمنين والإصلاح بينهم: ٣٨١
٩. النهي عن السخرية والاستهزاء والتحقير: ٣٨٣
١٠. النهي عن اللمز والتنابز بالألقاب: ٣٨٤
١١. اجتناب كثير من الظن والتجسس: ٣٨٦
١٢. النهي عن الغيبة وتشبيهها بأكل لحم الميت: ٣٨٧
١٣. غايات خلق الناس من ذكر وأنثى وجعلهم شعوباً وقبائل: ٣٩٠
١٤. التمييز بين الإسلام والإيمان: ٣٩٣
١٥. المؤمنون الصادقون والجهاد بأموالهم وأنفسهم: ٣٩٥
١٦. علم الله بدين كل إنسان ومدى التزامه بالحق: ٣٩٦
١٧. الهداية ومنّة الله على عباده بها: ٣٩٦
سورة ق ٣٩٨

مقاصد السورة ومحتوياتها:	٣٩٨
مقاطع السورة ونظمها:	٣٩٩
١. القسم بالقرآن المجيد:	٣٩٩
٢. عجب المشركين من البعث وإنكارهم له:	٤٠١
٣. تكذيب المشركين بالحق وكونهم في أمر مريج:	٤٠٢
٤. السماء والأرض والجبال والنبات دليل القدرة:	٤٠٣
٥. إنزال الماء المبارك وإخراج الجنات والنخل والحب:	٤٠٤
٦. تكذيب الأمم السابقة للرسل واستحقاقهم الوعيد:	٤٠٥
٧. الله لم يعي بالخلق الأول وهم في لبس من خلق جديد:	٤٠٥
٨. خلق الإنسان وعلم الله بوسوسته وقربه من حبل الوريد:	٤٠٧
٩. الملكان يكتبان كل قول ورقيب عتيد:	٤٠٨
١٠. سكرة الموت ونفخ الصور ومجيء كل نفس معها سائق وشهيد:	٤١٠
١١. كشف الغطاء عن الإنسان يوم القيامة:	٤١١
١٢. شهادة القرين وإلقاء الكفار المعاندين في جهنم:	٤١٣
١٣. القرين يبرئ نفسه ويقول إنه كان في ضلال بعيد:	٤١٤
١٤. لا اختصام لدى الله بعد أن جاءت النذر:	٤١٤
١٥. طلب جهنم للمزيد:	٤١٦
١٦. إزلاف الجنة للمتقين ووصف نعيمها الخالد:	٤١٧
١٧. إهلاك القرون السابقة والعظة لمن له قلب وسمع:	٤١٩
١٨. تنزيه الله عن التعب:	٤٢٠
١٩. الصبر على أذى المعاندين والدعوة للتسبيح:	٤٢١
٢٠. استماع المنادي يوم الصيحة والخروج من القبور:	٤٢٢
٢١. التذكير بالقرآن لمن يخاف الوعيد:	٤٢٣
سورة الذاريات	٤٢٤
مقاصد السورة ومحتوياتها:	٤٢٤
مقاطع السورة ونظمها:	٤٢٤
١. القسم بالذاريات على صدق الوعد ووقوع الدين:	٤٢٥
٢. السماء ذات الحبك وقول الناس المختلف:	٤٢٧

٣. لعنة المكذبين وغفلتهم واستعجالهم للعذاب: ٤٢٩
٤. جزاء المتقين ومظاهر إحسانهم: ٤٣٠
٥. آيات الله في الأرض والأنفس والسماء: ٤٣٢
٦. قصة ضيف إبراهيم وبشارتهم له بغلام عليم: ٤٣٧
٧. دهشة امرأة إبراهيم وردّ الملائكة: ٤٣٨
٨. إرسال الملائكة لهلاك قوم لوط وإنجاء المؤمنين: ٤٣٩
٩. عاقبة فرعون وجنوده حين كذّبوا موسى: ٤٤٠
١٠. هلاك عاد بريح عقيم: ٤٤٠
١١. عصيان ثمود وقوم نوح وهلاكهم: ٤٤١
١٢. قدرة الله على خلق السماء والأرض والأزواج: ٤٤٢
١٣. الأمر بالفرار إلى الله ونبذ الشرك: ٤٤٣
١٤. تكذيب الأمم لرسلهم وأمر النبي بالتذكير: ٤٤٤
١٥. حكمة خلق الجن والإنس للعبادة وليس للحاجة: ٤٤٥
١٦. تحذير الظالمين من عذاب موعود: ٤٥٠
سورة الطور ٤٥١
مقاصد السورة ومحتوياتها: ٤٥١
مقاطع السورة ونظمها: ٤٥١
١. القسم بالطور وغيره على عذاب الرب الواقع: ٤٥٢
٢. أهوال يوم القيامة وعذاب المكذبين: ٤٥٤
٣. نعيم المتقين ووقايتهم من الجحيم: ٤٥٧
٤. لحاق الذرية بالمؤمنين في الجنة وارتهان كل امرئ بكسبه: ٤٥٨
٥. إمداد الجنة بأصناف النعيم: ٤٦١
٦. لقاءات أهل الجنة وذكر منن الله عليهم: ٤٦٢
٧. رد افتراءات المشركين وتحديهم بالإتيان بمثل القرآن: ٤٦٣
٨. دحض شبهة الخلق من عدم: ٤٦٥
٩. استنكار ادعاء علم الغيب أو التحكم في الملكوت: ٤٦٥
١٠. استهجان نسبة البنات لله والبنين لأنفسهم: ٤٦٦
١١. نفي طلب أجر أو مغرم يثقل كاهل النبي: ٤٦٦

١٢. نفي علم الغيب عنهم وإبطال زعمهم: ٤٦٧
١٣. كيدهم مردود عليهم وتنزيه الله عن الشرك: ٤٦٧
١٤. إنكارهم للآيات الباهرة ووصفها بالسحر: ٤٦٨
١٥. الأمر بتركهم حتى يلاقوا عذابهم ولا ينفعهم كيد: ٤٦٨
١٦. عذاب الظالمين في الدنيا قبل الآخرة وجهلهم: ٤٦٩
١٧. أمر النبي بالصبر والتسبيح في كل الأوقات: ٤٦٩
سورة النجم ٤٧٢
مقاصد السورة ومحتوياتها: ٤٧٢
مقاطع السورة ونظمها: ٤٧٢
١. القسم بالنجم على عدم ضلالة النبي: ٤٧٣
٢. نفي نطق النبي عن الهوى: ٤٧٥
٣. من صفات جبريل معلم النبي: ٤٧٥
٤. دنو الملك وتدليه: ٤٧٦
٥. صدق رؤية الفؤاد وعدم الجدال فيها: ٤٧٨
٦. رؤية النبي للملاك عند سدرة المنتهى: ٤٨٠
٧. ثبات البصر في المشهد العظيم: ٤٨٣
٨. رؤية آيات الرب الكبرى: ٤٨٤
٩. توبيخ عبدة الأصنام أتباع الظن: ٤٨٤
١٠. نفي ملكية الإنسان لما يتمناه: ٤٨٦
١١. عدم نفع شفاعة الملائكة إلا بإذن الله ورضاه: ٤٨٦
١٢. تسمية المشركين للملائكة تسمية الأنثى واتباع الظن: ٤٨٧
١٣. الإعراض عن المعرضين وبيان غاية علمهم الدنيا: ٤٨٨
١٤. ملكية الله للكون ومجازاة المحسن والمسيء: ٤٨٩
١٥. سعة مغفرة الله لمن يجتنب الكبائر والفواحش: ٤٩٠
١٦. توبيخ من تولى وبخل: ٤٩١
١٧. التذكير بصحف موسى وإبراهيم وقاعدة تحمّل كل إنسان نتائج عمله: ٤٩٣
١٨. الإشارة إلى أن المنتهى إلى الله وحده: ٤٩٥
١٩. إثبات قدرة الله على الإضحاك والإبكاء والإماتة والإحياء: ٤٩٧

٢٠. إثبات قدرة الله على الإغناء والإفقار وكونه رب الشعرى: ٤٩٨
٢١. إهلاك الله تعالى الأمم الطاغية كعاد وثمود وقوم نوح والمؤتفكة: ٤٩٩
٢٢. تأكيد أن ما جاء به النبي نذير من النذر الأولى: ٥٠١
٢٣. اقتراب الساعة وليس لها كاشفة من دون الله: ٥٠١
٢٤. توبيخ المشركين على تعجبهم من القرآن وضحكهم بدل البكاء: ٥٠١
سورة القمر ٥٠٣
مقاصد السورة ومحتوياتها: ٥٠٣
مقاطع السورة ونظمها: ٥٠٣
١. اقتراب الساعة وانشقاق القمر وإعراض المكذبين: ٥٠٤
٢. وصول الأنباء المشتملة على الزجر والحكمة البالغة: ٥٠٨
٣. يوم القيامة يوم عسير ووصف كيفية خروجهم: ٥٠٩
٤. قصة نوح ودعوته وإهلاك قومه بالطوفان: ٥١٠
٥. قصة عاد وهلاكهم في يوم نحس مستمر: ٥١٤
٦. قصة ثمود وعقر الناقة وحلول الصيحة بهم: ٥١٦
٧. قصة لوط وإنجاء أهله وحلول العذاب بالباقين: ٥١٨
٨. توبيخ كفار مكة وتوعدهم بالهزيمة: ٥١٩
٩. تأكيد أن الساعة موعدهم وعذابهم أدهى وأمر: ٥٢٠
١٠. تذكيرهم بإهلاك أشياعهم من الأمم السابقة: ٥٢٤
١١. إحصاء كل شيء صغيره وكبيره في الزبر: ٥٢٥
١٢. وصف نعيم المتقين في جنات ونهر عند ملك مقتدر: ٥٢٥
سورة الرحمن ٥٢٧
مقاصد السورة ومحتوياتها: ٥٢٧
مقاطع السورة ونظمها: ٥٢٧
١. افتتاح السورة بذكر تعليم القرآن وخلق الإنسان: ٥٢٨
٢. نظام الشمس والقمر وسجود النجم والشجر: ٥٣٠
٣. رفع السماء ووضع الميزان للحفاظ على العدل: ٥٣١
٤. تسخير الأرض للأنام وما فيها من فاكهة ونخل وحب: ٥٣٢
٥. خلق الإنسان من صلصال والجان من مارج من نار: ٥٣٤

٦. ربوبية الله للمشرقين والمغربين والتذكير بالنعم: ٥٣٤
٧. مرج البحرين واستخراج اللؤلؤ والمرجان: ٥٣٥
٨. تسخير السفن الجارية في البحر كالأعلام: ٥٣٦
٩. فناء كل من على الأرض وبقاء وجه الله الكريم: ٥٣٦
١٠. حاجة كل من في السموات والأرض لله: ٥٣٩
١١. تهديد الثقلين بالحساب والتفرغ لهم: ٥٣٩
١٢. تحدى الجن والإنس بالنفود من أقطار السموات والأرض: ٥٤٠
١٣. انشقاق السماء واصفرارها وسؤال المجرمين عن ذنوبهم: ٥٤١
١٤. تمييز المجرمين بسيماهم وأخذهم بالنواصي والأقدام: ٥٤٢
١٥. وصف جهنم وطواف المجرمين بينها وبين الحميم: ٥٤٢
١٦. وصف أولى الجنتين وما فيهما من نعيم مقيم: ٥٤٣
١٧. وصف الحور العين في الجنتين كالياقوت والمرجان: ٥٤٥
١٨. جزاء الإحسان هو الإحسان: ٥٤٦
١٩. وصف الجنتين الأخريين وما فيهما من نخل ورمان وعيون: ٥٤٧
٢٠. وصف الخيرات الحسان والحور المقصورات في الخيام: ٥٤٨
٢١. وصف الرفرف الخضر والعبقري الحسان والاتكاء عليها: ٥٤٩
٢٢. ختم السورة بتبارك اسم الرب ذي الجلال والإكرام: ٥٥٠
سورة الواقعة ٥٥١
مقاصد السورة ومحتوياتها: ٥٥١
مقاطع السورة ونظمها: ٥٥١
١. بيان حقيقة وقوع الواقعة وأنها ليست بكاذبة: ٥٥٢
٢. خفض الواقعة لأقوام ورفعها لآخرين: ٥٥٣
٣. أهوال يوم القيامة: ٥٥٣
٤. تقسيم الناس يوم القيامة إلى ثلاثة أزواج: ٥٥٤
٥. وصف نعيم السابقين المقربين في جنات النعيم: ٥٥٦
٦. وصف نعيم أصحاب اليمين: ٥٦١
٧. وصف عذاب أصحاب الشمال: ٥٦٤
٨. استهزاء أصحاب الشمال بالبعث: ٥٦٥

٩. وعيد الضالين المكذبين بأكلهم من شجرة الزقوم وشرب الحميم: ٥٦٦
١٠. الاستدلال بخلق الإنسان والموت والبعث على قدرة الله: ٥٦٦
١١. الاستدلال بإنزال المطر وإنبات الزرع على قدرة الله: ٥٧٠
١٢. الاستدلال بإنزال الماء العذب من المزن على قدرة الله: ٥٧١
١٣. الاستدلال بإيجاد النار من الشجر على قدرة الله: ٥٧١
١٤. القسم بمواقع النجوم على عظمة القرآن وطهارته: ٥٧٢
١٥. توبيخهم على استهانتهم بالقرآن وتكذيبهم له: ٥٧٦
١٦. مشهد الاحتضار وقرب الله من العبد: ٥٧٦
١٧. مصير المقربين وأصحاب اليمين والمكذبين عند الموت: ٥٧٧
١٨. تأكيد أن هذا هو حق اليقين وأمر بالتسبيح: ٥٧٩
سورة الحديد ٥٨٠
مقاصد السورة ومحتوياتها: ٥٨٠
مقاطع السورة ونظمها: ٥٨٠
١. تسبيح ما في السموات والأرض: ٥٨١
٢. إثبات صفات الأولية والآخرية والظهور والبطون لله: ٥٨٣
٣. خلق السموات والأرض واستواء الله على العرش وعلمه المحيط: ٥٨٦
٤. الأمر بالإيمان والإنفاق والأجر الكبير: ٥٨٧
٥. الحث على الإيمان استجابة لدعوة الرسول والميثاق: ٥٨٨
٦. إنزال الآيات البينات لإخراج الناس من الظلمات إلى النور: ٥٨٩
٧. الحث على الإنفاق والجهاد وبيان فضل السابقين: ٥٩٠
٨. فضل القرض الحسن ومضاعفته والأجر الكريم: ٥٩٢
٩. يوم القيامة ونور المؤمنين وبشارتهم بالجنات: ٥٩٣
١٠. مشهد المنافقين وسورهم وبابهم وعذابهم: ٥٩٤
١١. الحث على خشوع القلوب لذكر الله وتجنب قسوة القلب: ٥٩٧
١٢. الإشارة إلى إحياء الأرض بعد موتها كدليل على البعث: ٥٩٩
١٣. وعد المتصدقين والمقرضين بالمضاعفة والأجر الكريم: ٥٩٩
١٤. وصف المؤمنين بالصديقين والشهداء ووعيد الكافرين بالجحيم: ٦٠٠
١٥. وصف حقيقة الدنيا وضرب المثل لها: ٦٠٢

١٦. الحث على المسارعة إلى مغفرة الله وجنته الواسعة: ٦٠٣
١٧. بيان أن كل مصيبة مكتوبة من قبل لتجنب الحزن والبطر: ٦٠٥
١٨. ذم البخل والأمر به وبيان غنى الله وحمده: ٦٠٧
١٩. إرسال الرسل بالبينات وإنزال الكتاب والميزان لإقامة العدل: ٦٠٨
٢٠. إنزال الحديد وما فيه من بأس شديد ومنافع واختبار النصرة لله: ٦٠٩
٢١. إرسال نوح وإبراهيم وجعل النبوة والكتاب في ذريتهما: ٦١٠
٢٢. قصة عيسى والإنجيل والرهبانية المبتدعة وعدم رعايتها: ٦١٠
٢٣. دعوة المؤمنين للتقوى والإيمان بالرسول لنيل كفلين من الرحمة: ٦١٢
٢٤. إعلام أهل الكتاب بأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء: ٦١٣
سورة المجادلة ٦١٥
مقاصد السورة ومحتوياتها: ٦١٥
مقاطع السورة ونظمها: ٦١٥
١. سماع الله لقول المجادلة في زوجها وشكواها: ٦١٥
٢. حكم الظهار: ٦١٧
٣. بيان كفارة الظهار بالعتق أو الصيام أو الإطعام: ٦١٨
٤. وعيد من يحادون الله ورسوله وبيان كبتهم وعذابهم المهين: ٦٢٠
٥. البعث والإحصاء والنسيان والشهادة: ٦٢٠
٦. علم الله المحيط بكل شيء وبالنجوى وكونه معهم أينما كانوا: ٦٢١
٧. توبيخ المنافقين على تناجيهم بالإثم والعدوان ومعصية الرسول: ٦٢٣
٨. الأمر بالتناجي بالبر والتقوى وترك الإثم والعدوان: ٦٢٥
٩. بيان أن النجوى من الشيطان: ٦٢٦
١٠. الأمر بالتفسح في المجالس والانشاز: ٦٢٦
١١. تقديم الصدقة قبل نجوى الرسول: ٦٢٨
١٢. توبيخ من تولى قوماً مغضوباً عليهم: ٦٣٠
١٣. عدم إغناء الأموال والأولاد عن المنافقين وحلفهم يوم القيامة: ٦٣١
١٤. استحواذ الشيطان على المنافقين: ٦٣٢
١٥. وعيد من يحادون الله ورسوله بأنهم في الأذلين: ٦٣٢
١٦. وعد الله بالنصر لرسله وقوته وعزته: ٦٣٣

١٧. نفي المودة بين المؤمنين وأعداء الله ووصف حزب الله بالمفلحين:	٦٣٤
سورة الحشر	٦٣٨
مقاصد السورة ومحتوياتها:	٦٣٨
مقاطع السورة ونظمها:	٦٣٨
١. تسبيح ما في السموات والأرض لله العزيز الحكيم:	٦٤٠
٢. إخراج أهل الكتاب من ديارهم وقذف الرعب في قلوبهم:	٦٤٠
٣. بيان سبب عذاب أهل الكتاب:	٦٤٣
٤. حكم قطع النخيل أو تركه بإذن الله وإخزاء الفاسقين:	٦٤٣
٥. حكم الفيء وما أوجف عليه من خيل ولا ركاب:	٦٤٤
٦. مصارف الفيء وبيان أنه ليس دولة بين الأغنياء:	٦٤٥
٧. الأمر بأخذ ما آتاه الرسول والانتهاء عما نهاه وتقوى الله:	٦٤٦
٨. وصف المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم:	٦٤٧
٩. وصف الأنصار وإيثارهم على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة:	٦٤٨
١٠. دعاء الذين جاءوا من بعدهم للمغفرة والإخاء ونفي الغل:	٦٥٠
١١. كشف نفاق المنافقين وكذبهم مع إخوانهم من أهل الكتاب:	٦٥١
١٢. بيان شدة رهبة المعتدين من أهل الكتاب من المؤمنين وتفرق قلوبهم:	٦٥٣
١٣. تشبيههم بمثل الذين من قبلهم وذاقوا وبال أمرهم:	٦٥٤
١٤. ضرب مثل الشيطان مع الإنسان في الكفر والتبرؤ منه:	٦٥٤
١٥. الأمر بتقوى الله والاهتمام بالإعداد للآخرة والنهي عن نسيان الله:	٦٥٦
١٦. بيان عدم استواء أصحاب النار وأصحاب الجنة:	٦٥٩
١٧. خشوع الجبل لتنزل القرآن من خشية الله:	٦٥٩
١٨. ختم السورة بأسماء الله الحسنى:	٦٦٠
سورة الممتحنة	٦٦٥
مقاصد السورة ومحتوياتها:	٦٦٥
مقاطع السورة ونظمها:	٦٦٥
١. النهي عن موالاة أعداء الله وإلقاء المودة إليهم:	٦٦٥
٢. عداوة الكفار للمؤمنين وعدم نفع الأرحام يوم القيامة:	٦٦٨
٣. التأسي بإبراهيم ومن معه في البراءة من الكفر والتوكل على الله:	٦٧٠

٤. إبراهيم ومن معه أسوة الحسنة لمن يرجو الله واليوم الآخر: ٦٧٤
٥. الرجاء في جعل المودة بين المؤمنين وبين من عادوهم: ٦٧٤
٦. الأمر بالبر والقسط مع غير المعتدين: ٦٧٥
٧. النهي عن موالاة الظالمين بأصنافهم المختلفة: ٦٧٦
٨. حكم المهاجرات المؤمنات وامتحانهن وعدم ردهن إلى الكفار: ٦٧٦
٩. حكم ما فات من أزواج المؤمنين إلى الكفار: ٦٨٠
١٠. شروط مبايعة النبي للمؤمنات والاستغفار لهن: ٦٨١
١١. النهي عن موالاة قوم غضب الله عليهم: ٦٨٣

سورة غافر

هذه السورة الكريمة تحتوي على [٤٤] مقطعاً، وهذا تعريف بمقاصدها، ومحتويات مقاطعها:

مقاصد السورة ومحتوياتها:

أ. تتكلم السورة في استكبار الكافرين ومجادلتهم بالباطل ليدحضوا به الحق الذي يدعون إليه، ولذلك نراها تذكر جدالهم وتعود إليه عودة بعد عودة: ﴿ما يُجادِلُ فِي آياتِ اللهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلادِ﴾ ﴿الَّذِينَ يُجادِلُونَ فِي آياتِ اللهِ بِغَيْرِ سُلْطانٍ أَتاهُمْ كَبُرَ مَقْتاً﴾ ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجادِلُونَ فِي آياتِ اللهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ﴾

ب. فتكسير سورة استكبارهم وجدالهم بذكر ما عاقب الله به الماضين من الأمم المكذبين، وما أعد الله لهم من العذاب المهين، بذكر طرف مما يجري عليهم في الآخرة.

ج. وتدحض باطل أقاويلهم بوجوه من الحجج الناطقة بتوحده في الربوبية والألوهية.

د. وتأمر النبي ﷺ بالصبر، وتعده والمؤمنين به بالنصر، وتأمرهم أن يؤذنهم أنه مسلم لربه غير تارك لعبادته، فلييأسوا منه.

هـ. والسورة مكية كلها لاتصال آياتها وشهادة مضامينها بذلك، وما قيل فيه من الآيات إنه نزل بالمدينة لا يعبأ به، وسيجيء الإشارة إليها إن شاء الله.

مقاطع السورة ونظمها:

١. الآيات [١ ـ ٦] لم يذكر البيان المرتبط بها، وهي تذكر أن الكتاب منزل من الله العزيز العليم، غافر الذنب وقابل التوب، شديد العقاب، وتذكر أن الكافرين يجادلون في آيات الله، وتذكر قدرته المطلقة، وأن الذين كفروا يعذبون.

٢. الآيات [٧ ـ ١٢]:

أ. لما ذكر سبحانه تكذيب الذين كفروا وجدالهم في آيات الله بالباطل، ولوح إلى أنهم غير معجزين ولا مغفول عنهم، بل معنيون في هذه الدعوة، والعناية فيهم أن يتميزوا فيحق عليهم كلمة العذاب فيعاقبوا.

ب. عاد إلى بدء الكلام الذي أشار فيه إلى أن تنزيل الكتاب وإقامة الدعوة لمغفرة جمع وقبول توبتهم وعقاب آخرين، فذكر أن الناس قبال هذه الدعوة قبيلان:

- قبيل تستغفر لهم حملة العرش والحافون به من الملائكة، وهم التائبون إلى الله المتبعون سبيله، ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم.
- وقبيل ممقوتون معذبون، وهم الكافرون بالتوحيد.

٣. الآيات [١٣ ـ ٢٠] احتجاج على التوحيد وإنذار، بعد تقسيم الناس إلى راجع إلى الله متبع سبيله، ومكذب بالآيات مجادل بالباطل.

٤. الآيات [٢١ ـ ٥٤]:

أ. في الآيات موعظتهم بالإرجاع إلى آثار الأمم الماضين وقصصهم للنظر والاعتبار، فلينظروا فيها وليعتبروا بها، ويعلموا أن الله سبحانه لا تعجزه قوة الأقوياء واستكبار المستكبرين ومكر الماكرين.

ب. وتذكر منها من باب الأنموذج طرفاً من قصص موسى وفرعون، وفيها قصة مؤمن آل فرعون.

٥. الآيات [٥٥ ـ ٦٠]:

أ. لما قص قصة موسى وإرساله بالحق إلى فرعون وقومه، ومجادلتهم في آيات الله بالباطل ومكرهم فيها، ونصره تعالى لنبيه وإبطاله كيدهم، وما آل إليه أمرهم من خيبة السعي وسوء المنقلب.

ب. فرع على ذلك أمر نبيه ﷺ بالصبر، منبهاً له أن وعد الله بالنصر حق، وأن كيد قومه وجدالهم بالباطل واستكبارهم عن قبول دعوته سيبطل ويعود وبالاً على أنفسهم، فليسوا بمعجزي الله، وستقوم الساعة الموعودة ويدخلون جهنم داخرين.

٦. الآيات [٦١ ـ ٦٨] رجع سبحانه ثانياً إلى الإشارة إلى آيات التوحيد توحيد الربوبية والألوهية، بعد ما بدأ بها في السورة أولاً بقوله: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾

٧. الآيات [٦٩ ـ ٧٨]:

أ. رجوع بعد رجوع إلى حديث المجادلين في آيات الله، وقد تعرض لبيان مآل أمرهم بذكر ما آل إليه أمر أشباههم من الأمم الخالية، ونصره تعالى لدينه في أول السورة إجمالاً.

ب. ثم بذكر الحال في دعوة موسى عليه السلام بالخصوص فيما قصه من قصته، ونصره له بالخصوص، ثم في ضمن أمر النبي ﷺ بالصبر ووعده بالنصر.

ج. وهذا آخر كرة عليهم، يذكر فيها مآل أمرهم وما يصرفون إليه وهو العذاب المخلد، ثم يأمر النبي ﷺ بالصبر وبعده بالنصر، ويطيب نفسه بأن وعد الله حق.

٨. الآيات [٧٩ ـ ٨٥]:

أ. رجوع بعد رجوع إلى ذكر بعض آيات التوحيد، وإرجاع لهم إلى الاعتبار بحال الأمم الدارجة الهالكة وسنة الله الجارية فيهم: بإرسال رسله إليهم، ثم القضاء بين رسلهم وبينهم المؤدي إلى خسران الكافرين منهم.

ب. وعند ذلك تختتم السورة.

١. تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم الغافر:

المقطع [١] من سورة غافر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [غافر: ٢ـ٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ٣٠٢»:

١. ﴿حم تَنْزِيلُ الْكِتابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾:

أ. التنزيل مصدر بمعنى المفعول فقوله: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتابِ﴾ من قبيل إضافة الصفة إلى موصوفها والتقدير هذا كتاب منزل من الله.

ب. وتخصيص الوصفين: ﴿الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ بالذكر قيل: للإشارة إلى ما في القرآن من الإعجاز وأنواع العلوم التي يضيق عنها نطاق الأفهام، وقيل: هو من باب التفنن.

ج. والوجه أن يقال: إن السورة لما كانت تتكلم حول جحد الجاحدين ومجادلتهم في آيات الله بالباطل جهلا وهم يحسبونه علما ويعتزون به كما حكى ذلك عنهم في خاتمة السورة بقوله: ﴿فَلَمَّا جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَرِحُوا بِما عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾ وكما حكى عن فرعون قوله لقومه في موسى: ﴿إِنِّي أَخافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسادَ﴾ وقوله لهم: ﴿ما أُرِيكُمْ إِلَّا ما أَرى وَما أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشادِ﴾

د. افتتح الكلام في السورة بما فيه إشارة إلى أن هذا الكتاب النازل عليهم تنزيل ممن هو عزيز على الإطلاق لا يغلبه غالب حتى يخاف على ما نزله من استعلائهم واستكبارهم بحسب أوهامهم، عليم على الإطلاق لا يدخل علمه جهل وضلال فلا يقاوم جدالهم بالباطل ما نزله من الحق وبينه بحججه الباهرة.

هـ. ويؤيد هذا الوجه ما في الآية التالية من قوله: ﴿غافِرِ الذَّنْبِ وَقابِلِ التَّوْبِ﴾ على ما سنبين.

٢. ﴿غافِرِ الذَّنْبِ وَقابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقابِ ذِي الطَّوْلِ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾:

أ. الإتيان بصيغة اسم الفاعل في ﴿غافِرِ الذَّنْبِ وَقابِلِ التَّوْبِ﴾، لعله، للدلالة على الاستمرار التجددي فإن المغفرة وقبول التوب من صفاته الفعلية ولا يزال تعالى يغفر الذنب ثم يغفر ويقبل التوب ثم يقبل.

ب. وإنما عطف قابل التوب على ما قبله دون ﴿شَدِيدِ الْعِقابِ ذِي الطَّوْلِ﴾ لأن غافر الذنب وقابل التوب مجموعهما كصفة واحدة متعلقة بالعباد المذنبين يغفر لهم تارة بتوبة وتارة بغيرها كالشفاعة.

ج. والعقاب والمعاقبة المؤاخذة التي تكون في عاقبة الذنب قال الراغب: (والعقب والعقبى يختصان بالثواب نحو ﴿خَيْرٌ ثَواباً وَخَيْرٌ عُقْباً﴾، وقال تعالى: ﴿أُولئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾، والعاقبة إطلاقها يختص بالثواب نحو ﴿وَالْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾، وبالإضافة قد تستعمل في العقوبة نحو ﴿ثُمَّ كانَ عاقِبَةَ الَّذِينَ أَساؤُا﴾، وقوله: ﴿فَكانَ عاقِبَتَهُما أَنَّهُما فِي النَّارِ﴾ يصح أن يكون ذلك استعارة من ضده، والعقوبة والمعاقبة والعقاب تختص بالعذاب)

د. فشديد العقاب كذي انتقام من أسماء الله الحسنى تحكي صفته تعالى في جانب العذاب كما يحكي الغفور والرحيم صفته تعالى في جانب الرحمة.

هـ. والطول، على ما في المجمع: (الإنعام الذي تطول مدته على صاحبه فذو الطول من أسمائه الحسنى في معنى المنعم لكنه أخص من المنعم لعدم شموله النعم القصار.

و. وذكر هذه الأسماء الأربعة: غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول بعد اسم العليم للإشارة إلى أن تنزيل هذا الكتاب المشتمل على دعوته الحقة المبني على العلم مبني على أساس ما تقتضيه مضامين هذه الأسماء الأربعة، وذلك أن العالم الإنساني كما يتحد قبيلا واحدا في نيل الطول الإلهي والتنعم بنعمه المستمرة المتوالية مدى الحياة الدنيا ينقسم من حيث حياته الآخرة قسمين وينشعب إلى شعبتين:

سعيد وشقي والله سبحانه عالم بتفاصيل خلقه وكيف لا يعلم وهو خالقها وفاعلها، ومقتضى كونه غافرا للذنب قابلا للتوب أن يغفر لمن استعد للمغفرة وأن يقبل توبة التائب إليه، ومقتضى كونه شديد العقاب أن يعاقب من استحق ذلك.

ز. ومقتضى ذلك أن يهدي الناس إلى صراط السعادة كما قال: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى﴾ [الليل: ١٢-١٣]، وقال: ﴿وَعَلَى اللهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ [النحل: ٩] لينقسم الناس بذلك قسمين ويتميز عنده السعيد من الشقي والمهتدي من الضال فيرحم هذا ويعذب ذلك.

ح. فتنزيل الكتاب من الله العزيز العليم مبني على علمه المحيط بخلقه أنهم في حاجة إلى دعوة يهتدي بها قوم ويضل بردها آخرون ليغفر لقوم ويعذب آخرين، وفي حاجة إليها لينتظم بها نظام معاشهم في الدنيا فينعموا بطوله ونعمته في الدنيا ثم في دار القرار.

ط. فهذا شأن كتابه المنزل بعلمه الذي لا يشوبه جهل والمبني على الحق الذي لا يداخله باطل، وأين هو من تكذيب الذين لا يعلمون إلا ظاهرا من الحياة وجدالهم بالباطل ليدحضوا به الحق.

ي. وعلى هذا الذي ذكرنا من العناية بالعلم يشهد ما سيذكره تعالى من دعاء الملائكة للمؤمنين بالمغفرة: ﴿رَبَّنا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ﴾ فتدبر فيه.

٣. ﴿لا إِلهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ ذكر كلمة التوحيد للإشارة إلى وجوب عبادته وحده فلا تلغو الدعوة الدينية بتنزيل الكتاب، وذكر كون مصير الكل ورجوعهم إليه وهو البعث للإشارة إلى أنه هو السبب العمدة الداعي إلى الإيمان بالكتاب واتباعه فيما يدعو إليه لأن الاعتقاد بيوم الحساب هو الذي يستتبع الخوف والرجاء خوف العقاب ورجاء الثواب الداعيين إلى عبادة الله سبحانه.

٢. جدال الكافرين في آيات الله وتكذيب الأمم السابقة وإهلاكهم:

المقطع [٢] من سورة غافر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ [غافر: ٤-٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ٣٠٥»:

١. ﴿ما يُجادِلُ فِي آياتِ اللهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلادِ﴾:

أ. لما ذكر تنزيل الكتاب وأشار إلى الحجة الباهرة على حقيته، المستفادة من صفاته الكريمة المعدودة في الآيتين، الدالة على أنه منزل بعلمه الذي لا يشوبه جهل وبالحق الذي لا يدحضه باطل تعرض لحال الذين قابلوا حججه الحقة بباطل جدالهم فلوح إلى أن هؤلاء أهل العقاب وليسوا بفائتين ولا مغفولا عنهم فإنهم كما نزل الكتاب ليغفر الذنب ويقبل التوب كذلك نزله ليعاقب أهل العقاب فلا يسوأن النبي ﷺ جدالهم ولا يغرنه ما يشاهده من حالهم.

ب. فقوله: ﴿ما يُجادِلُ فِي آياتِ اللهِ﴾ لم يقل: ما يجادل فيه أي في القرآن ليدل على أن الجدال في الحق الذي تدل عليه الآيات بما هي آيات، على أن طرف جدالهم هو النبي ﷺ وهو داع إلى الحق الذي تدل عليه الآيات فجدالهم لدفع الحق لا للدفاع عن الحق، على أن الجدال في الآية التالية مقيدة بالباطل لإدحاض الحق.

ج. فالمراد بالمجادلة في آيات الله هي المجادلة لإدحاضها ودفعها وهي المذمومة ولا تشمل الجدال لإثبات الحق والدفاع عنه كيف؟ وهو سبحانه يأمر نبيه ﷺ بذلك إذا كان جدالا بالتي هي أحسن قال تعالى: ﴿وَجادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]

٢. ﴿إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ظاهر السياق أنهم الذين رسخ الكفر في قلوبهم فلا يرجى زواله، وقد قيل: ﴿ما يُجادِلُ﴾ ولم يقل: لا يجادل.

٣. وكذا ظاهر قوله: ﴿فَلا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلادِ﴾ أن المراد بهم الكفار المعاصرون للنبي ﷺ وإن لم يكونوا من أهل مكة، وتقلبهم في البلاد انتقالهم من طور من أطوار الحياة إلى طور آخر ومن نعمة إلى نعمة في سلامة وصحة وعافية، وتوجيه النهي عن الغرور إلى تقلبهم في البلاد كناية عن نهي النبي ﷺ عن الاغترار بما يشاهده منهم أن يحسب أنهم أعجزوه سبحانه.

٤. ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزابُ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾:

أ. في مقام الجواب عما يسبق إلى الوهم أنهم استكبروا وجادلوا في آيات الله فلم يكن بهم بأس وسبقوا في ذلك.

ب. ومحصل الجواب: أن الأمم الماضين كقوم نوح والأحزاب من بعدهم كعاد وثمود وقوم لوط وغيرهم سبقوا هؤلاء إلى مثل صنيعهم من التكذيب والجدال بالباطل وهموا برسولهم ليأخذوه فحل بهم

العقاب وكذلك قضي في حق الكفار العذاب فتوهم أن هؤلاء سبقوا الله إلى ما يريد توهم باطل.

ج. فقوله: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزابُ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ دفع للدخل السابق ولذا جيء بالفصل، وقوله: ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾ يقال: هم به أي قصده ويغلب فيه القصد بالسوء أي قصدوا رسولهم ليأخذوه بالقتل أو الإخراج أو غيرهما كما قصه الله تعالى في قصصهم.

٥. ﴿وَجادَلُوا بِالْباطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾ الإدحاض الإزالة والإبطال وقوله: ﴿فَأَخَذْتُهُمْ﴾ أي عذبتهم، وفيه التفات من الغيبة إلى التكلم وحده والنكتة فيه الإشارة إلى أن أمرهم في هذا الطغيان والاستكبار إلى الله وحده لا يدخل بينه وبينهم أحد بنصرة أو شفاعة كما قال: ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ١٣-١٤]

٦. ﴿فَكَيْفَ كانَ عِقابِ﴾ توجيه لذهن المخاطب إلى ما يعلمه من كيفية إهلاكهم وقطع دابرهم ليحضر شدة ما نزل بهم وقد قصه الله فيما قص من قصصهم.

٧. ﴿وَكَذلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحابُ النَّارِ﴾:

أ. ظاهر السياق أن المشبه به هو ما في الآية السابقة من أخذهم وعقابهم، والمراد بالذين كفروا مطلق الكفار من الماضين، والمعنى كما أخذ الله المكذبين من الماضين بعذاب الدنيا كذلك حقت كلمته على مطلق الكافرين بعذاب الآخرة، والذين كفروا من قومك منهم.

ب. وقيل: المراد بالذين كفروا كفار مكة، ولا يساعد عليه السياق والتشبيه لا يخلو عليه من اختلال.

ج. وفي قوله: ﴿كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾ ولم يقل: كلمتي تطييب لنفس النبي ﷺ وتأييد له بالإشارة إلى أن الركن الذي يركن إليه هو الشديد القوي.

٣. الملائكة يحملون العرش ويدعون للمؤمنين:

المقطع [٣] من سورة غافر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ

﴿الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [غافر: ٧-٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ٣٠٨»:

١. ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ﴾:

أ. لم يعرف سبحانه هؤلاء الحاملين للعرش من هم؟ ولا في كلامه تصريح بأنهم من الملائكة لكن يشعر عطف قوله: ﴿وَمَنْ حَوْلَهُ﴾ عليهم وقد قال فيهم: ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ﴾ [الزمر: ٧٥] أن حملة العرش أيضا من الملائكة.

ب. وقد تقدم تفصيل الكلام في معنى العرش في الجزء الثامن من الكتاب.

ج. فقوله: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ﴾ أي الملائكة الذين يحملون العرش الذي منه تظهر الأوامر وتصدر الأحكام الإلهية التي بها يدبر العالم، والذين حول العرش من الملائكة وهم المقربون منهم.

٢. ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ أي ينزهون الله سبحانه والحال أن تنزيههم له يصاحب ثناؤهم لربهم فهم ينزهونه تعالى عن كل ما لا يليق بساحة قدسه ومن ذلك وجود الشريك في ملكه ويثنون عليه على فعله وتدبيره.

٣. ﴿وَيُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ إيمانهم به، والحال هذه الحال عرش الملك والتدبير لله وهم حاملوه أو مطيفون حوله لتلقي الأوامر وينزهونه عن كل نقص ويحمدونه على أفعاله، معناه الإيمان بوحدانيته في ربوبيته وألوهيته ففي ذكر العرش ونسبة التنزيه والتحميد والإيمان إلى الملائكة رد للمشركين حيث يعدون الملائكة المقربين شركاء لله في ربوبيته وألوهيته ويتخذونهم أربابا آلهة يعبدونهم.

٤. ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي يسألون الله سبحانه أن يغفر للذين آمنوا.

٥. ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا﴾ حكاية متن استغفارهم وقد بدءوا فيه بالثناء عليه تعالى بسعة الرحمة والعلم، وإنما ذكروا الرحمة وشفعوها بالعلم لأنه برحمته ينعم على كل محتاج فالرحمة مبدأ إفاضة كل نعمة وبعلمه يعلم حاجة كل محتاج مستعد للرحمة.

٦. ﴿فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ تفريع على ما أثنوا به من سعة الرحمة والعلم، والمراد بالسبيل التي اتبعوها هو ما شرع لهم من الدين وهو الإسلام واتباعهم له هو تطبيق عملهم عليه فالمراد بتوبتهم رجوعهم إليه تعالى بالإيمان والمعنى فاغفر للذين رجعوا إليك بالإيمان

بوحدانيتك وسلوك سبيلك الذي هو الإسلام وقهم عذاب الجحيم وهو غاية المغفرة وغرضها.

٧. ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ﴾ تكرار النداء بلفظة ربنا لمزيد الاستعطاف والمراد بالوعد وعده تعالى لهم بلسان رسله وفي كتبه.

٨. ﴿وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾:

أ. عطف على موضع الضمير في قوله: ﴿وَأَدْخِلْهُمْ﴾ والمراد بالصلوح صلاحية دخول الجنة، والمعنى وأدخل من صلح لدخول الجنة من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم جنات عدن.

ب. ثم من المعلوم من سياق الآيات أن استغفارهم لعامة المؤمنين، ومن المعلوم أيضا أنهم قسموهم قسمين اثنين قسموهم إلى الذين تابوا واتبعوا سبيل الله وقد وعدهم الله جنات عدن، وإلى من صلح وقد جعلوا الطائفة الأولى متبوعين والثانية تابعين.

ج. ويظهر منه أن الطائفة الأولى هم الكاملون في الإيمان والعمل على ما هو مقتضى حقيقة معنى قولهم: ﴿لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ﴾ فذكروهم وسألوه أن يغفر لهم وينجز لهم ما وعدهم من جنات عدن، والطائفة الثانية دون هؤلاء في المنزلة ممن لم يستكمل الإيمان والعمل من ناقص الإيمان ومستضعف وسيئ العمل من منسوبي الطائفة الأولى فذكروهم وسألوه تعالى أن يلحقهم بالطائفة الأولى الكاملين في جناتهم ويقيهم السيئات.

د. فالآية في معنى قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الطور: ٢١] غير أن الآية التي نحن فيها أوسع وأشمل لشمولها الآباء والأزواج بخلاف آية سورة الطور، والمأخوذ فيها الصلوح وهو أعم من الإيمان المأخوذ في آية الطور.

٩. ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾:

أ. تعليل لقولهم: ﴿فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا﴾ إلى آخر مسألتهم، وكان الذي يقتضيه الظاهر أن يقال: إنك أنت الغفور الرحيم لكنه عدل إلى ذكر الوصفين: العزيز الحكيم لأنه وقع في مفتتح مسألتهم الثناء عليه تعالى بقولهم: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً﴾، ولازم سعة الرحمة وهي عموم الإعطاء أن له أن يعطي ما يشاء لمن يشاء ويمنع ما يشاء ممن يشاء وهذا معنى العزة التي هي القدرة على الإعطاء والمنع، ولازم سعة العلم لكل شيء أن ينفذ العلم في جميع أقطار الفعل فلا يداخل الجهل شيئا منها ولازمه إتقان

الفعل وهو الحكمة.

ب. فقوله: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ في معنى الاستشفاع بسعة رحمته وسعة علمه تعالى المذكورتين في مفتتح المسألة تمهيدا وتوطئة لذكر الحاجة وهي المغفرة والجنة.

١٠. ﴿وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ﴾:

أ. ظاهر السياق أن الضمير في ﴿قِهِمُ﴾ للذين تابوا ومن صلح جميعا.

ب. والمراد بالسيئات، على ما قيل، تبعات المعاصي وهي جزاؤها وسميت التبعات سيئات لأن جزاء السيئ سيئ قال تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠]

ج. وقيل: المراد بالسيئات المعاصي والذنوب نفسها والكلام على تقدير مضاف والتقدير وقهم جزاء السيئات أو عذاب السيئات.

د. والظاهر أن الآية من الآيات الدالة على أن الجزاء بنفس الأعمال خيرها وشرها، وقد تكرر في كلامه تعالى أمثال قوله: ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التحريم: ٧]

هـ. وكيف كان فالمراد بالسيئات التي سألوا وقايتهم عنها هي الأهوال والشدائد التي تواجههم يوم القيامة غير عذاب الجحيم فلا تكرار في قوليهم: ﴿وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ ﴿وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ﴾

و. وقيل: المراد بالسيئات نفس المعاصي التي في الدنيا، وقولهم: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ إشارة إلى الدنيا، والمعنى واحفظهم من اقتراف المعاصي وارتكابها في الدنيا بتوفيقك.

• وفيه أن السياق يؤيد كون المراد بيومئذ يوم القيامة كما يشهد به قولهم: ﴿وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ وقولهم: ﴿وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾ فالحق أن المراد بالسيئات ما يظهر للناس يوم القيامة من الأهوال والشدائد.

١١. ويظهر من هذه الآيات المشتملة على دعاء الملائكة ومسألتهم:

أ. أولا: أن من الأدب في الدعاء أن يبدأ بحمده والثناء عليه تعالى ثم يذكر الحاجة ثم يستشفع بأسمائه الحسنى المناسبة له.

ب. وثانيا: أن سؤال المغفرة قبل سؤال الجنة وقد كثر ذكر المغفرة قبل الجنة في كلامه تعالى إذا ذكرا معا، وهو الموافق للاعتبار فإن حصول استعداد أي نعمة كانت بزوال المانع قبل حصول نفس النعمة.

١٢. وذكر بعضهم أن في قوله: ﴿فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تابُوا﴾ الآية دلالة على أن إسقاط العقاب عند التوبة تفضل من الله تعالى إذ لو كان واجبا لكان لا يحتاج فيه إلى مسألتهم بل كان يفعله الله سبحانه لا محالة.

أ. وفيه أن وجوب صدور الفعل عنه تعالى لا ينافي صحة مسألته وطلبه منه تعالى كما يشهد به قولهم بعد الاستغفار: ﴿رَبَّنا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ﴾ فقد سألوا لهم الجنة مع اعترافهم بأن الله وعدهم إياها ووعده تعالى واجب الإنجاز فإنه لا يخلف الميعاد، وأصرح من هذه الآية قوله يحكي عن المؤمنين: ﴿رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ١٩٤]

ب. وقبول التوبة مما أوجبه الله تعالى على نفسه وجعله حقا للتائبين عليه قال تعالى: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللهُ عَلَيْهِمْ﴾ [النساء: ١٧] فطلب كل حق أوجبه الله تعالى على نفسه منه كسؤال المغفرة للتائب هو في الحقيقة رجوع إليه لاستنجاز ما وعده وإظهار اشتياق للفوز بكرامته.

ج. وكذا لا يستلزم التفضل منه تعالى كون الفعل جائز الصدور غير واجبة فكل عطية من عطاياه تفضل سواء كانت واجبة الصدور أم لم تكن إذ لو كان فعل من أفعاله واجب الصدور عنه لم يكن إيجابه عليه بتأثير من غيره فيه وقهره عليه إذ هو المؤثر في كل شيء لا يؤثر فيه غيره بل كان ذلك بإيجاب منه تعالى على نفسه ويؤول معناه إلى قضائه تعالى فعل شيء من الأفعال وإفاضة عطية من العطايا قضاء حتم فيكون سبحانه إنما يفعله بمشية من نفسه منزها عن إلزام الغير إياه عليه متفضلا به فالفعل تفضل منه وإن كان واجب الصدور، وأما لو لم يكن الفعل واجب الصدور فكونه تفضلا أوضح.

٤. مقت الله للكافرين:

المقطع [٤] من سورة غافر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ﴾ [غافر: ١٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ٣١٢»:

١. ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنادَوْنَ لَمَقْتُ اللهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمانِ فَتَكْفُرُونَ﴾:

أ. المقت أشد البغض، لما ذكر المؤمنين ببعض ما لهم من جهة إيمانهم رجع إلى ذكر الكافرين ببعض

ما عليهم من جهة كفرهم.

ب. وظاهر الآية والآية التالية أن هذا النداء المذكور فيها إنما ينادون به في الآخرة بعد دخول النار حين يذوقون العذاب لكفرهم فيظهر لهم أن كفرهم في الدنيا إذ كانوا يدعون من قبل الأنبياء إلى الإيمان كان مقتا وشدة بغض منهم لأنفسهم حيث أوردوها بذلك مورد الهلاك الدائم.

ج. وينادون من جانب الله سبحانه فيقال لهم: أقسم لمقت الله وشدة بغضه لكم أكبر من مقتكم أنفسكم وشدة بغضكم لها إذ تدعون، حكاية حال ماضية، إلى الإيمان من قبل الأنبياء فتكفرون.

٥. اعتراف الكفار وطلبهم الخروج من النار:

المقطع [٥] من سورة غافر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ للهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾ [غافر: ١١-١٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ٣١٢»:

١. ﴿قالُوا رَبَّنا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنا بِذُنُوبِنا فَهَلْ إِلى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ﴾:

أ. سياق الآية وما قبلها يشعر بأنهم يقولون هذا القول بعد استماع النداء السابق، وإنما يقولونه وهم في النار بدليل قولهم: ﴿فَهَلْ إِلى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ﴾

ب. وتقديم هذا الاعتراف منهم نوع تسبيب وتوسل إلى التخلص من العذاب ولات حين مناص، وذلك أنهم كانوا، وهم في الدنيا، في ريب من البعث والرجوع إلى الله فأنكروه ونسوا يوم الحساب وكان نسيان ذلك سبب استرسالهم في الذنوب وذهابهم لوجوههم في المعاصي ونسيان يوم الحساب مفتاح كل معصية وضلال قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ بِما نَسُوا يَوْمَ الْحِسابِ﴾، ص:.

ج. ثم لما أماتهم الله إماتة بعد إماتة وأحياهم إحياءة بعد إحياءة زال ارتيابهم في أمر البعث والرجوع إلى الله بما عاينوا من البقاء بعد الموت والحياة بعد الحياة وقد كانوا يرون أن الموت فناء، ويقولون إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين.

د. وبالجملة زال عنهم الارتياب بحصول اليقين وبقيت الذنوب والمعاصي ولذلك توسلوا إلى التخلص من العذاب بالاعتراف فتارة اعترفوا بحصول اليقين كما حكاه الله عنهم في قوله: ﴿وَلَوْ تَرى إِذِ

الْمُجْرِمُونَ ناكِسُوا رُؤُسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنا أَبْصَرْنا وَسَمِعْنا فَارْجِعْنا نَعْمَلْ صالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ الم السجدة:، وتارة اعترفوا بذنوبهم كما في الآية المبحوث عنها وقد كانوا يرون أنهم أحرار مستقلون في إرادتهم وأفعالهم لهم أن يشاءوا ما شاءوا وأن يفعلوا ما فعلوا ولا حساب ولا ذنب.

هـ. ومن ذلك يظهر وجه ترتب قولهم: ﴿فَاعْتَرَفْنا بِذُنُوبِنا﴾ على قولهم: ﴿أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ﴾ فالاعتراف في الحقيقة مترتب على حصول اليقين بالمعاد الموجب لحصول العلم بكون انحرافاتهم عن سبيل الله ضلالات وذنوبا.

و. والمراد بقولهم: ﴿أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ﴾، كما قيل، الإماتة عن الحياة الدنيا والإحياء للبرزخ ثم الإماتة عن البرزخ والإحياء للحساب يوم القيامة فالآية تشير إلى الإماتة بعد الحياة الدنيا والإماتة بعد الحياة البرزخية وإلى الإحياء في البرزخ والإحياء ليوم القيامة ولو لا الحياة البرزخية لم تتحقق الإماتة الثانية لأن كلا من الإماتة والإحياء يتوقف تحققه على سبق خلافه.

ز. ولم يتعرضوا للحياة الدنيا ولم يقولوا: وأحييتنا ثلاثا وإن كانت إحياء لكونها واقعة بعد الموت الذي هو حال عدم ولوج الروح لأن مرادهم ذكر الإحياء الذي هو سبب الإيقان بالمعاد وهو الإحياء في البرزخ ثم في القيامة وأما الحياة الدنيوية فإنها وإن كانت إحياء لكنها لا توجب بنفسها يقينا بالمعاد فقد كانوا مرتابين في المعاد وهم أحياء في الدنيا.

٢. وبما تقدم من البيان:

أ. يظهر فساد ما اعترض عليه بأنه لو كان المراد بالإحياءتين ما كان في البرزخ وفي الآخرة لكان من الواجب أن يقال: (أمتنا اثنتين وأحييتنا ثلاثا) إذ ليس المراد إلا ذكر ما مر عليهم من الإماتة والإحياءة وذلك إماتتان اثنتان وإحياءات ثلاث.

• والجواب أنه ليس المراد هو مجرد ذكر الإماتة والإحياء اللتين مرتا عليهم كيفما كانتا بل ذكر ما كان منهما مورثا لليقين بالمعاد، وليس الإحياء الدنيوي على هذه الصفة.

ب. وقيل: المراد بالإماتة الأولى حال النطفة قبل ولوج الروح، وبالإحياءة الأولى ما هو حال الإنسان بعد ولوجها، وبالإماتة الثانية إماتته في الدنيا، وبالإحياءة الثانية إحياءته بالبعث للحساب يوم القيامة، والآية منطبقة على ما في قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ وَكُنْتُمْ أَمْواتًا فَأَحْياكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ

يُحْيِيكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨]

• ولما أحسوا بعدم صدق الإماتة على حال الإنسان قبل ولوج الروح في جسده لتوقفها على سبق الحياة تمحلوا في تصحيحه تمحلات عجيبة من أراد الوقوف عليها فليراجع الكشاف، وشروحه.

• على أنك قد عرفت أن ذكرهم ما مر عليهم من الإماتة والإحياءة إشارة إلى أسباب حصول يقينهم بالمعاد والحياة الدنيا والموت الذي قبلها لا أثر لهما في ذلك.

ج. وقيل: إن الحياة الأولى في الدنيا والثانية في القبر، والموتة الأولى في الدنيا والثانية في القبر ولا تعرض في الآية لحياة يوم البعث.

• ويرد عليه ما تقدم أن الحياة الدنيا لا تعلق لها بالغرض فلا موجب للتعرض لها، والحياة يوم القيامة بالخلاف من ذلك.

د. وقيل: المراد بالإحياءتين إحياء البعث والإحياء الذي قبله وإحياء البعث قسمان إحياء في القبر وإحياء عند البعث ولم يتعرض لهذا التقسيم في الآية فتشمل الآية الإحياءات الثلاث والإماتتين جميعا.

• ويرد عليه ما يرد على الوجهين السابقين عليه مضافا إلى ما أورد عليه أن ذكر الإماتة الثانية التي في القبر دليل على أن التقسيم ملحوظ والمراد التعدد الشخصي لا النوعي.

هـ. وقيل: المراد إحياء النفوس في عالم الذر ثم الإماتة ثم الإحياء في الدنيا ثم الإماتة ثم الإحياء للبعث.

• ويرد عليه ما يرد على سوابقه.

و. وقيل: المراد بالتثنية التكرار كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾، والمعنى أمتنا إماتة وأحييتنا إحياءة بعد إحياءة.

• وأورد عليه أنه إنما يتم لو كان القول: أمتنا إماتتين وأحييتنا إحياءتين أو كرتين مثلا لكن المقول نفس العدد وهو لا يحتمل ذلك كما قيل في قوله: ﴿إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ [النحل: ٥١]

٣. وقولهم: ﴿فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ﴾ دعاء ومسألة في صورة الاستفهام، وفي تنكير الخروج والسبيل إشارة إلى رضاهم بأي نوع من الخروج كان من أي سبيل كانت فقد بلغ بهم الجهد واليوم يوم تقطعت بهم الأسباب فلا سبب يرجى أثره في تخلصهم من العذاب.

٤. ﴿ذلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذا دُعِيَ اللهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا﴾:

أ. خطاب تشديد للكفار موطنه يوم القيامة، ويحتمل أن يكون موطنه الدنيا خوطبوا بداعي زجرهم عن الشرك.

ب. والإشارة بقوله: ﴿ذلِكُمْ﴾ إلى ما هم فيه من الشدة، وفي قوله: ﴿وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ﴾ دلالة على الاستمرار، والكلام مسوق لبيان معاندتهم للحق ومعاداتهم لتوحيده تعالى فهم يكفرون بكل ما يلوح فيه أثر التوحيد ويؤمنون بكل ما فيه سمة الشرك فهم لا يراعون لله حقا ولا يحترمون له جانبا فالله سبحانه يحرم عليهم رحمته ولا يراعي في حكمه لهم جانبا.

ج. وبهذا المعنى يتصل قوله: ﴿فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾ بأول الآية ويتفرع عليه كأنه قيل: فإذا قطعتم عن الله بالمرة وكفرتم بكل ما يريده وآمنتم بكل ما يكرهه فهو يقطع عنكم ويحكم فيكم بما يحكم من غير أي رعاية لحالكم.

د. فالآية في معنى قوله: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧]، والجملة أعني قوله: ﴿فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾ خاصة بحسب السياق وإن كانت عامة في نفسها، وفيها تهديد ويتأكد التهديد باختتامها بالاسمين العلي الكبير.

٦. آيات الله وإنزال الرزق:

المقطع [٦] من سورة غافر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ﴾ [غافر: ١٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ٣١٦»:

١. ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آياتِهِ﴾:

أ. المراد بالآيات هي العلائم والحجج الدالة على وحدانيته تعالى في الربوبية والألوهية بدليل ما سيجيء من تفريع قوله: ﴿فَادْعُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ عليه، والآيات مطلقة شاملة للآيات الكونية المشهودة في العالم لكل إنسان صحيح الإدراك والآيات التي تجري على أيدي الرسل والحجج القائمة من طريق الوحي.

ب. والجملة مشتملة على حجة فإنه لو كان هناك إله تجب عبادته على الإنسان وكانت عبادته كمالا للإنسان وسعادة له كان من الواجب في تمام التدبير وكامل العناية أن يهدي الإنسان إليه، والذي تدل

الآيات الكونية على ربوبيته وألوهيته ويؤيد دلالتها الرسل والأنبياء بالدعوة والإتيان بالآيات هو الله سبحانه، وأما آلهتهم الذين يدعونهم من دون الله فلا آية من قبلهم تدل على شيء فالله سبحانه هو الإله وحده لا شريك له، وإلى هذه الحجة يشير علي عليه السلام بقوله فيما روي عنه: (لو كان لربك شريك لأتتك رسله)

٢. ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّماءِ رِزْقاً﴾:

أ. حجة أخرى على وحدانيته تعالى من جهة الرزق فإن رزق العباد من شئون الربوبية والألوهية والرزق من الله دون شركائهم فهو الرب الإله دونهم.

ب. وقد فسروا الرزق بالمطر والسماء بجهة العلو، ولا يبعد أن يراد بالرزق نفس الأشياء التي يرتزق بها وبنزولها من السماء بروزها من الغيب إلى الشهادة على ما يفيده قوله: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ [الحجر: ٢١]

٣. ﴿وَما يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ﴾ معترضة تبين أن حصول التذكر بهذه الحجج إنما هو شأن إحدى الطائفتين المذكورتين من قبل وهم المنيبون الراجعون إلى ربهم دون المجادلين الكافرين فإن الكفر والجحود يبطل استعداد التذكر بالحجة والاتباع للحق.

٧. الإخلاص والدرجات والعرش ويوم التلاق:

المقطع [٧] من سورة غافر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَادْعُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ للهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [غافر: ١٤ـ١٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ٣١٧»:

١. ﴿فَادْعُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكافِرُونَ﴾:

أ. الأنسب للسياق أن يكون الخطاب عاما للمؤمنين وغيرهم متفرعا على الحجة السابقة غير أنه لا يشمل الكافرين المذكورين في آخر الآية وهم المكذبون المجادلون بالباطل.

ب. كأنه قيل: إذا كانت الآيات تدل على وحدانيته تعالى وهو الرازق فعلى غير الكافرين الذين كذبوا وجادلوا أن يدعوا الله مخلصين له الدين، وأما الكافرون الكارهون للتوحيد فلا مطمع فيهم ولا آية

تفيدهم ولا حجة تقنعهم فاعبدوه بالإخلاص ودعوا الكافرين يكرهون ذلك.

٢. ﴿رَفِيعُ الدَّرَجاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ﴾:

أ. صفات ثلاث له تعالى وكل منها خبر بعد خبر للضمير في قوله: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آياتِهِ﴾ والآية وما بعدها مسوقة للإنذار.

ب. وقد أورد لقوله: ﴿رَفِيعُ الدَّرَجاتِ﴾ تفاسير شتى:

- فقيل: معناه رافع درجات الأنبياء والأولياء في الجنة.
- وقيل: رافع السماوات السبع التي منها تصعد الملائكة إلى عرشه.
- وقيل: رفيع مصاعد عرشه.
- وقيل: كناية عن رفعة شأنه وسلطانه.

ج. والذي يعطيه التدبر:

- أن الآية وما بعدها يصفان ملكه تعالى على خلقه أن له عرشا تجتمع فيه أزمة أمور الخلق ويتنزل منه الأمر متعاليا بدرجات رفيعة هي مراتب خلقه ولعلها السماوات التي وصفها في كلامه بأنها مساكن ملائكته وأن أمره يتنزل بينهن وهي التي تحجب عرشه عن الناس.
- ثم إن له يوما هو يوم التلاق يرفع فيه الحجاب ما بينه وبين الناس بكشف الغطاء عن بصائرهم وطي السماوات بيمينه وإظهار عرشه لهم فينكشف لهم أنه هو المليك على كل شيء لا ملك إلا ملكه فيحكم بينهم.
- فالمراد بالدرجات الدرجات التي يرتقى منها إلى عرشه ويعود قوله: ﴿رَفِيعُ الدَّرَجاتِ ذُو الْعَرْشِ﴾ كناية استعارية عن تعالي عرش ملكه عن مستوى الخلق وغيبته واحتجابه عنهم قبل يوم القيامة بدرجات رفيعة ومراحل بعيدة.

٣. ﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ﴾:

أ. إشارة إلى أمر الرسالة التي من شأنها الإنذار، وتقييد الروح بقوله: ﴿مِنْ أَمْرِهِ﴾ دليل على أن المراد بها الروح التي ذكرها في قوله: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: ٨٥]، وهي التي تصاحب ملائكة الوحي كما يشير إليه قوله: ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا﴾ [النحل:

[٢

ب. فالمراد بإلقاء الروح على من يشاء تنزيلها مع ملائكة الوحي عليه، والمراد بقوله: ﴿مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ﴾ الرسل الذين اصطفاهم الله لرسالته، وفي معنى الروح الملقاة على النبي أقوال أخر لا يعبأ بها.

٤. ﴿لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلاقِ﴾:

أ. وهو يوم القيامة سمي به لالتقاء الخلائق فيه أو لالتقاء الخالق والمخلوق أو لالتقاء أهل السماء والأرض أو لالتقاء الظالم والمظلوم أو لالتقاء المرء وعمله ولكل من هذه الوجوه قائل.

ب. ويمكن أن يتأيد القول الثاني بما تكرر في كلامه تعالى من حديث اللقاء كقوله: ﴿بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ﴾ [الروم: ٨]، وقوله: ﴿إِنَّهُمْ مُلاقُوا رَبِّهِمْ﴾:، وقوله: ﴿يا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾ [الانشقاق: ٦] ومعنى اللقاء تقطع الأسباب الشاغلة وظهور أن الله هو الحق المبين وبروزهم لله.

٥. ﴿يَوْمَ هُمْ بارِزُونَ لا يَخْفى عَلَى اللهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾:

أ. تفسير ليوم التلاق، ومعنى بروزهم لله ظهور ذلك لهم وارتفاع الأسباب الوهمية التي كانت تجذبهم إلى نفسها وتحجبهم عن ربهم وتغفلهم عن إحاطة ملكه وتفرده في الحكم وتوحده في الربوبية والألوهية.

ب. فقوله: ﴿يَوْمَ هُمْ بارِزُونَ﴾ إشارة إلى ارتفاع كل سبب حاجب، وقوله: ﴿لا يَخْفى عَلَى اللهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾ تفسير لمعنى بروزهم لله وتوضيح فقلوبهم وأعمالهم بعين الله وظاهرهم وباطنهم وما ذكروه وما نسوه مكشوفة غير مستورة.

٦. ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ للهِ الْواحِدِ الْقَهَّارِ﴾:

أ. سؤال وجواب من ناحيته سبحانه تبين بهما حقيقة اليوم وهي ظهور ملكه وسلطانه تعالى على الخلق على الإطلاق.

ب. وفي توصيفه تعالى بالواحد القهار تعليل لانحصار الملك فيه لأنه إذ قهر كل شيء ملكه وتسلط عليه بسلب الاستقلال عنه وهو واحد فله الملك وحده.

٧. ﴿الْيَوْمَ تُجْزى كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ لا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسابِ﴾ الباء في ﴿بِما كَسَبَتْ﴾

للصلة والمراد بيان خصيصة اليوم وهي أن كل نفس تجزى عين ما كسبت فجزاؤها عملها، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التحريم: ٧]

٨. ﴿إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسابِ﴾:

أ. تعليل لنفي الظلم في قوله: ﴿لا ظُلْمَ الْيَوْمَ﴾ أي إنه تعالى سريع في المحاسبة لا يشغله حساب نفس عن حساب أخرى حتى يخطئ فيجزي نفسا غير جزائها فيظلمها.

ب. وهذا التعليل ناظر إلى نفي الظلم الناشئ عن الخطإ وأما الظلم عن عمد وعلم فانتفاؤه مفروغ عنه لأن الجزاء لما كان بنفس العمل لم يتصور معه ظلم.

٩. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي في قوله تعالى: ﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ﴾ قال: روح القدس، وهو خاص برسول الله والأئمة ﷺ.

ب. وفي المعاني، بإسناده عن حفص بن غياث عن أبي عبد الله عليه السلام قال: يوم التلاق يوم يلتقي أهل السماء وأهل الأرض.

• أقول: ورواه القمي في تفسيره، مضمرا مرسلا.

ج. وفي التوحيد، بإسناده عن ابن فضال عن الرضا عن آبائه عن علي عليه السلام في حديث قال: ويقول الله عز وجل: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾ ثم ينطق أرواح أنبيائه ورسله وحججه فيقولون (﴿للهِ الْواحِدِ الْقَهَّارِ﴾ ثم يقول الله جل جلاله: ﴿الْيَوْمَ تُجْزى كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ﴾ الآية.

د. وفي نهج البلاغة: وأنه سبحانه يعود بعد فناء الدنيا وحده لا شيء معه، كما كان قبل ابتدائها كذلك يكون بعد فنائها، بلا وقت ولا زمان ولا حين ولا مكان، عدمت عند ذلك الآجال والأوقات، وزالت السنون والساعات، فلا شيء إلا الله الواحد القهار، الذي إليه مصير جميع الأمور، بلا قدرة منها كان ابتداء خلقها، وبغير امتناع منها كان فناؤها، ولو قدرت على الامتناع لدام بقاؤها وفي تفسير القمي، بإسناده عن ثوير بن أبي فاختة عن علي بن الحسين عليه السلام قال: سئل عن النفختين كم بينهما؟ قال: ما شاء.، ثم ذكر عليه السلام كيفية النفخ وموت أهل الأرض والسماء، إلى أن قال، فيمكثون في ذلك ما شاء الله، ثم يأمر السماء فتمور ويأمر الجبال فتسير، وهو قوله: ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّماءُ مَوْراً وَتَسِيرُ الْجِبالُ سَيْراً﴾

يعني يبسط و﴿تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ﴾، يعني بأرض لم تكسب عليها الذنوب، بارزة ليس عليها جبال ولا نبات كما دحاها أول مرة، ويعيد عرشه على الماء كما كان أول مرة، مستقلا بعظمته وقدرته، قال: فعند ذلك ينادي الجبار جل جلاله، بصوت من قبله جهوري، يسمع أقطار السماوات والأرضين ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾ فلم يجبه مجيب، فعند ذلك يقول الجبار عز وجل مجيبا لنفسه ﴿للهِ الْواحِدِ الْقَهَّارِ﴾ الحديث.

• أقول: التدبر في الروايات الثلاث الأخيرة يهدي إلى أن الذي يفنى من الخلق استقلال وجودها والنسب وروابط التأثير التي بينها كما تفيده الآيات القرآنية وأن الأرواح لا تموت، وأن لا وقت بين النفختين فلا تغفل، وفي الروايات لطائف من الإشارات تظهر للمتدبر، وفيها ما يخالف بظاهره ما تقدم.

٨. يوم الآزفة والظالمون:

المقطع [٨] من سورة غافر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٨-١٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ٣١٩»:

١. ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَناجِرِ كاظِمِينَ﴾، الآزفة من أوصاف القيامة ومعناها القريبة الدانية قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا وَنَرَاهُ قَرِيبًا﴾ [المعارج: ٦-٧]

٢. ﴿إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَناجِرِ كاظِمِينَ﴾ الحناجر جمع حنجرة وهي رأس الغلصمة من خارج وكون القلوب لدى الحناجر كناية عن غاية الخوف كأنها تزول عن مقرها وتبلغ الحناجر من شدة الخوف، وكاظمين من الكظم وهو شدة الاغتمام.

٣. ﴿ما لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلا شَفِيعٍ يُطاعُ﴾ الحميم القريب أي ليس لهم قريب يقوم بنصرهم بحمية القرابة قال تعالى: ﴿فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ﴾ [المؤمنون: ١٠١]، ولا شفيع يطاع في شفاعته.

٤. ﴿يَعْلَمُ خائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَما تُخْفِي الصُّدُورُ﴾:

أ. قيل: الخائنة مصدر كالخيانة نظيرة الكاذبة واللاغية بمعنى الكذب واللغو، وليس المراد بخائنة الأعين كل معصية من معاصيها بل المعاصي التي لا تظهر للغير كسارقة النظر بدليل ذكرها مع ما تخفي الصدور.

ب. وقيل: ﴿خائِنَةَ الْأَعْيُنِ﴾ من قبيل إضافة الصفة إلى الموصوف، ولازمه كون العلم بمعنى

المعرفة والمعنى يعرف الأعين الخائنة، والوجه هو الأول.

٥. ﴿وَما تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ وهو ما تسره النفس وتستره من وجوه الكفر والنفاق وهيئات المعاصي.

٦. أحاديث وآثار:

أ. في روضة الكافي، بإسناده عن ابن أبي عمير عن موسى بن جعفر عليه السلام في حديث قال: يا أبا أحمد ما من مؤمن يرتكب ذنبا، إلا أساءه ذلك وندم عليه، وقد قال النبي ﷺ: (كفى بالندم توبة) وقال: (من سرته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن) فإن لم يندم على ذنب يرتكبه فليس بمؤمن، ولم تجب له شفاعة وكان ظالما والله تعالى يقول: ﴿ما لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلا شَفِيعٍ يُطاعُ﴾

ب. وفي المعاني، بإسناده إلى عبد الرحمن بن سلمة الحريري قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عز وجل: ﴿يَعْلَمُ خائِنَةَ الْأَعْيُنِ﴾ فقال: ألم تر إلى الرجل ينظر إلى الشيء وكأنه لا ينظر، فذلك خائنة الأعين.

ج. أخرج أبو داود والنسائي وابن مردويه عن سعد قال: لما كان يوم فتح مكة أمن رسول الله ﷺ الناس، إلا أربعة نفر وامرأتين، وقال: اقتلوهم وإن وجدتموهم متعلقين بأستار الكعبة، منهم عبد الله بن سعد بن أبي سرح، فاختبأ عند عثمان بن عفان، فلما دعا رسول الله ﷺ الناس إلى البيعة جاء به فقال: يا رسول الله بايع عبد الله، فنظر إليه ثلاثا كل ذلك يأبى أن يبايعه، ثم بايعه ثم أقبل على أصحابه فقال: أما كان فيكم رجل رشيد يقوم إلى هذا إلى حين رآني، كففت يدي عن بيعته فيقتله؟ فقالوا: ما يدرينا يا رسول الله ما في نفسك، هلا أومأت إلينا بعينك، قال: إنه لا ينبغي لنبي أن يكون له خائنة الأعين.

٩. الله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء:

المقطع [٩] من سورة غافر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَاللهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [غافر: ٢٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ٣٢٠»:

١. ﴿وَاللهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ﴾:

أ. هذه حجة أخرى على توحده تعالى بالألوهية أقامها بعد ما ذكر حديث انحصار الملك فيه يوم القيامة وعلمه بخائنة الأعين وما تخفي الصدور تمهيدا وتوطئة.

ب. ومحصلها أن من اللازم الضروري في الألوهية أن يقضي الإله في عباده وبينهم والله سبحانه

هو يقضي بين الخلق وفيهم يوم القيامة والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء لأنهم عباد مملوكون لا يملكون شيئا.

ج. ومن قضائه تعالى:

• تدبيره جزئيات أمور عباده بالخلق بعد الخلق فإنه مصداق القضاء والحكم قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، وقال: ﴿إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [مريم: ٣٥]، ولا نصيب لغيره تعالى في الخلق فلا نصيب له في القضاء.

• ومن قضائه تعالى تشريع الدين وارتضاؤه سبيلا لنفسه قال تعالى: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ الآية: الإسراء:.

٢. ﴿إِنَّ اللهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ أي له حقيقة العلم بالمسموعات والمبصرات لذاته، وليس لغيره من ذلك إلا ما ملكه الله وأذن فيه لا لذاته.

١٠. السير في الأرض والنظر في عاقبة المكذبين:

المقطع [١٠] من سورة غافر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللهِ مِنْ وَاقٍ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [غافر: ٢١-٢٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ٣٢٦»:

١. ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا﴾:

أ. الاستفهام إنكاري، والواقي اسم فاعل من الوقاية بمعنى حفظ الشيء مما يؤذيه ويضره.

ب. والمعنى: أولم يسيروا هؤلاء الذين أرسلناك إليهم ﴿فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا﴾ نظر تفكر واعتبار ﴿كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ كانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ من الأمم الدارجة المكذبين لرسلهم ﴿كانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ أي قدرة وتمكنا وسلطة ﴿وَآثاراً﴾ كالمدائن الحصينة والقلاع المنيعة والقصور العالية المشيدة ﴿فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ وأهلكهم بأعمالهم ﴿وَما كانَ لَهُمْ مِنَ اللهِ مِنْ واقٍ﴾ يقيهم وحافظ يحفظهم.

٢. ﴿ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ﴾ الإشارة بذلك إلى الأخذ الإلهي، والمراد بالبينات الآيات الواضحات، والباقي ظاهر.

١١. إرسال موسى بآياته إلى فرعون وهامان وقارون:

المقطع [١١] من سورة غافر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ [غافر: ٢٣-٢٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ٣٢٧»:

١. ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنا مُوسى بِآياتِنا وَسُلْطانٍ مُبِينٍ﴾ لعل المراد بالآيات الخوارق المعجزة التي أرسل بها كالعصا واليد وغيرهما وبالسلطان المبين السلطة الإلهية القاهرة التي أيد بها فمنعت فرعون أن يقتله ويطفئ نوره، وقيل: المراد بالآيات الحجج والدلالات وبالسلطان معجزاته من العصا واليد وغيرهما، وقيل: غير ذلك.

٢. ﴿إِلى فِرْعَوْنَ وَهامانَ وَقارُونَ فَقالُوا ساحِرٌ كَذَّابٌ﴾ فرعون جبار القبط ومليكهم، وهامان وزيره وقارون من طغاة بني إسرائيل ذو الخزائن المليئة؟ وإنما اختص الثلاثة من بين الأمتين بالذكر لكونهم أصولا ينتهي إليهم كل فساد وفتنة فيهما.

٣. ﴿فَلَمَّا جاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنا قالُوا اقْتُلُوا أَبْناءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾:

أ. مقايسة بين ما جاءهم به موسى ودعاهم إليه وبين ما قابلوه به من كيدهم فقد جاءهم بالحق وكان من الواجب أن يقبلوه لأنه حق وكان ما جاء به من عند الله وكان من الواجب أن يقبلوه ولا يردوه فقابلوه بالكيد وقالوا ما قالوا لئلا يؤمن به أحد لكن الله أضل كيدهم فلم يصب المؤمنين معه.

ب. ويشعر السياق أن من القائلين بهذا القول قارون وهو من بني إسرائيل ولا ضير فيه لأن الحكم بقتل الأبناء واستحياء النساء كان قبل الدعوة صادرا في حق بني إسرائيل عامة وهذا الحكم في حق المؤمنين منهم خاصة فلعل قارون وافقهم عليه لعداوته وبغضه موسى والمؤمنين من قومه.

ج. وفي قوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ ولم يقل: آمنوا به إشارة إلى مظاهرتهم موسى في دعوته.

١٢. فرعون يطلب قتل موسى خوفاً من تبديل الدين أو إفساد الأرض:

المقطع [١٢] من سورة غافر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ [غافر: ٢٦]، وفيه المسائل التالية

«الميزان: ١٧/ ٣٢٧»:

١. ﴿وَقالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ﴾ ﴿ذَرُونِي﴾ أي اتركوني، خطاب يخاطب به ملأه، وفيه دلالة على أنه كان هناك قوم يشيرون عليه أن لا يقتل موسى ويكف عنه كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ [الشعراء: ٣٦]

٢. ﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُ﴾ كلمة قالها كبرا وعتوا يقول: اتركوني أقتله وليدع ربه فلينجه من يدي وليخلصه من القتل إن قدر.

٣. ﴿إِنِّي أَخافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسادَ﴾ تعليل لما عزم عليه من القتل وقد ذكر أنه يخافه عليهم من جهة دينهم ومن جهة دنياهم، أما من جهة دينهم، وهو عبادة الأصنام، فأن يبدله ويضع موضعه عبادة الله وحده، وأما من جهة دنياهم فكأن يعظم أمره ويتقوى جانبه ويكثر متبعوه فيتظاهروا بالتمرد والمخالفة فيئول الأمر إلى المشاجرة والقتال وانسلاب الأمن.

١٣. استعاذة موسى بربه من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب:

المقطع [١٣] من سورة غافر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ [غافر: ٢٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ٣٢٨»:

١. ﴿وَقالَ مُوسى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسابِ﴾:

أ. مقابلة منه عليه السلام لتهديد فرعون إياه بالقتل واستعاذة منه بربه، وقوله: ﴿عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾ فيه مقابلة منه أيضا لفرعون في قوله: ﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُ﴾ حيث خص ربوبيته تعالى بموسى فأشار موسى بقوله: ﴿عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾ إلى أنه تعالى ربهم كما هو ربه نافذ حكمه فيهم كما هو نافذ فيه فله أن يقي عائذه من شرهم وقد وقى.

ب. ومن هنا يظهر أن الخطاب في قوله: ﴿وَرَبِّكُمْ﴾ لفرعون ومن معه دون قومه من بني إسرائيل.

٢. ﴿مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسابِ﴾ يشير به إلى فرعون وكل من يشاركه في صفتي التكبر وعدم الإيمان بيوم الحساب ولا يؤمن ممن اجتمعت فيه الصفتان شر أصلا.

١٤. دفاع مؤمن آل فرعون عن موسى:

المقطع [١٤] من سورة غافر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ

يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللهِ إِنْ جَاءَنَا﴾ [غافر: ٢٨-٢٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ٣٢٨»:

١. ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ﴾:

أ. ظاهر السياق أن ﴿مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ صفة رجل و﴿يَكْتُمُ إِيمَانَهُ﴾ صفة أخرى فكان الرجل من القبط من خاصة فرعون وهم لا يعلمون بإيمانه لكتمانه إياهم ذلك تقية.

ب. وقيل: قوله: ﴿مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ مفعول ثان لقوله: ﴿يَكْتُمُ﴾ قدم عليه، والغالب فيه وإن كان التعدي إلى المفعول الثاني بنفسه كما في قوله: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللهَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٤٢] لكنه قد يتعدى إليه بمن كما صرح به في المصباح.

• وفيه أن السياق يأباه فلا نكتة ظاهرة تقتضي تقدم المفعول الثاني على الفعل من حصر ونحوه، على أن الرجل يكرر نداء فرعون وقومه بلفظة ﴿يا قَوْمِ﴾ ولو لم يكن منهم لم يكن له ذلك.

٢. ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللهُ وَقَدْ جاءَكُمْ بِالْبَيِّناتِ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ إنكار لعزمهم على قتله، وفي قوله: ﴿مِنْ رَبِّكُمْ﴾ دليل على أن في البينات التي جاء بها دلالة على أن الله ربهم أيضا كما اتخذه ربا فقتله قتل رجل جاء بالحق من ربهم.

٣. ﴿وَإِنْ يَكُ كاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ﴾ قيل: إن ذكره هذا التقدير تلطف منه لا أنه كان شاكا في صدقه.

٤. ﴿وَإِنْ يَكُ صادِقاً يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ﴾ فيه تنزل في المخاصمة بالاكتفاء على أيسر التقادير وأقلها كأنه يقول: وإن يك صادقا يصبكم ما وعدكم من أنواع العذاب ولا أقل من إصابة بعض ما يعدكم مع أن لازم صدقه إصابة جميع ما وعد.

٥. ﴿إِنَّ اللهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾:

أ. تعليل للتقدير الثاني فقط والمعنى إن يك كاذبا كفاه كذبه وإن يك صادقا يصبكم بعض الذي يعدكم لأنكم حينئذ مسرفون متعدون طوركم كذابون في نفي ربوبية ربكم واتخاذ أرباب من دونه والله لا يهدي من هو مسرف كذاب، وأما على تقدير كذبه فلا ربوبية لمن اتخذه ربا حتى يهديه أو لا يهديه.

ب. ومن هنا يظهر أن ما ذكره بعضهم من كون الجملة تعليلا للتقديرين جميعا متعلقة بكلتا الجملتين غير مستقيم.

٦. ﴿يا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنا مِنْ بَأْسِ اللهِ إِنْ جاءَنا﴾:

أ. ظهورهم غلبتهم وعلوهم في الأرض، والأرض أرض مصر، وبأس الله أخذه وعذابه والاستفهام للإنكار.

ب. والمعنى: يا قوم لكم الملك حال كونهم غالبين عالين في أرض مصر على من دونكم من بني إسرائيل فمن ينصرنا من أخذ الله وعذابه كما يعدنا به موسى إن جاءنا؟ وقد أدخل نفسه فيهم على تقدير مجيء البأس ليكون أبلغ في النصح وأوقع في قلوبهم أنه يريد لهم من العافية ما يريده لنفسه.

٧. في المجمع: (قال أبو عبد الله: التقية ديني ودين آبائي، ولا دين لمن لا تقية له، والتقية ترس الله في الأرض، لأن مؤمن آل فرعون لو أظهر الإسلام لقتل.

• أقول: والروايات من طرق الشيعة فيها كثيرة والآيات تؤيدها كقوله: ﴿إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾ [آل عمران: ٢٨] وقوله: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ [النحل: ١٠٦]

١٥. فرعون يدعي أنه يهدي قومه سبيل الرشاد:

المقطع [١٥] من سورة غافر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ٣٢٩»:

١. أي طريق الصواب المطابقة للواقع يريد أنه على يقين مما يهدي إليه قومه من الطريق وهي مع كونها معلومة له مطابقة للواقع، وهذا كان تمويها منه وتجلدا.

١٦. تخويف مؤمن آل فرعون قومه من عذاب الأمم السابقة:

المقطع [١٦] من سورة غافر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ﴾ [غافر: ٣٠-٣١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ٣٣٠»:

١. ﴿وَقالَ الَّذِي آمَنَ يا قَوْمِ إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزابِ﴾:

أ. المراد بالذي آمن هو مؤمن آل فرعون، ولا يعبأ بما قيل: إنه موسى لقوة كلامه، والمراد بالأحزاب

الأمم المذكورون في الآية التالية قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم، وقوله: ﴿مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ بيان للمثل السابق والدأب هو العادة.

ب. والمعنى: يا قوم إني أخاف عليكم مثل يوم الأقوام الماضين مثل العادة الجارية من العذاب عليهم واحدا بعد واحد لكفرهم وتكذيبهم الرسل، أو مثل جزاء عادتهم الدائمة من الكفر والتكذيب وما الله يريد ظلما للعباد.

١٧. تخويف مؤمن آل فرعون قومه من يوم القيامة:

المقطع [١٧] من سورة غافر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [غافر: ٣٢ـ٣٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ٣٣٠»:

١. ﴿وَيا قَوْمِ إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنادِ﴾:

أ. يوم التناد يوم القيامة، ولعل تسميته بذلك لكون الظالمين فيه ينادي بعضهم بعضا وينادون بالويل والثبور على ما اعتادوا به في الدنيا.

ب. وقيل: المراد بالتنادي المناداة التي تقع بين أصحاب الجنة وأصحاب النار على ما ذكره الله تعالى في سورة الأعراف، وهناك وجوه أخر ذكروها لا جدوى فيها.

٢. ﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ ما لَكُمْ مِنَ اللهِ مِنْ عاصِمٍ﴾ المراد به يوم القيامة ولعل المراد أنهم يفرون في النار من شدة عذابها ليتخلصوا منها فردوا إليها كما قال تعالى: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [الحج: ٢٢]

٣. ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَما لَهُ مِنْ هادٍ﴾ بمنزلة التعليل لقوله: ﴿ما لَكُمْ مِنَ اللهِ مِنْ عاصِمٍ﴾ أي تفرون مدبرين ما لكم من عاصم ولو كان لكان من جانب الله وليس وذلك لأن الله أضلهم ومن يضلل الله فما له من هاد.

١٨. تذكير مؤمن آل فرعون قومه بمجيء يوسف بالبينات:

المقطع [١٨] من سورة غافر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللهُ

مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر: ٣٤ـ٣٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ٣٣٠»:

١. ﴿وَلَقَدْ جاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّناتِ﴾:

أ. لما ذكر أن الله أضلهم ولا هادي لهم استشهد له بما عاملوا به يوسف عليه السلام في رسالته إليهم حيث شكوا في نبوته ما دام حيا ثم إذا مات قالوا: لا نبي بعده.

ب. فالمعنى: وأقسم لقد جاءكم يوسف من قبل بالآيات البينات التي لا تدع ريبا في رسالته من الله فما زلتم في شك مما جاءكم به ما دام حيا حتى إذا هلك ومات قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا فناقضتم أنفسكم ولم تبالوا.

ج. ثم أكده، وهو في معنى التعليل، بقوله: ﴿كَذلِكَ يُضِلُّ اللهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتابٌ﴾

٢. ﴿الَّذِينَ يُجادِلُونَ فِي آياتِ اللهِ بِغَيْرِ سُلْطانٍ أَتاهُمْ﴾ وصف لكل مسرف مرتاب فإن من تعدى طوره بالإعراض عن الحق واتباع الهوى واستقر في نفسه الارتياب فكان لا يستقر على علم ولا يطمئن إلى حجة تهديه إلى الحق جادل في آيات الله بغير برهان إذا خالفت مقتضى هواه.

٣. ﴿كَذلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ يفيد أن قلوبهم مطبوع عليها فلا يفقهون حجة ولا يركنون إلى برهان.

١٩. طلب فرعون بناء الصرح للاطلاع على إله موسى:

المقطع [١٩] من سورة غافر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾ [غافر: ٣٦ـ٣٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ٣٣٢»:

١. ﴿وَقالَ فِرْعَوْنُ يا هامانُ ابْنِ لِي صَرْحاً﴾:

أ. أمر منه لوزيره هامان أن يبني له بناء يتوصل به إلى الاطلاع إلى إله موسى ولعله أصدر هذا الأمر أثناء محاجة الذي آمن وبعد الانصراف عن قتل موسى ولذلك وقع ذكره بين مواعظ الذي آمن واحتجاجاته.

ب. والصرح، على ما في المجمع: (البناء الظاهر الذي لا يخفى على عين الناظر وإن بعد، والأسباب جمع سبب وهو ما تتوصل به إلى ما يبتعد عنك.

٢. ﴿لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبابَ﴾:

أ. في معنى التعليل لأمره ببناء الصرح، والمعنى آمرك ببنائه لأني أرجو أن أبلغ بالصعود عليه الأسباب ثم فسر الأسباب بقوله: ﴿أَسْبابَ السَّماواتِ﴾ وفرع عليه قوله: ﴿فَأَطَّلِعَ إِلى إِلهِ مُوسى﴾ كأنه يقول: إن الإله الذي يدعوه ويدعو إليه موسى ليس في الأرض إذ لا إله فيها غيري فلعله في السماء فابن لي صرحا لعلي أبلغ بالصعود عليه الأسباب السماوية الكاشفة عن خبايا السماء فأطلع من جهتها إلى إله موسى وإني لأظنه كاذبا.

ب. وقيل: إن مراده أن يبني له رصدا يرصد فيه الأوضاع السماوية لعله يعثر فيها على ما يستدل به على وجود إله موسى بعد اليأس عن الظفر عليه بالوسائل الأرضية وهو حسن، وعلى أي حال لا يستقيم ما ذكره على شيء من مذاهب الوثنية فلعله كان منه تمويها على الناس أو جهلا منه وما هو من الظالمين ببعيد.

٣. ﴿وَكَذلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ﴾ مفاد السياق أنه في معنى إعطاء الضابط لما واجه به فرعون الحق الذي كان يدعوه إليه موسى فقد زين الشيطان له قبيح عمله فرآه حسنا وصده عن سبيل الرشاد فرأى انصداده عنها ركوبا عليها فجادل في آيات الله بالباطل وأتى بمثل هذه الأعمال القبيحة والمكائد السفيهة لإدحاض الحق.

٤. ولذلك ختمت الآية بقوله: ﴿وَما كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبابٍ﴾ أي هلاك وانقطاع.

٢٠. دعوة مؤمن آل فرعون قومه إلى سبيل الرشاد:

المقطع [٢٠] من سورة غافر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَقالَ الَّذِي آمَنَ يا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشادِ يا قَوْمِ إِنَّما هذِهِ الْحَياةُ الدُّنْيا مَتاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دارُ الْقَرارِ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلا يُجْزى إِلَّا مِثْلَها وَمَنْ عَمِلَ صالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيها بِغَيْرِ حِسابٍ﴾ [غافر: ٣٨-٤٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ٣٣٢»:

١. ﴿وَقالَ الَّذِي آمَنَ يا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشادِ﴾ يدعوهم إلى اتباعه ليهديهم، واتباعه

اتباع موسى، وسبيل الرشاد السبيل التي في سلوكها إصابة الحق والظفر بالسعادة، والهداية بمعنى إراءة الطريق، وفي قوله: ﴿أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشادِ﴾ تعريض لفرعون حيث قال: ﴿وَما أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشادِ﴾ والباقي ظاهر.

٢. ﴿يا قَوْمِ إِنَّما هذِهِ الْحَياةُ الدُّنْيا مَتاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دارُ الْقَرارِ﴾ هذا هو السناد الذي يستند إليه سلوك سبيل الرشاد والتدين بدين الحق لا غنى عنه بحال وهو الاعتقاد بأن للإنسان حياة خالدة مؤبدة هي الحياة الآخرة وأن هذه الحياة الدنيا متاع في الآخرة ومقدمة مقصودة لأجلها، ولذلك بدأ به في بيان سبيل الرشاد ثم ذكر السيئة والعمل الصالح.

٣. ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلا يُجْزى إِلَّا مِثْلَها﴾:

أ. أي إن الذي يصيبه ويعيش به في الآخرة يشاكل ما أتى به في هذه الحياة الدنيا التي هي متاع فيها فإنما الدنيا دار عمل والآخرة دار جزاء.

ب. من عمل في الدنيا سيئة ذات صفة المساءة فلا يجزى في الآخرة إلا مثلها مما يسوؤه ومن عمل صالحا من ذكر أو أنثى من غير فرق بينهما في ذلك والحال أنه مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب.

ج. وفيه إشارة إلى المساواة بين الذكر والأنثى في قبول العمل وتقييد العمل الصالح في تأثيره بالإيمان لكون العمل حبطا بدون الإيمان قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ﴾ [المائدة: ٥] إلى غيرها من الآيات.

د. وقد جمع الدين الحق وهو سبيل الرشاد في أوجز بيان وهو أن للإنسان دار قرار يجزى فيها بما عمل في الدنيا من عمل سيئ أو صالح فليعمل صالحا ولا يعمل سيئا، وزاد بيانا إذ أفاد أنه إن عمل صالحا يرزق بغير حساب.

٢١. تحذير مؤمن آل فرعون قومه من النار وأن مرجعهم إلى الله:

المقطع [٢١] من سورة غافر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾

[غافر: ٤١-٤٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ٣٣٣»:

١. ﴿وَيا قَوْمِ ما لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ﴾:

أ. كأنه لما دعاهم إلى التوحيد قابلوه بدعوته إلى عبادة آلهتهم أو قدرها لهم لما شاهد جدالهم بالباطل وإصرارهم على الشرك فنسب إليهم الدعوة بشهادة حالهم فأظهر العجب من مقابلتهم دعوته الحقة بدعوتهم الباطلة.

ب. فقال: ويا قوم ما لي أدعوكم إلى النجاة أي النجاة من النار وتدعونني إلى النار وقد كان يدعوهم إلى سبب النجاة ويدعونه إلى سبب دخول النار فجعل الدعوة إلى السببين دعوة إلى المسببين أو لأن الجزاء هو العمل بوجه.

ج. ثم فسر ما دعوه إليه وما دعاهم إليه فقال: ﴿تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ﴾ أي إلى أن أكفر ﴿بِاللهِ وَأُشْرِكَ بِهِ ما لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ﴾ أي أشرك به شيئا لا حجة لي على كونه شريكا فأفتري على الله بغير علم، ﴿وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ﴾، الذي يغلب ولا يغلب ﴿الْغَفَّارِ﴾ لمن تاب إليه وآمن به أي أدعوكم إلى الإيمان به والإسلام له.

٢. ﴿لا جَرَمَ أَنَّما تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيا وَلا فِي الْآخِرَةِ﴾:

أ. لا جرم بمعنى حقا أو بمعنى لا بد، ومفاد الآية إقامة الحجة على عدم كون ما يدعون إليه إلها من طريق عدم الدعوة إليه وفي ذلك تأييد لقوله في الآية السابقة ﴿ما لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ﴾

ب. والمعنى: ثبت ثبوتا أن ما تدعونني إليه مما تسمونه شريكا له سبحانه ليس له دعوة في الدنيا إذ لم يعهد نبي أرسل إلى الناس من ناحيته ليدعوهم إلى عبادته، ولا في الآخرة إذ لا رجوع إليه فيها من أحد، وأما الذي أدعوكم إليه وهو الله سبحانه فإن له دعوة في الدنيا وهي التي تصداها أنبياؤه ورسله المبعوثون من عنده المؤيدون بالحجج والبينات، وفي الآخرة وهي التي يتبعها رجوع الخلق إليه لفصل القضاء بينهم، قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: ٥٢]

ج. ومن المعلوم كما قررناه في ذيل قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آياتِهِ﴾ الآية: من السورة أن الربوبية لا تتم بدون دعوة في الدنيا ونظيرتها الدعوة في الآخرة، وإذ كان الذي يدعوهم إليه ذا دعوة في الدنيا والآخرة دون ما يدعونه إليه فهو الإله دون ما يدعون إليه.

٣. ﴿وَأَنَّ مَرَدَّنا إِلَى اللهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحابُ النَّارِ﴾ معطوف على قوله: ﴿أَنَّما تَدْعُونَنِي﴾ أي لا جرم أن مردنا إلى الله فيجب الإسلام له واتباع سبيله ورعاية حدود العبودية، ولا جرم أن المسرفين وهم المتعدون طور العبودية، وهم أنتم، أصحاب النار فالذي أدعوكم إليه فيه النجاة دون ما تدعونني إليه.

٢٢. تفويض مؤمن آل فرعون أمره إلى الله:

المقطع [٢٢] من سورة غافر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللهِ إِنَّ اللهَ بَصِيرٌ بِالْعِبادِ﴾ [غافر: ٤٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ٣٣٤»:

١. ﴿فَسَتَذْكُرُونَ ما أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللهِ إِنَّ اللهَ بَصِيرٌ بِالْعِبادِ﴾ صدر الآية موعظة وتخويف لهم وهو تفريع على قوله: ﴿وَأَنَّ مَرَدَّنا إِلَى اللهِ﴾ أي إذ كان لا بد من الرجوع إلى الله وحلول العذاب بالمسرفين وأنتم منهم ولم تسمعوا اليوم ما أقول لكم فستذكرون ما أقول لكم حين عاينتم العذاب وتعلمون عند ذاك أني كنت ناصحا لكم.

٢. ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللهِ﴾ التفويض على ما فسره الراغب هو الرد فتفويض الأمر إلى الله رده إليه فيقرب من معنى التوكل والتسليم والاعتبار مختلف: فالتفويض من العبد رده ما نسب إليه من الأمر إلى الله سبحانه وحال العبد حينئذ حال من هو أعزل لا أمر راجعا إليه، والتوكل من العبد جعله ربه وكيلا يتصرف فيما له من الأمر، والتسليم من العبد مطاوعته المحضة لما يريده الله سبحانه فيه ومنه من غير نظر إلى انتساب أمر إليه فهي مقامات ثلاث من مقامات العبودية: التوكل ثم التفويض وهو أدق من التوكل ثم التسليم وهو أدق منهما.

٣. ﴿إِنَّ اللهَ بَصِيرٌ بِالْعِبادِ﴾ تعليل لتفويضه أمره إلى الله، وفي وضع اسم الجلالة موضع ضميره، وكان مقتضى الظاهر الإضمار إشارة إلى علة بصيرته بالعباد كأنه قيل: إنه بصير بالعباد لأنه الله عز اسمه.

٤. في الخصال، عن الصادق عليه السلام قال: عجبت لمن يفزع من أربع كيف لا يفزع إلى أربع؟ إلى أن قال، وعجبت لمن مكر به كيف لا يفزع إلى قوله: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللهِ إِنَّ اللهَ بَصِيرٌ بِالْعِبادِ﴾ فإني سمعت الله تعالى يقول بعقبها: ﴿فَوَقاهُ اللهُ سَيِّئاتِ ما مَكَرُوا﴾

• أقول: وهو مروي في غير هذا الكتاب.

٢٣. وقاية الله لمؤمن آل فرعون من مكرهم وحلول العذاب بآل فرعون:

المقطع [٢٣] من سورة غافر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٥-٤٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ٣٣٥»:

١. ﴿فَوَقَاهُ اللهُ سَيِّئَاتِ ما مَكَرُوا﴾ تفريع على تفويضه الأمر إلى الله فكفاه الله شرهم ووقاه سيئات مكرهم، وفيه إشارة إلى أنهم قصدوه بالسوء لكن الله دفعهم عنه.

٢. ﴿وَحاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذابِ﴾ إلى قوله: ﴿أَشَدَّ الْعَذابِ﴾ أي نزل بهم وأصابهم العذاب السيئ فسوء العذاب من إضافة الصفة إلى موصوفها وفي التوصيف بالمصدر مبالغة، وآل فرعون أشياعه وأتباعه، وربما يقال آل فلان ويشمل نفسه.

٣. ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْها غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذابِ﴾:

أ. ظاهر السياق أنه بيان لسوء العذاب وليس من الاستئناف في شيء.

ب. والآية صريحة أولا في أن هناك عرضا على النار ثم إدخالا فيها والإدخال أشد من العرض، وثانيا: في أن العرض على النار قبل قيام الساعة التي فيها الإدخال وهو عذاب البرزخ، عالم متوسط بين الموت والبعث، وثالثا: أن التعذيب في البرزخ ويوم تقوم الساعة بشيء واحد وهو نار الآخرة لكن البرزخيين يعذبون بها من بعيد وأهل الآخرة بدخولها.

ج. وفي قوله: ﴿غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ إشارة إلى التوالي من غير انقطاع، ولعل لأهل البرزخ لعدم انقطاعهم عن الدنيا بالكلية نسبة ما إلى الغداة والعشي.

د. وفي قوله: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا﴾ إيجاز بالحذف والتقدير يقال: أدخلوا آل فرعون أشد العذاب.

٤. في المحاسن، بإسناده عن أيوب بن الحر عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله: ﴿فَوَقاهُ اللهُ سَيِّئاتِ ما مَكَرُوا﴾ قال: أما لقد سطوا عليه وقتلوه، ولكن أتدرون ما وقاه؟ وقاه أن يفتنوه في دينه.

• أقول: وفي معناه بعض روايات أخر وفي بعض ما ورد من طرق أهل السنة أن الله نجاه من القتل.

٥. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي قال رجل لأبي عبد الله عليه السلام: ما تقول في قول الله عز وجل: ﴿النَّارُ

يُعْرَضُونَ عَلَيْها غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ فقال أبو عبد الله عليه السلام: ما يقول الناس؟ فقال: يقولون: إنها في نار الخلد، وهم لا يعذبون فيما بين ذلك، فقال: فهم من السعداء، فقيل له: جعلت فداك فكيف هذا؟ فقال: إنما هذا في الدنيا فأما في دار الخلد فهو قوله: ﴿يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذابِ﴾

• أقول: مراده عليه السلام بالدنيا البرزخ وهو كثير الورود في رواياتهم.

ب. وفي المجمع: (عن نافع عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي، فإن كان من أهل الجنة فمن الجنة، وإن كان من أهل النار فمن النار، يقال: هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة: أورده البخاري ومسلم في الصحيح.

• أقول: ورواه السيوطي في الدر المنثور، عنهما وعن ابن أبي شيبة وابن مردويه.

• وهذا المعنى كثير الورود في روايات أئمة أهل البيت عليه السلام، وقد مر كثير منها في البحث عن البرزخ في الجزء الأول من الكتاب وغيره من المواضع.

٢٤. تخاصم أهل النار وطلب الضعفاء من المستكبرين النجاة:

المقطع [٢٤] من سورة غافر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾ [غافر: ٤٧-٤٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ٣٣٥»:

١. ﴿وَإِذْ يَتَحاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾:

أ. يفيد السياق أن الضمير في ﴿يَتَحاجُّونَ﴾ لآل فرعون ومن الدليل على ذلك تغيير السياق في قوله بعد: ﴿وَقالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ﴾ والمعنى وحاق بآل فرعون سوء العذاب إذ يتحاجون في النار أو واذكر من سوء عذابهم إذ يتحاجون في النار فيقول الضعفاء منهم للذين استكبروا إنا كنا في الدنيا لكم تبعا وكان لازم ذلك أن تكفونا في الحوائج وتنصرونا في الشدائد ولا شدة أشد مما نحن فيه فهل أنتم مغنون عنا نصيبا من النار وإن لم يكن جميع عذابها فقد قنعنا بالبعض.

ب. وهذا ظهور مما رسخ في نفوسهم في الدنيا من الالتجاء بكبريائهم ومتبوعيهم من دون الله يظهر منهم ذلك يوم القيامة وهم يعلمون أنهم في يوم لا تغني فيه نفس عن نفس شيئا والأمر يومئذ لله وله نظائر محكية عنهم في كلامه تعالى من كذبهم يومئذ وخلفهم وإنكارهم أعمالهم وتكذيب بعضهم لبعض

وغير ذلك.

٢. ﴿قالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيها إِنَّ اللهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبادِ﴾:

أ. جواب من مستكبريهم عن قولهم ومحصله أن اليوم يوم جزاء لا يوم عمل فالأسباب ساقطة عن التأثير وقد طاحت منا ما كنا نتوهمه لأنفسنا في الدنيا من القوة والقدرة فحالنا وحالكم، ونحن جميعا في النار، واحدة.

ب. فقولهم: ﴿إِنَّا كُلٌّ فِيها إِنَّ اللهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبادِ﴾ مفاده أن ظهور الحكم الإلهي قد أبطل أحكام سائر الأسباب وتأثيراتها وأثبتنا على ما نحن فيه من الحال في حد سواء فلسنا نختص دونكم بقوة حتى نغني عنكم شيئا من العذاب.

ج. ومما قيل في الآية أن الضمير في قوله: ﴿يَتَحاجُّونَ﴾ لمطلق الكفار من أهل النار وهو بعيد كما عرفت، وقيل: الضمير لقريش وهو أبعد.

٢٥. استغاثة أهل النار بخزنتها:

المقطع [٢٥] من سورة غافر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ [غافر: ٤٩ـ٥٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ٣٣٦»:

١. ﴿وَقالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْماً مِنَ الْعَذابِ﴾:

أ. مكالمة بين أهل النار، ومنهم آل فرعون، وبين خزنة جهنم أوردها سبحانه تلو قصة آل فرعون، وهم إنما سألوا الخزنة أن يدعوا لهم ليأسهم من أن يستجاب منهم أنفسهم.

ب. والمراد باليوم من العذاب ما يناسب من معنى اليوم لعالمهم الذي هم فيه، ويؤول معناه إلى قطعة من العذاب.

٢. ﴿قالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّناتِ قالُوا بَلى قالُوا فَادْعُوا وَما دُعاءُ الْكافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلالٍ﴾ أجابوهم بالاستخبار عن إتيان رسلهم إياهم بالبينات فاعترفوا بذلك وهو اعتراف منهم بأنهم كفروا بهم مع العلم بكونهم على الحق وهو الكفر بالنبوة فلم يجبهم الخزنة فيما سألوهم من الدعاء إثباتا ولا نفيا بل ردوهم إلى أنفسهم مشيرين إلى أنهم لا يستجاب لهم دعاء.

٣. ﴿وَما دُعاءُ الْكافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلالٍ﴾:

أ. أي إن دعاءهم قد أحاط به الضلال فلا يهتدي إلى هدف الإجابة وهو تتمة كلام الخزنة على ما يعطيه السياق، ويحتمل أن يكون من كلامه تعالى، على بعد.

ب. والجملة على أي حال تفيد معنى التعليل والمحصل: ادعوا فلا يستجاب لكم فإنكم كافرون، والكافرون لا يستجاب لهم دعاء.

ج. وتعليق حكم عدم الاستجابة بوصف الكفر مشعر بعليته وذلك أن الله سبحانه وإن وعد عباده وعدا قطعيا أن يجيب دعوة من دعاه منهم فقال: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذا دَعانِ﴾ [البقرة: ١٨٦]، والدعاء إذا كان واقعا على حقيقته لا يرد البتة لكن الذي يتضمنه متن هذا الوعد هو أن يكون هناك دعاء وطلب حقيقة وأن يتعلق ذلك بالله حقيقة أي يدعو الداعي ويطلب جدا وينقطع في ذلك إلى الله عن سائر الأسباب التي يسميها أسبابا.

د. والكافر بعذاب الآخرة وهو الذي ينكرها ويستر حقيقتها لا يتمشى منه طلب جدي لرفعه أما في الدنيا فظاهر، وأما في الآخرة فلأنه وإن أيقن به بالمعاينة وانقطع إلى الله سبحانه لما هو فيه من الشدة وقد انقطعت عنه الأسباب لكن صفة الإنكار لزمته وبالا وقد جوزي بها فلا تدعه يطلب ما كان ينكره طلبا جديا.

هـ. على أن الكلام في انقطاعه إلى الله أيضا كالكلام في طلبه الجدي للتخلص وأنى له الانقطاع إلى الله هناك ولم يتلبس به في الدنيا فافهمه.

و. وبذلك يظهر ضعف الاستدلال بالآية على أن دعاء الكافر لا يستجاب مطلقا فإنك عرفت أن مدلول الآية عدم استجابة دعائه في ما يكفر به وينكره لا مطلقا كيف؟ وهناك آيات كثيرة تذكر استجابة دعائه في موارد الاضطرار.

٢٦. نصر الله لرسله والمؤمنين:

المقطع [٢٦] من سورة غافر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [غافر: ٥١-٥٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ٣٣٧»:

١. ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ الأشهاد جمع شهيد بمعنى شاهد، والآية وعد نوعي لا وعد شخصي لكل واحد شخصي منهم في كل واقعة شخصية، وقد تقدم كلام في معنى النصر الإلهي في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ﴾ [الصافات: ١٧٢]

٢. ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ تفسير ليوم يقوم الأشهاد، وظاهر إضافة المصدر إلى فاعله في قوله: ﴿مَعْذِرَتُهُمْ﴾ ولم يقل: إن يعتذروا، تحقق معذرة ما منهم يومئذ، وأما قوله: ﴿هَذَا يَوْمُ لَا يَنْطِقُونَ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ [المرسلات: ٣٥ـ٣٦] فمحمول على بعض مراحل يوم القيامة وعقباته لدلالة آيات أخرى على وقوع تكلم ما منهم يومئذ.

٣. ﴿وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ﴾ أي البعد من رحمة الله، وقوله: ﴿لَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ أي الدار السيئة وهي جهنم.

٢٧. إيتاء موسى الهدى وإرث بني إسرائيل الكتاب:

المقطع [٢٧] من سورة غافر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ هُدًى وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [غافر: ٥٣ـ٥٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ٣٣٨»:

١. ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ﴾:

أ. خاتمة لما تقدم من إرسال موسى بالآيات والسلطان المبين ومجادلة آل فرعون في الآيات بالباطل ومحاجة مؤمن آل فرعون، يشير بها وقد صدرت بلام القسم إلى حقية ما أرسل به وظلمهم في ما قابلوه به.

ب. والمراد بالهدى الدين الذي أوتيه موسى، وبإيراث بني إسرائيل الكتاب) إبقاء التوراة بينهم يعملون بها ويهتدون.

٢. ﴿هُدًى وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ أي حال كون الكتاب هدى يهتدي به عامتهم وذكرى يتذكر به خاصتهم من أولي الألباب.

٢٨. أمر النبي بالصبر والاستغفار والتسبيح:

المقطع [٢٨] من سورة غافر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ [غافر: ٥٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ٣٤٠»:

١. ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ﴾:

أ. تفريع على ما تقدم من الأمر بالاعتبار في قوله: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ وما أورد بعده من قصة موسى ومآل أمر المستكبرين المجادلين بالباطل ونصره تعالى للحق وأهله.

ب. والمعنى: إذا كان الأمر على ذلك فاصبر على إيذاء المشركين ومجادلتهم بالباطل إن وعد الله حق وسيفي لك بما وعد، والمراد بالوعد ما في قوله قبيل هذا: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ الآية من وعد النصر.

٢. ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾:

أ. أمر له بالاستغفار لما يعد بالنسبة إليه ذنبا وإن لم يكن ذنبا بمعنى المخالفة للأمر المولوي لمكان عصمته ﷺ، وقد تقدم كلام في معنى الذنب والمغفرة في أواخر الجزء السادس من الكتاب.

ب. وللذنب المنسوب إليه ﷺ معنى آخر سنشير إليه في تفسير أول سورة الفتح إن شاء الله تعالى، وقيل: المراد بذنبه ﷺ ذنب أمته أعطي الشفاعة فيه.

٣. ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾:

أ. أي نزهه سبحانه مصاحبا لحمده على جميل آلائه مستمرا متواليا بتوالي الأيام أو في كل صباح ومساء، وكونه بالعشي والإبكار على المعنى الأول من قبيل الكناية.

ب. وقيل: المراد به صلاتا الصبح والعصر، والآية مدنية.

• وفيه أن المسلم من الروايات ومنها أخبار المعراج أن الصلوات الخمس فرضت جميعا بمكة قبل الهجرة فلو كان المراد به الفريضتين كان ذلك بمكة قبل فرض بقية الصلوات الخمس.

٢٩. جدال الكافرين وكبرهم:

المقطع [٢٩] من سورة غافر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [غافر: ٥٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ٣٤٢»:

١. ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ﴾:

أ. تأكيد لما تقدم في الآية السابقة من أمره ﷺ بالصبر وتطييب نفسه بتأييد وعد النصر، ومحصله أن

هؤلاء المجادلين لا ينالون بغيتهم ولن ينالوا فلا يحزنك جدالهم وطب نفسا من ناحيتهم.

ب. فقوله: ﴿إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ﴾ حصر للسبب الموجب لمجادلتهم في الكبر أي ليس عاملهم في ذلك طلب الحق أو الارتياب في آياتنا والشك فيها حتى يريدوا بها ظهور الحق ولا حجة ولا سلطان عندهم حتى يريدوا إظهارها بل الذي في صدورهم وهو الداعي لهم إلى الجدال، الكبر، يريدون به إدحاض الحق الصريح.

٢. ﴿ما هُمْ بِبالِغِيهِ﴾ الضمير لكبر باعتبار مسببه فإن الكبر سبب للجدال والجدال يراد به إبطال الحق ومحق الدعوة الحقة، والمعنى ما هم ببالغي مرادهم وبغيتهم من الجدال الذي يأتون به لكبرهم.

٣. ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللهِ﴾ أي فاستعذ بالله منهم بما لهم من الكبر كما استعاذ موسى من كل متكبر مجادل كما قال: ﴿وَقالَ مُوسى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسابِ﴾

٤. ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ أي السميع لدعاء عباده البصير بحوائجهم والذي يبصر ما هم فيه من شدة أو رخاء.

٥. أحاديث وآثار:

أ. أخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم بسند صحيح عن أبي العالية قال: إن اليهود أتوا النبي ﷺ وقالوا، إن الدجال يكون منا في آخر الزمان، ويكون من أمره فعظموا أمره وقالوا يصنع كذا، فأنزل الله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجادِلُونَ فِي آياتِ اللهِ بِغَيْرِ سُلْطانٍ أَتاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ ما هُمْ بِبالِغِيهِ﴾ قال: لا يبلغ الذي يقول: ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللهِ﴾ فأمر نبيه ﷺ أن يتعوذ من فتنة الدجال ﴿لَخَلْقُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ الدجال.

ب. أخرج ابن أبي حاتم عن كعب الأحبار: في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجادِلُونَ فِي آياتِ اللهِ بِغَيْرِ سُلْطانٍ﴾ قال: هم اليهود نزلت فيهم فيما ينتظرونه من أمر الدجال.

٣٠. خلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس:

المقطع [٣٠] من سورة غافر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: ٥٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ٣٤٢»:

١. ﴿لَخَلْقُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ اللام للقسم،

والمراد بالسماوات والأرض مجموع العالم، ومعنى الآية حسب ما يعطيه المقام أنهم ليسوا ببالغي بغيتهم وليسوا بمعجزين فإن الله الذي قدر على خلق مجموع العالم ولم يعجزه ذلك على ما فيه من العظمة ليس يعجزه جزء يسير منه وهو الناس المخلوقون الذين هم أهون عليه ولكن أكثر الناس جاهلون يظنون بجهلهم أنهم يعجزون الله بجدال يجادلونه أو أي كيد يكيدونه.

٢. أحاديث وآثار:

أ. أخرج ابن المنذر عن ابن جريح: في قوله: ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ قال: زعموا أن اليهود قالوا: يكون منا ملك في آخر الزمان البحر إلى ركبتيه، والسحاب دون رأسه، يأخذ الطير بين السماء والأرض، معه جبل خبز ونهر فنزلت: ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾

• أقول: قد عرفت فيما تقدم أن غرض السورة، كما يستفاد من سياق آياتها، التكلم حول استكبارهم ومجادلتهم في آيات الله بغير الحق فمنها ابتداء الكلام وإليها يعود عودة بعد عودة كقوله: ﴿ما يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وقوله: ﴿وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾، وقوله: ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتاً﴾، وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ﴾، وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ﴾

• فسياق آيات السورة يأبى أن يكون بعضها يختص بسبب في نزولها لا يشاركها فيه غيرها كما هو مؤدى هذه الروايات الثلاث.

• على أن ما في الروايات من قصة إخبار اليهود بالدجال لا ينطبق على الآيتين انطباقا ظاهرا بعد التأمل في مضمون الآيتين نفسهما أعني قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾

د. ومن هذا يظهر أن القول بكون الآيتين مدنيتين استنادا إلى هذه الروايات كما ترى.

٣١. عدم استواء المؤمنين والمسيئين:

المقطع [٣١] من سورة غافر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَا تَتَذَكَّرُونَ إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [غافر: ٥٨-٥٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ٣٤٢»:

١. ﴿وَما يَسْتَوِي الْأَعْمى وَالْبَصِيرُ﴾ لما ذكر أن أكثر الناس لا يعلمون أكده بأنهم ليسوا على وتيرة واحدة فإن منهم الأعمى والبصير ولا يستويان وعطف عليهما الذين آمنوا وعملوا الصالحات والمسيء فالطائفة الأولى أولو بصيرة يتذكرون بها والثانية أعمى الله قلوبهم فلا يتذكرون.

٢. ﴿قَلِيلاً ما تَتَذَكَّرُونَ﴾ خطاب للناس بداعي التوبيخ وهو الوجه في الالتفات من الغيبة إلى الحضور.

٣. ﴿إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيها وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ﴾ ذكرهم تعالى في هذه الآية بإتيان الساعة وفي الآية التالية بدعوة ربهم إياهم إلى دعائه وعبادته كما نبه الذي آمن من آل فرعون في القصة السابقة بإتيان الساعة وبأن لله الدعوة وليس لآلهتهم دعوة في الدنيا ولا في الآخرة.

٣٢. أمر الله بالدعاء والوعد بالاستجابة:

المقطع [٣٢] من سورة غافر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَقالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ داخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ٣٤٣»:

١. ﴿وَقالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ دعوة منه تعالى لعباده إلى دعائه ووعد بالاستجابة، وقد أطلق الدعوة والدعاء والاستجابة إطلاقا، وقد أشبعنا الكلام في معنى الدعاء والإجابة في ذيل قوله تعالى: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذا دَعانِ﴾ [البقرة: ١٨٦] في الجزء الأول من الكتاب.

٢. ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ داخِرِينَ﴾ الدخور الذلة، وقد بدل الدعاء عبادة فدل على أن الدعاء عبادة.

٣. أحاديث وآثار:

أ. في الصحيفة السجادية: وقلت: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ داخِرِينَ﴾ فسميت دعاءك عبادة وتركه استكبارا، وتوعدت على تركه دخول جهنم داخرين.

ب. وفي الكافي، بإسناده عن حماد بن عيسى عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سمعته يقول: ادع ولا تقل: قد فرغ من الأمر، فإن الدعاء هو العبادة إن الله عز وجل يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِي

سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ داخِرِينَ﴾ وقال: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾

• أقول: قوله عليه السلام: فإن الدعاء، إلى قوله: ﴿داخِرِينَ﴾ احتجاج على ما ندب إليه أولا بقوله: ادع، وقوله: وقال: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ احتجاج على ما قاله ثانيا: ولا تقل: قد فرغ من الأمر ولذا قدم عليه السلام في بيانه ذيل الآية على صدرها.

ج. وفي الخصال، عن معاوية بن عمار عن أبي عبد الله عليه السلام قال: يا معاوية من أعطي ثلاثة لم يحرم ثلاثة: من أعطي الدعاء أعطي الإجابة، ومن أعطي الشكر أعطي الزيادة، ومن أعطي التوكل أعطي الكفاية، فإن الله عز وجل يقول في كتابه: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ وقال: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾، وقال: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾

د. وفي التوحيد، بإسناده إلى موسى بن جعفر عليه السلام قال: قال قوم للصادق عليه السلام: ندعوه فلا يستجاب لنا، قال: لأنكم تدعون من لا تعرفونه.

• أقول: وقد أوردنا جملة من روايات الدعاء في ذيل قوله: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦]

٣٣. نعم الله في الليل والنهار وكل شيء وجحود العباد:

المقطع [٣٣] من سورة غافر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿اللهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ﴾ [غافر: ٦١-٦٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ٣٤٥»:

١. ﴿اللهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً﴾:

أ. أي جعل لأجلكم الليل مظلما لتسكنوا فيه من التعب الذي عرض لكم وجه النهار من جهة السعي في طلب الرزق، والنهار مبصرا لتبتغوا من فضل ربكم وتكسبوا الرزق، وهذا من أركان تدبير الحياة الإنسانية.

ب. وقد ظهر بذلك أن نسبة الإبصار إلى النهار من المجاز العقلي لكن ليس من المبالغة في شيء كما ادعاه بعضهم.

٢. ﴿إِنَّ اللهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ﴾ امتنان عليهم بالفضل وتقريع لهم بعدم شكرهم له قبال هذا الفضل العظيم ولو شكروه لعبدوه ووضع ﴿النَّاسِ﴾ الثاني موضع الضمير للإشارة إلى أن من طبع الناس بما هم ناس كفران النعم كما قال: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤]

٣. ﴿ذلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ أي ذلكم الذي يدبر أمر حياتكم ورزقكم بسكون الليل وسعي النهار هو الله تعالى وهو ربكم لأن تدبير أمركم إليه.

٤. ﴿خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي ورب كل شيء لأنه خالق كل شيء والخلق لا ينفك عن التدبير ولازم ذلك أن لا يكون في الوجود رب غيره لا لكم ولا لغيركم ولذلك عقبه بقوله: ﴿لا إِلهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي فإذن لا معبود بالحق غيره إذ لو كان هناك معبود آخر كان رب آخر فإن الألوهية من شئون الربوبية.

٥. ﴿فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ أي فكيف تصرفون عن عبادته إلى عبادة غيره.

٦. ﴿كَذلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كانُوا بِآياتِ اللهِ يَجْحَدُونَ﴾ أي كمثل هذا الإفك يؤفك الجاحدون لآيات الله فإن الآيات ظاهرة غير خفية فالانصراف عن مدلولها لا سبب له إلا الجحد.

٣٤. فضل الله على عباده في الأرض وفي صورهم ورزقهم:

المقطع [٣٤] من سورة غافر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿اللهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [غافر: ٦٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ٣٤٦»:

١. ﴿اللهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قراراً وَالسَّماءَ بِناءً﴾ القرار المستقر الذي يستقر عليه، والبناء، على ما قيل، القبة ومنه أبنية العرب للقباب المضروبة عليهم، يذكر تعالى نعمة استقرار الإنسان على الأرض وتحت السماء.

٢. ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ الفاء للتفسير والمعنى أحسن خلق صوركم وذلك أن الإنسان جهز من دقائق التجهيز في صورته بما يقوى به من الأعمال المتنوعة العجيبة على ما لا يقوى عليه شيء من سائر الموجودات الحية، ويلتذ من مزايا الحياة بما لا يتيسر لغيره أبدا.

٣. ﴿وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ﴾ هي الأرزاق المتنوعة التي تلائم بطبائعها طبيعة الإنسان من الحبوب

والفواكه واللحوم وغيرها، وليس في الحيوان متنوع في الرزق كالإنسان.

٤. ﴿ذلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ﴾ أي المدبر لأمركم، وقوله: ﴿فَتَبارَكَ اللهُ رَبُّ الْعالَمِينَ﴾ ثناء عليه عز وجل بربوبيته لجميع العالمين، وقد فرعه على ربوبيته وتدبيره للإنسان إشارة إلى أن الربوبية واحدة وتدبيره لأمر الإنسان عين تدبيره لأمر العالمين جميعا فإن النظام الجاري نظام واحد روعي في انطباقه على كل، انطباقه على الكل فهو سبحانه متبارك منشأ للخير الكثير فتبارك الله رب العالمين.

٣٥. التوحيد والدعاء والإخلاص:

المقطع [٣٥] من سورة غافر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [غافر: ٦٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ٣٤٦»:

١. ﴿هُوَ الْحَيُّ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾:

أ. في جملة ﴿هُوَ الْحَيُّ﴾ إطلاق لا مقيد لا عقلا ولا نقلا مضافا إلى إفادة الحصر فمفادها أن له تعالى وحده حياة لا يداخلها موت ولا يزيلها فناء فهو تعالى حي بذاته وغيره كائنا ما كان حي بإحياء غيره.

ب. وإذا فرض هناك حي بذاته وحي بغيره لم يستحق العبادة بذاته إلا من كان حيا بذاته، ولذلك عقب قوله: ﴿هُوَ الْحَيُّ﴾ بقوله: ﴿لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾

ج. وقد سيقت الجملتان توطئة للأمر بدعائه ولا مطلق دعائه بل دعائه بالتوحيد وإخلاص الدين له وحده لأنه الحي بذاته دون غيره ولأنه المعبود بالاستحقاق الذاتي دون غيره، ولذلك فرع على قوله: ﴿هُوَ الْحَيُّ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ قوله: ﴿فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾

٢. ﴿الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعالَمِينَ﴾ ثناء عليه بربوبيته للعالمين.

٣٦. النهي عن عبادة غير الله والإسلام لرب العالمين:

المقطع [٣٦] من سورة غافر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَمَّا جاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [غافر: ٦٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ٣٤٧»:

١. ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَمَّا جاءَنِي الْبَيِّناتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعالَمِينَ﴾ معنى الآية ظاهر، وفيه إياس للمشركين من موافقته لهم في عبادة آلهتهم، وقد تكرر هذا

المعنى في سورة الزمر ويمكن أن يستأنس منه أن هذه السورة نزلت بعد سورة الزمر.

٣٧. مراحل خلق الإنسان:

المقطع [٣٧] من سورة غافر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [غافر: ٦٧ـ٦٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ٣٤٧»:

١. ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ المراد بخلقهم من تراب خلق أبيهم آدم من تراب فإن خلق غيره ينتهي إليه فخلقه من تراب هو خلقهم منه أو المراد بخلقهم من تراب تكوين النطفة من البسائط الأرضية.

٢. ﴿ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ أي ثم خلقناكم من نطفة حقيرة معلومة الحال ﴿ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾ كذلك ﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ﴾ من بطون أمهاتكم ﴿طِفْلاً﴾ أي أطفالا، والطفل، كما قيل، يطلق على الواحد والجمع قال تعالى: ﴿أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ﴾ [النور: ٣١]

٣. ﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ﴾ اللام للغاية وكان متعلقها محذوف والتقدير ثم ينشئكم لتبلغوا أشدكم وهو من العمر زمان اشتداد القوى ﴿ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخاً﴾ معطوف على ﴿لِتَبْلُغُوا﴾ ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ﴾ فلا يبلغ أحد هذه المراحل من العمر كالشيخوخة وبلوغ الأشد وغيرهما.

٤. ﴿وَلِتَبْلُغُوا أَجَلاً مُسَمًّى﴾ وهو النهاية من الأمد المضروب الذي لا سبيل للتغير إليه أصلا، وهو غاية عامة لجميع الناس كيفما عمروا قال تعالى: ﴿وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ﴾ [الأنعام: ٢]، ولذلك لم تعطف الجملة بثم حتى تتميز من الغايتين المذكورتين سابقا.

٥. ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي تدركون الحق بالتعقل المغروز فيكم، وهذا غاية خلقة الإنسان بحسب حياته المعنوية كما أن بلوغ الأجل المسمى غاية حياته الدنيا الصورية.

٦. ﴿هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ أي هو الذي يفعل الإحياء والإماتة وفيهما نقل الأحياء من عالم إلى عالم وكل منهما مبدأ لتصرفاته بالنعم التي يتفضل بها على من يدبر أمره.

٧. ﴿فَإِذا قَضى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ تقدم تفسيره كرارا.

٣٨. جدال الكفار في آيات الله وتكذيبهم:

المقطع [٣٨] من سورة غافر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِ اللهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُو مِنْ قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللهُ الْكَافِرِينَ ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [غافر: ٦٩-٧٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ٣٤٩»:

١. ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ﴾:

أ. ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ مفيد للتعجيب و﴿أَنَّى﴾ بمعنى كيف، والمعنى ألا تعجب أو ألم تعجب من أمر هؤلاء المجادلين في آيات الله كيف يصرفون عن الحق إلى الباطل وعن الهدى إلى الضلال.

ب. والتعرض لحال المجادلين هاهنا من حيث الإشارة إلى كونهم مصروفين عن الحق والهدى ومآل ذلك، وفيما تقدم من قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ ما هُمْ بِبالِغِيهِ﴾ من حيث إن الداعي لهم إلى ذلك الكبر وأنهم لا يبلغون ما يريدون فلا تكرار.

ج. ومنه يظهر ما في قول بعضهم: إن تكرير ذكر المجادلة محمول على تعدد المجادل بأن يكون المجادلون المذكورون في الآية السابقة غير المذكورين في هذه الآية أو على اختلاف ما فيه المجادلة كأن يكون المجادلة هناك في أمر البعث وهاهنا في أمر التوحيد على أن فيه غفلة عن غرض السورة كما عرفت.

٢. ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِما أَرْسَلْنا بِهِ رُسُلَنا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ الذي يعطيه سياق الآيات التالية أن المراد بهؤلاء المجادلين هم المجادلون من قوم النبي ﷺ، وعليه فالأنسب أن يكون المراد بالكتاب هو القرآن الكريم، وبقوله: ﴿بِما أَرْسَلْنا بِهِ رُسُلَنا﴾ ما جاءت به الرسل عليه السلام من عند الله من كتاب ودين فالوثنية منكرون للنبوة.

٣. ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ تفريع على مجادلتهم وتكذيبهم وتهديد لهم أي سوف يعلمون حقيقة مجادلتهم في آيات الله وتكذيبهم بالكتاب وبالرسل.

٤. ﴿إِذِ الْأَغْلالُ فِي أَعْناقِهِمْ وَالسَّلاسِلُ يُسْحَبُونَ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾:

أ. في المجمع: (الأغلال جمع غل وهو طوق يدخل في العنق للذل والألم وأصله الدخول، وقال: السلاسل جمع سلسلة وهي الحلق منتظمة في جهة الطول مستمرة وقال: السحب جر الشيء على الأرض، هذا أصله، وقال: السجر أصله إلقاء الحطب في معظم النار كالتنور الذي يسجر بالوقود)

ب. ﴿إِذِ الْأَغْلالُ فِي أَعْناقِهِمْ وَالسَّلاسِلُ﴾ ظرف لقوله: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ قيل: الإتيان بإذ، وهو للماضي، للدلالة على تحقق الوقوع وإن كان موقعه المستقبل فلا تنافي، في الجمع بين سوف وإذ.

ج. و﴿الْأَغْلالُ فِي أَعْناقِهِمْ﴾ مبتدأ وخبر، و﴿السَّلاسِلُ﴾ معطوف على الأغلال، و﴿يُسْحَبُونَ فِي الْحَمِيمِ﴾ خبر بعد خبر، و﴿فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ معطوف على ﴿يُسْحَبُونَ﴾

د. والمعنى: سوف يعلمون حقيقة عملهم حين تكون الأغلال والسلاسل في أعناقهم يجرون في الماء الحار الشديد الحرارة ثم يقذفون في النار.

هـ. وقيل: معنى قوله: ﴿ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ ثم يصيرون وقود النار، ويؤيده قوله تعالى في صفة جهنم: ﴿وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [التحريم: ٦]، وقوله: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨]

٥. ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ ما كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِ اللهِ قالُوا ضَلُّوا عَنَّا﴾، أي قيل لهم وهم يتقلبون بين السحب والسجر: أين ما كنتم تشركون من شركائكم من دون الله حتى ينصروكم بالإنجاء من هذا العذاب أو يشفعوا لكم كما كنتم تزعمون أنهم سيشفعون لكم قبال عبادتكم لهم؟

٦. ﴿قالُوا ضَلُّوا عَنَّا﴾ أي غابوا عنا من قولهم: ضلت الدابة إذا غابت فلم يعرف مكانها، وهذا جوابهم عما قيل لهم: أين ما كنتم تشركون من دون الله.

٧. ﴿بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئاً﴾:

أ. إضراب منهم عن الجواب الأول لما يظهر لهم أن الآلهة الذين كانوا يزعمونهم شركاء لم يكونوا إلا أسماء لا مسميات لها ومفاهيم لا يطابقها شيء ولم يكن عبادتهم لها إلا سدى، ولذلك نفوا أن يكونوا يعبدون شيئا قال تعالى: ﴿فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ [يونس: ٢٨] وقال: ﴿لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [الأنعام: ٩٤]

ب. وقيل: هذا من كذبهم يوم القيامة على حد قوله: ﴿وَاللهِ رَبِّنا ما كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾

٨. ﴿كَذلِكَ يُضِلُّ اللهُ الْكافِرِينَ﴾:

أ. أي إضلاله تعالى للكافرين وهم الساترون للحق يشبه هذا الضلال وهو أنهم يرون الباطل حقا فيقصدونه ثم يتبين لهم بعد ضلال سعيهم أنه لم يكن إلا باطلا في صورة حق وسرابا في سيماء الحقيقة.

ب. والمعنى: على الوجه الثاني أعني كون قولهم: ﴿بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئاً﴾ كذبا منهم: كمثل هذا الإضلال يضل الله الكافرين فيئول أمرهم إلى الكذب حيث لا ينفع مع علمهم بأنه لا ينفع.

وقد فسرت الجملة بتفاسير أخرى متقاربة وقريبة مما ذكرناه.

٩. ﴿ذلِكُمْ بِما كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِما كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ﴾:

أ. الفرح مطلق السرور، والمرح الإفراط فيه وهو مذموم، وقال الراغب: (الفرح انشراح الصدر بلذة عاجلة وأكثر ما يكون ذلك في اللذات البدنية، وقال: المرح شدة الفرح والتوسع في

ب. ﴿ذلِكُمْ بِما كُنْتُمْ﴾ الإشارة إلى ما هم فيه من العذاب والباء في ﴿بِما كُنْتُمْ﴾ للسببية أو المقابلة.

ج. والمعنى: ذلكم العذاب الذي أنتم فيه بسبب كونكم تفرحون في الأرض بغير الحق من اللذات العاجلة وبسبب كونكم تفرطون في الفرح وذلك لتعلق قلوبهم بعرض الدنيا وزينتها ومعاداتهم لكل حق يخالف باطلهم فيفرحون ويمرحون بإحياء باطلهم وإماتة الحق واضطهاده.

د. قال في المجمع: (قيد الفرح وأطلق المرح لأن الفرح قد يكون بحق فيحمد عليه وقد يكون بالباطل فيذم عليه، والمرح لا يكون إلا باطلا)

١٠. ﴿ادْخُلُوا أَبْوابَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ أي ادخلوا أبوابها المقسومة لكم خالدين فيها فبئس مقام الذين يتكبرون عن الحق جهنم، وقد تقدم أن أبواب جهنم دركاتها.

٣٩. الصبر ووعد الله الحق:

المقطع [٣٩] من سورة غافر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنا يُرْجَعُونَ﴾ [غافر: ٧٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ٣٥٢»:

١. ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ﴾ لما بين مآل أمر المجادلين في آيات الله وهي النار وأن الله يضلهم بكفرهم فرع عليه أمر نبيه ﷺ بالصبر معللا ذلك بأن وعد الله حق.

٢. ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ﴾ هو عذاب الدنيا ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ بالموت فلم نرك ذلك

﴿فَإِلَيْنا يُرْجَعُونَ﴾ ولا يفوتوننا فننجز فيهم ما وعدناه.

٤٠. إرسال الرسل وقضاء الله بالحق وخسران المبطلين:

المقطع [٤٠] من سورة غافر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [غافر: ٧٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ٣٥٣»:

١. ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾:

أ. بيان لكيفية النصر المذكور في الآية السابقة أن آية النصر، التي جرت سنة الله على إنزالها للقضاء بين كل رسول وأمته وإظهار الحق على الباطل كما يشير إليه قوله: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [يونس: ٤٧]، لم يفوض أمرها إلى رسول من الرسل من قبلك بل كان يأتي بها من يأتي منهم بإذن الله، وحالك حالهم، فمن الممكن أن نأذن لك في الإتيان بها فنريك بعض ما نعدهم، ومن الممكن أن نتوفاك فلا نريك غير أن أمر الله إذا جاء قضي بينهم بالحق وخسر هنالك المبطلون، هذا ما يفيده السياق.

ب. فقوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ مسوق للإشارة إلى كون ما سيذكره سنة جارية منه تعالى.

٢. ﴿وما كانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ﴾ الآية وإن كانت أعم من الآية المعجزة التي يؤتاها الرسول لتأييد رسالته، والآية التي تنصر الحق وتقضي بين الرسول وبين أمته والكل بإذن الله لكن مورد الكلام كما استفدناه من السياق القسم الثاني وهي القاضية بين الرسول وأمته.

٣. ﴿فَإِذا جاءَ أَمْرُ اللهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾ أي فإذا جاء أمر الله بالعذاب قضي بالحق فأظهر الحق وأزهق الباطل وخسر عند ذلك المتمسكون بالباطل في دنياهم بالهلاك وفي آخرتهم بالعذاب الدائم.

٤. واستدل بالآية على أن من الرسل من لم تذكر قصته في القرآن، وفيه أن الآية مكية لا تدل على أزيد من عدم ذكر قصة بعض الرسل إلى حين نزولها بمكة، وقد ورد في سورة النساء: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ [النساء: ١٦٤] ولم يذكر في السور النازلة بعد

سورة النساء اسم أحد من الرسل المذكورين بأسمائهم في القرآن، وفي المجمع: (وروي عن علي عليه السلام أنه قال: بعث الله نبيا أسود لم يقص علينا قصته، وروي في الدر المنثور عن الطبراني في الأوسط وابن مردويه عنه ما في معناه.

٤١. تسخير الأنعام للركوب والأكل والكثير من المنافع:

المقطع [٤١] من سورة غافر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿اللهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللهِ تُنْكِرُونَ﴾ [غافر: ٧٩-٨١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ٣٥٥»:

١. ﴿اللهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعامَ لِتَرْكَبُوا مِنْها وَمِنْها تَأْكُلُونَ﴾:

أ. ذكر سبحانه مما ينتفع به الإنسان في حياته ويدبر به أمره الأنعام والمراد بها الإبل والبقر والغنم، وقيل: المراد بها هاهنا الإبل خاصة.

ب. فقوله: ﴿جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعامَ لِتَرْكَبُوا مِنْها وَمِنْها تَأْكُلُونَ﴾ الجعل هنا الخلق أو التسخير، واللام في ﴿لِتَرْكَبُوا﴾ للغرض و(من) للتبعيض، والمعنى خلق لأجلكم أو سخر لكم الأنعام والغرض من هذا الجعل أن تركبوا بعضها كبعض الإبل وبعضها كبعض الإبل والبقر والغنم تأكلون.

٢. ﴿وَلَكُمْ فِيها مَنافِعُ﴾ كانتفاعكم بألبانها وأصوافها وأوبارها وأشعارها وجلودها وغير ذلك، وقوله: ﴿وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْها حاجَةً فِي صُدُورِكُمْ﴾ أي ومن الغرض من جعلها أن تبلغوا، حال كونكم عليها بالركوب، حاجة في صدوركم وهي الانتقال من مكان إلى مكان لأغراض مختلفة.

٣. ﴿وَعَلَيْها وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ كناية عن قطع البر والبحر بالأنعام والفلك.

٤. ﴿وَيُرِيكُمْ آياتِهِ فَأَيَّ آياتِ اللهِ تُنْكِرُونَ﴾ تقدم معنى إراءته تعالى آياته في تفسير أوائل السورة، وكأن الجملة أعني قوله: ﴿وَيُرِيكُمْ آياتِهِ﴾ غير مقصودة لنفسها حتى يلزم التكرار وإنما هي تمهيد وتوطئة للتوبيخ الذي في قوله: ﴿فَأَيَّ آياتِ اللهِ تُنْكِرُونَ﴾ أي أي هذه الآيات التي يريكم الله إياها عيانا وبيانا، تنكرون إنكارا يمهد لكم الإعراض عن توحيده.

٤٢. السير في الأرض والنظر في عاقبة المكذبين:

المقطع [٤٢] من سورة غافر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا

كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [غافر: ٨٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ٣٥٥»:

١. ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا﴾:

أ. توبيخ لهم وعطف لأنظارهم إلى ما جرى من سنة القضاء والحكم في الأمم السالفة، وقد تقدمت نظيرة الآية في أوائل السورة وكان الغرض هناك أن يتبين لهم أن الله أخذ كلا منهم بذنوبهم لما كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فيكفرون بهم ولذا ذيل الآية بقوله: ﴿فَأَخَذَهُمُ اللهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾، والغرض هاهنا أن يتبين لهم أنهم لم يغنهم ما كسبوا ولم ينفعهم في دفع عذاب الله ما فرحوا به من العلم الذي عندهم ولا توبتهم وندامتهم مما عملوا.

ب. وقد صدرت الآية بفاء التفريع فقيل: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا﴾ مع الالتفات من الخطاب إلى الغيبة، وكأن الكلام تفريع على قوله: ﴿فَأَيَّ آيَاتِ اللهِ تُنْكِرُونَ﴾ فكأنه لما ذمهم وأنكر إنكارهم لآياته رجع وانصرف عنهم إلى النبي ﷺ مشيرا إلى سقوطه من منزلة الخطاب وقال: إذا كانت آياته تعالى ظاهرة بينة لا تقبل الإنكار ومن جملتها ما في آثار الماضين من الآيات الناطقة وهم قد ساروا في الأرض وشاهدوها فلم لم ينظروا فيها فيتبين لهم أن الماضين مع كونهم أقوى من هؤلاء كما وكيفا لم ينفعهم ما فرحوا به من علم وقوة.

٤٣. فرح المكذبين بما عندهم من العلم:

المقطع [٤٣] من سورة غافر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [غافر: ٨٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ٣٥٦»:

١. ﴿فَلَمَّا جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَرِحُوا بِما عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾:

أ. ضمائر الجمع في الآية، وهي سبع، للذين من قبلهم، والمراد بما عندهم من العلم ما وقع في قلوبهم وشغل نفوسهم من زينة الحياة الدنيا وفنون التدبير للظفر بها وبلوغ لذائذها وقد عد الله سبحانه ذلك علما لهم وقصر علمهم فيه، قال تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ [الروم: ٧]، وقال: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ

الْعِلْمِ﴾ [النجم: ٢٩-٣٠]

ب. والمراد بفرحهم بما عندهم من العلم شدة إعجابهم بما كسبوه من الخبرة والعلم الظاهري وانجذابهم إليه الموجب لإعراضهم عن المعارف الحقيقية التي جاءت بها رسلهم، واستهانتهم بها وسخريتهم لها، ولذا عقب فرحهم بما عندهم من العلم بقوله: ﴿وَحاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ﴾

٢. وفي معنى قوله: ﴿فَرِحُوا بِما عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾ أقوال أخر:

أ. منها: أن المراد بما عندهم من العلم عقائدهم الفاسدة وآراؤهم الباطلة وتسميتها علما للتهكم فهم كانوا يفرحون بها ويستحقرون لذلك علم الرسل، وأنت خبير بأنه تصوير من غير دليل.

ب. ومنها: أن المراد بالعلم هو علوم الفلاسفة من اليونان والدهريين فكانوا إذا سمعوا بالوحي ومعارف النبوة صغروا علم الأنبياء وتبجحوا بما عندهم، وهو كسابقه على أنه لا ينطبق على أحد من الأمم التي قص القرآن قصتهم كقوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وقوم لوط وقوم شعيب وغيرهم.

ج. ومنها: أن أصل المعنى فلما جاءتهم رسلهم بالبينات لم يفرحوا بما جاءهم من العلم فوضع موضعه فرحوا بما عندهم من الجهل ثم بدل الجهل علما تهكما فقيل: فرحوا بما عندهم من العلم، وهذا الوجه، على ما فيه من التكلف والبعد من الفهم، يرد عليه ما يرد على الأول.

د. ومنها: أن ضمير ﴿فَرِحُوا﴾ للكفار وضمير ﴿عِنْدَهُمْ﴾ للرسل، والمعنى فرح الكفار بما عند الرسل من العلم فرح ضحك واستهزاء وفيه أن لازمه اختلاف الضمائر المتسقة مضافا إلى أن الضحك والاستهزاء لا يسمى فرحا ولا قرينة.

هـ. ومنها: أن ضميري ﴿فَرِحُوا بِما عِنْدَهُمْ﴾ للرسل، والمعنى أن الرسل لما جاءوهم وشاهدوا ما هم فيه من الجهل والتمادي على الكفر والجحود وعلموا عاقبة أمرهم فرحوا بما عندهم من العلم الحق وشكروا الله على ذلك.

• وفيه أن سياق الآيات أصدق شاهد على أنها سيقت لبيان حال الكفار بعد إتيان رسلهم بالبينات وكيف آلت إلى نزول العذاب ولم ينفعهم الإيمان بعد مشاهدة البأس؟

• وأي ارتباط له بفرح الرسل بعلومهم الحقة؟ على أن لازمه أيضا اختلاف الضمائر.

٤٤. إيمان الكفار عند رؤية البأس:

المقطع [٤٤] من سورة غافر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾ [غافر: ٨٤-٨٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ٣٥٧»:

١. ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنا قالُوا آمَنَّا بِاللهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنا بِما كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾ البأس شدة العذاب، والباقي ظاهر.

٢. ﴿فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنا﴾ وذلك لعدم استناد الإيمان حينئذ إلى الاختيار، وقوله: ﴿سُنَّتَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبادِهِ﴾ أي سنها الله سنة ماضية في عباده أن لا تقبل توبة بعد رؤية البأس ﴿وَخَسِرَ هُنالِكَ الْكافِرُونَ﴾

سورة فصلت

هذه السورة الكريمة تحتوي على [٣٠] مقطعاً، وهذا تعريف بمقاصدها، ومحتويات مقاطعها:

مقاصد السورة ومحتوياتها:

أ. تتكلم السورة حول إعراضهم عن الكتاب المنزل عليهم وهو القرآن الكريم، فهو الغرض الأصلي، ولذلك ترى طائف الكلام يطوف حوله ويبتدئ به ثم يعود إليه فصلاً بعد فصل.

ب. فقد افتتح بقوله: ﴿تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ﴾ إلخ، ثم قيل: ﴿وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهذَا الْقُرْآنِ﴾ إلخ، وقيل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آياتِنا لا يَخْفَوْنَ عَلَيْنا﴾ إلخ، وقيل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جاءَهُمْ﴾ إلخ، وقيل ـ وهو في خاتمة الكلام ـ: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كانَ مِنْ عِنْدِ اللهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ﴾ إلخ.

ج. ولازم إعراضهم عن كتاب الله إنكار الأصول الثلاثة التي هي أساس دعوته الحقة، وهي الوحدانية والنبوة والمعاد، فبسطت الكلام فيها وضمنته التبشير والإنذار.

د. والسورة مكية لشهادة مضامين آياتها على ذلك، وهي من السور النازلة في أوائل البعثة على ما يستفاد من الروايات.

مقاطع السورة ونظمها:

١. الآيات [١ ـ ١٢] لم يذكر البيان المرتبط بها، وهي تذكر أن القرآن الكريم كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون، وتذكر أن أكثرهم معرضون، وتصف خلق السماوات والأرض في ستة أيام، وتسخير الجبال والأقوات والبركات.

٢. الآيات [١٣ ـ ٢٥]:

أ. الآيات تتضمن الإنذار بالعذاب الدنيوي الذي ابتليت به عاد وثمود بكفرهم بالرسل وجحدهم لآيات الله.

ب. وبالعذاب الأخروي الذي سيبتلى به أعداء الله من أهل الجحود الذين حقت عليهم كلمة العذاب.

ج. وفيها إشارة إلى كيفية إضلالهم في الدنيا، وإلى استنطاق أعضائهم في الآخرة.

٣. الآيات [٢٦ ـ ٣٩]:

أ. رجوع إلى حديث كفرهم بالقرآن المذكور في أول السورة، وذكر كيدهم لإبطال حجته.

ب. وفي الآيات ذكر الكفار وبعض ما في عقبى ضلالتهم، وأهل الاستقامة من المؤمنين وبعض ما لهم في الآخرة، ومتفرقات أخر.

٤. الآيات [٤٠ ـ ٥٤]:

أ. عودة أخرى إلى حديث القرآن وكفرهم به على ظهور آيته ورفعة درجته، وما فرطوا في جنبه، ورميهم النبي ﷺ وجحدهم الحق وكفرهم بالآيات وما يتبع ذلك.

ب. وتختتم السورة.

ج. والآية الأولى أعني قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا﴾ الآية، كالبرزخ الرابط بين هذا الفصل والفصل السابق من الآيات، لما وقعت بين قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جاءَهُمْ﴾ الآية، وبين قوله: ﴿وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهذَا الْقُرْآنِ﴾ الآية وقوله: ﴿وَمِنْ آياتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهارُ﴾

١. تنزيل القرآن الكريم وإعراض أكثر الناس عنه:

المقطع [١] من سورة فصلت، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿حم تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ﴾ [فصلت: ١ـ٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ٣٥٩»:

١. ﴿حم تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ خبر مبتدإ محذوف، والمصدر بمعنى المفعول، والتقدير هذا منزل من الرحمن الرحيم، والتعرض للصفتين الكريمتين: الرحمن الدال على الرحمة العامة للمؤمن والكافر، والرحيم الدالة على الرحمة الخاصة بالمؤمنين للإشارة إلى أن هذا التنزيل يصلح للناس دنياهم كما يصلح لهم آخرتهم.

٢. ﴿كِتابٌ فُصِّلَتْ آياتُهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ خبر بعد خبر، والتفصيل يقابل الإحكام والإجمال، والمراد بتفصيل آيات القرآن تمييز أبعاضه بعضها من بعض بإنزاله إلى مرتبة البيان بحيث يتمكن

السامع العارف بأساليب البيان من فهم معانيه وتعقل مقاصده وإلى هذا يشير قوله تعالى: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١]، وقوله: ﴿وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [الزخرف: ٢-٤]

٣. ﴿قُرْآناً عَرَبِيًّا﴾:

أ. حال من الكتاب أو من آياته، وقوله: ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ اللام للتعليل أو للاختصاص، ومفعول ﴿يَعْلَمُونَ﴾ إما محذوف والتقدير لقوم يعلمون معانيه لكونهم عارفين باللسان الذي نزل به وهم العرب وإما متروك والمعنى لقوم لهم علم.

ب. ولازم المعنى الأول أن يكون هناك عناية خاصة بالعرب في نزول القرآن عربيا وهو الذي يشعر به أيضا قوله الآتي: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآناً أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾ الآية وقريب منه قوله: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٩]

ج. ولا ينافي ذلك عموم دعوته ﷺ لعامة البشر لأن دعوته ﷺ كانت مرتبة على مراحل فأول ما دعا دعا الناس بالموسم فقوبل بإنكار شديد منهم ثم كان يدعو بعد ذلك سرا مدة ثم أمر بدعوة عشيرته الأقربين كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤] ثم أمر بدعوة قومه كما يشير إليه قوله: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الحجر: ٩٤] ثم أمر بدعوة الناس عامة كما يشير إليه قوله: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وقوله: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩]

د. على أن من المسلم تاريخا أنه كان من المؤمنين به سلمان وكان فارسيا، وبلال وكان حبشيا، وصهيب وكان روميا، ودعوته لليهود ووقائعه ﷺ معهم، وكذا كتابه إلى ملك إيران ومصر والحبشة والروم في دعوتهم إلى الإسلام كل ذلك دليل على عموم الدعوة.

٤. ﴿بَشِيراً وَنَذِيراً فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ﴾ ﴿بَشِيراً وَنَذِيراً﴾ حالان من الكتاب في الآية السابقة، والمراد بالسمع المنفي سمع القبول كما يدل عليه قرينة الإعراض.

٥. ﴿وَقالُوا قُلُوبُنا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونا إِلَيْهِ﴾:

أ. قال الراغب: (الكن ما يحفظ فيه الشيء قال: الكنان الغطاء الذي يكن فيه الشيء والجمع أكنة

نحو غطاء وأغطية قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنا عَلى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾)

ب. فقوله: ﴿قُلُوبُنا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونا إِلَيْهِ﴾ كناية عن كون قلوبهم بحيث لا تفقه ما يدعو ﷺ إليه من التوحيد كأنها مغطاة بأغطية لا يتطرق إليها شيء من خارج.

٦. ﴿وَفِي آذانِنا وَقْرٌ﴾ أي ثقل من الصمم فلا تسمع شيئا من هذه الدعوة، وقوله: ﴿وَمِنْ بَيْنِنا وَبَيْنِكَ حِجابٌ﴾ أي حاجز يحجزنا منك فلا نجتمع معك على شيء مما تريد فقد أيأسوه ﷺ من قبول دعوته بما أخبروه أولا بكون قلوبهم في أكنة فلا تقع فيها دعوته حتى يفقهوها، وثانيا بكون طرق ورودها إلى القلوب وهي الآذان مسدودة فلا تلجها دعوة ولا ينفذ منها إنذار وتبشير، وثالثا بأن بينهم وبينه ﷺ حجابا مضروبا لا يجمعهم معه جامع وفيه تمام الإياس.

٧. ﴿فَاعْمَلْ إِنَّنا عامِلُونَ﴾:

أ. تفريع على ما سبق، ولا يخلو من شوب تهديد، وعليه فالمعنى إذا كان لا سبيل إلى التفاهم بيننا فاعمل بما يمكنك العمل به في إبطال أمرنا إننا عاملون في إبطال أمرك.

ب. وقيل: المعنى فاعمل على دينك فإننا عاملون على ديننا، وقيل: المعنى فاعمل في هلاكنا فإننا عاملون في هلاكك، ولا يخلوان من بعد.

٨. أحاديث وآثار: أخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وأبو يعلى والحاكم وصححه وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقي كلاهما في الدلائل وابن عساكر عن جابر بن عبد الله قال: اجتمع قريش يوما فقالوا: انظروا أعلمكم بالسحر والكهانة والشعر، فليأت هذا الرجل الذي قد فرق جماعتنا، وشتت أمرنا وعاب ديننا، فليكلمه ولينظر ما ذا يرد عليه؟ فقالوا: ما نعلم أحدا غير عتبة بن ربيعة، قالوا: أنت يا أبا الوليد، فأتاه فقال: يا محمد أنت خير أم عبد الله؟ أنت خير أم عبد المطلب؟ فسكت رسول الله ﷺ، قال: فإن كنت تزعم أن هؤلاء خير منك، فقد عبدوا الآلهة التي عبدت، وإن كنت تزعم أنك خير منهم، فتكلم حتى نسمع منك، أما والله ما رأينا سلحة قط أشأم على قومك منك، فرقت جماعتنا، وشتت أمرنا وعبت ديننا، وفضحتنا في العرب، حتى لقد طار فيهم أن في قريش ساحرا، وأن في قريش كاهنا، والله ما ننتظر إلا مثل صيحة الحبلى، أن يقوم بعضنا إلى بعض بالسيوف، يا أيها الرجل إن كان نما بك الحاجة جمعنا لك، حتى تكون أغنى قريش رجلا واحدا، وإن كان نما بك الباءة فاختر أي نساء قريش شئت، فلنزوجك عشرا،

فقال رسول الله ﷺ: فرغت؟ قال: نعم، فقال رسول الله ﷺ: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ حم تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ كِتابٌ فُصِّلَتْ آياتُهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ حتى بلغ ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صاعِقَةً مِثْلَ صاعِقَةِ عادٍ وَثَمُودَ﴾، فقال عتبة: حسبك، ما عندك غير هذا؟ قال: لا، فرجع إلى قريش فقالوا: ما وراءك؟ قال: ما تركت شيئا أرى أنكم تكلمون به إلا كلمته، قالوا: فهل أجابك؟ قال: والذي نصبها بنية ما فهمت شيئا مما قال، غير أنه قال: ﴿أَنْذَرْتُكُمْ صاعِقَةً مِثْلَ صاعِقَةِ عادٍ وَثَمُودَ﴾ قالوا: ويلك يكلمك الرجل بالعربية وما تدري ما قال؟ قال: لا والله ما فهمت شيئا مما قال غير ذكر الصاعقة.

• أقول: ورواه عن عدة من الكتب قريبا منه، وفي بعض الطرق: قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال: والله إني قد سمعت قولا ما سمعت بمثله قط، والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة، والله ليكونن لقوله الذي سمعت نبأ، وفي بعضها غير ذلك.

• وفي تلاوته ﷺ آيات أول السورة على الوليد بن المغيرة رواية أخرى ستوافيك إن شاء الله في تفسير سورة المدثر في ذيل قوله تعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً﴾ الآيات.

٢. بشرية النبي والدعوة للتوحيد والاستقامة والاستغفار:

المقطع [٢] من سورة فصلت، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّما أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّما إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كافِرُونَ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [فصلت: ٦ـ٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ٣٦١»:

١. ﴿قُلْ إِنَّما أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحى إِلَيَّ أَنَّما إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ﴾ في مقام الجواب عن قولهم: ﴿قُلُوبُنا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونا إِلَيْهِ﴾ على ما يعطيه السياق فمحصله قل لهم: إنما أنا بشر مثلكم أعاشركم كما يعاشر بعضكم بعضا وأكلمكم كما يكلم أحدكم صاحبه فلست من جنس يباينكم كالملك حتى يكون بيني وبينكم حجاب مضروب أو لا ينفذ كلامي في آذانكم أو لا يرد قولي في قلوبكم غير أن الذي أقول لكم وأدعوكم إليه وحي يوحى إلي وهو إنما إلهكم الذي يستحق أن تعبدوه إله واحد لا آلهة متفرقون.

٢. ﴿فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ﴾ أي فإذا لم يكن إلا إلها واحدا لا شريك له فاستووا إليه بتوحيده

ونفي الشركاء عنه واستغفروه فيما صدر عنكم من الشرك والذنوب.

٣. ﴿وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كافِرُونَ﴾:

أ. تهديد للمشركين الذين يثبتون لله شركاء ولا يوحدونه، وقد وصفهم من أخص صفاتهم بصفتين هما عدم إيتائهم الزكاة وكفرهم بالآخرة.

ب. والمراد بإيتاء الزكاة مطلق إنفاق المال للفقراء والمساكين لوجه الله فإن الزكاة بمعنى الصدقة الواجبة في الإسلام لم تكن شرعت بعد عند نزول السورة وهي من أقدم السور المكية.

ج. وقيل: المراد بإيتاء الزكاة تزكية النفس وتطهيرها من أوساخ الذنوب وقذارتها وإنماؤها نماء طيبا بعبادة الله سبحانه، وهو حسن لو حسن إطلاق إيتاء الزكاة على ذلك.

٤. ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كافِرُونَ﴾ وصف آخر للمشركين هو من لوازم مذهبهم وهو إنكار المعاد، ولذلك أتى بضمير الفصل ليفيد أنهم معروفون بالكفر بالآخرة.

٥. ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾:

أ. أي غير مقطوع بل متصل دائم كما فسره بعضهم، وفسره آخرون بغير معدود كما قال تعالى: ﴿يُرْزَقُونَ فِيها بِغَيْرِ حِسابٍ﴾

ب. وجوز أن يكون المراد أنه لا أذى فيه من المن الذي يكدر الصنيعة، ويمكن أن يوجه هذا الوجه بأن في تسمية ما يؤتونه بالأجر دلالة على ذلك لإشعاره بالاستحقاق وإن كان هذا الاستحقاق بجعل من الله تعالى لا لهم من عند أنفسهم قال تعالى: ﴿إِنَّ هذا كانَ لَكُمْ جَزاءً وَكانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُوراً﴾ الدهر:.

٣. خلق الأرض في يومين وتقدير الأقوات في أربعة أيام:

المقطع [٣] من سورة فصلت، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ﴾ [فصلت: ٩-١٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ٣٦٢»:

١. ﴿قُلْ أَإِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْداداً﴾:

أ. أمره ثانيا أن يستفهم عن كفرهم بالله بمعنى شركهم مع ظهور آيات وحدانية في خلق السماوات والأرض وتدبير أمرهما بعد ما أمره أولا بدفع قولهم: ﴿قُلُوبُنا فِي أَكِنَّةٍ﴾

ب. والاستفهام للتعجيب ولذا أكد المستفهم عنه بأن واللام كأن المستفهم لا يكاد يذعن بكفرهم بالله وقولهم بالأنداد مع ظهور المحجة واستقامة الحجة.

٢. ﴿وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْداداً﴾ تفسير لقوله: ﴿لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ﴾، والأنداد جمع ند وهو المثل، والمراد بجعل الأنداد له اتخاذ شركاء له يماثلونه في الربوبية والألوهية.

٣. ﴿ذلِكَ رَبُّ الْعالَمِينَ﴾ في الإشارة بلفظ البعيد رفع لساحته تعالى وتنزيهه عن أمثال هذه الأوهام فهو رب العالمين المدبر لأمر الخلق أجمعين فلا مسوغ لأن يتوهم ربا آخر سواه وإلها آخر غيره.

٤. المراد باليوم في قوله: ﴿خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾:

أ. برهة من الزمان دون مصداق اليوم الذي نعهده ونحن على بسيط أرضنا هذه وهو مقدار حركة الكرة الأرضية حول نفسها مرة واحدة فإنه ظاهر الفساد، وإطلاق اليوم على قطعة من الزمان تحوي حادثة من الحوادث كثير الورود شائع الاستعمال، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَيّامُ ﴿نُداوِلُها بَيْنَ النّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠]، وقوله: ﴿فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلّا مِثْلَ أَيّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ [يونس: ١٠٢]، وغير ذلك.

ب. فاليومان اللذان خلق الله فيهما الأرض قطعتان من الزمان تم فيهما تكون الأرض أرضا تامة، وفي عدهما يومين لا يوما واحدا دليل على أن الأرض لاقت زمان تكونها الأولي مرحلتين متغايرتين كمرحلة النيء والنضج أو الذوبان والانعقاد أو نحو ذلك.

٥. ﴿وَجَعَلَ فِيها رَواسِيَ مِنْ فَوْقِها﴾:

أ. معطوف على قوله: ﴿خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ ولا ضير في تخلل الجملتين: ﴿وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْداداً ذلِكَ رَبُّ الْعالَمِينَ﴾ بين المعطوف والمعطوف عليه لأن الأولى تفسير لقوله: ﴿لَتَكْفُرُونَ﴾ والثانية تقرير للتعجيب الذي يفيده الاستفهام.

ب. والرواسي صفة لموصوف محذوف والتقدير جبالا رواسي أي ثابتات على الأرض وضمائر التأنيث الخمس في الآية للأرض.

٦. ﴿وَبارَكَ فِيها﴾ أي جعل فيها الخير الكثير الذي ينتفع به ما على الأرض من نبات وحيوان وإنسان في حياته أنواع الانتفاعات.

٧. ﴿وَقَدَّرَ فِيها أَقْواتَها فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَواءً لِلسَّائِلِينَ﴾:

أ. قيل: الظرف أعني قوله: ﴿فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ بتقدير مضاف وهو متعلق بقدر، والتقدير قدر الأقوات في تتمة أربعة أيام من حين بدء الخلق، فيومان لخلق الأرض ويومان، وهما تتمة أربعة أيام، لتقدير الأقوات.

ب. وقيل: متعلق بحصول الأقوات وتقدير المضاف على حاله، والتقدير قدر حصول أقواتها في تتمة أربعة أيام، فيها خلق الأرض وأقواتها جميعا.

ج. وقيل: متعلق بحصول جميع الأمور المذكورة من جعل الرواسي من فوقها والمباركة فيها وتقدير أقواتها والتقدير وحصول ذلك كله في تتمة أربعة أيام وفيه حذف وتقدير كثير.

د. وجعل الزمخشري في الكشاف، الظرف متعلقا بخبر مبتدإ محذوفين من غير تقدير مضاف والتقدير كل ذلك كائن في أربعة أيام فيكون قوله: ﴿فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ من قبيل الفذلكة كأنه قيل: خلق الأرض في يومين وأقواتها وغير ذلك في يومين فكل ذلك في أربعة أيام.

هـ. قالوا: وإنما لم يجز حمل الآية على أن جعل الرواسي وما ذكر عقيبه أو تقدير الأقوات في أربعة أيام لأن لازمه كون خلق الأرض وما فيها في ستة أيام وقد ذكر بعده أن السماوات خلقت في يومين فيكون المجموع ثمانية أيام وقد تكرر في كلامه تعالى أنه خلق السماوات والأرض في ستة أيام فهذا هو الوجه في حمل الآية على أحد الوجوه السابقة على ما فيها من ارتكاب الحذف والتقدير.

و. والإنصاف أن الآية أعني قوله: ﴿وَقَدَّرَ فِيها أَقْواتَها فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَواءً لِلسَّائِلِينَ﴾ ظاهرة في غير ما ذكروه والقرائن الحافة بها تؤيد كون المراد بها تقدير أقواتها في الفصول الأربعة التي يكونها ميل الشمس الشمالي والجنوبي بحسب ظاهر الحس فالأيام الأربعة هي الفصول الأربعة.

ز. والذي ذكر في هذه الآيات من أيام خلق السماوات والأرض أربعة أيام يومان لخلق الأرض ويومان لتسوية السماوات سبعا بعد كونها دخانا وأما أيام الأقوات فقد ذكرت أياما لتقديرها لا لخلقها، وما تكرر في كلامه تعالى هو خلق السماوات والأرض في ستة أيام لا مجموع خلقها وتقدير أمرها فالحق أن الظرف قيد للجملة الأخيرة فقط ولا حذف ولا تقدير في الآية والمراد بيان تقدير أقوات الأرض وأرزاقها في الفصول الأربعة من السنة.

٨. ﴿سَواءً لِلسَّائِلِينَ﴾:

أ. مفعول مطلق لفعل مقدر أي استوت الأقوات المقدرة استواء للسائلين أو حال من الأقوات أي قدرها حال كونها مستوية للسائلين يقتاتون بها جميعا وتكفيهم من دون زيادة أو نقيصة.

ب. والسائلون هم أنواع النبات والحيوان والإنسان فإنهم محتاجون في بقائهم إلى الأرزاق والأقوات فهم سائلون ربهم قال تعالى: ﴿يَسْئَلُهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾:، وقال: ﴿وَآتاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ [إبراهيم: ٣٤]

٩. أحاديث وآثار:

أ. أخرج ابن جرير عن أبي بكر قال: جاء اليهود إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا محمد، أخبرنا ما خلق الله من الخلق في هذه الأيام الستة؟ فقال: خلق الله الأرض يوم الأحد والإثنين، وخلق الجبال يوم الثلاثاء، وخلق المدائن والأقوات والأنهار، وعمرانها وخرابها يوم الأربعاء، وخلق السماوات والملائكة يوم الخميس، إلى ثلاث ساعات يعني من يوم الجمعة، وخلق في أول ساعة الآجال، وفي الثانية الآفة وفي الثالثة آدم، قالوا: صدقت إن تممت، فعرف النبي ﷺ ما يريدون فغضب فأنزل الله ﴿وَما مَسَّنا مِنْ لُغُوبٍ فَاصْبِرْ عَلى ما يَقُولُونَ﴾

ب. وروي ما يقرب منه عن ابن عباس وعبد الله بن سلام وعن عكرمة وغيره وقد ورد في بعض أخبار الشيعة، وقوله: قالوا: صدقت إن تممت أي تممت كلامك في الخلق بأن تقول: إنه تعالى فرغ من الخلق يوم السبت واستراح فيه.

• والروايات لا تخلو من شيء:

● أما أولا: فمن جهة اشتمالها على تصديق اليهود ما ذكر فيها من ترتيب الخلق وهو مخالف لما ورد في أول سفر التكوين من التوراة مخالفة صريحة ففيها أنه خلق النور والظلمة، النهار والليل، يوم الأحد، وخلق السماء يوم الإثنين، وخلق الأرض والبحار والنبات يوم الثلاثاء وخلق الشمس والقمر والنجوم يوم الأربعاء وخلق دواب البحر والطير يوم الخميس، وخلق حيوان البر والإنسان يوم الجمعة وفرغ من الخلق يوم السبت واستراح فيه، والقول بأن التوراة الحاضرة غير ما كان في عهد النبي ﷺ كما ترى.

● وأما ثانيا: فلأن اليوم من الأسبوع وهو نهار مع ليلته يتوقف في كينونته على حركة الأرض

الوضعية دورة واحدة قبال الشمس فما معنى خلق الأرض في يومين ولم يخلق السماء والسماويات بعد ولا تمت الأرض كرة متحركة؟ ونظير الإشكال جار في خلق السماء والسماويات ومنها الشمس ولا يوم حيث لا شمس بعد.

• وأما ثالثا: فلأنه عد فيها يوم لخلق الجبال وقد جزم الفحص العلمي بأنها تخلق تدريجا، ونظير الإشكال جار في خلق المدائن والأنهار والأقوات.

ج. وفي روضة الكافي، بإسناده عن محمد بن عطية عن أبي جعفر عليه السلام أنه قال: وخلق الشيء الذي جميع الأشياء منه، وهو الماء الذي خلق الأشياء منه، فجعل نسب كل شيء إلى الماء، ولم يجعل للماء نسبا يضاف إليه، وخلق الريح من الماء، ثم سلط الريح على الماء فشققت الريح متن الماء، حتى ثار من الماء زبد على قدر ما شاء أن يثور، فخلق من ذلك الزبد أرضا بيضاء نقية، ليس فيها صدع ولا ثقب، ولا صعود ولا هبوط ولا شجرة، ثم طواها فوضعها فوق الماء، ثم خلق الله النار من الماء فشققت النار متن الماء، حتى ثار من الماء دخان على قدر ما شاء الله أن يثور، فخلق من ذلك الدخان سماء صافية نقية، ليس فيها صدع ولا ثقب، وذلك قوله: ﴿السَّماءُ بَناها﴾

• أقول: وفي هذه المعنى بعض روايات أخر، ويمكن تطبيق ما في الرواية وكذا مضامين الآيات على ما تسلمته الأبحاث العلمية اليوم في خلق العالم وهيئته غير أنا تركنا ذلك احترازا من تحديد الحقائق القرآنية بالأحداس والفرضيات العلمية ما دامت فرضية غير مقطوع بها من طريق البرهان العلمي.

٤. خلق السماوات وتزيين السماء الدنيا بالمصابيح:

المقطع [٤] من سورة فصلت، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [فصلت: ١١-١٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ٣٦٥»:

١. ﴿ثُمَّ اسْتَوى إِلَى السَّماءِ وَهِيَ دُخانٌ فَقالَ لَها وَلِلْأَرْضِ ائْتِيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قالَتا أَتَيْنا طائِعِينَ﴾:

أ. الاستواء، على ما ذكره الراغب، إذا عدي بعلى أفاد معنى الاستيلاء نحو ﴿الرَّحْمنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوى﴾، وإذا عدي بإلى أفاد معنى الانتهاء إليه.

ب. وأيضا في المفردات، أن الكره بفتح الكاف المشتقة التي تنال الإنسان من خارج فيما يحمل عليه بإكراه، والكره بضم الكاف ما تناله من ذاته وهو يعافه.

ج. فقوله: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ﴾ أي توجه إليها وقصدها بالخلق دون القصد المكاني الذي لا يتم إلا بانتقال القاصد من مكان إلى مكان ومن جهة إلى جهة لتنزهه تعالى على ذلك.

د. وظاهر العطف بثم تأخر خلق السماوات عن الأرض لكن قيل: إن ﴿ثُمَّ﴾ لإفادة التراخي بحسب الخبر لا بحسب الوجود والتحقق ويؤيده قوله تعالى: ﴿أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا﴾ إلى أن قال: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا﴾ [النازعات: ٣٠-٣٢] فإنه يفيد تأخر الأرض عن السماء خلقا.

هـ. والاعتراض عليه بأن مفاده تأخر دحو الأرض عن بناء السماء ودحوها غير خلقها مدفوع بأن الأرض كروية فليس دحوها وبسطها غير تسويتها كرة وهو خلقها على أنه تعالى أشار بعد ذكر دحو الأرض إلى إخراج مائها ومرعاها وإرساء جبالها وهذه بعينها جعل الرواسي من فوقها والمباركة فيها وتقدير أقواتها التي ذكرها في الآيات التي نحن فيها مع خلق الأرض وعطف عليها خلق السماء بثم فلا مناص عن حمل ثم على غير التراخي الزماني فإن قوله في آية النازعات: ﴿بَعْدَ ذَلِكَ﴾ أظهر في التراخي الزماني من لفظة ﴿ثُمَّ﴾ فيه في آية حم السجدة والله أعلم.

٢. ﴿وَهِيَ دُخَانٌ﴾ حال من السماء أي استوى إلى السماء بالخلق حال كونها شيئا سماه الله دخانا وهو مادتها التي ألبسها الصورة وقضاها سبع سماوات بعد ما لم تكن معدودة متميزا بعضها من بعض، ولذا أفرد السماء فقال: ﴿اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ﴾

٣. ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً﴾:

أ. تفريع على استوائه إلى السماء والمورد مورد التكوين بلا شك فقوله لها وللأرض: ﴿ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً﴾ كلمة إيجاد وأمر تكويني كقوله لشيء أراد وجوده: كن، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ﴾ [يس: ٨٢]

ب. ومجموع قوله لهما: ﴿ائْتِيَا﴾ وقولهما له: ﴿أَتَيْنَا﴾ تمثيل لصفة الإيجاد والتكوين على الفهم الساذج العرفي وحقيقة تحليلية بناء على ما يستفاد من كلامه تعالى من سراية العلم في الموجودات وكون

تكليم كل شيء بحسب ما يناسب حاله، وقد أوردنا بعض الكلام فيه فيما تقدم من المباحث، وسيجيء شطر من الكلام فيه في تفسير قوله: ﴿قالُوا أَنْطَقَنَا اللهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الآية: ٢١] من السورة إن شاء الله.

ج. وقول بعضهم: إن المراد بقوله: ﴿ائْتِيا﴾ أمرهما بإظهار ما فيهما من الآثار والمنافع دون الأمر بأن توجدا وتكونا مدفوع بأن تكون السماء مذكور فيما بعد ولا معنى لتقديم الأمر بإظهار الآثار والمنافع قبل ذكر التكون.

د. وفي قوله: ﴿ائْتِيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً﴾ إيجاب الإتيان عليهما وتخييرهما بين أن تفعلا ذلك بطوع أو كره، ولعل المراد بالطوع والكره، وهما بوجه قبول الفعل ونوع ملاءمة وعدمه، هو الاستعداد السابق للكون وعدمه فيكون قوله: ﴿ائْتِيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً﴾ كناية عن وجوب إتيانهما بلا مناص وأنه أمر لا يتخلف البتة أرادتا أو كرهتا سألتاه أو لم تسألا فأجابتا أنهما يمتثلان الأمر عن استعداد سابق وقبول ذاتي وسؤال فطري إذ قالتا: ﴿أَتَيْنا طائِعِينَ﴾

هـ. وقول بعضهم: إن قوله: ﴿طَوْعاً أَوْ كَرْهاً﴾ تمثيل لتحتم تأثير قدرته تعالى فيهما واستحالة امتناعهما من ذلك لا إثبات الطوع والكره لهما، مدفوع بقوله بعد: ﴿قالَتا أَتَيْنا طائِعِينَ﴾ إذ لو كان الترديد المذكور تمثيلا فقط من غير إثبات كما ذكره لم يكن لإثبات الطوع في الجواب وجه.

٤. ﴿قالَتا أَتَيْنا طائِعِينَ﴾:

أ. جواب السماء والأرض لخطابه تعالى باختيار الطوع، والتعبير باللفظ الخاص بأولي العقل، طائعين، لمكان المخاطبة والجواب وهما من خواص أولي العقل، والتعبير بلفظ الجمع دون أن تقولا: أتينا طائعتين لعله تواضع منهما بعد أنفسهما غير متميزة من سائر مخلوقاته تعالى المطيعة لأمره فأجابتا عن لسان الجميع، نظير ما قيل في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾

ب. ثم إن تشريك الأرض مع السماء في خطاب ﴿ائْتِيا﴾ مع ذكر خلقها وتدبير أمرها قبلا لا يخلو من إشعار بأن بينهما نوع ارتباط في الوجود واتصال في النظام الجاري فيهما وهو كذلك فإن الفعل والانفعال والتأثير والتأثر دائر بين أجزاء العالم المشهود.

ج. وفي قوله: ﴿فَقالَ لَها وَلِلْأَرْضِ﴾ تلويح على أي حال إلى كون ﴿ثُمَّ﴾ في قوله: ﴿ثُمَّ اسْتَوى﴾

للتراخي بحسب رتبة الكلام.

٥. ﴿فَقَضاهُنَّ سَبْعَ سَماواتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحى فِي كُلِّ سَماءٍ أَمْرَها﴾:

أ. الأصل في معنى القضاء فصل الأمر، وضمير ﴿فَقَضاهُنَ﴾ للسماء على المعنى، و﴿سَبْعَ سَماواتٍ﴾ حال من الضمير و﴿فِي يَوْمَيْنِ﴾ متعلق بقضاهن فتفيد الجملة أن السماء لما استوى سبحانه إليها وهي دخان كان أمرها مبهما غير مشخص من حيث فعلية الوجود ففصل تعالى أمرها بجعلها سبع سماوات في يومين.

ب. وقيل: إن القضاء في الآية مضمن معنى التصيير و﴿سَبْعَ سَماواتٍ﴾ مفعوله الثاني، وقيل فيها وجوه أخر لا يهمنا إيرادها.

ج. والآية وما قبلها ناظرة إلى تفصيل ما أجمل في قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ [الأنبياء: ٣٠]

٦. ﴿وَأَوْحى فِي كُلِّ سَماءٍ أَمْرَها﴾:

أ. قيل: المراد بأمر السماء ما تستعد له أو تقتضيه الحكمة فيها من وجود ملك أو كوكب وما أشبه ذلك، والوحي هو الخلق والإيجاد، والجملة معطوفة على قوله: ﴿فَقَضاهُنَ﴾ مقيدة بالوقت المذكور للمعطوف عليه، والمعنى وخلق في كل سماء ما فيها من الملائكة والكواكب وغيرها.

• وأنت خبير بأن إرادة الخلق من الوحي وأمثال الملك والكوكب من الأمر تحتاج إلى عناية زائدة لا تثبت إلا بدليل بين، وكذا تقيد الجملة المعطوفة بالوقت المذكور في المعطوف عليها.

ب. وقيل: المراد بالأمر التكليف الإلهي المتوجه إلى أهل كل سماء من الملائكة والوحي بمعناه المعروف والمعنى وأوحى إلى أهل كل سماء من الملائكة ما أمرهم به من العبادة.

• وفيه أن ظاهر الآية وقد قال تعالى: ﴿فِي كُلِّ سَماءٍ﴾ ولم يقل: إلى كل سماء لا يوافقه تلك الموافقة.

ج. وقيل: المراد بأمرها ما أراده الله منها، وهذا الوجه في الحقيقة راجع إلى أحد الوجهين السابقين فإن أريد بالوحي الخلق والإيجاد رجع إلى أول الوجهين وإن أريد به معناه المعروف رجع إلى ثانيهما.

٧. والذي وقع في كلامه تعالى:

أ. من الأمر المتعلق بوجه بالسماء يلوح إلى معنى أدق مما ذكروه فقد قال تعالى: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ

السَّماءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ الم السجدة:، وقال: ﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَماوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢]، وقال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾ [المؤمنون: ١٧]

ب. دلت الآية الأولى على أن السماء مبدأ لأمره تعالى النازل إلى الأرض بوجه والثانية على أن الأمر يتنزل بين السماوات من سماء إلى سماء حتى ينتهي إلى الأرض، والثالثة على أن السماوات طرائق لسلوك الأمر من عند ذي العرش أو لسلوك الملائكة الحاملين للأمر إلى الأرض كما يشير إليه قوله: ﴿تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾ [القدر: ٤]، وقوله: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان: ٤]

ج. ولو كان المراد بالأمر أمره تعالى التكويني وهو كلمة الإيجاد كما يستفاد من قوله: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ﴾ [يس: ٨٢]، أفادت الآيات بانضمام بعضها إلى بعض أن الأمر الإلهي الذي مضيه في العالم الأرضي هو خلق الأشياء وحدوث الحوادث تحمله الملائكة من عند ذي العرش تعالى وتسلك في تنزيله طرق السماوات فتنزله من سماء إلى سماء حتى تنتهي به إلى الأرض.

د. وإنما تحمله ملائكة كل سماء إلى من دونهم كما يستفاد من قوله: ﴿حَتَّى إذا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قالُوا ما ذا قالَ رَبُّكُمْ قالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ سبأ: وقد تقدم الكلام فيه والسماوات مساكن الملائكة كما يستفاد من قوله: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ﴾ [النجم: ٢٦]، وقوله: ﴿لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ﴾ [الصافات: ٨]

هـ. فللأمر نسبة إلى كل سماء باعتبار الملائكة الساكنين فيها، ونسبة إلى كل قبيل من الملائكة الحاملين له باعتبار تحميله لهم وهو وحيه إليهم فإن الله سبحانه سماه قولا كما قال: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ﴾ [النحل: ٤٠]

و. فتحصل بما مر أن معنى قوله: ﴿وَأَوْحى فِي كُلِّ سَماءٍ أَمْرَها﴾ أوحى في كل سماء إلى أهلها من الملائكة الأمر الإلهي، المنسوب إلى تلك السماء المتعلق بها، وأما كون اليومين المذكورين في الآية ظرفا لهذا الوحي كما هما ظرف لخلق السماوات سبعا فلا دليل عليه من لفظ الآية.

٨. ﴿وَزَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِمَصابِيحَ وَحِفْظاً ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾:

أ. توصيف هذه السماء بالدنيا للدلالة على أنها أقرب السماوات من الأرض وهي طباق بعضها

فوق بعض كما قال: ﴿خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً﴾

ب. والظاهر من معنى تزيينها بمصابيح وهي الكواكب كما قال: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ﴾ [الصافات: ٦] أن الكواكب في السماء الدنيا أو دونها كالقناديل المعلقة ولو كانت متفرقة في جميع السماوات من غير حجب بعضها بعضا لكون السماوات شفافة كما قيل كانت زينة لجميعها ولم تختص الزينة ببعضها كما يفيده السياق فلا وجه لقول القائل: إنها في الجميع لكن لكونها ترى متلألئة على السماء الدنيا عدت زينة لها.

ج. وأما قوله: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ [نوح: ١٥-١٦] فهو بالنسبة إلينا معاشر المستضيئين بالليل والنهار كقوله: ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾ [النبأ: ١٣]

٩. ﴿وَحِفْظاً﴾ أي وحفظناها من الشياطين حفظا كما قال: ﴿وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ﴾ [الحجر: ١٧-١٨]

١٠. ﴿ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ إشارة إلى ما تقدم من النظم والترتيب.

١١. قد تحصل مما تقدم:

أ. أولا: أن المستفاد من ظاهر الآيات الكريمة، وليست بنص، أن السماء الدنيا من هذه السبع هي عالم النجوم والكواكب فوقنا.

ب. وثانيا: أن هذه السماوات السبع المذكورة جميعا من الخلق الجسماني فكأنها طبقات سبع متطابقة من عالم الأجسام أقربها منا عالم النجوم والكواكب، ولم يصف القرآن شيئا من السماوات الست الباقية دون أن ذكر أنها طباق.

ج. وثالثا: أن ليس المراد بالسماوات السبع الأجرام العلوية أو خصوص بعضها كالشمس والقمر أو غيرهما.

د. ورابعا:

• أن ما ورد من كون السماوات مساكن للملائكة وأنهم ينزلون منها بأمر الله حاملين له ويعرجون إليها بكتب الأعمال، وأن للسماء أبوابا لا تفتح للكفار وأن الأشياء والأرزاق تنزل منها وغير ذلك مما تشير

إليه متفرقات الآيات والروايات يكشف عن أن لهذه الأمور نوع تعلق بهذه السماوات لا كتعلق ما نراه من الأجسام بمحالها وأماكنها الجسمانية الموجبة لحكومة النظام المادي فيها وتسرب التغير والتبدل والدثور والفتور إليها.

• وذلك أن من الضروري اليوم أن لهذه الأجرام العلوية كائنة ما كانت كينونة عنصرية جسمانية تجري فيها نظائر الأحكام والآثار الجارية في عالمنا الأرضي العنصري والنظام الذي يثبت للسماء وأهلها والأمور الجارية فيها مما أشرنا إليه يباين هذا النظام العنصري المشهود، أضف إلى ذلك ما ورد أن الملائكة خلقوا من نور، وأن غذاءهم التسبيح، وما ورد من توصيف خلقهم، وما ورد في توصيف خلق السماوات وما خلق فيها إلى غير ذلك.

• فللملائكة عوالم ملكوتية سبعة مترتبة سميت سماوات سبعا ونسبت ما لها من الخواص والآثار إلى ظاهر هذه السماوات بلحاظ ما لها من العلو والإحاطة بالنسبة إلى الأرض تسهيلا للفهم الساذج.

١٢. أحاديث وآثار:

أ. وفي نهج البلاغة: فمن شواهد خلقه خلق السماوات، موطدات بلا عمد قائمات بلا سند، دعاهن فأجبن طائعات مذعنات، غير متلكئات ولا مبطئات، ولو لا إقرارهن له بالربوبية، وإذعانهن له بالطواعية، لما جعلهن موضعا لعرشه، ولا مسكنا لملائكته، ولا مصعدا للكلم الطيب والعمل الصالح من خلقه.

ب. وفي كمال الدين، بإسناده إلى فضيل الرسان قال: كتب محمد بن إبراهيم إلى أبي عبد الله عليه السلام: أخبرنا ما فضلكم أهل البيت؟ فكتب إليه أبو عبد الله عليه السلام: إن الكواكب جعلت أمانا لأهل السماء، فإذا ذهبت نجوم السماء، جاء أهل السماء ما كانوا يوعدون، وقال رسول الله ﷺ: جعل أهل بيتي أمانا لأمتي، فإذا ذهب أهل بيتي جاء أمتي ما كانوا يوعدون.

• أقول: وورد هذا المعنى في غير واحد من الروايات.

ج. وفي البحار، عن كتاب الغارات بإسناده عن ابن نباتة قال: سئل أمير المؤمنين عليه السلام كم بين السماء والأرض؟ قال: مد البصر ودعوة المظلوم.

• أقول: وهو من لطائف كلامه عليه السلام يشير به إلى ظاهر السماء وباطنها كما تقدم.

٥. إنذار المشركين بصاعقة مثل عاد وثمود:

المقطع [٥] من سورة فصلت، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ [فصلت: ١٣-١٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ٣٧٥»:

١. ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صاعِقَةً مِثْلَ صاعِقَةِ عادٍ وَثَمُودَ﴾:

أ. قال في المجمع: (الصاعقة المهلكة من كل شيء)، وقال الراغب: (قال بعض أهل اللغة: الصاعقة على ثلاثة أوجه: الموت كقوله: ﴿فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّماواتِ﴾ وقوله: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ﴾ والعذاب كقوله: ﴿أَنْذَرْتُكُمْ صاعِقَةً مِثْلَ صاعِقَةِ عادٍ وَثَمُودَ﴾ والنار كقوله: ﴿وَيُرْسِلُ الصَّواعِقَ فَيُصِيبُ بِها مَنْ يَشاءُ﴾ وما ذكره فهو أشياء حاصلة من الصاعقة فإن الصاعقة هي الصوت الشديد من الجو ثم يكون نار فقط أو عذاب أو موت وهي في ذاتها شيء واحد، وهذه الأشياء تأثيرات منها)

ب. وعلى ما مر تنطبق الصاعقة على عذابي عاد وثمود وهما الريح والصيحة، والتعبير بالماضي في قوله: ﴿أَنْذَرْتُكُمْ﴾ للدلالة على التحقق والوقوع.

٢. ﴿إِذْ جاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللهَ﴾:

أ. ظرف للصاعقة الثانية فإن الإنذار بالصاعقة بالحقيقة إنذار بوقوعها وحلولها فالمعنى مثل حلول صاعقة عاد وثمود إذ جاءتهم.

ب. ونسبة المجيء إلى الرسل وهو جمع، مع أن الذي ذكر في قصتهم رسولان هما هود وصالح، باعتبار أن الرسل دعوتهم واحدة والمبعوث منهم إلى قوم مبعوث لآخرين وكذا القوم المكذبون لأحدهم مكذبون لآخرين قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٢٣] وقال: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٤١]، وقال: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٦٠] إلى غير ذلك.

ج. وقول بعضهم: إن إطلاق الرسل وهو جمع على هود وصالح عليه السلام وهما اثنان من إطلاق الجمع على ما دون الثلاثة وهو شائع، ومن هذا القبيل إرجاع ضمير الجمع في قوله: ﴿إِذْ جاءَتْهُمُ﴾ إلى عاد وثمود، ممنوع بما تقدم، وأما إرجاع ضمير الجمع إلى عاد وثمود فإنما هو لكون مجموع الجمعين جمعا مثلهما.

٣. ﴿مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ أي من جميع الجهات فاستعمال هاتين الجهتين في جميع الجهات

شائع، وجوز أن يكون المراد به الماضي والمستقبل فقوله: ﴿جاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ كناية عن دعوتهم لهم من جميع الطرق الممكنة خلوة وجلوة وفرادى ومجتمعين بالتبشير والإنذار ولذلك فسر مجيئهم كذلك بعد بقوله: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللهَ﴾ وهو التوحيد.

٤. ﴿قالُوا لَوْ شاءَ رَبُّنا لَأَنْزَلَ مَلائِكَةً﴾ رد منهم لرسالتهم بأن الله لو شاء إرسال رسول إلينا لأرسل من الملائكة، وقد تقدم كرارا معنى قولهم هذا وأنه مبني على إنكارهم نبوة البشر.

٥. ﴿فَإِنَّا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ كافِرُونَ﴾ تفريع على النفي المفهوم من الجملة السابقة أي فإذا لم يشأ ولم يرسل فإنا بما أرسلتم به وهو التوحيد كافرون.

٦. استكبار عاد وإرسال الريح الصرصر عليهم:

المقطع [٦] من سورة فصلت، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ﴾ [فصلت: ١٥-١٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ٣٧٦»:

١. ﴿فَأَمَّا عادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ رجوع إلى تفصيل حال من كل الفريقين على حدته، من كفرهم ووبال ذلك، وقوله: ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ قيد توضيحي للاستكبار في الأرض فإنه بغير الحق دائما، والباقي ظاهر.

٢. ﴿فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي أَيَّامٍ نَحِساتٍ﴾:

أ. فسر الصرصر بالريح الشديدة السموم، وبالريح الشديدة البرد، وبالريح الشديدة الصوت وتلازم شدة الهبوب، والنحسات بكسر الحاء صفة مشبهة من نحس ينحس نحسا خلاف سعد فالأيام النحسات الأيام المشئومات.

ب. وقيل: أيام نحسات أي ذوات الغبار والتراب لا يرى فيها بعضهم بعضا، ويؤيده قوله في سورة الأحقاف: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأحقاف: ٢٤]

٣. ﴿وَهُمْ لا يُنْصَرُونَ﴾ أي لا منج ينجيهم ولا شفيع يشفع لهم، والباقي ظاهر.

٧. استكبار ثمود على الهدى:

المقطع [٧] من سورة فصلت، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [فصلت: ١٧ـ١٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ٣٧٧»:

١. ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمى عَلَى الْهُدى﴾:

أ. المراد بهدايتهم إراءتهم الطريق ودلالتهم على الحق ببيان حق الاعتقاد والعمل لهم، والمراد بالاستحباب الإيثار والاختيار، ولعله بالتضمين ولذا عدي إلى المفعول الثاني بعلى والمراد بالعمى الضلال استعارة، وفي مقابله الهدى له إيماء إلى أن الهدى بصر كما أن الضلالة عمى، والهون مصدر بمعنى الذل وتوصيف العذاب به للمبالغة أو بحذف ذي والتقدير صاعقة العذاب ذي الهون.

ب. والمعنى: وأما قوم ثمود فدللناهم على طريق الحق وعرفناهم الهدى بتمييزه من الضلال فاختاروا الضلال الذي هو عمى على الهدى الذي هو بصر فأخذتهم صيحة العذاب ذي المذلة، أو أخذهم العذاب بناء على كون الصاعقة بمعنى العذاب والإضافة بيانية، بما كانوا يكسبون.

٢. ﴿وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكانُوا يَتَّقُونَ﴾:

أ. ضم التقوى إلى الإيمان معبرا عن التقوى بقوله: ﴿وَكانُوا يَتَّقُونَ﴾ الدال على الاستمرار للدلالة على جمعهم بين الإيمان والعمل الصالح وذلك هو السبب لنجاتهم من عذاب الاستئصال على ما وعده الله بقوله: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧]

ب. والظاهر أن الآية متعلقة بالقصتين جميعا متممة لهما وإن كان ظاهر المفسرين تعلقها بالقصة الثانية.

٨. حشر أعداء الله إلى النار وشهادة السمع والأبصار والجلود عليهم:

المقطع [٨] من سورة فصلت، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ وَذَلِكُمْ

ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [فصلت: ١٩-٢٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ٣٧٧»:

١. ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْداءُ اللهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾:

أ. الحشر إخراج الجماعة عن مقرهم وإزعاجهم عنه إلى الحرب ونحوها، كذا قال الراغب، و﴿يُوزَعُونَ﴾ من الوزع وهو حبس أول القوم ليلحق بهم آخرهم فيجتمعوا.

ب. قيل: المراد بحشرهم إلى النار إخراجهم إلى المحشر للسؤال والحساب، وجعل النار غاية لحشرهم لأن عاقبتهم إليها، والدليل عليه ما ذكره من أمر شهادة الأعضاء فإنها في الموقف قبل الأمر بهم إلى النار.

ج. وقيل: المراد حشرهم إلى النار نفسها ومن الممكن أن يستشهد عليهم مرتين مرة في الموقف ومرة على شفير جهنم وهو كما ترى.

د. والمراد بأعداء الله، على ما قيل، المكذبون بالنبي ﷺ من مشركي قومه لا مطلق الكفار والدليل عليه قوله الآتي: ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ الآية.

٢. ﴿حَتَّى إِذا ما جاؤُها شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ﴾:

أ. ﴿ما﴾ في ﴿إِذا ما جاؤُها﴾ زائد للتأكيد والضمير للنار.

ب. وشهادة الأعضاء أو القوى يوم القيامة ذكرها وإخبارها ما تحملته في الدنيا من معصية صاحبها فهي شهادة أداء لما تحملته، ولو لا التحمل في الدنيا حين العمل كما لو جعل الله لها شعورا ونطقا يوم القيامة فعلمت ثم أخبرت بما عملته أو أوجد الله عندها صوتا يفيد معنى الإخبار من غير شعور منها به لم يصدق عليه الشهادة، ولا تمت بذلك على العبد المنكر حجة وهو ظاهر.

ج. وبذلك يظهر فساد قول بعضهم: إن الله يخلق يوم القيامة للأعضاء علما وقدرة على الكلام فتخبر بمعاصي صاحبيها وهو شهادتها وقول بعضهم: إنه يخلق عندها أصواتا في صورة كلام مدلوله الشهادة، وكذا قول بعضهم: إن معنى الشهادة دلالة الحال على صدور معصية كذائية منهم.

د. وظاهر الآية أن شهادة السمع والبصر أداؤهما ما تحملاه وإن لم يكن معصية مأتيا بها بواسطتهما كشهادة السمع أنه سمع آيات الله تتلى عليه فأعرض عنها صاحبه أو أنه سمع صاحبه يتكلم بكلمة الكفر،

وشهادة البصر أنه رأى الآيات الدالة على وحدانية الله تعالى فأعرض عنها صاحبه أو أنه رأى صاحبه يستمع إلى الغيبة أو سائر ما يحرم الإصغاء إليه فتكون الآية على حد قوله تعالى: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولئِكَ كانَ عَنْهُ مَسْؤُلاً﴾

هـ. وعلى هذا يختلف السمع والأبصار والجلود فيما شهدت عليه فالسمع والأبصار تشهد على معصية العبد وإن لم تكن بسببهما والجلود تشهد على المعصية التي كانت هي آلات لها بالمباشرة، وهذا الفرق هو السبب لتخصيصهم الجلود بالخطاب في قولهم: ﴿لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنا﴾ على ما سيجيء.

و. والمراد بالجلود على ظاهر إطلاق الآية مطلق الجلود وشهادتها على أنواع المعاصي التي تتم بالجلود من التمتعات المحرمة كالزنا ونحوه، ويمكن حينئذ أن تعمم الجلود بحيث تشمل شهادتها ما شهدت الأيدي والأرجل المذكورة في قوله: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ﴾ [يس: ٦٥] على بعد.

ز. وقيل: المراد بالجلود الفروج وقد كني بها عنها تأدبا.

٣. ﴿وَقالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنا﴾:

أ. اعتراض وعتاب منهم لجلودهم في شهادتها عليهم.

ب. وقيل: الاستفهام للتعجب فهو سؤال عن السبب لرفع التعجب وإنما خصوها بالسؤال دون سمعهم وأبصارهم مع اشتراكها في الشهادة لأن الجلود شهدت على ما كانت هي بنفسها أسبابا وآلات مباشرة له بخلاف السمع والأبصار فإنها كسائر الشهداء تشهد بما ارتكبه غيرها.

ج. وقيل: تخصيص الجلود بالذكر تقريع لهم وزيادة تشنيع وفضاحة وخاصة لو كان المراد بالجلود الفروج وقيل غير ذلك.

٤. ﴿قالُوا أَنْطَقَنَا اللهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾:

أ. إرجاع ضمير أولي العقل إلى الجوارح لمكان نسبة الشهادة والنطق إليها وذلك من شئون أولي العقل.

ب. والمتيقن من معنى النطق إذا استعمل على الحقيقة من غير تجوز هو إظهار ما في الضمير من طريق التكلم فيتوقف على علم وكشفه لغيره، قال الراغب: (ولا يكاد يستعمل النطق في غير الإنسان إلا

تبعا وبنوع من التشبيه وظاهر سياق الآيات وما فيها من ألفاظ القول والتكلم والشهادة والنطق أن المراد بالنطق ما هو حقيقة معناه.

ج. فشهادة الأعضاء على المجرمين كانت نطقا وتكلما حقيقة عن علم تحملته سابقا بدليل قولها: ﴿أَنْطَقَنَا اللهُ﴾، ثم إن قولها: ﴿أَنْطَقَنَا اللهُ﴾ جوابا عن قول المجرمين: ﴿لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا﴾؟ إراءة منها للسبب الذي أوجب نطقها وكشف عن العلم المدخر عندها المكنون في ضميرها فهي ملجؤه إلى التكلم والنطق، ولا يضر ذلك نفوذ شهادتها وتمام الحجة بذلك فإنها إنما ألجئت إلى الكشف عما في ضميرها لا على الستر عليه والإخبار بخلافه كذبا وزورا حتى ينافي جواز الشهادة وتمام الحجة.

٥. ﴿الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ توصيف لله سبحانه وإشارة إلى أن النطق ليس مختصا بالأعضاء حتى تختص هي بالسؤال بل هو عام شامل لكل شيء والسبب الموجب له هو الله سبحانه.

٦. ﴿وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾:

أ. من تتمة الكلام السابق أو هو من كلامه، وهو احتجاج على علمه بأعمالهم وقد أنطق الجوارح بما علم.

ب. يقول: إن وجودكم يبتدئ منه تعالى وينتهي إليه تعالى فعند ما تظهرون من كتم العدم، وهو خلقكم أول مرة، يعطيكم الوجود ويملككم الصفات والأفعال فتنسب إليكم ثم ترجعون وتنتهون إليه فيرجع ما عندكم من ظاهر الملك الموهوب إليه فلا يبقى ملك إلا وهو لله سبحانه.

ج. فهو سبحانه المالك لجميع ما عندكم أولا وآخرا فما عندكم من شيء في أول وجودكم هو الذي أعطاكموه وملكه لكم وهو أعلم بما أعطى وأودع، وما عندكم من شيء حينما ترجعون إليه هو الذي يقبضه منكم إليه ويملكه فكيف لا يعلمه، وانكشافه له سبحانه حينما يرجع إليه إنطاقه لكم وشهادتكم على أنفسكم عنده.

د. وبما مر من البيان يظهر وجه تقييد قوله: ﴿وَهُوَ خَلَقَكُمْ﴾ بقوله: ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ فالمراد به أول وجودهم.

٧. ولهم في قوله: ﴿قالُوا أَنْطَقَنَا اللهُ﴾ في معنى الإنطاق نظائر ما تقدم في قوله: ﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ﴾ من الأقوال:

أ. فمن قائل: إن الله يخلق لهم يومئذ العلم والقدرة على النطق فينطقون.

ب. ومن قائل: إنه يخلق عند الأعضاء أصواتا شبيهة بنطق الناطقين وهو المراد بنطقهم.

ج. ومن قائل: إن المراد بالنطق دلالة ظاهر الحال على ذلك.

٨. وكذا في عموم قوله: ﴿أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾:

أ. فقيل: هو مخصص بكل حي نطق إذ ليس كل شيء ولا كل حي ينطق بالنطق الحقيقي ومثل هذا التخصيص شائع ومنه قوله تعالى في الريح المرسلة إلى عاد: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأحقاف: ٢٥]

ب. وقيل: النطق في ﴿أَنْطَقَنَا﴾ بمعناه الحقيقي وفي قوله: ﴿أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ بمعنى الدلالة فيبقى الإطلاق على حاله.

• ويرد عليهما أن تخصيص الآية أو حملها على المعنى المجازي مبني على تسلم كون غير ما نعده من الأشياء حيا ناطقا كالإنسان والحيوان والملك والجن فاقدا للعلم والنطق على ما نراه من حالها.

• لكن لا دليل على فقدان الأشياء غير ما استثنيناه للشعور والإرادة سوى أنا في حجاب من بطون ذواتها لا طريق لنا إلى الاطلاع على حقيقة حالها، والآيات القرآنية وخاصة الآيات المتعرضة لشئون يوم القيامة ظاهرة في عموم العلم.

٩. وضع هنا مبحثا حول [سراية العلم في الموجودات]، خلاصته:

أ. الظاهر من كلام الله أن العلم سار في الموجودات عامة، فكل شيء يسبح بحمده، وقوله: ﴿وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ دليل على أن التسبيح منهم عن علم وإرادة، لا بلسان الحال فقط.

ب. من الأدلة القرآنية على سراية العلم: قوله للسماء والأرض: ﴿ائْتِيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قالَتا أَتَيْنا طائِعِينَ﴾، وقوله: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبارَها﴾، وقوله: ﴿أَنْطَقَنَا اللهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾، وغيرها من الآيات الدالة على شهادة الأعضاء ونطقها.

ج. لا يُقال: لو كان للجماد والنبات شعور وإرادة لبانت آثاره، لأن العلم ليس ذا سنخ واحد، بل له مراتب مختلفة تختلف آثارها باختلافها، والآثار العجيبة المتقنة من النبات والأنواع الطبيعية لا تقصر عن آثار الأحياء.

د. في الفلسفة، العلم يساوق الوجود المجرد، فكل وجود مجرد يمكنه أن يحضر عنده مجرد غيره،

وكل عالم فهو مجرد، وكذا كل معلوم، والوجودات المادية، على كونها مادية متغيرة، لها ثبوت من غير تغير ولا تحول، فلها من هذه الجهة تجرد، والعلم سار فيها كما هو سار في المجردات المحضة العقلية والمثالية.

١٠. ﴿وَما كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلا أَبْصارُكُمْ وَلا جُلُودُكُمْ﴾:

أ. لا شك أن الله سبحانه خالق كل شيء لا موجد غيره فلا يحول بين خلقه وبينه شيء ولا يحجب خلقه من حاجب فهو تعالى مع كل شيء أينما كان وكيفما كان قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [الحج: ١٧] وقال: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا﴾ [الأحزاب: ٥٢]

ب. فالإنسان أينما كان كان الله معه، وأي عمل عمله كان الله مع عمله، وأي عضو من أعضائه استعمله وأي سبب أو أداة أو طريق اتخذه لعمله كان مع ذلك العضو والسبب والأداة والطريق قال تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ [الحديد: ٤]، وقال: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد: ٣٣]، وقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ١٤]

ج. ومن هنا يستنتج أن الإنسان، وهو جار في عمله، واقع بين مراصد كثيرة يرصده من كل منها ربه ويرقبه ويشهده فمرتكب المعصية وهو متوغل في سيئته غافل عنه تعالى في جهل عظيم بمقام ربه واستهانة به سبحانه وهو يرصده ويرقبه.

د. وهذه الحقيقة هي التي تشير إليه الآية أعني قوله: ﴿وَما كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ﴾ على ما يعطيه السياق.

هـ. فقوله: ﴿وَما كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ﴾ نفي لاستتارهم وهم في المعاصي قبلا وهم في الدنيا وقوله: ﴿أَنْ يَشْهَدَ﴾ منصوب بنزع الخافض والتقدير من أن يشهد.

١١. ﴿وَلكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللهَ لا يَعْلَمُ﴾:

أ. استدراك في معنى الإضراب عن محذوف يدل عليه صدر الآية، والتقدير ولم تظنوا أنها لا تعلم أعمالكم ولكن ظننتم.، والآية تقريع وتوبيخ للمشركين أو لمطلق المجرمين يوجه إليهم يوم القيامة من قبله تعالى.

ب. ومحصل المعنى وما كنتم تستخفون في الدنيا عند المعاصي من شهادة أعضائكم التي تستعملونها في معصية الله ولم يكن ذلك لظنكم أنها لا إدراك فيها لعملكم بل لظنكم أن الله لا يعلم كثيرا مما تعملون أي لم تستهينوا عند المعصية بشهادة أعضائكم وإنما استهنتم بشهادتنا.

ج. فالاستدراك ومعنى الإضراب في الآية نظير ما في قوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ [الأنفال: ١٧]، وقوله: ﴿وَما ظَلَمُونا وَلكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يُظْلَمُونَ﴾ [الأحقاف: ١٩]

١٢. ﴿كَثِيراً مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ ولم يقل: لا يعلم ما تعملون ولعل ذلك لكونهم معتقدين بالله وبصفاته العليا التي منها العلم فهم يعتقدون فيه العلم في الجملة لكن حالهم في المعاصي حال من لا يرى علمه بكثير من أعماله.

١٣. ويستفاد من الآية أن شهادة الشهود شهادته تعالى بوجه قال تعالى: ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ [يونس: ٦١]

ولهم في توجيه معنى الآية أقوال أخر لا يساعد عليها السياق ولا تخلو من تكلف أضربنا عن التعرض لها.

١٤. ﴿وَذلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْداكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخاسِرِينَ﴾:

أ. الإرداء من الردى بمعنى الهلاك، و﴿ذلِكُمْ ظَنُّكُمُ﴾ مبتدأ وخبر و﴿أَرْداكُمْ﴾ خبر بعد خبر، ويمكن أن يكون ﴿ظَنُّكُمُ﴾ بدلا من ﴿ذلِكُمْ﴾

ب. ومعنى الآية:

• على الأول وذلكم الظن الذي ذكر ظن ظننتموه لا يغني من الحق شيئا والعلم والشهادة على حالها أهلككم ذلك الظن فأصبحتم من الخاسرين.

• وعلى الثاني وظنكم الذي ظننتم بربكم أنه لا يعلم كثيرا مما تعملون أهلككم إذ هون عليكم أمر المعاصي وأدى بكم إلى الكفر فأصبحتم من الخاسرين.

١٥. أحاديث وآثار:

أ. في الفقيه، عن أمير المؤمنين عليه السلام في وصيته لابن الحنفية: قال الله تعالى: ﴿وَما كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلا أَبْصارُكُمْ وَلا جُلُودُكُمْ﴾ يعني بالجلود الفروج.

ب. وفي تفسير القمي، بإسناده عن أبي عمرو الزبيري عن أبي عبد الله عليه السلام: في الآية: يعني بالجلود الفروج والأفخاذ.

ج. وفي المجمع: قال الصادق عليه السلام: ينبغي للمؤمن أن يخاف الله خوفا كأنه يشرف على

النار، ويرجوه رجاء كأنه من أهل الجنة، إن الله تعالى يقول: ﴿وَذلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ﴾ الآية، ثم قال: إن الله عند ظن عبده، إن خيرا فخير وإن شرا فشر.

د. وفي تفسير القمي، بإسناده عن عبد الرحمن بن الحجاج عن أبي عبد الله عليه السلام في حديث قال رسول الله ﷺ: ليس من عبد يظن بالله عز وجل خيرا، إلا كان عند ظنه به وذلك قوله عز وجل: ﴿وَذلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ﴾ الآية.

هـ. أخرج أحمد والطبراني وعبد بن حميد ومسلم وأبو داود وابن ماجة وابن حبان وابن مردويه عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله، فإن قوما قد أرداهم سوء ظنهم بالله عز وجل، قال الله: ﴿وَذلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْداكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخاسِرِينَ﴾

• أقول: وقد روي في سبب نزول بعض الآيات السابقة ما لا يلائم سياقها تلك الملاءمة ولذلك أغمضنا عن إيراده.

٩. النار مثوى للكافرين:

المقطع [٩] من سورة فصلت، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ﴾ [فصلت: ٢٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ٣٨٤»:

١. في المفردات: (الثواء الإقامة مع الاستقرار)، وفي المجمع: (الاستعتاب طلب العتبى وهي الرضا وهو الاسترضاء، والإعتاب الإرضاء، وأصل الإعتاب عند العرب استصلاح الجلد بإعادته في الدباغ ثم أستعير فيما يستعطف به البعض بعضا لإعادته ما كان من الألفة)

٢. ومعنى الآية فإن يصبروا فالنار مأواهم ومستقرهم وإن يطلبوا الرضا ويعتذروا لينجوا من العذاب فليسوا ممن يرضى عنهم ويقبل أعتابهم ومعذرتهم فالآية في معنى قوله: ﴿اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ﴾ [الطور: ١٦]

١٠. تقيض القرناء وتزيين الكفر والخسران المبين:

المقطع [١٠] من سورة فصلت، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾ [فصلت: ٢٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ٣٨٤»:

١. ﴿وَقَيَّضْنا لَهُمْ قُرَناءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَما خَلْفَهُمْ﴾:

أ. أصل التقييض، كما في المجمع: (التبديل، والقرناء جمع قرين وهو معروف.

ب. فقوله: ﴿وَقَيَّضْنا لَهُمْ قُرَناءَ﴾ إشارة إلى أنهم لو آمنوا واتقوا لأيدهم الله بمن يسددهم ويهديهم كما قال: ﴿أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢] لكنهم كفروا وفسقوا فبدل الله لهم قرناء من الشياطين يقارنونهم ويلازمونهم، وإنما يفعل ذلك بهم مجازاة لكفرهم وفسوقهم.

ج. وقيل: المعنى بدلناهم قرناء سوء من الجن والإنس مكان قرناء الصدق الذين أمروا بمقارنتهم فلم يفعلوا، ولعل ما قدمناه أحسن.

٢. ﴿فَزَيَّنُوا لَهُمْ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَما خَلْفَهُمْ﴾:

أ. لعل المراد التمتعات المادية التي هم مكبون عليها في الحال وما تعلقت به آمالهم وأمانيهم في المستقبل.

ب. وقيل: ما بين أيديهم ما قدموه من أعمالهم السيئة حتى ارتكبوها، وما خلفهم ما سنوه لغيرهم ممن يأتي بعدهم، ويمكن إدراج هذا الوجه في سابقه.

ج. وقيل: ما بين أيديهم هو ما يحضرهم من أمر الدنيا فيؤثرونه ويقبلون إليه ويعملون له، وما خلفهم هو أمر الآخرة حيث يدعوهم قرناؤهم إلى أنه لا بعث ولا نشور ولا حساب ولا جنة ولا نار، وهو وجه بعيد إذ لا يقال لمن ينكر الآخرة أنها زينت له.

٣. ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ﴾:

أ. أي ثبت ووجب عليهم كلمة العذاب حال كونهم في أمم مماثلين لهم ماضين قبلهم من الجن والإنس وكلمة العذاب قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ كقوله: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾، وقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾ تعليل لوجوب كلمة العذاب عليهم أو لجميع ما تقدم.

ب. ويظهر من الآية أن حكم الموت جار في الجن مثل الإنس.

١١. الكفر واللغو والغلبة:

المقطع [١١] من سورة فصلت، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا

﴿هَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ٣٨٨»:

١. ﴿وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ اللغو من الأمر ما لا أصل له ومن الكلام ما لا معنى له يقال: لغا يلغى ويلغو لغوا أي أتى باللغو، والإشارة إلى القرآن مع ذكر اسمه دليل على كمال عنايتهم بالقرآن لإعفاء أثره.

٢. والآية تدل على نهاية عجزهم عن مخاصمة القرآن بإتيان كلام يعادله ويماثله أو إقامة حجة تعارضه حتى أمر بعضهم بعضا أن لا ينصتوا له ويأتوا بلغو الكلام عند قراءة النبي ﷺ القرآن ليختل به قراءته ولا تقرع أسماع الناس آياته فيلغو أثره وهو الغلبة.

١٢. النار جزاء الكافرين:

المقطع [١٢] من سورة فصلت، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [فصلت: ٢٧ـ٢٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ٣٨٨»:

١. ﴿فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذاباً شَدِيداً﴾ اللام للقسم، والمراد بالذين كفروا بحسب مورد الآية هم الذين قالوا: لا تسمعوا لهذا القرآن وإن كانت الآية مطلقة بحسب اللفظ.

٢. ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كانُوا يَعْمَلُونَ﴾ قيل: المراد العمل السيئ الذي كانوا يعملون بتجريد أفعل عن معنى التفضيل، وقيل: المراد بيان جزاء ما هو أسوأ أعمالهم وسكت عن الباقي مبالغة في الزجر.

٣. ﴿ذلِكَ جَزاءُ أَعْداءِ اللهِ النَّارُ﴾ ﴿ذلِكَ جَزاءُ﴾ مبتدأ وخبر و﴿النَّارُ﴾ بدل أو عطف بيان من ﴿ذلِكَ﴾ أو خبر مبتدإ محذوف والتقدير هي النار أو مبتدأ خبره ﴿لَهُمْ فِيها دارُ الْخُلْدِ﴾

٤. ﴿لَهُمْ فِيها دارُ الْخُلْدِ﴾ أي النار محيطة بهم جميعا ولكل منهم فيها دار تخصه خالدا فيها.

٥. ﴿جَزاءً بِما كانُوا بِآياتِنا يَجْحَدُونَ﴾ مفعول مطلق لفعل مقدر، والتقدير يجزون جزاء أو للمصدر المتقدم أعني قوله: ﴿ذلِكَ جَزاءُ﴾ نظير قوله: ﴿فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا﴾ [الإسراء: ٦٣]

١٣. طلب الكفار رؤية من أضلهم من الجن والإنس:

المقطع [١٣] من سورة فصلت، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا اللَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ﴾ [فصلت: ٢٩]، وفيه المسائل التالية

«الميزان: ١٧/ ٣٨٩»:

١. ﴿وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ﴾ محكي قول يقولونه وهم في النار، يسألون الله أن يريهم متبوعيهم من الجن والإنس ليجعلوهما تحت أقدامهم إذلالا لهما وتشديدا لعذابهما كما يشعر به قولهم ذيلا: ﴿نَجْعَلْهُما تَحْتَ أَقْدامِنا لِيَكُونا مِنَ الْأَسْفَلِينَ﴾

٢. أحاديث وآثار: في المجمع في قوله تعالى: ﴿أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانا﴾ يعنون إبليس الأبالسة، وقابيل بن آدم أول من أبدع المعصية، روي ذلك عن علي عليه السلام.

• أقول: ولعله من نوع الجري فالآية عامة.

١٤. تنزل الملائكة على المستقيمين بالبشرى والجنة والأمان:

المقطع [١٤] من سورة فصلت، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٠-٣٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ٣٨٩»:

١. ﴿إِنَّ الَّذِينَ قالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ﴾:

أ. قال الراغب: (الاستقامة تقال في الطريق الذي يكون على خط مستو، وبه شبه طريق الحق نحو ﴿اهْدِنَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، قال: واستقامة الإنسان لزومه المنهج المستقيم نحو قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقامُوا﴾)، وفي الصحاح: (الاستقامة الاعتدال يقال: استقام له الأمر)

ب. فالمراد بقوله: ﴿ثُمَّ اسْتَقامُوا﴾ لزوم وسط الطريق من غير ميل وانحراف والثبات على القول الذي قالوه، قال تعالى: ﴿فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ﴾ [التوبة: ٧] وقال: ﴿وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ [الشورى: ١٥] وما ورد فيها من مختلف التفاسير يرجع إلى ما ذكر.

ج. والآية وما يتلوها بيان حسن حال المؤمنين كما كانت الآيات قبلها بيان سوء حال الكافرين.

٢. ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلَّا تَخافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾:

أ. إخبار عما سيستقبلهم به الملائكة من تقوية قلوبهم وتطييب نفوسهم والبشرى بالكرامة.

ب. فالملائكة يؤمنونهم من الخوف والحزن، والخوف إنما يكون من مكروه متوقع كالعذاب الذي

يخافونه والحرمان من الجنة الذي يخشونه، والحزن إنما يكون من مكروه واقع وشر لازم كالسيئات التي يحزنون من اكتسابها والخيرات التي يحزنون لفوتها عنهم فيطيب الملائكة أنفسهم أنهم في أمن من أن يخافوا شيئا أو يحزنوا لشيء فالذنوب مغفورة لهم والعذاب مصروف عنهم.

ج. ثم يبشرونهم بالجنة الموعودة بقولهم: ﴿وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ وفي قولهم: ﴿كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ دلالة على أن تنزلهم بهذه البشرى عليهم إنما هو بعد الحياة الدنيا.

٣. ﴿نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾:

أ. من تتمة البشارة، وعلى هذا فذكر ولايتهم لهم في الحياة الدنيا مع انقضاء وقتها كما تقدم من باب التوطئة والتمهيد إلى ذكر الآخرة للإشارة إلى أن ولاية الآخرة مترتبة على ولاية الدنيا فكأنه قيل نحن أولياؤكم في الآخرة كما كنا، لما كنا، أولياءكم في الحياة الدنيا وسنتولى أمركم بعد هذا كما توليناه قبل.

ب. وكون الملائكة أولياء لهم لا ينافي كونه تعالى هو الولي لأنهم وسائط الرحمة والكرامة ليس لهم من الأمر شيء، ولعل ذكر ولايتهم لهم في الآية دون ولايته تعالى للمقابلة والمقايسة بين أوليائه تعالى وأعدائه إذ قال في حق أعدائه: ﴿وَقَيَّضْنا لَهُمْ قُرَناءَ﴾ وقال في حق أوليائه عن لسان ملائكته: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ﴾

ج. وبالمقابلة يستفاد أن المراد ولايتهم لهم بالتسديد والتأييد فإن الملائكة المسددين هم المخصوصون بأهل ولاية الله وأما الملائكة الحرس وموكلو الأرزاق والآجال وغيرهم فمشتركون بين المؤمن والكافر.

د. وقيل: الآية من كلام الله دون الملائكة.

٤. ﴿وَلَكُمْ فِيها ما تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيها ما تَدَّعُونَ﴾:

أ. ضمير ﴿فِيها﴾ في الموضعين للآخرة، وأصل الشهوة نزوع النفس بقوة من قواها إلى ما تريده تلك القوة وتلتذ به كشهوة الطعام والشراب والنكاح، وأصل الادعاء، وهو افتعال من الدعاء، هو الطلب فالجملة الثانية أعني قوله: ﴿وَلَكُمْ فِيها ما تَدَّعُونَ﴾ أوسع نطاقا من الأولى أعني قوله: ﴿لَكُمْ فِيها ما تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ﴾ فإن الشهوة طلب خاص ومطلق الطلب أعم منها.

ب. فالآية تبشرهم بأن لهم في الآخرة ما يمكن أن تتعلق به شهواتهم من أكل وشرب ونكاح وغير

ذلك بل ما هو أوسع من ذلك وأعلى كعبا وهو أن لهم ما يشاءون فيها كما قال تعالى: ﴿لَهُمْ ما يَشاؤُنَ فِيها﴾ [ق: ٣٥]

٥. أحاديث وآثار:

أ. في المجمع في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقامُوا﴾: روي عن أنس قال: قرأ علينا رسول الله ﷺ هذه الآية ثم قال: قد قالها ناس ثم كفر أكثرهم، فمن قالها حتى يموت فقد استقام عليها.

ب. وفيه في قوله تعالى: ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ﴾ يعني عند الموت: عن مجاهد والسدي وروي ذلك عن أبي عبد الله عليه السلام.

ج. وفي تفسير القمي في قوله تعالى: ﴿نَحْنُ أَوْلِياؤُكُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا﴾ قال: كنا نحرسكم من الشياطين ﴿وَفِي الْآخِرَةِ﴾ أي عند الموت.

د. وفي المجمع في الآية قيل: ﴿نَحْنُ أَوْلِياؤُكُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا﴾ أي نحرسكم في الدنيا وعند الموت في الآخرة.

هـ. وفي تفسير القمي في قوله تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ قال: ادفع سيئة من أساء إليك بحسنتك، حتى يكون الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم.

١٥. الداعي إلى الله والعمل الصالح والإسلام:

المقطع [١٥] من سورة فصلت، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ٣٩١»:

أ. الآية اتصال بقوله السابق: ﴿وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهذَا الْقُرْآنِ، وَالْغَوْا فِيهِ﴾ الآية فإنهم كانوا يخاصمون النبي ﷺ كما ينازعون القرآن، وقد ذكر في أول السورة قولهم: ﴿قُلُوبُنا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونا إِلَيْهِ﴾ الآية فأيد سبحانه في هذه الآية نبيه بأن قوله وهو دعوته أحسن القول.

ب. فقوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعا إِلَى اللهِ﴾ المراد به النبي ﷺ وإن كان لفظ الآية يعم كل من دعا إلى الله ولما أمكن أن يدعو الداعي إلى الله لغرض فاسد وليست الدعوة التي هذا شأنها من القول الأحسن قيده بقوله: ﴿وَعَمِلَ صالِحاً﴾ فإن العمل الصالح يكشف عن نية صالحة غير أن العمل الصالح لا يكشف عن الاعتقاد الحق والالتزام به، ولا حسن في قول لا يقول به صاحبه ولذا قيده بقوله: ﴿وَقالَ

إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ والمراد بالقول الرأي والاعتقاد على ما يعطيه السياق.

ج. فإذا تم الإسلام لله والعمل الصالح للإنسان ثم دعا إلى الله كان قوله أحسن القول لأن أحسن القول أحقه وأنفعه ولا قول أحق من كلمة التوحيد ولا أنفع منها وهي الهادية للإنسان إلى حاق سعادته.

١٦. دفع السيئة بالحسنة وفضل الصبر والعاقبة الحسنة:

المقطع [١٦] من سورة فصلت، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٤ـ٣٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ٣٩١»:

١. ﴿لا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ﴾:

أ. الآية لما ذكر أحسن القول وأنه الدعوة إلى الله والقائم به حقا هو النبي ﷺ التفت إليه ببيان أحسن الطريق إلى الدعوة وأقربها من الغاية المطلوبة منها وهي التأثير في النفوس فخاطبه بقوله: ﴿لا تَسْتَوِي﴾

ب. فقوله: ﴿لا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ﴾ أي الخصلة الحسنة والسيئة من حيث حسن التأثير في النفوس، و﴿لا﴾ في ﴿لَا السَّيِّئَةُ﴾ زائدة لتأكيد النفي.

٢. ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ استئناف في معنى دفع الدخل كأن المخاطب لما سمع قوله: ﴿لا تَسْتَوِي﴾ قال: فما ذا أصنع؟ فقيل: ﴿ادْفَعْ﴾ والمعنى ادفع بالخصلة التي هي أحسن الخصلة السيئة التي تقابلها وتضادها فادفع بالحق الذي عندك باطلهم لا بباطل آخر وبحلمك جهلهم وبعفوك إساءتهم وهكذا.

٣. ﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَداوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾:

أ. بيان لأثر الدفع بالأحسن ونتيجته والمراد أنك إن دفعت بالتي هي أحسن فاجأك أن عدوك صار كأنه ولي شفيق.

ب. قيل: ﴿الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَداوَةٌ﴾ أبلغ من (عدوك) ولذا اختاره عليه مع اختصاره.

ج. ثم عظم الله سبحانه الدفع بالتي هي أحسن ومدحه أحسن التعظيم وأبلغ المدح بقوله: ﴿وَما يُلَقَّاها إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَما يُلَقَّاها إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ أي ذو نصيب وافر من كمال الإنسانية وخصال الخير.

د. وفي الآية مع ذلك دلالة ظاهرة على أن الحظ العظيم إنما يوجد لأهل الصبر خاصة.

١٧. الاستعاذة بالله من نزغ الشيطان:

المقطع [١٧] من سورة فصلت، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللهِّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [فصلت: ٣٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ٣٩٢»:

١. ﴿وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِالله إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾:

أ. النزغ النخس وهو غرز جنب الدابة أو مؤخرها بقضيب ونحوه ليهيج، و﴿إِمَّا﴾ في ﴿إِمَّا يَنْزَغَنَّكَ﴾ زائدة والأصل وإن ينزغنك فاستعذ.

ب. والنازغ هو الشيطان أو تسويله ووسوسته، والأول هو الأنسب لمقام النبي ﷺ فإنه لا سبيل للشيطان إليه بالوسوسة غير أنه يمكن أن يقلب له الأمور بالوسوسة على المدعوين من أهل الكفر والجحود فيبالغوا في جحودهم ومشاقتهم وإيذائهم له فلا يؤثر فيهم الدفع بالأحسن ويؤول هذا إلى نزغ من الشيطان بتشديد العداوة في البين كما في قوله: ﴿مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾ [يوسف: ١٠٠]، قال تعالى: ﴿وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلَّا إذا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ الآية: الحج:.

ج. ولو حمل على الوجه الثاني فالمتعين حمله على مطلق الدستور تتميما للأمر، وهو بوجه من باب (إياك أعني واسمعي يا جارة)

٢. ﴿فَاسْتَعِذْ بِالله إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ العوذ والعياذ بكسر العين والمعاذ والاستعاذة بمعنى وهو الالتجاء والمعنى فالتجئ بالله من نزغه إنه هو السميع لمسألتك العليم بحالك أو السميع لأقوالكم العليم بأفعالكم.

١٨. آيات الليل والنهار والشمس والقمر والسجود لله وحده:

المقطع [١٨] من سورة فصلت، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا للهَّ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ﴾ [فصلت: ٣٧ـ٣٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ٣٩٢»:

١. ﴿وَمِنْ آياتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾:

أ. لما ذكر سبحانه كون دعوته ﷺ أحسن القول ووصاه أن يدفع بأحسن الخصال عاد إلى أصل الدعوة فاحتج على الوحدانية والمعاد في هذه الآيات الثلاث.

ب. فقوله: ﴿وَمِنْ آياتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهارُ﴾ احتجاج بوحدة التدبير واتصاله على وحدة الرب المدبر، وبوحدة الرب على وجوب عبادته وحده، ولذلك عقبه بقوله: ﴿لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ﴾

ج. فالكلام في معنى دفع الدخل كأنه لما قيل: ﴿وَمِنْ آياتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهارُ﴾ فأثبت وحدته في ربوبيته قيل: فما ذا نصنع؟ فقيل ﴿لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ﴾ هما مخلوقان مدبران من خلقه بل خصوه بالسجدة واعبدوه وحده، وعامة الوثنيين كانوا يعظمون الشمس والقمر وإن لم يعبدهما غير الصابئين على ما قيل، وضمير ﴿خَلَقَهُنَّ﴾ لليل والنهار والشمس والقمر.

٢. ﴿إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ أي إن عبادته لا تجامع عبادة غيره.

٣. ﴿فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهارِ وَهُمْ لا يَسْأَمُونَ﴾:

أ. السأمة الملال، والمراد بـ ﴿فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ﴾ الملائكة والمخلصون من عباد الله وقد تقدم كلام في ذلك في تفسير قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٦]

ب. ﴿يُسَبِّحُونَ لَهُ﴾ ولم يقل: يسبحونه للدلالة على الحصر والاختصاص أي يسبحونه خاصة، وقوله: ﴿بِاللَّيْلِ وَالنَّهارِ﴾ أي دائما لا ينقطع فإن الملائكة ليس عندهم ليل ولا نهار.

ج. والمعنى: فإن استكبر هؤلاء الكفار عن السجدة لله وحده فعبادته تعالى لا ترتفع من الوجود فهناك من يسبحه تسبيحا دائما لا ينقطع من غير سأمة وهم الذين عند ربك.

١٩. إحياء الأرض الميتة وإحياء الموتى:

المقطع [١٩] من سورة فصلت، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت: ٣٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ٣٩٣»:

١. ﴿وَمِنْ آياتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خاشِعَةً﴾:

أ. الخشوع التذلل، والاهتزاز التحرك الشديد، والربو النشوء والنماء والعلو، واهتزاز الأرض وربوها تحركها بنباتها وارتفاعه.

ب. وفي الآية استعارة تمثيلية شبهت فيها الأرض في جدبها وخلوها عن النبات ثم اخضرارها ونمو نباتها وعلوه بشخص كان وضيع الحال رث الثياب متذللا خاشعا ثم أصاب ما لا يقيم أوده فلبس أفخر الثياب وانتصب ناشطا متبخترا يعرف في وجهه نضرة النعيم.

ج. والآية مسوقة للاحتجاج على المعاد، وقد تكرر البحث عن مضمونها في السور المتقدمة.

٢٠. وعيد الملحدين في آيات الله ومصيرهم:

المقطع [٢٠] من سورة فصلت، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [فصلت: ٤٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ٣٩٦»:

١. ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا﴾:

أ. سياق تهديد لملحدي هذه الأمة كما يؤيده الآية التالية، والإلحاد الميل.

ب. وإطلاق قوله: ﴿يُلْحِدُونَ﴾ وقوله: ﴿آيَاتِنَا﴾ يشمل كل إلحاد في كل آية فيشمل الإلحاد في الآيات التكوينية كالشمس والقمر وغيرهما فيعدونها آيات الله سبحانه ثم يعودون فيعبدونها، ويشمل آيات الوحي والنبوة فيعدون القرآن افتراء على الله وتقولا من النبي ﷺ أو يلغون فيه لتختل تلاوته فلا يسمعه سامع أو يفسرونه من عند أنفسهم أو يؤولونه ابتغاء الفتنة فكل ذلك إلحاد في آيات الله بوضعها في غير موضعها والميل بها إلى غير مستقرها.

٢. ﴿أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِناً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ إيذان بالجزاء وهو الإلقاء في النار يوم القيامة قسرا من غير أي مؤمن متوقع كشفيع أو ناصر أو عذر مسموع فليس لهم إلا النار يلقون فيها، والظاهر أن قوله: ﴿أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِناً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ لإبانة أنهما قبيلان لا ثالث لهما فمستقيم في الإيمان بالآيات وملحد فيها ويظهر به أن أهل الاستقامة في أمن يوم القيامة.

٣. ﴿اعْمَلُوا ما شِئْتُمْ إِنَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ تشديد في التهديد.

٤. أحاديث وآثار: أخرج ابن عساكر عن عكرمة: في قوله: ﴿أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ﴾ ﴿أَمْ مَنْ

يَأْتِي آمِناً يَوْمَ الْقِيامَةِ﴾ نزلت في عمار بن ياسر وفي أبي جهل.

• أقول: ورواه أيضا عن عدة من الكتب عن بشر بن تميم، وروي أيضا عن ابن مردويه عن ابن عباس: ﴿أَفَمَنْ يُلْقى فِي النَّارِ﴾ قال: أبو جهل بن هشام، و﴿أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِناً يَوْمَ الْقِيامَةِ﴾ قال: أبو بكر، والروايات من التطبيق.

٢١. كفر الكفار بالقرآن العزيز المحفوظ من الباطل:

المقطع [٢١] من سورة فصلت، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتابٌ عَزِيزٌ لَا يَأْتِيهِ الْباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤١-٤٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ٣٩٧»:

١. ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جاءَهُمْ﴾:

أ. المراد بالذكر القرآن لما فيه من ذكر الله، وتقييد الجملة بقوله: ﴿لَمَّا جاءَهُمْ﴾ يدل على أن المراد بالذين كفروا هم مشركو العرب المعاصرين للقرآن من قريش وغيرهم.

ب. وقد اختلفوا في خبر ﴿إِنَّ﴾ ويمكن أن يستظهر من السياق أنه محذوف يدل عليه قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آياتِنا﴾ فإن الكفر بالقرآن من مصاديق الإلحاد في آيات الله فالتقدير إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم يلقون في النار يوم القيامة، وإنما حذف ليذهب فيه وهم السامع أي مذهب ممكن والكلام مسوق للوعيد.

ج. وإلى هذا المعنى يرجع قول الزمخشري في الكشاف: إن قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بدل من قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آياتِنا﴾

د. وقيل: خبر إن قوله الآتي: ﴿أُولئِكَ يُنادَوْنَ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ﴾، وقيل: الخبر قوله: ﴿لا يَأْتِيهِ الْباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ﴾ بحذف ضمير عائد إلى اسم إن والتقدير لا يأتيه منهم أي لا يأتيه من قبلهم ما يبطله ولا يقدرون على ذلك أو بجعل أل في الباطل عوضا من الضمير والمعنى لا يأتيه باطلهم.

هـ. وقيل: إن قوله: ﴿وَإِنَّهُ لَكِتابٌ عَزِيزٌ﴾ قائم مقام الخبر، والتقدير إن الذين كفروا بالذكر كفروا به وإنه لكتاب عزيز.

و. وقيل: الخبر قوله: ﴿ما يُقالُ لَكَ﴾ بحذف الضمير وهو (فيهم) والمعنى ما يقال لك في الذين

كفروا بالذكر إلا ما قد قيل للرسل من قبلك إن لهم عذاب الاستئصال في الدنيا وعذاب النار في الآخرة، ووجوه التكلف في هذه الوجوه غير خفية على المتأمل البصير.

٢. ﴿وَإِنَّهُ لَكِتابٌ عَزِيزٌ﴾ الضمير للذكر وهو القرآن، والعزيز عديم النظير أو المنيع الممتنع من أن يغلب، والمعنى الثاني أنسب لما يتعقبه من قوله: ﴿لا يَأْتِيهِ الْباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ﴾

٣. ﴿لا يَأْتِيهِ الْباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ﴾:

أ. إتيان الباطل إليه وروده فيه وصيرورة بعض أجزائه أو جميعها باطلا بأن يصير ما فيه من المعارف الحقة أو بعضها غير حقة أو ما فيه من الأحكام والشرائع وما يلحقها من الأخلاق أو بعضها لغا لا ينبغي العمل به.

ب. وعليه فالمراد بقوله: ﴿مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ﴾ زمانا الحال والاستقبال أي زمان النزول وما بعده إلى يوم القيامة، وقيل: المراد بها بين يديه ومن خلفه جميع الجهات كالصباح والمساء كناية عن الزمان كله فهو مصون من البطلان من جميع الجهات وهذا العموم على الوجه الأول مستفاد من إطلاق النفي في قوله: ﴿لا يَأْتِيهِ﴾

ج. والمدلول على أي حال أنه لا تناقض في بياناته، ولا كذب في إخباره، ولا بطلان يتطرق إلى معارفه وحكمه وشرائعه، ولا يعارض ولا يغير بإدخال ما ليس منه فيه أو بتحريف آية من وجه إلى وجه.

د. فالآية تجري مجرى قوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]

٤. ﴿تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ بمنزلة التعليل لكونه كتابا عزيزا لا يأتيه الباطل.، أي كيف لا يكون كذلك وهو منزل من حكيم متقن في فعله لا يشوب فعله وهن، محمود على الإطلاق.

٥. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي، في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام: في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جاءَهُمْ﴾ يعني القرآن ﴿لا يَأْتِيهِ الْباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾ قال: لا يأتيه الباطل من قبل التوراة، ولا من قبل الإنجيل والزبور ﴿وَلا مِنْ خَلْفِهِ﴾ قال: لا يأتيه من بعده كتاب يبطله.

ب. وفي المجمع: (في الآية قيل فيه أقوال، إلى أن قال، وثالثها معناه أنه ليس في إخباره عما مضى باطل، ولا في إخباره عما يكون في المستقبل باطل، بل أخباره كلها موافقة لمخبراتها، وهو المروي عن أبي

جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام.

٢٢. ما يقال للنبي هو ما قيل للرسل من قبله:

المقطع [٢٢] من سورة فصلت، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ [فصلت: ٤٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ٣٩٩»:

١. ﴿ما يُقالُ لَكَ إِلَّا ما قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ﴾:

أ. ﴿ما﴾ في ﴿ما يُقالُ لَكَ﴾ نافية، والقائلون هم الذين كفروا حيث قالوا: إنه ساحر أو مجنون أو شاعر لاغ في كلامه أو يريد أن يتأمر علينا، والقائلون لما قد قيل للرسل أممهم.

ب. والمعنى: ما يقال لك من قبل كفار قومك حيث أرسلت إليهم فدعوتهم فرموك بما رموك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك أي مثل ما قد قيل لهم.

٢. ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقابٍ أَلِيمٍ﴾:

أ. في موضع التهديد والوعيد أي إن ربك ذو هاتين الصفتين أي فانظر أو فلينظروا ما ذا يصيبهم من ربهم وهم يقولون ما يقولونه لرسوله؟ أهو مغفرة أم عقاب؟ فالآية في معنى قوله: ﴿اعْمَلُوا ما شِئْتُمْ إِنَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي ما عملتم من حسنة أو سيئة أصابكم جزاؤه بعينه.

ب. وقيل: المعنى ما يوحى إليك في أمر هؤلاء الذين كفروا بالذكر إلا ما قد أوحي للرسل من قبلك وهو أن ربك لذو مغفرة وذو عقاب أليم فالمراد بالقول الوحي، و﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ بيان لما قد قيل.

٢٣. القرآن والهدى والشفاء والوقر:

المقطع [٢٣] من سورة فصلت، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ٤٠٠»:

١. ﴿وَلَوْ جَعَلْناهُ قُرْآناً أَعْجَمِيًّا لَقالُوا لَوْ لا فُصِّلَتْ آياتُهُ أَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾:

أ. قال الراغب: (العجمة خلاف الإبانة، قال: والعجم خلاف العرب والعجمي منسوب إليهم، والأعجم من في لسانه عجمة عربيا كان أو غير عربي اعتبارا بقلة فهمهم عن العجم)، فالأعجمي غير العربي البليغ سواء كان من غير أهل اللغة العربية أو كان منهم وهو غير مفصح للكنة في لسانه، وإطلاق

الأعجمي على الكلام كإطلاق العربي من المجاز.

ب. فالمعنى: ولو جعلنا القرآن أعجميا غير مبين لمقاصده غير بليغ في نظمه لقال الذين كفروا من قومك: هلا فصلت وبينت آياته وأجزاؤه فانفصلت وبانت بعضها من بعض بالعربية والبلاغة أكتاب مرسل أعجمي ومرسل إليه عربي؟ أي يتنافيان ولا يتناسبان.

ج. وإنما قال: ﴿عَرَبِيٌّ﴾ ولم يقل: عربيون أو عربية مع كون من أرسل إليه جمعا وهم جماعة العرب، إذ القصد إلى مجرد العربية من دون خصوصية للكثرة بل المراد بيان التنافي بين الكلام وبين المخاطب به لا بيان كون المخاطب واحدا أو كثيرا.

د. قال في الكشاف: فإن قلت: كيف يصح أن يراد بالعربي المرسل إليهم وهم أمة العرب؟ قلت: هو على ما يجب أن يقع في إنكار المنكر لو رأى كتابا عجميا كتب إلى قوم من العرب يقول: كتاب أعجمي ومكتوب إليه عربي وذلك لأن مبني الإنكار على تنافر حالتي الكتاب والمكتوب إليه لا على أن المكتوب إليه واحد أو جماعة فوجب أن يجرد لما سيق إليه من الغرض ولا يوصل به ما يخل غرضا آخر ألا تراك تقول وقد رأيت لباسا طويلا على امرأة قصيرة: اللباس طويل واللابس قصير ولو قلت واللابس قصيرة جئت بما هو لكنة وفضول قول لأن الكلام لم يقع في ذكورة اللابس وأنوثته إنما وقع في غرض وراءهما.

٢. ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدىً وَشِفاءٌ﴾:

أ. بيان أن أثر القرآن وخاصته لا يدور مدار لغته بل الناس تجاهه صنفان وهم الذين آمنوا والذين لا يؤمنون، وهو هدى وشفاء للذين آمنوا يهديهم إلى الحق ويشفي ما في قلوبهم من مرض الشك والريب، وهو عمى على الذين لا يؤمنون، وهم الذين في آذانهم وقر، يعميهم فلا يبصرون الحق وسبيل الرشاد.

ب. وفي توصيف الذين لا يؤمنون بأن في آذانهم وقرا إيماء إلى اعترافهم بذلك المنقول عنهم في أول السورة: ﴿وَفِي آذانِنا وَقْرٌ﴾

٣. ﴿أُولئِكَ يُنادَوْنَ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ﴾ أي فلا يسمعون الصوت ولا يرون الشخص وهو تمثيل لحالهم حيث لا يقبلون العظة ولا يعقلون الحجة.

٢٤. إيتاء موسى الكتاب واختلافهم فيه:

المقطع [٢٤] من سورة فصلت، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ

فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ﴾ [فصلت: ٤٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ٤٠٠»:

١. ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ﴾ تسلية للنبي ﷺ عن جحود قومه وكفرهم بكتابه.

٢. ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ الكلمة هي قوله: ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ [الأعراف: ٢٤]

٣. ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ﴾ أي في شك مريب من كتاب موسى عليه السلام، بيان حال قومه ليتسلى به النبي ﷺ فيما يرى من قومه.

٢٥. العمل الصالح للنفس والإساءة عليها:

المقطع [٢٥] من سورة فصلت، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ٤٠١»:

١. ﴿مَنْ عَمِلَ صالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَساءَ فَعَلَيْها﴾:

أ. أي إن العمل قائم بصاحبه ناعت له فلو كان صالحا نافعا انتفعت به نفسه وإن كان سيئا ضارا تضررت به نفسه فليس في إيصاله تعالى نفع العمل الصالح إلى صاحبه وهو الثواب ولا في إيصال ضرر العمل السيئ إلى صاحبه وهو العقاب ظلم ووضع للشيء في غير موضعه.

ب. ولو كان ذلك ظلما كان تعالى في إثابته وتعذيبه من لا يحصى من العباد في ما لا يحصى من الأعمال ظلاما للعبيد لكنه ليس بظلم ولا أنه تعالى ظلام لعبيده وبذلك يظهر وجه التعبير باسم المبالغة في قوله: ﴿وَما رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ ولم يقل: وما ربك بظالم.

٢٦. علم الساعة عند الله وبراءة المشركين من شركائهم:

المقطع [٢٦] من سورة فصلت، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي قَالُوا آذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَظَنُّوا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ﴾ [فصلت: ٤٧ـ٤٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ٤٠١»:

١. ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ إلى قوله: ﴿إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾ ارتداد علم الساعة إليه اختصاصه به فلا

يعلمها إلا هو، وقد تكرر ذلك في كلامه تعالى.

٢. ﴿وَما تَخْرُجُ مِنْ ثَمَراتٍ مِنْ أَكْمامِها﴾:

أ. ﴿ثَمَراتٍ﴾ فاعل ﴿تَخْرُجُ﴾ و﴿مِنْ﴾ زائدة للتأكيد كقوله: ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [الفتح: ٢٨]، وأكمام جمع كم وهو وعاء الثمرة و﴿ما﴾ مبتدأ خبره ﴿إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾ والمعنى وليس تخرج ثمرات من أوعيتها ولا تحمل أنثى ولا تضع حملها إلا مصاحبا لعلمه أي هو تعالى يعلم جزئيات حالات كل شيء.

ب. فهو تعالى على كونه خالقا للأشياء محولا لأحوالها عالم بها وبجزئيات حالاتها مراقب لها، وهذا هو أحسن التدبير فهو الرب وحده، ففي الآية إشارة إلى توحده تعالى في الربوبية والألوهية، ولذا ذيل هذا الصدر بقوله: ﴿وَيَوْمَ يُنادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكائِي﴾

٣. ﴿وَيَوْمَ يُنادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكائِي قالُوا آذَنَّاكَ ما مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ﴾:

أ. الظرف متعلق بقوله: ﴿قالُوا﴾ وقيل: ظرف لمضمر مؤخر قد ترك إيذانا بقصور البيان عنه كما في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللهُ الرُّسُلَ﴾، وقيل: متعلق بمحذوف نحو اذكر، ولعل الوجه الأول أنسب لصدر الآية بالمعنى الذي ذكرناه فتكون الآية مسوقة لنفي الشركاء ببيان قيام التدبير به تعالى واعتراف المشركين بذلك يوم القيامة.

ب. والإيذان الاعلام، والمراد بالشهادة الشهادة القولية أو الشهادة بمعنى الرؤية الحضورية وعلى الثاني فقوله: ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ﴾ عطف تفسير يبين به سبب انتفاء الشهادة.

٤. ﴿وَظَنُّوا ما لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ﴾ الظن، على ما قيل، بمعنى اليقين، والمحيص المهرب والمفر، والمعنى: ويوم ينادي الله المشركين: أين شركائي؟، على زعمكم، قالوا: أعلمناك ما منا من يشهد عليك بالشركاء، أو ما منا من يشاهد الشركاء وغاب عنهم ما كانوا يدعون من دون الله في الدنيا، وأيقنوا أن ليس لهم مهرب من العذاب.

٢٧. الخير والشر واليأس والرحمة:

المقطع [٢٧] من سورة فصلت، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿لَا يَسْأَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾

[فصلت: ٤٩ـ٥٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ٤٠٢»:

١. ﴿لا يَسْأَمُ الْإِنْسانُ مِنْ دُعاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَؤُسٌ قَنُوطٌ﴾:

أ. السأمة الملال، واليأس والقنوط بمعنى وهو انقطاع الرجاء، والدعاء الطلب.

ب. شروع في ختم الكلام في السورة ببيان ما هو السبب في جحودهم ودفعهم الحق الصريح، وهو أن الإنسان مغتر بنفسه فإذا مسه شر يعجز عن دفعه يئس من الخير وتعلق بذيل الدعاء والمسألة وتوجه إلى ربه، وإذا مسه خير اشتغل به وأعجب بنفسه وأنساه ذلك كل حق وحقيقة.

ج. والمعنى: لا يمل الإنسان من طلب الخير وهو ما يراه نافعا لحياته ومعيشته وإن مسه الشر فكثير اليأس والقنوط لما يرى من سقوط الأسباب التي كان يستند إليها، وهذا لا ينافي تعلق رجائه إذ ذاك بالله سبحانه كما سيأتي.

٢. ﴿وَلَئِنْ أَذَقْناهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هذا لِي﴾:

أ. الأصل بالنظر إلى مضمون الآية السابقة أن يقال: وإن ذاق خيرا قال: هذا لي لكن بدل ذاق من ﴿أَذَقْناهُ﴾ وخيرا) من قوله: ﴿رَحْمَةً مِنَّا﴾ ليدل على أن الخير الذي ذاقه هو رحمة من الله أذاقه إياها وليس بمصيبة برأسه ولا هو يملكه ولو كان يملكه لم ينفك عنه ولم يمسسه الضراء، ولذا قيد قوله: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْناهُ﴾ بقوله: ﴿مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ﴾

ب. ﴿لَيَقُولَنَّ هذا لِي﴾ أي أنا أملكه فلي أن أفعل فيه ما أشاء وأتصرف فيه كيف أريد، فليس لأحد أن يمنعني من شيء منه أو يحاسبني على فعل، ولهذا المعنى عقبه بقوله: ﴿وَما أَظُنُّ السَّاعَةَ قائِمَةً﴾ فإن الساعة هي يوم الحساب.

٣. ﴿وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنى﴾:

أ. أي للمثوبة الحسنى أو للعاقبة الحسنى، وهذا مبني على ما يراه لنفسه من الكرامة واستحقاق الخير كأنه يقول: ما ملكته من الخير لو كان من الله فإنما هو لكرامة نفسي عليه وعلى هذا فإن قامت الساعة ورجعت إلى ربي كانت لي عنده العاقبة الحسنى.

ب. فالمعنى: وأقسم لئن أذقنا الإنسان رحمة هي منا ولا يستحقها ولا يملكها فأذقناها من بعد ضراء مسته وذلك يدله على أنه لا يملك ما أذيقه نسي ما كان من قبل وقال: هذا لي، يشير إلى شخص

النعمة ولا يسميها رحمة، وليس لأحد أن يمنعني عما أفعل فيه ويحاسبني عليه وما أظن الساعة، وهي يوم الحساب، قائمة، وأقسم لئن رجعت إلى ربي وقامت ساعة كانت لي عنده العاقبة الحسنى لكرامتي عليه كما أنعم علي من النعمة.

ج. والآية نظيرة قوله في قصة صاحب الجنة: ﴿مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٥ـ٣٦] وقد تقدم بعض الكلام فيه.

٤. ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ تهديد ووعيد.

٢٨. إعراض الإنسان عند النعمة ودعاؤه العريض عند الشر:

المقطع [٢٨] من سورة فصلت، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾ [فصلت: ٥١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ٤٠٣»:

١. ﴿وَإِذا أَنْعَمْنا عَلَى الْإِنْسانِ أَعْرَضَ وَنَأى بِجانِبِهِ وَإِذا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعاءٍ عَرِيضٍ﴾ النأي الابتعاد، والمراد بالجانب الجارحة وهي الجنب أو المراد الجهة والمكان فقوله: ﴿نَأى بِجانِبِهِ﴾ كناية عن الابتعاد بنفسه وهو كناية عن التكبر والخيلاء، والمراد بالعريض الوسيع، والدعاء العريض كالدعاء الطويل كناية عما استمر وأصر عليه الداعي، والآية في مقام ذم الإنسان وتوبيخه أنه إذا أنعم الله عليه أعرض عنه وتكبر وإذا سلب النعمة ذكر الله وأقبل عليه بالدعاء مستمرا مصرا.

٢٩. إنكار الكفار للقرآن وضلالهم:

المقطع [٢٩] من سورة فصلت، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٥٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ٤٠٤»:

١. ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كانَ مِنْ عِنْدِ اللهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقاقٍ بَعِيدٍ﴾:

أ. ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ أي أخبروني، والشقاق والمشاقة الخلاف، والشقاق البعيد الخلاف الذي لا يقارب الوفاق وهو شديدة، وقوله: ﴿مِمَّنْ هُوَ فِي شِقاقٍ بَعِيدٍ﴾ كناية عن المشركين ولم يقل: منكم بل أتى بالموصول والصلة وذلك في معنى الصفة ليدل على علة الحكم وهو الشقاق البعيد من الحق.

ب. والمعنى: قل للمشركين أخبروني إن كان هذا القرآن من عند الله ثم كفرتم به من أضل منكم؟ أي لا أضل منكم لأنكم في خلاف بعيد من حق ما فوقه حق.

ج. فمفاد الآية أن القرآن يدعوكم إلى الله ناطقا بأنه من عند الله فلا أقل من احتمال صدقه في دعواه وهذا يكفي في وجوب النظر في أمره دفعا للضرر المحتمل وأي ضرر أقوى من الهلاك الأبدي فلا معنى لإعراضكم عنه بالكلية.

٣٠. آيات الله في الآفاق والأنفس وتبيين الحق:

المقطع [٣٠] من سورة فصلت، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ﴾ [فصلت: ٥٣-٥٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ٤٠٤»:

١. ﴿سَنُرِيهِمْ آياتِنا فِي الْآفاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾:

أ. الآفاق جمع أفق وهو الناحية، والشهيد بمعنى الشاهد أو بمعنى المشهود وهو المناسب لسياق الآية.

ب. وضمير ﴿أَنَّهُ﴾ للقرآن على ما يعطيه سياق الآية ويؤيده الآية السابقة التي تذكر كفرهم بالقرآن، وعلى هذا فالآية تعد إراءة آيات في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين بها كون القرآن حقا، والآيات التي شأنها إثبات حقية القرآن هي الحوادث والمواعيد التي أخبر القرآن أنها ستقع كإخباره بأن الله سينصر نبيه ﷺ والمؤمنين ويمكن لهم في الأرض ويظهر دينهم على الدين كله وينتقم من مشركي قريش إلى غير ذلك.

ج. فأمر الله تعالى نبيه ﷺ بالهجرة إلى المدينة وقد اشتد الأمر عليه وعلى من آمن به غايتها فلا سماء تظلهم ولا أرض تقلهم ثم قتل صناديد قريش في بدر ولم يزل يرفع ذكره ويفتح على يديه حتى فتح مكة ودانت له جزيرة العرب ثم فتح بعد رحلته للمسلمين معظم المعمورة فأرى سبحانه المشركين آياته في الآفاق وهي النواحي التي فتحها للمسلمين ونشر فيها دينهم، وفي أنفسهم وهو قتلهم الذريع في بدر.

د. وليست هذه آيات في أنفسها فكم من فتح وغلبة يذكره التاريخ ومقاتل ذريعة يقصها لكنها آيات بما أن الله سبحانه وعد بها والقرآن الكريم أخبر بها قبل وقوعها ثم وقعت على ما أخبر بها.

هـ. ويمكن أن يكون المراد بإراءة الآيات وتبين الحق بذلك ما يستفاد من آيات أخرى أن الله سيظهر دينه بتمام معنى الظهور على الدين كله فلا يعبد على الأرض إلا الله وحده وتظل السعادة على النوع

الإنساني وهي الغاية لخلقتهم، وقد تقدم استفادة ذلك من قوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ الآية: النور: وغيره وأيدناه بالدليل العقلي.

و. والفرق بين الوجهين أن وجه الكلام على الأول إلى مشركي مكة ومن يتبعهم خاصة وعلى الثاني إلى مشركي الأمة عامة والخطاب على أي حال اجتماعي، ويمكن الجمع بين الوجهين.

ز. ويمكن أن يكون المراد ما يشاهده الإنسان في آخر لحظة من لحظات حياته الدنيا حيث تطير عنه الأوهام وتضل عنه الدعاوي وتبطل الأسباب ولا يبقى إلا الله عز اسمه ويؤيده ذيل الآية والآية التالية، وضمير ﴿أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ على هذا لله سبحانه.

ح. ولهم في الآية أقوال أخرى أغمضنا عن إيرادها.

٢. ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾:

أ. فاعل ﴿لَمْ يَكْفِ﴾ هو ﴿بِرَبِّكَ﴾ والباء زائدة، و﴿أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ بدل من الفاعل، والاستفهام للإنكار، والمعنى أولم يكف في تبين الحق كون ربك مشهودا على كل شيء إذ ما من شيء إلا وهو فقير من جميع جهاته إليه متعلق به وهو تعالى قائم به قاهر فوقه فهو تعالى معلوم لكل شيء وإن لم يعرفه بعض الأشياء.

ب. واتصال الجملة أعني قوله: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ﴾ بقوله: ﴿سَنُرِيهِمْ﴾ على الوجه الأخير من الوجوه الثلاثة الماضية ظاهر، وأما على الوجهين الأولين فلعل الوجه فيه أن المشركين إنما كفروا بالقرآن لدعوته إلى التوحيد فانتقل من الدلالة على حقية القرآن للدلالة على حقية ما يدعو إليه إلى الدلالة على حقية ما يدعو إليه مستقيما من غير واسطة كأنه قيل: سنريهم آياتنا ليتبين لهم أن القرآن الذي يخبرهم بها حق فيتبين أن ربك واحد لا شريك له ثم قيل: وهذا طريق بعيد هناك ما هو أقرب منه أولم يكفهم أن ربك مشهود على كل شيء؟

٣. ﴿أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ﴾:

أ. الذي يفيده السياق أن في الآية تنبيها على أنهم لا ينتفعون بالاحتجاج على وحدانيته تعالى بكونه شهيدا على كل شيء وهو أقوى براهين التوحيد وأوضحها لمن تعقل لأنهم في مرية وشك من لقاء ربهم وهو كونه تعالى غير محجوب بصفاته وأفعاله عن شيء من خلقه.

ب. ثم نبه بقوله: ﴿أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ﴾ على ما ترتفع به هذه المرية وتنبت من أصلها وهو إحاطته تعالى بكل شيء على ما يليق بساحة قدسه وكبريائه فلا يخلو عنه مكان وليس في مكان ولا يفقده شيء وليس في شيء.

ج. وللمفسرين في الآية أقوال لو راجعتها لرأيت عجبا.

٤. أحاديث وآثار:

أ. في روضة الكافي، بإسناده عن الطيار عن أبي عبد الله عليه السلام: في قول الله عز وجل: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ قال خسف ومسخ وقذف، قال: قلت: ﴿حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ﴾ قال: دع ذا ذاك قيام القائم.

ب. وفي إرشاد المفيد، عن علي بن أبي حمزة عن أبي الحسن موسى عليه السلام: في الآية قال: الفتن في آفاق الأرض، والمسخ في أعداء الحق.

ج. وفي روضة الكافي، بإسناده عن أبي عبد الله عليه السلام: في الآية قال: يريهم في أنفسهم المسخ، ويريهم في الآفاق انتقاض الآفاق عليهم، فيرون قدرة الله عز وجل في أنفسهم وفي الآفاق، قلت له: ﴿حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾؟ قال: خروج القائم هو الحق عند الله عز وجل يراه الخلق.

سورة الشورى

هذه السورة الكريمة تحتوي على [٣٥] مقطعاً، وهذا تعريف بمقاصدها، ومحتويات مقاطعها:

مقاصد السورة ومحتوياتها:

أ. تتكلم السورة حول الوحي الذي هو نوع تكليم من الله سبحانه لأنبيائه ورسله، كما يدل عليه ما في مفتتحها من قوله: ﴿كَذلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللهُ﴾ الآية، وما في مختتمها من قوله: ﴿وَما كانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلَّا وَحْياً﴾ إلخ، ورجوع الكلام إليه مرة بعد أخرى في قوله: ﴿وَكَذلِكَ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ قُرْآناً عَرَبِيًّا﴾ الآية، وقوله: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ ما وَصَّى بِهِ نُوحاً﴾ الآية، وقوله: ﴿اللهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزانَ﴾ الآية، وما يتكرر في السورة من حديث الرزق على ما سيجيء.

ب. فالوحي هو الموضوع الذي يجري عليه الكلام في السورة، وما فيها من التعرض لآيات التوحيد وصفات المؤمنين والكفار، وما يستقبل كلاً من الفريقين في معادهم ورجوعهم إلى الله سبحانه، مقصود بالقصد الثاني وكلام جره كلام.

ج. والسورة مكية، وقد استثني قوله: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجابُوا لِرَبِّهِمْ﴾ إلى تمام ثلاث آيات، وقوله: ﴿قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى﴾ إلى تمام أربع آيات، وسيجيء الكلام فيها إن شاء الله تعالى.

مقاطع السورة ونظمها:

١. الآيات [١ ـ ٦] لم يذكر البيان المرتبط بها، وهي تذكر أن الله العزيز الحكيم يوحي إلى النبي ﷺ كما أوحى إلى من قبله، وتقرر أن له ما في السماوات والأرض، وتذكر أن الملائكة يستغفرون لأهل الأرض، وتخبر أن الذين اتخذوا من دونه أولياء الله حفيظ عليهم.

٢. الآيات [٧ ـ ١٢]:

أ. فصل ثان من الآيات يعرف فيه الوحي من حيث الغاية المترتبة عليه، كما عرفه في الفصل السابق بالإشارة إليه نفسه.

ب. فبين في هذا الفصل أن الغرض من الوحي إنذار الناس، وخاصة الإنذار المتعلق بيوم الجمع

الذي يتفرق فيه الناس فريقين: فريق في الجنة وفريق في السعير، إذ لولا الإنذار بيوم الجمع الذي فيه الحساب والجزاء، لم تنجح دعوة دينية ولم ينفع تبليغ.

ج. ثم بين أن تفرقهم فريقين هو الذي شاءه الله سبحانه، فعقبه بتشريع الدين وإنذار الناس يوم الجمع من طريق الوحي، لأنه وليهم الذي يحييهم بعد موتهم، الحاكم بينهم فيما اختلفوا فيه.

د. ثم ساق الكلام فانتقل إلى توحيد الربوبية، وأنه تعالى هو الرب لا رب غيره، لاختصاصه بصفات الربوبية من غير شريك يشاركه في شيء منها.

٣. الآيات [١٣ ـ ١٦]:

أ. فصل ثالث من الآيات يعرف الوحي الإلهي بأثره الذي هو مفاده، وما احتوى عليه من المضمون وهو الدين الإلهي الواحد الذي يجب على الناس أن يتخذوه سنة في الحياة وطريقة مسلوكة إلى سعادتهم.

ب. وقد بين فيها بحسب مناسبة المقام أن الشريعة المحمدية أجمع الشرائع المنزلة، وأن الاختلافات الواقعة في دين الله على وحدته ليست من ناحية الوحي السماوي، وإنما هي من بغي الناس بعد علمهم.

ج. وفي الآيات فوائد أخر أشير إليها في خلالها.

٤. الآيات [١٧ ـ ٢٦]:

أ. فصل رابع من الآيات يعرف الوحي الإلهي بأن الدين النازل به كتاب مكتوب على الناس، وميزان يوزن به أعمالهم فيجزون بذلك يوم القيامة، والجزاء الحسن من الرزق.

ب. ثم يستطرد الكلام في ما يستقبلهم يوم القيامة من الثواب والعقاب.

ج. وفيها آية المودة في القربى وما يلحق بذلك.

٥. الآيات [٢٧ ـ ٥٠]:

أ. صدر الآيات متصل بحديث الرزق المذكور في قوله: ﴿اللهُ لَطِيفٌ بِعِبادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشاءُ﴾، وقد سبقه قوله: ﴿لَهُ مَقالِيدُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَيَقْدِرُ﴾

ب. وقد تقدمت الإشارة إلى أن من الرزق نعمة الدين التي آتاها الله سبحانه عباده المؤمنين، وبهذه العناية دخل الكلام فيه في الكلام على الوحي الذي سيقت لبيانه آيات السورة، وانعطف عليه انعطافاً بعد

انعطاف.

ج. ثم يذكر بعض آيات التوحيد المتعلقة بالرزق: كخلق السماوات والأرض وبث الدواب فيهما، والسفائن الجواري في البحر، وإيتاء الأولاد الذكور والإناث أو إحداهما لمن يشاء، وجعل من يشاء عقيماً.

د. ثم يذكر أن من الرزق ما آتاهموه في الدنيا وهو متاعها الفاني بفنائها، ومنه ما يخص المؤمنين في الآخرة وهو خير وأبقى.

هـ. وينتقل الكلام من هنا إلى صفات المؤمنين وحسن عاقبتهم، وإلى وصف ما يلقاه الظالمون وهم غيرهم في عقباهم من أهوال القيامة وعذاب الآخرة.

و. ووراء ذلك في خلال الآيات من إجمال بعض الأحكام والإنذار والتخويف والدعوة إلى الحق وحقائق المعارف شيء كثير.

٦. الآيات [٥١ ـ ٥٣]:

أ. تتضمن الآيات آخر ما يفيده سبحانه في تعريف الوحي في هذه السورة، وهو تقسيمه إلى ثلاثة أقسام: وحياً، أو من وراء حجاب، أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء.

ب. ثم يذكر أنه يوحي إليه ﷺ ما يوحي على هذه الوتيرة، وأن ما أوحي إليه منه تعالى لم يكن النبي ﷺ يعلم ذلك من نفسه، بل هو نور يهدي به الله من يشاء من عباده، ويهدي به النبي ﷺ بإذنه.

١. الوحي من الله العزيز الحكيم:

المقطع [١] من سورة الشورى، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿حم عسق كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [الشورى: ١ـ٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ٦»:

١. ﴿حم عسق﴾ لأهمية ما أورده في تفسيرها، ولعلاقتها بالكثير من المباحث، فقد وضعنا ما ذكره في تفسيرها المفصل ضمن الجزء الخاص بالبحوث التفسيرية، وقد عنوناه بـ ذذذ١

أ. الحروف المقطعة هي من مختصات القرآن الكريم، ولا توجد في غيره من الكتب السماوية، وقد وردت في أوائل تسع وعشرين سورة.

ب. اختلف المفسرون في تفسيرها ونقل عنهم أحد عشر قولاً، منها: أنها من المتشابهات التي

استأثر الله بعلمها، وأنها أسماء للسور أو للقرآن، وأنها أسماء الله مأخوذة من أسمائه الحسنى، وأنها أقسام أقسم الله بها، وأنها إشارات إلى آلائه وبلائه ومدة الأقوام، وأنها من قبيل حروف التهجي للتنبيه على إعجاز القرآن.

ج. الحق أن شيئاً من هذه الأقوال لا تطمئن إليه النفس، لأنها مجرد تصورات لا تتعدى حد الاحتمال، ولا دليل يدل على شيء منها، والروايات الواردة فيها ضعيفة أو مؤولة.

د. الذي ينبغي أن يغفل عنه أن هذه الحروف تكررت في سور شتى، وتبدو بين السور المشتركة في الحروف تشابه في المضامين وتناسب في السياقات، كما في الحواميم والراءات والميمات والطواسيويؤكد ذلك تقارب الألفاظ في مفتتح أغلبها.

هـ. يمكن أن يحدس من ذلك أن بين هذه الحروف المقطعة وبين مضامين السور المفتتحة بها ارتباطاً خاصاً، وأنها رموز بين الله ورسوله، خفية عنا، لا سبيل لأفهامنا العادية إليها إلا بمقدار أن نستشعر ذلك الارتباط.

و. الروايات الواردة عن أهل البيت عليهم السلام في تفسير هذه الحروف، وإن كانت كثيرة، إلا أن ظاهرها يشير إلى أنها حروف مأخوذة من أسماء الله الحسنى، أو أنها من حروف اسم الله الأعظم، أو أن بعضها أسماء للنبي ﷺ، أو أنها إشارة إلى الجبل المحيط بالأرض (أو النهر في الجنة) لكن هذه التفاسير تحمل على الرمز والمعاني الدقيقة التي تليق بمقامها، ولا تؤخذ بظواهرها الحسية.

ز. الرأي الراجح في هذه الحروف أنها رموز إلهية خفية، لها ارتباط وثيق بمضامين السور التي تفتتح بها، وأنها من الأسرار القرآنية التي لا يحيط بها إلا الله ورسوله وأهل بيته عليهم السلام.

٢. ﴿كَذلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾:

أ. مقتضى كون غرض السورة بيان الوحي بتعريف حقيقته والإشارة إلى غايته وآثاره أن تكون الإشارة بقوله: ﴿كَذلِكَ﴾ إلى شخص الوحي بإلقاء هذه السورة إلى النبي ﷺ فيكون تعريفا لمطلق الوحي بتشبيهه بفرد مشار إليه مشهود للمخاطب فيكون كقولنا في تعريف الإنسان مثلا هو كزيد.

ب. وعليه يكون قوله: ﴿إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ في معنى إليكم جميعا، وإنما عبر بما عبر للدلالة على أن الوحي سنة إلهية جارية غير مبتدعة، والمعنى أن الوحي الذي نوحيه إليكم معشر الأنبياء،

نبيا بعد نبي سنة جارية، هو كهذا الذي تجده وتشاهده في تلقي هذه السورة.

ج. وقد أخذ جمهور المفسرين قوله: ﴿كَذلِكَ﴾ إشارة إلى الوحي لا من حيث نفسه بل من حيث ما يشتمل عليه من المفاد فيكون في الحقيقة إشارة إلى المعارف التي تشتمل عليها السورة وتتضمنها واستنتجوا من ذلك أن مضمون السورة مما أوحاه الله تعالى إلى جميع الأنبياء فهو من الوحي المشترك فيه، وقد عرفت أنه لا يوافق غرض السورة ويأباه سياق آياتها.

٣. ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾:

أ. خمسة من أسمائه الحسنى، وقوله: ﴿لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ﴾ في معنى المالك، وهو واقع موقع التعليل لأصل الوحي ولكونه سنة إلهية جارية فالذي يعطيه الوحي شرع إلهي فيه هداية الناس إلى سعادة حياتهم في الدنيا والآخرة وليس المانع أن يمنعه تعالى عن ذلك لأنه عزيز غير مغلوب فيما يريد، ولا هو تعالى يهمل أمر هداية عباده لأنه حكيم متقن في أفعاله ومن إتقان الفعل أن يساق إلى غايته.

ب. ومن حقه تعالى أن يتصرف فيهم وفي أمورهم كيف يشاء، لأنه مالكهم وله أن يعبدهم ويستعبدهم بالأمر والنهي لأنه علي عظيم فلكل من الأسماء الخمسة حظه من التعليل، وينتج مجموعها أنه وليهم من كل جهة لا ولي غيره.

٢. السماوات والتفطر والتسبيح والاستغفار:

المقطع [٢] من سورة الشورى، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَلَا إِنَّ اللهَّ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الشورى: ٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ١١»:

١. ﴿تكادُ السَّماواتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَ﴾:

أ. التفطر التشقق من الفطر بمعنى الشق.

ب. الذي يهدي إليه السياق والكلام مسرود لبيان حقيقة الوحي وغايته وآثاره أن يكون المراد من تفطر السماوات من فوقهن تفطرها بسبب الوحي النازل من عند الله العلي العظيم المار بهن سماء سماء حتى ينزل على الأرض فإن مبدأ الوحي هو الله سبحانه والسماوات طرائق إلى الأرض قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرائِقَ وَما كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غافِلِينَ﴾ [المؤمنون: ١٧]

ج. والوجه في تقييد ﴿يَتَفَطَّرْنَ﴾ بقوله: ﴿مِنْ فَوْقِهِنَ﴾ ظاهر فإن الوحي ينزل عليهن من فوقهن من عند من له العلو المطلق والعظمة المطلقة فلو تفطرن كان ذلك من فوقهن.

د. على ما فيه من إعظام أمر الوحي وإعلائه فإنه كلام العلي العظيم فلكونه كلام ذي العظمة المطلقة تكاد السماوات يتفطرن بنزوله ولكونه كلاما نازلا من عند ذي العلو المطلق يتفطرن من فوقهن لو تفطرن.

هـ. فالآية في إعظام أمر كلام الله من حيث نزوله ومروره على السماوات نظيره قوله: ﴿حَتَّى إِذا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قالُوا ما ذا قالَ رَبُّكُمْ قالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣] في إعظامه من حيث تلقي ملائكة السماوات إياه، ونظيره قوله: ﴿لَوْ أَنْزَلْنا هذَا الْقُرْآنَ عَلى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللهِ﴾ [الحشر: ٢١] في إعظامه على فرض نزوله على جبل ونظيره قوله: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً﴾ [المزمل: ٥] في استثقاله واستصعاب حمله، هذا ما يعطيه السياق.

و. وقد حمل القوم الآية على أحد معنيين آخرين:

- أحدهما: أن المراد تفطرهن من عظمة الله وجلاله جل جلاله كما يؤيده توصيفه تعالى قبله بالعلي العظيم.
- وثانيهما: أن المراد تفطرهما من شرك المشركين من أهل الأرض وقولهم: ﴿اتَّخَذَ الرَّحْمنُ وَلَداً﴾ فقد قال تعالى فيه: ﴿تَكادُ السَّماواتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ﴾ [مريم: ٩٠] فأدى ذلك إلى التكلف في توجيه تقييد التفطر بقوله: ﴿مِنْ فَوْقِهِنَ﴾ وخاصة على المعنى الثاني، وكذا في توجيه اتصال قوله: ﴿وَالْمَلائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ بما قبله كما لا يخفى على من راجع كتبهم.

٢. ﴿وَالْمَلائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾:

أ. أي ينزهونه تعالى عما لا يليق بساحة قدسه ويثنون عليه بجميل فعله، ومما لا يليق بساحة قدسه أن يهمل أمر عباده فلا يهديهم بدين يشرعه لهم بالوحي وهو منه فعل جميل، ويسألونه تعالى أن يغفر لأهل الأرض، وحصول المغفرة إنما هو بحصول سببها وهو سلوك سبيل العبودية بالاهتداء بهداية الله سبحانه فسؤالهم المغفرة لهم مرجعه إلى سؤال أن يشرع لهم دينا يغفر لمن تدين به منهم فالمعنى والملائكة يسألون الله سبحانه أن يشرع لمن في الأرض من طريق الوحي دينا يدينون به فيغفر لهم بذلك.

ب. ويشهد على هذا المعنى وقوع الجملة في سياق بيان صفة الوحي وكذا تعلق الاستغفار بمن في الأرض إذ لا معنى لطلب المغفرة منهم لمطلق أهل الأرض حتى لمن قال: ﴿اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا﴾ وقد حكى الله تعالى عنهم: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ الآية: [المؤمن: ٧] فالمتعين حمل سؤال المغفرة على سؤال سببها وهو تشريع الدين لأهل الأرض ليغفر لمن تدين به.

٣. ﴿أَلَا إِنَّ اللهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾:

أ. أي إن الله سبحانه لاتصافه بصفتي المغفرة والرحمة وتسميه باسمي الغفور الرحيم يليق بساحة قدسه أن يفعل بأهل الأرض ما ينالون به المغفرة والرحمة من عنده وهو أن يشرع لهم دينا يهتدون به إلى سعادتهم من طريق الوحي والتكليم.

ب. قيل: وفي قوله: ﴿أَلَا إِنَّ اللهَ﴾ إشارة إلى قبول استغفار الملائكة وأنه سبحانه يزيدهم على ما طلبوه من المغفرة رحمة.

٤. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي، وفي رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله تعالى: ﴿يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ﴾ أي يتصدعن.

ب. وعن جوامع الجامع في قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ قال الصادق عليه السلام: لمن في الأرض من المؤمنين.

• أقول: وروي ما في معناه في المجمع: (عنه عليه السلام ورواه القمي مضمرا.

٣. الأولياء والحفيظ والوكيل:

المقطع [٣] من سورة الشورى، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ [الشورى: ٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ١٢»:

١. ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَما أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾:

أ. لما استفيد من الآيات السابقة أن الله تعالى هو الولي لعباده لا ولي غيره وهو يتولى أمر من في الأرض منهم بتشريع دين لهم يرتضيه من طريق الوحي إلى أنبيائه على ما يقتضيه أسماؤه الحسنى وصفاته العليا، ولازم ذلك أن لا يتخذ عباده أولياء من دونه، أشار في هذه الآية إلى حال من اتخذ من دونه أولياء

باتخاذهم شركاء له في الربوبية والألوهية فذكر أنه ليس بغافل عما يعملون وأن أعمالهم محفوظة عليهم سيؤاخذون بها، وليس على النبي ﷺ إلا البلاغ من غير أن يكون وكيلا عليهم مسئولا عن أعمالهم.

ب. فقوله: ﴿اللهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ﴾ أي يحفظ عليهم شركهم وما يتفرع عليه من الأعمال السيئة.

٢. ﴿وَما أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ أي مفوضا إليك أعمالهم حتى تصلحها لهم بهدايتهم إلى الحق، والكلام لا يخلو من نوع من التسلية للنبي ﷺ.

٤. إنزال القرآن عربياً للإنذار ويوم الجمع:

المقطع [٤] من سورة الشورى، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [الشورى: ٧-٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ١٧»:

١. ﴿وَكَذلِكَ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ قُرْآناً عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرى وَمَنْ حَوْلَها﴾:

أ. الإشارة إلى الوحي المفهوم من سابق السياق، وأم القرى هي مكة المشرفة والمراد بإنذار أم القرى إنذار أهلها، والمراد بمن حولها سائر أهل الجزيرة ممن هو خارج مكة كما يؤيده توصيف القرآن بالعربية.

ب. وذلك أن الدعوة النبوية كانت ذات مراتب في توسعها فابتدأت الدعوة العلنية بدعوة العشيرة الأقربين كما قال: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء،: ٢١٤] ثم توسعت فتعلقت بالعرب عامة كما قال: ﴿قُرْآناً عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [فصلت: ٣] ثم بجميع الناس كما قال: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾

ج. ومن الدليل على ما ذكرناه من الأمر بالتوسع تدريجا قوله تعالى: ﴿قُلْ ما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾، إلى أن قال، ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ﴾ [ص: ٨٧] فإن الخطاب على ما يعطيه سياق السورة لكفار قريش يقول سبحانه إنه ذكر للعالمين لا يختص ببعض دون بعض، فإذا كان للجميع فلا معنى لأن يسأل بعضهم، كالنبي ﷺ، بعضا عليه أجرا.

د. على أن تعلق الدعوة بأهل الكتاب وخاصة باليهود والنصارى من ضروريات القرآن، وكذا إسلام رجال من غير العرب كسلمان الفارسي وبلال الحبشي وصهيب الرومي من ضروريات التاريخ.

هـ. وقيل المراد بقوله: ﴿مَنْ حَوْلَهَا﴾ سائر الناس من أهل قرى الأرض كلها ويؤيده التعبير عن مكة بأم القرى.

و. والآية، كما ترى، تعرف الوحي بغايته التي هي إنذار الناس من طريق الإلقاء الإلهي وهو النبوة فالوحي إلقاء إلهي لغرض النبوة والإنذار.

٢. ﴿وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾:

أ. عطف على ﴿لِتُنْذِرَ﴾ السابق وهو من عطف الخاص على العام لأهميته كأنه قيل: لتنذر الناس وتخوفهم من الله وخاصة من سخطه يوم الجمع.

ب. ﴿يَوْمَ الْجَمْعِ﴾ مفعول ثان لقوله: ﴿لِتُنْذِرَ﴾ وليس بظرف له وهو ظاهر، ويوم الجمع هو يوم القيامة قال تعالى: ﴿ذلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ﴾، إلى أن قال، ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ [هود: ١٠٥]

ج. ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ في مقام التعليل ودفع الدخل كأنه قيل: لما ذا ينذرهم يوم الجمع؟ فقيل: ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ أي إنهم يتفرقون فريقين: سعيد مثاب وشقي معذب فلينذروا حتى يتحرزوا سبيل الشقاء والهبوط في مهبط الهلكة.

٣. ﴿وَلَوْ شاءَ اللهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً واحِدَةً﴾ لما كانت الآية مسوقة لبيان لزوم الإنذار والنبوة من جهة تفرق الناس فريقين يوم القيامة كان الأسبق إلى الذهن من جعلهم أمة واحدة مطلق رفع التفرق والتميز من بينهم بتسويتهم جميعا على صفة واحدة من غير فرق وميز، ولم تقع عند ذلك حاجة إلى النبوة والإنذار.

٤. ﴿وَلكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ ما لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ﴾:

أ. استدراك يبين فيه أن سنته تعالى جرت على التفريق ولم يشأ جعلهم أمة واحدة يدل على ذلك قوله: ﴿يُدْخِلُ مَنْ يَشاءُ﴾ الدال على الاستمرار، ولم يقل: ولكن أدخل ونحوه.

ب. وقد قوبل في الآية قوله: ﴿مَنْ يَشاءُ﴾ بقوله: ﴿وَالظَّالِمُونَ﴾ فالمراد بمن يشاء غير الظالمين وقد فسر الظالمين يوم القيامة بقوله: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَيَبْغُونَها عِوَجاً وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كافِرُونَ﴾ [الأعراف: ٤٥] فهم المعاندون المنكرون للمعاد.

ج. وقوبل أيضا بين الإدخال في الرحمة وبين نفي الولي والنصير فالمدخلون في رحمته هم الذين وليهم الله، والذين ما لهم من ولي ولا نصير هم الذين لا يدخلهم الله في رحمته، وأيضا الرحمة هي الجنة

وانتفاء الولاية والنصرة يلازم السعير.

د. فمحمل معنى الآية: أن الله سبحانه إنما قدر النبوة والإنذار المتفرع على الوحي لمكان ما سيعتريهم يوم القيامة من التفرق فريقين، ليتحرزوا من الدخول في فريق السعير، ولو أراد الله لجعلهم أمة واحدة فاستوت حالهم ولم يتفرقوا يوم القيامة فريقين فلم يكن عند ذلك ما تقتضي النبوة والإنذار فلم يكن وحي لكنه تعالى لم يرد ذلك بل جرت سنته على أن يتولى أمر قوم منهم وهم غير الظالمين فيدخلهم الجنة وفي رحمته، ولا يتولى أمر آخرين وهم الظالمون فيكونوا لا ولي لهم ولا نصير ويصيروا إلى السعير لا مخلص لهم من النار.

هـ. فقد تحصل مما تقدم أن المراد بجعلهم أمة واحدة هو التسوية بينهم بإدخال الجميع في الجنة وإدخال الجميع في السعير أي أنه تعالى ليس بملزم بإدخال السعداء في الجنة والأشقياء في النار فلو لم يشأ لم يفعل لكنه شاء أن يفرق بين الفريقين وجرت سنته على ذلك ووعد بذلك وهو لا يخلف الميعاد ومع ذلك فقدرته المطلقة باقية على حالها لم تنسلب ولم تتغير فقوله: ﴿وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لا رَيْبَ فِيهِ﴾ إلى تمام الآيتين في معنى قوله في سورة هود: ﴿إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خافَ عَذابَ الْآخِرَةِ ذلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ﴾ إلى تمام سبع آيات فراجع وتدبر.

و. وقيل: المراد بجعلهم أمة واحدة جعلهم مؤمنين جميعا داخلين في الجنة، قال في الكشاف: والمعنى ولو شاء ربك مشيئة قدرة لقسرهم جميعا على الإيمان ولكنه شاء مشيئة حكمة فكلفهم وبنى أمرهم على ما يختارون ليدخل المؤمنين في رحمته وهم المرادون بمن يشاء ألا ترى إلى وضعهم في مقابلة الظالمين، ويترك الظالمين بغير ولي ولا نصير في عذابه، واستدل على ما اختاره من المعنى بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنا لَآتَيْنا كُلَّ نَفْسٍ هُداها﴾ الم [السجدة: ١٣] وقوله: ﴿وَلَوْ شاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً﴾ [يونس: ٩٩] والدليل على أن المعنى هو الإلجاء إلى الإيمان قوله: ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾

• وفيه أن الآيات، كما عرفت مسوقة لتعريف الوحي من حيث غايته وأن تفرق في الناس يوم الجمع: فريقين سبب يستدعي وجود النبوة والإنذار من طريق الوحي، وقوله: ﴿وَلَوْ شاءَ اللهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً واحِدَةً﴾ مسوق لبيان أنه تعالى ليس بمجبر على ذلك ولا ملزم به بل له أن لا يفعل، وهذا المعنى يتم بمجرد

أن لا يجعلهم متفرقين فريقين بل أمة واحدة كيفما كانوا، وأما كونهم فرقة واحدة مؤمنة بالخصوص فلا مقتضى له هناك.

• وأما ما استدل به من الآيتين فسياقهما غير سياق الآية المبحوث عنها، والمراد بهما غير الإيمان القسري الذي ذكره وقد تقدم البحث عنهما في الكتاب.

ز. وقيل: إن الأنسب للسياق هو اتحادهم في الكفر بأن يراد جعلهم أمة واحدة كافرة كما في قوله: ﴿كانَ النَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ﴾ [البقرة: ٢١٣] فالمعنى: ولو شاء الله لجعلهم أمة واحدة متفقة على الكفر بأن لا يرسل إليهم رسولا ينذرهم فيبقوا على ما هم عليه من الكفر ولكن يدخل من يشاء في رحمته أي شأنه ذلك فيرسل إلى الكل من ينذرهم فيتأثر به من تأثر فيوفقهم الله للإيمان والطاعات في الدنيا ويدخلهم في رحمته في الآخرة، ولا يتأثر به الآخرون وهم الظالمون فيعيشون في الدنيا كافرين ويصيرون في الآخرة إلى السعير من غير ولي ولا نصير.

• وفيه:

● أولا: أن المراد من كون الناس أمة واحدة في الآية المقيس عليها ليس هو اتفاقهم على الكفر بل عدم اختلافهم في الأمور الراجعة إلى المعاش كما تقدم في تفسير الآية، ولو سلم ذلك أدى إلى التنافي البين بين المقيسة والمقيس عليها لدلالة المقيسة على التفرق وعدم الاتحاد دلالة المقيس عليها على ثبوت الاتحاد وعدم التفرق، ولو أجيب عنه بأن المقيس عليها تدل على كون الناس أمة واحدة بحسب الطبع دون الفعلية فلا تنافي بين الآيتين، رد بمنافاته لما دل من الآيات على كون الإنسان مؤمنا بحسب الفطرة الأصلية كقوله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَما سَوَّاها فَأَلْهَمَها فُجُورَها وَتَقْواها﴾ [الشمس: ٨]

● وثانيا: أن فيه إخراجا لقوله: ﴿وَلكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشاءُ فِي رَحْمَتِهِ﴾ عن المقابلة مع قوله: ﴿وَالظَّالِمُونَ﴾ من غير دليل، ثم تكلف تقدير ما يفيد معناه ليحفظ به ما يقيده الكلام من المقابلة.

٥. الله هو الولي المحيي المميت القادر على كل شيء:

المقطع [٥] من سورة الشورى، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ فَاللهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتى وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الشورى: ٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ٢١»:

١. ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ فَاللهُ هُوَ الْوَلِيُّ﴾:

أ. ﴿أَمِ﴾ تفيد الإنكار كما ذكره الزمخشري، لما أفاد في الآية السابقة أن الله سبحانه يتولى أمر المؤمنين خاصة فيدخلهم في رحمته وأن الظالمين هم الكافرون المعاندون لا ولي لهم تعرض في هذه الآية لاتخاذهم أولياء يدينون لهم ويعبدونهم من دونه وكان يجب أن يتخذوا الله وليا يدينون له ويعبدونه فأنكر عليهم ذلك واحتج على وجوب اتخاذه وليا بالحجة بعد الحجة وذلك قوله: ﴿فَاللهُ هُوَ الْوَلِيُّ﴾

ب. فقوله: ﴿فَاللهُ هُوَ الْوَلِيُّ﴾ تعليل للإنكار السابق لاتخاذهم من دونه أولياء فيكون حجة لوجوب اتخاذه وليا، والجملة، ﴿فَاللهُ هُوَ الْوَلِيُّ﴾، تفيد حصر الولاية في الله وقد تبينت الحجة على أصل ولايته وانحصارها فيه من قوله في الآيات السابقة: ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ كما أشرنا إليه في تفسير الآيات.

ج. والمعنى: أنه تعالى ولي ينحصر فيه الولاية فمن الواجب على من يتخذ وليا أن يتخذه وليا ولا يتعداه إلى غيره إذ لا ولي غيره.

٢. ﴿وَهُوَ يُحْيِ الْمَوْتى﴾ حجة ثانية على وجوب اتخاذه تعالى وحده وليا، ومحصله أن عمدة الغرض في اتخاذ الولي والتدين له بعبوديته التخلص من عذاب السعير والفوز بالجنة يوم القيامة والمثيب والمعاقب يوم القيامة هو الله الذي يحيي الموتى فيجمعهم فيجازيهم بأعمالهم فهو الذي يجب أن يتخذ وليا دون أوليائهم الذين هم أموات غير أحياء ولا يشعرون أيان يبعثون.

٣. ﴿وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ حجة ثالثة على وجوب اتخاذه تعالى وليا دون غيره، ومحصله أن من الواجب في باب الولاية أن يكون للولي قدرة على ما يتولاه من شئون من يتولاه وأموره، والله سبحانه على كل شيء قدير ولا قدرة لغيره إلا مقدار ما أقدره الله عليه وهو المالك لما ملكه والقادر على ما عليه أقدره فهو الولي لا ولي غيره تعالى وتقدس.

٦. الاختلاف حكمه إلى الله:

المقطع [٦] من سورة الشورى، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللهِ ذَلِكُمُ اللهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ٢٢»:

١. ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللهِ﴾:

أ. حجة رابعة على كونه تعالى وليا لا ولي غيره، وحكم الحاكم بين المختلفين هو أحكامه وتثبيته

الحق المضطرب بينهما بسبب تخالفهما بالإثبات والنفي، والاختلاف ربما كان في عقيدة كالاختلاف في أن الإله واحد أو كثير، وربما كان في عمل أو ما يرجع إليه كالاختلاف في أمور المعيشة وشئون الحياة فهو أعني الحكم يساوق القضاء مصداقا وإن اختلفا مفهوما.

ب. ثم الحكم والقضاء إنما يتم إذا ملكه الحاكم بنوع من الملك والولاية وإن كان بتمليك المختلفين له ذلك كالمتنازعين إذا رجعا إلى ثالث فاتخذاه حكما ليحكم بينهما ويتسلما ما يحكم به فقد ملكاه الحكم بما يرى وأعطياه من نفسهما القبول والتسليم فهو وليهما في ذلك.

ج. والله سبحانه هو المالك لكل شيء لا مالك سواه لكون كل شيء بوجوده وآثار وجوده قائما به تعالى فله الحكم والقضاء بالحق قال تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٨٨]، وقال: ﴿إِنَّ اللهَ يَحْكُمُ ما يُرِيدُ﴾ [المائدة: ٢] وقال: ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ [آل عمران: ٦٠]

د. وحكمه تعالى إما تكويني وهو تحقيقه وتثبيته المسببات قبال الأسباب المجتمعة عليها المتنازعة فيها بتقديم ما نسميه سببا تاما على غيره قال تعالى حاكيا عن يعقوب عليه السلام: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا للهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ [يوسف: ٦٧] وإما تشريعي كالتكاليف الموضوعة في الدين الإلهي الراجعة إلى الاعتقاد والعمل قال تعالى: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا للهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ [يوسف: ٤٠]

هـ. وهناك قسم ثالث من الحكم يمكن أن يعد من كل من القسمين السابقين بوجه وهو حكمه تعالى يوم القيامة بين عباده فيما اختلفوا فيه وهو إعلانه وإظهاره الحق يوم القيامة لأهل الجمع يشاهدونه مشاهدة عيان وإيقان فيسعد به وبآثاره من كان مع الحق ويشقى بالاستكبار عليه وتبعات ذلك من استكبر عليه قال تعالى: ﴿فَاللهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [البقرة: ١١٣]

و. ثم إن اختلاف الناس في عقائدهم وأعمالهم اختلاف تشريعي لا يرفعه إلا الأحكام والقوانين التشريعية ولو لا الاختلاف لم يجود قانون كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿كانَ النَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيما اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْهُمُ الْبَيِّناتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢١٣]، وقد تبين أن الحكم التشريعي لله سبحانه فهو الولي في ذلك فيجب أن يتخذ وحده وليا فيعبد ويدان بما أنزله من الدين.

ز. وهذا معنى قوله: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللهِ﴾ ومحصل الحجة أن الولي الذي يعبد ويدان له يجب أن يكون رافعا لاختلافات من يتولونه مصلحا لما فسد من شئون مجتمعهم سائقا لهم إلى سعادة الحياة الدائمة بما يضعه عليهم من الحكم وهو الدين، والحكم في ذلك إلى الله سبحانه، فهو الولي الذي يجب أن يتخذ وليا لا غير.

٢. وللقوم في تفسير الآية أعني قوله: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللهِ﴾ تفاسير أخر:

أ. فقيل: هو حكاية قول رسول الله ﷺ للمؤمنين أي ما خالفكم فيه الكفار من أهل الكتاب والمشركين فاختلفتم أنتم وهم فيه من أمر من أمور الدين، فحكم ذلك المختلف فيه مفوض إلى الله وهو إثابة المحقين فيه من المؤمنين ومعاقبة المبطلين ذكره صاحب الكشاف.

ب. وقيل معناه ما اختلفتم فيه وتنازعتم في شيء من الخصومات فتحاكموا فيه إلى رسول الله ﷺ ولا تؤثروا على حكومته حكومة غيره كقوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ﴾

ج. وقيل: المعنى ما اختلفتم فيه من تأويل آية واشتبه عليكم فارجعوا في بيانه إلى محكم كتاب الله وظاهر سنة رسول الله ﷺ.

د. وقيل: المعنى وما اختلفتم فيه من العلوم مما لا يتصل بتكليفكم ولا طريق لكم إلى علمه فقولوا: الله أعلم كمعرفة الروح قال تعالى: ﴿وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾، والآية على جميع هذه الأقوال من كلام النبي ﷺ إما بنحو الحكاية وإما بتقدير (قل) في أولها.

- وأنت بالتدبر في سياق الآيات ثم الرجوع إلى ما تقدم لا ترتاب في سقوط هذه الأقوال.

٣. ﴿ذَلِكُمُ اللهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾:

أ. كلام محكي للنبي ﷺ والإشارة بذلكم إلى من أقيمت الحجج في الآيتين على وجوب اتخاذه وليا وهو الله سبحانه، ولازم ولايته ربوبيته.

ب. لما أقيمت الحجج على أنه تعالى هو الولي لا ولي غيره أمر ﷺ بإعلام أنه الله وأنه اتخذه وليا بالاعتراف له بالربوبية التي هي ملك التدبير ثم عقب ذلك بالتصريح بما للاتخاذ المذكور من الآثار وهو قوله: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾

ج. وذلك أن ولاية الربوبية تتعلق بنظام التكوين بتدبير الأمور وتنظيم الأسباب والمسببات بحيث

يتعين بها للمخلوق المدبر كالإنسان مثلا ما قدر له من الوجود والبقاء، وتتعلق بنظام التشريع وهو تدبير أعمال الإنسان بجعل قوانين وأحكام يراعيها الإنسان بتطبيق أعماله عليها في مسير حياته لتنتهي به إلى كمال سعادته.

د. ولازم اتخاذه تعالى ربا وليا من جهة التكوين إرجاع أمر التدبير إليه بالانقطاع عن الأسباب الظاهرية والركون إليه من حيث أنه سبب غير مغلوب ينتهي إليه كل سبب وهذا هو التوكل، ومن جهة التشريع الرجوع إلى حكمه في كل واقعة يستقبله الإنسان في مسير حياته وهذا هو الإنابة فقوله: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ أي أرجع في جميع أموري، تصريح بإرجاع الأمر إليه تكوينا وتشريعا.

٧. الله الفاطر والأزواج والسمع والبصر:

المقطع [٧] من سورة الشورى، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ٢٥»:

١. ﴿فاطِرُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾:

أ. لما صرح بأنه تعالى هو ربه لقيام الحجج على أنه هو الولي وحده عقب ذلك بإقامة الحجة في هذه الآية والتي بعدها على ربوبيته تعالى وحده.

ب. ومحصل الحجة: أنه تعالى موجد الأشياء وفاطرها بالإخراج من كتم العدم إلى الوجود وقد جعلكم أزواجا فكثركم بذلك وجعل من الأنعام أزواجا فكثرها بذلك لتنتفعوا بها، وهذا خلق وتدبير، وهو سميع لما يسأله خلقه من الحوائج فيقضي لكل ما يستحقه من الحاجة، بصير لما يعمله خلقه من الأعمال فيجازيهم بما عملوا وهو الذي يملك مفاتيح خزائن السماوات والأرض التي ادخر فيها ما لها من خواص وجودها وآثاره مما يتألف منها بظهورها النظام المشهود وهو الذي يرزق المرزوقين فيوسع في رزقهم ويضيق عن علم منه بذلك، وهذا كله من التدبير فهو الرب المدبر للأمور.

ج. فقوله: ﴿فاطِرُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي موجدها من كتم العدم على سبيل الإبداع.

٢. ﴿جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْواجاً﴾ وذلك بخلق الذكر والأنثى للذين يتم بتزاوجهما أمر التوالد والتناسل وتكثر الأفراد ﴿وَمِنَ الْأَنْعامِ أَزْواجاً﴾ أي وجعل من الأنعام أزواجا ﴿يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ﴾ أي

يكثركم في هذا الجعل، والخطاب في ﴿يَذْرَؤُكُمْ﴾ للإنسان والأنعام بتغليب جانب العقلاء على غيرهم كما ذكره الزمخشري.

٣. ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ أي ليس مثله شيء، فالكاف زائدة للتأكيد وله نظائر كثيرة في كلام العرب.

٤. ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ أي السميع لما يرفع إليه من مسائل خلقه البصير لأعمال خلقه قال تعالى: ﴿يَسْئَلُهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الرحمن: ٢٩]، وقال: ﴿وَآتاكُمْ مِنْ كُلِّ ما سَأَلْتُمُوهُ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، وقال: ﴿وَاللهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد: ٤]

٨. مقاليد السماوات والأرض وبسط الرزق وتقديره:

المقطع [٨] من سورة الشورى، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الشورى: ١٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ٢٦»:

١. ﴿لَهُ مَقالِيدُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ المقاليد المفاتيح وفي إثبات المقاليد للسماوات والأرض دلالة على أنها خزائن لما يظهر في الكون من الحوادث والآثار الوجودية.

٢. ﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَيَقْدِرُ﴾ بسط الرزق توسعته وقدره تضييقه والرزق كل ما يمد به البقاء ويرتفع به حاجة من حوائج الوجود في استمراره.

٣. وتذييل الكلام بقوله: ﴿إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ للإشارة إلى أن الرزق واختلافه في موارده بالبسط والقدر ليس على سبيل المجازفة جهلا بل عن علم منه تعالى بكل شيء فرزق كل مرزوق على علم منه بما يستدعيه المرزوق بحسب حاله والرزق بحسب حاله وما يحف بهما من الأوضاع والأحوال الخارجية، وهذا هو الحكمة فهو يبسط ويقدر بالحكمة.

٩. شرع الدين ووصية نوح وإبراهيم وموسى وعيسى بإقامة الدين:

المقطع [٩] من سورة الشورى، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ٢٧»:

١. ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ ما وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ وَما وَصَّيْنا بِهِ إِبْراهِيمَ وَمُوسى وَعِيسى﴾:

أ. يقال: شرع الطريق شرعا أي سواه طريقا واضحا بينا، قال الراغب: (الوصية التقدم إلى الغير بما يعمل مقترنا بوعظ من قولهم: أرض واصية متصلة النبات ويقال: أوصاه ووصاه)، وفي معناه إشعار بالأهمية فما كل أمر يوصى به وإنما يختار لذلك ما يهتم به الموصي ويعتني بشأنه.

ب. فقوله: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ ما وَصَّى بِهِ نُوحاً﴾ أي بين وأوضح لكم من الدين وهو سنة الحياة ما قدم وعهد إلى نوح مهتما به، واللائح من السياق أن الخطاب للنبي ﷺ وأمته، وأن المراد مما وصى به نوحا شريعة نوح عليه السلام.

٢. ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ﴾:

أ. ظاهر المقابلة بينه وبين نوح عليه السلام أن المراد بما أوحي إليه ما اختصت به شريعته من المعارف والأحكام، وإنما عبر عن ذلك بالإيحاء دون التوصية لأن التوصية كما تقدم إنما تتعلق من الأمور بما يهتم به ويعتنى بشأنه خاصة وهو أهم العقائد والأعمال، وشريعته ﷺ جامعة لكل ما جل ودق محتوية على الأهم وغيره بخلاف شرائع غيره فقد كانت محدودة بما هو الأهم المناسب لحال أممهم والموافق لمبلغ استعدادهم.

ب. والالتفات في قوله: ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنا﴾ من الغيبة إلى التكلم مع الغير للدلالة على العظمة فإن العظماء يتكلمون عنهم وعن خدمهم وأتباعهم.

٣. ﴿وَما وَصَّيْنا بِهِ إِبْراهِيمَ وَمُوسى وَعِيسى﴾:

أ. عطف على قوله: ﴿ما وَصَّى بِهِ﴾ والمراد به ما شرع لكل واحد منهم عليه السلام.

ب. والترتيب الذي بينهم عليه السلام في الذكر على وفق ترتيب زمنهم فنوح ثم إبراهيم ثم موسى ثم عيسى عليه السلام، وإنما قدم ذكر النبي ﷺ للتشريف والتفضيل كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْراهِيمَ وَمُوسى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ [الأحزاب: ٧] وإنما قدم نوحا وبدأ به للدلالة على قدم هذه الشريعة وطول عهدها.

٤. ويستفاد من الآية أمور:

أ. أحدها: أن السياق بما أنه يفيد الامتنان وخاصة بالنظر إلى ذيل الآية والآية التالية يعطي أن الشريعة المحمدية جامعة للشرائع الماضية ولا ينافيه قوله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهاجاً﴾ [المائدة: ٤٨] لأن كون الشريعة شريعة خاصة لا ينافي جامعيتها.

ب. الثاني: أن الشرائع الإلهية المنتسبة إلى الوحي إنما هي شريعة نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد عليه السلام إذ لو كان هناك غيرها لذكر قضاء لحق الجامعية المذكورة، ولازم ذلك:

• أولا: أن لا شريعة قبل نوح عليه السلام بمعنى القوانين الحاكمة في المجتمع الإنساني الرافعة للاختلافات الاجتماعية وقد تقدم نبذة من الكلام في ذلك في تفسير قوله تعالى: ﴿كانَ النَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ﴾ الآية: [البقرة: ٢١٣]

• وثانيا: أن الأنبياء المبعوثين بعد نوح كانوا على شريعته إلى بعثة إبراهيم وبعدها على شريعة إبراهيم إلى بعثة موسى وهكذا.

ج. الثالث: أن الأنبياء أصحاب الشرائع وأولي العزم هم هؤلاء الخمسة المذكورون في الآية إذ لو كان معهم غيرهم لذكر فهؤلاء سادة الأنبياء ويدل على تقدمهم أيضا قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْراهِيمَ وَمُوسى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ [الأحزاب: ٧]

٥. ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا﴾:

أ. أن تفسيرية، وإقامة الدين حفظه بالاتباع والعمل واللام في الدين للعهد أي أقيموا هذا الدين المشروع لكم، وعدم التفرق فيه حفظ وحدته بالاتفاق عليه وعدم الاختلاف فيه.

ب. لما كان شرع الدين لهم في معنى أمرهم جميعا باتباعه والعمل به من غير اختلاف فسره بالأمر بإقامة الدين وعدم التفرق فيه فكان محصله أن عليهم جميعا إقامة الدين جميعا وعدم التفرق والتشتت فيه بإقامة بعض وترك بعض، وإقامته الإيمان بجميع ما أنزل الله والعمل بما يجب عليه العمل به.

ج. فجميع الشرائع التي أنزلها الله على أنبيائه دين واحد يجب إقامته وعدم التفرق فيه فأما الأحكام السماوية المشترك فيها الباقية ببقاء التكليف فمعنى الإقامة فيها ظاهر وأما الأحكام المشرعة في بعض هذه الشرائع المنسوخة في الشريعة اللاحقة فحقيقة الحكم المنسوخ أنه حكم ذو أمد خاص بطائفة من الناس في زمن خاص ومعنى نسخه تبين انتهاء أمده لا ظهور بطلانه قال تعالى: ﴿وَاللهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي

السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب: ٤] فالحكم المنسوخ حق دائما غير أنه خاص بطائفة خاصة في زمن خاص يجب عليهم أن يؤمنوا به ويعملوا به ويجب على غيرهم أن يؤمنوا به فحسب من غير عمل وهذا معنى إقامته وعدم التفرق فيه.

د. فتبين أن الأمر بإقامة الدين وعدم التفرق فيه في قوله: ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ مطلق شامل لجميع الناس في جميع الأزمان.

هـ. وبذلك يظهر فساد قول جمع إن الأمر بالإقامة وعدم التفرق إنما يشمل الأحكام المشتركة بين الشرائع دون المختصة فهي أحكام متفاوتة مختلفة باختلاف الأمم من حيث أحوالها ومصالحها.

و. وذلك أنه لا موجب لتقييد إطلاق قوله: ﴿أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ ولو كان كما يقولون كان الأمر بالإقامة مختصا بأصول الدين الثلاثة: التوحيد والنبوة والمعاد، وأما غيرها من الأحكام الفرعية فلا يكاد يوجد هناك حكم واحد مشترك فيه في جميع خصوصياته بين جميع الشرائع وهذا مما يأباه قطعا سياق قوله: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ ما وَصَّى بِهِ﴾، ومثل قوله: ﴿وَإِنَّ هذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُراً﴾ [المؤمنون: ٥٣] وقوله: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الْإِسْلامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٩]

١٠. كبر التوحيد على المشركين واجتباء الله لمن يشاء:

المقطع [١٠] من سورة الشورى، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ٣٠»:

١. ﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ ما تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ المراد بقوله: ﴿ما تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ دين التوحيد الذي كان يدعو إليه النبي ﷺ لا أصل التوحيد فحسب على ما تشهد به الآية التالية، والمراد بكبره على المشركين تحرجهم من قبوله.

٢. ﴿اللهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾:

أ. الاجتباء هو الجمع والاجتلاب، ومقتضى اتساق الضمائر أن يكون ضمير ﴿إِلَيْهِ﴾ الثاني والثالث راجعا إلى ما يرجع إليه الأول والمعنى الله يجمع ويجتلب إلى دين التوحيد، وهو ما تدعوهم إليه، من يشاء

من عباده ويهدي إليه من يرجع إليه فيكون مجموع قوله: ﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ ما تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشاءُ﴾ في معنى قوله: ﴿هُوَ اجْتَباكُمْ وَما جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْراهِيمَ﴾ [الحج: ٧٨]

ب. وقيل: الضميران لله تعالى، ولا بأس به لكن ما تقدم هو الأنسب، وعلى أي حال قوله: ﴿اللهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ﴾ موضوع موضع الاستغناء عن إيمان المشركين المستكبرين للإيمان نظير قوله تعالى: ﴿فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهارِ وَهُمْ لا يَسْأَمُونَ﴾ [فصلت: ٣٨]

ج. وقيل: المراد بما تدعوهم إليه ما تدعوهم إلى الإيمان به وهو الرسالة أي إن رسالتك كبرت عليهم، وقوله: ﴿اللهُ يَجْتَبِي﴾ في معنى قوله: ﴿اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤] وهو خلاف الظاهر.

١١. تفرق الأمم بعد العلم بغياً:

المقطع [١١] من سورة الشورى، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ﴾ [الشورى: ١٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ٣١»:

١. ﴿وَما تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ﴾:

أ. ضمير ﴿تَفَرَّقُوا﴾ للناس المفهوم من السياق، والبغي الظلم أو الحسد، وتقييده بقوله: ﴿بَيْنَهُمْ﴾ للدلالة على تداوله، والمعنى وما تفرق الناس الذين شرعت لهم الشريعة باختلافهم وتركهم الاتفاق إلا حال كون تفرقهم آخذا، أو ناشئا، من بعد ما جاءهم العلم بما هو الحق ظلما أو حسدا تداولوه بينهم.

ب. وهذا هو الاختلاف في الدين المؤدي إلى الانشعابات والتحزبات الذي ينسبه الله سبحانه في مواضع من كلامه إلى البغي، وأما الاختلاف المؤدي إلى نزول الشريعة وهو الاختلاف في شئون الحياة والتفرق في أمور المعاش فهو أمر عائد إلى اختلاف طبائع الناس في مقاصدهم وهو الذريعة إلى نزول الوحي وتشريع الشرع لرفعه كما يشير إليه قوله: ﴿كانَ النَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ﴾ [البقرة: ٢١٣] كما تقدم في تفسير الآية.

٢. ﴿وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾:

أ. المراد بالكلمة مثل قوله: حين إهباط آدم عليه السلام إلى الأرض: ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ [البقرة: ٣٦]

ب. والمعنى: ولو لا أن الله قضى فيهم الاستقرار والتمتع في الأرض إلى أجل سماه وعينه لقضي بينهم إثر تفرقهم في دينه وانحرافهم عن سبيله فأهلكهم باستدعاء من هذا الذنب العظيم.

ج. وقول القائل: إن الله قد قضى وأهلك كما يقصه في قصص نوح وهود وصالح عليه السلام وقد قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذا جاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ﴾ [يونس: ٤٧]

• مدفوع بأن ما قصه تعالى من القضاء والإهلاك إنما هو في أمم الأنبياء في زمانهم من المكذبين بين الرادين عليهم وما نحن فيه من قوله: ﴿وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾ الآية في أممهم بعدهم وهو واضح من السياق.

٣. ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ﴾:

أ. ضمير ﴿مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ لأولئك الذين تفرقوا من بعد علم بغيا بينهم وهم الأسلاف، والذين أورثوا الكتاب من بعدهم أخلافهم فمفاد الآية أن البادئين بالاختلاف المؤسسين للتفرقة كانوا على علم من الحق وإنما أبدعوا ما أبدعوا، بغيا بينهم، وأخلافهم الذين أورثوا الكتاب من بعدهم في شك مريب، موقع في الريب، منه.

ب. وما أوردناه في معنى الآية هو الذي يعطيه السياق، ولهم في تفسيرها أقاويل كثيرة لا جدوى في إسقاطها فليرجع في الوقوف عليها إلى كتبهم.

١٢. الأمر بالدعوة والاستقامة والإيمان بجميع الكتب والعدل:

المقطع [١٢] من سورة الشورى، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [الشورى: ١٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ٣٢»:

١. ﴿فَلِذلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَما أُمِرْتَ وَلا تَتَّبِعْ أَهْواءَهُمْ﴾:

أ. تفريع على ما ذكر من شرع دين واحد لجميع الأنبياء وأممهم ثم انقسام أممهم إلى أسلاف اختلفوا

في الدين عن علم بغيا، وإلى أخلاف شاكين مرتابين فيما أورثوه من الكتاب أي فلأجل أنه شرع لكم جميع ما شرع لمن قبلكم فادع ولأجل ما ذكر من تفرق بعضهم بغيا وارتياب آخرين فاستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم.

ب. واللام في قوله: ﴿فَلِذَلِكَ﴾ للتعليل، وقيل: اللام بمعنى إلى أي إلى ما شرع لكم من الدين فادع واستقم كما أمرت، والاستقامة، كما ذكره الراغب، لزوم المنهاج المستقيم، وقوله: ﴿وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ كالمفسر له.

٢. ﴿وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنْ كِتَابٍ﴾ تسوية بين الكتب السماوية من حيث تصديقها والإيمان بها وهي الكتب المنزلة من عند الله المشتملة على الشرائع.

٣. ﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾:

أ. قيل: اللام زائدة للتأكيد نظير قوله: ﴿وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٧١]، والمعنى: وأمرت أن أعدل بينكم أي أسوي بينكم فلا أقدم قويا على ضعيف ولا غنيا على فقير ولا كبيرا على صغير، ولا أفضل أبيض على أسود ولا عربيا على عجمي ولا هاشميا أو قرشيا على غيره فالدعوة متوجهة إلى الجميع، والناس قبال الشرع الإلهي سواء.

ب. فقوله: ﴿آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنْ كِتَابٍ﴾ تسوية بين الكتب المنزلة من حيث الإيمان بها، وقوله: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ تسوية بين الناس من حيث الدعوة وتوجه ما جاء به من الشرع.

ج. وقيل: اللام في ﴿لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ للتعليل، والمعنى: وأمرت بما أمرت لأجل أن أعدل بينكم، وكذا قيل: المراد بالعدل العدل في الحكم، وقيل: العدل في القضاء بينكم، وقيل غير ذلك، وهذه معان بعيدة لا يساعد عليها السياق.

٤. ﴿اللهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾:

أ. في مقام التعليل لما ذكر من التسوية بين الكتب والشرائع في الإيمان بها وبين الناس في دعوتهم وشمول الأحكام لهم، ولذا جيء في الكلام بالفصل من غير عطف.

ب. فقوله: ﴿اللهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ يشير إلى أن رب الكل هو الله الواحد تعالى فليس لهم أرباب كثيرون حتى يلحق كل بربه ويتفاضلوا بالأرباب ويقتصر كل منهم بالإيمان بشريعة ربه بل الله هو رب الجميع

وهم جميعا عباده المملوكون له المدبرون بأمره والشرائع المنزلة على الأنبياء من عنده فلا موجب للإيمان ببعضها دون بعض كما يؤمن اليهود بشريعة موسى دون من بعده وكذا النصارى بشريعة عيسى دون محمد ﷺ بل الواجب الإيمان بكل كتاب نازل من عنده لأنها جميعا من عنده.

٥. ﴿لَنا أَعْمالُنا وَلَكُمْ أَعْمالُكُمْ﴾ يشير إلى أن الأعمال وإن اختلفت من حيث كونها حسنة أو سيئة ومن حيث الجزاء ثوابا أو عقابا إلا أنها لا تتعدى عاملها فلكل امرئ ما عمل فلا ينتفع أحد بعمل آخر ولا يتضرر بعمل غيره فليس له أن يقدم امرأ للانتفاع بعمله أو يؤخر امرأ للتضرر بعمله نعم في الأعمال تفاضل تختلف به درجات العاملين لكن ذلك إلى الله فيما يحاسب به عباده لا إلى الناس، النبي فمن دونه، الذين هم جميعا عباد مملوكون لا يملك منهم نفس من نفس شيئا، وهذا هو الذي ذكره تعالى في محاورة نوح عليه السلام قومه: ﴿قالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ قالَ وَما عِلْمِي بِما كانُوا يَعْمَلُونَ إِنْ حِسابُهُمْ إِلَّا عَلى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ﴾ [الشعراء: ١١٣]، وكذا قوله يخاطب النبي ﷺ: ﴿ما عَلَيْكَ مِنْ حِسابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَما مِنْ حِسابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٥٢]

٦. ﴿لا حُجَّةَ بَيْنَنا وَبَيْنَكُمُ﴾:

أ. لعل المراد أنه لا حجة تدل على تقدم بعض على بعض تكون فيما بيننا يقيمها بعض على بعض يثبت بها تقدمه عليه.

ب. ويمكن أن يكون نفي الحجة كناية عن نفي لازمها وهو الخصومة أي لا خصومة بيننا بتفاوت الدرجات لأن ربنا واحد ونحن في أننا جميعا عباده واحد ولكل نفس ما عملت فلا حجة في البين أي لا خصومة حتى تتخذ لها حجة.

ج. ومن هنا يظهر أن لا وجه لقول بعضهم في تفسير الجملة: (أي لا احتجاج ولا خصومة لأن الحق قد ظهر فلم يبق للاحتجاج حاجة ولا للمخالفة محمل سوى المكابرة والعناد)، إذ الكلام مسوق لبيان ما أمر به النبي ﷺ في نفسه وفي أمته من سنة التسوية لا لإثبات شيء من أصول المعارف حتى تحمل الحجة على ما حملها عليه.

٧. ﴿اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنا﴾:

أ. المراد بضمير التكلم فيه مجموع المتكلم والمخاطب في الجمل السابقة، والمراد بالجمع جمعه تعالى

إياهم يوم القيامة للحساب والجزاء على ما قيل.

ب. وغير بعيد أن يراد بالجمع جمعه تعالى بينهم في الربوبية فهو رب الجميع والجميع عباده فيكون قوله: ﴿اللهُ يَجْمَعُ بَيْنَنا﴾ تأكيدا لقوله السابق: ﴿اللهُ رَبُّنا وَرَبُّكُمْ﴾ وتوطئة وتمهيدا لقوله: ﴿وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ ويكون مفاد الجملتين أن الله هو مبدئنا لأنه ربنا جميعا وإليه منتهانا لأنه إليه المصير فلا موجد لما بيننا إلا هو عز اسمه.

ج. وكان مقتضى الظاهر في التعليل أن يقال: (الله ربي وربكم لي عملي ولكم أعمالكم لا حجة بيني وبينكم على محاذاة قوله: ﴿آمَنْتُ﴾ ﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ﴾ لكن عدل عن المتكلم وحده إلى المتكلم مع الغير لدلالة قوله السابق: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ ما وَصَّى بِهِ نُوحاً﴾، وقوله: ﴿اللهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ إن هناك قوما يؤمنون بما آمن به النبي ﷺ ويلبون دعوته ويتبعون شريعته.

د. فالمراد بالمتكلم مع الغير في ﴿رَبُّنا﴾ و﴿لَنا أَعْمالُنا﴾ و﴿بَيْنَنا﴾ هو ﷺ والمؤمنون به، وبالمخاطبين في قوله: ﴿وَرَبُّكُمْ﴾ و﴿أَعْمالُكُمْ﴾ و﴿بَيْنَكُمُ﴾ سائر الناس من أهل الكتاب والمشركين، والآية على وزان قوله تعالى: ﴿قُلْ يا أَهْلَ الْكِتابِ تَعالَوْا إِلى كَلِمَةٍ سَواءٍ بَيْنَنا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنا بَعْضاً أَرْباباً مِنْ دُونِ اللهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤]

١٣. المحاجة في الله بعد الاستجابة:

المقطع [١٣] من سورة الشورى، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ [الشورى: ١٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ٣٥»:

١. ﴿وَالَّذِينَ يُحاجُّونَ فِي اللهِ مِنْ بَعْدِ ما اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ داحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ﴾:

أ. الحجة هي القول الذي يقصد به إثبات شيء أو إبطاله من الحج بمعنى القصد، والدحض البطلان والزوال.

ب. والمعنى: على ما قيل، والذين يحاجون في الله أي يحتجون على نفي ربوبيته أو على إبطال دينه من بعد ما استجاب الناس له ودخلوا في دينه لظهور الحجة ووضوح المحجة حجتهم باطلة زائلة عند

ربهم وعليهم غضب منه تعالى ولهم عذاب شديد.

ج. والظاهر أن المراد بالاستجابة له ما هو حق الاستجابة وهو التلقي بالقبول عن علم لا يداخله شك تضطر إليه الفطرة الإنسانية السليمة فإن الدين بما فيه من المعارف فطري تصدقه وتستجيب له الفطرة الحية قال تعالى: ﴿إِنَّما يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتى يَبْعَثُهُمُ اللهُ﴾ [الأنعام: ٣٦]، وقال: ﴿وَنَفْسٍ وَما سَوَّاها فَأَلْهَمَها فُجُورَها وَتَقْواها﴾ [الشمس: ٨]، وقال: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ﴾ ﴿لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها﴾ [الروم: ٣٠]

د. ومحصل الآية: على هذا أن الذين يحاجون فيه تعالى أو في دينه بعد استجابة الفطرة السليمة له أو بعد استجابة الناس بفطرتهم السليمة له حجتهم باطلة زائلة عند ربهم وعليهم غضب منه ولهم عذاب شديد لا يقادر قدره.

هـ. ويؤيد هذا الوجه بعض التأييد سياق الآيات السابقة حيث تذكر أن الله شرع دينا ووصى به أنبياءه واجتبى إليه من شاء من عباده فالمحاجة في أن لله دينا يستعبد به عباده داحضة ومن الممكن حينئذ أن يكون قوله: ﴿اللهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزانَ﴾ في مقام التعليل وحجة مدحضة لحجتهم فتدبر فيه.

و. وقيل: ضمير ﴿الله﴾ للرسول ﷺ والمستجيب أهل الكتاب، واستجابتهم له اعترافهم بورود أوصافه ونعوته في كتبهم والمراد أن محاجتهم في الله بعد اعترافهم له بما اعترفوا حجتهم باطلة عند ربهم.

ز. وقيل: الضمير له ﷺ والمستجيب هو الله تعالى حيث استجاب دعاءه على صناديد قريش فقتلهم يوم بدر، ودعاءه على أهل مكة فابتلاهم بالقحط والسنة، ودعاءه على المستضعفين حتى خلصهم الله من يد قريش إلى غير ذلك من معجزاته، والمعنيان بعيدان من السياق.

٢. أحاديث وآثار:

أ. في روح المعاني في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللهِ﴾ الآية: عن ابن عباس ومجاهد: نزلت في طائفة من بني إسرائيل، همت برد الناس عن الإسلام وإضلالهم، فقالوا: كتابنا قبل كتابكم ونبينا قبل نبيكم، فديننا أفضل من دينكم: وفي رواية: بدل (فديننا) فنحن أولى بالله منكم.

ب. أخرج ابن المنذر عن عكرمة قال: لما نزلت ﴿إِذا جاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ﴾، قال المشركون بمكة

لمن بين أظهرهم من المؤمنين: قد دخل الناس في دين الله أفواجا، فاخرجوا من بين أظهرنا، فعلام تقيمون بين أظهرنا فنزلت: ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللهِ مِنْ بَعْدِ ما اسْتُجِيبَ لَهُ﴾ الآية.

• أقول: مضمون الآية لا ينطبق على الرواية إذ لا محاجة في القصة، وكذا الخبر السابق لا يفي بتوجيه قوله: ﴿مِنْ بَعْدِ ما اسْتُجِيبَ لَهُ﴾

١٤. إنزال الكتاب والميزان والساعة حق:

المقطع [١٤] من سورة الشورى، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿اللهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ [الشورى: ١٧ـ١٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ٣٨»:

١. ﴿اللهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزانَ﴾:

أ. كان مفتتح الفصول السابقة في سياق الفعل إخبارا عن الوحي وغرضه وآثاره ﴿كَذلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ﴾ ﴿وَكَذلِكَ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ﴾ ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ﴾ وقد غير السياق في مفتتح هذا الفصل فجيء بالجملة الاسمية المتضمنة لتوصيفه تعالى بإنزال الكتاب والميزان ﴿اللهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتابَ﴾، ولازمه تعريف الوحي بنزول الكتاب والميزان به.

ب. ولعل الوجه فيه ما تقدم في الآية السابقة من ذكر المحاجة في الله ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللهِ﴾ فاستدعى ذلك تعريفه تعالى للمحاجين فيه بأنه الذي أنزل الكتاب بالحق والميزان، ولازمه تعريف الوحي بأثره كما عرفت.

ج. وكيف كان فالمراد بالكتاب هو الوحي المشتمل على الشريعة والدين الحاكم في المجتمع البشري، وقد تقدم في تفسير قوله تعالى: ﴿كانَ النَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً﴾ الآية [البقرة: ٢١٣] أن هذا المعنى هو المراد بالكتاب في الكتاب، وكون إنزاله بالحق نزوله مصاحبا للحق لا يخالطه اختلاف شيطاني ولا نفساني.

د. والميزان ما يوزن ويقدر به الأشياء، والمراد به بقرينة ذيل الآية والآيات التالية هو الدين المشتمل عليه الكتاب حيث يوزن به العقائد والأعمال فتحاسب عليه ويجزي بحسبه الجزاء يوم القيامة فالميزان هو الدين بأصوله وفروعه، ويؤيده قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلَنا بِالْبَيِّناتِ وَأَنْزَلْنا مَعَهُمُ الْكِتابَ وَالْمِيزانَ﴾

[الحديد: ٢٥]، على ما هو ظاهر قوله: ﴿مَعَهُمُ﴾

هـ. وقيل: المراد به العدل وسمي العدل ميزانا لأن الميزان آلة الإنصاف والتسوية بين الناس والعدل كذلك وأيد بسبق ذكر العدل في قوله: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾

• وفيه أنه لا شاهد يشهد عليه من اللفظ، وقد تقدم أن المراد بالعدل في ﴿لِأَعْدِلَ﴾ هو التسوية بين الناس في التبليغ وفي جريان الحكم دون عدل الحاكم والقاضي.

و. وقيل: المراد به الميزان المعروف المقدر للأثقال، وهو كما ترى.

ز. وقيل: المراد به النبي ﷺ ويمكن إرجاعه إلى ما قدمناه من الوجه لأن النبي مصداق كامل ومثل أعلى للدين بأصوله وفروعه ولكل فرد من أمته من الزنة الدينية قدر ما يشابهه ويماثله لكن لا يلائم هذا الوجه ما تقدم نقله آنفا من آية سورة الحديد كثير ملاءمة.

٢. ﴿وَما يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾:

أ. لما كان الميزان المشعر بالحساب والجزاء يومئ إلى البعث والقيامة انتقل إلى الكلام فيه وإنذارهم بما سيستقبلهم فيه من الأهوال والتبشير بما أعد فيه للصالحين.

ب. والادراء الاعلام، والمراد بالساعة، على ما قيل، إتيانها ولذا جيء بالخبر مذكرا، والمعنى: ما الذي يعلمك لعل إتيان الساعة قريب والخطاب للنبي ﷺ بعنوان أنه سامع فيشمل كل من له أن يسمع ويعم الإنذار والتخويف.

٣. ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِها وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْها﴾:

أ. المراد استعجالهم استعجال سخرية واستهزاء وقد تكرر في القرآن نقل قولهم: ﴿مَتى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ﴾

ب. والإشفاق نوع من الخوف، قال الراغب: (الإشفاق عناية مختلطة بخوف لأن المشفق يحب المشفق عليه ويخاف ما يلحقه، قال تعالى: ﴿وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾ فإذا عدي بمن فمعنى الخوف فيه أظهر، وإذا عدي بفي فمعنى العناية فيه أظهر، قال تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنا مُشْفِقِينَ﴾ ﴿مُشْفِقُونَ مِنْها﴾)

٤. ﴿أَلا إِنَّ الَّذِينَ يُمارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلالٍ بَعِيدٍ﴾ المماراة الإصرار على الجدال، والمراد

إلحاحهم على إنكارها بالجدال، وإنما كانوا في ضلال بعيد لأنهم أخطئوا طريق الحياة التي أصابتها أهم ما يتصور للإنسان فتوهموها حياة مقطوعة فانية انكبوا فيها على شهوات الدنيا وإنما هي حياة خالدة باقية يجب عليهم أن يتزودوا من دنياهم لأخراهم لكنهم ضلوا عن سبيل الرشد فوقعوا في سبيل الغي.

١٥. لطف الله بعباده ورزقه من يشاء وحرث الآخرة والدنيا:

المقطع [١٥] من سورة الشورى، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ [الشورى: ١٩-٢٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ٤٠»:

١. ﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾:

أ. في معنى اللطف شيء من الرفق وسهولة الفعل وشيء من الدقة في ما يقع عليه الفعل فإذا تم الرفق والدقة وكان الفاعل يفعل برفق وسهولة ويقع فعله على الأمور الدقيقة كان لطيفا كالهواء النافذ في منافذ الأجسام برفق وسهولة المماس لدقائق أجزائها الباطنة، وإذا ألقيت الخصوصيات المادية عن هذا المعنى صح أن يتصف به الله سبحانه فإنه تعالى ينال دقائق الأمور بإحاطته وعلمه ويفعل فيها ما يشاء برفق فهو لطيف.

ب. وقد رتب الرزق في الآية على كونه تعالى لطيفا بعباده قويا عزيزا دلالة على أنه تعالى بلطفه لا يغيب عنه أحد ممن يشاء أن يرزق ولا يعصيه وبقوته عليه لا يعجز عنه وبعزته لا يمنعه مانع عنه.

ج. والمراد بالرزق ما يعم موهبة الدين الذي يتلبس بها من يشاء من عباده على ما يشهد به الآية التالية، ولذا ألحق القول فيه بقوله: ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ﴾

٢. ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ﴾:

أ. الحرث الزرع والمراد به نتيجة الأعمال التي يؤتاها الإنسان في الآخرة على سبيل الاستعارة كان الأعمال الصالحة بذور وما تنتجه في الآخرة حرث.

ب. والمراد بالزيادة له في حرثه تكثير ثوابه ومضاعفته، قال تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠]، وقال: ﴿وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٦١]

٣. ﴿وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾:

أ. أي ومن كان يريد النتائج الدنيوية بأن يعمل للدنيا ويريد نتيجة ما عمله فيها دون الآخرة نؤته من الدنيا وما له في الآخرة نصيب، وفي التعبير بإرادة الحرث إشارة إلى اشتراط العمل لما يريده من الدنيا والآخرة كما قال تعالى: ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى﴾ [النجم: ٣٩]

ب. وقد أبهم ما يعطيه من الدنيا إذ قال: ﴿نُؤْتِهِ مِنْها﴾ إشارة إلى أن الأمر إلى المشية الإلهية فربما بسطت الرزق وربما قدرت كما قال تعالى: ﴿مَنْ كانَ يُرِيدُ الْعاجِلَةَ عَجَّلْنا لَهُ فِيها ما نَشاءُ لِمَنْ نُرِيدُ﴾ [الإسراء: ١٨]

ج. والالتفات من الغيبة إلى التكلم بالغير في قوله: ﴿نَزِدْ لَهُ﴾ و﴿نُؤْتِهِ مِنْها﴾ للدلالة على العظمة التي يشعر بها قوله: ﴿وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾

٤. والمحصل من معنى الآيتين:

أ. أن الله سبحانه لطيف بعباده جميعا ذو قوة مطلقة وعزة مطلقة يرزق عباده على حسب مشيته وقد شاء في من أراد الآخرة وعمل لها أن يرزقه منها ويزيد فيه، وفيمن أراد الدنيا وعمل لها فحسب أن يؤتيه منها وما له في الآخرة من نصيب.

ب. ويظهر من ذلك أن الآية الأولى عامة تشمل الفريقين، والمراد بالعباد ما يعم أهل الدنيا والآخرة، وكذا الرزق وأن الآية الثانية في مقام تفصيل ما في قوله: ﴿يَرْزُقُ مَنْ يَشاءُ﴾ من الإجمال.

١٦. الشركاء والشرع والعذاب:

المقطع [١٦] من سورة الشورى، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الشورى: ٢١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ٤١»:

١. ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ ما لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللهُ﴾:

أ. لما بين أن الله سبحانه هو الذي أنزل الكتاب بالحق وشرع لهم الدين الذي هو ميزان أعمالهم وأنه بلطفه وقوته وعزته يرزق من أراد الآخرة وعمل لها ما أراده منها ويزيد، وإن من أراد الدنيا ونسي الآخرة لا نصيب له فيها سجل على من كفر بالآخرة عدم النصيب فيها بإنكار أن لا دين غير ما شرعه الله يدين به هؤلاء حتى يرزقوا بالعمل به مثل ما يرزق أهل الإيمان بالآخرة فيها إذ لا شريك لله حتى يشرع دينا غير

ما شرعه الله من غير إذن منه تعالى فلا دين إلا لله ولا يرزق في الآخرة رزقا حسنا إلا من آمن بها وعمل لها.

ب. فقوله: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكاءُ﴾، في مقام الإنكار، وقوله: ﴿وَلَوْلا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ إشارة إلى الكلمة التي سبقت منه تعالى أنهم يعيشون في الأرض إلى أجل مسمى، وفيه إكبار لجرمهم ومعصيتهم.

٢. ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ﴾ وعيد لهم على ظلمهم، وإشارة إلى أنهم لا يفوتونه تعالى فإن لم يقض بينهم ولم يعذبهم في الدنيا فلهم في الآخرة عذاب أليم.

١٧. خوف الظالمين مما كسبوا والمؤمنون في روضات الجنات:

المقطع [١٧] من سورة الشورى، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ [الشورى: ٢٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ٤٢»:

١. ﴿تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ واقِعٌ بِهِمْ﴾:

أ. الخطاب للنبي ﷺ بعنوان أنه سامع فيشمل كل من من شأنه أن يرى، والمراد بالظالمين التاركون لدين الله الذي شرعه لعباده المعرضون عن الساعة، والمعنى: يرى الراءون هؤلاء الظالمين يوم القيامة خائفين مما كسبوا من السيئات وهو واقع بهم لا مناص لهم عنه.

ب. والآية من الآيات الظاهرة في تجسم الأعمال، وقيل: في الكلام مضاف محذوف والتقدير مشفقين من وبال ما كسبوا، ولا حاجة إليه.

٢. ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ فِي رَوْضاتِ الْجَنَّاتِ﴾ في المجمع: (أن الروضة الأرض الخضرة بحسن النبات، والجنة الأرض التي تحفها الشجر فروضات الجنات الحدائق المشجرة المخضرة متونها)

٣. ﴿لَهُمْ ما يَشاؤُنَ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أي إن نظام الأسباب مطوي فيها بل السبب الوحيد هو إرادتهم وحدها يخلق الله لهم من عنده ما يشاءون ذلك هو الفضل الكبير.

١٨. بشرى المؤمنين والمودة في القربى ومضاعفة الحسنات:

المقطع [١٨] من سورة الشورى، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ

آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُل لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [الشورى: ٢٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ٤٢»:

١. ﴿ذٰلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللهُ عِبادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ﴾ تبشير للمؤمنين الصالحين، وإضافة العباد تشريفية.

٢. ﴿قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى﴾ لأهمية ما أورده في تفسير الآية الكريمة، ولعلاقتها بالكثير من المباحث، فقد وضعنا ما ذكره في تفسيرها المفصل ضمن الجزء الخاص بالبحوث التفسيرية، وقد عنوناه بـ

٣. وضع هنا مبحثا حول [تحقيق معنى قوله تعالى: ﴿قُل لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ وبيان المراد بالقربى والمودة]، خلاصته:

أ. بيان أن الآية تضع المودة في القربى أجراً للرسالة، وأن هذا الأجر يرجع إلى استجابة الدعوة وحفظ الدين بعد النبي ﷺ.

ب. إثبات أن المراد بـ ﴿الْقُرْبَى﴾ هم أهل بيت النبي ﷺ: علي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام، كما دلت عليه الروايات المتواترة من طرق الفريقين.

ج. توضيح أن المودة في القربى ليست أجراً مالياً، بل هي وسيلة لحفظ الدين وإرجاع الناس إلى أهل البيت في فهم الكتاب والسنة، كما في حديث الثقلين.

د. الرد على الأقوال الأخرى في تفسير الآية، وبيان أنها لا تنطبق على سياق الآية ولا تنسجم مع نصوص القرآن الأخرى.

هـ. بيان أن الآية لا تنافي قوله: ﴿وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾، لأن المودة في القربى أمر يرجع إلى نفعه ودينهم، لا إلى منفعة النبي ﷺ.

و. عرض الروايات الواردة في تفسير الآية من طرق الفريقين، وبيان أنها تدل على أن المودة في القربى هي مودة أهل البيت عليهم السلام.

٤. ﴿وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيها حُسْناً إِنَّ اللهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾:

أ. الاقتراف الاكتساب، والحسنة الفعلة التي يرتضيها الله سبحانه ويثيب عليها، وحسن العمل

ملاءمته لسعادة الإنسان والغاية التي يقصدها كما أن مساءته وقبحه خلاف ذلك، وزيادة حسنها إتمام ما نقص من جهاتها وإكماله ومن ذلك الزيادة في ثوابها كما قال تعالى: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت: ٧]، وقال: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللهُ أَحْسَنَ ما عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [النور: ٣٨]

ب. والمعنى: ومن يكتسب حسنة نزد له في تلك الحسنة حسنا، برفع نقائصها وزيادة أجرها، إن الله غفور يمحو السيئات شكور يظهر محاسن العمل من عامله.

ج. وقيل: المراد بالحسنة مودة قربى النبي ﷺ ويؤيده ما في روايات أئمة أهل البيت عليه السلام أن قوله: ﴿قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً﴾ إلى تمام أربع آيات نزلت في مودة قربى النبي ﷺ، ولازم ذلك كون الآيات مدنية وأنها ذات سياق واحد وأن المراد بالحسنة من حيث انطباقها على المورد هي المودة، وعلى هذا فالإشارة بقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرى﴾، إلى بعض ما تفوه به المنافقون تثاقلا عن قبوله وفي المؤمنين سماعون لهم، وبقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ﴾ إلى آخر الآيتين إلى توبة الراجعين منهم وقبولها.

د. وفي قوله: ﴿إِنَّ اللهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ التفات من التكلم إلى الغيبة والوجه فيه الإشارة إلى علة الاتصاف بالمغفرة والشكر فإن المعنى: أن الله غفور شكور لأنه الله عز اسمه.

٥. أحاديث وآثار: أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً﴾ قال: المودة لآل محمد.

- أقول: وروي ما في معناه في الكافي، بإسناده عن محمد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام.

١٩. رد قول المفترين على الله وختم القلب ومحق الباطل وإحقاق الحق:

المقطع [١٩] من سورة الشورى، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَإِ اللهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [الشورى: ٢٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ٤٩»:

١. ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً﴾ أم منقطعة، والكلام مسوق للتوبيخ ولازمه إنكار كونه ﷺ مفتريا على الله كذبا.

٢. ﴿فَإِنْ يَشَإِ اللهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ﴾:

أ. معناه على ما يعطيه السياق أنك لست مفتريا على الله كذبا فإنه ليس لك من الأمر شيء حتى

تشاء الفرية فتأتي بها وإنما هو وحي من الله سبحانه من غير أن يكون لك فيه صنع والأمر إلى مشيته تعالى فإن يشأ يختم على قلبك وسد باب الوحي إليك، لكنه شاء أن يوحي إليك ويبين الحق، وقد جرت سنته أن يمحو الباطل ويحق الحق بكلماته.

ب. فقوله: ﴿فَإِنْ يَشَإِ اللهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ﴾ كناية عن إرجاع الأمر إلى مشية الله وتنزيه لساحة النبي ﷺ أن يأتي بشيء من عنده.

ج. وهذا المعنى، كما سترى، أنسب للسياق بناء على كون المراد بالقربى قرابة النبي ﷺ والتوبيخ متوجها إلى المنافقين ومرضي القلوب.

٣. وقد ذكروا في معنى الجملة وجوها أخر:

أ. منها: ما ذكره الزمخشري في الكشاف حيث فسر قوله: ﴿فَإِنْ يَشَإِ اللهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ﴾ بقوله: فإن يشإ الله يجعلك من المختوم على قلوبهم حتى تفتري عليه الكذب فإنه لا يفتري على الله الكذب إلا من كان في مثل حالهم.

• وهذا الأسلوب مؤداه استبعاد الافتراء من مثله وأنه في البعد مثل الشرك بالله والدخول في جملة المختوم على قلوبهم، ومثال هذا أن يخون بعض الأمناء فيقول: لعل الله خذلني لعل الله أعمى قلبي وهو لا يريد إثبات الخذلان وعمى القلب وإنما يريد استبعاد أن يخون مثله والتنبيه على أنه ركب من تخوينه أمر عظيم) انتهى

ب. ومنها ما قيل: إن المعنى لو حدثت نفسك بأن تفتري على الله الكذب لطبع الله على قلبك ولأنساك القرآن فكيف تقدر أن تفتري على الله، وهذا كقوله: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾

ج. ومنها ما قيل: إن معناه فإن يشإ الله يربط على قلبك بالصبر على أذاهم حتى لا يشق عليك قولهم: إنه مفتر وساحر، وهي وجوه لا تخلو من ضعف.

د. ومنها ما قيل: إن المعنى فإن يشإ الله يختم على قلبك كما ختم على قلوبهم وهو تسلية للنبي ﷺ ليشكر ربه على ما آتاه من النعمة.

هـ. ومنها ما قيل: إن المعنى فإن يشإ الله يختم على قلوب الكفار وعلى ألسنتهم ويعاجلهم بالعذاب، وعدل عن الغيبة إلى الخطاب وعن الجمع إلى الإفراد، والمراد: يختم على قلبك أيها القائل: أنه افترى على

الله كذبا.

٤. ﴿وَيَمْحُ اللهُ الْباطِلَ وَيُحِقُّ الحَقَّ بِكَلِماتِهِ﴾ الإتيان بالمضارع، يمحو ويحق، للدلالة على الاستمرار، فمحو الباطل وإحقاق الحق بالكلمات سنة جارية له تعالى والمراد بالكلمات ما ينزل على الأنبياء من الوحي الإلهي والتكليم الربوبي ويمكن أن يكون المراد نفوس الأنبياء من حيث أنها مفصحة عن الضمير الغيبي.

٥. ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ﴾:

أ. تعليل لقوله: ﴿وَيَمْحُ اللهُ الْباطِلَ﴾ أي أنه يمحو الباطل ويحق الحق بكلماته لأنه عليم بالقلوب وما انطوت عليه فيعلم ما تستدعيه من هدى أو ضلال أو شرح أو ختم بإنزال الوحي وتوجيه الدعوة.

ب. قيل: وفي الآية إشعار بوعد النبي ﷺ بالنصر ولا يخلو من وجه.

٢٠. قبول التوبة والعفو عن السيئات واستجابة المؤمنين وزيادة الفضل:

المقطع [٢٠] من سورة الشورى، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ [الشورى: ٢٥ـ٢٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ٥٠»:

١. ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبادِهِ وَيَعْفُوا عَنِ السَّيِّئاتِ وَيَعْلَمُ ما تَفْعَلُونَ﴾:

أ. يقال: قبل منه وقبل عنه قال في الكشاف: (يقال: قبلت منه الشيء وقبلته عنه فمعنى قبلته منه أخذته منه وجعلته مبدأ قبولي ومنشأه، ومعنى قبلته عنه عزلته وأبنته عنه)

ب. وفي قوله: ﴿وَيَعْلَمُ ما تَفْعَلُونَ﴾ تحضيض على التوبة وتحذير عن اقتراف السيئات والمعنى ظاهر.

٢. ﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَالْكافِرُونَ لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ﴾:

أ. فاعل ﴿يَسْتَجِيبُ﴾ ضمير راجع إليه تعالى و﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾، في موضع المفعول بنزع الخافض والتقدير ويستجيب للذين، آمنوا على ما قيل، وقيل: فاعل ﴿يَسْتَجِيبُ﴾ هو ﴿الَّذِينَ﴾ وهو بعيد من السياق.

ب. والاستجابة إجابة الدعاء ولما كانت العبادة دعوة له تعالى عبر عن قبولها بالاستجابة لهم، والدليل على هذا المعنى قوله: ﴿وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ فإن ظاهره زيادة الثواب وكذا مقابلة استجابة المؤمنين بقوله: ﴿وَالْكافِرُونَ لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ﴾

ج. وقيل: المراد أنه يستجيب لهم إذا دعوه وأعطاهم ما سألوه وزادهم على ما طلبوه وهو بعيد من السياق، على أن استجابة الدعاء لا يختص بالمؤمن.

٢١. الرزق والقدر والبغي:

المقطع [٢١] من سورة الشورى، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ [الشورى: ٢٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ٥٥»:

١. ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللهُ الرِّزْقَ لِعِبادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ ما يَشاءُ إِنَّهُ بِعِبادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾:

أ. القدر مقابل البسط معناه التضييق ومنه قوله السابق: ﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَيَقْدِرُ﴾ والقدر بفتح الدال وسكونها كمية الشيء وهندسته ومنه قوله: ﴿وَلكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ ما يَشاءُ﴾ أو جعل الشيء على كمية معينة ومنه قوله: ﴿فَقَدَرْنا فَنِعْمَ الْقادِرُونَ﴾ [المرسلات: ٢٣]

ب. والبغي الظلم، وقوله: ﴿بِعِبادِهِ﴾ من وضع الظاهر موضع الضمير، والنكتة فيه الإشارة إلى بيان كونه خبيرا بصيرا بهم وذلك أنهم عباده المخلوقون له القائمون به فلا يكونون محجوبين عنه مجهولين له، وكذا قوله السابق: ﴿لِعِبادِهِ﴾ لا يخلو من إشارة إلى بيان إيتاء الرزق وذلك أنهم عباده ورزق العبد على مولاه.

ج. ومعنى الآية: ولو وسع الله الرزق على عباده فأشبع الجميع بإيتائه لظلموا في الأرض، لما أن من طبع سعة المال الأشر والبطر والاستكبار والطغيان كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسانَ لَيَطْغى أَنْ رَآهُ اسْتَغْنى﴾ [العلق: ٧]، ولكن ينزل ما يشاء من الرزق بقدر وكمية معينة أنه بعباده خبير بصير فيعلم ما يستحقه كل عبد وما يصلحه من غنى أو فقر فيؤتيه ذلك.

د. ففي قوله: ﴿وَلكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ ما يَشاءُ﴾ بيان للسنة الإلهية في إيتاء الرزق بالنظر إلى صلاح حال الناس أي إن لصلاح حالهم أثرا في تقدير أرزاقهم، ولا ينافي ذلك ما نشاهد من طغيان بعض المثرين ونماء

رزقهم على ذلك فإن هناك سنة أخرى حاكمة على هذه السنة وهي سنة الابتلاء والامتحان، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْوالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن: ١٥]، وسنة أخرى هي سنة المكر والاستدراج، قال تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [الأعراف: ١٨٣]

هـ. فسنة الإصلاح بتقدير الرزق سنة ابتدائية يصلح بها حال الإنسان إلا أن يمتحنه الله كما قال: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللهُ ما فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ ما فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٤] أو يغير النعمة ويكفر بها فيغير الله في حقه سنته فيعطيه ما يطغيه، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]

و. وكما أن إيتاء المال والبنين وسائر النعم الصورية من الرزق المقسوم كذلك المعارف الحقة والشرائع السماوية المنتهية إلى الوحي من حيث إنزالها ومن حيث الابتلاء بها والتلبس بالعمل بها من الرزق المقسوم.

ز. فلو نزلت المعارف والأحكام عن آخرها دفعة واحدة، على ما لها من الإحاطة والشمول لجميع شئون الحياة الإنسانية، لشقت على الناس ولم يؤمن بها إلا الأوحدي منهم لكن الله سبحانه أنزلها على رسوله ﷺ تدريجا وعلى مكث وهيأ بذلك الناس بقبول بعضها لقبول بعض، قال تعالى: ﴿وَقُرْآناً فَرَقْناهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلى مُكْثٍ﴾ [الإسراء: ١٠٦]

ح. وكذا المعارف العالية التي هي في بطون المعارف الساذجة الدينية لو لم يضرب عليها بالحجاب وبينت لعامة الناس على حد الظواهر المبينة لهم لم يتحملوها ودفعته أفهامهم إلا الأوحدي منهم لكن الله سبحانه كلمهم في ذلك نوع تكليم يستفيد منه كل على قدر فهمه وسعة صدره كما قال في مثل ضربه في ذلك: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَسالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِها﴾ [الرعد: ١٧]

ط. وكذلك الأحكام والتكاليف الشرعية لو كلف بجميعها جميع الناس لتحرجوا منها ولم يتحملوها لكنه سبحانه قسمها بينهم حسب تقسيم الابتلاءات المقتضية لتوجه التكاليف المتنوعة بينهم.

ي. فالرزق بالمعارف والشرائع من أي جهة فرض كالرزق الصوري مفروض بين الناس مقدر على حسب صلاح حالهم.

٢. أحاديث وآثار:

أ. أخرج الحاكم وصححه والبيهقي عن علي قال: إنما أنزلت هذه الآية في أصحاب الصفة: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللهُ الرِّزْقَ لِعِبادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ﴾ وذلك أنهم قالوا: لو أن لنا فتمنوا الدنيا.

• أقول: والآية على هذا مدنية لكن الرواية أشبه بالتطبيق منها بسبب النزول.

ب. وفي تفسير القمي قوله: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللهُ الرِّزْقَ لِعِبادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ﴾ قال الصادق عليه السلام: لو فعل لفعلوا، ولكن جعلهم محتاجين بعضهم إلى بعض، واستعبدهم بذلك ولو جعلهم أغنياء لبغوا ﴿وَلكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ ما يَشاءُ﴾ مما يعلم أنه يصلحهم في دينهم ودنياهم ﴿إِنَّهُ بِعِبادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾

ج. وفي المجمع: (روى أنس عن النبي ﷺ عن جبرئيل عن الله جل ذكره: أن من عبادي من لا يصلحه إلا السقم ولو صححته لأفسده، وإن من عبادي من لا يصلحه إلا الصحة ولو أسقمته لأفسده، وإن من عبادي من لا يصلحه إلا الغنى ولو أفقرته لأفسده، وإن من عبادي من لا يصلحه إلا الفقر ولو أغنيته لأفسده، وذلك أني أدبر عبادي لعلمي بقلوبهم.

٢٢. الغيث والقنوط والرحمة:

المقطع [٢٢] من سورة الشورى، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [الشورى: ٢٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ٥٧»:

١. ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ ما قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾:

أ. القنوط اليأس، والغيث المطر، قال في مجمع البيان: (الغيث ما كان نافعا في وقته، والمطر قد يكون نافعا وقد يكون ضارا في وقته وغير وقته)، ونشر الرحمة تفريق النعمة بين الناس بإنبات النبات وإخراج الثمار التي يكون سببها المطر.

ب. وفي الآية انتقال من حديث الرزق إلى آيات التوحيد التي لها تعلق ما بالأرزاق، ويتلوها في هذا المعنى آيات، وتذييل الآية بالاسمين: الولي الحميد وهما من أسمائه تعالى الحسنى للثناء عليه في فعله الجميل.

٢٣. خلق الكائنات والقدرة على جمعها:

المقطع [٢٣] من سورة الشورى، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾ [الشورى: ٢٩]، وفيه المسائل التالية

«الميزان: ١٨/ ٥٨»:

١. ﴿وَمِنْ آياتِهِ خَلْقُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَثَّ فِيهِما مِنْ دابَّةٍ﴾:

أ. البث التفريق، ويقال: بث الريح التراب إذا أثاره، والدابة كل ما يدب على الأرض فيعم الحيوانات جميعا، والمعنى ظاهر.

ب. وظاهر الآية أن في السماوات خلقا من الدواب كالأرض، وقول بعضهم: إن ما في السموات من دابة هي الملائكة يدفعه أن إطلاق الدواب على الملائكة غير معهود.

٢. ﴿وَهُوَ عَلى جَمْعِهِمْ إِذا يَشاءُ قَدِيرٌ﴾:

أ. إشارة إلى حشر ما بث فيهما من دابة وقد عبر بالجمع لمقابلته البث الذي هو التفريق، ولا دلالة في قوله: ﴿عَلى جَمْعِهِمْ﴾ حيث أتى بضمير أولي العقل على كون ما في السماوات من الدواب أولي عقل كالإنسان لقوله تعالى: ﴿وَما مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا طائِرٍ يَطِيرُ بِجَناحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثالُكُمْ ما فَرَّطْنا فِي الْكِتابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٨]

ب. والقدير من أسمائه تعالى الحسنى وهو الذي أركزت فيه القدرة وثبتت، قال الراغب: (القدرة إذا وصف بها الإنسان فاسم لهيئة له بها يتمكن من فعل شيء ما، وإذا وصف الله بها فهي نفي العجز عنه، ومحال أن يوصف غير الله بالقدرة المطلقة معنى وإن أطلق عليه لفظا بل حقه أن يقال: قادر على كذا، ومتى قيل: هو قادر فعلى سبيل معنى التقييد، ولهذا لا أحد غير الله يوصف بالقدرة من وجه إلا ويصح أن يوصف بالعجز من وجه والله تعالى هو الذي ينتفي عنه العجز من كل وجه، والقدير هو الفاعل لما يشاء على قدر ما تقتضي الحكمة لا زائدا عليه ولا ناقصا عنه ولذلك لا يصح أن يوصف به إلا الله تعالى قال: (إنه على ما يشاء قدير)، والمقتدر يقاربه نحو ﴿عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ﴾ لكن قد يوصف به البشر، وإذا استعمل في الله فمعناه معنى القدير وإذا استعمل في البشر فمعناه المتكلف والمكتسب للقدرة)

• وهو حسن غير أن في قوله: إن القدرة إذا وصف بها الله فهي نفي العجز عنه مساهلة ظاهرة فإن صفاته تعالى الذاتية كالحياة والعلم والقدرة لها معان إيجابية هي عين الذات لا معان سلبية حتى تكون الحياة بمعنى انتفاء الموت والعلم بمعنى انتفاء الجهل والقدرة بمعنى انتفاء العجز على ما يقوله الصابئون ولازمه خلو الذات عن صفات الكمال، فالحق أن معنى قدرته تعالى كونه بحيث يفعل ما يشاء، ولازم هذا

المعنى الإيجابي انتفاء مطلق العجز عنه تعالى.

٢٤. المصيبة بما كسبت الأيدي والعفو عن كثير:

المقطع [٢٤] من سورة الشورى، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠-٣١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ٦٠»:

١. ﴿وَما أَصابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِما كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾:

أ. المصيبة النائبة تصيب الإنسان كأنها تقصده، والمراد بما كسبت أيديكم المعاصي والسيئات، وقوله: ﴿وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ أي عن كثير مما كسبت أيديكم وهي السيئات.

ب. والخطاب في الآية اجتماعي موجه إلى المجتمع غير منحل إلى خطابات جزئية ولازمه كون المراد بالمصيبة التي تصيبهم المصائب العامة الشاملة كالقحط والغلاء والوباء والزلازل وغير ذلك.

ج. فيكون المراد أن المصائب والنوائب التي تصيب مجتمعكم ويصابون بها إنما تصيبكم بسبب معاصيكم والله يصفح عن كثير منها فلا يأخذ بها.

د. فالآية في معنى قوله تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِما كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١]، وقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنا عَلَيْهِمْ بَرَكاتٍ مِنَ السَّماءِ وَالْأَرْضِ وَلكِنْ كَذَّبُوا﴾ [الأعراف: ٩٦]، وقوله: ﴿إِنَّ اللهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]، وغير ذلك من الآيات الدالة على أن بين أعمال الإنسان وبين النظام الكوني ارتباطا خاصا فلو جرى المجتمع الإنساني على ما يقتضيه الفطرة من الاعتقاد والعمل لنزلت عليه الخيرات وفتحت عليه البركات ولو أفسدوا أفسد عليهم.

هـ. هذا ما تقتضيه هذه السنة الإلهية إلا أن ترد عليه سنة الابتلاء أو سنة الاستدراج والإملاء فينقلب الأمر، قال تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَّلْنا مَكانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقالُوا قَدْ مَسَّ آباءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْناهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٥]

و. ويمكن أن يكون الخطاب في الآية عاما منحلا إلى خطابات الأفراد فيكون ما يصاب كل إنسان بمصيبة في نفسه أو ماله أو ولده أو عرضه وما يتعلق به مستندا إلى معصية أتى بها وسيئة عملها ويعفو الله

عن كثير منها.

ز. وكيف كان فالخطاب في الآية لعامة الناس من المؤمن والكافر وهو الذي يفيده السياق وتؤيده الآية التالية هذا أولا، والمراد بما كسبته الأيدي المعاصي والسيئات دون مطلق الأعمال، وهذا ثانيا، والمصائب التي تصيب إنما هي آثار الأعمال في الدنيا لما بين الأعمال وبينها من الارتباط والتداعي دون جزاء الأعمال وهذا ثالثا.

٢. وبما ذكر يندفع:

أ. أولا: ما استشكل على عموم الآية بالمصائب النازلة على الأنبياء عليهم‌السلام وهم معصومون لا معصية لهم، المصائب النازلة على الأطفال والمجانين وهم غير مكلفين بتكليف فلا معصية لهم فيجب تخصيص الآية بمصائب الأنبياء ومصائب الأطفال والمجانين.

• وجه الاندفاع أن إثبات المعصية لهم في قوله: ﴿فَبِما كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ دليل على أن الخطاب في الآية لمن يجوز عليه صدور المعصية فلا يشمل المعصومين وغير المكلفين من رأس فعدم شمول الآية لهم من باب التخصص دون التخصيص.

ب. وثانيا: ما قيل: إن مقتضى الآية مغفرة ذنوب المؤمنين جميعا فإنها بين ما يجزون عليها بإصابة المصائب وما يعفى عنها.

• وجه الاندفاع أن الآية مسوقة لبيان ارتباط المصائب بالمعاصي وكون المعاصي ذوات آثار دنيوية سيئة منها ما يصيب الإنسان ولا يخطئ ومنها ما يعفى عنه فلا يصيب لأسباب صارفة وحكم مانعة كصلة الرحم والصدقة ودعاء المؤمن والتوبة وغير ذلك مما وردت به الأخبار، وأما جزاء الأعمال فالآية غير ناظرة إليه كما تقدم.

• على أن الخطاب في الآية يعم المؤمن والكافر كما تقدمت الإشارة إليه، ولا معنى لتبعضها في الدلالة فتدل على المغفرة في المؤمن وعدمها في الكافر.

٣. وبعد هذا كله فالوجه الأول هو الأوجه.

٤. ﴿وَما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَما لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ﴾ معنى الآية ظاهر وهي باتصالها بما قبلها تفيد أنكم لا تعجزون الله حتى لا تصيبكم المصائب لذنوبكم وليس لكم من دونه

من ولي يتولى أمركم فيدفع عنكم المصائب ولا نصير ينصركم ويعينكم على دفعها.

٥. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي، حدثني أبي عن ابن أبي عمير عن منصور بن يونس عن أبي حمزة عن الأصبغ بن نباتة عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: إني سمعته يقول: إني أحدثكم بحديث ينبغي لكل مسلم أن يعيه، ثم أقبل علينا فقال: ما عاقب الله عبدا مؤمنا، في هذه الدنيا إلا كان الله أحكم وأجود، وأمجد من أن يعود في عقابه يوم القيامة، ثم قال: وقد يبتلي الله عز وجل المؤمن، بالبلية في بدنه أو ماله أو ولده أو أهله، ثم تلا هذه الآية: ﴿وَما أَصابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِما كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ وحثا بيده ثلاث مرات.

ب. وفي الكافي، بإسناده عن هشام بن سالم عن أبي عبد الله عليه السلام قال: أما أنه ليس من عرق يضرب ولا نكبة ولا صداع ولا مرض إلا بذنب، وذلك قول الله عز وجل في كتابه: ﴿وَما أَصابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِما كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ قال: ثم قال: وما يعفو الله أكثر مما يؤاخذ به.

• أقول: وروي هذا المعنى بطريق آخر عن مسمع عنه عليه السلام، وروي مثله في الدر المنثور، عن الحسن عن النبي ﷺ ولفظه: لما نزلت هذه الآية ﴿وَما أَصابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِما كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ قال رسول الله ﷺ: والذي نفسي بيده، ما من خدش عود ولا اختلاج عرق ولا نكبة حجر، ولا عثرة قدم إلا بذنب، وما يعفو الله عنه أكثر.

ج. وفي الكافي، أيضا بإسناده عن علي بن رئاب قال: سألت أبا عبد الله عن قول الله عز وجل: ﴿وَما أَصابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِما كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ أرأيت ما أصاب عليا وأهل بيته عليه السلام من بعده، أهو بما كسبت أيديهم وهم أهل بيت طهارة معصومون؟ فقال: إن رسول الله ﷺ كان يتوب إلى الله، ويستغفر في كل يوم وليلة مائة مرة من غير ذنب، إن الله يخص أولياءه بالمصائب ليأجرهم عليها.

د. وفي المجمع: روي عن علي عليه السلام أنه قال: قال رسول الله ﷺ: خير آية في كتاب الله هذه الآية، يا علي ما من خدش عود ولا نكبة قدم إلا بذنب، وما عفا إله عنه في الدنيا فهو أكرم من أن يعود فيه، وما عاقب عليه في الدنيا فهو أعدل من أن يثني على عبده.

• أقول: ورواه في الدر المنثور، عن عدة من أرباب الجوامع عن علي عليه السلام عنه ﷺ، وفحوى الرواية أن قوله تعالى: ﴿وَما أَصابَكُمْ﴾ الآية خاص بالمؤمنين والخطاب لهم وأن مفاده غفران ذنوبهم كافة

فلا يعاقبون عليها في برزخ ولا قيامة لأن الآية تقصر الذنوب في مأخوذ به بإصابة المصيبة ومعفو عنه ومفاد الرواية نفي المؤاخذة بعد المؤاخذة ونفي المؤاخذة بعد العفو.

• فيشكل الأمر:

- أولا: من جهة ما عرفت أن الآية في سياق يفيد عموم الخطاب للمؤمن والكافر.
- وثانيا: من جهة معارضة الرواية لما ورد في أخبار متكاثرة لعلها تبلغ حد التواتر المعنوي من أن من المؤمنين من يعذب في قبره أو في الآخرة.
- وثالثا: من جهة مخالفة الرواية لظواهر ما دلت من الآيات على أن موطن جزاء الأعمال هي الدار الآخرة كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ ما تَرَكَ عَلَيْها مِنْ دَابَّةٍ وَلكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذا جاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ ساعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [النحل: ٦١]، وغيره من الآيات الدالة على أن كل مظلمة ومعصية مأخوذ بها وأن موطن الأخذ هو ما بعد الموت وفي القيامة إلا ما غفرت بالتوبة أو تذهب بحسنة أو بشفاعة في الآخرة أو نحو ذلك.
- على أن الآية أعني قوله: ﴿وَما أَصابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِما كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾، كما تقدمت الإشارة إليه، غير ظاهرة في كون أصابة المصيبة جزاء للعمل ولا في كون العفو بمعنى إبطال الجزاء وإنما هو الأثر الدنيوي للسيئة يصيب مرة ويمحى أخرى.
- فالحري أن تحمل الرواية، لو قبلت، على الأخذ بحسن الظن بالله سبحانه.

٢٥. آيات الله والصبر والشكر:

المقطع [٢٥] من سورة الشورى، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ﴾ [الشورى: ٣٢-٣٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ٦٠»:

١. ﴿وَمِنْ آياتِهِ الْجَوارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلامِ﴾، الجواري جمع جارية وهي السفينة، والأعلام جمع علم وهو العلامة ويسمى به الجبل وشبهت السفائن بالجبال لعظمها وارتفاعها والباقي ظاهر.

٢. ﴿إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَواكِدَ عَلى ظَهْرِهِ﴾، ضمير ﴿يَشَأْ﴾ لله تعالى، وظل بمعنى صار،

و(رواكد) جمع راكدة وهي الثابتة في محلها والمعنى: إن يشأ الله يسكن الريح التي تجري بها الجواري فيصرن أي الجواري ثوابت على ظهر البحر.

٣. ﴿إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾:

أ. أصل الصبر الحبس وأصل الشكر إظهار نعمة المنعم بقول أو فعل، والمعنى: أن فيما ذكر من أمر الجواري من كونها جارية على ظهر البحر بسبب جريان الرياح ناقلة للناس وأمتعتهم من ساحل إلى ساحل لآيات لكل من حبس نفسه عن الاشتغال بما لا يعنيه واشتغل بالتفكر في نعمه والتفكر في النعمة من الشكر.

ب. وقيل: المراد بكل صبار شكور المؤمن لأن المؤمن لا يخلو من أن يكون في الضراء أو في السراء فإن كان في الضراء كان من الصابرين وإن كان في السراء كان من الشاكرين.

٤. ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِما كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ﴾:

أ. الإيباق الإهلاك، وضمير التأنيث للجواري وضمير التذكير للناس، ويوبقهن ويعف معطوفان على ﴿يُسْكِنِ﴾، والمعنى: إن يشأ يهلك الجواري بإغراقها بسبب ما كسبوا من السيئات ويعف عن كثير منها أي إن بعضها كاف في اقتضاء الإهلاك وإن عفا عن كثير منها.

ب. وقيل: المراد بإهلاكها إهلاك أهلها إما مجازا أو بتقدير مضاف، و﴿يُوبِقْهُنَ﴾ بالعطف على ﴿يُسْكِنِ﴾ في معنى يرسل الرياح العاصفة فيوبقهم، والمعنى: إن يشأ يسكن الريح إلخ، وإن يشأ يرسلها فيهلكهم بالإغراق وينج كثير منهم بالعفو، والمحصل: إن يشأ يسكن الريح أو يرسلها فيهلك ناسا بذنوبهم وينج ناسا بالعفو عنهم ولا يخفى وجه التكلف فيه.

ج. وقيل: إن ﴿يَعْفُ﴾ عطف على قوله: ﴿يُسْكِنِ الرِّيحَ﴾ إلى قوله: ﴿بِما كَسَبُوا﴾ ولذا عطف بالواو لا بأو، والمعنى: إن يشأ يعاقبهم بالإسكان أو الإعصاف وإن يشأ يعف عن كثير، وهو في التكلف كسابقه.

٥. ﴿وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجادِلُونَ فِي آياتِنا ما لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ﴾:

أ. قيل: هو غاية معطوفة على أخرى محذوفة، والتقدير نحو من قولنا: ليظهر به قدرته ويعلم الذين يجادلون في آياتنا ما لهم من مفر ولا مخلص، وهذا كثير الورود في القرآن الكريم غير أن المعطوف فيما ورد

فيه مقارن للأم الغاية كقوله: ﴿وَلِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [آل عمران: ١٤٠]، ﴿وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام: ٧٥]

ب. وجوز بعضهم أن يكون معطوفا على جزاء الشرط بتقدير إن نحو إن جئتني أكرمك وأعطيك كذا وكذا بنصب أعطيك، والمسألة نحوية خلافية فليرجع إلى ما ذكروه فيه.

٢٦. متاع الدنيا زائل وما عند الله خير وأبقى:

المقطع [٢٦] من سورة الشورى، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَمَا أُوتِيتُم مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الشورى: ٣٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ٦٢»:

١. ﴿فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾:

أ. تفصيل لما تقدم ذكره من الرزق وتقسيم له إلى ما عند الناس من رزق الدنيا الشامل للمؤمن والكافر وما عند الله من رزق الآخرة المختص بالمؤمنين، وفيه تخلص إلى ذكر صفات المؤمنين وذكر بعض ما يلقاه الظالمون يوم القيامة.

ب. فقوله: ﴿فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ الخطاب للناس على ما يفيده السياق دون المشركين خاصة، والمراد بما أوتيتم من شيء جميع ما أعطيه للناس ورزقوه من النعيم، وإضافة المتاع إلى الحياة للإشارة إلى انقطاعه وعدم ثباته ودوامه، والمعنى: فكل شيء أعطيتموه مما عندكم متاع تتمتعون به في أيام قلائل.

٢. ﴿وَما عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ وَأَبْقى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ المراد بما عند الله ما ادخره الله ثوابا ليثيب به المؤمنين، واللام في ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ للملك والظرف لغو، وقيل اللام متعلق بقوله: ﴿أَبْقى﴾ والأول أظهر، وكون ما عند الله خيرا لكونه خالصا من الألم والكدر وكونه أبقى لكونه أدوم غير منقطع الآخر.

٢٧. اجتناب كبائر الإثم والفواحش:

المقطع [٢٧] من سورة الشورى، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ [الشورى: ٣٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ٦٢»:

١. ﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَواحِشَ وَإِذا ما غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾:

أ. عطف على قوله: ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ والآية وآيتان بعدها تعد صفات المؤمنين الحسنة وقول بعضهم إنه كلام مستأنف لا يساعد عليه السياق.

ب. وكبائر الإثم المعاصي الكبيرة التي لها آثار سوء عظيمة وقد عد تعالى منها شرب الخمر والميسر، قال تعالى: ﴿قُلْ فِيهِما إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ [البقرة: ٢١٩]، والفواحش جمع فاحشة وهي المعصية الشنيعة النكراء وقد عد تعالى منها الزنا واللواط قال: ﴿وَلا تَقْرَبُوا الزِّنى إِنَّهُ كانَ فاحِشَةً﴾ [الإسراء: ٣٢]، وقال حاكيا عن لوط: ﴿أَتَأْتُونَ الْفاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ [النمل: ٥٤]

٢. ﴿يَجْتَنِبُونَ كَبائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَواحِشَ﴾ وهو في سورة مكية إشارة إلى إجمال ما سيفصل من تشريع تحريم كبائر المعاصي والفواحش.

٣. ﴿وَإِذا ما غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ إشارة إلى العفو عند الغضب وهو من أخص صفات المؤمنين ولذا عبر عنه بها عبر ولم يقل: ويغفرون إذا غضبوا ففي الكلام جهات من التأكيد وليس قصرا للمغفرة عند الغضب فيهم.

٢٨. الاستجابة لله وإقامة الصلاة والشورى والإنفاق:

المقطع [٢٨] من سورة الشورى، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقامُوا الصَّلاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ [الشورى: ٣٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ٦٣»:

١. ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقامُوا الصَّلاةَ﴾:

أ. الاستجابة هي الإجابة واستجابتهم لربهم إجابتهم لما يكلفهم به من الأعمال الصالحة، على ما يفيده السياق، وذكر إقامة الصلاة بعدها من قبيل ذكر الخاص بعد العام لشرفه.

ب. على أن الظاهر أن الآيات مكية ولم يشرع يومئذ أمثال الزكاة والخمس والصوم والجهاد، وفي قوله: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجابُوا لِرَبِّهِمْ﴾ من الإشارة إلى الإجمال الأعمال الصالحة المشرعة نظير ما تقدم في قوله: ﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ﴾، ونظير الكلام جار في الآيات التالية.

٢. ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورى بَيْنَهُمْ﴾:

أ. قال الراغب: (والتشاور والمشاورة والمشورة استخراج الرأي بمراجعة البعض إلى البعض من قولهم: شرت العسل إذا أخذته من موضعه واستخرجته منه، قال تعالى: ﴿وَشاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ والشورى الأمر الذي يتشاور فيه، قال تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورى بَيْنَهُمْ﴾)، فالمعنى: الأمر الذي يعزمون عليه شورى بينهم يتشاورون فيه، ويظهر من بعضهم أنه مصدر، والمعنى: وشأنهم المشاورة بينهم.

ب. وكيف كان ففيه إشارة إلى أنهم أهل الرشد وإصابة الواقع يمعنون في استخراج صواب الرأي بمراجعة العقول فالآية قريبة المعنى من قول الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ [الزمر: ١٨]،، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ٦٣»

٣. ﴿وَمِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ إشارة إلى بذل المال لمرضاة الله.

٤. أحاديث وآثار: في المجمع في قوله تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورى بَيْنَهُمْ﴾ وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: ما من رجل يشاور أحدا إلا هدي إلى الرشد.

٢٩. الانتصار عند البغي والجزاء بالمثل أو بالعفو:

المقطع [٢٩] من سورة الشورى، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [الشورى: ٣٩-٤٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ٦٤»:

١. ﴿وَالَّذِينَ إِذا أَصابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ﴾:

أ. قال الراغب: (الانتصار والاستنصار طلب النصرة)، فالمعنى: الذين إذا أصاب الظلم بعضهم طلب النصرة من الآخرين وإذا كانوا متفقين على الحق كنفس واحدة فكان الظلم أصاب جميعهم فطلبوا المقاومة قباله وأعدوا عليه النصرة.

ب. وعن بعضهم أن الانتصار بمعنى التناصر نظير اختصم وتخاصم واستبق وتسابق والمعنى عليه ظاهر.

ج. وكيف كان فالمراد مقاومتهم لرفع الظلم فلا ينافي المغفرة عند الغضب المذكورة في جملة صفاتهم

فإن المقاومة دون الظلم وسد بابه عن المجتمع لمن استطاعه والانتصار والتناصر لأجله من الواجبات الفطرية، قال تعالى: ﴿وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ﴾ [الأنفال: ٧٢]، وقال: ﴿فَقاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللهِ﴾ [الحجرات: ٩]

٢. ﴿وَجَزاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُها﴾:

أ. بيان لما جعل للمنتصر في انتصاره وهو أن يقابل الباغي بما يماثل فعله وليس بظلم وبغي.

ب. قيل: وسمي الثانية وهي ما يأتي بها المنتصر سيئة لأنها في مقابلة الأولى كما قال تعالى: ﴿فَمَنِ اعْتَدى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدى عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٤]، وقال الزمخشري: كلتا الفعلتين: الأولى وجزاؤها سيئة لأنها تسوء من تنزل به ففيه رعاية لحقيقة معنى اللفظ وإشارة إلى أن مجازاة السيئة بمثلها إنما تحمد بشرط المماثلة من غير زيادة.

٣. ﴿فَمَنْ عَفا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ﴾ وعد جميل على العفو والإصلاح، والظاهر أن المراد بالإصلاح إصلاحه أمره فيما بينه وبين ربه، وقيل: المراد إصلاحه ما بينه وبين ظالمة بالعفو والإغضاء.

٤. ﴿إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾:

أ. قيل: فيه بيان أنه تعالى لم يرغب المظلوم في العفو عن الظالم لميله إلى الظالم أو لحبه إياه ولكن ليعرض المظلوم بذلك لجزيل الثواب، ولحبه تعالى الإحسان والفضل.

ب. وقيل: المراد أنه لا يحب الظالم في قصاص وغيره بتعديه عما هو له إلى ما ليس هو له.

ج. والوجهان وإن كانا حسنين في نفسهما لكن سياق الآية لا يساعد عليهما وخاصة مع حيلولة قوله: ﴿فَمَنْ عَفا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ﴾ بين التعليل والمعلل.

د. ويمكن أيضا أن يكون قوله: ﴿إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ تعليلا لأصل كون جزاء السيئة سيئة من غير نظر إلى المماثلة والمساواة.

٥. ﴿وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولئِكَ ما عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ﴾ ضمير ﴿ظُلْمِهِ﴾ راجع إلى المظلوم، والإضافة من إضافة المصدر إلى مفعوله.

٦. الآيات الثلاث:

أ. تبيين ورفع لبس من قوله في الآية السابقة: ﴿فَمَنْ عَفا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ﴾ فمن الجائز أن

يتوهم المظلوم أن في ذلك إلغاء لحق انتصاره فبين سبحانه بقوله أولا: ﴿وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ ما عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ﴾ أن لا سبيل على المظلومين ولا مجوز لإبطال حقهم في الشرع الإلهي، وإرجاع ضمير الإفراد إلى الموصول أولا باعتبار لفظه، وضمير الجمع ثانيا باعتبار معناه.

ب. وبين بقوله ثانيا: ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ إن السبيل كله على الظالمين في الانتقام منهم للمظلومين، وأكد ذلك ذيلا بقوله: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

ج. وبين بقوله ثالثا: ﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ إن الدعوة إلى الصبر والعفو ليست إبطالا لحق الانتصار وإنما هي إرشاد إلى فضيلة هي من أعظم الفضائل فإن في المغفرة الصبر الذي هو من عزم الأمور، وقد أكد الكلام بلام القسم أولا وباللام في خبر إن ثانيا لإفادة العناية بمضمونه.

٣٠. خسران الظالمين يوم القيامة وعذابهم المقيم:

المقطع [٣٠] من سورة الشورى، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ﴾ [الشورى: ٤٤-٤٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ٦٥»:

١. ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ﴾:

أ. لما ذكر المؤمنين بأوصافهم وأن لهم عند الله رزقهم المدخر لهم وفيه سعادة عقباهم التي هداهم الله إليها التفت إلى غيرهم وهم الظالمون الآيسون من تلك الهداية الموصلة إلى السعادة المحرومون من هذا الرزق الكريم فبين أن الله سبحانه أضلهم لكفرهم وتكذيبهم فلا ينتهون إلى ما عنده من الرزق ولا يسعدهم به وليس لهم من دونه من ولي حتى يتولى أمرهم ويرزقهم ما حرمهم الله من الرزق، فهم صفر الأكف يتمنون عند مشاهدة العذاب الرجوع إلى الدنيا ليعملوا صالحا فيكونوا أمثال المؤمنين.

ب. فقوله: ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ﴾، من قبيل وضع السبب وهو إضلال الله لهم وعدم ولي آخر يتولى أمرهم فيهديهم ويرزقهم موضع المسبب وهو الهداية والرزق.

٢. ﴿وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ﴾:

أ. إشارة إلى تمنيهم الرجوع إلى الدنيا بعد اليأس عن السعادة ومشاهدة العذاب.

ب. و ﴿تَرَى﴾ خطاب عام وجه إلى النبي ﷺ بما أنه راء ومعناه وترى ويرى كل من هو راء، وفيه إشارة إلى أنهم يتمنون ذلك على رءوس الأشهاد، والمرد هو الرد.

٣. ﴿وَتَراهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْها خاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ ضمير ﴿عَلَيْها﴾ للنار للدلالة المقام عليها وخفي الطرف ضعيفة وإنما ينظر من طرف خفي، إلى المكاره المهولة من ابتلي بها فهو لا يريد أن ينصرف فيغفل عنها ولا يجترئ أن يمتلئ بها بصره كالمبصور ينظر إلى السيف، والباقي ظاهر.

٤. ﴿وَقالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ﴾:

أ. أي إن الخاسرين كل الخسران وبحقيقته هم الذين خسروا أنفسهم بحرمانها عن النجاة وأهليهم بعدم الانتفاع بهم يوم القيامة، وقيل أهلوهم أزواجهم من الحور وخدمهم في الجنة لو آمنوا ولا يخلو من وجه نظرا إلى آيات وراثة الجنة.

ب. وهذا القول المنسوب إلى المؤمنين إنما يقولونه يوم القيامة، والتعبير بلفظ الماضي لتحقق الوقوع، لا في الدنيا كما يظهر من بعضهم فليس لاستناده تعالى إلى مقالة المؤمنين في الدنيا وجه في مثل المقام، وليس القائلون به جميع المؤمنين كائنين من كانوا وإنما هم الكاملون منهم المأذون لهم في الكلام الناطقون بالصواب محضا كأصحاب الأعراف وشهداء الأعمال قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [هود: ١٠٥]، وقال: ﴿لا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمنُ وَقالَ صَواباً﴾ [النبأ: ٣٨]

ج. فلا يصغي إلى ما قيل: إن القول المذكور إنما نسب إلى المؤمنين للدلالة على ابتهاجهم بما رزقوا يومئذ من الكرامة ونجوا من الخسران وإلا فالقول قول كل من يتأتى منه القول من أهل الجمع كما أن الرؤية المذكورة قبله رؤية كل من تتأتى منه الرؤية.

٥. ﴿أَلا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذابٍ مُقِيمٍ﴾ تسجيل عليهم بالعذاب وأنه دائم غير منقطع، وجوز أن يكون من تمام كلام المؤمنين.

٦. ﴿وَما كانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِياءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ﴾، هذا التعبير أعني قوله: ﴿وَما كانَ لَهُمْ﴾، دون أن يقال: وما لهم من ولي كما قيل أولا للدلالة على ظهور بطلان دعواهم ولاية أوليائهم في الدنيا وأن ذلك كان باطلا من أول الأمر.

٧. ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ﴾:

أ. صالح لتعليل صدر الآية وهو كالنتيجة لجميع ما تقدم من الكلام في حال الظالمين في عقباهم، ونوع انعطاف إلى ما سبق من حديث تشريع الشريعة والسبيل بالوحي.

ب. فهو كناية عن أنه لا سبيل إلى السعادة إلا سبيل الله الذي شرعه لعباده من طريق الوحي والرسالة فمن أضله عن سبيله لكفره وتكذيبه بسبيله فلا سبيل له يهتدي به إلى سعادة العقبى والتخلص من العذاب والهلاك.

٣١. التحذير من عدم الاستجابة لله:

المقطع [٣١] من سورة الشورى، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللهِ مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ﴾ [الشورى: ٤٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ٦٧»:

١. ﴿اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللهِ ما لَكُمْ مِنْ مَلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَما لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ﴾:

أ. دعوة وإنذار بيوم القيامة المذكور في الآيات السابقة على ما يعطيه السياق، وقول بعضهم: إن المراد باليوم يوم الموت غير وجيه.

ب. وفي قوله: ﴿لا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللهِ﴾ ﴿لا﴾ لنفي الجنس و﴿مَرَدَّ﴾ اسمه و﴿لَهُ﴾ خبره و﴿مِنَ اللهِ﴾ حال من ﴿مَرَدَّ﴾ والمعنى، يوم لا رد له من قبل الله أي أنه مقضي محتوم لا يرده الله البتة فهو في معنى ما تكرر في كلامه تعالى من وصف يوم القيامة بأنه لا ريب فيه.

ج. وقد ذكروا للجملة أعني قوله: ﴿يَوْمٌ لا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللهِ﴾ وجوها أخر من الإعراب لا جدوى في نقلها.

٢. ﴿ما لَكُمْ مِنْ مَلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَما لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ﴾ الملجأ الملاذ الذي يلتجأ إليه والنكير، كما قيل، مصدر بمعنى الإنكار، والمعنى: ما لكم من ملاذ تلتجئون إليه من الله وما لكم من إنكار لما صدر منكم لظهور الأمر من كل جهة.

٣٢. الإعراض والبلاغ والفرح:

المقطع [٣٢] من سورة الشورى، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ﴾ [الشورى: ٤٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ٦٧»:

١. ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلاغُ﴾ عدول من خطابهم إلى خطاب النبي ﷺ لإعلام أن ما حمله من الأمر إنما هو التبليغ لا أزيد من ذلك فقد أرسل مبلغا لدين الله إن عليه إلا البلاغ ولم يرسل حفيظا عليهم مسئولا عن إيمانهم وطاعتهم حتى يمنعهم عن الإعراض ويتعب نفسه لإقبالهم عليه.

٢. ﴿وَإِنَّا إِذا أَذَقْنَا الْإِنْسانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِها وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسانَ كَفُورٌ﴾:

أ. الفرح بالرحمة كناية عن الاشتغال بالنعمة ونسيان المنعم، والمراد بالسيئة المصيبة التي تسوء الإنسان إذا أصابته، وقوله: ﴿فَإِنَّ الْإِنْسانَ كَفُورٌ﴾ من وضع الظاهر موضع الضمير، والنكتة فيه تسجيل الذم واللوم عليه بذكره باسمه.

ب. وفي الآية استشعار بإعراضهم وتوبيخهم بعنوان الإنسان المشتغل بالدنيا فإنه بطبعه حليف الغفلة إن ذكر بنعمة يؤتاها صرفه الفرح بها عن ذكر الله، وإن ذكر بسيئة تصيبه بما قدمت يداه شغله الكفران عن ذكر ربه فهو في غفلة عن ذكر ربه في نعمة كانت أو في نقمة فكاد أن لا تنجح فيه دعوة ولا تنفع فيه موعظة.

٣٣. الملك والخلق وهبة الذكور والإناث:

المقطع [٣٣] من سورة الشورى، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ [الشورى: ٤٩-٥٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ٦٨»:

١. ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ ما يَشاءُ﴾:

أ. للآيتين نوع اتصال بما تقدم من حديث الرزق لما أن الأولاد المذكورين فيهما من قبيل الرزق.

ب. وقيل: إنهما متصلتان بالآية السابقة حيث ذكر فيها إذاقة الرحمة وإصابة السيئة وإن الإنسان

يفرح بالرحمة ويكفر في السيئة فذكر تعالى في هاتين الآيتين أن ملك السماوات والأرض لله سبحانه يخلق ما يشاء فليس لمن يذوق رحمته أن يفرح بها ويشتغل به ولا لمن أصابته السيئة أن يكفر ويعترض بل له الخلق والأمر فعلى المرحوم أن يشكر وعلى المصاب أن يرجع إليه.

• ويبعده أنه تعالى لم ينسب السيئة في الآية السابقة إلى نفسه بل إلى تقديم أيديهم فلا يناسبه نسبة القسمين جميعا في هذه الآية إلى مشيته ودعوتهم إلى التسليم لها.

ج. وكيف كان فقوله: ﴿للهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ ما يَشاءُ﴾ فيه قصر الملك والسلطنة فيه تعالى على جميع العالم وأن الخلق منوط بمشيته من غير أن يكون هناك أمر يوجب عليه المشية أو يضطره على الخلق.

٢. ﴿يَهَبُ لِمَنْ يَشاءُ إِناثاً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشاءُ الذُّكُورَ﴾ الإناث جمع أنثى والذكور والذكران جمعا ذكر، وظاهر التقابل أن المراد هبة الإناث فقط لمن يشاء وهبة الذكور فقط لمن يشاء ولذلك كررت المشية، قيل: وجه تعريف الذكور أنهم المطلوبون لهم المعهودون في أذهانهم وخاصة العرب.

٣. ﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْراناً وَإِناثاً﴾ أي يجمع بينهم حال كونهم ذكرانا وإناثا معا فالتزويج في اللغة الجمع، وقوله: ﴿وَيَجْعَلُ مَنْ يَشاءُ عَقِيماً﴾ أي لا يلد ولا يولد له، ولما كان هذا أيضا قسما برأسه قيده بالمشية كالقسمين الأولين، وأما قسم الجمع بين الذكران والإناث فإنه بالحقيقة جمع بين القسمين الأولين فاكتفى بما ذكر من المشية فيهما.

٤. ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ تعليل لما تقدم أي أنه عليم لا يزيد ما يزيد لجهل قدير لا ينقص ما ينقص عن عجز.

٥. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي، في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله عز وجل: ﴿يَهَبُ لِمَنْ يَشاءُ إِناثاً﴾ يعني ليس معهن ذكور ﴿وَيَهَبُ لِمَنْ يَشاءُ الذُّكُورَ﴾ يعني ليس معهم أنثى ﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْراناً وَإِناثاً﴾ أي يهب لمن يشاء ذكرانا وإناثا جميعا، يجمع له البنين والبنات أي يهبهم جميعا لواحد.

ب. وفي التهذيب، بإسناده عن الحسين بن علوان عن زيد بن علي عن آبائه عن علي عليه السلام قال: أتى النبي ﷺ رجل فقال: يا رسول الله، إن أبي عمد إلى مملوك لي فأعتقه كهيئة المضرة لي، فقال رسول

الله ﷺ: أنت ومالك من هبة الله لأبيك، أنت سهم من كنانته ﴿يَهَبُ لِمَنْ يَشاءُ إِناثاً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشاءُ الذُّكُورَ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْراناً وَإِناثاً وَيَجْعَلُ مَنْ يَشاءُ عَقِيماً﴾ جازت عتاقة أبيك يتناول والدك من مالك وبدنك، وليس لك أن تتناول من ماله، ولا من بدنه شيئا إلا بإذنه.

• أقول: وهذا المعنى مروي عن الرضا عليه السلام في جواب مسائل محمد بن سنان في العلل ومروي من طرق أهل السنة عن عائشة عنه ﷺ.

٣٤. كيفيات تكليم الله للبشر:

المقطع [٣٤] من سورة الشورى، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [الشورى: ٥١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ٧٢»:

١. ﴿وَما كانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلَّا وَحْياً أَوْ مِنْ وَراءِ حِجابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ ما يَشاءُ﴾:

أ. قد تقدم البحث عن معنى كلامه تعالى في الجزء الثاني من الكتاب، وإطلاق الكلام على كلامه تعالى والتكليم على فعله الخاص سواء كان إطلاقا حقيقيا أو مجازيا واقع في كلامه تعالى قال: ﴿يا مُوسى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسالاتِي وَبِكَلامِي﴾ [الأعراف: ١٤٤] وقال: ﴿وَكَلَّمَ اللهُ مُوسى تَكْلِيماً﴾ [النساء: ١٦٤]، ومن مصاديق كلامه ما يتلقاه الأنبياء عليهمالسلام منه تعالى بالوحي.

ب. وعلى هذا لا موجب لعد الاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا وَحْياً﴾ منقطعا بل الوحي والقسمان المذكوران بعده من تكليمه تعالى للبشر سواء كان إطلاق التكليم عليها إطلاقا حقيقيا أو مجازيا فكل واحد من الوحي وما كان من وراء حجاب وما كان بإرسال رسول نوع من تكليمه للبشر.

ج. فقوله: ﴿وَحْياً﴾، والوحي الإشارة السريعة على ما ذكره الراغب، مفعول مطلق نوعي وكذا المعطوفان عليه في معنى المصدر النوعي، والمعنى: ما كان لبشر أن يكلمه الله نوعا من أنواع التكليم إلا هذه الأنواع الثلاثة أن يوحي وحيا أو يكون من وراء حجاب أو أن يرسل رسولا فيوحي بإذنه ما يشاء.

د. ثم إن ظاهر الترديد في الآية بأو هو التقسيم على مغايرة بين الأقسام وقد قيد القسمان الأخيران بقيد كالحجاب، والرسول الذي يوحي إلى النبي ولم يقيد القسم الأول بشيء فظاهر المقابلة يفيد أن المراد

به التكليم الخفي من دون أن يتوسط واسطة بينة تعالى وبين النبي أصلا، وأما القسمان الآخران ففيهما قيد زائد وهو الحجاب أو الرسول الموحي وكل منهما واسطة غير أن الفارق أن الواسطة الذي هو الرسول يوحي إلى النبي بنفسه والحجاب واسطة ليس بموح وإنما الوحي من ورائه.

هـ. فتحصل أن القسم الثالث ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ ما يَشاءُ﴾ وحي بتوسط الرسول الذي هو ملك الوحي فيوحي ذلك الملك بإذن الله ما يشاء الله سبحانه قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلى قَلْبِكَ﴾ [الشعراء: ١٩٤]، وقال: ﴿قُلْ مَنْ كانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللهِ﴾ [البقرة: ٩٧]، والموحي مع ذلك هو الله سبحانه كما قال: ﴿بِما أَوْحَيْنا إِلَيْكَ هذَا الْقُرْآنَ﴾ [يوسف: ٣]

ز. وأما قول بعضهم:

- إن المراد بالرسول في قوله: ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ ما يَشاءُ﴾ هو النبي يبلغ الناس الوحي فلا يلائمه قوله: ﴿فَيُوحِيَ﴾ إذ لا يطلق الوحي على تبليغ النبي.
- وإن القسم الثاني ﴿أَوْ مِنْ وَراءِ حِجابٍ﴾ وحي مع واسطة هو الحجاب غير أن الواسطة لا يوحي كما في القسم الثالث وإنما يبتدئ الوحي مما وراءه لمكان من، وليس وراء بمعنى خلف وإنما هو الخارج عن الشيء المحيط به، قال تعالى: ﴿وَاللهُ مِنْ وَرائِهِمْ مُحِيطٌ﴾ [البروج: ٢٠]، وهذا كتكليم موسى عليه السلام في الطور، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَتاها نُودِيَ مِنْ شاطِئِ الْوادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ﴾ [القصص: ٣٠]، ومن هذا الباب ما أوحي إلى الأنبياء في مناماتهم.
- وإن القسم الأول تكليم إلهي للنبي من غير واسطة بينة وبين ربه من رسول أو أي حجاب مفروض.
- ولما كان للوحي في جميع هذه الأقسام نسبة إليه تعالى على اختلافها صح إسناد مطلق الوحي إليه بأي قسم من الأقسام تحقق وبهذه العناية أسند جميع الوحي إليه في كلامه كما قال: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنا إِلَيْكَ كَما أَوْحَيْنا إِلى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [النساء: ١٦٣]، وقال: ﴿وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٣]

ح. هذا ما يعطيه التدبر في الآية الكريمة، وللمفسرين فيها أبحاث طويلة الذيل ومشاجرات أضربنا عن الاشتغال بها من أرادها فليراجع المفصلات.

٢. ﴿إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ تعليل لمضمون الآية فهو تعالى لعلوه عن الخلق والنظام الحاكم فيهم يجل أن يكلمهم كما يكلم بعضهم بعضا، ولعلوه وحكمته يكلمهم بما اختار من الوحي وذلك أن هداية كل نوع إلى سعادته من شأنه تعالى كما قال: ﴿الَّذِي أَعْطى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدى﴾ [طه: ٥٠]، وقال: ﴿وَعَلَى اللهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ [النحل: ٩]، وسعادة الإنسان الذي يسلك سبيل سعادته بالشعور والعلم في إعلام سعادته والدلالة إلى سنة الحياة التي تنتهي إليها ولا يكفي في ذلك العقل الذي من شأنه الإخطاء والإصابة فاختار سبحانه لذلك طريق الوحي الذي لا يخطئ البتة، وقد فصلنا القول في هذه الحجة في موارد من هذا الكتاب.

٣. أحاديث وآثار:

أ. أخرج البخاري ومسلم والبيهقي عن عائشة أن الحارث بن هشام سأل رسول الله ﷺ كيف يأتيك الوحي؟ قال: أحيانا يأتيني الملك في مثل صلصلة الجرس، فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال وهو أشده علي، وأحيانا يتمثل لي الملك رجلا فيكلمني فأعي ما يقول: قالت عائشة: ولقد رأيته ينزل عليه الوحي، في اليوم الشديد البرد فيفصم، وإن جبينه ليتفصد عرقا.

ب. وفي التوحيد، بإسناده عن زرارة قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: جعلت فداك، الغشية التي كانت تصيب رسول الله ﷺ إذا نزل عليه الوحي؟ قال: فقال: ذلك إذا لم يكن بينه وبين الله أحد، ذاك إذا تجلى الله له، قال: ثم قال: تلك النبوة يا زرارة وأقبل يتخشع.

ج. وفي العلل، بإسناده عن ابن أبي عمير عن عمرو بن جميع عن أبي عبد الله عليه السلام قال: كان جبرئيل إذا أتى النبي ﷺ قعد بين يديه قعدة العبد، وكان لا يدخل حتى يستأذنه.

د. وفي أمالي الشيخ، بإسناده عن ابن أبي عمير عن هشام بن سالم عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال بعض أصحابنا: أصلحك الله، كان رسول الله ﷺ يقول: قال جبرئيل، وهذا جبرئيل يأمرني، ثم يكون في حال أخرى يغمى عليه، فقال أبو عبد الله عليه السلام: أنه إذا كان الوحي من الله إليه، ليس بينهما جبرئيل، أصابه ذلك لثقل الوحي من الله، وإذا كان بينهما جبرئيل لم يصبه ذلك، فقال: قال لي جبرئيل وهذا جبرئيل.

هـ. وفي البصائر، عن علي بن حسان عن ابن بكير عن زرارة قال: سألت أبا جعفر عليه السلام من

الرسول؟ من النبي؟ من المحدث؟ فقال: الرسول الذي يأتيه جبرئيل فيكلمه قبلا، فيراه كما يرى أحدكم صاحبه الذي يكلمه فهذا الرسول، والنبي الذي يؤتى في النوم نحو رؤيا إبراهيم عليه السلام، ونحو ما كان يأخذ رسول الله ﷺ من السبات، إذا أتاه جبرئيل في النوم فهكذا النبي، ومنهم من يجمع له الرسالة والنبوة، فكان رسول الله ﷺ رسولا نبيا، يأتيه جبرئيل قبلا فيكمله ويراه، ويأتيه في النوم، وأما المحدث فهو الذي يسمع كلام الملك، فيحدثه من غير أن يراه، ومن غير أن يأتيه في النوم.

• أقول: وفي معناه روايات أخر.

٣٥. إيحاء الله الروح إلى النبي:

المقطع [٣٥] من سورة الشورى، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ صِرَاطِ اللهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ [الشورى: ٥٢-٥٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ٧٥»:

١. ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنا ما كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمانُ﴾:

أ. ظاهر السياق كون ﴿كَذَلِكَ﴾ إشارة إلى ما ذكر في الآية السابقة من الوحي بأقسامه الثلاث، ويؤيده الروايات الكثيرة الدالة على أنه ﷺ كما كان يوحى إليه بتوسط جبريل وهو القسم الثالث كان يوحى إليه في المنام وهو من القسم الثاني ويوحى إليه من دون توسط واسطة وهو القسم الأول.

ب. وقيل: الإشارة إلى مطلق الوحي النازل على الأنبياء وهذا متعين على تقدير كون المراد بالروح هو جبريل أو الروح الأمري كما سيأتي، والمراد بإيحاء الروح، على ما قيل، إيحاء القرآن وأيد بقوله: (ولكن جعلناه نورا)، ومن هنا قيل: إن المراد بالروح القرآن، لكن يبقى عليه:

• أولا: أنه لا ريب أن الكلام مسوق لبيان أن ما عندك من المعارف والشرائع التي تتلبس بها وتدعو الناس إليها ليس مما أدركته بنفسك وأبديته بعلمك بل أمر من عندنا منزل إليك بوحينا، وعلى هذا فلو كان المراد بالروح الموحي القرآن كان من الواجب الاقتصار على الكتاب في قوله: ﴿ما كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمانُ﴾ لأن المراد بالكتاب القرآن فيكون الإيمان زائدا مستغنى عنه.

• وثانيا: أن القرآن وإن أمكن أن يسمى روحا باعتبار إحيائه القلوب بهداه كما قال تعالى: ﴿إِذا

دَعاكُمْ لِما يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤]، وقال: ﴿أَوَمَنْ كانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْناهُ وَجَعَلْنا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ [الأنعام: ١٢٢]، لكن لا وجه لتقيده حينئذ بقوله: ﴿مِنْ أَمْرِنا﴾ والظاهر من كلامه تعالى أن الروح من أمره خلق من العالم العلوي يصاحب الملائكة في نزولهم، قال تعالى: ﴿تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيها بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾ [القدر: ٤]، وقال: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلائِكَةُ صَفًّا﴾ [النبأ: ٣٨]، وقال: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: ٨٥]، وقال: ﴿وَأَيَّدْناهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ [البقرة: ٨٧]، وقد سمي جبريل الروح الأمين وروح القدس حيث قال: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ [الشعراء: ١٩٣]، وقال: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ﴾ [النحل: ١٠٢]

• ويمكن أن يجاب عن الأول بأن مقتضى المقام وإن كان هو الاقتصار على ذكر الكتاب فقط لكن لما كان إيمانه ﷺ بتفاصيل ما في الكتاب من المعارف والشرائع من لوازم نزول الكتاب غير المنفكة عنه وآثاره الحسنة صح أن يذكر مع الكتاب فالمعنى: وكذلك أوحينا إليك كتابا ما كنت تدري ما الكتاب ولا ما تجده في نفسك من أثره الحسن الجميل وهو إيمانك به.

• وعن الثاني أن المعهود من كلامه في معنى الروح وإن كان ذلك لكن حمل الروح في الآية على ذلك المعنى وإرادة الروح الأمري أو جبريل منه يوجب أخذ ﴿أَوْحَيْنا﴾ بمعنى أرسلنا إذ لا يقال: أوحينا الروح الأمري أو الملك فلا مفر من كون الإيحاء بمعنى الإرسال وهو كما ترى فأخذ الروح بمعنى القرآن أهون من أخذ الإيحاء بمعنى الإرسال والجوابان لا يخلوان عن شيء.

ج. وقيل: المراد بالروح جبريل فإن الله سماه في كتابه روحا قال: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلى قَلْبِكَ﴾ [الشعراء: ١٩٤] وقال: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ﴾

د. وقيل: المراد بالروح الروح الأمري الذي ينزل مع ملائكة الوحي على الأنبياء كما قال تعالى: ﴿يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا﴾ [النحل: ٢]، فالمراد بإيحائه إليه إنزاله عليه.

• ويمكن أن يوجه التعبير عن الإنزال بالإيحاء بأن أمره تعالى على ما يعرفه في قوله: ﴿إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ﴾ [يس: ٨٢]، هو كلمته، والروح من أمره كما قال: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: ٨٥]، فهو كلمته، وهو يصدق ذلك قوله في عيسى بن مريم عليه السلام: ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى

ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقاها إِلى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ [النساء: ١٧١]، وإنزال الكلمة تكليم فلا ضير في التعبير عن إنزال الروح بإيحائه، والأنبياء مؤيدون بالروح في أعمالهم كما أنهم يوحى إليهم الشرائع به قال تعالى: ﴿وَأَيَّدْناهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ وقد تقدمت الإشارة إليه في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْراتِ وَإِقامَ الصَّلاةِ وَإِيتاءَ الزَّكاةِ﴾ [الأنبياء: ٧٣]

• ويمكن رفع إشكال كون الإيحاء بمعنى الإنزال والإرسال بالقول بكون قوله: ﴿رُوحاً﴾ منصوبا بنزع الخافض ورجوع ضمير (جعلناه) إلى القرآن المعلوم من السياق أو الكتاب والمعنى وكذلك أوحينا إليك القرآن بروح منا ما كنت تدري ما الكتاب وما الإيمان ولكن جعلنا القرآن أو الكتاب نورا إلخ، هذا وما أذكر أحدا من المفسرين قال به.

٢. ﴿ما كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتابُ وَلَا الْإِيمانُ﴾:

أ. قد تقدم أن الآية مسوقة لبيان أن ما عنده ﷺ الذي يدعو إليه إنما هو من عند الله سبحانه لا من قبل نفسه وإنما أوتي ما أوتي من ذلك بالوحي بعد النبوة فالمراد بعدم درايته بالكتاب عدم علمه بما فيه من تفاصيل المعارف الاعتقادية والشرائع العملية فإن ذلك هو الذي أوتي العلم به بعد النبوة والوحي، وبعدم درايته بالإيمان عدم تلبسه بالالتزام التفصيلي بالعقائد الحقة والأعمال الصالحة وقد سمي العمل إيمانا في قوله: ﴿وَما كانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمانَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤٣]

ب. فالمعنى: ما كان عندك قبل وحي الروح الكتاب بما فيه من المعارف والشرائع ولا كنت متلبسا بما أنت متلبس به بعد الوحي من الالتزام الاعتقادي والعملي بمضامينه وهذا لا ينافي كونه ﷺ مؤمنا بالله موحدا قبل البعثة صالحا في عمله فإن الذي تنفيه الآية هو العلم بتفاصيل ما في الكتاب والالتزام بها اعتقادا وعملا ونفي العلم والالتزام التفصيليين لا يلازم نفي العلم والالتزام الإجماليين بالإيمان بالله والخضوع للحق.

ج. وبذلك يندفع ما استدل بعضهم بالآية على أنه ﷺ كان غير متلبس بالإيمان قبل بعثته.

د. ويندفع أيضا ما عن بعضهم أنه ﷺ لم يزل كاملا في نفسه علما وعملا وهو ينافي ظاهر الآية أنه ما كان يدري ما الكتاب ولا الإيمان.

هـ. ووجه الاندفاع أن من الضروري وجود فرق في حاله ﷺ قبل النبوة وبعدها والآية تشير إلى

هذا الفرق، وأن ما حصل له بعد النبوة لا صنع له فيه وإنما هو من الله من طريق الوحي.

٣. ﴿وَلكِنْ جَعَلْناهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشاءُ مِنْ عِبادِنا﴾:

أ. ضمير ﴿جَعَلْناهُ﴾ للروح والمراد بقوله: ﴿مَنْ نَشاءُ﴾ على تقدير أن يراد بالروح القرآن هو النبي ﷺ ومن آمن به فإنهم جميعا مهتدون بالقرآن.

ب. وعلى تقدير أن يراد به الروح الأمري فالمراد بمن نشاء جميع الأنبياء ومن آمن بهم من أممهم فإنه يهدي بالوحي الذي نزل به، الأنبياء والمؤمنين من أممهم ويسدد الأنبياء خاصة ويهديهم إلى الأعمال الصالحة ويشير عليهم بها.

ج. وعلى هذا تكون الآية في مقام تصديق النبي ﷺ تصدقه في دعواه أن كتابه من عند الله بوحي منه، وتصدقه في دعواه أنه مؤمن بما يدعو إليه فيكون في معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ [يس: ٥]

٤. ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ إشارة إلى أن الذي يهدي إليه صراط مستقيم وأن الذي يهديه من الناس هو الذي يهديه الله سبحانه، فهدايته ﷺ هداية الله.

٥. ﴿صِراطِ اللهِ الَّذِي لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ﴾، بيان للصراط المستقيم الذي يهدي إليه النبي ﷺ، وتوصيفه تعالى بقوله: ﴿الَّذِي لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ﴾ للدلالة على الحجة على استقامة صراطه فإنه تعالى لما ملك كل شيء ملك الغاية التي تسير إليها الأشياء والسعادة التي تتوجه إليها، فكانت الغاية والسعادة هي التي عينها، وكان الطريق إليها والسبيل الذي عليهم أن يسلكوه لنيل سعادتهم هو الذي شرعه وبينه، وليس يملك أحد شيئا حتى ينصب له غاية ونهاية أو يشرع له إليها سبيلا، فالسعادة التي يدعو سبحانه إليها حق السعادة والطريق الذي يدعو إليه حق الطريق ومستقيم الصراط.

٦. ﴿أَلا إِلَى اللهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾:

أ. تنبيه على لازم ملكه لما في السماوات وما في الأرض فإن لازمه رجوع أمورهم إليه ولازمه كون السبيل الذي يسلكونه، وهو من جملة أمورهم، راجعا إليه فالصراط المستقيم هو صراطه فالمضارع أعني قوله: ﴿تَصِيرُ﴾ للاستمرار.

ب. وفيه إشعار بلم الوحي والتكليم الإلهي، إذ لما كان مصير الأشياء إليه تعالى كان لكل نوع إليه

تعالى سبيل يسلكه وكان عليه تعالى أن يهديه إليه ويسوقه إلى غايته كما قال: ﴿وَعَلَى اللهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ [النحل: ٩]، وهو تكليم كل نوع بما يناسب ذاته وهو في الإنسان التكليم المسمى بالوحي والإرسال.

ج. وقيل: المضارع للاستقبال والمراد مصيرها جميعا إليه يوم القيامة، وقد سيقت الجملة لوعد المهتدين إلى الصراط المستقيم ووعيد الضالين عنه، وأول الوجهين أظهر.

٧. أحاديث وآثار:

أ. في التوحيد، بإسناده عن محمد بن مسلم ومحمد بن مروان عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ما علم رسول الله ﷺ أن جبرئيل من قبل الله إلا بالتوفيق.

ب. وفي تفسير العياشي، عن زرارة قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: كيف لم يخف رسول الله ﷺ، فيما يأتيه من قبل الله، أن يكون ذلك مما ينزغ به الشيطان؟ قال: فقال: إن الله إذا اتخذ عبدا رسولا، أنزل عليه السكينة والوقار، فكان يأتيه من قبل الله مثل الذي يراه بعينه.

ج. وفي الكافي، بإسناده عن أبي بصير قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنا ما كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتابُ وَلَا الْإِيمانُ﴾ قال: خلق من خلق أعظم من جبرئيل وميكائيل، كان مع رسول الله ﷺ يخبره ويسدده، وهو مع الأئمة من بعده.

• أقول: وفي معناها عدة روايات وفي بعضها أنه من الملكوت، قال في روح المعاني: (ونقل الطبرسي عن أبي جعفر وأبي عبد الله: أن المراد من هذا الروح ملك أعظم من جبرائيل وميكائيل، كان مع رسول الله ﷺ ولم يصعد إلى السماء، وهذا القول في غاية الغرابة ولعله لا يصح عن هذين الإمامين) والذي في مجمع البيان، عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليه السلام قالا: (ولم يصعد إلى السماء وإنه لفينا)

• واستغرابه فيما لا دليل له على نفيه غريب، على أنه يسلم تسديد هذا الروح لبعض الأمة غير النبي كما هو ظاهر لمن راجع قسم الإشارات من تفسيره.

• وفي النهج: ولقد قرن الله به ﷺ من لدن كان فطيما، أعظم ملك من ملائكته يسلك به طريق المكارم، ومحاسن أخلاق العالم ليله ونهاره.

د. أخرج أبو نعيم في الدلائل وابن عساكر عن علي قال: قيل للنبي ﷺ: هل عبدت وثنا قط؟ قال: لا، قالوا: فهل شربت خمرا قط؟ قال: لا، وما زلت أعرف أن الذي هم عليه كفر، وما كنت أدري ما

الكتاب وما الإيمان، وبذلك نزل القرآن ﴿ما كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتابُ وَلَا الْإِيمانُ﴾

هـ. في الكافي، بإسناده عن أبي عمرو الزبيري عن أبي عبد الله عليه السلام في حديث، وقال في نبيه ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ يقول: تدعو.

و. وفي الكافي، بإسناده عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام قال: سمعته يقول: وقع مصحف في البحر فوجدوه، وقد ذهب ما فيه إلا هذه الآية: ﴿أَلا إِلَى اللهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾

سورة الزخرف

هذه السورة الكريمة تحتوي على [٣٠] مقطعاً، وهذا تعريف بمقاصدها، ومحتويات مقاطعها:

مقاصد السورة ومحتوياتها:

أ. السورة موضوعة للإنذار، كما تشهد به فاتحتها وخاتمتها والمقاصد المتخللة بينهما، إلا ما في قوله: ﴿إِلَّا الْمُتَّقِينَ يا عِبادِ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾ إلى تمام ست آيات استطرادية.

ب. تذكر أن السنة الإلهية إنزال الذكر وإرسال الأنبياء والرسل، ولا يصده عن ذلك إسراف الناس في قولهم وفعلهم، بل يرسل الأنبياء والرسل ويهلك المستهزئين بهم والمكذبين لهم، ثم يسوقهم إلى نار خالدة.

ج. وقد ذكرت إرسال الأنبياء بالإجمال أولاً، ثم سمي منهم إبراهيم، ثم موسى، ثم عيسى عليه السلام.

د. وذكرت من إسراف الكفار أشياء، ومن عمدتها قولهم بأن لله سبحانه ولداً، وأن الملائكة بنات الله، ففيها عناية خاصة بنفي الولد عنه تعالى، فكررت ذلك وردته وأوعدتهم بالعذاب، وفيها حقائق متفرقة أخرى.

هـ. والسورة مكية بشهادة مضامين آياتها، إلا قوله: ﴿وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنا﴾ الآية، ولم يثبت كما سيأتي إن شاء الله.

مقاطع السورة ونظمها:

١. الآيات [١ ـ ١٤] لم يذكر البيان المرتبط بها، وهي تذكر أن القرآن الكريم كتاب مبين، وأن الله جعله عربياً، وتذكر أن المشركين اتخذوا الملائكة إناثاً، وتزين لهم الشياطين أعمالهم، وتذكر أنهم ضلوا عن السبيل، وتهددهم بالعذاب، وتذكر خلق السماوات والأرض، وتذكر أن الله هو الذي أنزل من السماء ماء بقدر، وأحيا به الأرض، وهو الذي خلق الأزواج كلها، وجعل الفلك والأنعام ليركبوها.

٢. الآيات [١٥ ـ ٢٥] حكاية بعض أقوالهم التي دعاهم إلى القول بها الإسراف والكفر بالنعم، وهو قولهم بالولد وأن الملائكة بنات الله سبحانه، واحتجاجهم على عبادتهم الملائكة ورده عليهم.

٣. الآيات [٢٦ ـ ٤٥]:

أ. لما انجر الكلام إلى ردهم رسالة الرسول وكفرهم بها تحكماً، وتشبثهم في الشرك بذيل تقليد الآباء والأسلاف من غير دليل، عقب ذلك بالإشارة إلى قصة إبراهيم عليه السلام ورفضه تقليد أبيه وقومه، وتبريه عما يعبدونه من دون الله سبحانه، واستهدائه هدى ربه الذي فطره.

ب. ثم يذكر تمتيعه لهم بنعمه وكفرانهم بها بالكفر بكتاب الله وطعنهم فيه وفي رسوله بما هو مردود عليهم.

ج. ثم يذكر تبعة الإعراض عن ذكر الله وما تنتهي إليه من الشقاء والخسران، ويعطف عليه إياس النبي ﷺ من إيمانهم وتهديدهم بالعذاب.

د. ويؤكد الأمر للنبي ﷺ أن يستمسك بالقرآن، وإنه لذكر له ولقومه، وسوف يسألون عنه، وإن الذي فيه من دين التوحيد هو الذي كان عليه الأنبياء السابقون عليه.

٤. الآيات [٤٦ ـ ٥٦]:

أ. لما ذكر طغيانهم بعد تمتيعهم بنعمه، ورميهم الحق الذي جاءهم به رسول مبين بأنه سحر، وأنهم قالوا: ﴿لَوْ لا نُزِّلَ هذَا الْقُرْآنُ عَلى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾، فرجحوا الرجل على النبي ﷺ بكثرة ماله.

ب. مثل لهم بقصة موسى عليه السلام وفرعون وقومه، حيث أرسله الله إليهم بآياته الباهرة فضحكوا منها واستهزءوا بها، واحتج فرعون فيما خاطب به قومه على أنه خير من موسى بملك مصر وأنهار تجري من تحته، فاستخفهم فأطاعوه، فآل أمر استكبارهم أن انتقم الله منهم فأغرقهم.

٥. الآيات [٥٧ ـ ٦٥] إشارة إلى قصة عيسى بعد الفراغ عن قصة موسى عليه السلام، وقدم عليها مجادلتهم النبي ﷺ في عيسى عليه السلام وأجيب عنها.

٦. الآيات [٦٦ ـ ٧٨] رجوع إلى إنذار القوم، وفيه تخويفهم بالساعة، والإشارة إلى ما يئول إليه حال المتقين والمجرمين فيها من الثواب والعقاب.

٧. الآيات [٧٩ ـ ٨٩]:

أ. رجوع إلى سابق الكلام، وفيه توبيخهم على ما يريدون من الكيد برسول الله ﷺ، وتهديدهم بأن الله يكيدهم.

ب. ونفي الولد الذي يقولون به، وإبطال القول بمطلق الشريك، وإثبات الربوبية المطلقة لله وحده.

ج. وتختتم السورة بالتهديد والوعيد.

١. الكتاب والقرآن العربي وأم الكتاب:

المقطع [١] من سورة الزخرف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿حم وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [الزخرف: ١ـ٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ٨٣»:

١. ﴿وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ ظاهره أنه قسم وجوابه قوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا﴾ إلى آخر الآيتين، وكون القرآن مبينا هو إبانته وإظهاره طريق الهدى كما قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ تِبْياناً لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩]، أو كونه ظاهرا في نفسه لا يرتاب فيه كما قال: ﴿ذلِكَ الْكِتابُ لا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢]

٢. ﴿إِنَّا جَعَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾:

أ. الضمير للكتاب، و﴿قُرْآناً عَرَبِيًّا﴾ أي مقروا باللغة العربية و﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ غاية الجعل وغرضه.

ب. وجعل رجاء تعقله غاية للجعل المذكور يشهد بأن له مرحلة من الكينونة والوجود لا ينالها عقول الناس، ومن شأن العقل أن ينال كل أمر فكري وإن بلغ من اللطافة والدقة ما بلغ فمفاد الآية أن الكتاب بحسب موطنه الذي له في نفسه أمر وراء الفكر أجنبي عن العقول البشرية وإنما جعله الله قرآنا عربيا وألبسه هذا اللباس رجاء أن يستأنس به عقول الناس فيعقلوه، والرجاء في كلامه تعالى قائم بالمقام أو المخاطب دون المتكلم كما تقدم غير مرة.

٣. ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتابِ لَدَيْنا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾:

أ. تأكيد وتبيين لما تدل عليه الآية السابقة أن الكتاب في موطنه الأصلي وراء تعقل العقول.

ب. والضمير للكتاب، والمراد بأم الكتاب اللوح المحفوظ كما قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾ [البروج: ٢٢]، وتسميته بأم الكتاب لكونه أصل الكتب السماوية يستنسخ منه غيره، والتقييد بأم الكتاب و﴿لَدَيْنا﴾ للتوضيح لا للاحتراز، والمعنى: أنه حال كونه في أم الكتاب لدينا، حالا

لازمة، لعلي حكيم، وسيجيء في أواخر سورة الجاثية كلام في أم الكتاب إن شاء الله.

ج. والمراد بكونه عليا على ما يعطه مفاد الآية السابقة أنه رفيع القدر والمنزلة من أن تناله العقول، وبكونه حكيما أنه هناك محكم غير مفصل ولا مجزى إلى سور وآيات وجمل وكلمات كما هو كذلك بعد جعله قرآنا عربيا كما استفدناه من قوله تعالى: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١]

د. وهذان النعتان أعني كونه عليا حكيما هما الموجبان لكونه وراء العقول البشرية فإن العقل في فكرته لا ينال إلا ما كان من قبيل المفاهيم والألفاظ أولا وكان مؤلفا من مقدمات تصديقية يترتب بعضها على بعض كما في الآيات والجمل القرآنية، وأما إذا كان الأمر وراء المفاهيم والألفاظ وكان غير متجز إلى أجزاء وفصول فلا طريق للعقل إلى نيله.

٤. فمحصل معنى الآيتين: أن الكتاب عندنا في اللوح المحفوظ ذو مقام رفيع وأحكام لا تناله العقول لذينك الوصفين وإنما أنزلناه بجعله مقروا عربيا رجاء أن يعقله الناس.

٥. سؤال وإشكال: فإن قلت: ظاهر قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ إمكان تعقل الناس هذا القرآن العربي النازل تعقلا تاما فهذا الذي نقرؤه ونعقله إما أن يكون مطابقا لما في أم الكتاب كل المطابقة أو لا يكون، والثاني باطل قطعا كيف؟ وهو تعالى يقول: ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ﴾ و﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾ [البروج: ٢٢]، و﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ﴾ [الواقعة: ٧٨]، فتعين الأول ومع مطابقته لأم الكتاب كل المطابقة ما معنى كون القرآن العربي الذي عندنا معقولا لنا وما في أم الكتاب عند الله غير معقول لنا، والجواب: يمكن أن تكون النسبة بين ما عندنا وما في أم الكتاب نسبة المثل والممثل فالمثل هو الممثل بعينه لكن الممثل له لا يفقه إلا المثل فافهم ذلك.

٦. وبما مر يظهر ضعف الوجوه التي أوردوها في تفسير الوصفين:

أ. كقول بعضهم: إن المراد بكونه عليا أنه عال في بلاغته مبين لما يحتاج إليه الناس، وقول بعضهم: معناه أنه يعلو كل كتاب بما اختص به من الإعجاز وهو ينسخ الكتب غيره ولا ينسخه كتاب، وقول بعضهم يعني أنه يعظمه الملائكة والمؤمنون.

ب. وكقول بعضهم في معنى ﴿حَكِيمٌ﴾ إنه مظهر للحكمة البالغة، وقول بعضهم معناه أنه لا

ينطق إلا بالحكمة ولا يقول إلا الحق والصواب، ففي توصيفه بالحكيم تجوز لغرض المبالغة، وضعف هذه الوجوه ظاهر بالتدبر في مفاد الآية السابقة وظهور أن جعله قرآنا عربيا بالنزول عن أم الكتاب.

٢. تحذير المستهزئين بسنة الإهلاك في الأمم السابقة:

المقطع [٢] من سورة الزخرف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَضَى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الزخرف: ٥-٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ٨٥»:

١. ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحاً أَنْ كُنْتُمْ قَوْماً مُسْرِفِينَ﴾:

أ. الاستفهام للإنكار، والفاء للتفريع على ما تقدم، وضرب الذكر عنهم صرفه عنهم، قال في المجمع: (وأصل ضربت عنه الذكر أن الراكب إذا ركب دابة فأراد أن يصرفه عن جهة ضربه بعصا أو سوط ليعدل به إلى جهة أخرى ثم وضع الضرب موضع الصرف والعدل)، والصفح بمعنى الإعراض فصفحا مفعول له، واحتمل أن يكون بمعنى الجانب (و﴿أَنْ كُنْتُمْ﴾ محذوف الجار والتقدير لأن كنتم وهو متعلق بقوله: ﴿أَفَنَضْرِبُ﴾

ب. والمعنى: أفنصرف عنكم الذكر، وهو الكتاب الذي جعلناه قرآنا لتعقلوه، للإعراض عنكم لكونكم مسرفين أو أفنصرفه عنكم إلى جانب لكونكم مسرفين أي أنا لا نصرفه عنكم لذلك.

٢. ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ وَما يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ﴾:

أ. ﴿كَمْ﴾ للتكثير، والأولون هم الأمم الدارجة و﴿ما يَأْتِيهِمْ﴾، حال والعامل فيها ﴿أَرْسَلْنا﴾

ب. والآيتان وما يتلوهما في مقام التعليل لعدم صرف الذكر عنهم ببيان أن كونكم قوما مسرفين لا يمنعنا من إجراء سنة الهداية من طريق الوحي فإنا كثيرا ما أرسلنا من نبي في الأمم الماضين والحال أنه ما يأتيهم من نبي إلا استهزءوا به وانجر الأمر إلى أن أهلكنا من أولئك من هو أشد بطشا منكم.

ج. فكما كانت عاقبة إسرافهم واستهزائهم الهلاك دون الصرف فكذلك عاقبة إسرافكم ففي الآيات الثلاث كما ترى وعد للنبي ﷺ ووعيد لقومه.

٣. ﴿فَأَهْلَكْنا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشاً وَمَضى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ﴾:

أ. قال الراغب: (البطش تناول الشيء بصولة)

ب. وفي الآية التفات في قوله: ﴿مِنْهُمْ﴾ من الخطاب إلى الغيبة، وكان الوجه فيه العدول عن خطابهم إلى خطاب النبي ﷺ لعدم اعتبارهم بهذه القصص والعبر وليكون تمهيدا لقوله بعد: ﴿وَمَضَى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ﴾ ويؤيده قوله بعد: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ﴾ خطابا للنبي ﷺ، ومعنى قوله: ﴿وَمَضَى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ﴾ ومضى في السور النازلة قبل هذه السورة من القرآن وصف الأمم الأولين وأنه كيف حاق بهم ما كانوا به يستهزءون.

٣. آيات الله في الخلق والإحياء دليل البعث:

المقطع [٣] من سورة الزخرف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ [الزخرف: ٩-١١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ٨٦»:

١. ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾:

أ. في الآية وما يتلوها إلى تمام ست آيات احتجاج على ربوبيته تعالى وتوحده فيها مع إشارة ما إلى المعاد وتبكيت لهم على إسرافهم مأخوذ من اعترافهم بأنه تعالى هو خالق الكل ثم الأخذ بجهات من الخلق هي بعينها تدبير لأمور العباد كجعل الأرض لهم مهدا وجعله فيها سبلا وإنزال الأمطار فينتج أنه تعالى وحده مالك مدبر لأمورهم فهو الرب لا رب غيره.

ب. وبذلك تبين أن الآية تقدمة وتوطئة لما تتضمنه الآيات التالية من الحجة وقد تقدم في هذا الكتاب مرارا أن الوثنية لا تنكر رجوع الصنع والإيجاد إليه تعالى وحده وإنما تدعي رجوع أمر التدبير إلى غيره.

٢. ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً وَجَعَلَ لَكُمْ فِيها سُبُلاً لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾:

أ. أي جعل لكم الأرض بحيث تربون فيها كما يربى الأطفال في المهد، وجعل لكم في الأرض سبلا وطرقا تسلكونها وتهتدون بها إلى مقاصدكم.

ب. وقيل: معنى ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ رجاء أن تهتدوا إلى معرفة الله وتوحيده في العبادة والأول أظهر.

ج. وفي الكلام التفات إلى خطاب القوم بعد صرف الخطاب عنهم إلى النبي ﷺ ولعل الوجه فيه إظهار العناية بهذا المعنى في الخلقة وهو أن التدبير بعينه من الخلق فاعترافهم بكون الخلق مختصا بالله سبحانه وقولهم برجوع التدبير إلى غيره من خلقه من التهافت في القول جهلا فقرعهم بهذا الخطاب من غير واسطة.

٣. ﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّماءِ ماءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً كَذلِكَ تُخْرَجُونَ﴾:

أ. قيد تنزيل الماء بقدر للإشارة إلى أنه عن إرادة وتدبير لا كيف اتفق والإنشار الإحياء، والميت مخفف الميت بالتشديد، وتوصيف البلدة به باعتبار أنها مكان لأن البلدة أيضا إنما تتصف بالموت والحياة باعتبار أنها مكان، والالتفات عن الغيبة إلى التكلم مع الغير في ﴿فَأَنْشَرْنا﴾ لإظهار العناية.

ب. ولما استدل بتنزيل الماء بقدر وإحياء البلدة الميتة على خلقه وتدبيره استنتج منه أمر آخر لا يتم التوحيد إلا به وهو المعاد الذي هو رجوع الكل إليه تعالى فقال: ﴿كَذلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ أي كما أحيا البلدة الميتة كذلك تبعثون من قبوركم أحياء.

ج. قيل: في التعبير عن إخراج النبات بالإنشار الذي هو إحياء الموتى وعن إحيائهم بالإخراج تفخيم لشأن الإنبات وتهوين لأمر البعث لتقويم سنن الاستدلال وتوضيح منهاج القياس.

٤. تسخير الفلك والأنعام للتذكير بنعم الله:

المقطع [٤] من سورة الزخرف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ﴾ [الزخرف: ١٢-١٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ٨٧»:

١. ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْواجَ كُلَّها وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعامِ ما تَرْكَبُونَ﴾ قيل: المراد بالأزواج أصناف الموجودات من ذكر وأنثى وأبيض وأسود وغيرها، وقيل: المراد الزوج من كل شيء فكل ما سوى الله كالفوق وتحت واليمين واليسار والذكر والأنثى زوج.

٢. ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعامِ ما تَرْكَبُونَ﴾ أي تركبونه، والركوب إذا نسب إلى الحيوان كالفرس والإبل تعدى بنفسه فيقال: ركبت الفرس وإذا نسب إلى مثل الفلك والسفينة تعدى بفي فيقال

ركب فيه قال تعالى: ﴿فَإِذا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ﴾ ففي قوله: ﴿ما تَرْكَبُونَ﴾ أي تركبونه تغليب لجانب الأنعام.

٣. ﴿لِتَسْتَوُوا عَلى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾:

أ. الاستواء على الظهور الاستقرار عليها، والضمير في ﴿ظُهُورِهِ﴾ راجع إلى لفظ الموصول في ﴿ما تَرْكَبُونَ﴾، والضمير في قوله: ﴿إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ للموصول أيضا فكما يقال: استويت على ظهر الدابة يقال: استويت على الدابة.

ب. والمراد بذكر نعمة الرب سبحانه بعد الاستواء على ظهر الفلك والأنعام ذكر النعم التي ينتفع بها الإنسان بتسخيره تعالى له هذه المراكب كالانتقال من مكان إلى مكان وحمل الأثقال قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ﴾ [إبراهيم: ٣٢]، وقال: ﴿وَالْأَنْعامَ خَلَقَها﴾، إلى أن قال، ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقالَكُمْ إِلى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ﴾ [النحل: ٧]، أو المراد ذكر مطلق نعمه تعالى بالانتقال من ذكر هذه النعم إليه.

٤. ﴿وَتَقُولُوا سُبْحانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنا هذا وَما كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾:

أ. أي مطيقين والإقران الإطاقة.

ب. وظاهر ذكر النعمة عند استعمالها والانتفاع بها شكر منعمها ولازم ذلك أن يكون ذكر النعمة غير قول: ﴿سُبْحانَ الَّذِي﴾، فإن هذا القول تسبيح وتنزيه له عما لا يليق بساحة كبريائه وهو الشريك في الربوبية والألوهية، وذكر النعمة شكر، كما تقدم، والشكر غير التنزيه.

ج. ويؤيد هذا ما ورد عن النبي ﷺ وأئمة أهل البيت عليه السلام في ما يقال عند الاستواء على المركوب فإن الروايات على اختلافها تتضمن التحميد وراء التسبيح يقول ﴿سُبْحانَ الَّذِي﴾

د. وروي في الكشاف، عن الحسن بن علي عليه السلام أنه رأى رجلا يركب دابة فقال: سبحان الذي سخر لنا هذا، فقال: أبهذا أمرتم؟ فقال: وبم أمرنا؟ قال: أن تذكروا نعمة ربكم.

٥. ﴿وَإِنَّا إِلى رَبِّنا لَمُنْقَلِبُونَ﴾ أي صائرون شهادة بالمعاد.

٥. توبيخ من نسب البنات لله وكراهته لهم:

المقطع [٥] من سورة الزخرف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَناتٍ وَأَصْفاكُمْ بِالْبَنِينَ وَإِذا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِما ضَرَبَ لِلرَّحْمنِ مَثَلًا ظَلَّ

وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [الزخرف: ١٥ـ١٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ٨٩»:

١. ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبادِهِ جُزْءاً إِنَّ الْإِنْسانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ﴾:

أ. المراد بالجزء الولد فإن الولادة إنما هي الاشتقاق فالولد جزء من والده منفصل منه متصور بصورته.

ب. وإنما عبر عن الولد بالجزء للإشارة إلى استحالة دعواهم، فإن جزئية شيء من شيء كيفما تصورت لا تتم إلا بتركب في ذلك الشيء والله سبحانه واحد من جميع الجهات.

ج. وقد بان بما تقدم أن ﴿مِنْ عِبادِهِ﴾ بيان لقوله: ﴿جُزْءاً﴾ ولا ضير في تقدم هذا النوع من البيان على المبين ولا في جمعية البيان وإفراد المبين.

٢. ﴿أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَناتٍ وَأَصْفاكُمْ بِالْبَنِينَ﴾:

أ. أي أخلصكم للبنين فلكم بنون وليس له إلا البنات وأنتم ترون أن البنت أخس من الابن فتثبتون له أخس الصنفين وتخصون أنفسكم بأشرفهما وهذا مع كونه قولا محالا في نفسه إزراء وإهانة ظاهرة وكفران.

ب. وتقييد اتخاذ البنات بكونه مما يخلق لكونهم قائلين بكون الملائكة، على ربوبيتهم وألوهيتهم، مخلوقين لله، والالتفات في الآية إلى خطابهم لتأكيد الإلزام وتثبيت التوبيخ، والتنكير والتعريف في (بنات) و(البنين) للتحقير والتفخيم.

٣. ﴿وَإِذا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِما ضَرَبَ لِلرَّحْمنِ مَثَلاً ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾:

أ. المثل هو المثل والشبه المجانس للشيء وضرب الشيء مثلا أخذه مجانسا للشيء (و﴿بِما ضَرَبَ لِلرَّحْمنِ مَثَلاً﴾ الأنثى، والكظيم المملوء كربا وغيظا.

ب. والمعنى: وحالهم أنه إذا بشر أحدهم بالأنثى الذي جعلها شبها مجانسا للرحمان صار وجهه مسودا من الغم وهو مملوء كربا وغيظا لعدم رضاهم بذلك وعده عارا لهم لكنهم يرضونه له.

ج. والالتفات في الآية إلى الغيبة لحكاية شنيع سيرتهم وقبيح طريقتهم للغير حتى يتعجب منه.

٦. ضعف من ينشأ في الزينة عن البيان والخصام:

المقطع [٦] من سورة الزخرف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أَوَمَنْ يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي

الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ [الزخرف: ١٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ٩٠»:

أ. أي أوجعلوا لله سبحانه من ينشأ في الحلية أي يتربى في الزينة وهو في المخاصمة والمحاجة غير مبين لحجته لا يقدر على تقرير دعواه.

ب. وإنما ذكر هذين النعتين لأن المرأة بالطبع أقوى عاطفة وشفقة وأضعف تعقلا بالقياس إلى الرجل وهو بالعكس ومن أوضح مظاهر قوة عواطفها تعلقها الشديد بالحلية والزينة وضعفها في تقرير الحجة المبني على قوة التعقل.

٧. الإنكار على من زعم أن الملائكة إناث وسؤالهم عن ذلك:

المقطع [٧] من سورة الزخرف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾ [الزخرف: ١٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ٩٠»:

١. ﴿وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبادُ الرَّحْمنِ إِناثاً﴾:

أ. هذا معنى قولهم: إن الملائكة بنات الله وقد كان يقول به طوائف من عرب الجاهلية وأما غيرهم من الوثنية فربما عدوا في آلهتهم إلهة هي أم إله أو بنت إله لكن لم يقولوا بكون جميع الملائكة إناثا كما هو ظاهر المحكي في الآية الكريمة.

ب. وإنما وصف الملائكة بقوله: ﴿الَّذِينَ هُمْ عِبادُ الرَّحْمنِ﴾ ردا لقولهم بأنوثتهم لأن الإناث لا يطلق عليهن العباد، ولا يلزم منه اتصافهم بالذكورة بالمعنى الذي يتصف به الحيوان فإن الذكورة والأنوثة اللتين في الحيوان من لوازم وجوده المادي المجهز للتناسل وتوليد المثل، والملائكة في معزل من ذلك.

٢. ﴿أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهادَتُهُمْ وَيُسْئَلُونَ﴾:

أ. رد لدعواهم الأنوثة في الملائكة بأن الطريق إلى العلم بذلك الحس وهم لم يروهم حتى يعلموا بها فلم يكونوا حاضرين عند خلقهم حتى يشاهدوا منهم ذلك.

ب. فقوله: ﴿أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ﴾ استفهام إنكاري ووعيد على قولهم بغير علم أي لم يشهدوا خلقهم وستكتب في صحائف أعمالهم هذه الشهادة عليهم ويسألون عنه يوم القيامة.

٨. حجة المشركين الباطلة في اتباع الآباء دون علم:

المقطع [٨] من سورة الزخرف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٠-٢٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ٩١»:

١. ﴿وَقالُوا لَوْ شاءَ الرَّحْمنُ ما عَبَدْناهُمْ ما لَهُمْ بِذلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾:

أ. حجة عقلية داحضة محكية عنهم يمكن أن تقرر تارة لإثبات صحة عبادة الشركاء بأن يقال: لو شاء الله أن لا نعبد الشركاء ما عبدناهم ضرورة لاستحالة تخلف مراده تعالى عن إرادته لكنا نعبدهم فهو لم يشأ ذلك وعدم مشيته عدم عبادتهم إذن في عبادتهم فلا منع من قبله تعالى عن عبادة الشركاء والملائكة منهم، وهذا المعنى هو المنساق إلى الذهن من قوله في سورة الأنعام: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شاءَ اللهُ ما أَشْرَكْنا وَلا آباؤُنا وَلا حَرَّمْنا مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٤٨]، على ما يعطيه السياق ما قبله وما بعده.

ب. وتقرر تارة لإبطال النبوة القائلة إن الله يوجب عليكم كذا وكذا ويحرم عليكم كذا كذا بأن يقال لو شاء الله أن لا نعبد الشركاء ولا نحل ولا نحرم شيئا لم نعبد الشركاء ولم نضع من عندنا حكما لاستحالة تخلف مراده تعالى عن إرادته لكنا نعبدهم ونحل ونحرم أشياء فلم يشأ الله سبحانه منا شيئا، فقول إن الله يأمركم بكذا وينهاكم عن كذا وبالجملة أنه شاء كذا باطل.

ج. وهذا المعنى هو الظاهر المستفاد من قوله تعالى في سورة النحل: ﴿وَقالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شاءَ اللهُ ما عَبَدْنا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلا آباؤُنا وَلا حَرَّمْنا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٣٥]، بالنظر إلى السياق.

د. وقولهم في محكي الآية المبحوث عنها: ﴿لَوْ شاءَ الرَّحْمنُ ما عَبَدْناهُمْ﴾ على ما يفيده سياق الآيات السابقة واللاحقة مسوق للاحتجاج على المعنى الأول وهو تصحيح عبادتهم للملائكة فيكون في معنى آية سورة الأنعام وأخص منها.

٢. ﴿ما لَهُمْ بِذلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾:

أ. أي هو منهم قول مبني على الجهل فإنه مغالطة خلطوا فيها بين الإرادة التكوينية والإرادة التشريعية وأخذ الأولى مكان الثانية، فمقتضى الحجة أن لا إرادة تكوينية منه تعالى متعلقة بعدم عبادتهم الملائكة وانتفاء تعلق هذا النوع من الإرادة بعدم عبادتهم لهم لا يستلزم انتفاء تعلق الإرادة التشريعية به.

ب. فهو سبحانه لما لم يشأ أن لا يعبدوا الشركاء بالإرادة التكوينية كانوا مختارين غير مضطرين على فعل أو ترك فأراد منهم بالإرادة التشريعية أن يوحدوه ولا يعبدوا الشركاء، والإرادة التشريعية لا يستحيل تخلف المراد عنها لكونها اعتبارية غير حقيقية، وإنما تستعمل في الشرائع والقوانين والتكاليف المولوية، والحقيقة التي تبتني عليها هي اشتمال الفعل على مصلحة أو مفسدة.

٣. وبما تقدم يظهر فساد:

أ. ما قيل: إن حجتهم مبنية على مقدمتين: الأولى أن عبادتهم للملائكة بمشيته تعالى، والثانية أن ذلك مستلزم لكونها مرضية عنده تعالى وقد أصابوا في الأولى وأخطئوا في الثانية حيث جهلوا أن المشية عبارة عن ترجيح بعض الممكنات على بعض كائنا ما كان من غير اعتبار الرضا والسخط في شيء من الطرفين.

• وجه الفساد: أن مضمون الحجة عدم تعلق المشية على ترك العبادة وعدم تعلق المشية بالترك لا يستلزم تعلق المشية بالفعل بل لازمه الإذن الذي هو عدم المنع من الفعل، ثم إن ظاهر كلامه قصر الإرادة في التكوينية وإهمال التشريعية التي عليها المدار في التكاليف المولوية وهو خطأ منه.

ب. ويظهر أيضا فساد ما نسب إلى بعضهم أن المراد بقولهم: (لو شاء الرحمن ما عبدناهم) الاعتذار عن عبادة الملائكة بتعلق مشية الله بها مع الاعتراف بكونها قبيحة.

• وذلك أنهم لم يكونوا مسلمين لقبح عبادة آلهتهم حتى يعتذروا عنها وقد حكي عنهم ذيلا قولهم: ﴿إِنَّا وَجَدْنا آباءَنا عَلى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلى آثارِهِمْ مُهْتَدُونَ﴾

٤. ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ الخرص، على ما يظهر من الراغب، القول على الظن والتخمين، وفسر أيضا بالكذب.

٥. ﴿أَمْ آتَيْناهُمْ كِتاباً مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ﴾ ضمير ﴿مِنْ قَبْلِهِ﴾ للقرآن، وفي الآية نفي أن يكون لهم حجة من طريق النقل كما أن في الآية السابقة نفي حجتهم من طريق العقل، ومحصل الآيتين أن لا حجة لهم على عبادة الملائكة لا من طريق العقل ولا من طريق النقل فلم يأذن الله فيها.

٦. ﴿بَلْ قالُوا إِنَّا وَجَدْنا آباءَنا عَلى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلى آثارِهِمْ مُهْتَدُونَ﴾ الأمة الطريقة التي تؤم وتقصد، والمراد بها الدين، والإضراب عما تحصل من الآيتين، والمعنى: لا دليل لهم على حقية عبادتهم بل قالوا إنا

وجدنا آباءنا على دين وإنا على آثارهم مهتدون أي إنهم متشبثون بتقليد آبائهم فحسب.

٩. سنة الله في انتقامه من المكذبين المترفين:

المقطع [٩] من سورة الزخرف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [الزخرف: ٢٣ـ٢٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ٩٣»:

١. ﴿وَكَذلِكَ ما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قالَ مُتْرَفُوها إِنَّا وَجَدْنا﴾:

أ. أي إن التشبث بذيل التقليد ليس مما يختص بهؤلاء فقد كان ذلك دأب أسلافهم من الأمم المشركين وما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير وهو النبي إلا تشبث متنعموها بذيل التقليد وقالوا: إنا وجدنا أسلافنا على دين وإنا على آثارهم مقتدون لن نتركها ولن نخالفهم.

ب. ونسبة القول إلى مترفيهم للإشارة إلى أن الإتراف والتنعم هو الذي يدعوهم إلى التقليد ويصرفهم عن النظر في الحق.

٢. ﴿قالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آباءَكُمْ﴾، القائل هو النذير، والخطاب للمترفين ويشمل غيرهم بالتبعية، والعطف في ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ﴾ على محذوف يدل عليه كلامهم، والتقدير أنكم على آثارهم مقتدون ولو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم؟ والمحصل: هل أنتم لازمون لدينهم حتى لو كان ما جئتكم به من الدين أهدى منه؟ وعد النذير ما جاءهم به أهدى من دينهم مع كون دينهم باطلا لا هدى فيه من باب مجاراة الخصم.

٣. ﴿قالُوا إِنَّا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ كافِرُونَ﴾ جواب منهم لقول النذير: ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ﴾ وهو تحكم من غير دليل.

٤. ﴿فَانْتَقَمْنا مِنْهُمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ أي تفرع على ذلك الإرسال والرد بالتقليد والتحكم أنا أهلكناهم بتكذيبهم فانظر كيف كان عاقبة أولئك السابقين من أهل القرى وفيه تهديد لقوم النبي ﷺ.

١٠. إبراهيم يتبرأ من الشرك ويترك كلمة التوحيد لعقبه:

المقطع [١٠] من سورة الزخرف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ﴾ [الزخرف: ٢٦-٣٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ٩٥»:

١. ﴿وَإِذْ قالَ إِبْراهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَراءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ﴾:

أ. البراء مصدر من برىء يبرأ فهو بريء فمعنى ﴿إِنَّنِي بَراءٌ﴾ إنني: ذو براء أو بريء على سبيل المبالغة مثل زيد عدل.

ب. وفي الآية إشارة إلى تبري إبراهيم عليه السلام مما كان يعبده أبوه وقومه من الأصنام والكواكب بعد ما حاجهم فيها فاستندوا فيها إلى سيرة آبائهم على ما ذكر في سور الأنعام والأنبياء والشعراء وغيرها.

ج. والمعنى: واذكر لهم إذ تبرأ إبراهيم عن آلهة أبيه وقومه إذ كانوا يعبدونها تقليدا لآبائهم من غير حجة وقام بالنظر وحده.

٢. ﴿إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾:

أ. أي إلا الذي أوجدني وهو الله سبحانه، وفي توصيفه تعالى بالفطر إشارة إلى الحجة على ربوبيته وألوهيته فإن الفطر والإيجاد لا ينفك عن تدبير أمر الموجود المفطور فالذي فطر الكل هو الذي يدبر أمرهم فهو الحقيق أن يعبد.

ب. ﴿فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾ أي إلى الحق الذي أطلبه، وقيل: أي إلى طريق الجنة، وفي هذه الجملة إشارة إلى خاصة أخرى ربوبية وهي الهداية إلى السبيل الحق يجب أن يسلكه الإنسان فإن السوق إلى الكمال من تمام التدبير فعلى الرب المدبر لأمر مربوبه أن يهديه إلى كماله وسعادته، قال تعالى: ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [طه: ٥٠]، وقال: ﴿وَعَلَى اللهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ [النحل: ٩]، فالرجوع إلى الله بتوحيد العبادة يستتبع الهداية كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جاهَدُوا فِينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا﴾ [العنكبوت: ٦٩]

ج. والاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾ منقطع لأن الوثنيين لا يعبدون الله كما مر مرارا، فقول بعضهم: إنه متصل، وإنهم كانوا يقولون: الله ربنا مع عبادتهم الأوثان، كما ترى.

٣. ﴿وَجَعَلَها كَلِمَةً باقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾:

أ. الظاهر أن ضمير الفاعل المستتر في ﴿جَعَلَها﴾ لله سبحانه، والضمير البارز، على ما قيل، لكلمة البراءة التي تكلم بها إبراهيم عليه السلام ومعناها معنى كلمة التوحيد فإن مفاد لا إله إلا الله نفي الآلهة غير الله لا نفي الآلهة وإثبات الإله تعالى وهو ظاهر فلا حاجة إلى ما تكلف به بعضهم أن الضمير لكلمة التوحيد المعلوم مما تكلم به إبراهيم عليه السلام.

ب. والمراد بعقبه ذريته وولده، وقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي يرجعون من عبادة آلهة غير الله إلى عبادته تعالى أي يرجع بعضهم، وهم العابدون لغير الله بدعوة بعضهم وهم العابدون لله، إلى عبادته تعالى، وبهذا يظهر أن المراد ببقاء الكلمة في عقبه عدم خلوهم عن الموحد ما داموا، ولعل هذا عن استجابة دعائه عليه السلام إذ يقول: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥]

ج. وقيل: الضمير في (جعل) لإبراهيم عليه السلام فهو الجاعل هذه الكلمة باقية في عقبه رجاء أن يرجعوا إليها، والمراد بجعلها باقية فيهم وصيته لهم بذلك كما قال تعالى: ﴿وَصَّى بِها إِبْراهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يا بَنِيَّ إِنَّ اللهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢]

• وأنت خبير بأن الوصية بكلمة التوحيد لا تسمى جعلا للكلمة باقية في العقب وإن صح أن يقال: أراد بها ذلك لكنه غير جعلها باقية فيهم.

د. وقيل: المراد أن الله جعل الإمامة كلمة باقية في عقبه وسيجيء الكلام فيه في البحث الروائي الآتي إن شاء الله.

هـ. ويظهر من الآية أن ذرية إبراهيم عليه السلام لا تخلو من هذه الكلمة إلى يوم القيامة.

٤. ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هؤُلاءِ وَآباءَهُمْ حَتَّى جاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ﴾:

أ. إضراب عما يفهم من الآية السابقة، والمعنى: أن رجوعهم عن الشرك إلى التوحيد كان هو الغاية المرجوة منهم لكنهم لم يرجعوا بل متعت هؤلاء من قومك وآباءهم فتمتعوا بنعمي ﴿حَتَّى جاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ﴾

ب. ولعل الالتفات إلى التكلم وحده في قوله: ﴿بَلْ مَتَّعْتُ﴾ للإشارة إلى تفخيم جرمهم وأنهم لا يقصدون في كفرانهم للنعمة وكفرهم بالحق ورمية بالسحر إلا إياه تعالى وحده.

ج. والمراد بالحق الذي جاءهم هو القرآن، وبالرسول المبين محمد ﷺ.

٥. ﴿وَلَمَّا جاءَهُمُ الْحَقُّ قالُوا هذا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كافِرُونَ﴾ هذا طعنهم في الحق الذي جاءهم وهو القرآن ويستلزم الطعن في الرسول، كما أن قولهم الآتي: ﴿لَوْلا نُزِّلَ﴾، كذلك.

٦. أحاديث وآثار:

أ. في المجمع في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَها كَلِمَةً باقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾ وقيل: الكلمة الباقية في عقبه هي الإمامة إلى يوم الدين: عن أبي عبد الله عليه السلام.

• أقول: وفي هذا المعنى روايات أخر وقد طبقت الآية في بعضها على الإمامة في عقب الحسين عليه السلام.

• والتأمل في الروايات يعطي أن بناءها على إرجاع الضمير في ﴿جَعَلَها﴾ إلى الهداية المفهومة من قوله: ﴿سَيَهْدِينِ﴾ وقد تقدم في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنِّي جاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِماماً﴾ إن الإمام وظيفته هداية الناس في ملكوت أعمالهم بمعنى سوقهم إلى الله سبحانه بإرشادهم وإيرادهم درجات القرب من الله سبحانه وإنزال كل ذي عمل منزلة الذي يستدعيه عمله، وحقيقة الهداية من الله سبحانه وتنسب إليه بالتبع أو بالعرض.

• وفعلية الهداية النازلة من الله إلى الناس تشمله أولا ثم تفيض عنه إلى غيره فله أتم الهداية ولغيره ما هي دونها وما ذكره إبراهيم عليه السلام في قوله: ﴿فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾ هداية مطلقة تقبل الانطباق على أتم مراتب الهداية التي هي حظ الإمام منها فهي الإمامة وجعلها كلمة باقية في عقبه جعل الإمامة كذلك.

١١. رد اعتراضهم على نزول القرآن وتفاوت الأرزاق:

المقطع [١١] من سورة الزخرف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف: ٣١-٣٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ٩٨»:

١. ﴿وَقالُوا لَوْلا نُزِّلَ هذَا الْقُرْآنُ عَلى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾:

أ. المراد بالقريتين مكة والطائف، ومرادهم بالعظمة، على ما يفيده السياق، ما هو من حيث المال

والجاه اللذين هما ملاك الشرافة وعلو المنزلة عند أبناء الدنيا، والمراد بقوله: ﴿رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ رجل من إحدى القريتين حذف المضاف إيجازا.

ب. ومرادهم أن الرسالة منزلة شريفة إلهية لا ينبغي أن يتلبس به إلا رجل شريف في نفسه عظيم مطاع في قومه، والنبي ﷺ فقير فاقد لهذه الخصلة، فلو كان القرآن الذي جاء به وحيا نازلا من الله فلو لا نزل على رجل عظيم من مكة أو الطائف كثير المال رفيع المنزلة.

ج. وفي المجمع: (ويعنون بالرجل العظيم من إحدى القريتين الوليد بن المغيرة من مكة وأبا مسعود عروة بن مسعود الثقفي من الطائف، عن قتادة، وقيل: عتبة بن أبي ربيعة من مكة وابن عبد ياليل من الطائف، عن مجاهد، وقيل: الوليد بن المغيرة من مكة وحبيب بن عمر الثقفي من الطائف، عن ابن عباس)

د. والحق أن ذلك من تطبيق المفسرين وإنما قالوا ما قالوا على الإبهام وأرادوا أحد هؤلاء من عظماء القريتين على ما هو ظاهر الآية.

٢. ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾:

أ. المراد بالرحمة، على ما يعطيه السياق، النبوة.

ب. وقال الراغب: (العيش الحياة المختصة بالحيوان، وهو أخص من الحياة لأن الحياة تقال في الحيوان وفي الباري تعالى وفي الملك، ويشتق منه المعيشة لما يتعيش به)، وقال: (التسخير سياقه إلى الغرض المختص قهرا، إلى أن قال: والسخري هو الذي يقهر فيتسخر بإرادته)

ج. والآية والآيتان بعدها في مقام الجواب عن قولهم: ﴿لَوْلا نُزِّلَ هذَا الْقُرْآنُ عَلى رَجُلٍ﴾، ومحصلها أن قولهم هذا تحكم ظاهر ينبغي أن يتعجب منه فإنهم يحكمون فيما لا يملكون، هذه معيشتهم في الحياة الدنيا يعيشون بها ويرتزقون وهي رحمة منا لا قدر لها ولا منزلة عندنا وليست إلا متاعا زائلا نحن نقسمها بينهم وهي خارجة عن مقدرتهم ومشيتهم فكيف يقسمون النبوة التي هي الرحمة الكبرى وهي مفتاح سعادة البشر الدائمة والفلاح الخالد فيعطونها لمن شاءوا ويمنعونها ممن شاءوا.

د. فقوله: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ الاستفهام للإنكار، والالتفات إلى الغيبة في قوله: ﴿رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ ولم يقل: رحمتنا، للدلالة على اختصاص النبي ﷺ بعناية الربوبية في النبوة.

هـ. والمعنى: أنهم لا يملكون النبوة التي هي رحمة لله خاصة به حتى يمنعوك منها ويعطوها لمن هووا.

٣. ﴿نَحْنُ قَسَمْنا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا﴾:

أ. بيان لوجه الإنكار في الجملة السابقة بأنهم عاجزون عن قسمة ما هو دون النبوة بمراحل ولا منزلة له وهو معيشتهم في الحياة الدنيا فنحن قسمناها بينهم فكيف يقسمون ما هو أرفع منزلة منها بما لا يقدر قدره وهو النبوة التي هي رحمة ربك الخاصة به.

ب. والدليل على أن الأرزاق والمعايش ليست بيد الإنسان اختلاف أفراده بالغنى والفقر والعافية والصحة وفي الأولاد وسائر ما يعد من الرزق، وكل يريد أن يقتني منها ما لا مزيد عليه، ولا يكاد يتيسر لأحد منهم جميع ما يتمناه ويرتضيه فلو كان ذلك بيد الإنسان لم يوجد معدم فقير في شيء منها بل لم يختلف اثنان فيها فاختلافهم فيها أوضح دليل على أن الرزق مقسوم بمشية من الله دون الإنسان.

ج. على أن الإرادة والعمل من الإنسان بعض الأسباب الناقصة لحصول المطلوب الذي هو الرزق ووراءهما أسباب كونية لا تحصى خارجة عن مقدرة الإنسان لا يحصل المطلوب إلا بحصولها جميعا واجتماعها عليه وليست إلا بيد الله الذي إليه تنتهي الأسباب.

د. هذا كله في المال وأما الجاه فهو أيضا مقسوم من عند الله فإنه يتوقف على صفات خاصة بها ترتفع درجات الإنسان في المجتمع فيتمكن من تسخير من هو دونه كالفطنة والدهاء والشجاعة وعلو الهمة وأحكام العزيمة وكثرة المال والعشيرة وشيء من ذلك لا يتم إلا بصنع من الله سبحانه، وذلك قوله: ﴿وَرَفَعْنا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيًّا﴾

هـ. فيتبين بمجموع القولين أعني قوله: ﴿نَحْنُ قَسَمْنا﴾، وقوله: ﴿وَرَفَعْنا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ﴾، إن القاسم للمعيشة والجاه بين الناس هو الله سبحانه لا غير، وقوله: ﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ أي النبوة خير من المال فكيف يملكون قسمها وهم لا يملكون قسم المال فيما بينهم.

و. ومن الممكن أن يكون قوله: ﴿وَرَفَعْنا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ﴾ عطف تفسير على قوله: ﴿نَحْنُ قَسَمْنا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ﴾، يبين قسم المعيشة بينهم ببيان علل انقسامها في المجتمع الإنساني، بيان ذلك أن كثرة حوائج الإنسان في حياته الدنيا بحيث لا يقدر على رفع جميعها في عيش انفرادي أحوجته إلى الاجتماع

مع غيره من الأفراد على طريق الاستخدام والاستدرار أولا وعلى طريق التعاون والتعاضد ثانيا كما مر في مباحث النبوة من الجزء الثاني من الكتاب.

ز. فآل الأمر إلى المعاوضة العامة المفيدة لنوع من الاختصاص بأن يعطي كل مما عنده من حوائج الحياة ما يفضل من حاجته ويأخذ به من الغير ما يعادله مما يحتاج إليه فيعطي مثلا ما يفضل من حاجته من الماء الذي عنده وقد حصله واختص به ويأخذ من غيره ما يزيد على قوته من الغذاء، ولازم ذلك أن يسعى كل فرد بما يستعد له ويحسنه من السعي فيقتني مما يحتاج إليه ما يختص به، ولازم ذلك أن يحتاج غيره إليه فيما عنده من متاع الحياة فيتسخر له فيفيده ما يحتاج إليه كالخباز يحتاج إلى ما عند السقاء من الماء وبالعكس فيتعاونان بالمعاوضة وكالمخدوم يتسخر للخادم لخدمته والخادم يتسخر للمخدوم لماله وهكذا فكل بعض من المجتمع مسخر لآخرين بما عنده والآخرون متسخرون له بلا واسطة أو بواسطة أو وسائط لما أن كلا يرتفع على غيره بما يختص به مما عنده بدرجات مختلفة باختلاف تعلق الهمم والقصود به.

ح. وعلى ما تقدم فالمراد بالمعيشة كل ما يعاش به أعم من المال والجاه أو خصوص المال وغيره تبع له كما يؤيده قوله ذيلا: ﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ فإن المراد به المال وغيره من لوازم الحياة مقصود بالتبع.

٤. أحاديث وآثار: في الإحتجاج، عن العسكري عن أبيه عليه السلام قال: إن رسول الله ﷺ كان قاعدا ذات يوم بفناء الكعبة، إذ قال له عبد الله بن أمية المخزومي: لو أراد الله أن يبعث إلينا رسولا، لبعث أجل من فيما بيننا مالا وأحسنه حالا، فهلا نزل هذا القرآن الذي تزعم أن الله أنزله عليك، وابتعثك به رسولا، على رجل من القريتين عظيم: إما الوليد بن المغيرة بمكة، وإما عروة بن مسعود الثقفي بالطائف، ثم ذكر عليه السلام في كلام طويل، جواب رسول الله ﷺ عن قوله، بما في معنى الآيات، ثم قال: وذلك قوله تعالى: ﴿وَقالُوا لَوْلا نُزِّلَ هذَا الْقُرْآنُ عَلى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ قال الله: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ يا محمد ﴿نَحْنُ قَسَمْنا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا﴾ فأحوجنا بعضنا إلى بعض أحوج هذا إلى مال ذلك، وأحوج ذلك إلى سلعة هذا وإلى خدمته، فترى أجل الملوك وأغنى الأغنياء محتاجا، إلى أفقر الفقراء في ضرب من الضروب إما سلعة معه ليست معه، وإما خدمة يصلح لها، لا يتهيأ لذلك الملك أن يستغني إلا به، وأما باب من العلوم والحكم هو فقير، إلى أن يستفيدها من هذا الفقير، الذي يحتاج إلى مال

ذلك الملك الغني، وذلك الملك يحتاج إلى علم هذا الفقير أو رأيه أو معرفته، ثم ليس للملك أن يقول: هلا اجتمع إلي مالي علم هذا الفقير، ولا للفقير أن يقول: هلا اجتمع إلى رأيي ومعرفتي وعلمي، وما أتصرف فيه من فنون الحكم مال هذا الملك الغني، ثم قال تعالى: ﴿وَرَفَعْنا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيًّا﴾، ثم قال: يا محمد ﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ أي ما يجمعه هؤلاء من أموال الدنيا.

١٢. زخرف الدنيا متاع للكفار والآخرة للمتقين:

المقطع [١٢] من سورة الزخرف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ وَزُخْرُفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٣٣ـ٣٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ١٠٠»:

١. ﴿وَلَوْلا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً﴾:

أ. الآية وما يتلوها لبيان أن متاع الدنيا من مال وزينة لا قدر لها عند الله سبحانه ولا منزلة.

ب. قالوا: المراد بكون الناس أمة واحدة كونهم مجتمعين على سنة واحدة هي الكفر بالله لو رأوا أن زينة الدنيا بحذافيرها عند الكافر بالله والمؤمن صفر الكف منها مطلقا، والمعارج الدرجات والمصاعد، والمعنى: ولو لا أن يجتمع الناس على الكفر لو رأوا تنعم الكافرين وحرمان المؤمنين لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة ودرجات عليها يظهرون لغيرهم.

ج. ويمكن أن يكون المراد بكون الناس أمة واحدة كونهم جميعا على نسبة واحدة تجاه الأسباب العاملة في حظوظ العيش من غير فرق بين المؤمن والكافر، فمن سعى سعيه للرزق ووافقته الأسباب والعوامل الموصلة الأخرى نال منه مؤمنا كان أو كافرا، ومن لم يجتمع له حرم ذلك وقتر عليه الرزق مؤمنا أو كافرا، والمعنى: لولا ما أردنا أن يتساوى الناس تجاه الأسباب الموصلة إلى زخارف الدنيا ولا يختلفوا فيها بالإيمان والكفر لجعلنا لمن يكفر..

٢. ﴿وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْواباً وَسُرُراً عَلَيْها يَتَّكِؤُنَ وَزُخْرُفاً﴾ تنكير ﴿أَبْواباً﴾ و﴿سُرُراً﴾ للتفخيم، والزخرف الذهب أو مطلق الزينة، قال في المجمع: (الزخرف كمال حسن الشيء ومنه قيل للذهب، ويقال:

زخرفه زخرفة إذا حسنه وزينه، ومنه قيل للنقوش والتصاوير: زخرف، وفي الحديث: أنه ﷺ لم يدخل الكعبة، حتى أمر بالزخرف فنحي)، والباقي ظاهر.

٣. ﴿وَإِنْ كُلُّ ذلِكَ لَمَّا مَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾:

أ. ﴿إِنْ﴾ للنفي و﴿لَمَّا﴾ بمعنى إلا أي ليس كل ما ذكر من مزايا المعيشة إلا متاع الحياة الدنيا الزائلة الفانية التي لا تدوم.

ب. ﴿وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ المراد بالآخرة بقرينة المقام الحياة الآخرة السعيدة كان الحياة الآخرة الشقية لا تعد حياة.

ج. والمعنى: أن الحياة الآخرة السعيدة بحكم من الله تعالى وقضاء منه مختصة بالمتقين، وهذا التخصيص والقصر يؤيد ما قدمناه من معنى كون الناس أمة واحدة في الدنيا بعض التأييد.

٤. أحاديث وآثار: في الكافي، بإسناده عن سعيد بن المسيب قال: سألت علي بن الحسين عليه السلام عن قول الله عز وجل: ﴿وَلَوْلا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً﴾ قال: عنى بذلك أمة محمد، أن يكونوا على دين واحد كفارا كلهم ﴿لَجَعَلْنا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمنِ﴾

١٣. عاقبة الإعراض عن ذكر الله وقرين السوء:

المقطع [١٣] من سورة الزخرف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ﴾ [الزخرف: ٣٦ـ٣٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ١٠١»:

١. ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾:

أ. يقال: عشي يعشى عشا من باب علم يعلم إذا كان ببصره آفة لا يبصر مطلقا أو بالليل فقط، وعشا يعشو عشوا وعشوا من باب نصر ينصر إذا تعامى وتعشى بلا آفة، والتقييض التقدير والإتيان بشيء إلى شيء، يقال: قيضه له إذا جاء به إليه.

ب. لما انتهى الكلام إلى ذكر المتقين وأن الآخرة لهم عند الله قرنه بعاقبة أمر المعرضين عن الحق المتعامين عن ذكر الرحمن مشيرا إلى أمرهم من أوله وهو أن تعاميهم عن ذكر الله يورثهم ملازمة قرناء

الشياطين فيلازمونهم مضلين لهم حتى يردوا عذاب الآخرة معهم.

ج. فقوله: ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطاناً﴾ أي من تعامى عن ذكر الرحمن ونظر إليه نظر الأعشى جئنا إليه بشيطان، وقد عبر تعالى عنه في موضع آخر بالإرسال فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّياطِينَ عَلَى الْكافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ [مريم: ٨٣]، وإضافة الذكر إلى الرحمن للإشارة إلى أنه رحمة.

د. ﴿فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ أي مصاحب لا يفارقه.

٢. ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ﴾:

أ. ضمير (أنهم) للشياطين، وضمائر الجمع الباقية للعاشين عن الذكر، واعتبار الجمع نظرا إلى المعنى في ﴿وَمَنْ يَعْشُ﴾، والصد الصرف، والمراد بالسبيل ما يدعو إليه الذكر من سبيل الله الذي هو دين التوحيد.

ب. والمعنى: وإن الشياطين ليصرفون العاشين عن الذكر ويحسب العاشون أنهم، أي العاشين أنفسهم، مهتدون إلى الحق.

ج. وهذا أعني حسبانهم أنهم مهتدون عند انصدادهم عن سبيل الحق أمارة تقييض القرين ودخولهم تحت ولاية الشيطان فإن الإنسان بطبعه الأولي مفطور على الميل إلى الحق ومعرفته إذا عرض عليه ثم إذا عرض عليه فأعرض عنه اتباعا للهوى ودام عليه طبع الله على قلبه وأعمى بصره وقيض له القرين فلم ير الحق الذي تراءى له وطبق الحق الذي يميل إليه بالفطرة على الباطل الذي يدعوه إليه الشيطان فيحسب أنه مهتد وهو ضال ويخيل إليه أنه على الحق وهو على الباطل.

د. وهذا هو الغطاء الذي يذكر تعالى أنه مضروب عليهم في الدنيا وأنه سينكشف عنهم يوم القيامة، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ كانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطاءٍ عَنْ ذِكْرِي﴾ إلى أن قال: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمالاً الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً﴾ [الكهف: ١٠٤]، وقال فيما يخاطبه يوم القيامة ومعه قرينه: ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هذا فَكَشَفْنا عَنْكَ غِطاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾، إلى أن قال، ﴿قالَ قَرِينُهُ رَبَّنا ما أَطْغَيْتُهُ وَلكِنْ كانَ فِي ضَلالٍ بَعِيدٍ﴾ [ق: ٢٧]

٣. ﴿حَتَّى إِذا جاءَنا قالَ يا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ﴾:

أ. ﴿حَتَّى﴾ غاية لاستمرار الفعل الذي يدل عليه قوله في الآية السابقة: ﴿لَيَصُدُّونَهُمْ﴾ وقوله:

﴿يَحْسَبُونَ﴾ أي لا يزال القرناء يصدونهم ولا يزالون يحسبون أنهم مهتدون حتى إذا جاءنا الواحد منهم.

ب. والمراد بالمجيء إليه تعالى البعث، وضمير (جاء) و(قال) راجع إلى الموصول باعتبار لفظه، والمراد بالمشرقين المشرق والمغرب غلب فيه جانب المشرق.

ج. والمعنى: وأنهم يستمرون على صدهم عن السبيل ويستمر العاشون عن الذكر على حسبان أنهم مهتدون في انصدادهم حتى إذا حضر الواحد منهم عندنا ومعه قرينه وكشف له عن ضلاله وما يستتبعه من العذاب الأليم، قال مخاطبا لقرينه متأذيا من صحابته: يا ليت بيني وبينك بعد المشرق والمغرب فبئس القرين أنت.

د. ويستفاد من السياق أنهم معذبون بصحابة القرناء وراء عذابهم بالنار، ولذا يتمنون التباعد عنهم ويخصونه بالذكر وينسون سائر العذاب.

١٤. اشتراكهم في العذاب لا ينفعهم يوم الظلم:

المقطع [١٤] من سورة الزخرف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ [الزخرف: ٣٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ١٠٣»:

١. ﴿وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾:

أ. الظاهر أنه معطوف على ما قبله من وصف حالهم، والمراد باليوم يوم القيامة، وقوله: ﴿أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ فاعل ﴿لَنْ يَنْفَعَكُمُ﴾ والمراد بضمير جمع المخاطب العاشون عن الذكر وقرناؤهم، و﴿إِذْ ظَلَمْتُمْ﴾ واقع موقع التعليل.

ب. والمراد، والله أعلم، أنكم إذا أساء بعضكم إلى بعض في الدنيا فأوقعه في مصيبة ربما تسليتم بعض التسلي لو ابتلي هو نفسه بمثل ما ابتلاكم به فينفعكم ذلك تسليا وتشفيا لكن لا ينفعكم يوم القيامة اشتراك قرنائكم معكم في العذاب فإن اشتراكهم معكم في العذاب وكونهم معكم في النار هو بعينه عذاب لكم.

٢. وذكر:

أ. بعض المفسرين أن فاعل ﴿لَنْ يَنْفَعَكُمُ﴾ ضمير راجع إلى تمنيهم المذكور في الآية السابقة، وقوله: ﴿إِذْ ظَلَمْتُمْ﴾ أي لأجل ظلمكم أنفسكم في الدنيا باتباعكم إياهم في الكفر والمعاصي، وقوله: ﴿أَنَّكُمْ فِي

الْعَذابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ تعليل لنفي النفع والمعنى: ولن ينفعكم تمني التباعد عنكم لأن حقكم أن تشتركوا أنتم وقرناؤكم في العذاب.

• وفيه أن فيه تدافعا فإنه أخذ قوله: ﴿إِذْ ظَلَمْتُمْ﴾ تعليلا لنفي نفع التمني أولا، ﴿أَنَّكُمْ فِي الْعَذابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ تعليلا له ثانيا ولازم التطابق بين التعليلين أن يذكر ثانيا القضاء على المتمنين التابعين بالعذاب لا باشتراك التابعين والمتبوعين فيه.

ب. وقال بعضهم: معنى الآية أنه لا يخفف الاشتراك عنكم شيئا من العذاب لأن لكل واحد منكم ومن قرنائكم الحظ الأوفر من العذاب.

• وفيه أن ما ذكر من سبب عدم النفع وإن فرض صحيحا في نفسه لكن لا دلالة عليه من جهة لفظ الآية ولا سياق الكلام.

ج. وقال بعضهم: المعنى: لا ينفعكم اشتراككم في العذاب كما ينفع الواقعين في شدائد الدنيا اشتراكهم فيها لتعاونهم في تحمل أعبائها وتقسمهم لعنائها لأن لكل منكم ومن قرنائكم من العذاب ما لا تبلغه طاقته.

• وفيه ما في سابقه من الكلام، ورد أيضا بأن الانتفاع بذلك الوجه ليس مما يخطر ببالهم حتى يرد عليهم بنفيه.

١٥. لا يستطيع النبي هداية الضالين والانتقام لله:

المقطع [١٥] من سورة الزخرف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ﴾ [الزخرف: ٤٠-٤٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ١٠٤»:

١. ﴿أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَنْ كانَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ لما ذكر تقييضه القرناء لهم وتقليبهم إدراكهم بحيث يرون الضلال هدى ولا يقدرون على معرفة الحق فرع عليه أن نبه ﷺ أن هؤلاء صم عمي لا يقدر هو على أسماعهم كلمة الحق وهدايتهم إلى سبيل الرشد فلا يتجشم ولا يتكلف في دعوتهم ولا يحزن لإعراضهم، والاستفهام للإنكار، والباقي ظاهر.

٢. ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْناهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ﴾:

أ. المراد بالإذهاب به توفيه ﷺ قبل الانتقام منهم، وقيل: المراد إذهابه بإخراجه من بينهم، وقوله: ﴿فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ﴾ أي لا محالة، والمراد بإراءته ما وعدهم الانتقام منهم قبل توفيه ﷺ أو حال كونه بينهم، وقوله: (فإنا عليهم مقتدرون) أي اقتدارنا يفوق عليهم.

ب. وقوله في الصدر: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ﴾ أصله أن نذهب بك زيدت عليه ما والنون للتأكيد، ومحصل الآية إنا منتقمون منهم بعد توفيك أو قبلها لا محالة.

٣. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي، بإسناده عن يحيى بن سعيد عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ﴾ يا محمد من مكة إلى المدينة، فإما رادوك إليها ومنتقمون منهم بعلي بن أبي طالب عليه السلام.

ب. أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه عن قتادة في قوله: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ﴾ قال: قال أنس: ذهب رسول الله ﷺ وبقيت النقمة، ولم ير الله نبيه في أمته شيئا يكرهه حتى قبض، ولم يكن نبي قط إلا وقد رأى العقوبة في أمته، إلا نبيكم رأى ما يصيب أمته بعده، فما رئي ضاحكا منبسطا حتى قبض.

• أقول: وروي فيه هذا المعنى عنه وعن علي بن أبي طالب وعن غيرهما بطرق أخرى.

ج. أخرج ابن مردويه من طريق محمد بن مروان عن الكلبي عن أبي صالح عن جابر بن عبد الله عن النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ﴾ نزلت في علي بن أبي طالب أنه ينتقم من الناكثين، والقاسطين بعدي.

• أقول: ظاهر الرواية وما قبلها وما في معناها أن الوعيد في الآيتين للمنحرفين عن الحق من أهل القبلة دون كفار قريش.

١٦. التمسك بالوحي والصراط المستقيم:

المقطع [١٦] من سورة الزخرف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ [الزخرف: ٤٣-٤٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ١٠٤»:

١. ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ الظاهر أنه تفريع لجميع ما تقدم

من أن إنزال الذكر من طريق الوحي والنبوة من سننه تعالى وأن كتابه النازل عليه حق وهو رسول مبين لا يستجيب دعوته إلا المتقون ولا يعرض عنها إلا قرناء الشياطين، ولا مطمع في إيمانهم وسينتقم الله منهم، فأكد عليه الأمر بعد ذلك كله أن يجد في التمسك بالكتاب الذي أوحي إليه لأنه على صراط مستقيم.

٢. ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾:

أ. الظاهر أن المراد بالذكر ذكر الله، وبهذا المعنى تكرر مرارا في السورة، واللام في ﴿لَكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ للاختصاص بمعنى توجه ما فيه من التكاليف إليهم، ويؤيده بعض التأييد قوله: ﴿وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ أي عنه يوم القيامة.

ب. وعن أكثر المفسرين أن المراد بالذكر الشرف الذي يذكر به، والمعنى: وإنه لشرف عظيم لك ولقومك من العرب تذكرون به بين الأمم.

١٧. سؤال الرسل عن التوحيد وإبطال الشرك:

المقطع [١٧] من سورة الزخرف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ١٠٥»:

١. ﴿وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنا أَجَعَلْنا مِنْ دُونِ الرَّحْمنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾:

أ. قيل: المراد بالسؤال منهم السؤال من أممهم وعلماء دينهم كقوله تعالى: ﴿فَسْئَلِ الَّذِينَ يَقْرَؤُنَ الْكِتابَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ [يونس: ٩٤]، وفائدة هذا المجاز أن المسئول عنه السؤال منهم عين ما جاءت به رسلهم لا ما يجيبونه من تلقاء أنفسهم.

ب. وقيل: المراد السؤال من أهل الكتابين: التوراة والإنجيل فإنهم وإن كفروا لكن الحجة تقوم بتواتر خبرهم، والخطاب للنبي ﷺ والتكليف لأمته.

- وبعد الوجهين غير خفي ويزيد الثاني بعدا التخصيص بأهل الكتابين من غير مخصص ظاهر.

ج. وقيل: الآية مما خوطب به النبي ﷺ ليلة المعراج أن يسأل أرواح الأنبياء عليهم السلام وقد اجتمع بهم أن يسألهم هل جاءوا بدين وراء دين التوحيد، وقد وردت به غير واحدة من الروايات عن أئمة أهل البيت ﷺ وسيوافيك في البحث الروائي الآتي إن شاء الله.

٢. أحاديث وآثار: في الإحتجاج، عن أمير المؤمنين عليه السلام في حديث طويل يقول فيه: وأما

قوله تعالى: ﴿وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنا﴾ فهذا من براهين نبينا ﷺ التي آتاه الله إياها، وأوجب به الحجة على سائر خلقه، لأنه لما ختم به الأنبياء وجعله الله رسولا، إلى جميع الأمم وسائر الملل، خصه بالارتقاء إلى السماء عند المعراج، وجمع له يومئذ الأنبياء فعلم منهم ما أرسلوا به، وحملوه من عزائم الله وآياته وبراهينه، الحديث.

• أقول: وروى هذا المعنى القمي في تفسيره، بإسناده عن أبي الربيع عن أبي جعفر عليه السلام في جواب ما سأله نافع بن الأزرق، ورواه في الدر المنثور، بطرق عن سعيد بن جبير وابن جريح وابن زيد.

١٨. موسى يدعو فرعون وآله إلى الله فيكذبونه:

المقطع [١٨] من سورة الزخرف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ وَقَالُوا يَا أَيُّهَ السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ﴾ [الزخرف: ٤٦-٥٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ١٠٩»:

١. ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنا مُوسى بِآياتِنا إِلى فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِ فَقالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعالَمِينَ﴾ اللام في ﴿لَقَدْ﴾ للقسم، والباء في قوله: ﴿بِآياتِنا﴾ للمصاحبة، والباقي ظاهر.

٢. ﴿فَلَمَّا جاءَهُمْ بِآياتِنا إِذا هُمْ مِنْها يَضْحَكُونَ﴾ المراد بمجيئهم بالآيات إظهار المعجزات للدلالة على الرسالة، والمراد بالضحك ضحك الاستهزاء استخفافا بالآيات.

٣. ﴿وَما نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِها﴾، الأخت المثل، وقوله: ﴿هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِها﴾ كناية عن كون كل واحدة منها بالغة في الدلالة على حقية الرسالة، وجملة ﴿وَما نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ﴾، حال من ضمير ﴿مِنْها﴾، والمعنى: فلما أتاهم بالمعجزات إذا هم منها يضحكون والحال أن كلا منها تامة كاملة في إعجازها ودلالتها من غير نقص ولا قصور.

٤. ﴿وَأَخَذْناهُمْ بِالْعَذابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي رجاء أن يرجعوا عن استكبارهم إلى قبول رسالته، والمراد بالعذاب الذي أخذوا به آيات الرجز التي نزلت عليهم من السنين ونقص من الثمرات والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات كما في سورة الأعراف.

٥. ﴿وَقالُوا يا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنا رَبَّكَ بِما عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّنا لَمُهْتَدُونَ﴾:

أ. ما في ﴿بِما عَهِدَ عِنْدَكَ﴾ مصدرية أي بعهده عندك والمراد به عهده أن يكشف عنهم العذاب لو آمنوا كما قيل أو أن يستجيب دعاءه إذا دعا كما احتمله بعضهم.

ب. وقولهم: ﴿يا أَيُّهَا السَّاحِرُ﴾ خطاب استهزاء استكبارا منهم كما قالوا: ادع ربك ولم يقولوا: ادع ربنا أو ادع الله استكبارا، والمراد أنهم طلبوا منه الدعاء لكشف العذاب عنهم ووعدوه الاهتداء.

ج. وقيل: معنى الساحر في عرفهم العالم وكان الساحر عندهم عظيما يعظمونه ولم يكن صفة ذم، وليس بذاك بل كانوا ساخرين على استكبارهم كما يشهد به قولهم: ﴿ادْعُ لَنا رَبَّكَ﴾

٦. ﴿فَلَمَّا كَشَفْنا عَنْهُمُ الْعَذابَ إِذا هُمْ يَنْكُثُونَ﴾ النكث نقض العهد وخلف الوعد، ووعدهم هو قولهم: ﴿إِنَّنا لَمُهْتَدُونَ﴾

١٩. فرعون يفتخر بملكه ويستخف قومه فيطيعونه:

المقطع [١٩] من سورة الزخرف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ [الزخرف: ٥١-٥٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ١١٠»:

١. ﴿وَنادى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قالَ يا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهذِهِ الْأَنْهارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلا تُبْصِرُونَ﴾ أي ناداهم وهو بينهم، وفصل ﴿قالَ﴾ لكونه في موضع جواب السؤال كأنه قيل: فما ذا قال؟ فقيل: قال كذا.

٢. ﴿وَهذِهِ الْأَنْهارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي﴾ أي من تحت قصري أو من بستاني الذي فيه قصري المرتفع العالي البناء، والجملة أعني قوله: ﴿وَهذِهِ الْأَنْهارُ﴾، حالية أو ﴿وَهذِهِ الْأَنْهارُ﴾ معطوف على ﴿مُلْكُ مِصْرَ﴾، وقوله: ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِي﴾ حال من الأنهار، والأنهار أنهار النيل.

٣. ﴿أَفَلا تُبْصِرُونَ﴾ في معنى تكرير الاستفهام السابق في قوله: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ﴾

٤. ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلا يَكادُ يُبِينُ﴾ المهين الحقير الضعيف من المهانة بمعنى الحقارة، ويريد بالمهين موسى عليه السلام لما به من الفقر ورثاثة الحال.

٥. ﴿وَلا يَكادُ يُبِينُ﴾ أي يفصح عن مراده ولعله كان يصف موسى عليه السلام به باعتبار ما كان عليه قبل الرسالة لكن الله رفع عنه ذلك لقوله: ﴿قالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يا مُوسى﴾ [طه: ٣٦] بعد قوله عليه السلام: ﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾ [طه: ٢٨]

٦. وقوله في صدر الآية: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ﴾، أم فيه إما منقطعة لتقرير كلامه السابق والمعنى: بل أنا خير من موسى لأنه كذا وكذا، وإما متصلة، وأحد طرفي الترديد محذوف مع همزة الاستفهام، والتقدير: أهذا خير أم أنا خير، وفي المجمع: (قال سيبويه والخليل: عطف أنا بأم على ﴿أَفَلا تُبْصِرُونَ﴾ لأن معنى ﴿أَنَا خَيْرٌ﴾ معنى أم تبصرون فكأنه قال: أفلا تبصرون أم تبصرون لأنهم إذا قالوا له: أنت خير منه فقد صاروا بصراء عنده)، أي إن وضع ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ﴾ موضع أم تبصرون من وضع المسبب موضع السبب أو بالعكس، وكيف كان فالإشارة إلى موسى بهذا من دون أن يذكر باسمه للتحقير وتوصيفه بقوله: ﴿الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلا يَكادُ يُبِينُ﴾ للتحقير وللدلالة على عدم خيريته.

٧. ﴿فَلَوْلا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جاءَ مَعَهُ الْمَلائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾:

أ. الأسورة جمع سوار بالكسر، وقال الراغب: (هو معرب دستواره قالوا: كان من دأبهم أنهم إذا سودوا رجلا سوروه بسوار من ذهب وطوقوه بطوق من ذهب فالمعنى لو كان رسولا وساد الناس بذلك لألقي إليه أسورة من ذهب.

ب. ﴿أَوْ جاءَ مَعَهُ الْمَلائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ الظاهر أن الاقتران بمعنى التقارن كالاستباق والاستواء بمعنى التسابق والتساوي، والمراد إتيان الملائكة معه متقارنين لتصديق رسالته، وهذه الكلمة مما تكررت على لسان مكذبي الرسل كقولهم: ﴿لَوْلا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً﴾ [الفرقان: ٧]

٨. ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطاعُوهُ إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً فاسِقِينَ﴾ أي استخف عقول قومه وأحلامهم، والباقي ظاهر.

٢٠. إغراق فرعون وجنوده وجعلهم عبرة للآخرين:

المقطع [٢٠] من سورة الزخرف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْناهُمْ أَجْمَعِينَ فَجَعَلْناهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ﴾ [الزخرف: ٥٥ـ٥٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ١١١»:

١. ﴿فَلَمَّا آسَفُونا انْتَقَمْنا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْناهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ الإيساف الإغضاب أي فلما أغضبونا بفسوقهم انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين، والغضب منه تعالى إرادة العقوبة.

٢. ﴿فَجَعَلْناهُمْ سَلَفاً وَمَثَلاً لِلْآخِرِينَ﴾ السلف المتقدم والظاهر أن المراد بكونهم سلفا للآخرين تقدمهم عليهم في دخول النار، والمثل الكلام السائر الذي يتمثل به ويعتبر به، والظاهر أن كونهم مثلا لهم كونهم مما يعتبر به الآخرون لو اعتبروا واتعظوا.

٣. أحاديث وآثار: في التوحيد، بإسناده إلى أحمد بن أبي عبد الله رفعه إلى أبي عبد الله عليه السلام: في قول الله عز وجل ﴿فَلَمَّا آسَفُونا انْتَقَمْنا مِنْهُمْ﴾ قال: إن الله لا يأسف كأسفنا، ولكنه خلق أولياء لنفسه يأسفون ويرضون، وهم مخلوقون مدبرون، فجعل رضاهم لنفسه رضى وسخطهم لنفسه سخطا، وذلك لأنه جعلهم الدعاة إليه والأدلاء عليه، فلذلك صاروا كذلك، وليس أن ذلك يصل إلى الله كما يصل إلى خلقه، ولكن هذا معنى ما قال من ذلك، وقد قال أيضا من أهان لي وليا، فقد بارزني بالمحاربة ودعاني إليها، وقال أيضا: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطاعَ اللهَ﴾، وقال أيضا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبايِعُونَكَ إِنَّما يُبايِعُونَ اللهَ﴾ وكل هذا وشبهه على ما ذكرت لك، وهكذا الرضا والغضب وغيرهما من الأشياء مما يشاكل ذلك، ولو كان يصل إلى المكون الأسف والضجر، وهو الذي أحدثهما وأنشأهما، لجاز لقائل أن يقول: إن المكون يبيد يوما، لأنه إذا دخله الضجر والغضب دخله التغيير، فإذا دخله التغيير لم يؤمن عليه الإبادة، ولو كان ذلك كذلك لم يعرف المكون من المكون، ولا القادر من المقدور ولا الخالق من المخلوقين، تعالى الله عن هذا القول علوا كبيرا، هو الخالق للأشياء لا لحاجة، فإذا كان لا لحاجة استحال الحد والكيف فيه، فافهم ذلك إن شاء الله.

• أقول: وروي مثله في الكافي، بإسناده عن محمد بن إسماعيل بن بزيع عن عمه حمزة بن بزيع عنه عليه السلام.

٢١. عيسى عبد الله ومثل لبني إسرائيل لا إله:

المقطع [٢١] من سورة الزخرف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ﴾ [الزخرف:

٥٧ـ٦٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ١١٣»:

١. ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إذا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾:

أ. الآية إلى تمام أربع آيات أو ست آيات حول جدال القوم فيما ضرب من مثل ابن مريم، والذي يتحصل بالتدبر فيها نظرا إلى كون السورة مكية ومع قطع النظر عن الروايات هو أن المراد بقوله: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً﴾ هو ما أنزله الله من وصفه في أول سورة مريم فإنها السورة المكية الوحيدة التي وردت فيها قصة عيسى بن مريم عليه السلام تفصيلا، والسورة تقص قصص عدة من النبيين بما أن الله أنعم عليهم كما تختتم قصصهم بقوله: ﴿أُولئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ﴾ [مريم: ٥٨]، وقد وقع في هذه الآيات قوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنا عَلَيْهِ﴾ وهو من الشواهد على كون قوله: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً﴾ إشارة إلى ما في سورة مريم.

ب. والمراد بقوله: ﴿إذا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ بكسر الصاد أي يضجون ويضحكون ذم لقريش في مقابلتهم المثل الحق بالتهكم والسخرية، وقرئ ﴿يَصِدُّونَ﴾ بضم الصاد أي يعرضون وهو أنسب للجملة التالية.

٢. ﴿وَقالُوا أَآلِهَتُنا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾ الاستفهام للإنكار أي آلهتنا خير من ابن مريم كأنهم لما سمعوا اسمه بما يصفه القرآن به من النعمة والكرامة أعرضوا عنه بما يصفه به القرآن وأخذوه بما له من الصفة عند النصارى أنه إله ابن إله فردوا على النبي ﷺ بأن آلهتنا خير منه وهذا من أسخف الجدال كأنهم يشيرون بذلك إلى أن الذي في القرآن من وصفه لا يعتنى به وما عند النصارى لا ينفع فإن آلهتهم خير منه.

٣. ﴿ما ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلاً﴾ أي ما وجهوا هذا الكلام: ﴿أَآلِهَتُنا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾ إليك إلا جدلا يريدون به إبطال المثل المذكور وإن كان حقا ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ أي ثابتون على خصومتهم مصرون عليها.

٤. ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنا عَلَيْهِ﴾:

أ. رد لما يستفاد من قولهم: ﴿أَآلِهَتُنا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾ أنه إله النصارى كما سيجيء.

ب. وقال الزمخشري في الكشاف، وكثير من المفسرين ونسب إلى ابن عباس وغيره في تفسير الآية: أن النبي ﷺ لما قرأ قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ على قريش امتعضوا من

ذلك امتعاضا شديدا، فقال ابن الزبعري: يا محمد، أخاصة لنا ولآلهتنا، أم لجميع الأمم؟ فقال عليه السلام: هو لكم ولآلهتكم ولجميع الأمم، فقال: خصمتك ورب الكعبة، ألست تزعم أن عيسى بن مريم نبي وتثني عليه خيرا وعلى أمه؟ وقد علمت أن النصارى يعبدونهما، وعزير يعبد والملائكة يعبدون فإن كان هؤلاء في النار، فقد رضينا أن نكون نحن وآلهتنا معهم، ففرحوا وضحكوا وسكت النبي ﷺ، فأنزل الله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنى أُولئِكَ عَنْها مُبْعَدُونَ﴾ ونزلت هذه الآية، والمعنى: ولما ضرب ابن الزبعري عيسى بن مريم مثلا وجادل رسول الله ﷺ بعبادة النصارى إياه إذا قومك يعني قريشا من هذا المثل يضجون فرحا وضحكا بما سمعوا منه من إسكات رسول ﷺ، وقالوا: ء آلهتنا خير أم هو أي إن عيسى عندك خير من آلهتنا وإذا كان هو حصب جهنم فأمر آلهتنا هين، ما ضربوا هذا المثل لك إلا جدلا وغلبة في القول لا لميز الحق من الباطل.

• وفيه أنه تقدم في تفسير قوله: ﴿إِنَّكُمْ وَما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨]، أن هذه الرواية بما فيها من وجوه الوهن والخلل ضعيفة لا يعبأ بها حتى نقل عن الحافظ ابن حجر أن الحديث لا أصل له ولم يوجد في شيء من كتب الحديث لا مسندا ولا غير مسند، وقصة ابن الزبعري هذه وإن رويت من طرق الشيعة على وجه سليم عن المناقشة لكن لم يذكر فيها نزول قوله: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ الآية هناك.

• على أن ظاهر قوله: ﴿ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً﴾ وقوله: ﴿أَآلِهَتُنا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾ لا يلائم ما فسرته تلك الملاءمة.

ج. وقيل: إنهم لما سمعوا قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ قالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩]، قالوا: نحن أهدى من النصارى لأنهم يعبدون آدميا ونحن نعبد الملائكة، يريدون أرباب الأصنام، فآلهتنا خير من إلههم فالذي ضرب المثل بابن مريم هو الله سبحانه، وقولهم: ﴿أَآلِهَتُنا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾ لتفضيل آلهتهم على عيسى لا بالعكس كما في الوجه السابق.

• وفيه أن قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ﴾ مدنية، وهذه الآيات أعني قوله: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ﴾، آيات مكية من سورة مكية.

• على أن الأساس في قولهم، على هذا الوجه، تفضيلهم أنفسهم على النصارى فلا يرتبط على هذا

قوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنا عَلَيْهِ﴾، بما تقدمه.

د. وقيل: إنهم لما سمعوا قوله: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ﴾ ضجوا وقالوا: ما يريد محمد بهذا إلا أن نعبده كما يعبد النصارى المسيح، وآلهتنا خير منه أي من محمد، وفيه ما في سابقه.

هـ. وقيل: مرادهم بقولهم: ﴿أَآلِهَتُنا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾ التنصل والتخلص عما أنكر عليهم من قولهم: الملائكة بنات الله، ومن عبادتهم لهم كأنهم قالوا: ما كان ذلك منا بدعا فإن النصارى يعبدون المسيح وينسبونه إلى الله وهو بشر ونحن نعبد الملائكة وننسبهم إلى الله وهم أفضل من البشر.

• وفيه أنه لا يفي بتوجيه قوله: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ على أن قوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنا عَلَيْهِ﴾ على هذا الوجه لا يرتبط بما قبله كما في الوجهين السابقين.

و. وقيل: معنى قولهم: ﴿أَآلِهَتُنا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾ أن مثلنا في عبادة الآلهة مثل النصارى في عبادة المسيح فأيهما خير؟ عبادة آلهتنا أم عبادة المسيح؟ فإن قال: عبادة المسيح خير فقد اعترف بعبادة غير الله، وإن قال: عبادة الآلهة فكذلك، وإن قال: ليس في عبادة المسيح خير فقد قصر به عن منزلته وجوابه أن اختصاص المسيح بضرب من التشريف والإنعام من الله تعالى لا يوجب جواز عبادته.

• وفيه أنه في نفسه لا بأس به لكن الشأن في دلالة قوله تعالى: ﴿أَآلِهَتُنا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾ على هذا التفصيل.

ز. وقال في المجمع: (في الوجوه التي أوردها في معنى الآية: ورابعها ما رواه سادة أهل البيت عن علي عليه السلام أنه قال: جئت إلى رسول الله ﷺ يوما، فوجدته في ملإ من قريش فنظر إلي ثم قال: يا علي، إنما مثلك في هذه الأمة مثل عيسى بن مريم، أحبه قوم فأفرطوا في حبه فهلكوا، وأبغضه قوم فأفرطوا في بغضه فهلكوا، واقتصد فيه قوم فنجوا، فعظم ذلك عليهم فضحكوا وقالوا: يشبهه بالأنبياء والرسل، فنزلت الآية.

• أقول: والرواية غير متعرضة لتوجيه قولهم: ﴿أَآلِهَتُنا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾ ولئن كانت القصة سببا للنزول فمعنى الجملة: لئن نتبع آلهتنا ونطيع كبراءنا خير من أن نتولى عليا فيتحكم علينا أو خير من أن نتبع محمدا فيحكم علينا ابن عمه.

• ويمكن أن يكون قوله: ﴿وَقالُوا أَآلِهَتُنا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾، استئنافا والنازل في القصة هو قوله: ﴿وَلَمَّا

ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً﴾ الآية.

٥. ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنا عَلَيْهِ وَجَعَلْناهُ مَثَلاً لِبَنِي إِسْرائِيلَ﴾:

أ. الذي يستدعيه السياق أن يكون الضمير لابن مريم، والمراد بكونه مثلا، على ما قيل، كونه آية عجيبة إلهية يسير ذكره كالأمثال السائرة.

ب. والمعنى: ليس ابن مريم إلا عبدا متظاهرا بالعبودية أنعمنا عليه بالنبوة وتأييده بروح القدس وإجراء المعجزات الباهرة على يديه وغير ذلك وجعلناه آية عجيبة خارقة نصف به الحق لبني إسرائيل.

ج. وهذا المعنى كما ترى رد لقولهم: ﴿أَآلِهَتُنا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾ الظاهر في تفضيلهم آلهتهم في ألوهيتها على المسيح عليه السلام في ألوهيته ومحصله أن المسيح لم يكن إلها حتى ينظر في منزلته في ألوهيته وإنما كان عبدا أنعم الله عليه بما أنعم، وأما آلهتهم فنظر القرآن فيهم ظاهر.

٦. ﴿وَلَوْ نَشاءُ لَجَعَلْنا مِنْكُمْ مَلائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ﴾:

أ. الظاهر أن الآية متصلة بما قبلها مسرودة لرفع استبعاد أن يتلبس البشر من الكمال ما يقصه القرآن عن عيسى عليه السلام فيخلق الطير ويحيي الموتى ويكلم الناس في المهد إلى غير ذلك، فيكون كالملائكة المتوسطين في الإحياء والإماتة والرزق وسائر أنواع التدبير ويكون مع ذلك عبدا غير معبود ومألوها غير إله فإن هذا النوع من الكمال عند الوثنية مختص بالملائكة وهو ملاك ألوهيتهم ومعبوديتهم وبالجملة هم يحيلون تلبس البشر بهذا النوع من الكمال الذي يخصونه بالملائكة.

ب. فأجيب بأن الله أن يزكي الإنسان ويطهره من أدناس المعاصي بحيث يصير باطنه باطن الملائكة فظاهره ظاهر البشر وباطنه باطن الملك يعيش في الأرض يخلف مثله ويخلفه مثله ويظهر منه ما يظهر من الملائكة، وعلى هذا فمن في قوله: ﴿مِنْكُمْ﴾ للتبعيض، وقوله: ﴿يَخْلُفُونَ﴾ أي يخلف بعضهم بعضا.

ج. وفي المجمع: (أن (من) في قوله: ﴿مِنْكُمْ﴾ تفيد معنى البدلية كما في قوله:

فليت لنا من ماء زمزم شربة... مبردة باتت على الطهيان

وقوله: (يخلفون) أي يخلفون بني آدم ويكونون خلفاء لهم، والمعنى: ولو نشاء أهلكناكم وجعلنا بدلكم ملائكة يسكنون الأرض ويعمرونها ويعبدون الله.

• وفيه أنه لا يلائم النظم تلك الملاءمة.

٢٢. عيسى علامة على الساعة:

المقطع [٢٢] من سورة الزخرف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [الزخرف: ٦١-٦٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ١١٨»:

١. ﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ فَلا تَمْتَرُنَّ بِها وَاتَّبِعُونِ هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾:

أ. ضمير ﴿إِنَّهُ﴾ لعيسى عليه السلام والمراد بالعلم ما يعلم به، والمعنى: وإن عيسى يعلم به الساعة في خلقه من غير أب وإحيائه الموتى فيعلم به أن الساعة ممكنة فلا تشكوا في الساعة ولا ترتابوا فيها البتة.

ب. وقيل: المراد بكونه علما للساعة كونه من أشراطها ينزل على الأرض فيعلم به قرب الساعة.

ج. وقيل: الضمير للقرآن وكونه علما للساعة كونه آخر الكتب المنزلة من السماء.

• وفي الوجهين جميعا خفاء التفريع الذي في قوله: ﴿فَلا تَمْتَرُنَّ بِها﴾

٢. ﴿وَاتَّبِعُونِ هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ قيل: هو من كلامه تعالى، والمعنى: اتبعوا هداي أو شرعي أو رسولي، وقيل: من كلام الرسول بأمر منه تعالى.

٣. ﴿وَلا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ الصد الصرف، والباقي ظاهر.

٢٣. عيسى يدعو إلى الحكمة والتقوى:

المقطع [٢٣] من سورة الزخرف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ إِنَّ اللهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ [الزخرف: ٦٣-٦٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ١١٨»:

١. ﴿وَلَمَّا جاءَ عِيسى بِالْبَيِّناتِ قالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ﴾، المراد بالبينات الآيات البينات من المعجزات، وبالحكمة المعارف الإلهية من العقائد الحقة والأخلاق الفاضلة.

٢. ﴿وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾:

أ. أي في حكمه من الحوادث والأفعال، والذي يختلفون فيه وإن كان أعم من الاعتقادات التي يختلف في كونها حقة أو باطلة والحوادث والأفعال التي يختلف في مشروع حكمها لكن المناسب لسبق

قوله: ﴿قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ﴾ أن يختص ما اختلفوا فيه بالحوادث والأفعال والله أعلم.

ب. وقيل: المراد بقوله: ﴿بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ كل الذي تختلفون فيه، وهو كما ترى.

ج. وقيل: المراد لأبين لكم أمور دينكم دون أمور دنياكم ولا دليل عليه من لفظ الآية ولا من المقام.

٣. ﴿فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ﴾ نسب التقوى إلى الله والطاعة إلى نفسه ليسجل أنه لا يدعي إلا الرسالة.

٤. ﴿إِنَّ اللهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ دعوة منه إلى عبادة الله وحده وأنه هو ربه وربهم جميعا وإتمام للحجة على من يقول بألوهيته.

٥. ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ ضمير ﴿مِنْ بَيْنِهِمْ﴾ لمن بعث إليهم عيسى عليه السلام والمعنى: فاختلف الأحزاب المتشعبة من بين أمته في أمر عيسى من كافر به قال فيه، ومن مؤمن به غال فيه، ومن مقتصد لزم الاعتدال.

٦. ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ تهديد ووعيد للقالي منهم والغالي.

٢٤. الأخلّاء يوم القيامة أعداء إلا المتقين:

المقطع [٢٤] من سورة الزخرف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٦-٦٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ١٢٠»:

١. ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾:

أ. النظر الانتظار، والبغتة الفجأة، والمراد بعدم شعورهم بها غفلتهم عنها لاشتغالهم بأمور الدنيا كما قال تعالى: ﴿ما يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً واحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ [يس: ٤٩]، فلا يتكرر المعنى في قوله: ﴿بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾

ب. والمعنى: ما ينتظر هؤلاء الكفار بكفرهم وتكذيبهم لآيات الله إلا أن تأتيهم الساعة مباغتة لهم وهم غافلون عنها مشتغلون بأمور دنياهم أي إن حالهم حال من هدده الهلاك فلم يتوسل بشيء من أسباب النجاة وقعد ينتظر الهلاك ففي الكلام كناية عن عدم اعتنائهم بالإيمان بالحق ليتخلصوا به عن أليم

العذاب.

٢. ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾:

أ. الأخلاء جمع خليل وهو الصديق حيث يرفع خلة صديقه وحاجته، والظاهر أن المراد بالأخلاء المطلق الشامل للمخالة والتحاب في الله كما في مخالة المتقين أهل الآخرة والمخالة في غيره كما في مخالة أهل الدنيا فاستثناء المتقين متصل.

ب. والوجه في عداوة الأخلاء غير المتقين أن من لوازم المخالة إعانة أحد الخليلين الآخر في مهام أموره فإذا كانت لغير وجه الله كان فيها الإعانة على الشقوة الدائمة والعذاب الخالد كما قال تعالى حاكيا عن الظالمين يوم القيامة: ﴿يا وَيْلَتى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاناً خَلِيلاً لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جاءَنِي﴾ [الفرقان: ٢٩]، وأما الأخلاء من المتقين فإن مخالتهم تتأكد وتنفعهم يومئذ.

ج. وفي الخبر النبوي: إذا كان يوم القيامة انقطعت الأرحام وقلت الأنساب، وذهبت الأخوة إلا الأخوة في الله، وذلك قوله: ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾

٢٥. دخول المؤمنين الجنة ونعيمها الخالد:

المقطع [٢٥] من سورة الزخرف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [الزخرف: ٦٨-٧٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ١٢١»:

١. ﴿يا عِبادِ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ من خطابه تعالى لهم يوم القيامة كما يشهد به قوله بعد: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾، وفي الخطاب تأمين لهم من كل مكروه محتمل أو مقطوع به فإن مورد الخوف المكروه المحتمل ومورد الحزن المكروه المقطوع به فإذا ارتفعا ارتفعا.

٢. ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِآياتِنا وَكانُوا مُسْلِمِينَ﴾ الموصول بدل من المنادي المضاف في ﴿يا عِبادِ﴾ أو صفة له، والآيات كل ما يدل عليه تعالى من نبي وكتاب وأي آية أخرى دالة، والمراد بالإسلام التسليم لإرادة الله وأمره.

٣. ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْواجُكُمْ تُحْبَرُونَ﴾:

أ. ظاهر الأمر بدخول الجنة أن المراد بالأزواج هي النساء المؤمنات في الدنيا دون الحور العين لأنهن في الجنة غير خارجات منها.

ب. والحبور، على ما قيل، السرور الذي يظهر أثره وحباره في الوجه والحبرة الزينة وحسن الهيئة، والمعنى: ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم المؤمنات والحال أنكم تسرون سرورا يظهر أثره في وجوهكم أو تزينون بأحسن زينة.

٤. ﴿يُطافُ عَلَيْهِمْ بِصِحافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوابٍ﴾:

أ. الصحاف جمع صحفة وهي القصعة أو أصغر منها، والأكواب جمع كوب وهو كوز لا عروة له، وفي ذكر الصحاف والأكواب إشارة إلى تنعمهم بالطعام والشراب.

ب. وفي الالتفات إلى الغيبة في قوله: ﴿يُطافُ عَلَيْهِمْ﴾ بين الخطابين ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ و﴿أَنْتُمْ فِيها خالِدُونَ﴾ تفخيم لإكرامهم وإنعامهم أن ذلك بحيث ينبغي أن يذكر لغيرهم ليزيد به اغتباطهم ويظهر به صدق ما وعدوا به.

٥. ﴿وَفِيها ما تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ﴾:

أ. الظاهر أن المراد بما تشتهيه الأنفس ما تتعلق به الشهوة الطبيعية من مذوق ومشموم ومسموع وملموس مما يتشارك فيه الإنسان وعامة الحيوان، والمراد بما تلذه الأعين الجمال والزنية وذلك مما الالتذاذ به كالمختص بالإنسان كما في المناظر البهجة والوجه الحسن واللباس الفاخر، ولذا غير التعبير فعبر عما يتعلق بالأنفس بالاشتهاء وفيما يتعلق بالأعين باللذة وفي هذين القسمين تنحصر اللذائذ النفسانية عندنا.

ب. ويمكن أن تندرج اللذائذ الروحية العقلية فيما تلذه الأعين فإن الالتذاذ الروحي يعد من رؤية القلب.

ج. قال في المجمع: (وقد جمع الله سبحانه في قوله: ﴿ما تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ﴾ ما لو اجتمع الخلائق كلهم على أن يصفوا ما في الجنة من أنواع النعيم لم يزيدوا على ما انتظمته هاتان الصفتان)

٦. ﴿وَأَنْتُمْ فِيها خالِدُونَ﴾ إخبار ووعد وتبشير بالخلود ولهم في العلم به من اللذة الروحية ما لا يقاس بغيره ولا يقدر بقدر.

٧. ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوها بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ قيل: المعنى أعطيتموها بأعمالكم، وقيل أورثتموها من الكفار وكانوا داخليها لو آمنوا وعملوا صالحا، وقد تقدم الكلام في المعنيين في تفسير قوله تعالى: ﴿أُولئِكَ هُمُ الْوارِثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠]

٨. ﴿لَكُمْ فِيها فاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْها تَأْكُلُونَ﴾ أضاف الفاكهة إلى ما مرت الإشارة إليه من الطعام والشراب لإحصاء النعمة، ومن في ﴿مِنْها تَأْكُلُونَ﴾ للتبعيض ولا يخلو من إشارة إلى أنها لا تنفد بالأكل.

٢٦. المجرمون في عذاب جهنم خالدون لا يفتّر عنهم:

المقطع [٢٦] من سورة الزخرف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ [الزخرف: ٧٤-٧٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ١٢٢»:

١. ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذابِ جَهَنَّمَ خالِدُونَ لا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾:

أ. المراد بالمجرمين المتلبسون بالإجرام فيكون أعم من الكفار ويؤيده إيراده في مقابلة المتقين وهو أخص من المؤمنين.

ب. والتفتير التخفيف والتقليل، والإبلاس اليأس ويأسهم من الرحمة أو من الخروج من النار.

٢. ﴿وَما ظَلَمْناهُمْ وَلكِنْ كانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾ وذلك أنه تعالى جازاهم بأعمالهم لكنهم ظلموا أنفسهم حيث أوردوها بأعمالهم مورد الشقوة والهلكة.

٣. ﴿وَنادَوْا يا مالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنا رَبُّكَ قالَ إِنَّكُمْ ماكِثُونَ﴾:

أ. مالك هو الملك الخازن للنار على ما وردت به الأخبار من طرق العامة والخاصة.

ب. وخطابهم مالكا بما يسألونه من الله سبحانه لكونهم محجوبين عنه كما قال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥]، وقال: ﴿قالَ اخْسَؤُا فِيها وَلا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٨]، فالمعنى: أنهم يسألون مالكا أن يسأل الله أن يقضي عليهم.

ج. والمراد بالقضاء عليهم إماتتهم، ويريدون بالموت الانعدام والبطلان لينجوا بذلك عما هم فيه من الشقوة وأليم العذاب، وهذا من ظهور ملكاتهم الدنيوية فإنهم كانوا يرون في الدنيا أن الموت انعدام

وفوت لا انتقال من دار إلى دار فيسألون الموت بالمعنى الذي ارتكز في نفوسهم وإلا فهم قد ماتوا وشاهدوا ما هي حقيقته.

٤. ﴿قالَ إِنَّكُمْ ماكِثُونَ﴾ أي فيما أنتم فيه من الحياة الشقية والعذاب الأليم، والقائل هو مالك جوابا عن مسألتهم.

٥. ﴿لَقَدْ جِئْناكُمْ بِالْحَقِّ وَلكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كارِهُونَ﴾:

أ. ظاهره أنه من تمام كلام مالك يقوله عن لسان الملائكة وهو منهم، وقيل: من كلامه تعالى ويبعده أنهم محجوبون يومئذ عن ربهم لا يكلمهم الله تعالى.

ب. والخطاب لأهل النار بما أنهم بشر، فالمعنى: لقد جئناكم معشر البشر بالحق ولكن أكثركم وهم المجرمون كارهون للحق.

ج. وقيل: المراد بالحق مطلق الحق أي حق كان فهم يكرهونه وينفرون منه وأما الحق المعهود الذي هو التوحيد أو القرآن فكلهم كارهون له مشمئزون منه.

د. والمراد بكراهتهم للحق الكراهة بحسب الطبع الثاني المكتسب بالمعاصي والذنوب لا بحسب الطبع الأول الذي هو الفطرة التي فطر الناس عليها إذ لو كرهوه بحسبها لم يكلفوا بقبوله، قال تعالى: ﴿لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ﴾ [الروم: ٣٠]، وقال: ﴿وَنَفْسٍ وَما سَوَّاها فَأَلْهَمَها فُجُورَها وَتَقْواها﴾ [الشمس: ٨]

هـ. ويظهر من الآية أن الملاك في السعادة والشقاء قبول الحق ورده.

٢٧. الله يعلم بسرّ الكفار وكيدهم:

المقطع [٢٧] من سورة الزخرف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف: ٧٩ـ٨٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ١٢٤»:

١. ﴿أَمْ أَبْرَمُوا أَمْراً فَإِنَّا مُبْرِمُونَ﴾ الإبرام خلاف النقض وهو الإحكام، وأم منقطعة، والمعنى: على ما يفيده سياق الآية والآية التالية: بل أحكموا أمرا من الكيد بك يا محمد فإنا محكمون الكيد بهم فالآية في معنى قوله تعالى: ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْداً فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾ [الطور: ٤٢]

٢. ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْواهُمْ بَلى وَرُسُلُنا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ السر ما يستسرونه في

قلوبهم والنجوى ما يناجيه بعضهم بعضا بحيث لا يسمعه غيرهما، ولما كان السر حديث النفس عبر عن العلم بالسر والنجوى جميعا بالسمع.

٣. ﴿بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ أي بلى نحن نسمع سرهم ونجواهم ورسلنا الموكلون على حفظ أعمالهم عليهم يكتبون ذلك.

٢٨. نفي الولد عن الله وتسبيحه وترك المكذبين:

المقطع [٢٨] من سورة الزخرف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ [الزخرف: ٨١-٨٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ١٢٥»:

١. ﴿قُلْ إِنْ كانَ لِلرَّحْمنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعابِدِينَ﴾:

أ. إبطال لألوهية الولد بإبطال أصل وجوده من جهة علمه بأنه ليس، والتعبير بأن الشرطية دون لو الدالة على الامتناع، وكان مقتضى المقام أن يقال: لو كان للرحمن ولد، لاستنزالهم عن رتبة المكابرة إلى مرحلة الانتصاف.

ب. والمعنى: قل لهم إن كان للرحمن ولد كما يقولون، فأنا أول من يعبده أداء لحق بنوته ومسانخته لوالده، لكني أعلم أنه ليس ولذلك لا أعبده لا لبغض ونحوه.

٢. وقد أوردوا للآية معاني أخرى:

أ. منها: أن المعنى لو كان لله ولد كما تزعمون فأنا أعبد الله وحده ولا أعبد الولد الذي تزعمون.

ب. ومنها: أن ﴿إِنْ﴾ نافية والمعنى: قل ما كان لله ولد فأنا أول العابدين الموحدين له من بينكم.

ج. ومنها: أن ﴿الْعابِدِينَ﴾ من عبد بمعنى أنف والمعنى: قل لو كان للرحمن ولد فأنا أول من أنف واستنكف عن عبادته لأن الذي يلد لا يكون إلا جسما والجسمية تنافي الألوهية.

د. ومنها: أن المعنى: كما أني لست أول من عبد الله كذلك ليس لله ولد أي لو جاز لكم أن تدعوا ذاك المحال جاز لي أن أدعي هذا المحال، إلى غير ذلك مما قيل لكن الظاهر من الآية ما قدمناه.

٣. ﴿سُبْحانَ رَبِّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾:

أ. تسبيح له سبحانه عما ينسبون إليه، والظاهر أن ﴿رَبِّ الْعَرْشِ﴾ عطف بيان لرب السماوات

والأرض لأن المراد بالسماوات والأرض مجموع العالم المشهود وهو عرش ملكه تعالى الذي استوى عليه وحكم فيه ودبر أمره.

ب. ولا يخلو من إشارة إلى حجة على الوحدانية إذ لما كان الخلق مختصا به تعالى حتى باعتراف الخصم وهو من شئون عرش ملكه، والتدبير من الخلق والإيجاد فإنه إيجاد النظام الجاري بين المخلوقات فالتدبير أيضا من شئون عرشه فربوبيته للعرش ربوبية لجميع السماوات والأرض.

٤. ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾:

أ. وعيد إجمالي لهم بأمر النبي ﷺ بالإعراض عنهم حتى يلاقوا ما يحذرهم منه من عذاب يوم القيامة.

ب. والمعنى: فاتركهم يخوضوا في أباطيلهم ويلعبوا في دنياهم ويشتغلوا بذلك حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدونه وهو يوم القيامة كما ذكر في الآيات السابقة: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ﴾

٥. أحاديث وآثار: في الإحتجاج، عن علي عليه السلام في حديث طويل يقول فيه: قوله: ﴿إِنْ كانَ لِلرَّحْمنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعابِدِينَ﴾ أي الجاحدين، والتأويل في هذا القول باطنه مضاد لظاهره.

- أقول: الظاهر أن المراد أنه خلاف ما ينصرف إليه لفظ عابد عند الإطلاق.

٢٩. الألوهية والحكم والعلم والشفاعة:

المقطع [٢٩] من سورة الزخرف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّماءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف: ٨٤ـ٨٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ١٢٦»:

١. ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّماءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾:

أ. أي هو الذي هو في السماء إله مستحق للمعبودية وهو في الأرض إله أي هو المستحق لمعبودية أهل السماوات والأرض وحده، ويفيد تكرار ﴿إِلَهٌ﴾ كما قيل التأكيد والدلالة على أن كونه تعالى إلها في السماء والأرض بمعنى تعلق ألوهيته بهما لا بمعنى استقراره فيهما أو في أحدهما.

ب. وفي الآية مقابلة لما يثبته الوثنية لكل من السماء والأرض إلها أو آلهة، وفي تذييل الآية بقوله:

﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ الدال على الحصر إشارة إلى وحدانيته في الربوبية التي لازمها الحكمة والعلم.

٢. ﴿وَتَبارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُما وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾:

أ. ثناء عليه تعالى بالتبارك وهو مصدريته للخير الكثير.

ب. وكل من الصفات الثلاث المذكورة حجة على توحده في الربوبية أما ملكه للجميع فظاهر فإن الربوبية لمن يدبر الأمر والتدبير للملك، وأما اختصاص علم الساعة به فلأن الساعة هي المنزل الأقصى إليه يسير الكل وكيف يصح أن يرب الأشياء من لا علم له بمنتهى مسيرها فهو تعالى رب الأشياء لا من يدعونه، وأما رجوع الناس إليه فإن الرجوع للحساب والجزاء وهو آخر التدبير فمن إليه الرجوع فإليه التدبير ومن إليه التدبير له الربوبية.

٣. ﴿وَلا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾:

أ. السياق سياق العموم فالمراد بالذين يدعون، أي يعبدونهم من دونه، كل معبود غيره تعالى من الملائكة والجن والبشر وغيرهم.

ب. والمراد ﴿بِالْحَقِّ﴾ الحق الذي هو التوحيد، والشهادة به الاعتراف به، والمراد بقوله: ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ حيث أطلق العلم علمهم بحقيقة حال من شفعوا له وحقيقة عمله كما قال: ﴿لا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمنُ وَقالَ صَواباً﴾ [النبأ: ٣٨]، وإذا كان هذا حال الشفعاء لا يملكونها إلا بعد الشهادة بالحق فما هم بشافعين إلا لأهل التوحيد كما قال: ﴿وَلا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضى﴾

ج. والآية مصرحة بوجود الشفاعة.

٤. أحاديث وآثار:

أ. في الكافي، بإسناده عن هشام بن الحكم قال: قال أبو شاكر الديصاني: إن في القرآن آية هي قولنا، قلت: وما هي؟ قال: ﴿هُوَ الَّذِي فِي السَّماءِ إِلهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلهٌ﴾، فلم أدر بما أجيبه فحججت فخبرت أبا عبد الله عليه السلام فقال: هذا كلام زنديق خبيث إذا رجعت إليه فقل: ما اسمك بالكوفة؟ فإنه يقول: فلان، فقل: ما اسمك بالبصرة؟ فإنه يقول: فلان، فقل: كذلك الله ربنا في السماء إله، وفي الأرض إله، وفي البحار إله، وفي القفار إله، وفي كل مكان إله، قال: فقدمت فأتيت أبا شاكر فأخبرته، فقال: هذه نقلت من الحجاز.

ب. وفي تفسير القمي في قوله تعالى: ﴿وَلا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفاعَةَ﴾ قال: هم الذين عبدوا في الدنيا، لا يملكون الشفاعة لمن عبدهم.

٣٠. إقرار المشركين بالخالق وأمر النبي بالصفح والسلام:

المقطع [٣٠] من سورة الزخرف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف: ٨٧ـ٨٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ١٢٧»:

١. ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ أي إلى متى يصرفون عن الحق الذي هو التوحيد إلى الباطل الذي هو الشرك، وذلك أنهم معترفون أن لا خالق إلا الله والتدبير الذي هو ملاك الربوبية غير منفك عن الخلق كما اتضح مرارا فالرب المعبود هو الذي بيده الخلق وهو الله سبحانه.

٢. ﴿وَقِيلِهِ يا رَبِّ إِنَّ هؤُلاءِ قَوْمٌ لا يُؤْمِنُونَ﴾ ضمير ﴿قِيلِهِ﴾ للنبي ﷺ بلا إشكال، والقيل مصدر كالقول والقال، و﴿قِيلِهِ﴾ معطوف، على ما قيل، على الساعة في قوله: ﴿وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾، والمعنى: وعنده علم قوله: ﴿يا رَبِّ إِنَّ هؤُلاءِ قَوْمٌ لا يُؤْمِنُونَ﴾

٣. ﴿فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ أمر بالإعراض عنهم وإقناط من إيمانهم، وقوله: ﴿قُلْ سَلامٌ﴾ أي وادعهم موادعة ترك من غير هم لك فيهم، وفي قوله: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ تهديد ووعيد.

٤. أحاديث وآثار: في الكافي، بإسناده عن أبي هاشم الجعفري قال: سألت أبا جعفر الثاني عليه السلام: ما معنى الواحد؟ فقال: إجماع الألسن عليه بالوحدانية لقوله: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾

سورة الدخان

هذه السورة الكريمة تحتوي على [١١] مقطعاً، ولم يذكر مقاصد السورة ومحتوياتها، بل اكتفى بذكر مقاطعها ونظمها:

٥. الآيات [١ ـ ٨] لم يذكر البيان المرتبط بها، وهي تقسم بالكتاب المبين، وتذكر أنه أنزل في ليلة مباركة، وأن فيه كل أمر حكيم، وأن الله يرسل الرسل رحمة منه، وتؤكد أنه هو الحي لا إله إلا هو، رب السماوات والأرض وما بينهما.

٦. الآيات [٩ ـ ٣٣]:

أ. تذكر الآيات ارتيابهم في كتاب الله، بعد ما ذكرت أنه كتاب مبين نازل في خير ليلة على رسوله لغرض الإنذار رحمة من الله.

ب. ثم تهددهم بعذاب الدنيا وبطش يوم القيامة، وتتمثل لهم بقصة إرسال موسى إلى قوم فرعون وتكذيبهم له وإغراقهم.

ج. ولا تخلو القصة من إيماء إلى أنه تعالى سينجي النبي ﷺ والمؤمنين به من عتاة قريش بإخراجهم من مكة، ثم إهلاك صناديد قريش في تعقيبهم النبي والمؤمنين به.

٧. الآيات [٣٤ ـ ٥٩]:

أ. لما أنذر القوم بالعذاب الدنيوي ثم بالعذاب الأخروي، وتمثل للعذاب الدنيوي بما جرى على قوم فرعون إذ جاءهم موسى عليه السلام بالرسالة من ربه فكذبوه، فأخذهم الله بعذاب الإغراق فاستأصلهم.

ب. رجع إلى الكلام في العذاب الأخروي، فذكر إنكار القوم للمعاد وقولهم أن ليس بعد الموتة الأولى حياة، فاحتج على إثبات المعاد بالبرهان.

ج. ثم أنبأ عن بعض ما سيلقاه المجرمون من العذاب في الآخرة، وبعض ما سيلقاه المتقون من النعيم المقيم.

د. وعند ذلك تختتم السورة بما بدأت به، وهو نزول الكتاب للتذكر، وأمره ﷺ بالارتقاب.

١. تنزيل القرآن في ليلة مباركة:

المقطع [١] من سورة الدخان، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿حم وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾ [الدخان: ١ـ٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ١٣٠»:

١. ﴿حم وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ الواو للقسم والمراد بالكتاب المبين القرآن.

٢. ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ﴾:

أ. المراد بالليلة المباركة التي نزل فيها القرآن ليلة القدر على ما يدل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ [القدر: ١]، وكونها مباركة ظرفيتها للخير الكثير الذي ينبسط على الخلق من الرحمة الواسعة، وقد قال تعالى: ﴿وَما أَدْراكَ ما لَيْلَةُ الْقَدْرِ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ [القدر: ٣]

ب. وظاهر اللفظ أنها إحدى الليالي التي تدور على الأرض وظاهر قوله: ﴿فِيها يُفْرَقُ﴾ الدال على الاستمرار أنها تتكرر وظاهر قوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ [البقرة: ١٨٥]، أنها تتكرر بتكرر شهر رمضان فهي تتكرر بتكرر السنين القمرية وتقع في كل سنة قمرية مرة واحدة في شهر رمضان، وأما إنها أي ليلة هي؟ فلا إشعار في كلامه تعالى بذلك، وأما الروايات فستوافيك في البحث الروائي التالي.

ج. والمراد بنزول الكتاب في ليلة مباركة على ما هو ظاهر قوله: ﴿إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِي لَيْلَةٍ مُبارَكَةٍ﴾ وقوله: ﴿إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ [القدر: ١]، وقوله: ﴿شَهْرُ رَمَضانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدىً لِلنَّاسِ وَبَيِّناتٍ مِنَ الْهُدى وَالْفُرْقانِ﴾ [البقرة: ١٨٥]، أن النازل هو القرآن كله.

د. ولا يدفع ذلك قوله: ﴿وَقُرْآناً فَرَقْناهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلى مُكْثٍ وَنَزَّلْناهُ تَنْزِيلاً﴾ [الإسراء: ١٠٦]، وقوله: ﴿وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً واحِدَةً كَذلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤادَكَ وَرَتَّلْناهُ تَرْتِيلاً﴾ [الفرقان: ٣٢]، الظاهرين في نزوله تدريجا، ويؤيد ذلك آيات أخر كقوله: ﴿فَإِذا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ﴾ سورة [محمد: ٢٠]، وقوله: ﴿وَإِذا ما أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ﴾ [التوبة: ١٢٧] وغير ذلك ويؤيد ذلك أيضا ما لا يحصى من الأخبار المتضمنة لأسباب النزول.

هـ. وذلك أنه يمكن أن يحمل على نزول القرآن مرتين مرة مجموعا وجملة في ليلة واحدة من ليالي شهر رمضان، ومرة تدريجا ونجوما في مدة ثلاث وعشرين سنة وهي مدة دعوته ﷺ.

• لكن الذي لا ينبغي الارتياب فيه أن هذا القرآن المؤلف من السور والآيات بما فيه من السياقات المختلفة المنطبقة على موارد النزول المختلفة الشخصية لا يقبل النزول دفعة فإن الآيات النازلة في وقائع شخصية وحوادث جزئية مرتبطة بأزمنة وأمكنة وأشخاص وأحوال خاصة لا تصدق إلا مع تحقق مواردها المتفرقة زمانا ومكانا وغير ذلك بحيث لو اجتمعت زمانا ومكانا وغير ذلك انقلبت عن تلك الموارد وصارت غيرها فلا يمكن احتمال نزول القرآن وهو على هيئته وحاله بعينها مرة جملة، ومرة نجوما.

• فلو قيل بنزوله مرتين كان من الواجب أن يفرق بين المرتين بالإجمال والتفصيل فيكون نازلا مرة إجمالا ومرة تفصيلا ونعني بهذا الإجمال والتفصيل ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿كِتابٌ أُحْكِمَتْ آياتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١]، وقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتابِ لَدَيْنا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [الزخرف: ٤]، وقد مر الكلام في معنى الإحكام والتفصيل في تفسير سورتي هود والزخرف.

و. وقيل: المراد بنزول الكتاب في ليلة مباركة افتتاح نزوله التدريجي في ليلة القدر من شهر رمضان فأول ما نزل من آيات القرآن، وهو سورة العلق أو سورة الحمد، نزل في ليلة القدر.

• وهذا القول مبني على استشعار منافاة نزول الكتاب كله في ليلة ونزوله التدريجي الذي تدل عليه الآيات السابقة وقد عرفت أن لا منافاة بين الآيات.

• على أنك خبير بأنه خلاف ظاهر الآيات.

ز. وقيل: إنه نزل أولا جملة على السماء الدنيا في ليلة القدر ثم نزل من السماء الدنيا على الأرض تدريجا في ثلاث وعشرين سنة مدة الدعوة النبوية.

• وهذا القول مأخوذ من الأخبار الواردة في تفسير الآيات الظاهرة في نزوله جملة وستمر بك في البحث الروائي التالي إن شاء الله.

٣. ﴿إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ﴾ واقع موقع التعليل، وهو يدل على استمرار الإنذار منه تعالى قبل هذا الإنذار، فيدل على أن نزول القرآن من عنده تعالى ليس ببدع، فإنما هو إنذار والإنذار سنة جارية له تعالى لم

تزل تجري في السابقين من طريق الوحي إلى الأنبياء والرسل وبعثهم لإنذار الناس.

٤. ﴿فِيها يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾:

أ. ضمير ﴿فِيها﴾ لليلة والفرق فصل الشيء من الشيء بحيث يتمايزان ويقابله الإحكام فالأمر الحكيم ما لا يتميز بعض أجزائه من بعض ولا يتعين خصوصياته وأحواله كما يشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنا خَزائِنُهُ وَما نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ [الحجر: ٢١]

ب. فللأمور بحسب القضاء الإلهي مرحلتان: مرحلة الإجمال والإبهام ومرحلة التفصيل، وليلة القدر، على ما يدل عليه قوله: ﴿فِيها يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾، ليلة يخرج فيها الأمور من مرحلة الإحكام إلى مرحلة الفرق والتفصيل، وقد نزل فيها القرآن وهو أمر من الأمور المحكمة فرق في ليلة القدر.

ج. ولعل الله سبحانه أطلع نبيه على جزئيات الحوادث التي ستقع في زمان دعوته وما يقارن منها نزول كل آية أو آيات أو سورة من كتابه فيستدعي نزولها وأطلعه على ما ينزل منها فيكون القرآن نازلا عليه دفعة وجملة قبل نزوله تدريجا ومفرقا.

د. ومآل هذا الوجه اطلاع النبي ﷺ على القرآن في مرحلة نزوله إلى القضاء التفصيلي قبل نزوله على الأرض واستقراره في مرحلة العين، وعلى هذا الوجه لا حاجة إلى تفريق المرتين بالإجمال والتفصيل كما تقدم في الوجه الأول.

هـ. وظاهر كلام بعضهم أن المراد بقوله: ﴿فِيها يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ تفصيل الأمور المبينة في القرآن من معارف وأحكام وغير ذلك، ويدفعه أن ظاهر قوله: ﴿فِيها يُفْرَقُ﴾ الاستمرار والذي يستمر في هذه الليلة بتكررها تفصيل الأمور الكونية بعد إحكامها وأما المعارف والأحكام الإلهية فلا استمرار في تفصيلها فلو كان المراد فرقها كان الأنسب أن يقال: (فيها فرق)

و. وقيل: المراد بكون الأمر حكيما إحكامه بعد الفرق لا الإحكام الذي قبل التفصيل، والمعنى: يقضى في الليلة كل أمر محكم لا يتغير بزيادة أو نقصان أو غير ذلك هذا، والأظهر ما قدمناه من المعنى.

٥. ﴿أَمْراً مِنْ عِنْدِنا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾:

أ. المراد بالأمر الشأن وهو حال من الأمر السابق والمعنى فيها يفرق كل أمر حال كونه أمرا من عندنا ومبتدأ من لدنا، ويمكن أن يكون المراد به ما يقابل النهي والمعنى: يفرق فيها كل أمر بأمر منا، وهو

على أي حال متعلق بقوله: ﴿يُفْرَقُ﴾

ب. ويمكن أن يكون متعلقا بقوله: ﴿أَنْزَلْناهُ﴾ أي حال كون الكتاب أمرا أو بأمر من عندنا، وقوله: ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ لا يخلو من تأييد لذلك، ويكون تعليلا له والمعنى: إنا أنزلناه أمرا من عندنا لأن سنتنا الجارية إرسال الأنبياء والرسل.

٦. ﴿رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾:

أ. أي إنزاله رحمة من ربك أو أنزلناه لأجل إفاضة الرحمة على الناس أو لاقتضاء رحمة ربك إنزاله فقوله: ﴿رَحْمَةً﴾ حال على المعنى الأول ومفعول له على الثاني والثالث.

ب. وفي قوله: ﴿مِنْ رَبِّكَ﴾ التفات من التكلم مع الغير إلى الغيبة ووجهه إظهار العناية بالنبي ﷺ لأنه هو الذي أنزل عليه القرآن وهو المنذر المرسل إلى الناس.

٧. ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أي السميع للمسائل والعليم بالحوائج فيسمع مسألتهم ويعلم حاجتهم إلى الاهتداء بهدى ربك فينزل الكتاب ويرسل الرسول رحمة منه لهم.

٨. ﴿رَبِّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُما إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾ لما كانت الوثنية يرون أن لكل صنف من الخلق إلها أو أكثر وربما اتخذ قوم منهم إلها غير ما يتخذه غيرهم عقب قوله: ﴿مِنْ رَبِّكَ﴾ بقوله: ﴿رَبِّ السَّماواتِ﴾، لئلا يتوهم متوهم منهم أن ربوبيته للنبي ﷺ ليست بالاختصاص كالتي بينهم بل هو تعالى ربه ورب السماوات والأرض وما بينهما، ولذلك عقبه أيضا في الآية التالية بقوله: ﴿لا إِلهَ إِلَّا هُوَ﴾

٩. ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾ هذا الاشتراط كما ذكره الزمخشري من قبيل قولنا هذا إنعام زيد الذي تسامع الناس بكرمه واشتهروا سخاءه أن بلغك حديثه وحدثت بقصته فالمعنى هو الذي يعرفه الموقنون بأنه رب السماوات والأرض وما بينهما إن كنتم منهم عرفتموه بأنه رب كل شيء.

١٠. ﴿لا إِلهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾:

أ. لما كان مدلول الآية السابقة انحصار الربوبية وهي الملك والتدبير فيه تعالى والألوهية وهي المعبودية بالحق من لوازم الربوبية عقبه بكلمة التوحيد النافية لكل إله دونه تعالى.

ب. ﴿يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ من أخص الصفات به تعالى وهما من شئون التدبير، وفي ذكرهما نوع تمهيد لما سيأتي من إنذارهم بالمعاد.

ج. ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ فيه كمال التصريح بأنه ربهم ورب آبائهم فليعبدوه ولا يتعللوا باتباع آبائهم في عبادة الأصنام، ولتكميل التصريح سيقت الجملة بالخطاب فقيل: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبائِكُمُ﴾

د. وهما أعني قوله: ﴿يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ وقوله: ﴿رَبُّكُمْ﴾ خبران لمبتدإ محذوف والتقدير هو يحيي ويميت إلخ.

١١. أحاديث وآثار:

أ. في المجمع في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِي لَيْلَةٍ مُبارَكَةٍ﴾ والليلة المباركة هي ليلة القدر: و، هو المروي عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليه السلام.

ب. وفي الكافي، بإسناده عن علي بن إبراهيم عن أبيه عن ابن أبي عمير عن عمر بن أذينة عن الفضيل وزرارة ومحمد بن مسلم عن حمران أنه سأل أبا جعفر عليه السلام عن قول الله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِي لَيْلَةٍ مُبارَكَةٍ﴾ قال: نعم ليلة القدر وهي في كل سنة في شهر رمضان، في العشر الأواخر، فلم ينزل القرآن إلا في ليلة القدر، قال الله تعالى: ﴿فِيها يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ قال: يقدر في ليلة القدر كل شيء، يكون في تلك السنة إلى مثلها من قابل: خير وشر وطاعة ومعصية ومولود وأجل ورزق، فما قدر في تلك السنة وقضي فهو المحتوم، ولله تعالى فيه المشية.

• أقول: قوله: فهو المحتوم ولله فيه المشية أي أنه محتوم من جهة الأسباب والشرائط فلا شيء يمنع عن تحققه إلا أن يشاء الله ذلك.

ج. وفي البصائر، عن عباس بن معروف عن سعدان بن مسلم عن عبد الله بن سنان قال: سألته عن النصف من شعبان فقال: ما عندي فيه شيء، ولكن إذا كانت ليلة تسع عشرة من شهر رمضان، قسم فيها الأرزاق وكتب فيها الآجال، وخرج فيها صكاك الحاج واطلع الله إلى عباده، فغفر الله لهم إلا شارب خمر مسكر، فإذا كانت ليلة ثلاث وعشرين فيها يفرق كل أمر حكيم، ثم ينهى ذلك ويمضي ذلك، قلت: إلى من؟ قال: إلى صاحبكم ولو لا ذلك لم يعلم.

د. أخرج محمد بن نصر وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿فِيها يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ قال: يكتب من أم الكتاب في ليلة القدر ما يكون في السنة، من رزق أو موت أو حياة أو مطر، حتى يكتب الحاج: يحج فلان ويحج فلان.

• أقول: والأخبار في ليلة القدر وما يقضى فيها وفي تعيينها كثيرة جدا وسيأتي عمدتها في تفسير سورة القدر إن شاء الله تعالى.

١٢. تذكر الآيات ارتيابهم في كتاب الله بعد ما ذكرت أنه كتاب مبين نازل في خير ليلة على رسوله لغرض الإنذار رحمة من الله، ثم تهددهم بعذاب الدنيا وبطش يوم القيامة وتتمثل لهم بقصة إرسال موسى إلى قوم فرعون وتكذيبهم له وإغراقهم، ولا تخلو القصة من إيماء إلى أنه تعالى سينجي النبي ﷺ والمؤمنين به من عتاة قريش بإخراجهم من مكة ثم إهلاك صناديد قريش في تعقيبهم النبي والمؤمنين به.

١٣. ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾ ضمير الجمع لقوم النبي ﷺ، والإضراب عن محذوف يدل عليه السياق السابق أي إنهم لا يوقنون ولا يؤمنون بما ذكر من رسالة الرسول وصفة الكتاب الذي أنزل عليه بل هم في شك وارتياب فيه يلعبون بالاشتغال بدنياهم، وذكر الزمخشري أن الإضراب عن قوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾

٢. الدخان عذاب أليم وبعده البطشة الكبرى:

المقطع [٢] من سورة الدخان، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ﴾ [الدخان: ١٠ـ١٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ١٣٦»:

١. ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ يَغْشَى النَّاسَ﴾ الارتقاب الانتظار وهذا وعيد بالعذاب وهو إتيان السماء بدخان مبين يغشى الناس.

٢. واختلف في المراد بهذا العذاب المذكور في الآية.

أ. فقيل: المراد به المجاعة التي ابتلي بها أهل مكة فإنهم لما أصروا على كفرهم وأذاهم للنبي ﷺ والمؤمنين به دعا عليهم النبي ﷺ فقال: اللهم سنين كسني يوسف فأجدبت الأرض وأصابت قريشا مجاعة شديدة، وكان الرجل لما به من الجوع يرى بينه وبين السماء كالدخان وأكلوا الميتة والعظام ثم جاءوا إلى النبي ﷺ وقالوا: يا محمد جئت تأمر بصلة الرحم وقومك قد هلكوا، ووعدوه إن كشف الله عنهم الجدب أن يؤمنوا، فدعا وسأل الله لهم بالخصب والسعة فكشف عنهم ثم عادوا إلى كفرهم ونقضوا عهدهم.

ب. وقيل: إن الدخان المذكور في الآية من أشراط الساعة وهو لم يأت بعد وهو يأتي قبل قيام الساعة فيدخل أسماع الناس حتى أن رءوسهم تكون كالرأس الحنيذ، ويصيب المؤمن منه مثل الزكمة وتكون الأرض كلها كبيت أوقد فيه ليس فيه خصاص ويمكث ذلك أربعين يوما.

ج. وربما قيل: إن المراد بيوم الدخان يوم فتح مكة حين دخل جيش المسلمين مكة فارتفع الغبار كالدخان المظلم، وربما قيل: المراد به يوم القيامة، والقولان كما ترى.

٣. ﴿يَغْشَى النَّاسَ﴾ أي يشملهم ويحيط بهم، والمراد بالناس أهل مكة على القول الأول، وعامة الناس على القول الثاني.

٤. ﴿هذا عَذابٌ أَلِيمٌ رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ حكاية قول الناس عند نزول عذاب الدخان أي يقول الناس يوم تأتي السماء بدخان مبين: هذا عذاب أليم ويسألون الله كشفه بالاعتراف بربوبيته وإظهار الإيمان بالدعوة الحقة فيقولون: ﴿رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾

٥. ﴿أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرى وَقَدْ جاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ﴾ أي من أين لهم أن يتذكروا ويذعنوا بالحق والحال أنه قد جاءهم رسول مبين ظاهر في رسالته لا يقبل الارتياب وهو محمد ﷺ، وفي الآية رد صدقهم في وعدهم.

٦. ﴿ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ﴾ التولي الإعراض، وضمير ﴿عَنْهُ﴾ للرسول و﴿مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ﴾ خبران لمبتدإ محذوف هو ضمير راجع إلى الرسول والمعنى: ثم أعرضوا عن الرسول وقالوا هو معلم مجنون فرموه أولا بأنه معلم يعلمه غيره فيسند ما تعلمه إلى الله سبحانه، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّما يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾ [النحل: ١٠٣]، وثانيا بأنه مجنون مختل العقل.

٧. ﴿إِنَّا كاشِفُوا الْعَذابِ قَلِيلاً إِنَّكُمْ عائِدُونَ﴾:

أ. أي إنا كاشفون للعذاب زمانا أنكم عائدون إلى ما كنتم فيه من الكفر والتكذيب هذا بناء على القول الأول والآية تأكيد لرد صدقهم فيما وعدوه من الإيمان.

ب. وأما على القول الثاني فالأقرب أن المعنى: أنكم عائدون إلى العذاب يوم القيامة.

٨. ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ﴾ البطش، على ما ذكره الراغب، تناول الشيء بصولة، وهذا اليوم بناء على القول الأول المذكور يوم بدر وبناء على القول الثاني يوم القيامة، وربما أيد

توصيف البطشة بالكبرى هذا القول الثاني فإن بطش يوم القيامة وعذابه أكبر البطش والعذاب، قال تعالى: ﴿فَيُعَذِّبُهُ اللهُ الْعَذابَ الْأَكْبَرَ﴾ [الغاشية: ٢٤]، كما أن أجره أكبر الأجر قال تعالى: ﴿وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ [النحل: ٤١]

٩. أحاديث وآثار:

أ. عن جوامع الجامع في قوله تعالى: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّماءُ بِدُخانٍ مُبِينٍ﴾ واختلف في الدخان فقيل: إنه دخان يأتي من السماء قبل قيام الساعة، يدخل في أسماع الكفرة، حتى يكون رأس الواحد كالرأس الحنيذ ويعتري المؤمن منه كهيئة الزكام، ويكون الأرض كلها كبيت أوقد فيه، ليس فيه خصاص يمد ذلك أربعين يوما، وروي ذلك عن علي وابن عباس والحسن.

• أقول: ورواه في الدر المنثور، عنهم وأيضا عن حذيفة بن اليمان وأبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ، ورواه أيضا عن ابن عمر موقوفا.

ب. وفي تفسير القمي في الآية قال: ذلك إذا خرجوا في الرجعة من القبر، يغشى الناس كلهم الظلمة، فيقولون: هذا عذاب أليم، ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون.

ج. وفي تفسير القمي في قوله تعالى: ﴿وَقالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ﴾ قال: قالوا ذلك لما نزل الوحي على رسول الله ﷺ، فأخذه الغشي فقالوا: هو مجنون.

٣. إغراق فرعون وقومه بعد فتنة موسى:

المقطع [٣] من سورة الدخان، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبادَ اللهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ وَأَنْ لا تَعْلُوا عَلَى اللهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطانٍ مُبِينٍ وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ فَدَعا رَبَّهُ أَنَّ هَؤُلاءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ فَأَسْرِ بِعِبادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ﴾ [الدخان: ١٧-٢٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ١٣٨»:

١. ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾ الفتنة الامتحان والابتلاء للحصول على حقيقة الشيء، وقوله: ﴿وَجاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾، تفسير للامتحان، والرسول الكريم موسى عليه السلام، والكريم هو المتصف بالخصال الحميدة قال الراغب: (الكرم إذا وصف الله تعالى به فهو اسم

لإحسانه وإنعامه المتظاهر نحو قوله: ﴿فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ وإذا وصف به الإنسان فهو اسم للأخلاق والأفعال المحمودة التي تظهر منه، ولا يقال: هو كريم حتى يظهر ذلك منه، قال: وكل شيء شرف في بابه فإنه يوصف بالكرم قال تعالى: ﴿أَنْبَتْنا فِيها مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ ﴿وَزُرُوعٍ وَمَقامٍ كَرِيمٍ﴾ ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾ ﴿وَقُلْ لَهُما قَوْلاً كَرِيماً﴾) انتهى

٢. ﴿أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبادَ اللهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾:

أ. تفسير لمجيء الرسول فإن معنى مجيء الرسول تبليغ الرسالة وكان من رسالة موسى عليه السلام إلى فرعون وقومه أن يرسلوا معهم بني إسرائيل ولا يعذبوهم، والمراد بعباد الله بنو إسرائيل وعبر عنهم بذلك استرحاما وتلويحا إلى أنهم في استكبارهم وتعديهم عليهم إنما يستكبرون على الله لأنهم عباد الله.

ب. وفي قوله: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ حيث وصف نفسه بالأمانة دفع لاحتمال أن يخونهم في دعوى الرسالة وإنجاء بني إسرائيل من سيطرتهم فيخرج معهم عليهم فيخرجهم من أرضهم كما حكى تعالى عن فرعون إذ قال للملإ حوله: ﴿إِنَّ هذا لَساحِرٌ عَلِيمٌ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ﴾ [الشعراء: ٢٥]

ج. وقيل: ﴿عِبادَ اللهِ﴾ نداء لفرعون وقومه والتقدير أن أدوا إلى ما آمركم به يا عباد الله، ولا يخلو من التقدير المخالف للظاهر.

٣. ﴿وَأَنْ لا تَعْلُوا عَلَى اللهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطانٍ مُبِينٍ﴾:

أ. أي لا تتجبروا على الله بتكذيب رسالتي والإعراض عما أمركم الله فإن تكذيب الرسول في رسالته استعلاء وتجبر على من أرسله والدليل على أن المراد ذلك تعليل النهي بقوله: ﴿إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطانٍ مُبِينٍ﴾ أي حجة بارزة من الآيات المعجزة أو حجة المعجزة وحجة البرهان.

ب. قيل: ومن حسن التعبير الجمع بين التأدية والأمين وكذا بين العلو والسلطان.

٤. ﴿وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ﴾:

أ. أي التجأت إليه تعالى من رجمكم إياي فلا تقدرون على ذلك، والظاهر أنه إشارة إلى ما آمنه ربه قبل المجيء إلى القوم كما في قوله تعالى: ﴿قالا رَبَّنا إِنَّنا نَخافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنا أَوْ أَنْ يَطْغى قالَ لا تَخافا إِنَّنِي

﴿مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرى﴾ [طه: ٤٦]

ب. وبما مر يظهر فساد ما قيل: إن هذا كان قبل أن يخبره الله بعجزهم عن رجمه بقوله سبحانه: ﴿فَلا يَصِلُونَ إِلَيْكُما﴾

٥. ﴿وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ﴾ أي إن لم تؤمنوا لي فكونوا بمعزل مني لا لي ولا علي ولا تتعرضوا لي بخير أو شر، وقيل: المراد تنحوا عني وانقطعوا، وهو بعيد.

٦. ﴿فَدَعا رَبَّهُ أَنَّ هؤُلاءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ﴾ أي دعاه بأن هؤلاء قوم مجرمون وقد ذكر من دعائه السبب الداعي له إلى الدعاء وهو إجرامهم إلى حد يستحقون معه الهلاك ويعلم ما سأله مما أجاب به ربه تعالى إذ قال: ﴿فَأَسْرِ بِعِبادِي﴾، وهو الإهلاك.

٧. ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ﴾:

أ. السير بالليل فيكون قوله: ﴿لَيْلاً﴾ تأكيدا له وتصريحا به، والمراد بعبادي بنو إسرائيل، وقوله: ﴿إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ﴾ أي يتبعكم فرعون وجنوده، وهو استئناف يخبر عما سيقع عقيب الإسراء.

ب. وفي الكلام إيجاز بالحذف والتقدير فقال له: أسر بعبادي ليلا إنكم متبعون يتبعكم فرعون وجنوده.

٨. ﴿وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْواً إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ﴾:

أ. قال في المفردات: (واترك البحر رهوا أي ساكنا، وقيل: سعة من الطريق وهو الصحيح)، وقوله: ﴿إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ﴾ تعليل لقوله: ﴿وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْواً﴾

ب. وفي الكلام إيجاز بالحذف اختصارا والتقدير: أسر بعبادي ليلا يتبعكم فرعون وجنوده حتى إذا بلغتم البحر فاضربه بعصاك لينفتح طريق لجوازكم فجاوزوه واتركه ساكنا أو مفتوحا على حاله فيدخلونه طمعا في إدراككم فهم جند مغرقون.

٤. الجنات والعيون والإرث:

المقطع [٤] من سورة الدخان، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ﴾ [الدخان: ٢٥ـ٢٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ١٤٠»:

١. ﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَمَقامٍ كَرِيمٍ وَنَعْمَةٍ كانُوا فِيها فاكِهِينَ كَذلِكَ﴾:

أ. ﴿كَمْ﴾ للتكثير أي كثيرا ما تركوا.

ب. ﴿مِنْ جَنَّاتٍ﴾ بيان لما تركوا، والمقام الكريم المساكن الحسنة الزاهية، والنعمة فتح النون التنعم وبناؤها بناء المرة كالضربة وبكسر النون قسم من التنعم وبناؤها بناء النوع كالجلسة وفسروا النعمة هاهنا بما يتنعم به وهو أنسب للترك، وفاكهين من الفكاهة بمعنى حديث الأنس ولعل المراد به هاهنا التمتع كما يتمتع بالفواكه وهي أنواع الثمار.

ج. ﴿كَذلِكَ﴾ قيل: معناه الأمر كذلك، وقيل: المعنى نفعل فعلا كذلك لمن نريد إهلاكه، وقيل: الإشارة إلى الإخراج المفهوم من الكلام السابق، والمعنى: مثل ذلك الإخراج أخرجناهم منها، ويمكن أن يكون حالا من مفعول (تركوا) المحذوف والمعنى: كثيرا ما تركوا أشياء كذلك أي على حالها والله أعلم.

٢. ﴿وَأَوْرَثْناها قَوْماً آخَرِينَ﴾ الضمير لمفعول ﴿تَرَكُوا﴾ المحذوف المبين بقوله: ﴿مِنْ جَنَّاتٍ﴾، والمعنى ظاهر.

٣. ﴿فَما بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّماءُ وَالْأَرْضُ وَما كانُوا مُنْظَرِينَ﴾ بكاء السماء والأرض على شيء فائت كناية تخييلية عن تأثرهما عن فوته وفقده فعدم بكائهما عليهم بعد إهلاكهم كناية عن هوان أمرهم على الله وعدم تأثير هلاكهم في شيء من أجزاء الكون.

٤. ﴿وَما كانُوا مُنْظَرِينَ﴾ كناية عن سرعة جريان القضاء الإلهي والقهر الربوبي في حقهم وعدم مصادفته لمانع يمنعه أو يحتاج إلى علاج في رفعه حتى يتأخر به.

٥. أحاديث وآثار:

أ. في المجمع: (وروى زرارة بن أعين عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: بكت السماء على يحيى بن زكريا، والحسين بن علي عليه السلام أربعين صباحا، قلت: فما بكاؤها؟ قال: كانت تطلع حمراء وتغيب حمراء.

ب. أخرج ابن أبي حاتم عن عبيد المكتب عن إبراهيم قال: ما بكت السماء منذ كانت الدنيا إلا على اثنين، قيل لعبيد: أليس السماء والأرض تبكي على المؤمن؟ قال: ذاك مقامه وحيث يصعد عمله، قال: وتدري ما بكاء السماء؟ قال: لا، قال: تحمر وتصير وردة كالدهان، إن يحيى بن زكريا لما قتل احمرت السماء

وقطرت دما، وإن الحسين بن علي يوم قتل احمرت السماء.

ج. وفي الفقيه، عن الصادق عليه السلام قال: إذا مات المؤمن بكت عليه بقاع الأرض، التي كان يعبد الله عز وجل فيها، والباب الذي كان يصعد منه عمله وموضع سجوده.

• أقول: وفي هذا المعنى ومعنى الروايتين السابقتين روايات أخر من طرق الشيعة وأهل السنة.

• ولو بني في معنى بكاء السماء والأرض على ما يظهر من هذه الروايات لم يحتج إلى حمل بكائهما على الكناية التخييلية.

٥. نجاة بني إسرائيل واختيارهم وآياتهم البينة:

المقطع [٥] من سورة الدخان، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِنَ الْمُسْرِفِينَ وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ وَآتَيْنَاهُمْ مِنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُبِينٌ﴾ [الدخان: ٣٠-٣٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ١٤١»:

١. ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنا بَنِي إِسْرائِيلَ مِنَ الْعَذابِ الْمُهِينِ﴾ وهو ما يصيبهم وهم في إسارة فرعون من ذبح الأبناء واستحياء النساء وغير ذلك.

٢. ﴿مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كانَ عالِياً مِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ ﴿مِنْ فِرْعَوْنَ﴾ بدل من قوله: ﴿مِنَ الْعَذابِ﴾ إما بحذف مضاف والتقدير من عذاب فرعون، أو من غير حذف بجعل فرعون عين العذاب دعوى للمبالغة، وقوله: ﴿إِنَّهُ كانَ عالِياً مِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ أي متكبرا من أهل الإسراف والتعدي عن الحد.

٣. ﴿وَلَقَدِ اخْتَرْناهُمْ عَلى عِلْمٍ عَلَى الْعالَمِينَ﴾:

أ. أي اخترناهم على علم منا باستحقاقهم الاختيار على ما يفيده السياق.

ب. والمراد بالعالمين جميع العالمين من الأمم إن كان المراد بالاختيار الاختيار من بعض الوجوه ككثرة الأنبياء فإنهم يمتازون من سائر الأمم بكثرة الأنبياء المبعوثين منهم ويمتازون بأن مر عليهم دهر طويل في التيه وهم يتظللون بالغمام ويأكلون المن والسلوى إلى غير ذلك.

ج. وعالمو أهل زمانهم إن كان المراد بالاختيار مطلقة فإنهم لم يختاروا على الأمة الإسلامية التي خاطبهم الله تعالى بمثل قوله: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وقوله: ﴿هُوَ اجْتَباكُمْ وَما جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨]

٤. ﴿وَآتَيْناهُمْ مِنَ الْآياتِ ما فِيهِ بَلؤُا مُبِينٌ﴾:

أ. البلاء الاختبار والامتحان أي وأعطينا بني إسرائيل من الآيات المعجزات ما فيه امتحان ظاهر ولقد أوتوا من الآيات المعجزات ما لم يعهد في غيرهم من الأمم وابتلوا بذلك ابتلاء مبينا.

ب. قيل: وفي قوله: ﴿فِيهِ﴾ إشارة إلى أن هناك أمورا أخرى ككونه معجزة.

ج. وفي تذييل القصة بهذه الآيات الأربع أعني قوله: ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنا بَنِي إِسْرائِيلَ﴾ إلى قوله: ﴿بَلؤُا مُبِينٌ﴾ نوع تطييب لنفس النبي ﷺ وإيماء إلى أن الله تعالى سينجيه والمؤمنين به من فراعنة مكة ويختارهم ويمكنهم في الأرض فينظر كيف يعملون.

٦. إنكار المشركين للبعث واستهزاؤهم به:

المقطع [٦] من سورة الدخان، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ [الدخان: ٣٤-٣٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ١٤٤»:

١. ﴿إِنَّ هؤُلاءِ لَيَقُولُونَ إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولى وَما نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ﴾:

أ. رجوع إلى أول الكلام من قوله: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾ والإشارة بهؤلاء إلى قريش ومن يلحق بهم من العرب الوثنيين المنكرين للمعاد، وقولهم: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولى﴾ يريدون به نفي الحياة بعد الموت الملازم لنفي المعاد بدليل قولهم بعده: ﴿وَما نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ﴾ أي بمبعوثين، قال في الكشاف يقال: أنشر الله الموتى ونشرهم إذا بعثهم)

ب. فقولهم: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولى﴾ الضمير فيه للعاقبة والنهاية أي ليست عاقبة أمرنا ونهاية وجودنا وحياتنا إلا موتتنا الأولى فنعدم بها ولا حياة بعدها أبدا.

ج. ووجه تقييد الموتة في الآية بالأولى، بأنه ليس بقيد احترازي إذ لا ملازمة بين الأول والآخر أو بين الأول والثاني فمن الجائز أن يكون هناك شيء أول ولا ثاني له ولا في قباله آخر، كذا قيل.

د. وهناك وجه آخر ذكره الزمخشري في الكشاف فقال: (فإن قلت: كان الكلام واقعا في الحياة الثانية لا في الموت فهلا قيل: إلا حياتنا الأولى وما نحن بمنشرين كما قيل: إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين، وما معنى قوله: ﴿إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولى﴾؟ وما معنى ذكر الأولى؟ كأنهم وعدوا موتة أخرى حتى

نفوها وجحدوها وأثبتوا الأولى، قلت: معناه، والله الموفق للصواب، أنهم قيل لهم: إنكم تموتون موتة تتعقبها حياة كما تقدمتكم موتة قد تعقبتها حياة وذلك قوله عز وجل: ﴿وَكُنْتُمْ أَمْواتاً فَأَحْياكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ فقالوا: إن هي إلا موتتنا الأولى يريدون ما الموتة التي من شأنها أن تتعقبها حياة إلا الموتة الأولى دون الموتة الثانية، وما هذه الصفة التي تصفون بها الموتة من تعقب الحياة لها إلا للموتة الأولى خاصة فلا فرق إذا بين هذا وبين قوله: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَياتُنَا الدُّنْيا﴾ في المعنى)

هـ. ويمكن أن يوجه بوجه ثالث وهو أن يقولوا: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولى﴾ بعد ما سمعوا قوله تعالى: ﴿قالُوا رَبَّنا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ﴾ الآية، وقد تقدم في تفسير الآية أن الإماتة الأولى هي الموتة بعد الحياة الدنيا، والإماتة الثانية هي التي بعد الحياة البرزخية فهم في قولهم: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولى﴾ ينفون الموتة الثانية الملازمة للحياة البرزخية التي هي حياة بعد الموت فإنهم يرون موت الإنسان انعداما له وبطلانا لذاته.

و. ويمكن أن يوجه بوجه رابع وهو أن يرجع التقيد بالأولى إلى الحكاية دون المحكي وذلك بأن يكون الذي قالوا إنما هو ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا﴾ ويكون معنى الكلام أن هؤلاء ينفون الحياة بعد الموت ويقولون: إن هي إلا موتتنا يريدون الموتة الأولى من الموتتين اللتين ذكرنا في قولنا: ﴿قالُوا رَبَّنا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ﴾ الآية.

ز. والوجوه الأربع مختلفة في القرب من الفهم فأقربها ثالثها ثم الرابع ثم الأول.

٢. ﴿فَأْتُوا بِآبائِنا إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ﴾ تتمة كلام القوم وخطاب منهم للنبي ﷺ والمؤمنين به حيث كانوا يذكرون لهم البعث والإحياء فاحتجوا لرد الإحياء بعد الموت بقولهم: ﴿فَأْتُوا بِآبائِنا إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ﴾ أي فليحي آباؤنا الماضون بدعائكم أو بأي وسيلة اتخذتموها حتى نعلم صدقكم في دعواكم أن الأموات سيحيون وأن الموت ليس بانعدام.

٣. ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْناهُمْ إِنَّهُمْ كانُوا مُجْرِمِينَ﴾:

أ. تهديد للقوم بالإهلاك كما أهلك قوم تبع والذين من قبلهم من الأمم.

ب. وتبع هذا ملك من ملوك الحمير باليمن واسمه على ما ذكروا أسعد أبو كرب وقيل: سعد أبو كرب وسيأتي في البحث الروائي نبذة من قصته وفي الكلام نوع تلويح إلى سلامة تبع نفسه من الإهلاك.

٤. أحاديث وآثار:

أ. في المجمع في قوله تعالى: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ﴾ روى سهل بن ساعد عن النبي ﷺ أنه قال: لا تسبوا تبعا فإنه كان قد أسلم.

• أقول: وروي هذا المعنى في الدر المنثور، عن ابن عباس أيضا، وأيضا عن ابن عساكر عن عطاء بن أبي رباح عن النبي ﷺ.

ب. وفيه، وروى الوليد بن صبيح عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن تبعا قال للأوس والخزرج: كونوا هاهنا حتى يخرج هذا النبي، أما أنا فلو أدركته لخدمته وخرجت معه.

ج. أخرج أبو نعيم في الدلائل عن عبد الله بن سلام قال: لم يمت تبع حتى صدق بالنبي ﷺ، لما كان يهود يثرب يخبرونه.

• أقول: والأخبار في أمر تبع كثيرة، وفي بعضها أنه أول من كسا الكعبة.

٧. خلق السموات والأرض بالحق لا للعب:

المقطع [٧] من سورة الدخان، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الدخان: ٣٨ـ٣٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ١٤٧»:

١. ﴿وَما خَلَقْنَا السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما لاعِبِينَ ما خَلَقْناهُما إِلَّا بِالْحَقِّ وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾:

أ. ضمير التثنية في قوله: ﴿وَما بَيْنَهُما﴾ لجنسي السماوات والأرض ولذا لم يجمع، والباء في قوله: ﴿بِالْحَقِ﴾ للملابسة أي ما خلقناهما إلا متلبستين بالحق، وجوز بعضهم كونها للسببية أي ما خلقناهما بسبب من الأسباب إلا بسبب الحق الذي هو الإيمان والطاعة والبعث والجزاء، ولا يخفى بعده.

ب. ومضمون الآيتين حجة برهانية على ثبوت المعاد وتقريرها أنه لو لم يكن وراء هذا العالم عالم ثابت باق بل كان الله لا يزال يوجد أشياء ثم يعدمها ثم يوجد أشياء أخر ثم يعدمها ويحيي هذا ثم يميته ويحيي آخر وهكذا كان لاعبا في فعله عابثا به واللعب عليه تعالى محال ففعله حق له غرض صحيح فهناك عالم آخر باق دائمي ينتقل إليه الأشياء وما في هذا العالم الدنيوي الفاني البائد مقدمة للانتقال إلى ذلك العالم

وهو الحياة الآخرة.

ج. وقد فصلنا القول في هذا البرهان في تفسير [الآية: ١٦] من سورة الأنبياء، [والآية: ٢٧] من سورة ص فليراجع.

٢. ﴿وَلٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ تقريع لهم بالجهل.

٨. يوم الفصل لا ينفع فيه مولىً ولا نصير:

المقطع [٨] من سورة الدخان، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَنْ مَوْلًى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الدخان: ٤٠-٤٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ١٤٧»:

١. ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾:

أ. بيان لصفة اليوم الذي يثبته البرهان السابق وهو يوم القيامة الذي فيه يقوم الناس لرب العالمين.

ب. وسماه الله يوم الفصل لأنه يفصل فيه بين الحق والباطل وبين المحق والمبطل والمتقين والمجرمين أو لأنه يوم القضاء الفصل منه تعالى.

٢. ﴿مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي موعد الناس أجمعين أو موعد من تقدم ذكره من قوم تبع وقوم فرعون ومن تقدمهم وقريش وغيرهم.

٣. ﴿يَوْمَ لا يُغْنِي مَوْلًى عَنْ مَوْلًى شَيْئاً وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾:

أ. بيان ليوم الفصل، والمولى هو الصاحب الذي له أن يتصرف في أمور صاحبه ويطلق على من يتولى الأمر وعلى من يتولى أمره والمولى الأول في الآية هو الأول والثاني هو الثاني.

ب. والآية تنفي أولا إغناء مولى عن مولاه يومئذ، وتخبر ثانيا أنهم لا ينصرون والفرق بين المعنيين أن الإغناء يكون فيما استقل المغني في عمله ولا يكون لمن يغني عنه صنع في ذلك، والنصرة إنما تكون فيما كان للمنصور بعض أسباب الظفر الناقصة ويتم له ذلك بنصرة الناصر.

ج. والوجه في انتفاء الإغناء والنصر يومئذ أن الأسباب المؤثرة في نشأة الحياة الدنيا تسقط يوم القيامة، قال تعالى: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبابُ﴾ [البقرة: ١٦٦]، وقال: ﴿فَزَيَّلْنا بَيْنَهُمْ﴾ [يونس: ٢٨]

٤. ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾:

أ. استثناء من ضمير ﴿لا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ والآية من أدلة الشفاعة يومئذ وقد تقدم تفصيل القول في الشفاعة في الجزء الأول من الكتاب، هذا على تقدير رجوع ضمير ﴿لا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ إلى الناس جميعا على ما هو الظاهر.

ب. وأما لو رجع إلى الكفار كما قيل فالاستثناء منقطع والمعنى: لكن من رحمة الله وهم المتقون فإنهم في غني عن مولى يغني عنهم وناصر ينصرهم.

ج. وأما ما جوزه بعضهم من كونه استثناء متصلا من ﴿مَوْلًى﴾ فقد ظهر فساده مما قدمناه فإن الإغناء إنما هو فيما لم يكن عند الإنسان شيء من أسباب النجاة ومن كان على هذه الصفة لم يغن عنه مغن ولا استثناء والشفاعة نصرة تحتاج إلى بعض أسباب النجاة وهو الدين المرضي وقد تقدم في بحث الشفاعة، نعم يمكن أن يوجه بما سيجيء في رواية الشحام.

٥. ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ أي الغالب الذي لا يغلبه شيء حتى يمنعه من تعذيب من يريد عذابه، ومفيض الخير على من يريد أن يرحمه ويفيض الخير عليه ومناسبة الاسمين الكريمين لمضامين الآيات ظاهرة.

٦. أحاديث وآثار: في الكافي، بإسناده عن زيد الشحام قال: قال لي أبو عبد الله عليه السلام ونحن في الطريق في ليلة الجمعة: اقرأ فإنها ليلة الجمعة قرآنا، فقرأت ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقاتُهُمْ أَجْمَعِينَ يَوْمَ لا يُغْنِي مَوْلًى عَنْ مَوْلًى شَيْئاً وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللهُ﴾ فقال أبو عبد الله عليه السلام: نحن والله الذي استثنى الله، فكنا نغني عنهم.

- أقول: يشير عليه السلام إلى الشفاعة وقد أخذ الاستثناء عن (مولى) الأول.

٩. الزقوم والحميم والعذاب:

المقطع [٩] من سورة الدخان، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ طَعَامُ الْأَثِيمِ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ﴾ [الدخان: ٤٣-٥٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ١٤٨»:

١. ﴿إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ طَعامُ الْأَثِيمِ﴾ تقدم الكلام في شجرة الزقوم في تفسير سورة الصافات،

والأثيم من استقر فيه الإثم إما بالمداومة على معصية أو بالإكثار من المعاصي والآية إلى تمام ثمان آيات بيان حال أهل النار.

٢. ﴿كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ﴾ المهل هو المذاب من النحاس والرصاص وغيرهما، والغلي والغليان معروف، والحميم الماء الحار الشديد الحرارة، وقوله: ﴿كَالْمُهْلِ﴾ خبر ثان لقوله: ﴿إِنَ﴾ كما أن قوله: ﴿طَعامُ الْأَثِيمِ﴾ خبر أول، وقوله: ﴿يَغْلِي فِي الْبُطُونِ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ﴾ خبر ثالث، والمعنى ظاهر.

٣. ﴿خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلى سَواءِ الْجَحِيمِ﴾ الاعتلاء الزعزعة والدفع بعنف وسواء الجحيم وسطه، والخطاب للملائكة الموكلين على النار أي نقول للملائكة خذوا الأثيم وادفعوه بعنف إلى وسط النار لتحيط به قال تعالى: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكافِرِينَ﴾ [التوبة: ٤٩]

٤. ﴿ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذابِ الْحَمِيمِ﴾ كان المراد بالعذاب ما يعذب به، وإضافته إلى الحميم بيانية والمعنى: ثم صبوا فوق رأسه من الحميم الذي يعذب به.

٥. ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ خطاب يخاطب به الأثيم وهو يقاسي العذاب بعد العذاب، وتوصيفه بالعزة والكرامة على ما هو عليه من الذلة واللآمة استهزاء به تشديدا لعذابه وقد كان يرى في الدنيا لنفسه عزة وكرامة لا تفارقانه كما يظهر مما حكى الله سبحانه من قوله: ﴿وَما أَظُنُّ السَّاعَةَ قائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنى﴾ [فصلت: ٥٠]

٦. ﴿إِنَّ هذا ما كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ﴾:

أ. الامتراء الشك والارتياب، والآية تتمة قولهم له: ﴿ذُقْ﴾، وفيها تأكيد وإعلام لهم بخطاهم وزلتهم في الدنيا حيث ارتابوا فيما يشاهدونه اليوم من العذاب مشاهدة عيان، ولذا عبر عن تحمل العذاب بالذوق لما أنه يعبر عن إدراك ألم المولمات ولذة الملذات إدراكا تاما بالذوق.

ب. ويمكن أن تكون الآية استئنافا من كلام الله سبحانه يخاطب به الكفار بعد ذكر حالهم في يوم القيامة، وربما أيده قوله: ﴿كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ﴾ بخطاب الجمع والخطاب في الآيات السابقة بالإفراد.

٧. أحاديث وآثار: في تفسير القمي، ثم قال: ﴿إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ طَعامُ الْأَثِيمِ﴾ نزلت في أبي جهل بن هشام، وقوله: ﴿كَالْمُهْلِ﴾ قال: المهل الصفر المذاب ﴿يَغْلِي فِي الْبُطُونِ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ﴾ وهو الذي قد حمي وبلغ المنتهى.

• أقول: ومن طرق أهل السنة أيضا روايات تؤيد نزول الآية في أبي جهل.

١٠. المتقون في جنات وعيون:

المقطع [١٠] من سورة الدخان، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ فَضْلًا مِنْ رَبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [الدخان: ٥١-٥٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ١٤٩»:

١. ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقامٍ أَمِينٍ﴾ المقام محل القيام بمعنى الثبوت والركوز ولذا فسر أيضا بموضع الإقامة، والأمين صفة من الأمن بمعنى عدم إصابة المكروه، والمعنى: أن المتقين، يوم القيامة، ثابتون في محل ذي أمن من إصابة المكروه مطلقا، وبذلك يظهر أن نسبة الأمن إلى المقام بتوصيف المقام بالأمين من المجاز في النسبة.

٢. ﴿فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ بيان لقوله: ﴿فِي مَقامٍ أَمِينٍ﴾ وجعل العيون ظرفا لهم باعتبار المجاورة ووجودها في الجنات التي هي ظرف، وجمع الجنات باعتبار اختلاف أنواعها أو باعتبار أن لكل منهم وحده جنة أو أكثر.

٣. ﴿يَلْبَسُونَ مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقابِلِينَ﴾ السندس الرقيق من الحرير والإستبرق الغليظ منه وهما معربان من الفارسية.

٤. ﴿مُتَقَابِلِينَ﴾ أي يقابل بعضهم بعضا للاستيناس إذ لا شر ولا مكروه عندهم لكونهم في مقام أمين.

٥. ﴿كَذلِكَ وَزَوَّجْناهُمْ بِحُورٍ عِينٍ﴾ أي الأمر كذلك أي كما وصفناه والمراد بتزويجهم بالحور جعلهم قرناء لهن من الزوج بمعنى القرين وهو أصل التزويج في اللغة، والحور جمع حوراء بمعنى شديدة سواد العين وبياضها أو ذات المقلة السوداء كالظباء، والعين جمع عيناء بمعنى عظيمة العينين، وظاهر كلامه تعالى أن الحور العين غير نساء الدنيا الداخلة في الجنة.

٦. ﴿يَدْعُونَ فِيها بِكُلِّ فاكِهَةٍ آمِنِينَ﴾ أي آمنين من ضررها.

٧. ﴿لا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولى وَوَقاهُمْ عَذابَ الْجَحِيمِ﴾:

أ. أي إنهم في جنة الخلد أحياء بحياة أبدية لا يعتريها موت.

ب. سؤال وإشكال: وقد استشكل في الآية بأن استثناء الموتة الأولى من قوله: ﴿لا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ﴾ يفيد أنهم يذوقون الموتة الأولى فيها، والمراد خلافه قطعا، وبتقرير آخر الموتة الأولى هي موتة الدنيا وقد مضت بالنسبة إلى أهل الجنة، والتلبس في المستقبل بأمر ماض محال قطعا فما معنى استثناء الموتة الأولى من عدم الذوق في المستقبل؟ والجواب:

- أجيب عن الإشكال بأن الاستثناء منقطع، والمعنى: لكنهم قد ذاقوا الموتة الأولى في الدنيا وقد مضت فعموم قوله: ﴿لا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ﴾ على حاله.
- وعلى تقدير عدم كون الاستثناء منقطعا (إلا) بمعنى سوى و﴿إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى﴾ بدل من ﴿الْمَوْتَ﴾ وليس من الاستثناء في شيء، والمعنى: لا يذوقون فيها سوى الموتة الأولى من الموت أما الموتة الأولى فقد ذاقوها ومحال أن تعود وتذاق وهي أولى.
- وأجيب ببعض وجوه أخر لا يعبأ به، وأنت خبير بأن شيئا من الوجهين لا يوجه اتصاف الموتة بالأولى وقد تقدم في تفسير قوله: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَى﴾ الآية، وجوه في ذلك.

ج. سؤال وإشكال: وهنا إشكال آخر لم يتعرضوا له وهو أنه قد تقدم في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ﴾ [المؤمن: ١١]، إن بين الحياة الدنيا والساعة موتتين: موتة بالانتقال من الدنيا إلى البرزخ وموتة بالانتقال من البرزخ إلى الآخرة، والظاهر أن المراد بالموتة الأولى في الآية هي موتة الدنيا الناقلة للإنسان إلى البرزخ فهب أنا أصلحنا استثناء الموتة الأولى بوجه فما بال الموتة الثانية لم تستثن؟ وما الفرق بينهما وهما موتتان ذاقوهما قبل الدخول في جنة الخلد؟ والجواب:

- يمكن أن يجاب عنه بالجواب الثاني المتقدم لما أن هناك موتتين الموتة الأولى وهي الناقلة للإنسان من الدنيا إلى البرزخ والموتة الثانية وهي الناقلة له من البرزخ إلى الآخرة فإذا كان ﴿إِلَّا﴾ في قوله: ﴿إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى﴾ بمعنى سوى والمجموع بدلا من الموت كانت الآية مسوقة لنفي غير الموتة الأولى وهي الموتة الثانية التي هي موتة البرزخ فلا موت في جنة الآخرة لا موتة الدنيا لأنها تحققت لهم قبلا ولا غير موتة الدنيا التي هي موتة البرزخ، ويتبين بهذا وجه تقييد الموتة بالأولى.

٨. ﴿وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ الوقاية حفظ الشيء مما يؤذيه ويضره، فالمعنى: وحفظهم من

عذاب الجحيم، وذكر وقايتهم من عذاب الجحيم مع نفي الموت عنهم تتميم لقسمة المكاره أي إنهم مصونون من الانتقال من دار إلى دار ومن نشأة الجنة إلى نشأة غيرها وهو الموت ومصونون من الانتقال من حال سعيدة إلى حال شقية وهي عذاب الجحيم.

٩. ﴿فَضْلاً مِنْ رَبِّكَ ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ حال مما تقدم ذكره من الكرامة والنعمة، ويمكن أن يكون مفعولا مطلقا أو مفعولا له، وعلى أي حال هو تفضل منه تعالى من غير استحقاق من العباد استحقاقا يوجب عليه تعالى ويلزمه على الإثابة فإنه تعالى مالك غير مملوك لا يتحكم عليه شيء، وإنما هو وعده لعباده ثم أخبر أنه لا يخلف وعده، وقد تقدم تفصيل القول في هذا المعنى في الأبحاث السابقة.

١٠. ﴿ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ الفوز هو الظفر بالمراد وكونه فوزا عظيما لكونه آخر ما يسعد به الإنسان.

١١. تيسير القرآن للذكر:

المقطع [١١] من سورة الدخان، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ﴾ [الدخان: ٥٨-٥٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ١٥١»:

١. ﴿فَإِنَّما يَسَّرْناهُ بِلِسانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾:

أ. تفريع على جميع ما تقدم من أول السورة إلى هنا وفذلكة للجميع، والتيسير التسهيل، والضمير للكتاب والمراد بلسان النبي ﷺ العربية.

ب. والمعنى: فإنما سهلنا القرآن، أي فهم مقاصده، بالعربية لعلهم، أي لعل قومك، يتذكرون فتكون الآية قريبة المعنى من قوله: ﴿إِنَّا جَعَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف: ٣]

ج. وقيل: المراد من تيسير الكتاب بلسان النبي ﷺ إجراؤه على لسانه وهو أمي لا يقرأ ولا يكتب ليكون آية لصدق نبوته، وهو بعيد من سياق الفذلكة.

٢. ﴿فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ﴾:

أ. كأنه متفرع على ما يتفرع على الآية السابقة، ومحصل المعنى أنا يسرناه بالعربية رجاء أن يتذكروا فلم يتذكروا بل هم في شك يلعبون وينتظرون العذاب الذي لا مرد له من المكذبين فانتظر العذاب إنهم منتظرون له.

ب. فإطلاق المرتقبين على القوم من باب التهكم، ومن سخيف القول قول من يقول إن في الآية أمرا بالمتاركة وهي منسوخة بآية السيف.

سورة الجاثية

هذه السورة الكريمة تحتوي على [١٥] مقطعاً، وهذا تعريف بمقاصدها، ومحتويات مقاطعها:

مقاصد السورة ومحتوياتها:

أ. غرض السورة دعوة عامة على الإنذار، تفتتح بآيات الوحدانية، ثم تذكر تشريع الشريعة للنبي ﷺ، وتشير إلى لزوم اتباعها له ولغيره، بما أن أمامهم يوماً يحاسبون فيه على أعمالهم الصالحة من الإيمان واتباع الشريعة، واجتراحهم السيئات بالإعراض عن الدين.

ب. ثم تذكر ما سيجري على الفريقين في ذلك اليوم وهو يوم القيامة.

ج. وفي خلال مقاصدها إنذار ووعيد شديد للمستكبرين المعرضين عن آيات الله، والذين اتخذوا إلههم هواهم وأضلهم الله على علم.

د. ومن طرائف مطالبها بيان معنى كتابة الأعمال واستنساخها.

هـ. والسورة مكية بشهادة سياق آياتها، واستثنى بعضهم قوله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ الآية، ولا شاهد له.

مقاطع السورة ونظمها:

١. الآيات [١ ـ ١٣] لم يذكر البيان المرتبط بها، وهي تذكر أن القرآن الكريم كتاب منزل من الله العزيز الحكيم، وتعدد آيات الله في السماوات والأرض وفي خلق الإنسان، وتقرر أن الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب أليم، وتسخر من الذين يتخذون آيات الله هزواً، وتذكر أن الله سخر للإنسان ما في السماوات والأرض.

٢. الآيات [١٤ ـ ١٩]:

أ. لما ذكر آيات الوحدانية وأشار فيها بعض الإشارة إلى المعاد، وكذا إلى النبوة في ضمن ذكر تنزيل الكتاب، وإيعاد المستكبرين المستهزئين به، ذكر في هذه الآيات تشريع الشريعة للنبي ﷺ.

ب. وتوسل إلى ذلك بمقدمتين تربطانه بما تقدم من الكلام:

• إحداهما: دعوة المؤمنين إلى أن يكفوا عن التعرض لحال الكفار الذين لا يرجون أيام الله، فإن الله

مجازيهم لأن الأعمال مسئول عنها صالحة أو طالحة، وهذا هو السبب لتشريع الشريعة.

• والثانية: أن إنزال الكتاب والحكم والنبوة ليس ببدع، فقد آتى الله بني إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة، وآتاهم البينات التي لا يبقى معها في دين الله ريب لمرتاب، إلا أن علماءهم اختلفوا فيه بغياً منهم، وسيقضي الله بينهم.

ج. ثم ذكر سبحانه تشريع الشريعة له، وأمره باتباعها، ونهاه عن اتباع أهواء الجاهلين.

٣. الآيات [٢٠ ـ ٣٧]:

أ. لما أشار إلى جعل النبي ﷺ على شريعة من الأمر، وهو تشريع الشريعة الإسلامية، أشار في هذه الآيات إلى أنها بصائر للناس يبصرون بها ما يجب عليهم أن يسلكوه من سبيل الحياة الطيبة في الدنيا، وتتلوها سعادة الحياة الآخرة، وهدى ورحمة لقوم يوقنون بآيات الله.

ب. وأشار إلى أن الذي يدعو مجترحي السيئات أن يستنكفوا عن التشرع بالشريعة، إنكارهم المعاد، فيحسبون أنهم والمتشرعون بالدين سواء في الحياة والمات، وأن لا أثر للتشرع بالشريعة، فلا ثمرة للعمل الصالح الذي تهدي إليه الشريعة إلا إتعاب النفس بالتقيد من غير موجب.

ج. فبرهن تعالى على بطلان حسبانهم بإثبات المعاد، ثم أردفه بوصف المعاد وما يثيب به الصالحين يومئذ، وما يعاقب به الطالحين أهل الجحود والإجرام، وعند ذلك تختتم السورة بالتحميد والتسبيح.

١. تنزيل الكتاب وآيات الله الكونية للمؤمنين الموقنين:

المقطع [١] من سورة الجاثية، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهَّ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللهَّ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ تِلْكَ آيَاتُ اللهَّ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللهَّ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ [الجاثية: ٢ـ٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ١٥٤»:

١. ﴿حم تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾:

أ. الظاهر أن ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ﴾ من إضافة الصفة إلى الموصوف والمصدر بمعنى المفعول، و﴿مِنَ اللهِ﴾ متعلق بتنزيل، والمجموع خبر لمبتدإ محذوف.

ب. والمعنى: هذا كتاب منزل من الله العزيز الحكيم، وقد تقدم الكلام في مفردات الآية فيما تقدم.

٢. ﴿إِنَّ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ لَآياتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾:

أ. آية الشيء علامته التي تدل عليه وتشير إليه، والمراد بكون السماوات والأرض فيها آيات كونها بنفسها آيات له فليس وراء السماوات والأرض وسائر ما خلق الله أمر مظروف لها هو آية دالة عليه تعالى.

ب. ومن الدليل على ما ذكرنا اختلاف التعبير فيها في كلامه تعالى فتارة يذكر أن في الشيء آية له وأخرى يعده بنفسه آية كقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ لَآياتٍ﴾ [آل عمران: ١٩٠]، وقوله: ﴿وَمِنْ آياتِهِ خَلْقُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الروم: ٢٢]، ونظائرهما كثيرة، ويستفاد من اختلاف التعبير الذي فيها أن معنى كون الشيء فيه آية هو كونه بنفسه آية كما يستفاد من اختلاف التعبير في مثل قوله: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ لَآياتٍ﴾، وقوله: ﴿إِنَّ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ لَآياتٍ﴾ الآية، أن المراد من خلق السماوات والأرض نفسها لا غير.

ج. والعناية في أخذ الشيء ظرفا للآية مع كونه بنفسه آية اعتبار جهات وجوده وإن لوجوده جهة أو جهات كل واحدة منها آية من الآيات ولو أخذت نفس الشيء لم يستقم إلا أخذها آية واحدة كما في قوله تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آياتٌ لِلْمُوقِنِينَ﴾ [الذاريات: ٢٠]، ولو أخذت الآية نفس الأرض لم يستقم إلا أن يقال: والأرض آية للموقنين وضاع المراد وهو أن في وجود الأرض جهات كل واحدة منها آية وحدها.

د. فمعنى قوله: ﴿إِنَّ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾، إن لوجود السماوات والأرض جهات دالة على أن الله تعالى هو خالقها المدبر لها وحده لا شريك له فإنها بحاجتها الذاتية إلى من يوجدها وعظمة خلقتها وبداعة تركيبها واتصال وجود بعضها ببعض وارتباطه على كثرتها الهائلة واندراج أنظمتها الجزئية الخاصة بكل واحد تحت نظام عام يجمعها ويحكم فيها تدل على أن لها خالقا هو وحده ربها المدبر أمرها فلو لا أن هناك من يوجدها لم توجد من رأس، ولو لا أن مدبرها واحد لتناقضت النظامات وتدافعت واختلف التدبير.

هـ. ومما تقدم يظهر أن قول بعضهم: إن قوله: ﴿فِي السَّماواتِ﴾ بتقدير مضاف محذوف والتقدير في خلق السماوات، تكلف من غير ضرورة تدعو إليه.

٣. ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ وَما يَبُثُّ مِنْ دابَّةٍ آياتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾:

أ. البث التفريق والإثارة وبثه تعالى للدواب خلقها وتفريقها ونشرها على الأرض كما قال في خلق الإنسان: ﴿ثُمَّ إِذا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ﴾ [الروم: ٢٠]

ب. ومعنى الآية: وفيكم من حيث وجودكم المخلوق وفيما يفرقه الله من دابة من حيث خلقها آيات لقوم يسلكون سبيل اليقين.

ج. وخلق الإنسان على كونه موجودا أرضيا له ارتباط بالمادة نوع آخر من الخلق يغاير خلق السماوات والأرض لأنه مركب من بدن أرضي مؤلف من مواد كونية عنصرية تفسد بالموت بالتفرق والتلاشي وأمر آخر وراء ذلك علوي غير مادي لا يفسد بالموت بل يتوفى ويحفظ عند الله، وهو الذي يسميه القرآن بالروح قال تعالى: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾ [الحجر: ٢٩]، وقال بعد ذكر خلق الإنسان من نطفة ثم من علقة ثم مضغة ثم تتميم خلق بدنه: ﴿ثُمَّ أَنْشَأْناهُ خَلْقاً آخَرَ﴾ [المؤمنون: ١٤] وقال: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾ الم [السجدة: ١١]

د. فالناظر في خلق الإنسان ناظر في آية ملكوتية وراء الآيات المادية وكذا الناظر في خلق الدواب ولها نفوس ذوات حياة وشعور وإن كانت دون الإنسان في حياتها وشعورها كما أنها دونه في تجهيزاتها البدنية ففي الجميع آيات لأهل اليقين يعرفون بها الله سبحانه بأنه واحد لا شريك له في ربوبيته وألوهيته.

٤. ﴿وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ﴾:

أ. هذا القبيل من الآيات آيات ما بين السماء والأرض.

ب. يريد به اختلافهما في الطول والقصر اختلافا منظما باختلاف الفصول الأربعة بحسب بقاع الأرض المختلفة ويتكرر بتكرر السنين يدبر سبحانه بذلك أقوات أهل الأرض ويربيهم بذلك تربية صالحة قال تعالى: ﴿وَقَدَّرَ فِيها أَقْواتَها فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَواءً لِلسَّائِلِينَ﴾ [فصلت: ١٠]

٥. ﴿وَما أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّماءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها﴾ المراد بالرزق الذي ينزله الله من السماء هو المطر تسمية للسبب باسم المسبب مجازا أو لأن المطر أيضا من الرزق فإن مياه الأرض من المطر، والمراد بالسماء جهة العلو أو السحاب مجازا، وإحياء الأرض به بعد موتها هو إحياء ما فيها من النبات بالأخذ في الرشد والنمو، ولا يخلو التعرض للإحياء بعد الموت من تلويح إلى المعاد.

٦. ﴿وَتَصْرِيفِ الرِّياحِ﴾ أي تحويلها وإرسالها من جانب إلى جانب، لتصريفها فوائد عامة كثيرة

من أعمها سوق السحب إلى أقطار الأرض وتلقيح النباتات ودفع العفونات والروائح المنتنة.

٧. ﴿آياتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي يميزون بين الحق والباطل والحسن والقبيح بالعقل الذي أودعه الله سبحانه فيهم.

٨. وقد خص كل قبيل من الآيات بقوم خاص، فخصت آية السماوات والأرض بالمؤمنين وآية الإنسان وسائر الحيوان بقوم يوقنون، وآية اختلاف الليل والنهار والأمطار وتصريف الرياح بقوم يعقلون، ولعل الوجه في ذلك:

أ. أن آية السماوات والأرض تدل بدلالة بسيطة ساذجة على أنها لم توجد نفسها بنفسها ولا عن اتفاق وصدفة بل لها موجد أوجدها مع ما لها من الآثار والأفعال التي يتحصل منها النظام المشهود فخالقها خالق الجميع ورب الكل، والإنسان يدرك ذلك بفهمه البسيط الساذج والمؤمنون بجميع طبقاتهم يفهمون ذلك وينتفعون به.

ب. وأما أنه خلق الإنسان وسائر الدواب التي لها حياة وشعور فإنها من حيث أرواحها ونفوسها الحية الشاعرة من عالم وراء عالم المادة وهو المسمى بالملكوت وقد خص القرآن كمال إدراكه ومشاهدته بأهل اليقين كما قال: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام: ٧٥]

ج. وأما آية اختلاف الليل والنهار والأمطار المحيية للأرض وتصريف الرياح فإنها لتنوع أقسامها وتعدد جهاتها وارتباطها بالأرض والأرضيات وكثرة فوائدها وسعة منافعها تحتاج إلى تعقل فكري تفصيلي عميق ولا تنال بالفهم البسيط الساذج ولذلك خصت بقوم يعقلون والآيات آيات لجميع الناس لكن لما كان المنتفع بها بعضهم خصت بهم.

د. وقد عبر عن أهل اليقين والعقل بقوم يوقنون وبقوم يعقلون وعن أهل الإيمان بالمؤمنين لأن بساطة آية أهل الإيمان تفيد أن المراد بالإيمان أصله وهو ثابت فيهم فناسب التعبير عنهم بالوصف بخلاف آيتي أهل اليقين والعقل فإنها لدقتها وعلو مناهلها تدركان شيئا فشيئا فناسبتا التعبير بالفعل المضارع الدال على الاستمرار التجددي.

٩. أقوال أخرى:

أ. قيل: في وجه ما في الآيات الثلاث من الترتيب بين أهلها حيث ذكر أولا أهل الإيمان ثم الإيقان ثم العقل أنه على ترتيب الترقي فإن الإيقان مرتبة خاصة في الإيمان فهو بعد الإيمان والعقل مدار الإيمان والإيقان ونعني العقل المؤيد بنور البصيرة فبسببه يخلص اليقين من اعتراء الشكوك من كل وجه وفي استحكامه كل خير، وروعي في ترتيب الآيات ما روعي في ترتيب المراتب الثلاث.

• وفيه أن مقتضى ما وصفه من أمر العقل وقوعه قبل الثاني بل قبل أول المراتب على أن ما ذكره من إمكان اعتراء الشكوك على اليقين مما لا سبيل إلى تصوره.

ب. وقيل في وجه الترتيب: أن تمام النظر في الثاني يضطر إلى النظر في الأول لأن السماوات والأرض من أسباب تكون الحيوان بوجه فيجب أن تذكر قبله، وكذلك النظر في الثالث يضطر إلى النظر في الأولين أما الأول فظاهر، وأما الثاني فلأنه العلة الغائية فلا بد أن يكون جامعا أي إن الثالث وهو المعلول يتوقف في معرفته على ذكر علته الغائية قبله.

• وفيه أنه على تقدير صحته وجه لترتب الآيات دون مراتب الصفات الثلاث أعني الإيمان والإيقان والعقل، على أن الثالث أيضا كالأول من أسباب تكون الحيوان فيجب أن يتقدم على الثاني، وبوجه آخر الثاني علة غائية للأول فيجب أن يتقدم على الأول كما تقدم على الثالث.

ج. وقيل: إن السبب في ترتيب هذه الفواصل أنه قيل: إن كنتم مؤمنين فافهموا هذه الدلائل، وإن كنتم لستم بمؤمنين وكنتم من طلاب الجزم واليقين فافهموا هذه الدلائل، وإن كنتم لستم بمؤمنين ولا موقنين فاجتهدوا في معرفة هذه الدلائل.

• وفيه أنه على تقدير صحته وجه لترتب الصفات الثلاث دون أقسام الآيات الثلاثة على أن لازمه أن لا يختص شيء من الآيات الثلاث بواحدة من الصفات الثلاث بل يكون الجميع للجميع والسياق لا يساعد عليه على أن ظاهر كلامه أنه فسر اليقين بالجزم وهو العلم فلا يبقى للعقل إلا الحكم الظني ولا يعبأ به في المعارف الاعتقادية.

١٠. ﴿تِلْكَ آياتُ اللهِ نَتْلُوها عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللهِ وَآياتِهِ يُؤْمِنُونَ﴾:

أ. الإيمان بأمر هو العلم به مع الالتزام به عملا فلو لم يلتزم لم يكن إيمانا وإن كان هناك علم، قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِها وَاسْتَيْقَنَتْها أَنْفُسُهُمْ﴾ [النمل: ١٤]، وقال: ﴿وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلى عِلْمٍ﴾ [الجاثية: ٢٣]

ب. والآيات هي العلامات الدالة فآيات الله الكونية هي الأمور الكونية الدالة بوجودها الخارجي على كونه تعالى واحدا في الخلق متصفا بصفات الكمال منزها عن كل نقص وحاجة، والإيمان بهذه الآيات هو الإيمان بدلالتها عليه تعالى ولازمه الإيمان به تعالى كما تدل هي عليه.

ج. والآيات القرآنية آيات له تعالى بما تدل على الآيات الكونية الدالة عليه سبحانه أو على معارف اعتقادية أو أحكام عملية أو أخلاق يرتضيها الله سبحانه ويأمر بها فإن مضامينها دالة عليه ومن عنده، والإيمان بهذه الآيات أيضا إيمان بدلالتها ويلزمه الإيمان بمدلولها.

د. والآيات المعجزة أيضا إما آيات كونية ودلالتها دلالة الآيات الكونية وإما غير كونية كالقرآن في إعجازه ومرجع دلالتها إلى دلالة الآيات الكونية.

١١. ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ﴾ الإشارة إلى الآيات القرآنية المتلوة عليه ﷺ، ويمكن أن تكون إشارة إلى الآيات الكونية المذكورة في الآيات الثلاث السابقة بعناية الاتحاد بين الدال والمدلول.

١٢. ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ﴾:

أ. قيل: هو من قبيل قولك: أعجبني زيد وكرمه، وإنما أعجبك كرمه والمعنى بحسب النظر الدقيق أعجبني كرم زيد وزيد من حيث كرمه، فمعنى الآية فبأي حديث بعد آيات الله يعني الآيات القرآنية يؤمنون؟ يعني إذا لم يؤمنوا بهذا الحديث فبأي حديث بعده يؤمنون؟

ب. وقيل: الكلام بتقدير حديث أي إذا لم يؤمنوا فبأي حديث بعد حديث الله وآياته يؤمنون، والأنسب على هذا المعنى أن يكون المراد بالآيات الآيات الكونية ولذا قال الطبرسي بعد ذكر هذا المعنى: والفرق بين الحديث الذي هو القرآن وبين الآيات أن الحديث قصص يستخرج منه عبر تبيين الحق من الباطل، والآيات هي الأدلة الفاصلة بين الصحيح والفاسد) وأول الوجهين ألطف.

٢. الأفاك الأثيم وصفاته ومصيره:

المقطع [٢] من سورة الجاثية، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ يَسْمَعُ آيَاتِ اللهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ هَذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ﴾ [الجاثية: ٧-١١]، وفيه

المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ١٥٩»:

١. ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ الويل والهلاك، والأفاك مبالغة من الإفك وهو الكذب، والأثيم من الإثم بمعنى المعصية والمعنى: ليكن الهلاك على كل كذاب ذي معصية.

٢. ﴿يَسْمَعُ آياتِ اللهِ تُتْلى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِراً كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْها﴾:

أ. صفة لكل أفاك أثيم، و﴿ثُمَّ﴾ للتراخي الرتبي وتفيد معنى الاستبعاد، والإصرار على الفعل ملازمته وعدم الانفكاك عنه.

ب. والمعنى: يسمع آيات الله، وهي آيات القرآن، تقرأ عليه ثم يلازم الكفر والحال أنه مستكبر لا يتواضع للحق كأن لم يسمع تلك الآيات فبشره بعذاب أليم.

٣. ﴿وَإِذا عَلِمَ مِنْ آياتِنا شَيْئاً اتَّخَذَها هُزُواً﴾، ظاهر السياق أن ضمير (اتخذها) للآيات، وجعل الهزء متعلقا بالآيات دون ما علم منها يفيد كمال جهله، والمعنى: وإذا علم ذلك الأفاك الأثيم المصر المستكبر بعض آياتنا استهزأ بآياتنا جميعا.

٤. ﴿أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ﴾ أي مذل مخز، وتوصيف العذاب بالإهانة مقابلة لاستكبارهم واستهزائهم، والإشارة بأولئك إلى كل أفاك، وقيل في الآية بوجوه أخر أعرضنا عنها لعدم الجدوى فيها.

٥. ﴿مِنْ وَرائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلا يُغْنِي عَنْهُمْ ما كَسَبُوا شَيْئاً وَلا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ أَوْلِياءَ﴾:

أ. لما كانوا مشتغلين بالدنيا معرضين عن الحق غير ملتفتين إلى تبعات أعمالهم جعلت جهنم وراءهم مع أنها قدامهم وهم سائرون نحوها متوجهون إليها.

ب. وقيل: وراءهم بمعنى قدامهم قال في المجمع: (وراء اسم يقع على القدام والخلف فما توارى عنك فهو وراءك خلفك كان أو أمامك) وفي قوله: (من ورائهم جهنم) قضاء حتم.

٦. ﴿وَلا يُغْنِي عَنْهُمْ ما كَسَبُوا شَيْئاً﴾ المراد بما كسبوا ما حصلوه في الدنيا من مال ونحوه، وتنكير ﴿شَيْئاً﴾ للتحقير أي ولا يغني عنهم يوم الحساب ما كسبوه من مال وجاه وأنصار في الدنيا شيئا يسيرا حقيرا.

٧. ﴿وَلا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ أَوْلِياءَ﴾ ﴿ما﴾ مصدرية والمراد بالأولياء أرباب الأصنام الذين اتخذوهم أربابا آلهة وزعموا أنهم لهم شفعاء أو الأصنام.

٨. ﴿وَلَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ﴾ تأكيد لوعيدهم وقد أوعدهم الله سبحانه أولا بقوله: ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ﴾، وثانيا بقوله: ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذابٍ أَلِيمٍ﴾ وثالثا بقوله: ﴿أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ﴾ ورابعا بقوله: ﴿مِنْ وَرائِهِمْ جَهَنَّمُ﴾، وخامسا بقوله: ﴿وَلَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ﴾، ووصف عذابهم في خلالها بأنه أليم مهين عظيم.

٩. ﴿هذا هُدىً وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ﴾:

أ. الإشارة بقوله: ﴿هذا هُدىً﴾ إلى القرآن ووصفه بالهدى للمبالغة نحو زيد عدل والرجز، كما قيل، أشد العذاب وأصله الاضطراب.

ب. والآية في مقام الرد لما رموا به القرآن وعدوه مهانا بالهزء والسخرية وخلاصة وعيد من كفر بآياته.

٣. تسخير النعم والشكر:

المقطع [٣] من سورة الجاثية، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿اللهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ١٢ـ١٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ١٦١»:

١. ﴿اللهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ﴾:

أ. لما ذكر سبحانه حال الأفاكين من الاستكبار عن الإيمان بالآيات إذا تليت عليهم والاستهزاء بما علموا منها وأوعدهم أبلغ الإيعاد بأشد العذاب رجع إليهم بخطاب الجميع ممن يؤمن ويكفر، وذكر بعض آيات ربوبيته التي فيها من عظيم عليهم وليس في وسعهم إنكارها فذكر أولا تسخير البحر لهم ثم ما في السماوات والأرض جميعا ففيها آيات لا يكفر بها إلا من انسلخ عن الفطرة الإنسانية ونسي التفكر الذي هو من أجلى خواص الإنسان.

ب. فقوله: ﴿اللهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ﴾ اللام في ﴿لَكُمُ﴾ للغاية أي سخر لأجلكم البحر بأن خلقه على نحو يحمل الفلك ويقبل أن تجري فيه فينتفع به الإنسان، ويمكن أن تكون للتعدية فيكون الإنسان يسخر البحر بإذن الله.

٢. ﴿لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ﴾ غاية لتسخير البحر، وجريان الفلك فيه بأمره، هو إيجاد الجريان بكلمة كن فآثار الأشياء كنفس الأشياء منسوبة إليه تعالى وقوله: ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي ولتطلبوا

بركوبه عطيته تعالى وهو رزقه.

٣. ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي رجاء أن تشكروه تعالى قبال هذه النعمة التي هي تسخير البحر.

٤. ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ﴾، هذا من الترقي بعطف العام على الخاص، والكلام في ﴿لَكُمْ﴾ كالكلام في مثله في الآية السابقة، وقوله: ﴿جَمِيعاً﴾ تأكيد لما في السماوات والأرض أو حال منه.

٥. ﴿سَخَّرَ لَكُمْ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً﴾ معنى تسخيرها للإنسان أن أجزاء العالم المشهود تجري على نظام واحد يحكم فيها ويربط بعضها ببعض ويربط الجميع بالإنسان فينتفع في حياته من علويها وسفليها ولا يزال المجتمع البشري يتوسع في الانتفاع بها والاستفادة من توسيطها والتوسل بشتاتها في الحصول على مزايا الحياة فالكل مسخر له.

٦. ﴿مِنْهُ﴾ من للابتداء، والضمير لله تعالى وهو حال مما في السماوات والأرض، والمعنى: سخر لكم ما في السماوات والأرض جميعا حال كونه مبتدأ منه حاصلا من عنده فذوات الأشياء تبتدئ منه بإيجاده لها من غير مثال سابق وكذلك خواصها وآثارها بخلقه ومن خواصها وآثارها ارتباط بعضها ببعض وهو النظام الجاري فيها المرتبط بالإنسان قال تعالى: ﴿اللهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ [الروم: ١١]، وقال: ﴿إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾ [البروج: ١٣]، وقد ذكروا لقوله: ﴿مِنْهُ﴾ معاني أخر لا يخلو شيء منها عن التكلف تركنا التعرض لها.

٧. ﴿إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ وجه تعلقها بالتفكر ظاهر.

٤. المؤمنون يغفرون والجزاء على العمل:

المقطع [٤] من سورة الجاثية، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ [الجاثية: ١٤-١٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ١٦٣»:

١. ﴿قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللهِ﴾:

أ. أمر منه تعالى لنبيه ﷺ أن يأمر المؤمنين أن يغفروا للكفار فيصير تقدير الآية: قل لهم: اغفروا يغفروا فهي كقوله تعالى: ﴿قُلْ لِعِبادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلاةَ﴾ [إبراهيم: ٣١]

ب. والآية مكية واقعة في سياق الآيات السابقة الواصفة لحال المستكبرين المستهزءين بآيات الله المهددة لهم بأشد العذاب وكان المؤمنين بالنبي ﷺ كانوا إذا رأوا هؤلاء المستهزءين يبالغون في طعنهم وإهانتهم للنبي واستهزائهم بآيات الله لم يتمالكوا أنفسهم دون أن يدافعوا عن كتاب الله ومن أرسله به ويدعوهم إلى رفض ما هم فيه والإيمان مع كونهم ممن حقت عليهم كلمة العذاب كما هو ظاهر الآيات السابقة، فأمر الله سبحانه نبيه ﷺ أن يأمرهم بالعفو والصفح عنهم وعدم التعرض لحالهم فإن وبال أعمالهم سيلحق بهم وجزاء ما كسبوه سينالهم.

ج. وعلى هذا فالمراد بالمغفرة في قوله: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا﴾ الصفح والإعراض عنهم بترك مخاصمتهم ومجادلتهم، والمراد بالذين لا يرجون أيام الله هم الذين ذكروا في الآيات السابقة فإنهم لا يتوقعون لله أياما لا حكم فيها ولا ملك إلا له تعالى كيوم الموت والبرزخ ويوم القيامة ويوم عذاب الاستئصال.

٢. ﴿لِيَجْزِيَ قَوْماً بِما كانُوا يَكْسِبُونَ﴾:

أ. تعليل للأمر بالمغفرة أو للأمر بالأمر بالمغفرة ومحصله ليصفحوا عنهم ولا يتعرضوا لهم، فلا حاجة إلى ذلك لأن الله سيجزيهم بما كانوا يكسبون فتكون الآية نظيرة قوله: ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً إِنَّ لَدَيْنا أَنْكالاً وَجَحِيماً﴾ [المزمل: ١٢]، وقوله: ﴿ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام: ٩١] وقوله: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ [المعارج: ٤٢]، وقوله: ﴿فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف: ٨٩]

ب. ومعنى الآية: مر الذين آمنوا أن يعفوا ويصفحوا عن أولئك المستكبرين المستهزءين بآيات الله الذين لا يتوقعون أيام الله ليجزيهم الله بما كانوا يكسبون ويوم الجزاء يوم من أيامه أي ليصفحوا عن هؤلاء المنكرين لأيام الله حتى يجزيهم بأعمالهم في يوم من أيامه.

ج. وفي قوله: ﴿لِيَجْزِيَ قَوْماً﴾ وضع الظاهر موضع الضمير، وكان مقتضى الظاهر أن يقال: ليجزيهم، والنكتة فيه مع كون ﴿قَوْماً﴾ نكرة غير موصوفة تحقير أمرهم وعدم العناية بشأنهم كأنهم قوم منكرون لا يعرف شخصهم ولا يهتم بشيء من أمرهم.

د. وبما تقدم من تقرير معنى الآية تتصل الآية وما بعدها بما قبلها وتندفع الإشكالات التي

أوردوها عليها واهتموا بالجواب عنها، ويظهر فساد المعاني المختلفة التي ذكروها لها ومن أراد الاطلاع عليها فليراجع المطولات.

٣. ﴿مَنْ عَمِلَ صالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَساءَ فَعَلَيْها ثُمَّ إِلى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾:

أ. في موضع التعليل لقوله: ﴿لِيَجْزِيَ قَوْماً﴾، ولذا لم يعطف وليس من الاستئناف في شيء.

ب. ومحصل المعنى: ليجزيهم الله بما كسبوا فإن الأعمال لا تذهب سدى وبلا أثر بل من عمل صالحا انتفع به ومن أساء العمل تضرر به ثم إلى ربكم ترجعون فيجزيكم حسب أعمالكم إن خيرا فخيرا وإن شرا فشرا.

٥. فضل الله على بني إسرائيل واختلافهم بعد العلم:

المقطع [٥] من سورة الجاثية، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ وَآتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [الجاثية: ١٦ـ١٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ١٦٥»:

١. ﴿وَلَقَدْ آتَيْنا بَنِي إِسْرائِيلَ الْكِتابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ﴾:

أ. لما بين أن للأعمال آثارا حسنة أو سيئة تلحق صاحبيها أراد التنبيه على تشريع شريعة للنبي ﷺ إذ كان على الله سبحانه أن يهدي عباده إلى ما فيه خيرهم وسعادتهم كما قال تعالى: ﴿وَعَلَى اللهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْها جائِرٌ﴾ [النحل: ٩]

ب. فنبه على ذلك بقوله الآتي: ﴿ثُمَّ جَعَلْناكَ عَلى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ﴾، وقدم على ذلك الإشارة إلى ما آتى بني إسرائيل من الكتاب والحكم والنبوة ورزقهم من الطيبات وتفضيلهم وإيتائهم البينات ليؤذن به أن الإفاضة الإلهية بالشريعة والنبوة والكتاب ليست ببدع لم يسبق إليه بل لها نظير في بني إسرائيل وهم بمرآهم ومسمعهم.

ج. فقوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنا بَنِي إِسْرائِيلَ الْكِتابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ﴾ المراد بالكتاب التوراة المشتملة على شريعة موسى عليه السلام وأما الإنجيل فلا يتضمن الشريعة وشريعته شريعة التوراة، وأما زبور داود فهي أدعية وأذكار، ويمكن أن يراد بالكتاب جنسه الشامل للتوراة والإنجيل والزبور كما قيل لكن يبعده

أن الكتاب لم يطلق في القرآن إلا على ما يشتمل على الشريعة.

د. والمراد بالحكم بقرينة ذكره مع الكتاب ما يحكم ويقضي به الكتاب من وظائف الناس كما يذكره قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣]، وقال في التوراة: ﴿يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتابِ اللهِ﴾ [المائدة: ٤٤]، فالحكم من لوازم الكتاب كما أن النبوة من لوازمه.

هـ. والمراد بالنبوة معلوم وقد بعث الله من بني إسرائيل جما غفيرا من الأنبياء كما في الأخبار وقص في كتابه جماعة من رسلهم.

٢. ﴿وَرَزَقْناهُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ﴾ أي طيبات الرزق ومن ذلك المن والسلوى.

٣. ﴿وَفَضَّلْناهُمْ عَلَى الْعالَمِينَ﴾ إن كان المراد جميع العالمين فقد فضلوا من بعض الجهات ككثرة الأنبياء المبعوثين والمعجزات الكثيرة الظاهرة من أنبيائهم، وإن كان المراد عالمي زمانهم فقد فضلوا من جميع الجهات.

٤. ﴿وَآتَيْناهُمْ بَيِّناتٍ مِنَ الْأَمْرِ﴾:

أ. المراد بالبينات الآيات البينات التي تزيل كل شك وريب وتمحوه عن الحق ويشهد بذلك تفريع قوله: ﴿فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾

ب. والمراد بالأمر قيل: هو أمر الدين، و﴿مِنَ﴾ بمعنى في والمعنى: وأعطيناهم دلائل بينة في أمر الدين ويندرج فيه معجزات موسى عليه السلام.

ج. وقيل: المراد به أمر النبي ﷺ والمعنى: آتيناهم آيات من أمر النبي وعلامات مبينة لصدقه كظهوره في مكة ومهاجرته منها إلى يثرب ونصرة أهله وغير ذلك مما كان مذكورا في كتبهم.

٥. ﴿فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ﴾ يشير إلى أن ما ظهر بينهم من الاختلاف في الدين واختلاط الباطل بالحق لم يكن عن شبهة أو جهل وإنما أوجدها علماؤهم بغيا وكان البغي دائرا بينهم.

٦. ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ إشارة إلى أن اختلافهم الذي لا يخلو من اختلاط الباطل بالحق لا يذهب سدى وسيؤثر أثره ويقضي الله بينهم يوم القيامة فيجزون على حسب

ما يستدعيه أعمالهم.

٦. اتباع الشريعة وترك أهواء الظالمين:

المقطع [٦] من سورة الجاثية، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [الجاثية: ١٨-١٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ١٦٦»:

١. ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ الخطاب للنبي ﷺ ويشاركه فيه أمته، والشريعة طريق ورود الماء والأمر أمر الدين، والمعنى: بعد ما آتينا بني إسرائيل ما آتينا جعلناك على طريقة خاصة من أمر الدين الإلهي وهي الشريعة الإسلامية التي خص الله بها النبي ﷺ وأمته.

٢. ﴿فَاتَّبِعْهَا﴾، أمر للنبي ﷺ باتباع ما يوحى إليه من الدين وأن لا يتبع أهواء الجاهلين المخالفة للدين الإلهي.

٣. ويظهر من الآية:

أ. أولا: أن النبي ﷺ مكلف بالدين كسائر الأمة.

ب. وثانيا: أن كل حكم عملي لم يستند إلى الوحي الإلهي ولم ينته إليه فهو هوى من أهواء الجاهلين غير منتسب إلى العلم.

٤. ﴿إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللهِ شَيْئاً﴾، تعليل للنهي عن اتباع أهواء الذين لا يعلمون، والإغناء من شيء رفع الحاجة إليه، والمحصل: أن لك إلى الله سبحانه حوائج ضرورية لا يرفعها إلا هو والذريعة إلى ذلك اتباع دينه لا غير فلا يغني عنك هؤلاء الذين اتبعت أهواءهم شيئا من الأشياء إليها الحاجة أو لا يغني شيئا من الإغناء.

٥. ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾:

أ. الذي يعطيه السياق أنه تعليل آخر للنهي عن اتباع أهواء الجاهلين، وأن المراد بالظالمين المتبعون لأهوائهم المبتدعة وبالمتقين المتبعون لدين الله.

ب. والمعنى: أن الله ولي الذين يتبعون دينه لأنهم متقون والله وليهم، والذين يتبعون أهواء الجهلة

ليس هو تعالى وليا لهم بل بعضهم أولياء بعض لأنهم ظالمون والظالمون بعضهم أولياء بعض فاتبع دين الله يكن لك وليا ولا تتبع أهواءهم حتى يكونوا أولياء لك لا يغنون عنك من الله شيئا.

ج. وتسمية المتبعين لغير دين الله بالظالمين هو الموافق لما يستفاد من قوله: ﴿أَنْ لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كافِرُونَ﴾ [الأعراف: ٤٥]

٧. القرآن بصائر وهدى ورحمة للموقنين:

المقطع [٧] من سورة الجاثية، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [الجاثية: ٢٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ١٦٩»:

١. ﴿هذا بَصائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾:

أ. الإشارة بهذا إلى الأمر المذكور الذي هو الشريعة أو إلى القرآن بما يشتمل على الشريعة، والبصائر جمع بصيرة وهي الإدراك المصيب للواقع، والمراد بها ما يبصر به، وإنما كانت الشريعة بصائر لأنها تتضمن أحكاما وقوانين كل منها يهدي إلى واجب العمل في سبيل السعادة.

ب. والمعنى: هذه الشريعة المشرعة أو القرآن المشتمل عليها وظائف عملية يتبصر بكل منها الناس ويهتدون إلى السبيل الحق وهو سبيل الله وسبيل السعادة، فقوله بعد ذكر تشريع الشريعة: ﴿هذا بَصائِرُ لِلنَّاسِ﴾ كقوله بعد ذكر آيات الوحدانية في أول السورة: ﴿هذا هُدىً وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾

٢. ﴿وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾:

أ. أي دلالة واضحة وإفاضة خير لهم، والمراد بقوم يوقنون: الذين يوقنون بآيات الله الدالة على أصول المعارف فإن المعهود في القرآن تعلق الإيقان بالأصول الاعتقادية.

ب. وتخصيص الهدى والرحمة بقوم يوقنون مع التصريح بكونه بصائر للناس لا يخلو من تأييد لكون المراد بالهدى الوصول إلى المطلوب دون مجرد التبصر، وبالرحمة الرحمة الخاصة بمن اتقى وآمن برسوله بعد الإيمان بالله، قال تعالى: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ [الحديد: ٢٨]، وقال: ﴿ذلِكَ الْكِتابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾، إلى أن قال، ﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: ٤]، وللرحمة درجات كثيرة تختلف سعة وضيقا ثم للرحمة الخاصة بأهل الإيمان أيضا مراتب مختلفة باختلاف مراتب الإيمان فلكل مرتبة من

مراتبه ما يناسبها منها.

ج. وأما الرحمة بمعنى مطلق الخير الفائض منه تعالى فإن القرآن بما يشتمل على الشريعة رحمة للناس كافة كما أن الرسول المبعوث به رحمة لهم جميعا، قال تعالى: ﴿وَما أَرْسَلْناكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وقد أوردنا بعض الكلام في هذا المعنى في بعض المباحث السابقة.

٨. المساواة بين المحسن والمسيء ظلم والجزاء بالحق:

المقطع [٨] من سورة الجاثية، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١-٢٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ١٧٠»:

١. ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾:

أ. قال في الجمع: (الاجتراح الاكتساب، يقال: جرح واجترح وكسب واكتسب وأصله من الجراح لأن لذلك تأثيرا كتأثير الجراح.، والسيئة الفعلة القبيحة التي يسوء صاحبها باستحقاق الذم عليها)

ب. والجعل بمعنى التصيير، وقوله: ﴿كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ في محل المفعول الثاني للجعل، والتقدير كائنين كالذين آمنوا.

ج. وجزم الزمخشري في الكشاف على كون الكاف في ﴿كَالَّذِينَ﴾ اسما بمعنى المثل هو مفعول ثان لقوله: ﴿نَجْعَلَهُمْ﴾، وقوله: ﴿سَوَاءً﴾ بدلا منه.

د. ﴿سَواءً﴾ بالنصب على القراءة الدائرة وهو مصدر بمعنى اسم الفاعل أي مستويا أو متساويا، وقوله: ﴿مَحْياهُمْ﴾ مصدر ميمي وفاعل ﴿سَواءً﴾ وضميره راجع إلى مجموع المجترحين والمؤمنين، و﴿مَماتُهُمْ﴾ معطوف على ﴿مَحْياهُمْ﴾ وحاله كحاله.

هـ. والآية مسوقة سوق الإنكار و﴿أَمْ﴾ منقطعة، والمعنى: بل أحسب وظن الذين يكتسبون السيئات أن نصيرهم مثل الذين آمنوا وعملوا الصالحات مستويا محياهم ومماتهم أي تكون حياة هؤلاء كحياة أولئك وموتهم كموتهم فيكون الإيمان والتشرع بالدين لغوا لا أثر له في حياة ولا موت ويستوي

وجوده وعدمه.

٢. ﴿ساءَ ما يَحْكُمُونَ﴾ رد لحسبانهم المذكور وحكمهم بالمماثلة بين مجترحي السيئات والذين آمنوا وعملوا الصالحات ومساءة الحكم كناية عن بطلانه، فالفريقان لا يتساويان في الحياة ولا في الممات:

أ. أما أنهما لا يتساويان في الحياة فلأن الذين آمنوا وعملوا الصالحات في سلوكهم مسلك الحياة على بصيرة من أمرهم وهدى ورحمة من ربهم كما ذكره سبحانه في الآية السابقة والمسيء صفر الكف، من ذلك وقال تعالى في موضع آخر: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقى وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً﴾ [طه: ١٢٤]، وقال في موضع آخر: ﴿أَوَمَنْ كانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْناهُ وَجَعَلْنا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُماتِ لَيْسَ بِخارِجٍ مِنْها﴾ [الأنعام: ١٢٢]

ب. وأما أنهما لا يتساويان في الممات فلأن الموت كما ينطق به البراهين الساطعة ليس انعداما للشيء وبطلانا للنفس الإنسانية كما يحسبه المبطلون بل هو رجوع إلى الله سبحانه وانتقال من نشأة الدنيا إلى نشأة الآخرة التي هي دار البقاء وعالم الخلود يعيش فيها المؤمن الصالح في سعادة ونعمة وغيره في شقاء وعذاب.

٣. وقد أشار سبحانه إليه فيما تقدم من كلامه بقوله: ﴿كَذلِكَ يُحْيِ اللهُ الْمَوْتى﴾ وقوله: ﴿ثُمَّ إِلى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ وغير ذلك، وسيتعرض له بقوله: ﴿وَخَلَقَ اللهُ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِ﴾

٤. والآية من حيث تركيب ألفاظها والمعنى المتحصل منها من معارك الآراء بين المفسرين وقد ذكروا لها محامل كثيرة والذي يعطيه السياق ويساعد عليه هو ما قدمناه ولا كثير فائدة في التعرض لوجوه أخر ذكروها فمن أراد الاطلاع عليها فليراجع المطولات.

٥. ﴿وَخَلَقَ اللهُ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزى كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ الظاهر أن المراد بالسماوات والأرض مجموع العالم المشهود والباء في ﴿بِالْحَقِ﴾ للملابسة فكون خلق العالم بالحق كونه حقا لا باطلا ولعبا وهو أن يكون لهذا العالم الكائن الفاسد غاية ثابتة باقية وراءه.

٦. ﴿وَلِتُجْزى﴾:

أ. عطف على ﴿بِالْحَقِ﴾ والباء في قوله: ﴿بِما كَسَبَتْ﴾ للتعدية أو للمقابلة أي لتجزى مقابل ما كسبت إن كان طاعة فالثواب وإن كان معصية فالعقاب، وقوله: ﴿وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ حال من كل نفس

أي ولتجزى كل نفس بما كسبت بالعدل.

ب. فيئول معنى الآية إلى مثل قولنا وخلق الله السماوات والأرض بالحق وبالعدل فكون الخلق بالحق يقتضي أن يكون وراء هذا العالم عالم آخر يخلد فيه الموجودات وكون الخلق بالعدل يقتضي أن تجزى كل نفس ما تستحقه بكسبها فالمحسن يجزى جزاء حسنا والمسيء يجزى جزاء سيئا وإذ ليس ذلك في هذه النشأة ففي نشأة أخرى.

٧. وبهذا البيان يظهر أن الآية تتضمن حجتين على المعاد:

أ. إحداهما ما أشير إليه بقوله: ﴿وَخَلَقَ اللهُ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِ﴾ ويسلك من طريق الحق.

ب. والثانية ما أشير إليه بقوله: ﴿وَلِتُجْزى﴾، ويسلك من طريق العدل.

ج. فتئول الحجتان إلى ما يشتمل عليه قوله: ﴿وَما خَلَقْنَا السَّماءَ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما باطِلاً ذلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨]

٨. والآية بما فيها من الحجة تبطل حسبانهم أن المسيء كالمحسن في الممات فإن حديث المجازاة بالثواب والعقاب على الطاعة والمعصية يوم القيامة ينفي تساوي المطيع والعاصي في الممات، ولازم ذلك إبطال حسبانهم أن المسيء كالمحسن في الحياة فإن ثبوت المجازاة يومئذ يقتضي وجوب الطاعة في الدنيا والمحسن على بصيرة من الأمر في حياته يأتي بواجب العمل ويتزود من يومه لغده بخلاف المسيء العائش في عمى وضلال فليسا بمتساويين.

٩. من اتخذ إلهه هواه لا هادي له:

المقطع [٩] من سورة الجاثية، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلهَهُ هَواهُ وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلى بَصَرِهِ غِشاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللهِ أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ٢٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ١٧٢»:

١. ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلهَهُ هَواهُ وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلى عِلْمٍ﴾:

أ. ظاهر السياق أن قوله: ﴿أَفَرَأَيْتَ﴾ مسوق للتعجيب أي ألا تعجب ممن حاله هذا الحال؟ والمراد بقوله: ﴿اتَّخَذَ إِلهَهُ هَواهُ﴾ حيث قدم ﴿إِلهَهُ﴾ على ﴿هَواهُ﴾ إنه يعلم أن له إلها يجب أن يعبده، وهو الله

سبحانه، لكنه يبدله من هواه ويجعل هواه مكانه فيعبده فهو كافر بالله سبحانه على علم منه، ولذلك عقبه بقوله: ﴿وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلى عِلْمٍ﴾ أي أنه ضال عن السبيل وهو يعلم.

ب. ومعنى اتخاذ الإله العبادة والمراد بها الإطاعة فإن الله سبحانه عد الطاعة عبادة كما في قوله: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ وَأَنِ اعْبُدُونِي﴾ [يس: ٦١]، وقوله: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبارَهُمْ وَرُهْبانَهُمْ أَرْباباً مِنْ دُونِ اللهِ﴾ [التوبة: ٣١]، وقوله: ﴿وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنا بَعْضاً أَرْباباً مِنْ دُونِ اللهِ﴾ [آل عمران: ٦٤]

ج. والاعتبار يوافقه إذ ليست العبادة إلا إظهار الخضوع وتمثيل أن العابد عبد لا يريد ولا يفعل إلا ما أراده ورضيه معبوده فمن أطاع شيئا فقد اتخذه إلها وعبده فمن أطاع هواه فقد اتخذ إلهه هواه ولا طاعة إلا لله أو من أمر بطاعته.

د. فقوله: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلهَهُ هَواهُ﴾ أي ألا تعجب ممن يعبد هواه بإطاعته واتباعه وهو يعلم أن له إلها غيره يجب أن يعبده ويطيعه لكنه يجعل معبوده ومطاعه هو هواه.

٢. ﴿وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلى عِلْمٍ﴾:

أ. أي هو ضال بإضلال منه تعالى يضله به مجازاة لاتباعه الهوى حال كون إضلاله مستقرا على علم هذا الضال، ولا ضير في اجتماع الضلال مع العلم بالسبيل ومعرفته كما في قوله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِها وَاسْتَيْقَنَتْها أَنْفُسُهُمْ﴾ [النمل: ١٤] وذلك أن العلم لا يلازم الهدى ولا الضلال يلازم الجهل بل الذي يلازم الهدى هو العلم مع التزام العالم بمقتضى علمه فيتعقبه الاهتداء وأما إذا لم يلتزم العالم بمقتضى علمه لاتباع منه للهوى فلا موجب لاهتدائه بل هو الضلال وإن كان معه علم.

ب. وأما قول بعضهم: إن المراد بالعلم هو علمه تعالى والمعنى: وأضله الله على علم منه تعالى بحاله فبعيد عن السياق.

٣. ﴿وَخَتَمَ عَلى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلى بَصَرِهِ غِشاوَةً﴾ كالعطف التفسيري لقوله: ﴿وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلى عِلْمٍ﴾ والختم على السمع والقلب هو أن لا يسمع الحق ولا يعقله، وجعل الغشاوة على البصر هو أن لا يبصر الحق من آيات الله ومحصل الجميع: أن لا يترتب على السمع والقلب والبصر أثرها وهو الالتزام بمقتضى ما ناله من الحق إذا أدركه لاستكبار من نفسه واتباع للهوى، وقد عرفت أن الضلال عن السبيل

لا ينافي العلم به إذا لم يكن هناك التزام بمقتضاه.

٤. ﴿فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللهِ﴾ الضمير لمن اتخذ إلهه هواه والتفريع على ما تحصل من حاله أي إذا كان حاله هذا الحال وقد أضله الله على علم، فمن يهديه من بعد الله سبحانه فلا هادي دونه قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدى﴾ [البقرة: ١٢٠] وقال: ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَما لَهُ مِنْ هادٍ﴾ [المؤمن: ٣٣]

٥. ﴿أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾ أي أفلا تتفكرون في حاله فتتذكروا أن هؤلاء لا سبيل لهم إلى الهدى مع اتباع الهوى فتتعظوا.

٦. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي في قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلهَهُ هَواهُ﴾ قال: نزلت في قريش كلما هووا شيئا عبدوه.

ب. أخرج النسائي وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عن ابن عباس قال: كان الرجل من العرب يعبد الحجر، فإذا رأى أحسن منه أخذه وألقى الآخر، فأنزل الله ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلهَهُ هَواهُ﴾

١٠. إنكار المشركين للبعث وردّ الله عليهم:

المقطع [١٠] من سورة الجاثية، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قُلِ اللهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الجاثية: ٢٤ـ٢٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ١٧٤»:

١. ﴿وَقالُوا ما هِيَ إِلَّا حَياتُنَا الدُّنْيا نَمُوتُ وَنَحْيا وَما يُهْلِكُنا إِلَّا الدَّهْرُ﴾:

أ. قال الراغب: (الدهر في الأصل اسم لمدة العالم من مبدإ وجوده إلى انقضائه، وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتى عَلَى الْإِنْسانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ﴾ ثم يعبر به عن كل مدة كثيرة، وهو خلاف الزمان فإن الزمان يقع على المدة القليلة والكثيرة)

ب. والآية على ما يعطيه السياق، سياق الاحتجاج على الوثنيين المثبتين للصانع المنكرين للمعاد، حكاية قول المشركين في إنكار المعاد لا كلام الدهريين الناسبين للحوادث وجودا وعدما إلى الدهر المنكرين للمبدإ والمعاد جميعا إذا لم يسبق لهم ذكر في الآيات السابقة.

ج. فقولهم: ﴿ما هِيَ إِلَّا حَياتُنَا الدُّنْيا﴾ الضمير للحياة أي لا حياة لنا إلا حياتنا الدنيا لا حياة وراءها فلا وجود لما يدعيه الدين الإلهي من البعث والحياة الآخرة، وهذا هو القرينة المؤيدة لأن يكون المراد بقوله: ﴿نَمُوتُ وَنَحْيا﴾ يموت بعضنا ويحيا بعضنا الآخر فيستمر بذلك بقاء النسل الإنساني بموت الأسلاف وحياة الأخلاف ويؤيد ذلك بعض التأييد قوله بعده: ﴿وَما يُهْلِكُنا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ المشعر بالاستمرار.

د. فالمعنى: وقال المشركون: ليست الحياة إلا حياتنا الدنيا التي نعيش بها في الدنيا فلا يزال يموت بعضنا وهم الأسلاف ويحيى آخرون وهم الأخلاف وما يهلكنا إلا الزمان، الذي بمروره يبلى كل جديد ويفسد كل كائن ويميت كل حي، فليس الموت انتقالا من دار إلى دار منتهيا إلى البعث والرجوع إلى الله.

هـ. ولعل هذا كلام بعض الجهلة من وثنية العرب وإلا فالعقيدة الدائرة بين الوثنية هي التناسخ وهو أن نفوس غير أهل الكمال إذا فارقت الأبدان تعلقت بأبدان أخرى جديدة فإن كانت النفس المفارقة اكتسبت السعادة في بدنها السابق تعلقت ببدن جديد تتنعم فيه وتسعد، وإن كانت اكتسبت الشقاء في البدن السابق تعلقت ببدن لاحق تشقى فيه وتعذب جزاء لعملها السيئ وهكذا، وهؤلاء لا ينكرون استناد أمر الموت كالحياة إلى وساطة الملائكة.

و. ولهذا أعني كون القول بالتناسخ دائرا بين الوثنية ذكر بعض المفسرين أن المراد بالآية قولهم بالتناسخ، والمعنى: ﴿ما هِيَ إِلَّا حَياتُنَا الدُّنْيا﴾ فلسنا نخرج من الدنيا أبدا ﴿نَمُوتُ﴾ عن حياة دنيا ﴿وَنَحْيا﴾ بعد الموت بالتعلق ببدن جديد وهكذا ﴿وَما يُهْلِكُنا إِلَّا الدَّهْرُ﴾

• وهذا لا يخلو من وجه لكن لا يلائمه قولهم المنقول ذيلا: ﴿وَما يُهْلِكُنا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ إلا أن يوجه بأن مرادهم من نسبة الإهلاك إلى الدهر كون الدهر وسيلة يتوسل بها الملك الموكل على الموت إلى الإماتة، وكذا لا تلائمه حجتهم المنقولة ذيلا: ﴿ائْتُوا بِآبائِنا إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ﴾ الظاهرة في أنهم يرون آباءهم معدومين باطلي الذوات.

٢. وذكر في معنى الآية وجوه أخر لا يعبأ بها:

أ. كقول بعضهم: المعنى نكون أمواتا لا حياة فيها وهو قبل ولوج الروح ثم نحيا بولوجها على حد قوله تعالى: ﴿وَكُنْتُمْ أَمْواتاً فَأَحْياكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨]

ب. وقول بعضهم: المراد بالحياة بقاء النسل مجازا، والمعنى: نموت نحن ونحيا ببقاء نسلنا، إلى غير ذلك مما قيل.

٣. ﴿وَما لَهُمْ بِذلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ أي إن قولهم ذلك المشعر بإنكار المعاد قول بغير علم وإنما هو ظن يظنونه وذلك أنهم لا دليل لهم يدل على نفي المعاد مع ما هناك من الأدلة على ثبوته.

٤. ﴿وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ ما كانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قالُوا ائْتُوا بِآبائِنا إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ﴾:

أ. تأكيد لكون قولهم بنفي المعاد وحصر الحياة في الحياة الدنيا قولا بغير علم.

ب. والمراد بالآيات البينات الآيات المشتملة على الحجج المثبتة للمعاد وكونها بينات وضوح دلالتها على ثبوته بلا شك، وتسمية قولهم: ﴿ائْتُوا بِآبائِنا إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ﴾ مع كونه اقتراحا جزافيا بعد قيام الحجة إنما هو من باب التهكم فإنه من قبيل طلب الدليل على المطلوب بعد قيام الدليل عليه فكأنه قيل: ما كانت حجتهم إلا اللاحجة.

ج. والمعنى: وإذا تتلى على هؤلاء المنكرين للمعاد آياتنا المشتملة على الحجج المثبتة للمعاد والحال أنها واضحات الدلالة على ثبوته ما قابلوها إلا بجزاف من القول وهو طلب الدليل على إمكانه بإحياء آبائهم الماضين.

٥. ﴿قُلِ اللهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾:

أ. ما ذكر من اقتراحهم الحجة على مطلوب قامت عليه الحجة وإن كان اقتراحا جزافيا لا يستدعي شيئا من الجواب لكنه سبحانه أمر نبيه ﷺ أن يجيبهم بإثبات إمكانه الذي كانوا يستبعدونه.

ب. ومحصله: أن الذي يحييكم لأول مرة ثم يميتكم ثم يجمعكم إلى يوم القيامة الذي لا ريب فيه هو الله سبحانه ولله ملك السماوات والأرض يحكم فيها ما يشاء ويتصرف فيها كيفما يريد فله أن يحكم برجوع الناس إليه ويتصرف فيكم بجمعكم إلى يوم القيامة والقضاء بينكم ثم الجزاء، والباقي ظاهر.

٦. أحاديث وآثار:

أ. في المجمع: (في قوله تعالى: ﴿وَما يُهْلِكُنا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ وقد روي في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر.

• أقول: قال الطبرسي بعد إيراد الحديث: (وتأويله أن أهل الجاهلية كانوا ينسبون الحوادث المجحفة والبلايا النازلة إلى الدهر فيقولون: فعل الدهر كذا، وكانوا يسبون الدهر فقال ﷺ: إن فاعل هذه الأمور هو الله فلا تسبوا فاعلها)، ويؤيد هذا الوجه الرواية التالية.

ب. أخرج ابن جرير والبيهقي في الأسماء والصفات عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: قال الله تبارك وتعالى: لا يقل ابن آدم يسب الدهر، يا خيبة الدهر فإني أنا الدهر، أرسل الليل والنهار فإذا شئت قبضتهما.

١١. حشر الأمم يوم القيامة لتجزى بما عملت:

المقطع [١١] من سورة الجاثية، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَللهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية: ٢٧-٢٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ١٧٦»:

١. ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ﴾:

أ. قال الراغب: (الخسر والخسران انتقاص رأس المال وينسب ذلك إلى الإنسان فيقال: خسر فلان، وإلى الفعل فيقال: خسرت تجارته، قال تعالى: ﴿تِلْكَ إِذاً كَرَّةٌ خاسِرَةٌ﴾ ويستعمل ذلك في المقتنيات الخارجية كالمال والجاه في الدنيا وهو الأكثر، وفي المقنيات النفسية كالصحة والسلامة والعقل والإيمان والثواب وهو الذي جعله الله تعالى الخسران المبين.، وكل خسران ذكره الله تعالى في القرآن فهو على هذا المعنى الأخير دون الخسران المتعلق بالمقتنيات المالية والتجارات البشرية.، والإبطال يقال في إفساد الشيء وإزالته سواء كان ذلك الشيء حقا أو باطلا قال تعالى: ﴿لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْباطِلَ﴾ وقد يقال فيمن يقول شيئا لا حقيقة له نحو ﴿وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾، وقوله تعالى: ﴿خَسِرَ هُنالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾ أي الذين يبطلون الحق)

ب. والأشبه أن يكون المراد بقيام الساعة فعلية ما يقع فيها من البعث والجمع والحساب والجزاء وظهوره، وبذلك صح جعل الساعة مظروفا لليوم وهما واحد، والأشبه أن يكون قوله: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ تأكيدا لقوله: ﴿يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾

ج. والمعنى: ويوم تقوم الساعة وهي يوم الرجوع إلى الله يومئذ يخسر المبطلون الذين أبطلوا الحق وعدلوا عنه.

٢. ﴿وَتَرى كُلَّ أُمَّةٍ جاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعى إِلى كِتابِهَا﴾:

أ. الجثو البروك على الركبتين كما أن الجذو البروك على أطراف الأصابع.

ب. والخطاب عام لكل من يصح منه الرؤية وإن كان متوجها إلى النبي ﷺ والمراد بالدعوة إلى الكتاب الدعوة إلى الحساب على ما ينطق به الكتاب بإحصائه الأعمال بشهادة قوله بعده: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

ج. والمعنى: وترى أنت وغيرك من الرائين كل أمة من الأمم جالسة على الجثو جلسة الخاضع الخائف كل أمة منهم تدعى إلى كتابها الخاص بها وهي صحيفة الأعمال وقيل لهم: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

د. ويستفاد من ظاهر الآية أن لكل أمة كتابا خاصا بهم كما أن لكل إنسان كتابا خاصا به قال تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسانٍ أَلْزَمْناهُ طائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ كِتاباً يَلْقاهُ مَنْشُوراً﴾ [الإسراء: ١٣]

٣. ﴿هذا كِتابُنا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾:

أ. قال في الصحاح: (ونسخت الكتاب وانتسخته واستنسخته كله بمعنى، والنسخة اسم المنتسخ منه)

ب. وقال الراغب: (النسخ إزالة الشيء بشيء يتعقبه كنسخ الشمس الظل ونسخ الظل الشمس والشيب الشباب، إلى أن قال، ونسخ الكتاب نقل صورته المجردة إلى كتاب آخر وذلك لا يقتضي إزالة الصورة الأولى بل يقتضي إثبات مثلها في مادة أخرى كاتخاذ نقش الخاتم في شموع كثيرة، والاستنساخ التقدم بنسخ الشيء والترشح للنسخ)

ج. ومقتضى ما نقل أن المفعول الذي يتعدى إليه الفعل في قولنا: استنسخت الكتاب هو الأصل المنقول منه، ولازم ذلك أن تكون الأعمال في قوله: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ كتابا وأصلا وإن شئت فقل: في أصل وكتاب يستنسخ وينقل منه ولو أريد به ضبط الأعمال الخارجية القائمة بالإنسان بالكتابة لقيل: إنا كنا نكتب ما كنتم تعملون إذ لا نكتة تستدعي فرض هذه الأعمال كتابا وأصلا يستنسخ،

ولا دليل على كون (يستنسخ) بمعنى يستكتب كما ذكره بعضهم.

د. ولازم ذلك أن يكون المراد بما تعملون هو أعمالهم الخارجية بما أنها في اللوح المحفوظ فيكون استنساخ الأعمال استنساخ ما يرتبط بأعمالهم من اللوح المحفوظ وتكون صحيفة الأعمال صحيفة الأعمال وجزء من اللوح المحفوظ، ويكون معنى كتابة الملائكة للأعمال تطبيقهم ما عندهم من نسخة اللوح على الأعمال.

هـ. وهذا هو المعنى الذي وردت به الرواية من طرق الشيعة عن الصادق عليه السلام ومن طرق أهل السنة عن ابن عباس، وسيوافيك في البحث الروائي التالي.

و. وعلى هذا فقوله: ﴿هذا كِتابُنا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِ﴾ من كلامه تعالى لا من كلام الملائكة، وهو من خطابه تعالى لأهل الجمع يوم القيامة يحكيه لنا فيكون في معنى: (ويقال لهم هذا كتابنا) إلخ.

ز. والإشارة بهذا، على ما يعطيه السياق، إلى صحيفة الأعمال وهي بعينها إشارة إلى اللوح المحفوظ على ما تقدم وإضافة الكتاب إليه تعالى نظرا إلى أنه صحيفة الأعمال من جهة أنه مكتوب بأمره تعالى ونظرا إلى أنه اللوح المحفوظ من جهة التشريف وقوله: ﴿يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِ﴾ أي يشهد على ما عملتم ويدل عليه دلالة واضحة ملابسا للحق.

٤. ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾:

أ. تعليل لكون الكتاب ينطق عليهم بالحق أي إن كتابنا هذا دال على عملكم بالحق من غير أن يتخلف عنه لأنه اللوح المحفوظ المحيط بأعمالكم بجميع جهاتها الواقعية.

ب. ولولا أن الكتاب يريهم أعمالهم بنحو لا يداخله شك ولا يحتمل منهم التكذيب لكذبوه، قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وَما عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَها وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً﴾ [آل عمران: ٣٠]

٥. وللقوم في الآية أقوال أخر:

أ. منها ما قيل: إن الآية من كلام الملائكة لا من كلام الله ومعنى الاستنساخ الكتابة والمعنى: هذا أي صحيفة الأعمال كتابنا معشر الملائكة الكاتبين للأعمال يشهد عليكم بالحق إنا كنا نكتب ما كنتم تعملون.

• وفيه أن كونه من كلام الملائكة بعيد من السياق على أن كون الاستنساخ بمعنى مطلق الكتابة لم يثبت لغة.

ب. ومنها: أن الآية من كلام الله، والإشارة بهذا إلى صحيفة الأعمال، وقيل: إلى اللوح المحفوظ، والاستنساخ بمعنى الاستكتاب مطلقا.

٦. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي في قوله تعالى: ﴿هذا كِتابُنا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِ﴾ الآية، حدثني أبي عن ابن أبي عمير عن عبد الرحيم القصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سألته عن ﴿ن وَالْقَلَمِ﴾ قال: إن الله خلق القلم من شجرة في الجنة يقال لها الخلد، ثم قال لنهر في الجنة: كن مدادا فجمد النهر، وكان أشد بياضا من الثلج وأحلى من الشهد، ثم قال للقلم: اكتب، قال: يا رب ما أكتب؟ قال: اكتب ما كان وما هو كائن إلى يوم القيامة، فكتب القلم في رق أشد بياضا من الفضة، وأصفى من الياقوت، ثم طواه فجعله في ركن العرش ثم ختم على فم القلم، فلن ينطق أبدا، فهو الكتاب المكنون الذي منه النسخ كلها، أولستم عربا؟ فكيف لا تعرفون معنى الكلام؟ وأحدكم يقول لصاحبه: انسخ ذلك الكتاب، أوليس إنما ينسخ من كتاب آخر من الأصل؟ وهو قوله: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

• أقول: قوله عليه السلام: فكتب القلم في رق إلخ، تمثيل للوح المكتوب فيه الحوادث بالرق والرق ما يكتب فيه شبه الكاغد، على ما ذكره الراغب، وقد تقدم الحديث عنه عليه السلام أن القلم ملك واللوح ملك، وقوله: فجعله في ركن العرش تمثيل للعرش بعرش الملك ذي الأركان والقوائم وقوله: ثم ختم على فم القلم كناية عن كون ما كتب في الرق قضاء محتوما لا يتغير ولا يتبدل، وقوله: أولستم عربا، إشارة إلى ما تقدم توضيحه في تفسير الآية.

ب. أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: إن الله خلق النون وهو الدواة وخلق القلم، فقال: اكتب؟ قال: ما أكتب، قال اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة من عمل معمول، بر أو فاجر أو رزق مرزوق حلال أو حرام، ثم ألزم كل شيء من ذلك شأنه: دخوله في الدنيا ومقامه فيها كم، وخروجه منها كيف؟ ثم جعل على العباد حفظة وعلى الكتاب خزانا تحفظه، ينسخون كل يوم من الخزان عمل ذلك اليوم، فإذا فني ذلك الرزق انقطع الأمر وانقضى الأجل، أتت الحفظة الخزنة يطلبون عمل ذلك اليوم، فيقول لهم

الخزنة: ما نجد لصاحبكم عندنا شيئا، فيرجع الحفظة فيجدونهم قد ماتوا، قال ابن عباس: ألستم قوما عربا؟ تسمعون الحفظة يقولون: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ وهل يكون الاستنساخ إلا من أصل؟

• أقول: والخبر كما ترى يجعل الآية من كلام الملائكة الحفظة.

ج. أخرج ابن مردويه عن ابن عباس: في الآية قال: يستنسخ الحفظة من أم الكتاب، ما يعمل بنو آدم، فإنما يعمل الإنسان على ما استنسخ الملك من أم الكتاب.

د. وعن كتاب سعد السعود لابن طاووس، قال بعد ذكر الملكين الموكلين بالعبد: وفي رواية: أنهما إذا أرادا النزول صباحا ومساء، ينسخ لهما إسرافيل عمل العبد من اللوح المحفوظ، فيعطيهما ذلك فإذا صعدا صباحا ومساء بديوان العبد، قابله إسرافيل بالنسخ التي انتسخ لهما، حتى يظهر أنه كان كما نسخ منه.

١٢. جزاء المؤمنين والكافرين يوم القيامة:

المقطع [١٢] من سورة الجاثية، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنْتُمْ قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾ [الجاثية: ٣٠ـ٣١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ١٧٩»:

١. ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾:

أ. تفصيل حال الناس يومئذ بحسب اختلافهم بالسعادة والشقاء والثواب والعقاب، والسعداء المثابون هم الذين آمنوا وعملوا الصالحات، والأشقياء المعاقبون هم الذين كفروا من المستكبرين المجرمين.

ب. والمراد بالرحمة الإفاضة الإلهية تسعد من استقر فيها ومنها الجنة، والفوز المبين الفلاح الظاهر، والباقي واضح.

٢. ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنْتُمْ قَوْماً مُجْرِمِينَ﴾:

أ. المراد بالذين كفروا المتلبسون بالكفر عن تكذيب وجحود بشهادة قوله: ﴿أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ﴾

ب. والفاء في ﴿أَفَلَمْ تَكُنْ﴾ للتفريع فتدل على مقدر متفرع عليه هو جواب لما، والتقدير: فيقال

لهم ألم تكن آياتي تتلى عليكم، والمراد بالآيات الحجج الإلهية الملقاة إليهم عن وحي ودعوة، والمجرم هو المتلبس بالأجرام وهو الذنب.

ج. والمعنى: وأما الذين كفروا جاحدين للحق مع ظهوره فيقال لهم توبيخا وتقريعا: ألم تكن حججي تقرأ وتبين لكم في الدنيا فاستكبرتم عن قبولها وكنتم قوما مذنبين.

١٣. موقف المشركين من وعد الله وبدوّ السيئات:

المقطع [١٣] من سورة الجاثية، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللهَّ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الجاثية: ٣٢-٣٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ١٧٩»:

١. ﴿وَإِذا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ الله حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لا رَيْبَ فِيها قُلْتُمْ ما نَدْرِي مَا السَّاعَةُ﴾:

أ. المراد بالوعد الموعود وهو ما وعده الله بلسان رسله من البعث والجزاء فيكون قوله: ﴿وَالسَّاعَةُ لا رَيْبَ فِيها﴾ من عطف التفسير، ويمكن أن يراد بالوعد المعنى المصدري.

ب. وقولهم: ﴿ما نَدْرِي مَا السَّاعَةُ﴾ معناه أنه غير مفهوم لهم والحال أنهم أهل فهم ودراية فهو كناية عن كونه أمرا غير معقول ولو كان معقولا لدروه.

٢. ﴿إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَما نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ أي ليست مما نقطع به ونجزم بل نظن ظنا لا يسعنا أن نعتمد عليه، ففي قولهم: ﴿ما نَدْرِي مَا السَّاعَةُ﴾، غب ما تليت عليهم من الآيات البينة أفحش المكابرة مع الحق.

٣. ﴿وَبَدا لَهُمْ سَيِّئاتُ ما عَمِلُوا وَحاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ﴾:

أ. إضافة السيئات إلى ما عملوا بيانية أو بمعنى من، والمراد بما عملوا جنس ما عملوا أي ظهر لهم أعمالهم السيئة أو السيئات من أعمالهم فالآية في معنى قوله: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وَما عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ﴾ [آل عمران: ٣٠]

ب. فالآية من الآيات الدالة على تمثل الأعمال، وقيل: إن في الكلام حذفا والتقدير: وبدا لهم جزاء سيئات ما عملوا.

٤. ﴿وَحاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ﴾ أي وحل بهم العذاب الذي كانوا يسخرون منه في الدنيا

إذا أنذروا به بلسان الأنبياء والرسل.

١٤. نسيان المشركين لقاء النار واغترارهم بالدنيا:

المقطع [١٤] من سورة الجاثية، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ذَلِكُمْ بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ [الجاثية: ٣٤-٣٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ١٨٠»:

١. ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْساكُمْ كَما نَسِيتُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هذا وَمَأْواكُمُ النَّارُ وَما لَكُمْ مِنْ ناصِرِينَ﴾ النسيان كناية عن الإعراض والترك فنسيانه تعالى لهم يوم القيامة إعراضه عنهم وتركه لهم في شدائده وأهواله، ونسيانهم لقاء يومهم ذاك في الدنيا إعراضهم عن تذكره وتركهم التأهب للقائه، والباقي ظاهر.

٢. ﴿ذلِكُمْ بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آياتِ اللهِ هُزُواً وَغَرَّتْكُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا﴾:

أ. الإشارة بقوله: ﴿ذلِكُمْ﴾ إلى ما ذكر من عقابهم من ظهور السيئات وحلول العذاب والهزء السخرية التي يستهزأ بها والباء للسببية.

ب. والمعنى: ذلكم العذاب الذي يحل بكم بسبب أنكم اتخذتم آيات الله سخرية تستهزءون بها وبسبب أنكم غرتكم الحياة الدنيا فأخلدتم إليها وتعلقتم بها.

٣. ﴿فَالْيَوْمَ لا يُخْرَجُونَ مِنْها وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾:

أ. صرف الخطاب عنهم إلى النبي ﷺ، ويتضمن الكلام خلاصة القول فيما يصيبهم من العذاب يومئذ وهو الخلود في النار وعدم قبول العذر منهم.

ب. والاستعتاب طلب العتبى والاعتذار، ونفي الاستعتاب كناية عن عدم قبول العذر.

١٥. الحمد لله رب العالمين وله الكبرياء:

المقطع [١٥] من سورة الجاثية، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الجاثية: ٣٦-٣٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ١٨٠»:

١. ﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّماواتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعالَمِينَ﴾:

أ. تحميد له تعالى بالتفريع على ما تقدم في السورة من كونه خالق السماوات والأرض وما بينهما

والمدبر لأمر الجميع ومن بديع تدبيره خلق الجميع بالحق المستتبع ليوم الرجوع إليه والجزاء بالأعمال وهو المستدعي لجعل الشرائع التي تسوق إلى السعادة والثواب ويتعقبه الجمع ليوم الجمع ثم الجزاء واستقرار الجميع على الرحمة والعدل بإعطاء كل شيء ما يستحقه فلم يدبر إلا تدبيرا جميلا ولم يفعل إلا فعلا محمودا فله الحمد كله.

ب. وقد كرر (الرب) فقال: ﴿رَبِّ السَّماواتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ﴾ ثم أبدل منهما قوله: ﴿رَبِّ الْعالَمِينَ﴾ ليأتي بالتصريح بشمول الربوبية للجميع فلو جيء برب العالمين واكتفي به أمكن أن يتوهم أنه رب المجموع لكن للسماوات خاصة رب آخر وللأرض وحدها رب آخر كما ربما قال بمثله الوثنية، وكذا لو اكتفي بالسماوات والأرض لم يكن صريحا في ربوبيته لغيرهما، وكذا لو اكتفي بإحداهما.

٢. ﴿وَلَهُ الْكِبْرِياءُ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾:

أ. الكبرياء على ما عن الراغب: (الترفع عن الانقياد، وعن ابن الأثير: العظمة والملك وفي المجمع: (السلطان القاهر والعظمة القاهرة والعظمة والرفعة، وهي على أي حال أبلغ معنى من الكبر وتستعمل في العظمة غير الحسية ومرجعه إلى كمال وجوده ولا تناهي كماله)

ب. ﴿وَلَهُ الْكِبْرِياءُ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي له الكبرياء في كل مكان فلا يتعالى عليه شيء فيهما ولا يستصغره شيء وتقديم الخبر في ﴿لَهُ الْكِبْرِياءُ﴾ يفيد الحصر كما في قوله: ﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ﴾

ج. ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي الغالب غير المغلوب فيما يريد من خلق وتدبير في الدنيا والآخرة والباني خلقه وتدبيره على الحكمة والإتقان.

٣. أحاديث وآثار: في المجمع في قوله تعالى: ﴿وَلَهُ الْكِبْرِياءُ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾، وفي الحديث يقول الله: الكبرياء ردائي والعظمة إزاري، فمن نازعني واحدة منهما ألقيته في نار جهنم.

• أقول: ورواه في الدر المنثور، عن مسلم وأبي داود وابن ماجة وغيرهم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ.

سورة الأحقاف

هذه السورة الكريمة تحتوي على [١٩] مقطعاً، وهذا تعريف بمقاصدها، ومحتويات مقاطعها:

مقاصد السورة ومحتوياتها:

أ. غرض السورة إنذار المشركين الرادين للدعوة إلى الإيمان بالله ورسوله، بالمعاد بما فيه من أليم العذاب لمنكريه المعرضين عنه.

ب. ولذلك تفتتح الكلام بإثبات المعاد: ﴿ما خَلَقْنَا السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما إِلَّا بِالْحَقِ﴾، ثم يعود إليه عودة بعد عودة: كقوله: ﴿وَإِذا حُشِرَ النَّاسُ﴾، وقوله: ﴿وَالَّذِي قالَ لِوالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُما أَتَعِدانِنِي أَنْ أُخْرَجَ﴾، وقوله: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّباتِكُمْ﴾، وقوله: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هذا بِالْحَقِ﴾، وقوله في مختتم السورة: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ ما يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا ساعَةً مِنْ نَهارٍ بَلاغٌ﴾ الآية.

ج. وفيها احتجاج على الوحدانية والنبوة، وإشارة إلى هلاك قوم هود وهلاك القرى التي حول مكة وإنذارهم بذلك، وإنباء عن حضور نفر من الجن عند النبي ﷺ واستماعهم القرآن وإيمانهم به ورجوعهم إلى قومهم منذرين لهم.

د. والسورة مكية كلها إلا آيتين اختلف فيهما سنشير إليهما في البحث الروائي الآتي إن شاء الله: قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ﴾، وقوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كانَ مِنْ عِنْدِ اللهِ﴾ الآية.

مقاطع السورة ونظمها:

١. الآيات [١ ـ ١٤] لم يذكر البيان المرتبط بها، وهي تذكر أن القرآن الكريم كتاب منزل من الله العزيز الحكيم، وتذكر خلق السماوات والأرض بالحق، وتقرر أن الذين كفروا معرضون، وتضرب المثل بعاد وثمود، وتذكر أن الرسل جاءوهم بالبينات فردوا فأهلكوا، وتذكر وصية الله بالإحسان إلى الوالدين، وتبشر المؤمنين بالجنة، وتقرر أنهم لا يخافون ولا يحزنون.

٢. الآيات [١٥ ـ ٢٠]:

أ. لما قسم الناس في قوله: ﴿لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرى لِلْمُحْسِنِينَ﴾ إلى ظالمين ومحسنين، وأشير

فيه إلى أن للظالمين ما يخاف ويحذر، وللمحسنين ما يسر الإنسان ويبشر به.

ب. عقب ذلك في هذا الفصل من الآيات بتفصيل القول فيه، وأن الناس بين قوم تائبين إلى الله مسلمين له، وهم الذين يتقبل أحسن أعمالهم ويتجاوز عن سيئاتهم في أصحاب الجنة، وقوم خاسرين حق عليهم القول في أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس.

ج. ومثل الطائفة الأولى بمن كان مؤمناً بالله مسلماً له باراً بوالديه، يسأل الله أن يلهمه الشكر على ما أنعم عليه وعلى والديه، والعمل الصالح وإصلاح ذريته.

د. والطائفة الثانية بمن كان عاقاً لوالديه إذا دعواه إلى الإيمان بالله واليوم الآخر، فيزجرهما ويعد ذلك من أساطير الأولين.

٣. الآيات [٢١ ـ ٢٨]:

أ. لما قسم الناس على قسمين وانتهى الكلام إلى الإنذار، عقب ذلك بالإشارة إلى قصتين:

- قصة قوم عاد وهلاكهم، ومعها الإشارة إلى هلاك القرى التي حول مكة.
- وقصة إيمان قوم من الجن صرفهم الله إلى النبي ﷺ، فاستمعوا القرآن فآمنوا ورجعوا إلى قومهم منذرين.

ب. وإنما أورد القصتين ليعتبر بهما من شاء أن يعتبر منهم.

ج. وهذه الآيات المنقولة تتضمن أولى القصتين.

٤. الآيات [٢٩ ـ ٣٥]:

أ. هذه هي القصة الثانية، عقبت بها قصة عاد ليعتبر بها قومه ﷺ إن اعتبروا.

ب. وفيه تقريع للقوم حيث كفروا به ﷺ وبكتابه النازل على لغتهم، وهم يعلمون أنها آية معجزة، وهم مع ذلك يماثلونه في النوعية البشرية، وقد آمن الجن بالقرآن إذ استمعوا إليه ورجعوا إلى قومهم منذرين.

١. تنزيل الكتاب بالحق وخلق السموات والأرض:

المقطع [١] من سورة الأحقاف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿حم تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهَّ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا

مُعْرِضُونَ﴾ [الأحقاف: ٢-٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ١٨٦»:

١. ﴿حم تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ تقدم تفسيره.

٢. ﴿ما خَلَقْنَا السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى﴾:

أ. المراد بالسماوات والأرض وما بينهما مجموع العالم المشهود علوية وسفلية، والباء في ﴿بِالْحَقِ﴾ للملابسة، والمراد بالأجل المسمى ما ينتهي إليه أمد وجود الشيء، والمراد به في الآية الأجل المسمى لوجود مجموع العالم وهو يوم القيامة الذي تطوى فيه السماء كطي السجل للكتب وتبدل الأرض غير الأرض والسماوات وبرزوا لله الواحد القهار.

ب. والمعنى: ما خلقنا العالم المشهود بجميع أجزائه العلوية والسفلية إلا ملابسا للحق له غاية ثابتة وملابسا لأجل معين لا يتعداه وجوده وإذا كان له أجل معين يفنى عند حلوله وكانت مع ذلك له غاية ثابتة فبعد هذا العالم عالم آخر هو عالم البقاء وهو المعاد الموعود، وقد تكرر الكلام فيما تقدم في معنى كون الخلق بالحق.

٣. ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ﴾ المراد بالذين كفروا هم المشركون بدليل الآية التالية لكن ظاهر السياق أن المراد بكفرهم كفرهم بالمعاد، و﴿ما﴾ في ﴿عَمَّا﴾ مصدرية أو موصولة والثاني هو الأوفق للسياق والمعنى: والمشركون الذين كفروا بالمعاد عما أنذروا به، وهو يوم القيامة بما فيه من أليم العذاب لمن أشرك بالله، معرضون منصرفون.

٢. تحدي المشركين لإثبات شركهم:

المقطع [٢] من سورة الأحقاف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الأحقاف: ٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ١٨٧»:

١. ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ ما تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ بمعنى أخبروني والمراد بما تدعون من دون الله الأصنام التي كانوا يدعونها ويعبدونها وإرجاع ضمائر أولي العقل إليها بعد لكونهم ينسبون إليه أفعال أولي العقل وحجة الآية وما بعدها مع ذلك تجري في كل إله معبود من دون الله.

٢. ﴿أَرُونِي ما ذا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ﴾ أروني بمعنى أخبروني و﴿ما﴾ اسم استفهام و﴿ذا﴾ بعده

زائدة والمجموع مفعول ﴿خَلَقُوا﴾ ومن الأرض متعلق به.

٣. ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّماواتِ﴾:

أ. أي شركة في خلق السماوات فإن خلق شيء من السماوات والأرض هو المسئول عنه.

ب. توضيح ذلك أنهم وإن لم ينسبوا إليها إلا تدبير الكون وخصوا الخلق به سبحانه كما قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾ [الزمر: ٣٨]، وقال: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]، لكن لما كان الخلق لا ينفك عن التدبير أوجب ذلك أن يكون لمن له سهم من التدبير سهم في الخلق ولذلك أمر تعالى نبيه ﷺ أن يسألهم عما لأربابهم الذين يدعون من دون الله من النصيب في خلق الأرض أو في خلق السماوات فلا معنى للتدبير في الكون من غير خلق.

٤. ﴿ائْتُونِي بِكِتابٍ مِنْ قَبْلِ هذا أَوْ أَثارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ﴾:

أ. الإشارة بهذا إلى القرآن، والمراد بكتاب من قبل القرآن كتاب سماوي كالتوراة نازل من عند الله يذكر شركة آلهتهم في خلق السماوات أو الأرض.

ب. والأثارة على ما ذكره الراغب: (مصدر بمعنى النقل والرواية قال: وأثرت العلم رويته آثره أثرا وأثارة وأثرة وأصله تتبعت أثره)، وعليه فالأثارة في الآية مصدر بمعنى المفعول أي شيء منقول من علم يثبت أن لآلهتهم شركة في شيء من السماوات والأرض، وفسره غالب المفسرين بمعنى البقية وهو قريب مما تقدم.

ج. والمعنى: ائتوني للدلالة على شركهم لله في خلق شيء من الأرض أو في خلق السماوات بكتاب سماوي من قبل القرآن يذكر ذلك أو بشيء منقول من علم أو بقية من علم أورثتموها يثبت ذلك إن كنتم صادقين في دعواكم أنهم شركاء لله سبحانه.

٥. أحاديث وآثار:

أ. في الكافي، بإسناده عن أبي عبيدة قال: سألت أبا جعفر عليه السلام عن قول الله تعالى: ﴿ائْتُونِي بِكِتابٍ مِنْ قَبْلِ هذا أَوْ أَثارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ﴾ قال: عنى بالكتاب التوراة والإنجيل (و﴿أَثارَةٍ مِنْ عِلْمٍ﴾ فإنما عنى بذلك علم أوصياء الأنبياء.

ب. أخرج أحمد وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه من طريق أبي سلمة بن عبد

الرحمن عن ابن عباس عن النبي ﷺ ﴿أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ﴾ قال: الخط.

• أقول: لعل المراد بالخط كتاب مخطوط موروث من الأنبياء أو العلماء الماضين لكن في بعض ما روي في تفسير قوله: ﴿أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ﴾ أنه حسن الخط وفي بعض آخر أنه جودة الخط وهو أجنبي من سياق الاحتجاج الذي في الآية.

٣. ضلال من يدعو من دون الله وعداوة المعبودين لهم:

المقطع [٣] من سورة الأحقاف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [الأحقاف: ٥ـ٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ١٨٨»:

١. ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللهِ مَنْ لا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيامَةِ﴾ الاستفهام إنكاري، وتحديد عدم استجابتهم الدعوة بيوم القيامة لما أن يوم القيامة أجل مسمى للدنيا والدعوة مقصورة في الدنيا ولا دنيا بعد قيام الساعة.

٢. ﴿وَهُمْ عَنْ دُعائِهِمْ غافِلُونَ﴾:

أ. صفة أخرى من صفات آلهتهم مضافة إلى صفة عدم استجابتهم وليس تعليلا لعدم الاستجابة فإن عدم استجابتهم معلول كونهم لا يملكون لعبادهم شيئا قال تعالى: ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ ما لا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلا نَفْعاً﴾ [المائدة: ٧٦]

ب. بل هي صفة مضافة إلى صفة مذكورة لتكون توطئة وتمهيدا لما سيذكره في الآية التالية من عداوتهم لهم وكفرهم بعبادتهم يوم القيامة فهم في الدنيا غافلون عن دعائهم وسيطلعون عليه يوم القيامة فيعادونهم ويكفرون بعبادتهم.

ج. وفي الآية دلالة على سراية الحياة والشعور في الأشياء حتى الجمادات فإن الأصنام من الجماد وقد نسب إليها الغفلة والغفلة من شئون ذوي الشعور لا تطلق إلا على ما من شأن موصوفه أن يشعر.

٣. ﴿وَإِذا حُشِرَ النَّاسُ كانُوا لَهُمْ أَعْداءً وَكانُوا بِعِبادَتِهِمْ كافِرِينَ﴾ الحشر إخراج الشيء من مقره بإزعاج، والمراد بعث الناس من قبورهم وسوقهم إلى المحشر يوم القيامة فيومئذ يعاديهم آلهتهم ويكفرون

بشرك عبادهم بالتبري منهم كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ [فاطر: ١٤]، وقال حكاية عنهم: ﴿تَبَرَّأْنا إِلَيْكَ ما كانُوا إِيَّانا يَعْبُدُونَ﴾ [القصص: ٦٣]، وقال: ﴿فَكَفى بِاللهِ شَهِيداً بَيْنَنا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبادَتِكُمْ لَغافِلِينَ﴾ [يونس: ٢٩]

٤. وفي سياق الآيتين تلويح إلى أن هذه الجمادات التي لا تظهر لنا في هذه النشأة أن لها حياة لعدم ظهور آثارها سيظهر في النشأة الآخرة أن لها حياة وتظهر آثارها وقد تقدم بعض الكلام في هذا المعنى في ذيل قوله تعالى: ﴿قالُوا أَنْطَقَنَا اللهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ الم [السجدة: ٢١]

٥. ﴿وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جاءَهُمْ هذا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ الآية والتي بعدها مسوقتان للتوبيخ، والمراد بالآيات البينات آيات القرآن تتلى عليهم، ثم بدلها من الحق الذي جاءهم حيث قال: ﴿لِلْحَقِّ لَمَّا جاءَهُمْ﴾، وكان مقتضى الظاهر أن يقال: (لها) للدلالة على أنها حق جاءهم لا مسوغ لرميها بأنها سحر مبين وهم يعلمون أنها حق مبين فهم متحكمون مكابرون للحق الصريح.

٤. رد نسبة الافتراء إلى القرآن الكريم:

المقطع [٤] من سورة الأحقاف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَى بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الأحقاف: ٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ١٨٨»:

١. ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللهِ شَيْئاً﴾، ﴿أَمْ﴾ منقطعة أي بل يقولون افترى القرآن على الله في دعواه أنه كلامه.

٢. ﴿قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللهِ شَيْئاً﴾:

أ. أي إن افتريت القرآن لأجلكم أخذني بالعذاب أو عاجلني بالعذاب على الافتراء ولستم تقدرون على دفع عذابه عني فكيف أفتريه عليه لأجلكم، والمحصل أني على يقين من أمر الله وأعلم أنه يأخذ المفترى عليه أو يعاجل في عقوبته وأنكم لا تقدرون على دفع ما يريده فكيف أفتري عليه فأعرض نفسي على عذابه المقطوع لأجلكم؟ أي لست بمفتر عليه.

ب. ويتبين بذلك أن جزاء الشرط في قوله: ﴿إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلا تَمْلِكُونَ لِي﴾، محذوف وقد أقيم مقامه ما يجري مجرى ارتفاع المانع، والتقدير: إن افتريته أخذني بالعذاب أو عاجلني بالعذاب ولا مانع من قبلكم

يمنع عنه، وليس من قبيل وضع المسبب موضع السبب كما قيل.

٣. ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِما تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ الإفاضة في الحديث الخوض فيه و﴿بِما﴾ موصولة يرجع إليه ضمير (فيه) أو مصدرية ومرجع الضمير هو القرآن، والمعنى: الله سبحانه أعلم بالذي تخوضون فيه من التكذيب برمي القرآن بالسحر والافتراء على الله أو المعنى: هو أعلم بخوضكم في القرآن.

٤. ﴿كَفى بِهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ احتجاج ثان على نفي الافتراء وأول الاحتجاجين قوله: ﴿إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللهِ شَيْئاً﴾ وقد تقدم بيانه آنفا، ومعنى الجملة: أن شهادة الله سبحانه في كلامه بأنه كلامه وليس افتراء مني يكفي في نفي كوني مفتريا به عليه، وقد صدق سبحانه هذه الدعوى بقوله: ﴿لكِنِ اللهُ يَشْهَدُ بِما أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ﴾ [النساء: ١٦٦]، وما في معناه من الآيات، وأما أنه كلامه فيكفي في ثبوته آيات التحدي.

٥. ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾:

أ. تذييل الآية بالاسمين الكريمين للاحتجاج على نفي ما يتضمنه تحكمهم الباطل من نفي الرسالة كأنه قيل: إن قولكم: ﴿افْتَراهُ﴾ يتضمن دعويين: دعوى عدم كون هذا القرآن من كلام الله ودعوى بطلان الرسالة، والوثنيون ينفونها مطلقا، أما الدعوى الأولى فيدفعه أولا: أنه إن افتريته فلا تملكون، إلخ، وثانيا: أن الله يكفيني شهيدا على كونه كلامه لا كلامي.

ب. وأما الدعوى الثانية فيدفعها أن الله سبحانه غفور رحيم، ومن الواجب في حكمته أن يعامل خلقه بالمغفرة والرحمة ولا تشملان إلا التائبين الراجعين إليه الصالحين لذلك وذلك بأن يهديهم إلى صراط يقربهم منه سلوكه فتشملهم مغفرته ورحمته بحط السيئات والاستقرار في دار السعادة الخالدة، وكونه واجبا في حكمته لأن فيهم صلاحية هذا الكمال وهو الجواد الكريم، قال تعالى: ﴿وَما كانَ عَطاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً﴾ [الإسراء: ٢٠]، وقال: ﴿وَعَلَى اللهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ [النحل: ٩]، والسبيل إلى هذه الهداية هي الدعوة من طريق الرسالة فمن الواجب في الحكمة أن يرسل إلى الناس رسولا يدعوهم إلى سبيله الموصلة إلى مغفرته ورحمته.

٦. أحاديث وآثار: في العيون، في باب مجلس الرضا مع المأمون عنه عليه السلام حدثني أبي عن جدي عن آبائه عن الحسين بن علي عليه السلام قال: اجتمع المهاجرون والأنصار إلى رسول الله ﷺ، فقالوا:

إن لك يا رسول الله مئونة في نفقتك، وفيمن يأتيك من الوفود، وهذه أموالنا مع دمائنا فاحكم فيها بارا مأجورا، أعط ما شئت واحكم ما شئت من غير حرج، قال: فأنزل الله تعالى إليه الروح الأمين، فقال: يا محمد ﴿قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى﴾ يعني أن تودوا قرابتي من بعدي، فخرجوا فقال المنافقون: ما حمل رسول الله على ترك ما عرضنا عليه، إلا ليحثنا على قرابته من بعده، وإن هو إلا شيء افتراه في مجلسه، وكان ذلك من قولهم عظيما، فأنزل الله عز وجل هذه الآية ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللهِ شَيْئاً هُوَ أَعْلَمُ بِما تُفِيضُونَ فِيهِ كَفى بِهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ فبعث إليهم النبي ﷺ فقال: هل من حدث؟ فقالوا: إي والله يا رسول الله، لقد قال بعضنا كلاما غليظا كرهناه، فتلا عليهم رسول الله ﷺ الآية فبكوا واشتد بكاؤهم، فأنزل الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبادِهِ وَيَعْفُوا عَنِ السَّيِّئاتِ وَيَعْلَمُ ما تَفْعَلُونَ﴾

٥. رسول الله نذير مبين يتبع ما يوحى إليه، ولا يعلم الغيب:

المقطع [٥] من سورة الأحقاف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ [الأحقاف: ٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ١٩٠»:

١. ﴿قُلْ ما كُنْتُ بِدْعاً مِنَ الرُّسُلِ وَما أَدْرِي ما يُفْعَلُ بِي وَلا بِكُمْ﴾:

أ. البدع ما كان غير مسبوق بالمثل من حيث صفاته أو من حيث أقواله وأفعاله ولذا فسره بعضهم بأن المعنى: ما كنت أول رسول أرسل إليكم لا رسول قبلي، وقيل: المعنى: ما كنت مبدعا في أقوالي وأفعالي لم يسبقني إليها أحد من الرسل.

ب. والمعنى الأول لا يلائم السياق ولا قوله المتقدم: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ بالمعنى الذي تقدم توجيهه فثاني المعنيين هو الأنسب، وعليه فالمعنى: لست أخالف الرسل السابقين في صورة أو سيرة وفي قول أو فعل بل أنا بشر مثلهم في من آثار البشرية ما فيهم وسبيلهم في الحياة سبيلي.

ج. وبهذه الجملة يجاب عن مثل ما حكاه الله من قولهم: ﴿ما لِهذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْواقِ لَوْلا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً أَوْ يُلْقى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْها﴾ [الفرقان: ٨]

٢. ﴿وَما أَدْرِي ما يُفْعَلُ بِي وَلا بِكُمْ﴾:

أ. نفي لعلم الغيب عن نفسه فهو نظير قوله: ﴿وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَما مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾ [الأعراف: ١٨٨]، والفرق بين الآيتين أن قوله: ﴿وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾، نفي للعلم بمطلق الغيب واستشهاد له بمس السوء وعدم الاستكثار من الخير، وقوله: ﴿وَما أَدْرِي ما يُفْعَلُ بِي وَلا بِكُمْ﴾ نفي للعلم بغيب خاص وهو ما يفعل به وبهم من الحوادث التي يواجهونها جميعا، وذلك أنهم كانوا يزعمون أن المتلبس بالنبوة لو كان هناك نبي يجب أن يكون عالما في نفسه بالغيوب ذا قدرة مطلقة غيبية كما يظهر من اقتراحاتهم المحكية في القرآن فأمر ﷺ أن يعترف، مصرحا به، أنه لا يدري ما يفعل به ولا بهم فينفي عن نفسه العلم بالغيب، وأن ما يجري عليه وعليهم من الحوادث خارج عن إرادته واختياره وليس له في شيء منها صنع بل يفعله به وبهم غيره وهو الله سبحانه.

ب. فقوله: ﴿وَما أَدْرِي ما يُفْعَلُ بِي وَلا بِكُمْ﴾ كما ينفي عنه العلم بالغيب ينفي عنه القدرة على شيء مما يصيبه ويصيبهم مما هو تحت أستار الغيب.

ج. ونفي الآية العلم بالغيب عنه ﷺ لا ينافي علمه بالغيب من طريق الوحي كما يصرح تعالى به في مواضع من كلامه كقوله: ﴿ذلِكَ مِنْ أَنْباءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ [آل عمران: ٤٤]، [يوسف: ١٠٢]، وقوله: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْباءِ الْغَيْبِ نُوحِيها إِلَيْكَ﴾ [هود: ٤٩]، وقوله: ﴿عالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلى غَيْبِهِ أَحَداً إِلَّا مَنِ ارْتَضى مِنْ رَسُولٍ﴾ [الجن: ٢٧] ومن هذا الباب قول المسيح عليه السلام: ﴿وَأُنَبِّئُكُمْ بِما تَأْكُلُونَ وَما تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ [آل عمران: ٤٩]، وقول يوسف عليه السلام لصاحبي السجن: ﴿لا يَأْتِيكُما طَعامٌ تُرْزَقانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُما بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُما﴾ [يوسف: ٣٧]

د. وجه عدم المنافاة أن الآيات النافية للعلم بالغيب عنه وعن سائر الأنبياء عليهمالسلام إنما تنفيه عن طبيعتهم البشرية بمعنى أن تكون لهم طبيعة بشرية أو طبيعة هي أعلى من طبيعة البشر من خاصتها العلم بالغيب بحيث يستعمله في جلب كل نفع ودفع كل شر كما نستعمل ما يحصل لنا من طريق الأسباب وهذا لا ينافي انكشاف الغيب لهم بتعليم إلهي من طريق الوحي كما أن إتيانهم بالمعجزات فيما أتوا بها ليس عن قدرة نفسية فيهم يملكونها لأنفسهم بل بإذن من الله تعالى وأمر، قال تعالى: ﴿قُلْ سُبْحانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَراً رَسُولاً﴾ [الإسراء: ٩٣]، جوابا عما اقترحوا عليه من الآيات، وقال: ﴿قُلْ إِنَّمَا الْآياتُ عِنْدَ اللهِ وَإِنَّما أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ [العنكبوت: ٥٠]، وقال: ﴿وَما كانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ فَإِذا جاءَ أَمْرُ اللهِ

قُضِيَ بِالْحَقِّ﴾ [المؤمن: ٧٨]

هـ. ويشهد بذلك قوله بعده متصلا به: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا ما يُوحى إِلَيَّ﴾ فإن اتصاله بما قبله يعطي أنه في موضع الإضراب، والمعنى: أني ما أدري شيئا من هذه الحوادث بالغيب من قبل نفسي وإنما أتبع ما يوحى إلي من ذلك.

٣. ﴿وَما أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ تأكيد لجميع ما تقدم في الآية من قوله: ﴿ما كُنْتُ بِدْعاً﴾، و﴿وَما أَدْرِي﴾، وقوله: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ﴾

٤. وضع هنا مبحثا حول [علم النبي والأئمة بالغيب ودفع شبهة إلقاء النفس في التهلكة]، خلاصته:«الميزان: ١٨/ ١٩٢»:

أ. تظافرت الأخبار من طرق أئمة أهل البيت أن الله علم النبي والأئمة علم كل شيء، وأن علم النبي من طريق الوحي، وعلم الأئمة ينتهي إلى النبي.

ب. ورد الإشكال: لو كانوا يعلمون الغيب، لماذا كانوا يعيشون كسائر الناس، ويخطئون أحياناً، ويتعرضون للمصائب (كالنبي يوم أحد، وعلي في مسجد الكوفة، والحسين في كربلاء، والأئمة بالسم)؟ وهذا من إلقاء النفس في التهلكة، وهو محرم.

ج. يرد الإشكال بأنه مغالطة بالخلط بين العلوم العادية وغير العادية، فالعلم غير العادي بحقائق الأمور لا أثر له في تغيير مجرى الحوادث الخارجية، لأن الأفعال الاختيارية تتعلق بعلل وشرائط أخرى مادية، وعند اجتماعها تتم العلة التامة، ويكون تحقق الفعل واجباً ضرورياً.

د. نسبة الفعل إلى علته التامة هي نسبة الوجوب والضرورة، ونسبته إلى الإرادة (وهي جزء العلة) نسبة الجواز والإمكان، فجميع الحوادث واجبة الحصول في الخارج، ولا ينافي ذلك كون أفعالنا اختيارية.

هـ. لو فرض حصول علم بحقائق الحوادث على ما هي عليه في الواقع، لم يؤثر ذلك في إخراج حادث عن ساحة الوجوب إلى حد الإمكان، لأن العلم غير العادي لا يغير مجرى العلة التامة.

و. العلم اليقيني بالخلاف لا يستوجب تحقق الإرادة مستندة إليه، كما في جحود آل فرعون ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ﴾، وكما في سقوط الواقف على جذع عال مع علمه بالهلاك.

ز. أجاب بعضهم بأن للأنبياء والأئمة تكاليف خاصة تقتضي اقتحام هذه المهالك، وأجاب

آخرون بأن العلم من الطرق العادية هو المنجز للتكاليف، وغيره ليس بمنجز، وكلا الجوابين يرجع إلى ما تقدم.

٥. أحاديث وآثار: أخرج أبو داود في ناسخه من طريق عكرمة عن ابن عباس في قوله: ﴿وَما أَدْرِي ما يُفْعَلُ بِي وَلا بِكُمْ﴾ قال: نسختها هذه الآية التي في الفتح، فخرج إلى الناس فبشرهم بالذي غفر له، ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فقال رجل من المؤمنين: هنيئا لك يا نبي الله، قد علمنا الآن ما يفعل بك فما ذا يفعل بنا؟ فأنزل الله في سورة الأحزاب ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللهِ فَضْلاً كَبِيراً﴾ وقال: ﴿لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ وَكانَ ذلِكَ عِنْدَ اللهِ فَوْزاً عَظِيماً﴾ فبين الله ما به يفعل وبهم.

• أقول: الرواية لا تخلو من شيء:

• أما أولا: فلما تقدم بيانه في تفسير الآية أعني قوله: ﴿وَما أَدْرِي ما يُفْعَلُ بِي وَلا بِكُمْ﴾ أنها أجنبية عن العلم بالغيب الذي هو من طريق الوحي بدلالة صريحة من القرآن فلا ينفي بها العلم بالمغفرة من طريق الوحي حتى تنسخها آية سورة الفتح.

• وأما ثانيا: فلأن ظاهر الرواية أن الذنب الذي تصرح بمغفرته آية سورة الفتح هو الذنب بمعنى مخالفة الأمر والنهي المولويين وسيأتي في تفسير سورة الفتح، إن شاء الله تعالى، أن الذنب في الآية لغير هذا المعنى.

• وأما ثالثا: فلأن الآيات الدالة على دخول المؤمنين الجنة كثيرة جدا في مكية السور ومدنيتها ولا تدل آيتا سورة الأحزاب على أزيد مما يدل عليه سائر الآيات فلا وجه لتخصيصهما بالدلالة على دخول المؤمنين الجنة وشمول المغفرة لهم.

• على أن سورة الأحزاب نازلة قبل سورة الفتح بزمان.

٦. شهادة شاهد من بني إسرائيل على صدق القرآن:

المقطع [٦] من سورة الأحقاف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأحقاف: ١٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ١٩٤»:

١. ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كانَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرائِيلَ عَلى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ﴾، ضمائر ﴿كانَ﴾ و﴿بِهِ﴾ و﴿مِثْلِهِ﴾ على ما يعطيه السياق للقرآن، وقوله: ﴿وَشَهِدَ شاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرائِيلَ﴾، معطوف على الشرط ويشاركه في الجزاء، والمراد بمثل القرآن مثله من حيث مضمونه في المعارف الإلهية وهو كتاب التوراة الأصلية التي نزلت على موسى عليه السلام، وقوله: ﴿فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ﴾ أي فآمن الشاهد الإسرائيلي المذكور بعد شهادته.

٢. ﴿إِنَّ اللهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾:

أ. تعليل للجزاء المحذوف دال عليه، والظاهر أنه ألستم ضالين لا ما قيل: إنه ألستم ظلمتم لأن التعليل بعدم هداية الله الظالمين إنما يلائم ضلالهم لا ظلمهم وإن كانوا متصفين بالوصفين جميعا.

ب. والمعنى: قل للمشركين: أخبروني إن كان هذا القرآن من عند الله والحال أنكم كفرتم به وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثل ما في القرآن من المعارف فآمن هو واستكبرتم أنتم ألستم في ضلال؟ فإن الله لا يهدي القوم الظالمين.

٣. والذي شهد على مثله فآمن على ما في بعض الأخبار هو عبد الله بن سلام من علماء اليهود، والآية على هذا مدنية لا مكية لأنه ممن آمن بالمدينة، وقول بعضهم: من الجائز أن يكون التعبير بالماضي في قوله: ﴿وَشَهِدَ شاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرائِيلَ عَلى مِثْلِهِ فَآمَنَ﴾ لتحقق الوقوع والقصة واقعة في المستقبل سخيف لأنه لا يلائم كون الآية في سياق الاحتجاج فالمشركون ما كانوا ليسلموا للنبي ﷺ صدقه فيما يخبرهم به من الأمور المستقبلة.

٤. وفي معنى الآية أقوال أخر:

أ. منها أن المراد ممن شهد على مثله فآمن هو موسى عليه السلام شهد على التوراة فآمن به وإنما عدلوا عن المعنى السابق إلى هذا المعنى للبناء على كون الآية مكية، وأنه إنما أسلم عبد الله بن سلام بالمدينة.

• وفيه أولا: عدم الدليل على كون الآية مكية ولتكن القصة دليلا على كونها مدنية، وثانيا: بعد أن يجعل موسى الكليم عليه السلام قرينا لهؤلاء المشركين الأجلاف يقاسون به فيقال ما محصله: أن موسى عليه السلام آمن بالكتاب النازل عليه وأنتم استكبرتم عن الإيمان بالقرآن فسخافته ظاهرة.

ب. ومما قيل إن المثل في الآية بمعنى نفس الشيء كما قيل في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾

[الشورى: ١١]، وهو في البعد كسابقه.

٥. أحاديث وآثار: أخرج أبو يعلى وابن جرير والطبراني والحاكم وصححه بسند صحيح عن عوف بن مالك الأشجعي قال: انطلق النبي ﷺ وأنا معه حتى دخلنا على كنيسة اليهود، يوم عيدهم فكرهوا دخولنا عليهم، فقال لهم رسول الله ﷺ: أروني اثني عشر رجلا منكم، يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، يحبط الله عن كل يهودي تحت أديم السماء، الغضب الذي عليه، فسكتوا فما أجابه منهم أحد، ثم رد عليهم فلم يجبه أحد فثلث فلم يجبه أحد، فقال: أبيتم فوالله لأنا الحاشر وأنا العاقب، وأنا المقفي آمنتم أو كذبتم، ثم انصرف وأنا معه حتى كدنا أن نخرج، فإذا رجل من خلفه فقال: كما أنت يا محمد، فأقبل فقال ذلك الرجل: أي رجل تعلمونني فيكم يا معشر اليهود؟ فقالوا: والله لا نعلم فينا رجلا أعلم بكتاب الله، ولا أفقه منك ولا من أبيك ولا من جدك، فقال: إني أشهد بالله أنه النبي الذي تجدونه، في التوراة والإنجيل، قالوا: كذبت ثم ردوا عليه وقالوا شرا، فقال رسول الله ﷺ: كذبتم لن يقبل منكم قولكم، فخرجنا ونحن ثلاث: رسول الله ﷺ، وأنا وابن سلام فأنزل الله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كانَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرائِيلَ عَلى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾

• أقول: وفي نزول الآية في عبد الله بن سلام روايات أخرى من طرق أهل السنة غير هذه الرواية، وسياق الآية وخاصة قوله: ﴿مِنْ بَنِي إِسْرائِيلَ﴾ لا يلائم كون الخطاب فيها لبني إسرائيل، وقد عد الإنجيل في الرواية من كتبهم وليس من كتبهم واليهود لا يصدقونه.

• وفي بعض الروايات أن الآية نزلت في ابن يامين من علمائهم حين شهد وأسلم فكذبته اليهود، والإشكال السابق على حاله.

٧. تكذيب الكفار للقرآن وكتاب موسى إمام ورحمة:

المقطع [٧] من سورة الأحقاف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأحقاف: ١١-١٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ١٩٥»:

١. ﴿وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كانَ خَيْراً ما سَبَقُونا إِلَيْهِ﴾:

أ. قيل: اللام في قوله: ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ للتعليل أي لأجل إيمانهم ويئول إلى معنى في، وضمير (كان) و(إليه) للقرآن من جهة الإيمان به، والمعنى: وقال الذين كفروا في الذين آمنوا، أي لأجل إيمانهم ـ: لو كان الإيمان بالقرآن خيرا ما سبقونا، أي المؤمنون، إليه.

ب. وقال بعضهم: إن المراد بالذين آمنوا بعض المؤمنين وبالضمير العائد إليه في قوله: (سبقونا) البعض الآخر، واللام متعلق بقال والمعنى: وقال الذين كفروا لبعض المؤمنين لو كان خيرا ما سبقنا البعض من المؤمنين وهم الغائبون إليه، وفيه أنه بعيد من سياق الآية.

ج. وقال آخرون: إن المراد بالذين آمنوا المؤمنون جميعا لكن في قوله: ﴿ما سَبَقُونا﴾ التفاتا والأصل ما سبقتمونا وهو في البعد كسابقه وليس خطاب الحاضرين بصيغة الغيبة من الالتفات في شيء.

٢. ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هذا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ ضمير (به) للقرآن وكذا الإشارة بهذا إليه والإفك الافتراء أي وإذ لم يهتدوا بالقرآن لاستكبارهم عن الإيمان به فسيقولون أي الذين كفروا هذا أي القرآن إفك وافتراء قديم، وقولهم: هذا إفك قديم كقولهم: ﴿أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾

٣. ﴿وَمِنْ قَبْلِهِ كِتابُ مُوسى إِماماً وَرَحْمَةً وَهذا كِتابٌ مُصَدِّقٌ لِساناً عَرَبِيًّا﴾:

أ. الظاهر أن قوله: ﴿وَمِنْ قَبْلِهِ﴾، جملة حالية والمعنى: فسيقولون هذا إفك قديم والحال أن كتاب موسى حال كونه إماما ورحمة قبله أي قبل القرآن وهذا القرآن كتاب مصدق له حال كونه لسانا عربيا ليكون منذرا للذين ظلموا وهو بشرى للمحسنين فكيف يكون إفكا.

ب. وكون التوراة إماما ورحمة هو كونها بحيث يقتدي بها بنو إسرائيل ويتبعونها في أعمالهم ورحمة للذين آمنوا بها واتبعوها في إصلاح نفوسهم.

٨. الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا لهم الجنة:

المقطع [٨] من سورة الأحقاف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأحقاف: ١٣ـ١٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ١٩٦»:

١. ﴿إِنَّ الَّذِينَ قالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقامُوا﴾ المراد بقولهم ربنا الله إقرارهم وشهادتهم بانحصار الربوبية في الله سبحانه وتوحده فيها، وباستقامتهم ثباتهم على ما شهدوا به من غير زيغ وانحراف

والتزامهم بلوازمه العملية.

٢. ﴿فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي ليس قبالهم مكروه محتمل يخافونه من عقاب محتمل، ولا مكروه محقق يحزنون به من عقاب أو هول، فالخوف إنما يكون من مكروه ممكن الوقوع، والحزن من مكروه محقق الوقوع، والفاء في قوله: ﴿فَلا خَوْفٌ﴾، لتوهم معنى الشرط فإن الكلام في معنى من قال ربنا الله ثم استقام فلا خوف إلخ.

٣. ﴿أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَنَّةِ خالِدِينَ فِيها جَزاءً بِما كانُوا يَعْمَلُونَ﴾ المراد بصحابة الجنة ملازمتها، وقوله: ﴿خالِدِينَ فِيها﴾ حال مؤكدة لمعنى الصحابة، والمعنى: أولئك الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا ملازمون للجنة حال كونهم خالدين فيها جزاء بما كانوا يعملون في الدنيا من الطاعات والقربات.

٩. الوصية بالوالدين وتحمّل الأم ودعاء الولد الصالح:

المقطع [٩] من سورة الأحقاف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأحقاف: ١٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ٢٠٠»:

١. ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسانَ بِوالِدَيْهِ إِحْساناً﴾:

أ. الوصية على ما ذكره الراغب هو التقدم إلى الغير بما يعمل به مقترنا بوعظ والتوصية تفعيل من الوصية قال تعالى: ﴿وَوَصَّى بِها إِبْراهِيمُ بَنِيهِ﴾ [البقرة: ١٣٢]، فمفعوله الثاني الذي يتعدى إليه بالباء من قبيل الأفعال، فالمراد بالتوصية بالوالدين التوصية بعمل يتعلق بهما وهو الإحسان إليهما.

ب. وعلى هذا فتقدير الكلام: ووصينا الإنسان بوالديه أن يحسن إليهما إحسانا.

ج. وفي إعراب: ﴿إِحْساناً﴾ أقوال أخر كقول بعضهم: إنه مفعول مطلق على تضمين (وصينا) معنى أحسنا، والتقدير: وصينا الإنسان محسنين إليهما إحسانا، وقول بعضهم: إنه صفة لمصدر محذوف بتقدير مضاف أي إيصاء ذا إحسان، وقول بعضهم: هو مفعول له، والتقدير: وصيناه بهما لإحساننا إليهما، إلى غير ذلك مما قيل.

د. وكيف كان فبر الوالدين والإحسان إليهما من الأحكام العامة المشرعة في جميع الشرائع كما تقدم

في تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعالَوْا أَتْلُ ما حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً﴾ [الأنعام: ١٥١]، ولذلك قال: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسانَ﴾ فعممه لكل إنسان.

هـ. ثم عقبه سبحانه بالإشارة إلى ما قاسته أمه في حمله ووضعه وفصاله إشعارا بملاك الحكم وتهييجا لعواطفه وإثارة لغريزة رحمته ورأفته فقال: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً وَحَمْلُهُ وَفِصالُهُ ثَلاثُونَ شَهْراً﴾ أي حملته أمه حملا ذا كره أي مشقة وذلك لما في حمله من الثقل، ووضعته وضعا ذا كره وذلك لما عنده من ألم الطلق.

و. وأما قوله: ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصالُهُ ثَلاثُونَ شَهْراً﴾ فقد أخذ فيه أقل مدة الحمل وهو ستة أشهر، والحولان الباقيان إلى تمام ثلاثين شهرا مدة الرضاع، قال تعالى: ﴿وَالْوالِداتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كامِلَيْنِ﴾ [البقرة: ٢٣٣]، وقال: ﴿وَفِصالُهُ فِي عامَيْنِ﴾ [لقمان: ١٤]

ز. والفصال التفريق بين الصبي وبين الرضاع، وجعل العامين ظرفا للفصال بعناية أنه في آخر الرضاع ولا يتحقق إلا بانقضاء عامين.

٢. ﴿حَتَّى إِذا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ بلوغ الأشد بلوغ زمان من العمر تشتد فيه قوى الإنسان، وقد مر نقل اختلافهم في معنى بلوغ الأشد في تفسير قوله: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْناهُ حُكْماً وَعِلْماً﴾ [يوسف: ٢٢]، وبلوغ الأربعين ملازم عادة لكمال العقل.

٣. ﴿قالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلى والِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صالِحاً تَرْضاهُ﴾:

أ. الإيزاع الإلهام، وهذا الإلهام ليس بإلهام علم يعلم به الإنسان ما جهلته نفسه بحسب الطبع كما في قوله: ﴿وَنَفْسٍ وَما سَوَّاها فَأَلْهَمَها فُجُورَها وَتَقْواها﴾ [الشمس: ٨]، بل هو إلهام عملي بمعنى البعث والدعوة الباطنية إلى فعل الخير وشكر النعمة وبالجملة العمل الصالح.

ب. وقد أطلق النعمة التي سأل إلهام الشكر عليها فتعم النعم الظاهرية كالحياة والرزق والشعور والإرادة، والباطنية كالإيمان بالله والإسلام والخشوع له والتوكل عليه والتفويض إليه ففي قوله: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ﴾، سؤال أن يلهمه الثناء عليه بإظهار نعمته قولا وفعلا: أما قولا فظاهر، وأما فعلا فباستعمال هذه النعم استعمالا يظهر به أنها لله سبحانه أنعم بها عليه وليست له من قبل نفسه ولازمه ظهور العبودية والمملوكية من هذا الإنسان في قوله وفعله جميعا.

ج. وتفسير النعمة بقوله: ﴿الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلى والِدَيَ﴾ يفيد شكره من قبل نفسه على ما اختص به من النعمة ومن قبل والديه فيما أنعم به عليهما فهو لسان ذاكر لهما بعدهما.

٤. ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صالِحاً تَرْضاهُ﴾ عطف على قوله: ﴿أَنْ أَشْكُرَ﴾، سؤال متمم لسؤال الشكر على النعم فإن الشكر يحلي ظاهر الأعمال، والصلاحية التي يرتضيها الله تعالى تحلي باطنها وتخلصها له تعالى.

٥. ﴿وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي﴾:

أ. الإصلاح في الذرية إيجاد الصلاح فيهم وهو من الله سبحانه توفيقهم للعمل الصالح وينجر إلى إصلاح نفوسهم، وتقييد الإصلاح بقوله: (لي) للدلالة على أن يكون إصلاحهم بنحو ينتفع هو به أي أن يكون ذريته له في بره وإحسانه كما كان هو لوالديه.

ب. ومحصل الدعاء سؤال أن يلهمه الله شكر نعمته وصالح العمل وأن يكون بارا محسنا بوالديه ويكون ذريته له كما كان هو لوالديه، وقد تقدم غير مرة أن شكر نعمه تعالى بحقيقة معناه هو كون العبد خالصا لله فيئول معنى الدعاء إلى سؤال خلوص النفس وصلاح العمل.

٦. ﴿إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾:

أ. أي الذين يسلمون الأمر لك فلا تريد شيئا إلا أرادوه بل لا يريدون إلا ما أردت.

ب. والجملة في مقام التعليل لما يتضمنه الدعاء من المطالب، ويتبين بالآية حيث ذكر الدعاء ولم يرده بل أيده بها وعد في قوله: ﴿أُولئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ﴾، إن التوبة والإسلام لله سبحانه إذا اجتمعا في العبد استعقب ذلك الهامة تعالى بما يصير به العبد من المخلصين، بفتح اللام، ذاتا والمخلصين، بكسر اللام، عملا أما إخلاص الذات فقد تقدمت الإشارة إليه آنفا، وأما إخلاص العمل فلأن العمل لا يكون صالحا لقبوله تعالى مرفوعا إليه إلا إذا كان خالصا لوجهه الكريم، قال تعالى: ﴿أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخالِصُ﴾ [الزمر: ٣]

٧. أحاديث وآثار:

أ. أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر من طريق قتادة عن أبي حرب بن أبي الأسود الدؤلي قال: رفع إلى عمر امرأة ولدت لستة أشهر، فسأل عنها أصحاب النبي فقال علي: لا رجم عليها ألا ترى أنه يقول: ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصالُهُ ثَلاثُونَ شَهْراً﴾، وقال: ﴿وَفِصالُهُ فِي عامَيْنِ﴾، وكان الحمل هاهنا ستة أشهر

فتركها عمر، قال: ثم بلغنا أنها ولدت آخر لستة أشهر.

• أقول: وروى القصة المفيد في الإرشاد.

ب. أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن بعجة بن عبد الله الجهني قال: تزوج رجل منا امرأة من جهينة، فولدت له تماما لستة أشهر، فانطلق زوجها إلى عثمان بن عفان فأمر برجمها، فبلغ ذلك عليا فأتاه فقال: ما تصنع؟ قال: ولدت تماما لستة أشهر وهل يكون ذلك؟ قال علي: أما سمعت الله تعالى يقول: ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصالُهُ ثَلاثُونَ شَهْراً﴾، وقال: ﴿حَوْلَيْنِ كامِلَيْنِ﴾ فكم تجده بقي إلا ستة أشهر؟ فقال عثمان: والله ما فطنت لهذا، علي بالمرأة فوجدوها قد فرغ منها، وكان من قولها لأختها: لا تحزني، فو الله ما كشف فرجي أحد قط غيره، قال: فشب الغلام بعد فاعترف الرجل به، وكان أشبه الناس به، قال: فرأيت الرجل بعد يتساقط عضوا عضوا على فراشه.

ج. وفي التهذيب، بإسناده عن عبد الله بن سنان عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سأله أبي وأنا حاضر عن قول الله عز وجل: ﴿حَتَّى إِذا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾ قال: الاحتلام.

د. وفي الخصال، عن أبي بصير قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: إذا بلغ العبد ثلاثا وثلاثين سنة فقد بلغ أشده، وإذا بلغ أربعين سنة فقد بلغ منتهاه، فإذا طعن في إحدى وأربعين فهو في النقصان، وينبغي لصاحب الخمسين أن يكون كمن كان في النزع.

أ. • أقول: لا تخلو الرواية من إشعار بكون بلوغ الأشد مما يختلف بالمراتب فيكون الاحتلام وهو غالبا في الست عشرة أول مرتبة منها والثلاث والثلاثين وهي بعد مضي ست عشرة أخرى المرتبة الثانية، وقد تقدم في نظيره الآية من سورة يوسف بعض أخبار أخر.

ب. واعلم أنه قد وردت في الآية أخبار تطبقها على الحسين بن علي عليه السلام وولادته لستة أشهر وهي من الجري.

١٠. قبول الحسنات والتجاوز عن السيئات:

المقطع [١٠] من سورة الأحقاف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ [الأحقاف: ١٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ٢٠٣»:

١. ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ ما عَمِلُوا وَنَتَجاوَزُ عَنْ سَيِّئاتِهِمْ فِي أَصْحابِ الْجَنَّةِ﴾، التقبل أبلغ من القبول، والمراد بأحسن ما عملوا طاعاتهم من الواجبات والمندوبات فإنها هي المقبولة المتقبلة وأما المباحات فإنها وإن كانت ذات حسن لكنها ليست بمتقبلة، كذا ذكر في مجمع البيان وهو تفسير حسن ويؤيده مقابلة تقبل أحسن ما عملوا بالتجاوز عن السيئات فكأنه قيل: إن أعمالهم طاعات من الواجبات والمندوبات وهي أحسن أعمالهم فنتقبلها وسيئات فنتجاوز عنها وما ليس بطاعة ولا حسنة فلا شأن له من قبول وغيره.

٢. ﴿فِي أَصْحابِ الْجَنَّةِ﴾ متعلق بقوله: ﴿نَتَجاوَزُ﴾ أي نتجاوز عن سيئاتهم في جملة من نتجاوز عن سيئاتهم من أصحاب الجنة، فهو حال من ضمير ﴿عَنْهُمْ﴾

٣. ﴿وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كانُوا يُوعَدُونَ﴾ أي يعدهم الله بهذا الكلام وعد الصدق الذي كانوا يوعدونه إلى هذا الحين بلسان الأنبياء والرسل، أو المراد أنه ينجز لهم بهذا التقبل والتجاوز يوم القيامة وعد الصدق الذي كانوا يوعدونه في الدنيا.

١١. عاقبة العاق لوالديه المكذب بالبعث:

المقطع [١١] من سورة الأحقاف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأحقاف: ١٧-١٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ٢٠٣»:

١. ﴿وَالَّذِي قالَ لِوالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُما أَتَعِدانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي﴾:

أ. لما ذكر الإنسان الذي تاب إلى الله وأسلم له وسأله الخلوص والإخلاص وبر والديه وإصلاح أولاده له قابله بهذا الإنسان الذي يكفر بالله ورسوله والمعاد ويعق والديه إذا دعواه إلى الإيمان وأنذراه بالمعاد.

ب. فقوله: ﴿وَالَّذِي قالَ لِوالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُما﴾ الظاهر أنه مبتدأ في معنى الجمع وخبره قوله بعد: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ﴾، و(أف) كلمة تبرم يقصد بها إظهار التسخط والتوجع و﴿أَتَعِدانِنِي أَنْ أُخْرَجَ﴾

الاستفهام للتوبيخ، والمعنى: أتعدانني أن أخرج من قبري فأحيا وأحضر للحساب أي أتعدانني المعاد ﴿وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي﴾ أي والحال أنه هلكت أمم الماضون العائشون من قبلي ولم يحي منهم أحد ولا بعث.

ج. وهذا على زعمهم حجة على نفي المعاد وتقريره أنه لو كان هناك إحياء وبعث لأحيي بعض من هلك إلى هذا الحين وهم فوق حد الإحصاء عددا في أزمنة طويلة لا أمد لها ولا خبر عنهم ولا أثر ولم يتنبهوا أن القرون السالفة لو عادوا كما يقولون كان ذلك بعثا لهم وإحياء في الدنيا والذي وعده الله سبحانه هو البعث للحياة الآخرة والقيام لنشأة أخرى غير الدنيا.

٢. ﴿وَهُما يَسْتَغِيثانِ اللهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ﴾:

أ. الاستغاثة طلب الغوث من الله أي والحال أن والديه يطلبان من الله أن يغيثهما ويعينهما على إقامة الحجة واستمالته إلى الإيمان ويقولان له: ويلك آمن بالله وبما جاء به رسوله ومنه وعده تعالى بالمعاد إن وعد الله بالمعاد من طريق رسله حق.

ب. ومنه يظهر أن مرادهما بقولهما: ﴿آمِنْ﴾ هو الأمر بالإيمان بالله ورسوله فيما جاء به من عند الله، وقولهما: ﴿إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ﴾ المراد به المعاد، وتعليل الأمر بالإيمان به لغرض الإنذار والتخويف.

٣. ﴿فَيَقُولُ ما هذا إِلَّا أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ الإشارة بهذا إلى الوعد الذي ذكراه وأنذراه به أو مجموع ما كانا يدعوانه إليه والمعنى: فيقول هذا الإنسان لوالديه ليس هذا الوعد الذي تنذرانني به أو ليس هذا الذي تدعوانني إليه إلا خرافات الأولين وهم الأمم الأولية الهمجية.

٤. ﴿أُولئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾، تقدم بعض الكلام فيه في تفسير [الآية: ٢٥] من سورة حم السجدة.

٥. ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجاتٌ مِمَّا عَمِلُوا﴾:

أ. أي لكل من المذكورين وهم المؤمنون البررة والكافرون الفجرة منازل ومراتب مختلفة صعودا وحدورا فللجنة درجات وللنار دركات.

ب. ويعود هذا الاختلاف إلى اختلافهم في أنفسهم وإن كان ظهوره في أعمالهم ولذلك قال: ﴿لِكُلٍّ دَرَجاتٌ مِمَّا عَمِلُوا﴾ فالدرجات لهم ومنشؤها أعمالهم.

٦. ﴿وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾:

أ. اللام للغاية والجملة معطوفة على غاية أو غايات أخرى محذوفة لم يتعلق بذكرها غرض، وإنما جعلت غاية لقوله: ﴿لِكُلٍّ دَرَجاتٌ﴾ لأنه في معنى وجعلناهم درجات، والمعنى: جعلناهم درجات لكذا وكذا وليوفيهم أعمالهم وهم لا يظلمون.

ب. ومعنى توفيتهم أعمالهم إعطاؤهم نفس أعمالهم فالآية من الآيات الدالة على تجسم الأعمال، وقيل: الكلام على تقدير مضاف والتقدير وليوفيهم أجور أعمالهم.

٧. أحاديث وآثار:

أ. أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن عبد الله قال: إني لفي المسجد حين خطب مروان فقال: إن الله قد أرى أمير المؤمنين في يزيد رأيا حسنا، وإن يستخلفه فقد استخلف أبو بكر وعمر، فقال عبد الرحمن بن أبي بكر: أهرقلية؟ إن أبا بكر والله ما جعلها في أحد من ولده، ولا أحد من أهل بيته، ولا جعلها معاوية إلا رحمة وكرامة لولده، فقال مروان: ألست الذي قال لوالديه: أف لكما؟ فقال عبد الرحمن: ألست ابن اللعين، الذي لعن أباك رسول الله ﷺ؟ قال: وسمعتها عائشة فقالت: يا مروان أنت القائل لعبد الرحمن كذا وكذا؟ كذبت والله ما فيه نزلت، نزلت في فلان بن فلان.

ب. أخرج ابن جرير عن ابن عباس: في الذي قال لوالديه أف لكما الآية، قال: هذا ابن لأبي بكر.

• أقول: وروي ذلك أيضا عن قتادة والسدي، وقصة رواية مروان وتكذيب عائشة له مشهورة، قال في روح المعاني بعد رد رواية مروان: ووافق بعضهم كالسهيلي في الأعلام مروان في زعم نزولها في عبد الرحمن، وعلى تسليم ذلك لا معنى للتعيير لا سيما من مروان فإن الرجل أسلم وكان من أفاضل الصحابة وأبطالهم، وكان له في الإسلام عناء يوم اليمامة وغيره، والإسلام يجب ما قبله فالكافر إذا أسلم لا ينبغي أن يعير بما كان يقول)

• وفيه أن الروايات لو صحت لم يكن مناص عن صريح شهادة الآية عليه بقوله: ﴿أُولئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾، إلى قوله: ﴿إِنَّهُمْ كانُوا خاسِرِينَ﴾ ولم ينفع شيء مما دافع عنه به.

١٢. عرض الكفار على النار وتوبيخهم باستمتاعهم بالدنيا:

المقطع [١٢] من سورة الأحقاف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى

النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ٢٠٥»:

١. ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ﴾:

أ. عرض الماء على الدابة وللدابة وضعه بمرأى منها بحيث إن شاءت شربته، وعرض المتاع على البيع وضعه موضعا لا مانع من وقوع البيع عليه.

ب. قيل: المراد بعرضهم على النار تعذيبهم فيها من قولهم: عرض فلان على السيف إذا قتل وهو مجاز شائع.

• وفيه أن قوله في آخر السورة ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هذا بِالْحَقِّ قالُوا بَلى وَرَبِّنا قالَ فَذُوقُوا الْعَذابَ﴾ لا يلائمه تلك الملاءمة حيث فرع ذوق العذاب على العرض فهو غيره.

ج. وقيل: إن في الآية قلبا والأصل عرض النار على الذين كفروا لأن من الواجب في تحقق معنى العرض أن يكون في المعروض عليه شعور بالمعروض والنار لا شعور لها بالذين كفروا بل الأمر بالعكس ففي الكلام قلب، والمراد عرض النار على الذين كفروا، ووجهه بعض المفسرين بأن المناسب أن يؤتى بالمعروض إلى المعروض عليه كما في قولنا: عرضت الماء على الدابة وعرضت الطعام على الضيف، ولما كان الأمر في عرض النار على الذين كفروا بالعكس فإنهم هم المسيرون إلى النار فقلب الكلام رعاية لهذا الاعتبار.

• وفيه نظر أما ما ذكر من أن المعروض عليه يجب أن يكون ذا شعور وإدراك بالمعروض حتى يرغب إليه أو يرغب عنه والنار لا شعور لها ففيه أولا: أنه ممنوع كما يؤيده قولهم: عرضت المتاع على البيع، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمانَةَ عَلَى السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبالِ﴾ [الأحزاب: ٧٢]، وثانيا: أنا لا نسلم خلو نار الآخرة عن الشعور، ففي الأخبار الصحيحة أن للجنة والنار شعورا ويشعر به قوله: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾ [ق: ٣٠]، وغيره من الآيات.

د. وأما ما قيل من أن المناسب تحريك المعروض إلى المعروض عليه فلا نسلم لزومه ولا اطراده فهو منقوض بقوله: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمانَةَ عَلَى السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ الآية، [الأحزاب: ٧٢]، على أن في كلامه تعالى ما يدل على الإتيان بالنار إلى الذين كفروا كقوله: ﴿وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسانُ

وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى﴾ [الفجر: ٢٣]، فالحق أن العرض وهو إظهار عدم المانع من تلبس شيء بشيء معنى له نسبة إلى الجانبين يمكن أخذ كل منهما أصلا معروضا عليه والآخر فرعا معروضا فتارة تؤخذ النار معروضة على الكافرين بعناية أن لا مانع من عمل صالح أو شفاعة تمنع من دخولهم فيها كقوله تعالى: ﴿وَعَرَضْنا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكافِرِينَ عَرْضاً﴾ [الكهف: ١٠٠]، وتارة يؤخذ الكفار معروضين للنار بعناية أن لا مانع يمنع النار أن تعذبهم، كما في قوله: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْها غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ [المؤمن: ٣٦]، وقوله: ﴿يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ﴾ الآية.

هـ. وعلى هذا فالأشبه تحقق عرضين يوم القيامة: عرض جهنم للكافرين حين تبرز لهم ثم عرضهم على جهنم بعد الحساب والقضاء الفصل بدخولهم فيها حين يساقون إليها، قال تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلى جَهَنَّمَ زُمَراً﴾ [الزمر: ٧١]

٢. ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّباتِكُمْ فِي حَياتِكُمُ الدُّنْيا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِها﴾:

أ. على تقدير القول أي يقال لهم: ﴿أَذْهَبْتُمْ﴾، والطيبات الأمور التي تلائم النفس وتوافق الطبع ويستلذ بها الإنسان، وإذهاب الطيبات إنفادها بالاستيفاء لها، والمراد بالاستمتاع بها استعمالها والانتفاع بها لنفسها لا للآخرة والتهيؤ لها.

ب. والمعنى: يقال لهم حين عرضهم على النار: أنفذتم الطيبات التي تلتذون بها في حياتكم الدنيا واستمتعتم بتلك الطيبات فلم يبق لكم شيء تلتذون به في الآخرة.

٣. ﴿فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذابَ الْهُونِ بِما كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِما كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ﴾:

أ. تفريع على إذهابهم الطيبات، وعذاب الهون العذاب الذي فيه الهوان والخزي.

ب. والمعنى: فاليوم تجزون العذاب الذي فيه الهوان والخزي قبال استكباركم في الدنيا عن الحق وقبال فسقكم وتوليكم عن الطاعات، وهما ذنبان أحدهما متعلق بالاعتقاد وهو الاستكبار عن الحق والثاني متعلق بالعمل وهو الفسق.

٤. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، إلى قوله: ﴿وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِها﴾ قال: أكلتم وشربتم وركبتم، وهي في بني فلان ﴿فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذابَ الْهُونِ﴾ قال: العطش.

ب. وفي المحاسن، بإسناده عن ابن القداح عن أبي عبد الله عليه السلام عن آبائه عليهم السلام قال: أتي يعني النبي ﷺ بخبيص فأبى أن يأكله، فقيل: أتحرمه؟ فقال: لا ولكني أكره أن تتوق إليه نفسي، ثم تلا الآية ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا﴾

ج. وفي المجمع: (في الآية وقد روي في الحديث أن عمر بن الخطاب قال: استأذنت على رسول الله ﷺ، فدخلت عليه في مشربة أم إبراهيم، وإنه لمضطجع على حفصة وإن بعضه على التراب، وتحت رأسه وسادة محشوة ليفا، فسلمت عليه ثم جلست فقلت: يا رسول الله، أنت نبي الله وصفوته وخيرته من خلقه، وكسرى وقيصر على سرير الذهب وفرش الحرير والديباج! فقال رسول الله ﷺ: أولئك قوم عجلت طيباتهم، وهي وشيكة الانقطاع، وإنما أخرت لنا طيباتنا.

• أقول: ورواه في الدر المنثور، بطرق عنه.

١٣. إنذار هود لقومه واستهزاؤهم به وإهلاكهم:

المقطع [١٣] من سورة الأحقاف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأحقاف: ٢١ـ٢٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ٢١٠»:

١. ﴿وَاذْكُرْ أَخا عادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾، أخو القوم هو المنسوب إليهم من جهة الأب، والمراد بأخي عاد هود النبي عليه السلام، والأحقاف مسكن قوم عاد والمتيقن أنه في جنوب جزيرة العرب ولا أثر اليوم باقيا منهم، واختلفوا أين هو؟ فقيل: واد بين عمان ومهرة، وقيل رمال بين عمان إلى حضرموت، وقيل: رمال مشرفة على البحر بالشحر من أرض اليمن وقيل غير ذلك.

٢. ﴿وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾:

أ. النذر جمع نذير والمراد به الرسول على ما يفيده السياق، وأما تعميم بعضهم النذر للرسول

ونوابهم من العلماء ففي غير محله.

ب. وفسروا ﴿مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾ بالذين كانوا قبله و﴿مِنْ خَلْفِهِ﴾ بالذين جاءوا بعده ويمكن العكس بأن يكون المراد بالنذر بين يديه من كانوا في زمانه، ومن خلفه من كان قبله، والأولى على الأول أن يكون المراد بخلو النذر من بين يديه ومن خلفه أن يكون كناية عن مجيئه إليهم وإنذاره لهم على فترة من الرسل.

٣. ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللهَ﴾ تفسير للإنذار وفيه إشارة إلى أن أساس دينه الذي يرجع إليه تفاصيله هو التوحيد.

٤. ﴿إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ تعليل لدعوتهم إلى التوحيد، والظاهر أن المراد باليوم العظيم يوم عذاب الاستئصال لا يوم القيامة يدل على ذلك ما سيأتي من قولهم: ﴿فَأْتِنا بِما تَعِدُنا﴾ وقوله: ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ﴾ والباقي ظاهر.

٥. ﴿قالُوا أَجِئْتَنا لِتَأْفِكَنا عَنْ آلِهَتِنا﴾، جواب القوم له قبال إنذاره، وقوله: ﴿لِتَأْفِكَنا عَنْ آلِهَتِنا﴾ بتضمين الإفك وهو الكذب والفرية معنى الصرف والمعنى: قالوا أجئتنا لتصرفنا عن آلهتنا إفكا وافتراء.

٦. ﴿فَأْتِنا بِما تَعِدُنا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ أمر تعجيزي منهم له زعما منهم أنه عليه السلام كاذب في دعواته آفك في إنذاره.

٧. ﴿قالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللهِ وَأُبَلِّغُكُمْ ما أُرْسِلْتُ بِهِ﴾، جواب هود عن قولهم ردا عليهم، فقوله: ﴿إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللهِ﴾ قصر العلم بنزول العذاب فيه تعالى لأنه من الغيب الذي لا يعلم حقيقته إلا الله جل شأنه، وهو كناية عن أنه عليه السلام لا علم له بأنه ما هو؟ ولا كيف هو؟ ولا متى هو؟ ولذلك عقبه بقوله: ﴿وَأُبَلِّغُكُمْ ما أُرْسِلْتُ بِهِ﴾ أي إن الذي حملته وأرسلت به إليكم هو الذي أبلغكموه ولا علم لي بالعذاب الذي أمرت بإنذاركم به ما هو؟ وكيف هو؟ ومتى هو؟ ولا قدرة لي عليه.

٨. ﴿وَلكِنِّي أَراكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ﴾ إضراب عما يدل عليه الكلام من نفيه العلم عن نفسه، والمعنى: لا علم لي بما تستعجلون به من العذاب ولكني أراكم قوما تجهلون فلا تميزون ما ينفعكم مما يضركم وخيركم من شركم حين تردون دعوة الله وتكذبون بآياته وتستهزءون بما يوعدكم به من العذاب.

٩. ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عارِضاً مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قالُوا هذا عارِضٌ مُمْطِرُنا﴾:

أ. صفة نزول العذاب إليهم بادئ ظهوره عليهم.

ب. والعارض هو السحاب يعرض في الأفق ثم يطبق السماء وهو صفة العذاب الذي يرجع إليه ضمير ﴿رَأَوْهُ﴾ المعلوم من السياق، وقوله: ﴿مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ﴾ صفة أخرى له، والأودية جمع الوادي، وقوله: ﴿قالُوا هذا عارِضٌ مُمْطِرُنا﴾ أي استبشروا ظنا منهم أنه سحاب عارض ممطر لهم فقالوا: هذا الذي نشاهده سحاب عارض ممطر إيانا.

١٠. ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيها عَذابٌ أَلِيمٌ﴾:

أ. رد لقولهم: ﴿هذا عارِضٌ مُمْطِرُنا﴾ بالإضراب عنه إلى بيان الحقيقة فبين أولا على طريق التهكم أنه العذاب الذي استعجلتم به حين قلتم: ﴿فَأْتِنا بِما تَعِدُنا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ وزاد في البيان ثانيا بقوله: ﴿رِيحٌ فِيها عَذابٌ أَلِيمٌ﴾

ب. والكلام من كلامه تعالى وقيل: هو كلام لهود النبي عليه السلام.

١١. ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّها فَأَصْبَحُوا لا يُرى إِلَّا مَساكِنُهُمْ كَذلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ التدمير الإهلاك، وتعلقه بكل شيء وإن كان يفيد عموم التدمير لكن السياق يخصصه بنحو الإنسان والدواب والأموال، فالمعنى: أن تلك الريح ريح تهلك كل ما مرت عليه من إنسان ودواب وأموال.

١٢. ﴿فَأَصْبَحُوا لا يُرى إِلَّا مَساكِنُهُمْ﴾ بيان لنتيجة نزول العذاب، وقوله: ﴿كَذلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ إعطاء ضابط كلي في مجازاة المجرمين بتشبيه الكلي بالفرد الممثل به والتشبيه في الشدة أي إن سنتنا في جزاء المجرمين على هذا النحو الذي قصصناه من الشدة فهو كقوله تعالى: ﴿وَكَذلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذا أَخَذَ الْقُرى وَهِيَ ظالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢]

١٤. تمكين عاد وعدم انتفاعهم بسمعهم وأبصارهم:

المقطع [١٤] من سورة الأحقاف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيما إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ٢١٢»:

١. ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيما إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ﴾:

أ. موعظة لكفار مكة مستنتجة من القصة.

ب. والتمكين إقرار الشيء وإثباته في المكان، وهو كناية عن إعطاء القدرة والاستطاعة في التصرف و(ما) في (فيما) موصولة أو موصوفة و﴿إِنْ﴾ نافية، والمعنى: ولقد جعلنا قوم هود في الذي، أو في شيء، ما مكناكم معشر كفار مكة ومن يتلوكم فيه من بسطة الأجسام وقوة الأبدان والبطش الشديد والقدرة القومية.

٢. ﴿وَجَعَلْنا لَهُمْ سَمْعاً وَأَبْصاراً وَأَفْئِدَةً﴾ أي جهزناهم بما يدركون به ما ينفعهم وما يضرهم وهو السمع والأبصار وما يميزون به ما ينفعهم مما يضرهم فيحتالون لجلب النفع ولدفع الضر بما قدروا كما أن لكم ذلك.

٣. ﴿فَما أَغْنى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلا أَبْصارُهُمْ وَلا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كانُوا يَجْحَدُونَ بِآياتِ اللهِ﴾:

أ. ما في ﴿فَما أَغْنى﴾ نافية لا استفهامية، و﴿إِذْ﴾ ظرف متعلق بالنفي الذي في قوله: ﴿فَما أَغْنى﴾

ب. ومحصل المعنى: أنهم كانوا من التمكن على ما ليس لكم ذلك وكان لهم من أدوات الإدراك والتمييز ما يحتال به الإنسان لدفع المكاره والاتقاء من الحوادث المهلكة المبيدة لكن لم يغن عنهم ولم ينفعهم هذه المشاعر والأفئدة شيئا عند ما جحدوا آيات الله فما الذي يؤمنكم من عذاب الله وأنتم جاحدون لآيات الله.

ج. وقيل: معنى الآية: ولقد مكناهم في الذي أو في شيء ما مكناكم فيه من القوة والاستطاعة وجعلنا لهم سمعا وأبصارا وأفئدة ليستعملوها فيما خلقت له ويسمعوا كلمة الحق ويشاهدوا آيات التوحيد ويعتبروا بالتفكر في العبر، ويستدلوا بالتعقل الصحيح على المبدإ والمعاد فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء حيث لم يستعملوها فيما يوصل إلى معرفة الله سبحانه، هذا ولعل الذي قدمناه من المعنى أنسب للسياق.

د. وقد جوزوا في مفردات الآية وجوها لم نوردها لعدم جدوى فيها.

هـ. وقد تقدم في نظائر قوله: ﴿سَمْعاً وَأَبْصاراً وَأَفْئِدَةً﴾ أن إفراد السمع، والمراد منه الجمع، لمكان مصدريته في الأصل نظير الضيف والقربان والجنب، قال تعالى: ﴿ضَيْفِ إِبْراهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾ [الذاريات: ٢٤] وقال: ﴿إِذْ قَرَّبا قُرْباناً﴾ [المائدة: ٢٧]، وقال: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُباً﴾ [المائدة: ٦]

٤. ﴿وَحاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ﴾ عطف على قوله: ﴿فَما أَغْنى عَنْهُمْ﴾

١٥. إهلاك القرى وتصريف الآيات وضلال آلهتهم عنهم:

المقطع [١٥] من سورة الأحقاف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٧-٢٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ٢١٤»:

١. ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنا ما حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرى﴾ تذكرة إنذارية متفرعة على العظة التي في قوله: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ﴾، فهي معطوفة عليه على ما يفيده السياق لا على قوله: ﴿وَاذْكُرْ أَخا عادٍ﴾

٢. ﴿وَصَرَّفْنَا الْآياتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾:

أ. أي وصيرنا الآيات المختلفة من معجزة أيدنا بها الأنبياء ووحي أنزلناه عليهم ونعم رزقناهموها ليتذكروا بها ونقم ابتليناهم بها ليتوبوا وينصرفوا عن ظلمهم لعلهم يرجعون من عبادة غير الله سبحانه إلى عبادته.

ب. والضمير في ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ راجع إلى القرى والمراد بها أهل القرى.

٣. ﴿فَلَوْلا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ قُرْباناً آلِهَةً﴾، ظاهر السياق أن آلهة مفعول ثان لاتخذوا ومفعوله الأول هو الضمير الراجع إلى الموصول و(قربانا) بمعنى ما يتقرب به، والكلام مسوق للتهكم، والمعنى: فلو لا نصرهم الذين اتخذوهم آلهة حال كونهم متقربا بهم إلى الله كما كانوا يقولون: ﴿ما نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونا إِلَى اللهِ زُلْفى﴾

٤. ﴿بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ﴾ أي ضل الآلهة عن أهل القرى وانقطعت رابطة الألوهية والعبودية التي كانوا يزعمونها ويرجون بذلك أن ينصروهم عند الشدائد والمكاره فالضلال عنهم كناية عن بطلان مزعمتهم.

٥. ﴿وَذلِكَ إِفْكُهُمْ وَما كانُوا يَفْتَرُونَ﴾:

أ. مبتدأ وخبر والإشارة إلى ضلال آلهتهم، والمراد بالإفك أثر الإفك أو بتقدير مضاف، و﴿ما﴾ مصدرية، والمعنى: وذلك الضلال أثر إفكهم وافترائهم.

ب. ويمكن أن يكون الكلام على صورته من غير تقدير مضاف أو تجوز والإشارة إلى إهلاكهم بعد تصريف الآيات وضلال آلهتهم عند ذلك، ومحصل المعنى: أن هذا الذي ذكرناه من عاقبة أمرهم هو

حقيقة زعمهم أن الآلهة يشفعون لهم ويقربونهم من الله زعمهم الذي أفكوه وافتروه، والكلام مسوق للتهكم.

١٦. استماع الجن للقرآن وإنذار قومهم ودعوتهم للإيمان:

المقطع [١٦] من سورة الأحقاف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الأحقاف: ٢٩-٣٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ٢١٥»:

١. ﴿وَإِذْ صَرَفْنا إِلَيْكَ نَفَراً مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ﴾ الصرف رد الشيء من حالة إلى حالة أو من مكان إلى مكان، والنفر، على ما ذكره الراغب، عدة من الرجال يمكنهم النفر وهو اسم جمع يطلق على ما فوق الثلاثة من الرجال والنساء والإنسان وعلى الجن كما في الآية و﴿يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ﴾ صفة نفر، والمعنى: واذكر إذ وجهنا إليك عدة من الجن يستمعون القرآن.

٢. ﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ قالُوا أَنْصِتُوا﴾ ضمير ﴿حَضَرُوهُ﴾ للقرآن بما يلمح إليه من المعنى الحدثي والإنصات السكوت للاستماع أي فلما حضروا قراءة القرآن وتلاوته قالوا أي بعضهم لبعض: اسكتوا حتى نستمع حق الاستماع.

٣. ﴿فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ﴾ ضمير ﴿قُضِيَ﴾ للقرآن باعتبار قراءته وتلاوته، والتولية الانصراف و﴿مُنْذِرِينَ﴾ حال من ضمير الجمع في ﴿وَلَّوْا﴾ أي فلما أتمت القراءة وفرغ منها انصرفوا إلى قومهم حال كونهم منذرين مخوفين لهم من عذاب الله.

٤. ﴿قالُوا يا قَوْمَنا إِنَّا سَمِعْنا كِتاباً أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسى مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ﴾، حكاية دعوتهم قومهم وإنذارهم لهم، والمراد بالكتاب النازل بعد موسى القرآن، وفي الكلام إشعار بل دلالة على كونهم مؤمنين بموسى عليه السلام وكتابه، والمراد بتصديق القرآن لما بين يديه تصديقه التوراة أو جميع الكتب السماوية السابقة.

٥. ﴿يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أي يهدي من اتبعه إلى صراط الحق وإلى طريق مستقيم

لا يضل سالكوه عن الحق في الاعتقاد والعمل.

٦. ﴿يا قَوْمَنا أَجِيبُوا داعِيَ اللهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ﴾:

أ. المراد بداعي الله هو النبي ﷺ قال تعالى: ﴿قُلْ هذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللهِ عَلى بَصِيرَةٍ﴾ [يوسف: ١٠٨]، وقيل: المراد به ما سمعوه من القرآن وهو بعيد.

ب. والظاهر أن ﴿مِنْ﴾ في ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ للتبعيض، والمراد مغفرة بعض الذنوب وهي التي اكتسبوها قبل الإيمان، قال تعالى: ﴿إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ ما قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨]

ج. وقيل: المراد بهذا البعض حقوق الله سبحانه فإنها مغفورة بالتوبة والإيمان توبة وأما حقوق الناس فإنها غير مغفورة بالتوبة، ورد بأن الإسلام يجب ما قبله.

٧. ﴿وَمَنْ لا يُجِبْ داعِيَ اللهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءُ﴾، أي ومن لم يؤمن بداعي الله فليس بمعجز لله في الأرض برد دعوته وليس له من دون الله أولياء ينصرونه ويمدونه في ذلك، والمحصل: أن من لم يجب داعي الله في دعوته فإنما ظلم نفسه وليس له أن يعجز الله بذلك لا مستقلا ولا بنصرة من ينصره من الأولياء فليس له أولياء من دون الله، ولذلك أتم الكلام بقوله: ﴿أُولئِكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾

٨. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنا إِلَيْكَ نَفَراً مِنَ الْجِنِّ﴾ الآيات، كان سبب نزول هذه الآيات أن رسول الله ﷺ، خرج من مكة إلى سوق عكاظ، ومعه زيد بن حارثة يدعو الناس إلى الإسلام، فلم يجبه أحد ولم يجد أحدا يقبله ثم رجع إلى مكة، فلما بلغ موضعا يقال له: وادي مجنة تهجد بالقرآن في جوف الليل فمر به نفر من الجن، فلما سمعوا قراءة رسول الله ﷺ استمعوا له، فلما سمعوا قرآنه قال بعضهم لبعض: ﴿أَنْصِتُوا﴾ يعني اسكتوا ﴿فَلَمَّا قُضِيَ﴾ أي فرغ رسول الله ﷺ من القرآن، ﴿وَلَّوْا إِلى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ قالُوا يا قَوْمَنا﴾ إلى آخر الآيات، فجاءوا إلى رسول الله ﷺ وأسلموا وآمنوا، وعلمهم رسول الله ﷺ شرائع الإسلام، فأنزل الله عز وجل على نبيه ﷺ ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ﴾ السورة كلها، فحكى الله قولهم، وولى عليهم رسول الله ﷺ منهم، وكانوا يعودون إلى رسول الله ﷺ في كل وقت، فأمر رسول الله ﷺ أمير المؤمنين عليه السلام أن يعلمهم ويفقههم، فمنهم مؤمنون وكافرون وناصبون، ويهود ونصارى

ومجوس، وهم ولد الجان.

• أقول: والروايات في قصة هؤلاء النفر من الجن الذين استمعوا إلى القرآن كثيرة مختلفة اختلافا شديدا، ولا سبيل إلى تصحيح متونها بالكتاب أو بقرائن موثوق بها ولذا اكتفينا منها على ما تقدم من خبر القمي وسيأتي نبذ منها في تفسير سورة الجن إن شاء الله تعالى.

ب. وفيه سئل العالم عليه السلام عن مؤمني الجن أيدخلون الجنة؟ فقال: لا، ولكن لله حظائر بين الجنة والنار، يكون فيها مؤمنوا الجن وفساق الشيعة.

• أقول: وروي مثله في بعض الروايات الموقوفة من طرق أهل السنة، ورواية القمي مرسلة كالمضمرة فإن قبلت فلتحمل على أدنى مراتب الجنة وعمومات الكتاب تدل على عموم الثواب للمطيعين من الإنس والجن.

١٧. الله قادر على إحياء الموتى:

المقطع [١٧] من سورة الأحقاف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأحقاف: ٣٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ٢١٨»:

١. ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ﴾:

أ. الآية وما بعدها إلى آخر السورة متصلة بما تقدم من قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ﴾، وفيها تتميم القول فيما به الإنذار في هذه السورة وهو المعاد والرجوع إلى الله تعالى كما أشرنا إليه في البيان المتقدم.

ب. والمراد بالرؤية العلم عن بصيرة، والعي العجز والتعب، والأول أفصح على ما قيل، والباء في ﴿بِقَادِرٍ﴾ زائدة لوقوعها موقعا فيه شائبة حيز النفي كأنه قيل: أليس الله بقادر.

ج. والمعنى: أولم يعلموا أن الله الذي خلق السماوات والأرض ولم يعجز عن خلقهن أو لم يتعب بخلقهن قادر على إحياء الموتى، وهو تعالى مبدئ وجود كل شيء وحياته، بلى هو قادر لأنه على كل شيء قدير، وقد أوضحنا هذه الحجة فيما تقدم غير مرة.

١٨. عرض الكفار على النار وإقرارهم بالحق:

المقطع [١٨] من سورة الأحقاف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [الأحقاف: ٣٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ٢١٨»:

١. ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هذا بِالْحَقِ﴾، تأييد للحجة المذكورة في الآية السابقة بالإخبار عما سيجري على منكري المعاد يوم القيامة، ومعنى الآية ظاهر.

١٩. أمر النبي بالصبر كأولي العزم وعدم الاستعجال:

المقطع [١٩] من سورة الأحقاف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ٢١٨»:

١. ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ﴾:

أ. تفريع على حقية المعاد على ما دلت عليه الحجة العقلية وأخبر به الله سبحانه ونفي الريب عنه.

ب. والمعنى: فاصبر على جحود هؤلاء الكفار وعدم إيمانهم بذاك اليوم كما صبر أولوا العزم من الرسل ولا تستعجل لهم بالعذاب فإنهم سيلاقون اليوم بما فيه من العذاب وليس اليوم عنهم ببعيد وإن استبعدوه.

٢. ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ ما يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا ساعَةً مِنْ نَهارٍ﴾ تبيين لقرب اليوم منهم ومن حياتهم الدنيا بالإخبار عن حالهم حينما يشاهدون ذلك اليوم فإنهم إذا رأوا ما يوعدون من اليوم وما هيئ لهم فيه من العذاب كان حالهم حال من لم يلبث في الأرض إلا ساعة من نهار.

٣. ﴿بَلاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفاسِقُونَ﴾ أي هذا القرآن بما فيه من البيان تبليغ من الله من طريق النبوة فهل يهلك بهذا الذي بلغه الله من الإهلاك إلا القوم الفاسقون الخارجون عن زي العبودية.

٤. وقد أمر الله سبحانه في هذه الآية نبيه ﷺ أن يصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل وفيه تلويح إلى أنه ﷺ منهم فليصبر كصبرهم:

أ. ومعنى العزم هاهنا أما الصبر كما قال بعضهم لقوله تعالى: ﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣]، وإما العزم على الوفاء بالميثاق المأخوذ من الأنبياء كما يلوح إليه قوله: ﴿وَلَقَدْ

عَهِدْنا إِلى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾ [طه: ١١٥]، وإما العزم بمعنى العزيمة وهي الحكم والشريعة.

ب. وعلى المعنى الثالث وهو الحق الذي تذكره روايات أئمة أهل البيت عليه السلام هم خمسة: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد ﷺ وعليهم ولقوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ ما وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ وَما وَصَّيْنا بِهِ إِبْراهِيمَ وَمُوسى وَعِيسى﴾ [الشورى: ١٣]، وقد مر تقريب معنى الآية.

ج. وعن بعض المفسرين أن جميع الرسل أولوا العزم، وقد أخذ ﴿مِنَ الرُّسُلِ﴾ بيانا لأولي العزم في قوله: ﴿أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ وعن بعضهم أنهم الرسل الثمانية عشر المذكورون في سورة الأنعام [الآية: ٨٣] لأنه تعالى قال بعد ذكرهم: ﴿فَبِهُداهُمُ اقْتَدِهْ﴾

• وفيه أنه تعالى قال بعد عدهم: ﴿وَمِنْ آبائِهِمْ وَذُرِّيّاتِهِمْ وَإِخْوانِهِمْ﴾ ثم قال: ﴿فَبِهُداهُمُ اقْتَدِهْ﴾ ولم يقل ذلك بعد عدهم بلا فصل.

د. وعن بعضهم أنهم تسعة: نوح وإبراهيم والذبيح ويعقوب ويوسف وأيوب وموسى وداود وعيسى، وعن بعضهم أنهم سبعة: آدم ونوح وإبراهيم وموسى وداود وسليمان وعيسى، وعن بعضهم أنهم ستة وهم الذين أمروا بالقتال: نوح وهود وصالح وموسى وداود وسليمان، وذكر بعضهم أن الستة هم نوح وإبراهيم وإسحاق ويعقوب ويوسف وأيوب، وعن بعضهم أنهم خمسة وهم: نوح وهود وإبراهيم وشعيب وموسى، وعن بعضهم أنهم أربعة: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى، وذكر بعضهم أن الأربعة هم نوح وإبراهيم وهود ومحمد ﷺ وعليهم أجمعين.

• وهذه الأقوال بين ما لم يستدل عليه بشيء أصلا وبين ما استدل عليه بما لا دلالة فيه، ولذا أغمضنا عن نقلها، وقد تقدم في أبحاث النبوة في الجزء الثاني من الكتاب بعض الكلام في أولي العزم من الرسل فراجعه إن شئت.

٥. أحاديث وآثار:

أ. في الكافي، بإسناده عن ابن أبي يعفور قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: سادة النبيين والمرسلين خمسة: وهم أولوا العزم من الرسل وعليهم دارت الرحى: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد ﷺ وعلى جميع الأنبياء.

ب. وفيه، بإسناده عن عبد الرحمن بن كثير عن أبي جعفر عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ: إن أول وصي كان على وجه الأرض هبة الله بن آدم، وما من نبي مضى إلا وله وصي، وكان جميع الأنبياء مائة ألف وعشرين ألف نبي: منهم خمسة أولوا العزم: نوح وإبراهيم وموسى، وعيسى ومحمد ﷺ وعليهم، الحديث.

• أقول: كون أولي العزم خمسة مما استفاضت عليه الروايات عن أئمة أهل البيت عليه السلام فهو مروي عن النبي ﷺ وعن الباقر والصادق والرضا عليه السلام بطرق كثيرة.

ج. وعن روضة الواعظين للمفيد: قيل للنبي ﷺ: كم بين الدنيا والآخرة؟ قال: غمضة عين قال الله عز وجل: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ ما يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا ساعَةً مِنْ نَهارٍ بَلاغٌ﴾ الآية.

سورة محمد

هذه السورة الكريمة تحتوي على [٢٥] مقطعاً، وهذا تعريف بمقاصدها، ومحتويات مقاطعها:

مقاصد السورة ومحتوياتها:

أ. تصف السورة الذين كفروا بما يخصهم من الأوصاف الخبيثة والأعمال السيئة، وتصف الذين آمنوا بصفاتهم الطيبة وأعمالهم الحسنة.

ب. ثم تذكر ما يعقب صفات هؤلاء من النعمة والكرامة، وصفات أولئك من النقمة والهوان.

ج. وعلى الجملة فيها المقايسة بين الفريقين في صفاتهم وأعمالهم في الدنيا وما يترتب عليها في الأخرى، وفيها بعض ما يتعلق بالقتال من الأحكام.

د. وهي سورة مدنية على ما يشهد به سياق آياتها.

هـ. أحاديث وآثار: أخرج ابن مردويه عن علي قال: سورة محمد آية فينا وآية في بني أمية.

• أقول: وروى القمي في تفسيره، عن أبيه عن بعض أصحابنا عن أبي عبد الله عليه السلام: مثله.

مقاطع السورة ونظمها:

١. الآيات [١ ـ ٦] لم يذكر البيان المرتبط بها، وهي تذكر أن الله أضل أعمال الذين كفروا، وغفر للمؤمنين وأصلح بالهم، وتأمرهم بالجهاد حتى يظهر الله دينه، وتبشرهم بالجنة.

٢. الآيات [٧ ـ ١٥] لم يذكر البيان المرتبط بها، وهي تذكر أن الله ناصر من ينصره، وتدعو إلى القتال، وتذكر أن من يطع الرسول يدخله جنات، ومن يتول يعذبه، وتميز بين حال المؤمنين والكافرين يوم القيامة.

٣. الآيات [١٦ ـ ٣٢] الآيات جارية على السياق السابق، وفيها تعرض لحال الذين في قلوبهم مرض والمنافقين ومن ارتد بعد إيمانه.

٤. الآيات [٣٣ـ ٣٨]:

أ. لما وصف حال الكفار وأضاف إليه وصف حال الذين في قلوبهم مرض وتثاقلهم في أمر القتال وحال من ارتد منهم بعد، رجع يحذر المؤمنين أن يكونوا أمثالهم، فيفاوضوا المشركين ويميلوا إليهم فيتبعوا

ما أسخط الله ويكرهوا رضوانه، فيبطل أعمالهم بالحبط.

ب. وفي الآيات موعظة لهم بالترغيب والترهيب والتطميع والتخويف، وبذلك تختتم السورة.

١. إحباط أعمال الكفار وإصلاح حال المؤمنين:

المقطع [١] من سورة محمد، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ﴾ [محمد: ١-٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ٢٢٣»:

١. ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾:

أ. فسر الصد بالإعراض عن سبيل الله وهو الإسلام كما عن بعضهم، وفسر بالمنع وهو منعهم الناس أن يؤمنوا بما كان النبي ﷺ يدعوهم إليه من دين التوحيد كما عن بعض آخر.

ب. وثاني التفسيرين أوفق لسياق الآيات التالية وخاصة ما يأمر المؤمنين بقتلهم وأسرهم وغيرهم.

ج. فالمراد بالذين كفروا كفار مكة ومن تبعهم في كفرهم وقد كانوا يمنعون الناس عن الإيمان بالنبي ﷺ ويفتنونهم، وصدوهم أيضا عن المسجد الحرام.

٢. ﴿أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾:

أ. أي جعل أعمالهم ضالة لا تهتدي إلى مقاصدها التي قصدت بها وهي بالجملة إبطال الحق وإحياء الباطل فالجملة في معنى ما تكرر منه تعالى من قوله: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٦٤]، وقد وعد سبحانه بإحياء الحق وإبطال الباطل كما في قوله: ﴿لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ [الأنفال: ٨]

ب. فالمراد من ضلال أعمالهم بطلانها وفسادها دون الوصول إلى الغاية، وعد ذلك ضلالا من الاستعارة بالكناية.

٣. ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾، ظاهر إطلاق صدر الآية أن المراد بالذين آمنوا مطلق من آمن وعمل صالحا فيكون قوله: ﴿وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ﴾

تقييدا احترازيا لا تأكيدا وذكرا لما تعلقت به العناية في الإيمان.

٤. ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ جملة معترضة والضمير راجع إلى ما نزل.

٥. ﴿كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بالَهُمْ﴾:

أ. قال في المجمع: (البال الحال والشأن والبال القلب أيضا يقال: خطر ببالي كذا، والبال لا يجمع لأنه أبهم أخواته من الحال والشأن)

ب. وقد قوبل إضلال الأعمال في الآية السابقة بتكفير السيئات وإصلاح البال في هذه الآية فمعنى ذلك هداية إيمانهم وعملهم الصالح إلى غاية السعادة، وإنما يتم ذلك بتكفير السيئات المانعة من الوصول إلى السعادة، ولذلك ضم تكفير السيئات إلى إصلاح البال.

ج. والمعنى: ضرب الله الستر على سيئاتهم بالعفو والمغفرة، وأصلح حالهم في الدنيا والآخرة أما الدنيا فلأن الدين الحق هو الدين الذي يوافق ما تقتضيه الفطرة الإنسانية التي فطر الله الناس عليها، والفطرة لا تقتضي إلا ما فيه سعادتها وكمالها ففي الإيمان بما أنزل الله من دين الفطرة والعمل به صلاح حال المؤمنين في مجتمعهم الدنيوي، وأما في الآخرة فلأنها عاقبة الحياة الدنيا وإذ كانت فاتحتها سعيدة كانت خاتمتها كذلك قال تعالى: ﴿وَالْعاقِبَةُ لِلتَّقْوى﴾ [طه: ١٣٢]

٦. ﴿ذلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْباطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾:

أ. تعليل لما في الآيتين السابقتين من إضلال أعمال الكفار وإصلاح حال المؤمنين مع تكفير سيئاتهم.

ب. وفي تقييد الحق بقوله: ﴿مِنْ رَبِّهِمْ﴾ إشارة إلى أن المنتسب إليه تعالى هو الحق ولا نسبة للباطل إليه ولذلك تولى سبحانه إصلاح بال المؤمنين لما ينتسب إليه طريق الحق الذي اتبعوه، وأما الكفار بأعمالهم فلا شأن له تعالى فيهم وأما انتساب ضلالهم إليه في قوله: ﴿أَضَلَّ أَعْمالَهُمْ﴾ فمعنى إضلال أعمالهم عدم هدايته لها إلى غايات صالحة سعيدة.

ج. وفي الآية إشارة إلى أن الملاك كل الملاك في سعادة الإنسان وشقائه اتباع الحق واتباع الباطل والسبب في ذلك انتساب الحق إليه تعالى دون الباطل.

٧. ﴿كَذلِكَ يَضْرِبُ اللهُ لِلنَّاسِ أَمْثالَهُمْ﴾ أي يبين لهم أوصافهم على ما هي عليه، وفي الإتيان باسم

الإشارة الموضوعة للبعيد تفخيم لأمر ما ضربه من المثل.

٢. حكم القتال والأسرى والمنّ والفداء:

المقطع [٢] من سورة محمد، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ [محمد: ٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ٢٢٤»:

١. ﴿فَإِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقابِ﴾:

أ. تفريع على ما تقدم في الآيات الثلاث من وصف الفريقين كأنه قيل: إذا كان المؤمنون أهل الحق والله ينعم عليهم بما ينعم والكفار أهل الباطل والله يضل أعمالهم فعلى المؤمنين إذا لقوا الكفار أن يقتلوهم ويأسروهم ليحيا الحق الذي عليه المؤمنون وتطهر الأرض من الباطل الذي عليه الكفار.

ب. فقوله: ﴿فَإِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقابِ﴾ المراد باللقاء اللقاء في القتال وضرب الرقاب مفعول مطلق قائم مقام فعله العامل فيه، والتقدير: فاضربوا الرقاب، أي رقابهم، ضربا وضرب الرقبة كناية عن القتل بالسيف، لأن أيسر القتل وأسرعه ضرب الرقبة به.

٢. ﴿حَتَّى إِذا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثاقَ﴾:

أ. في المجمع: (الإثخان إكثار القتل وغلبة العدو وقهرهم ومنه أثخنه المرض اشتد عليه وأثخنه الجراح)

ب. وفي المفردات: (وثقت به أثق ثقة سكنت إليه واعتمدت عليه، وأوثقته شددته، والوثاق، بفتح الواو، والوثاق، بكسر الواو، اسمان لما يوثق به الشيء)

ج. ﴿حَتَّى﴾ غاية لضرب الرقاب.

د. والمعنى: فاقتلوهم حتى إذا أكثرتم القتل فيهم فأسروهم بشد الوثاق وإحكامه فالمراد بشد الوثاق الأسر فالآية في ترتب الأسر فيها على الإثخان في معنى قوله تعالى: ﴿ما كانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ﴾ [الأنفال: ٦٧]

٣. ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِداءً﴾ أي فأسروهم ويتفرع عليه أنكم إما تمنون عليهم منا بعد الأسر فتطلقونهم أو تسترقونهم وإما تفدونهم فداء بالمال أو بمن لكم عندهم من الأسارى.

٤. ﴿حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزارَها﴾ أوزار الحرب أثقالها وهي الأسلحة التي يحملها المحاربون والمراد به وضع المقاتلين وأهل الحرب أسلحتهم كناية عن انقضاء القتال.

٥. وقد تبين بما تقدم من المعنى:

أ. ما في قول بعضهم إن هذه الآية ناسخة لقوله تعالى: ﴿ما كانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ﴾ [الأنفال: ٦٧]، لأن هذه السورة متأخرة نزولا عن سورة الأنفال فتكون ناسخة لها، وذلك لعدم التدافع بين الآيتين فآية الأنفال تنهى عن الأسر قبل الإثخان والآية المبحوث عنها تأمر بالأسر بعد الإثخان.

ب. وكذا ما قيل: إن قوله: ﴿فَشُدُّوا الْوَثاقَ﴾، منسوخ بآية السيف ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥]، وكأنه مبني على كون العام الوارد بعد الخاص ناسخا له لا مخصصا به والحق خلافه وتمام البحث في الأصول، وفي الآية أيضا مباحث فقهية محلها علم الفقه.

٦. أحاديث وآثار:

أ. في المجمع في قوله: ﴿فَإِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقابِ﴾، المروي عن أئمة الهدى عليهم‌السلام: أن الأسارى ضربان: ضرب يؤخذون قبل انقضاء القتال، والحرب قائمة فهؤلاء يكون الإمام مخيرا بين أن يقتلهم، أو يقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف ويتركهم حتى ينزفوا، ولا يجوز المن ولا الفداء، والضرب الآخر الذين يؤخذون، بعد أن وضعت الحرب أوزارها وانقضى القتال، فالإمام مخير فيهم بين المن والفداء، إما بالمال أو بالنفس وبين الاسترقاق وضرب الرقاب، فإذا أسلموا في الحالين سقط جميع ذلك، وكان حكمهم حكم المسلمين.

• أقول: وروي ما في معناه في الكافي عن أبي عبد الله عليه السلام.

ب. وقد روي أن قوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثاقَ﴾ ناسخ لقوله: ﴿ما كانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرى﴾ الآية، وأيضا أن قوله: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ ناسخ لقوله: ﴿فَشُدُّوا الْوَثاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِداءً﴾ وقد عرفت فيما تقدم عدم استقامة النسخ.

٣. الامتحان والنصر:

المقطع [٣] من سورة محمد، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿ذلِكَ وَلَوْ يَشاءُ اللهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلكِنْ

لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ﴾ [محمد: ٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ٢٢٦»:

١. ﴿ذلِكَ﴾ أي الأمر ذلك أي إن حكم الله هو ما ذكر في الآية.

٢. ﴿وَلَوْ يَشاءُ اللهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ﴾ الضمير للكفار أي ولو شاء الله الانتقام منهم لانتقم منهم بإهلاكهم وتعذيبهم من غير أن يأمركم بقتالهم.

٣. ﴿وَلكِنْ لِيَبْلُوَا بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ﴾:

أ. استدراك من مشية الانتصار أي ولكن لم ينتصر منهم بل أمركم بقتالهم ليمتحن بعضكم ببعض فيمتحن المؤمنين بالكفار يأمرهم بقتالهم ليظهر المطيعون من العاصين ويمتحن الكفار بالمؤمنين فيتميز أهل الشقاء منهم ممن يوفق للتوبة من الباطل والرجوع إلى الحق.

ب. وقد ظهر بذلك أن قوله: ﴿لِيَبْلُوَا بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ﴾ تعليل للحكم المذكورة في الآية والخطاب في ﴿بَعْضَكُمْ﴾ لمجموع المؤمنين والكفار ووجه الخطاب إلى المؤمنين.

٤. هداية الشهداء وإصلاح حالهم وإدخالهم الجنة:

المقطع [٤] من سورة محمد، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمالَهُمْ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بالَهُمْ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَها لَهُمْ﴾ [محمد: ٤-٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ٢٢٦»:

١. ﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمالَهُمْ﴾:

أ. الكلام مسوق سوق الشرط والحكم عام أي ومن قتل في سبيل الله وهو الجهاد والقتال مع أعداء الدين فلن يبطل أعمالهم الصالحة التي أتوا بها في سبيل الله.

ب. وقيل: المراد بقوله: ﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ شهداء يوم أحد، وفيه أنه تخصيص من غير مخصص والسياق سياق العموم.

٢. ﴿سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بالَهُمْ﴾:

أ. الضمير للذين قتلوا في سبيل الله فالآية وما يتلوها لبيان حالهم بعد الشهادة أي سيهديهم الله إلى منازل السعادة والكرامة ويصلح حالهم بالمغفرة والعفو عن سيئاتهم فيصلحون لدخول الجنة.

ب. وإذا انضمت هذه الآية إلى قوله تعالى: ﴿وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْواتاً بَلْ أَحْياءٌ

عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٩]، ظهر أن المراد بإصلاح بالهم إحياؤهم حياة يصلحون بها للحضور عند ربهم بانكشاف الغطاء.

ج. وقال في المجمع: (والوجه في تكرير قوله: ﴿بالَهُمْ﴾ أن المراد بالأول أنه أصلح بالهم في الدين والدنيا، وبالثاني أنه يصلح حالهم في نعيم العقبى فالأول سبب النعيم والثاني نفس النعيم)، والفرق بين ما ذكره من المعنى وما قدمناه أن قوله تعالى: ﴿وَيُصْلِحُ بالَهُمْ﴾ على ما ذكرنا كالعطف التفسيري لقوله: ﴿سَيَهْدِيهِمْ﴾ دون ما ذكره، وقوله الآتي: ﴿وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ﴾ على ما ذكره كالعطف التفسيري لقوله: ﴿وَيُصْلِحُ بالَهُمْ﴾ دون ما ذكرناه.

٣. ﴿وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَها لَهُمْ﴾ غاية هدايته لهم، وقوله: ﴿عَرَّفَها لَهُمْ﴾ حال من إدخاله إياهم الجنة أي سيدخلهم الجنة والحال أنه عرفها لهم إما بالبيان الدنيوي من طريق الوحي والنبوة وإما بالبشرى عند القبض أو في القبر أو في القيامة أو في جميع هذه المواقف هذا ما يفيده السياق من المعنى.

٤. أحاديث وآثار: أخرج ابن المنذر عن ابن جريح: في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمالَهُمْ﴾ قال: نزل فيمن قتل من أصحاب النبي ﷺ يوم أحد.

• أقول: قد عرفت أن الآية عامة، وسياق الاستقبال في قوله: ﴿سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بالَهُمْ﴾، إنما يلائم العموم وكون الكلام مسوقا لضرب القاعدة.

٥. نصر الله للمؤمنين وإحباط أعمال الكفار:

المقطع [٥] من سورة محمد، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدامَكُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمالَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ فَأَحْبَطَ أَعْمالَهُمْ﴾ [محمد: ٧-٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ٢٢٩»:

١. ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدامَكُمْ﴾:

أ. تحضيض لهم على الجهاد ووعد لهم بالنصر إن نصروا الله تعالى فالمراد بنصرهم لله أن يجاهدوا في سبيل الله على أن يقاتلوا لوجه الله تأييدا لدينه وإعلاء لكلمة الحق لا ليستعلوا في الأرض أو ليصيبوا غنيمة أو ليظهروا نجده وشجاعة.

ب. والمراد بنصر الله لهم توفيقه الأسباب المقتضية لظهورهم وغلبتهم على عدوهم كإلقاء الرعب

في قلوب الكفار وإدارة الدوائر للمؤمنين عليهم وربط جاش المؤمنين وتشجيعهم، وعلى هذا فعطف تثبيت الأقدام على النصر من عطف الخاص على العام وتخصيص تثبيت الأقدام، وهو كناية عن التشجيع وتقوية القلوب، لكونه من أظهر أفراد النصر.

٢. ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْساً لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمالَهُمْ﴾:

أ. ذكر ما يفعل بالكفار عقيب ذكر ما يفعل بالمؤمنين الناصرين لله لقياس حالهم من حالهم.

ب. والتعس هو سقوط الإنسان على وجهه وبقاؤه عليه ويقابله الانتعاش وهو القيام عن السقوط على الوجه فقوله: ﴿فَتَعْساً لَهُمْ﴾ أي تعسوا تعسا وهو ما يتلوه دعاء عليهم نظير قوله: ﴿قاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [التوبة: ٣٠]، ﴿قُتِلَ الْإِنْسانُ ما أَكْفَرَهُ﴾ [عبس: ١٧]، ويمكن أن يكون إخبارا عن تعسهم وبطلان أثر مساعيهم على نحو الكناية فإن الإنسان أعجز ما يكون إذا كان ساقطا على وجهه.

٣. ﴿ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا ما أَنْزَلَ اللهُ فَأَحْبَطَ أَعْمالَهُمْ﴾:

أ. المراد بما أنزل الله هو القرآن والشرائع والأحكام التي أنزلها الله تعالى على نبيه ﷺ وأمر بإطاعتها والانقياد لها فكرهوها واستكبروا عن اتباعها.

ب. والآية تعليل مضمون الآية السابقة والمعنى ظاهر.

٤. أحاديث وآثار: في المجمع في قوله تعالى: ﴿ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا ما أَنْزَلَ اللهُ﴾ قال أبو جعفر عليه السلام: كرهوا ما أنزل الله في حق علي عليه السلام.

٦. السير في الأرض للنظر في العواقب:

المقطع [٦] من سورة محمد، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾ [محمد: ١٠-١١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ٢٣٠»:

١. ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكافِرِينَ أَمْثالُها﴾:

أ. التدمير الإهلاك، يقال: دمره الله أي أهلكه، ويقال: دمر الله عليه أي أهلك ما يخصه من نفس وأهل ودار وعقار فدمر عليه أبلغ من دمره كما قيل، وضمير ﴿أَمْثالُها﴾ للعاقبة أو للعقوبة المدلول عليها

بسابق الكلام.

ب. والمراد بالكافرين الكافرون بالنبي ﷺ، والمعنى: وللكافرين بك يا محمد أمثال تلك العاقبة أو العقوبة وإنما أوعدوا بأمثال العاقبة أو العقوبة ولا يحل بهم إلا مثل واحد لأنهم في معرض عقوبات كثيرة دنيوية وأخروية وإن كان لا يحل بهم إلا بعضها، ويمكن أن يراد بالكافرين مطلق الكافرين، والجملة من باب ضرب القاعدة.

٢. ﴿ذلِكَ بِأَنَّ اللهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكافِرِينَ لا مَوْلى لَهُمْ﴾:

أ. الإشارة بذلك إلى ما تقدم من نصر المؤمنين ومقت الكافرين وسوء عاقبتهم، ولا يصغي إلى ما قيل: إنه إشارة إلى ثبوت عاقبة أو عقوبة الأمم السالفة لهؤلاء، وكذا ما قيل: إنه إشارة إلى نصر المؤمنين، وذلك لأن الآية متعرضة لحال الطائفتين: المؤمنين والكفار جميعا.

ب. والمولى كأنه مصدر ميمي أريد به المعنى الوصفي فهو بمعنى الولي ولذلك يطلق على سيد العبد ومالكه لأن له ولاية التصرف في أمور عبده، ويطلق على الناصر لأنه يلي التصرف في أمر منصورة بالتقوية والتأييد والله سبحانه مولى لأنه المالك الذي يلي أمور خلقه في صراط التكوين ويدبرها كيف يشاء، قال تعالى: ﴿ما لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا شَفِيعٍ﴾ الم [السجدة: ٤]، وقال: ﴿وَرُدُّوا إِلَى اللهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ﴾ [يونس: ٣٠]، وهو تعالى مولى لأنه يلي تدبير أمور عباده في صراط السعادة فيهديهم إلى سعادتهم والجنة ويوفقهم للصالحات وينصرهم على أعدائهم، والمولوية بهذا المعنى الثانية تختص بالمؤمنين، لأنهم هم الداخلون في حظيرة العبودية المتبعون لما يريده منهم ربهم دون الكفار.

ج. وللمؤمنين مولى وولي هو الله سبحانه كما قال: ﴿ذلِكَ بِأَنَّ اللهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا﴾، وقال: ﴿اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البقرة: ٢٥٧]، وأما الكفار فقد اتخذوا الأصنام أو أرباب الأصنام أولياء فهم أولياؤهم على ما زعموا كما قال بالبناء على مزعمتهم بنوع من التهكم: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِياؤُهُمُ الطَّاغُوتُ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، ونفي ولايتهم بالبناء على حقيقة الأمر فقال: ﴿وَأَنَّ الْكافِرِينَ لا مَوْلى لَهُمْ﴾ ثم نفى ولايتهم مطلقا تكوينا وتشريعا مطلقا فقال: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ فَاللهُ هُوَ الْوَلِيُّ﴾ [الشورى: ٩]، وقال: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْماءٌ سَمَّيْتُمُوها أَنْتُمْ وَآباؤُكُمْ﴾ [النجم: ٢٣]

د. فمعنى الآية: أن نصره تعالى للمؤمنين وتثبيته أقدامهم وخذلانه الكفار وإضلاله أعمالهم

وعقوبته لهم إنما ذلك بسبب أنه تعالى مولى المؤمنين ووليهم، وأن الكفار لا مولى لهم فينصرهم ويهدي أعمالهم وينجيهم من عقوبته.

هـ. وقد تبين بما تقدم ضعف ما قيل: إن المولى في الآية بمعنى الناصر دون المالك وإلا كان منافيا لقوله تعالى: ﴿وَرُدُّوا إِلَى اللهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ﴾ [يونس: ٣٠]، ووجه الضعف ظاهر.

٧. جنات المؤمنين وتمتع الكفار كالأنعام:

المقطع [٧] من سورة محمد، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَّ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾ [محمد: ١٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ٢٣١»:

١. ﴿إِنَّ اللهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعامُ وَالنَّارُ مَثْوىً لَهُمْ﴾:

أ. مقايسة بين الفريقين وبيان أثر ولاية الله للمؤمنين وعدم ولايته للكفار من حيث العاقبة والآخرة وهي أن المؤمنين يدخلون الجنة والكفار يقيمون في النار.

ب. وقد أشير في الكلام إلى منشأ ما ذكر من الأثر حيث وصف كلا من الفريقين بما يناسب مآل حاله فأشار إلى صفة المؤمنين بقوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ وإلى صفة الكفار بقوله: ﴿يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعامُ﴾ فأفاد الوصفان بما بينهما من المقابلة أن المؤمنين راشدون في حياتهم الدنيا مصيبون للحق حيث آمنوا بالله وعملوا الأعمال الصالحة فسلكوا سبيل الرشد وقاموا بوظيفة الإنسانية، وأما الكفار فلا عناية لهم بإصابة الحق ولا تعلق لقلوبهم بوظائف الإنسانية، وإنما همهم بطنهم وفرجهم يتمتعون في حياتهم الدنيا القصيرة ويأكلون كما تأكل الأنعام لا منية لهم إلا ذلك ولا غاية لهم وراءه.

ج. فهؤلاء أي المؤمنون تحت ولاية الله حيث يسلكون مسلكا يريده منهم ربهم ويهديهم إليه ولذلك يدخلهم في الآخرة جنات تجري من تحتها الأنهار، وأولئك أي الكفار ما لهم من ولي وإنما وكلوا إلى أنفسهم ولذلك كان مثواهم ومقامهم النار.

د. وإنما نسب دخول المؤمنين الجنات إلى الله نفسه دون إقامة الكفار في النار قضاء لحق الولاية

المذكورة فله تعالى عناية خاصة بأوليائه، وأما المنسلخون من ولايته فلا يبالي في أي واد هلكوا.

٨. إهلاك القرى وعدم الناصر لهم:

المقطع [٨] من سورة محمد، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ [محمد: ١٣-١٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ٢٣٢»:

١. ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلا ناصِرَ لَهُمْ﴾:

أ. المراد بالقرية أهل القرية بدليل قوله بعد: ﴿أَهْلَكْناهُمْ﴾، والقرية التي أخرجته ﷺ هي مكة.

ب. وفي الآية تقوية لقلب النبي ﷺ وتهديد لأهل مكة وتحقير لأمرهم إن الله أهلك قرى كثيرة كل منها أشد قوة من قريتهم ولا ناصر لهم ينصرهم.

٢. ﴿أَفَمَنْ كانَ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْواءَهُمْ﴾:

أ. السياق الجاري على قياس حال المؤمنين بحال الكفار يدل على أن المراد بمن كان على بينة من ربه هم المؤمنون فالمراد بكونهم على بينة من ربهم كونهم على دلالة بينة من ربهم توجب اليقين على ما اعتقدوا عليه وهي الحجة البرهانية فهم إنما يتبعون الحجة القاطعة على ما هو الحري بالإنسان الذي من شأنه أن يستعمل العقل ويتبع الحق.

ب. وأما الذين كفروا فقد شغفهم أعمالهم السيئة التي زينها لهم الشيطان وتعلقت بها أهواؤهم وعملوا السيئات، فكم بين الفريقين من فرق.

٣. أحاديث وآثار: في المجمع في قوله تعالى: ﴿كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ﴾ قيل: هم المنافقون: وهو المروي عن أبي جعفر عليه السلام.

- أقول: ويحتمل أن تكون الروايتان من الجري.

٩. جنة المتقين وأنهارها المختلفة ومقارنتها بالنار:

المقطع [٩] من سورة محمد، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ [محمد:

١٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ٢٣٢»:

١. ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾:

أ. يفرق بين الفريقين ببيان مآل أمرهما وهو في الحقيقة توضيح ما مر في قوله: ﴿إِنَّ اللهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ من الفرق بينهما فهذه الآية في الحقيقة تفصيل تلك الآية.

ب. فقوله: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾ المثل بمعنى الصفة، كما قيل، أي صفة الجنة التي وعد الله المتقين أن يدخلهم فيها، وربما حمل المثل على معناه المعروف واستفيد منه أن الجنة أرفع وأعلى من أن يحيط بها الوصف ويحدها اللفظ وإنما تقرب إلى الأذهان نوع تقريب بأمثال مضروبة كما يلوح إليه قوله تعالى: ﴿فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ ما أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧]

ج. وقد بدل قوله في الآية السابقة: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ في هذه الآية من قوله: ﴿الْمُتَّقُونَ﴾ تبديل اللازم من الملزوم فإن تقوى الله يستلزم الإيمان به وعمل الصالحات من الأعمال.

٢. ﴿فِيها أَنْهارٌ مِنْ ماءٍ غَيْرِ آسِنٍ﴾ أي غير متغير بطول المقام، وقوله: ﴿وَأَنْهارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ﴾ كما في ألبان الدنيا، وقوله: ﴿وَأَنْهارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ﴾ أي لذيذة للشاربين، واللذة إما صفة مشبهة مؤنثة وصف للخمر، وإما مصدر وصفت به الخمر مبالغة، وإما بتقدير مضاف أي ذات لذة، وقوله: ﴿وَأَنْهارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى﴾ أي خالص من الشمع والرغوة والقذى وسائر ما في عسل الدنيا من الأذى والعيوب، وقوله: ﴿وَلَهُمْ فِيها مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ﴾ جمع للتعميم.

٣. ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ ينمحي بها عنهم كل ذنب وسيئة فلا تتكدر عيشتهم بمكدر ولا يتنغص بمنغص، وفي التعبير عنه تعالى بربهم إشارة إلى غشيان الرحمة وشمول الحنان والرأفة الإلهية.

٤. ﴿كَمَنْ هُوَ خالِدٌ فِي النَّارِ﴾ قياس محذوف أحد طرفيه أي أمن يدخل الجنة التي هذا مثلها كمن هو خالد في النار وشرابهم الماء الشديد الحرارة الذي يقطع أمعاءهم وما في جوفهم من الأحشاء إذا سقوه، وإنما يسقونه وهم مكرهون كما في قوله: ﴿وَسُقُوا ماءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعاءَهُمْ﴾ وقيل: قوله: ﴿كَمَنْ هُوَ خالِدٌ﴾، بيان لقوله في الآية السابقة: ﴿كَمَنْ زُيِّنَ﴾، وهو كما ترى.

٥. أحاديث وآثار: في تفسير القمي في قوله تعالى: ﴿كَمَنْ هُوَ خالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا ماءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعاءَهُمْ﴾ قال: ليس من هو في هذه الجنة الموصوفة، كمن هو في هذه النار كما أن ليس عدو الله كوليه.

١٠. طبع الله على قلوب المعاندين:

المقطع [١٠] من سورة محمد، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ [محمد: ١٦-١٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ٢٣٦»:

١. ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إذا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ما ذا قالَ آنِفاً﴾، آنفا اسم فاعل منصوب على الظرفية أو لكونه مفعولا فيه، ومعناه الساعة التي قبيل ساعتك، وقيل: معناه هذه الساعة وهو على أي حال مأخوذ من الأنف بمعنى الجارحة.

٢. ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ الضمير للذين كفروا، والمراد باستماعهم إلى النبي ﷺ إصغاؤهم إلى ما يتلوه من القرآن وما يبين لهم من أصول المعارف وشرائع الدين.

٣. ﴿حَتَّى إِذا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ﴾ الضمير للموصول وجمع الضمير باعتبار المعنى كما أن إفراده في ﴿يَسْتَمِعُ﴾ باعتبار اللفظ.

٤. ﴿قالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ما ذا قالَ آنِفاً﴾ المراد بالذين أوتوا العلم العلماء بالله من الصحابة، والضمير في ﴿ما ذا قالَ﴾ للنبي ﷺ.

٥. والاستفهام في قولهم: ﴿ما ذا قالَ آنِفاً﴾ قيل: للاستعلام حقيقة لأن استغراقهم في الكبر والغرور واتباع الأهواء ما كان يدعهم أن يفقهوا القول الحق كما قال تعالى: ﴿فَما لِهؤُلاءِ الْقَوْمِ لا يَكادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً﴾ [النساء: ٧٨]، وقيل: للاستهزاء، وقيل: للتحقير كأن القول لكونه مشحونا بالأباطيل لا يرجع إلى معنى محصل، ولكل من المعاني الثلاثة وجه.

٦. ﴿أُولئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللهُ عَلى قُلُوبِهِمْ﴾ تعريف لهم، وقوله: ﴿وَاتَّبَعُوا أَهْواءَهُمْ﴾ تعريف بعد تعريف فهو كعطف التفسير، ويتحصل منه أن اتباع الأهواء أمارة الطبع على القلب فالقلب غير المطبوع عليه الباقي على طهارة الفطرة الأصلية لا يتوقف في فهم المعارف الدينية والحقائق الإلهية.

٧. ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زادَهُمْ هُدىً وَآتاهُمْ تَقْواهُمْ﴾:

أ. المقابلة الظاهرة بين الآية وبين الآية السابقة يعطي أن المراد بالاهتداء ما يقابل الضلال الملازم للطبع على القلب وهو التسليم لما تهدي إليه الفطرة السليمة واتباع الحق، وزيادة هداهم من الله سبحانه

رفعه تعالى درجة إيمانهم، وقد تقدم أن الهدى والإيمان ذو مراتب مختلفة، والمراد بالتقوى ما يقابل اتباع الأهواء وهو الورع عن محارم الله والتجنب عن ارتكاب المعاصي.

ب. وبذلك يظهر أن زيادة الهدى راجع إلى تكميلهم في ناحية العلم وإيتاء التقوى إلى تكميلهم في ناحية العمل، ويظهر أيضا بالمقابلة أن الطبع على القلوب راجع إلى فقدانهم كمال العلم واتباع الأهواء راجع إلى فقدانهم العمل الصالح وحرمانهم منه وهذا لا ينافي ما قدمنا أن اتباع الأهواء كعطف التفسير بالنسبة إلى الطبع على القلوب.

٨. أحاديث وآثار: في المجمع في قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾، عن الأصبغ بن نباتة عن علي عليه السلام قال: إنا كنا عند رسول الله ﷺ فيخبرنا بالوحي، فأعيه أنا ومن يعيه فإذا خرجنا قالوا: ما ذا قال آنفا.

١١. الساعة وأشراطها:

المقطع [١١] من سورة محمد، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ﴾ [محمد: ١٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ٢٣٥»:

١. ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جاءَ أَشْراطُها﴾:

أ. النظر هو الانتظار، والأشراط جمع شرط بمعنى العلامة، والأصل في معناه الشرط بمعنى ما يتوقف عليه وجود الشيء لأن تحققه علامة تحقق الشيء فأشراط الساعة علاماتها الدالة عليها.

ب. وسياق الآية سياق التهكم كأنهم واقفون موقفا عليهم إما أن يتبعوا الحق فتسعد بذلك عاقبتهم، وإما أن ينتظروا الساعة حتى إذا أيقنوا بوقوعها وأشرفوا عليها تذكروا وآمنوا واتبعوا الحق أما اتباع الحق اليوم فلم يخضعوا له بحجة أو بموعظة أو عبرة، وأما انتظارهم مجيء الساعة ليتذكروا عنده فلا ينفعهم شيئا فإنها تجيء بغتة ولا تمهلهم شيئا حتى يستعدوا لها بالذكرى وإذا وقعت لم ينفعهم الذكرى لأن اليوم يوم جزاء لا يوم عمل قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرى يَقُولُ يا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَياتِي﴾ [الفجر: ٢٤]

ج. مضافا إلى أن أشراطها وعلاماتها قد جاءت وتحققت، ولعل المراد بأشراطها خلق الإنسان

وانقسام نوعه إلى صلحاء ومفسدين ومتقين وفجار المستدعي للحكم الفصل بينهم ونزول الموت عليهم فإن ذلك كله من شرائط وقوع الواقعة وإتيان الساعة، وقيل: المراد بأشراط الساعة ظهور النبي ﷺ وهو خاتم الأنبياء وانشقاق القمر ونزول القرآن وهو آخر الكتب السماوية.

د. هذا ما يعطيه التدبر في الآية من المعنى وهي، كما ترى، حجة برهانية في عين أنها مسوقة سوق التهكم.

هـ. وعليه فقوله: ﴿بَغْتَةً﴾ حال من الإتيان جيء به لبيان الواقع وليتفرع عليه قوله الآتي: ﴿فَأَنَّى لَهُمْ إِذا جاءَتْهُمْ ذِكْراهُمْ﴾ وليس قيدا للانتظار حتى يفيد أنهم إنما ينتظرون إتيانها بغتة، ولدفع هذا التوهم قيل: ﴿إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً﴾ ولم يقل: إلا أن تأتيهم الساعة بغتة.

٢. ﴿فَأَنَّى لَهُمْ إِذا جاءَتْهُمْ ذِكْراهُمْ﴾ أنى خبر مقدم و﴿ذِكْراهُمْ﴾ مبتدأ مؤخر و﴿إِذا جاءَتْهُمْ﴾ معترضة بينهما، والمعنى: فكيف يكون لهم أن يتذكروا إذا جاءتهم؟ أي كيف ينتفعون بالذكرى في يوم لا ينفع العمل الذي يعمل فيه وإنما هو يوم الجزاء.

٣. وللقوم في معنى جمل الآية ومعناها بالجملة أقوال مختلفة تركنا إيرادها من أرادها فليراجع كتبهم المفصلة.

٤. أحاديث وآثار:

أ. أخرج أحمد والبخاري ومسلم والترمذي عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: بعثت أنا والساعة كهاتين، وأشار بالسبابة والوسطى.

• أقول: وروي هذا اللفظ عنه ﷺ بطرق أخرى عن أبي هريرة وسهل بن مسعود.

ب. أخرج ابن أبي شيبة والبخاري ومسلم وابن ماجة وابن مردويه عن أبي هريرة قال: كان رسول الله ﷺ يوما بارزا للناس، فأتاه رجل فقال: يا رسول الله متى الساعة؟ فقال: ما المسئول عنها بأعلم من السائل، ولكن سأحدثك عن أشراطها، إذا ولدت الأمة ربتها فذاك من أشراطها، وإذا كانت الحفاة العراة رعاء الشاء رءوس الناس، فذاك من أشراطها، وإذا تطاول رعاء الغنم في البنيان، فذاك من أشراطها.

ج. وفي العلل، بإسناده إلى أنس بن مالك عن النبي ﷺ في حديث طويل يقول فيه لعبد الله بن سلام وقد سأله عن مسائل: أما أشراط الساعة، فنار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب.

• أقول: ولعل المراد به غير ظاهرة، والأخبار في أشراط الساعة من طرق الشيعة وأهل السنة فوق حد الإحصاء، وقد مرت رواية سلمان عن النبي ﷺ ورواية حمران عن الصادق عليه السلام وهما روايتان جامعتان في الباب.

١٢. التوحيد والاستغفار وعلم الله:

المقطع [١٢] من سورة محمد، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾ [محمد: ١٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ٢٣٧»:

١. ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ﴾:

أ. قيل: هو متفرع على جميع ما تقدم في السورة من سعادة المؤمنين وشقاوة الكفار كأنه قيل: إذا علمت أن الأمر كما ذكر من سعادة هؤلاء وشقاوة أولئك فاثبت على ما أنت عليه من العلم بوحدانية الله سبحانه فمعنى الأمر بالعلم على هذا هو الأمر بالثبات على العلم.

ب. ويمكن أن يكون تفريعا على ما بينه في الآيتين السابقتين أعني قوله: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾، إلى قوله: ﴿وَآتاهُمْ تَقْواهُمْ﴾ من أنه تعالى يطبع على قلوب المشركين ويتركهم وذنوبهم ويعكس الأمر في الذين اهتدوا إلى توحيده والإيمان به فكأنه قيل: إذا كان الأمر على ذلك فاستمسك بعلمك بوحدانية الإله واطلب مغفرة ذنبك ومغفرة أمتك من المؤمنين بك والمؤمنات حتى لا تكون ممن يطبع الله على قلبه ويحرمه التقوى بتركه وذنوبه، ويؤيد هذا الوجه قوله في ذيل الآية: ﴿وَاللهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْواكُمْ﴾

ج. فقوله: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ﴾ معناه على ما يؤيده السياق فاستمسك بعلمك أنه لا إله إلا الله، وقوله: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ تقدم الكلام في معنى الذنب المنسوب إليه ﷺ وسيأتي أيضا في تفسير أول سورة الفتح إن شاء الله تعالى.

٢. ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ﴾ أمر بطلب المغفرة للأمة من المؤمنين والمؤمنات وحاشا أن يأمر تعالى بالاستغفار ولا يواجهه بالمغفرة أو بالدعاء ولا يقابله بالاستجابة.

٣. ﴿وَاللهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْواكُمْ﴾:

أ. تعليل لما في صدر الآية: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ﴾، والظاهر أن المتقلب مصدر ميمي بمعنى الانتقال من حال إلى حال، وكذلك المثوى بمعنى الاستقرار والسكون، والمراد أنه تعالى يعلم كل أحوالكم من متغير وثابت وحركة وسكون فاثبتوا على توحيده واطلبوا مغفرته، واحذروا أن يطبع على قلوبكم ويترككم وأهواءكم.

ب. وقيل: المراد بالمتقلب والمثوى التصرف في الحياة الدنيا والاستقرار في الآخرة وقيل: المتقلب هو التقلب من الأصلاب إلى الأرحام والمثوى السكون في الأرض.

ج. وقيل: المتقلب التصرف في اليقظة والمثوى المنام، وقيل: المتقلب التصرف في المعايش والمكاسب والمثوى الاستقرار في المنازل، وما قدمناه أظهر وأعم.

٤. أحاديث وآثار:

أ. في المجمع: قد صح الحديث بالإسناد عن حذيفة بن اليمان قال: كنت رجلا ذرب اللسان على أهلي، فقلت: يا رسول الله إني لأخشى، أن يدخلني لساني النار، فقال رسول الله ﷺ: فأين أنت من الاستغفار؟ إني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة.

ب. أخرج أحمد وابن أبي شيبة ومسلم وأبو داود والنسائي وابن حبان وابن مردويه عن الأغر المزني قال: قال رسول الله ﷺ: إنه ليغان على قلبي، وإني لأستغفر الله كل يوم مائة مرة.

١٣. تذمر المنافقين من السورة التي يذكر فيها فيها القتال:

المقطع [١٣] من سورة محمد، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَى لَهُمْ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ [محمد: ٢٠ـ٢١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ٢٣٨»:

١. ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾:

أ. لولا تحضيضية أي هلا أنزلت سورة يظهرون بها الرغبة في نزول سورة جديدة تأتيهم بتكاليف جديدة يمتثلونها، والمراد بالسورة المحكمة المبينة التي لا تشابه فيها، والمراد بذكر القتال الأمر به.

ب. والمراد بالذين في قلوبهم مرض، الضعفاء الإيمان من المؤمنين دون المنافقين فإن الآية صريحة

في أن الذين أظهروا الرغبة في نزولها هم الذين آمنوا، ولا يعم الذين آمنوا للمنافقين إلا على طريق المساهلة غير اللائقة بكلام الله تعالى فالآية كقوله تعالى في فريق من المؤمنين: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتالُ إِذا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ [النساء: ٧٧]

ج. والمغشي عليه من الموت هو المحتضر، يقال: غشيه غشاوة إذا ستره وغطاه وغشي على فلان، بالبناء، للمفعول، إذا نابه ما غشي فهمه، ونظر المغشي عليه من الموت إشخاصه ببصره إليك من غير أن يطرف.

٢. ﴿فَأَوْلى لَهُمْ﴾ لعله خبر لمبتدإ محذوف، والتقدير: أولى لهم ذلك أي حري بهم أن ينظروا كذلك أي أن يحتضروا فيموتوا، وعن الأصمعي أن قولهم: ﴿أَوْلى لَكَ﴾ كلمة تهديد معناه وليك وقارنك ما تكره، والآية نظيرة قوله تعالى: ﴿أَوْلى لَكَ فَأَوْلى ثُمَّ أَوْلى لَكَ فَأَوْلى﴾ [القيامة: ٣٥]

٣. ومعنى الآية: ويقول الذين آمنوا هلا أنزلت سورة فإذا أنزلت سورة محكمة لا تشابه فيها وأمروا فيها بالقتال والجهاد رأيت الضعفاء الإيمان منهم ينظرون إليك من شدة الخشية نظر المحتضر فأولى لهم ذلك.

٤. ﴿طاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللهَ لَكانَ خَيْراً لَهُمْ﴾:

أ. عزم الأمر أي جد وتنجز.

ب. ﴿طاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ﴾ كأنه خبر لمبتدإ محذوف والتقدير أمرنا، أو أمرهم وشأنهم، أي إيمانهم بنا طاعة واثقونا عليها وقول معروف غير منكر قالوا لنا وهو إظهار السمع والطاعة كما يحكيه تعالى عنهم بقوله: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِما أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ إلى أن قال: ﴿وَقالُوا سَمِعْنا وَأَطَعْنا﴾ [البقرة: ٢٨٥]

ج. وعلى هذا يتصل قوله بعده: ﴿فَإِذا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللهَ لَكانَ خَيْراً لَهُمْ﴾ بما قبله اتصالا بينا، والمعنى: أن الأمر هو ما واثقوا الله عليه من قولهم: ﴿سَمِعْنا وَأَطَعْنا﴾ فلو أنهم حين عزم الأمر صدقوا الله فيما قالوا وأطاعوه فيما يأمر به ومنه أمر القتال لكان خيرا لهم.

د. ويحتمل أن يكون قوله: ﴿طاعَةٌ﴾، خبرا لضمير عائد إلى القتال المذكور والتقدير القتال المذكور

في السورة طاعة منهم وقول معروف فلو أنهم حين عزم الأمر صدقوا الله في إيمانهم وأطاعوه به لكان خيرا لهم، أما كونه طاعة منهم فظاهر، وأما كونه قولا معروفا فلأن إيجاب القتال والأمر بالدفاع عن المجتمع الصالح لإبطال كيد أعدائه قول معروف يعرفه العقل والعقلاء.

هـ. وقيل: إن قوله: ﴿طاعَةٌ﴾، مبتدأ الخبر والتقدير طاعة وقول معروف خير لهم وأمثل، وقيل: مبتدأ خبره ﴿فَأَوْلى لَهُمْ﴾ في الآية السابقة فالآية من تمام الآية السابقة، وهو قول ردي، وأردأ منه ما قيل: إن ﴿طاعَةٌ﴾، صفة لسورة في قوله: ﴿فَإِذا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ﴾ وقيل غير ذلك.

١٤. التولي يؤدي إلى الإفساد وتقطيع الأرحام:

المقطع [١٤] من سورة محمد، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحامَكُمْ أُولئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمى أَبْصارَهُمْ﴾ [محمد: ٢٢-٢٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ٢٤٠»:

١. ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحامَكُمْ﴾:

أ. الخطاب للذين في قلوبهم مرض المتثاقلين في أمر الجهاد في سبيل الله، وقد التفت إليهم بالخطاب لزيادة التوبيخ والتقريع، والاستفهام للتقرير، والتولي الإعراض والمراد به الإعراض عن كتاب الله والعمل بما فيه والعود إلى الشرك ورفض الدين.

ب. والمعنى: فهل يتوقع منكم أن أعرضتم عن كتاب الله والعمل بما فيه ومنه الجهاد في سبيل الله أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم بسفك الدماء ونهب الأموال وهتك الأعراض تكالبا على جيفة الدنيا أي إن توليتم كان المتوقع منكم ذلك.

ج. وقد ظهر بذلك أن الآية في مقام التعليل لقوله في الآية السابقة: ﴿لَكانَ خَيْراً لَهُمْ﴾ ولذا صدر بالفاء.

د. وقيل: المراد بالتولي التصدي للحكم والولاية، والمعنى: هل يتوقع منكم إن جعلتم ولاة أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم بسفك الدماء الحرام وأخذ الرشاء والجور في الحكم هذا، وهو معنى بعيد عن السياق.

٢. ﴿أُولئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمى أَبْصارَهُمْ﴾ الإشارة إلى المفسدين في الأرض

المقطعين للأرحام وقد وصفهم الله بأنه لعنهم فأصمهم وأذهب بسمعهم فلا يسمعون القول الحق وأعمى أبصارهم فلا يرون الرأي الحق فإنها لا تعمي الأبصار ولكن تعمي القلوب التي في الصدور.

٣. أحاديث وآثار: أخرج البيهقي عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: إن الرحم معلقة بالعرش لها لسان ذلق تقول: اللهم صل من وصلني، واقطع من قطعني.

• أقول: والروايات فيها وفي صلتها وقطعها كثيرة، وقد مر شطر منها في تفسير أول سورة النساء.

١٥. الحث على تدبر القرآن وذم الإعراض عنه:

المقطع [١٥] من سورة محمد، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ٢٤١»:

١. ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفالُها﴾:

أ. الاستفهام للتوبيخ وضمير الجمع راجع إلى المذكورين في الآية السابقة، وتنكير ﴿قُلُوبٍ﴾ كما قيل للدلالة على أن المراد قلوب هؤلاء وأمثالهم.

ب. قال في مجمع البيان: (وفي هذا دلالة على بطلان قول من قال: لا يجوز تفسير شيء من ظاهر القرآن إلا بخبر وسمع)

٢. أحاديث وآثار: في المجمع في قوله تعالى: ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ الآية، أفلا يتدبرون القرآن فيقضوا ما عليهم من الحق: عن أبي عبد الله وأبي الحسن عليه السلام.

١٦. ارتداد المنافقين وتسويل الشيطان لهم وإسرارهم:

المقطع [١٦] من سورة محمد، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ [محمد: ٢٥-٢٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ٢٤١»:

١. ﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلى أَدْبارِهِمْ مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلى لَهُمْ﴾

الارتداد على الأدبار الرجوع إلى الاستدبار بعد الاستقبال وهو استعارة أريد بها الترك بعد الأخذ، والتسويل تزيين ما تحرض النفس عليه وتصوير القبيح لها في صورة الحسن، والمراد بالإملاء الأمداد أو تطويل الآمال.

٢. ﴿ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا ما نَزَّلَ اللهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللهُ يَعْلَمُ إِسْرارَهُمْ﴾ الإشارة بذلك إلى تسويل الشيطان وإملائه وبالجملة تسلطه عليهم، والمراد بـ ﴿لِلَّذِينَ كَرِهُوا ما نَزَّلَ اللهُ﴾ هم الذين كفروا كما تقدم في قوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْساً لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمالَهُمْ ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا ما أَنْزَلَ اللهُ﴾ [الآية: ٩] من السورة.

٣. ﴿سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ﴾:

أ. مقول قولهم ووعد منهم للكفار بالطاعة وهو كما يلوح من تقييد الطاعة ببعض الأمر على نحو الإجمال كلام من لا يقدر على التظاهر بطاعة من يريد طاعته في جميع الأمور لكونه على خطر من التظاهر بالطاعة المطلقة فيسر إلى من يعده أنه سيطيعه في بعض الأمر وفيما تيسر له ذلك ثم يكتم ذلك ويقعد متربصا للدوائر.

ب. ويستفاد من ذلك أن هؤلاء كانوا قوما من المنافقين أسروا إلى الكفار ما حكاه تعالى عنهم ووعدهم الطاعة لهم مهما تيسر لهم ذلك، ويؤيد ذلك قوله تعالى بعد: ﴿وَاللهُ يَعْلَمُ إِسْرارَهُمْ﴾

ج. واختلفوا في هؤلاء من هم؟

• فقيل: هم اليهود قالوا للمنافقين: إن أعلنتم الكفر نصرناكم، وقيل: هم اليهود أو اليهود والمنافقون قالوا ذلك للمشركين، ويرد على الوجهين جميعا أن موضوع الكلام في الآية المرتدون بعد إيمانهم واليهود لم يؤمنوا حتى يرتدوا.

• وقيل: هم المنافقون وعدوا اليهود النصر كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَداً أَبَداً وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ﴾ [الحشر: ١١]، وفيه أن الآية تقبل الانطباق على ذلك كما تقبل الانطباق على اليهود في وعدهم النصر للمشركين على تكلف في صدق الارتداد على كفرهم برسول الله ﷺ بعد تبين رسالته لهم لكن لا دليل من طريق لفظ الآية على ذلك فلعلهم قوم من المنافقين غيرهم.

١٧. ضرب الملائكة للكفار عند وفاتهم وإحباط أعمالهم:

المقطع [١٧] من سورة محمد، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبارَهُمْ ذلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا ما أَسْخَطَ اللهَ وَكَرِهُوا رِضْوانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمالَهُمْ﴾ [محمد: ٢٧-٢٨]،

وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ٢٤٢»:

١. ﴿فَكَيْفَ إِذا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبارَهُمْ﴾ متفرع على ما قبله، والمعنى: هذا حالهم اليوم يرتدون بعد تبين الهدى لهم فيفعلون ما يشاءون فكيف حالهم إذا توفتهم الملائكة وهم يضربون وجوههم وأدبارهم.

٢. ﴿ذلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا ما أَسْخَطَ اللهَ وَكَرِهُوا رِضْوانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمالَهُمْ﴾:

أ. الظاهر أن المراد بما أسخط الله أهواء النفس وتسويلات الشيطان المستتبعة للمعاصي والذنوب الموبقة كما قال تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا أَهْواءَهُمْ﴾، وقال: ﴿الشَّيْطانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلى لَهُمْ﴾

ب. والسخط والرضا من صفاته تعالى الفعلية والمراد بهما العقاب والثواب.

ج. والإشارة في قوله: ﴿ذلِكَ﴾ إلى ما ذكر في الآية السابقة من عذاب الملائكة لهم عند توفيهم أي سبب عقابهم أن أعمالهم حابطة لاتباعهم ما أسخط الله وكراهتهم رضوانه، وإذ لا عمل لهم صالحا يشقون بالعذاب.

٣. أحاديث وآثار: في التوحيد، بإسناده إلى محمد بن عمارة قال: سألت الصادق جعفر بن محمد عليه السلام فقلت له: يا ابن رسول الله أخبرني عن الله عز وجل، هل له رضى وسخط؟ قال: نعم، وليس ذلك على ما يوجد من المخلوقين، ولكن غضب الله عقابه ورضاه ثوابه.

١٨. إخراج الله لأضغان المنافقين:

المقطع [١٨] من سورة محمد، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللهُ أَضْغانَهُمْ وَلَوْ نَشاءُ لَأَرَيْناكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيماهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللهُ يَعْلَمُ أَعْمالَكُمْ﴾ [محمد: ٢٩-٣٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ٢٤٢»:

١. ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللهُ أَضْغانَهُمْ﴾:

أ. قال الراغب: (الضغن، بكسر الضاد، والضغن، بضمها، الحقد الشديد وجمعه أضغان)

ب. والمراد بالذين في قلوبهم مرض الضعفاء الإيمان ولعلهم الذين آمنوا أولا على ضعف في إيمانهم ثم مالوا إلى النفاق وارتدوا بعد الإيمان، فالتدبر الدقيق في تاريخ صدر الإسلام يوضح أن قوما ممن آمن بالنبي ﷺ كانوا على هذه الصفة كما أن قوما منهم آخرين كانوا منافقين من أول يوم آمنوا إلى آخر عمرهم،

وعلى هذا فعدهم من المؤمنين فيما تقدم بملاحظة بادئ أمرهم.

ج. والمعنى: بل ظن هؤلاء المنافقون الذين في قلوبهم مرض أن لن يخرج الله ولن يظهر أحقادهم للدين وأهله.

٢. ﴿وَلَوْ نَشاءُ لَأَرَيْناكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيماهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللهُ يَعْلَمُ أَعْمالَكُمْ﴾ السيماء العلامة، والمعنى: ولو نشاء لأريناك أولئك المرضى القلوب فلعرفتهم بعلامتهم التي أعلمناهم بها.

٣. ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾:

أ. قال الراغب: (اللحن صرف الكلام عن سننه الجاري عليه: إما بإزالة الإعراب أو التصحيف وهو المذموم، وذلك أكثر استعمالا، وأما بإزالته عن التصريح وصرفه إلى تعريض وفحوى، وهو محمود عند أكثر الأدباء من حيث البلاغة)

ب. فالمعنى: ولتعرفنهم من جنس قولهم بما يشتمل عليه من الكناية والتعريض، وفي جعل لحن القول ظرفا للمعرفة نوع من العناية المجازية.

٤. ﴿وَاللهُ يَعْلَمُ أَعْمالَكُمْ﴾ أي يعلم حقائقها وأنها من أي القصود والنيات صدرت فيجازي المؤمنين بصالح أعمالهم وغيرهم بغيرها، ففيه وعد للمؤمنين ووعيد لغيرهم.

٥. أحاديث وآثار:

أ. في المجمع في قوله تعالى: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ الآية، عن أبي سعيد الخدري قال: لحن القول بغضهم علي بن أبي طالب، قال: كنا نعرف المنافقين على عهد رسول الله ﷺ، ببغضهم علي بن أبي طالب، قال في المجمع: وروي مثل ذلك عن جابر بن عبد الله الأنصاري.

ب. وقال: وعن عبادة بن الصامت قال: كنا نبور أولادنا بحب علي بن أبي طالب، فإذا رأينا أحدهم لا يحبه علمنا أنه لغير رشدة.

ج. أخرج ابن مردويه عن ابن مسعود قال: ما كنا نعرف المنافقين على عهد رسول الله ﷺ، إلا ببغض علي بن أبي طالب.

د. وفي أمالي الطوسي، بإسناده إلى علي عليه السلام أنه قال: قلت أربعا أنزل الله تعالى تصديقي بها في كتابه، قلت: المرء مخبوء تحت لسانه فإذا تكلم ظهر، فأنزل الله: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾

١٩. ضرورة الابتلاء للتمحيص والتمييز:

المقطع [١٩] من سورة محمد، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد: ٣١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ٢٤٣»:

١. ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَا أَخْبارَكُمْ﴾ البلاء والابتلاء الامتحان والاختبار، والآية بيان علة كتابة القتال على المؤمنين، وهو الاختبار الإلهي ليمتاز به المجاهدون في سبيل الله الصابرون على مشاق التكاليف الإلهية.

٢. ﴿وَنَبْلُوَا أَخْبارَكُمْ﴾ كان المراد بالأخبار الأعمال من حيث إنها تصدر عن العاملين فيكون إخبارا لهم يخبر بها عنهم، واختبار الأعمال يمتاز به صالحها من طالحها كما أن اختبار النفوس يمتاز به النفوس الصالحة الخيرة وقد تقدم فيما تقدم أن المراد بالعلم الحاصل له تعالى من امتحان عباده هو ظهور حال العباد بذلك، وبنظر أدق هو علم فعلي له تعالى خارج عن الذات.

٢٠. الكفر والصد عن سبيل الله ومشاقة الرسول تحبط الأعمال:

المقطع [٢٠] من سورة محمد، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد: ٣٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ٢٤٣»:

١. ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدى لَنْ يَضُرُّوا اللهَ شَيْئاً وَسَيُحْبِطُ أَعْمالَهُمْ﴾ المراد بهؤلاء رؤساء الضلال من كفار مكة ومن يلحق بهم لأنهم الذين صدوا عن سبيل الله وشاقوا الرسول وعادوه أشد المعاداة بعد ما تبين لهم الهدى.

٢. ﴿لَنْ يَضُرُّوا اللهَ شَيْئاً﴾ لأن كيد الإنسان ومكره لا يرجع إلا إلى نفسه ولا يضر إلا إياه وقوله: ﴿وَسَيُحْبِطُ أَعْمالَهُمْ﴾ أي مساعيهم لهدم أساس الدين وما عملوه لإطفاء نور الله، وقيل: المراد إحباط أعمالهم وإبطالها فلا يثابون في الآخرة على شيء من أعمالهم، والمعنى الأول أنسب للسياق لأن فيه تحريض المؤمنين وتشجيعهم على قتال المشركين وتطييب نفوسهم أنهم هم الغالبون كما تفيده الآيات التالية.

٢١. الأمر بطاعة الله والرسول والنهي عن إبطال الأعمال:

المقطع [٢١] من سورة محمد، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ

وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ٢٤٧»:

١. ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلا تُبْطِلُوا أَعْمالَكُمْ﴾:

أ. الآية وإن كانت في نفسها مستقلة في مدلولها مطلقة في معناها حتى استدل الفقهاء بقوله فيها: ﴿وَلا تُبْطِلُوا أَعْمالَكُمْ﴾ على حرمة إبطال الصلاة بعد الشروع فيها لكنها من حيث وقوعها في سياق الآيات السابقة المتعرضة لأمر القتال، وكذا الآيات اللاحقة الجارية على السياق وخاصة ما في ظاهر قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، من التعليل وما في قوله: ﴿فَلا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ﴾، من التفريع، وبالجملة الآية بالنظر إلى سياقها تدل على إيجاب طاعة الله سبحانه فيما أنزل من الكتاب وشرع من الحكم وإيجاب طاعة الرسول فيما بلغ عن الله سبحانه، وفيما يصدر من الأمر من حيث ولايته على المؤمنين في المجتمع الديني، وعلى تحذير المؤمنين من إبطال أعمالهم بفعل ما يوجب حبط أعمالهم كما ابتلي به أولئك الضعفاء الإيمان المائلون إلى النفاق الذين انجر أمر بعضهم أن ارتدوا بعد ما تبين لهم الهدى.

ب. فالمراد بحسب المورد من طاعة الله طاعته فيما شرع وأنزل من حكم القتال، ومن طاعة الرسول طاعته فيما بلغ منه وفيما أمر به منه ومن مقدماته بما له من الولاية فيه وبإبطال الأعمال التخلف عن حكم القتال كما تخلف المنافقون وأهل الردة.

ج. وقيل: المراد بإبطال الأعمال إحباطها بمنهم على الله ورسوله بإيمانهم كما في قوله تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا﴾، وقيل: إبطالها بالرياء والسمعة، وقيل: بالعجب، وقيل: بالكفر والنفاق، وقيل: المراد إبطال الصدقات بالمن والأذى كما قال: ﴿لا تُبْطِلُوا صَدَقاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذى﴾ [البقرة: ٢٦٤]، وقيل: إبطالها بالمعاصي، وقيل: بخصوص الكبائر.

د. ويرد على هذه الأقوال جميعا أن كل واحد منها على تقدير صحته وتسليمه مصداق من مصاديق الآية مع الغض من وقوعها في السياق الذي تقدمت الإشارة إليه، وأما من حيث وقوعها في السياق فلا تشمل إلا القتال كما مر.

٢. أحاديث وآثار: في ثواب الأعمال، عن أبي جعفر عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ: من قال: سبحان الله غرس الله له بها شجرة في الجنة، ومن قال: الحمد لله غرس الله له بها شجرة في الجنة، ومن قال: لا إله إلا الله غرس الله له بها شجرة في الجنة، ومن قال: الله أكبر غرس الله له بها شجرة في الجنة، فقال رجل

من قريش: يا رسول الله، إن شجرنا في الجنة لكثير، قال: نعم ولكن إياكم أن ترسلوا عليها نارا فتحرقوها، وذلك أن الله عز وجل يقول: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلا تُبْطِلُوا أَعْمالَكُمْ﴾

٢٢. جزاء الكافرين الصادون عن سبيل الله:

المقطع [٢٢] من سورة محمد، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ ثُمَّ ماتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ﴾ [محمد: ٣٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ٢٤٨»:

أ. ظاهر السياق أنه تعليل لمضمون الآية السابقة فيفيد أنكم لو لم تطيعوا الله ورسوله وأبطلتم أعمالكم باتباع ما أسخط الله وكراهة رضوانه أداكم ذلك إلى اللحوق بأهل الكفر والصد ولا مغفرة لهم بعد موتهم كذلك أبدا.

ب. والمراد بالصد عن سبيل الله الإعراض عن الإيمان أو منع الناس أن يؤمنوا.

٢٣. النهي عن الوهن والدعاء إلى السلم:

المقطع [٢٣] من سورة محمد، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَلا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ٢٤٨»:

١. ﴿فَلا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمالَكُمْ﴾ تفريع على ما تقدم، وقوله: ﴿فَلا تَهِنُوا﴾ من الوهن بمعنى الضعف والفتور، وقوله: ﴿وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ﴾ معطوف على ﴿تَهِنُوا﴾ واقع في حيز النهي أي ولا تدعوا إلى السلم، والسلم، بفتح السين، الصلح، وقوله: ﴿وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ﴾ جملة حالية أي لا تفعلوا الصلح، وقوله: ﴿وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ﴾ جملة حالية أي لا تفعلوا ذلك والحال أنكم الغالبون، والمراد بالعلو الغلبة وهي استعارة مشهورة.

٢. ﴿وَاللهُ مَعَكُمْ﴾ معطوف على ﴿وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ﴾ يبين سبب علوهم ويعلله فالمراد بمعيته تعالى لهم معية النصر دون المعية القيومية التي يشير إليها قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ ما كُنْتُمْ﴾ [الحديد: ٤]

٣. ﴿وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمالَكُمْ﴾:

أ. قال في المجمع: (يقال: وتره يتره وترا إذا نقصه ومنه الحديث فكأنه وتر أهله وماله، وأصله القطع ومنه الترة القطع بالقتل ومنه الوتر المنقطع بانفراده عن غيره)

ب. فالمعنى: لن ينقصكم أعمالكم أي يوفي أجرها تاما كاملا، وقيل: المعنى: لن يضيع أعمالكم،

وقيل: لن يظلمكم، والمعاني متقاربة.

ج. ومعنى الآية: إذا كانت سبيل عدم طاعة الله ورسوله وإبطال أعمالكم هذه السبيل وكان مؤديا إلى الحرمان من مغفرة الله أبدا فلا تضعفوا ولا تفتروا في أمر القتال ولا تدعوا المشركين إلى الصلح وترك القتال والحال أنكم أنتم الغالبون والله ناصركم عليهم ولن ينقصكم شيئا من أجوركم بل يوفيكموها تامة كاملة.

د. وفي الآية وعد المؤمنين بالغلبة والظفر إن أطاعوا الله ورسوله فهي كقوله: ﴿وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩]

٤. أحاديث وآثار: في تفسير القمي ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾ قال: هي منسوخة بقوله: ﴿فَلا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللهُ مَعَكُمْ﴾

٢٤. الدنيا لعب ولهو والإيمان والتقوى خير من المال:

المقطع [٢٤] من سورة محمد، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ﴾ [محمد: ٣٦ـ٣٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ٢٤٩»:

١. ﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلا يَسْئَلْكُمْ أَمْوالَكُمْ﴾ ترغيب لهم في الآخرة وتزهيد لهم عن الدنيا ببيان حقيقتها وهي أنها لعب ولهو، وقد مر معنى كونها لعبا ولهوا،

٢. ﴿وَإِنْ تُؤْمِنُوا﴾، أي أن تؤمنوا وتتقوا بطاعته وطاعة رسوله يؤتكم أجوركم ولا يسألكم أموالكم بإزاء ما أعطاكم وظاهر السياق أن المراد بالأموال جميع أموالهم ويؤيده أيضا الآية التالية.

٣. ﴿إِنْ يَسْئَلْكُمُوها فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغانَكُمْ﴾:

أ. الإحفاء الإجهاد وتحميل المشقة، والمراد بالبخل، كما قيل، الكف عن الإعطاء، والأضغان الأحقاد.

ب. والمعنى: أن يسألكم جميع أموالكم فيجهدكم بطلب كلها كففتم عن الإعطاء لحبكم لها ويخرج أحقاد قلوبكم فضللتم.

٢٥. الدعوة للإنفاق والنهي عن البخل:

المقطع [٢٥] من سورة محمد، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ٢٤٩»:

١. ﴿ها أَنْتُمْ هؤُلاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ الله فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ﴾ بمنزلة الاستشهاد في بيان الآية السابقة كأنه قيل: إنه إن يسأل الجميع فيحفكم تبخلوا ويشهد بذلك أنكم أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا في سبيل الله، وهو بعض أموالكم، فبعضكم يبخل فيظهر به أنه لو سأل الجميع جميعكم بخلتم.

٢. ﴿وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّما يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ﴾ أي يمنع الخير عن نفسه فإن الله لا يسأل ما لهم لينتفع هو به بل لينتفع به المنفقون فيما فيه خير دنياهم وآخرتهم فامتناعهم عن إنفاقه امتناع منهم عن خير أنفسهم، وإليه يشير قوله بعده: ﴿وَاللهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَراءُ﴾ والقصران للقلب أي الله هو الغني دونكم وأنتم الفقراء دون الله.

٣. ﴿وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثالَكُمْ﴾ قيل: عطف على قوله: ﴿وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا﴾ والمعنى: إن تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم وإن تتلوا وتعرضوا يستبدل قوما غيركم بأن يوفقهم للإيمان دونكم ثم لا يكونوا أمثالكم بل يؤمنون ويتقون وينفقون في سبيل الله.

٤. أحاديث وآثار:

أ. أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد والترمذي وابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني في الأوسط والبيهقي في الدلائل عن أبي هريرة قال: تلا رسول الله هذه الآية: ﴿وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثالَكُمْ﴾ فقالوا: يا رسول الله، من هؤلاء الذين إن تولينا استبدلوا بنا؟ فضرب رسول الله ﷺ على منكب سلمان، ثم قال: هذا وقومه، والذي نفسي بيده لو كان الإيمان منوطا بالثريا، لتناوله رجال من فارس.

• أقول: وروي بطرق أخر عن أبي هريرة مثله، وكذا عن ابن مردويه عن جابر: مثله.

ب. وفي المجمع: وروى أبو بصير عن أبي جعفر عليه السلام قال: ﴿إِنْ تَتَوَلَّوْا﴾ يا معشر العرب ﴿يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ﴾ يعني الموالي.

ج. وفيه، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قد والله أبدل خيرا منهم الموالي.

سورة الفتح

هذه السورة الكريمة تحتوي على [٢٢] مقطعاً، وهذا تعريف بمقاصدها، ومحتويات مقاطعها:

مقاصد السورة ومحتوياتها:

أ. مضامين آيات السورة بفصولها المختلفة ظاهرة الانطباق على قصة صلح الحديبية الواقعة في السنة السادسة من الهجرة، وما وقع حولها من الوقائع كقصة تخلف الأعراب وصد المشركين، وبيعة الشجرة على ما تفصله الآثار، وسيجيء شطر منها في البحث الروائي التالي إن شاء الله تعالى.

ب. فغرض السورة بيان ما امتن الله تعالى على رسوله ﷺ بما رزقه من الفتح المبين في هذه السفرة، وعلى المؤمنين ممن معه، ومدحهم البالغ، والوعد الجميل للذين آمنوا منهم وعملوا الصالحات.

ج. والسورة مدنية.

مقاطع السورة ونظمها:

١. الآيات [١ ـ ٧] لم يذكر البيان المرتبط بها، وهي تذكر فتح الله المبين لنبيه ﷺ، ومغفرته له، ونصره إياه، وتذكر دخول المؤمنين الجنة، وعذاب المنافقين والمشركين، وأن لله جنود السماوات والأرض.

٢. الآيات [٨ ـ ١٠] فصل ثان من آيات السورة، يعرف سبحانه فيه نبيه ﷺ تعريف إكبار وإعظام، بأنه أرسله شاهدا ومبشراً ونذيراً، طاعته طاعة الله وبيعته بيعة الله، وقد كان الفصل الأول امتناناً منه تعالى على نبيه بالفتح والمغفرة وإتمام النعمة والهداية والنصر، وعلى المؤمنين بإنزال السكينة في قلوبهم وإدخال الجنة، ووعيد المشركين والمنافقين بالغضب واللعن والنار.

٣. الآيات [١١ ـ ١٧]:

أ. فصل ثالث من الآيات متعرض لحال الأعراب الذين قعدوا عن رسول الله ﷺ في سفره إلى الحديبية، ولم ينفروا إذا استنفرهم، وهم على ما قيل أعراب حول المدينة من قبائل جهينة ومزينة وغفار وأشجع وأسلم ودئل.

ب. فتخلفوا عن النبي ﷺ ولم يصاحبوه، قائلين: إن محمداً ومن معه يذهبون إلى قوم غزوهم بالأمس في عقر دارهم فقتلوهم قتلاً ذريعاً، وإنهم لن يرجعوا من هذه السفرة ولن ينقلبوا إلى ديارهم

وأهليهم أبداً.

ج. فأخبر الله سبحانه لنبيه ﷺ في هذه الآيات أنهم سيلقونك ويعتلون في قعودهم باشتغالهم بالأموال والأهلين، ويسألونك أن تستغفر الله لهم، وكذبهم الله فيما قالوا، وذكر أن السبب في قعودهم غير ذلك وهو ظنهم السوء.

د. وأخبر أنهم سيسألونك اللحوق وليس لهم ذلك، غير أنهم سيدعون إلى قتال قوم آخرين، فإن أطاعوا كان لهم الأجر الجزيل، وإن تولوا فأليم العذاب.

٤. الآيات [١٨ ـ ٢٨]:

أ. فصل رابع من الآيات، يذكر تعالى فيه المؤمنين ممن كان مع النبي ﷺ في خروجه إلى الحديبية، فيذكر رضاه عنهم إذ بايعوا النبي ﷺ تحت الشجرة.

ب. ثم يمتن عليهم بإنزال السكينة، وإثابة فتح قريب ومغانم كثيرة يأخذونها.

ج. ويخبرهم ـ وهو بشرى ـ أن المشركين لو قاتلوهم لانهزموا وولوا الأدبار.

د. وأن الرؤيا التي رآها النبي ﷺ رؤيا صادقة، سيدخلون المسجد الحرام آمنين محلقين رءوسهم لا يخافون.

هـ. فإنه تعالى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون.

٥. الآيات [٢٩]:

أ. الآية خاتمة السورة، تصف النبي ﷺ وتصف الذين معه بما وصفهم به في التوراة والإنجيل، وتعد الذين آمنوا منهم وعملوا الصالحات وعداً جميلاً.

ب. وللآية اتصال بما قبلها، حيث أخبر فيه أنه أرسل رسوله بالهدى ودين الحق.

١. الفتح المبين والمغفرة والنعمة والصراط المستقيم:

المقطع [١] من سورة الفتح، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا وَيَنْصُرَكَ اللهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ [الفتح: ١ـ٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ٢٥٢»:

١. لأهمية ما أورده في تفسير الآية الكريمة، ولعلاقتها بالكثير من المباحث، فقد وضعنا ما ذكره

في تفسيرها المفصل ضمن الجزء الخاص بالبحوث التفسيرية، وقد عنوناه بـ[تحقيق معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ وبيان المراد بالفتح والذنب]، خلاصته:

أ. بيان أن الفتح المذكور في الآية هو صلح الحديبية، وأنه كان فتحاً مبيناً مهد لفتح مكة وقوّى شوكة المسلمين.

ب. إثبات أن المراد بالذنب في الآية ليس الذنب الاصطلاحي بمعنى المعصية، بل هو التبعة السيئة التي كانت للمشركين على النبي ﷺ بسبب دعوته، والمغفرة هي ستر الله لهذه التبعة بإذهاب شوكتهم.

ج. توضيح أن إشكال عدم الارتباط بين الفتح والمغفرة يندفع بحمل الذنب على هذا المعنى، فإن الفتح هو الذي أزال تبعات الدعوة عند المشركين.

د. الرد على الأقوال الأخرى التي حملت الذنب على المعصية أو ترك الأولى، وبيان أنها تتعارض مع عصمة الأنبياء وسياق الآية.

هـ. بيان أن مغفرة ما تقدم وما تأخر لا تعني إباحة المعاصي المستقبلية، لأن ذلك ينافي التكليف والأمر بالعبادة، وقد قال تعالى: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾

و. توضيح أن اللام في ﴿لِيَغْفِرَ﴾ للتعليل، والتعليل يكون بين الفتح والمغفرة إذا فهمت المغفرة بمعنى الستر والإزالة للتبعة، لا بمعنى ترك العقاب على المعصية.

٢. ﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ﴾ قيل: أي يتمها عليك في الدنيا بإظهارك على عدوك وإعلاء أمرك وتمكين دينك، وفي الآخرة برفع درجتك، وقيل: أي يتمها عليك بفتح خيبر ومكة والطائف.

٣. ﴿وَيَهْدِيَكَ صِراطاً مُسْتَقِيماً﴾ قيل: أي ويثبتك على صراط يؤدي بسالكه إلى الجنة، وقيل: أي ويهديك إلى مستقيم الصراط في تبليغ الأحكام وإجراء الحدود.

٤. ﴿وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْراً عَزِيزاً﴾ قيل: النصر العزيز هو ما يمتنع به من كل جبار عنيد وعات مريد، وقد فعل بنبيه ﷺ ذلك إذ جعل دينه أعز الأديان وسلطانه أعظم السلطان، وقيل: المراد بالنصر العزيز ما هو نادر الوجود قليل النظير أو عديمه ونصره تعالى لنبيه ﷺ كذلك كما يظهر بقياس حاله في أول بعثته إلى حاله في آخر أيام دعوته.

٥. والتدبر في سياق الآيتين بالبناء على ما تقدم من معنى قوله: ﴿إِنَّا فَتَحْنا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً لِيَغْفِرَ

لَكَ اللهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَما تَأَخَّرَ﴾:

أ. يعطي أن يكون المراد بقوله: ﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ﴾ هو تمهيده تعالى له ﷺ لتمام الكلمة وتصفيته الجو لنصره نصرا عزيزا بعد رفع الموانع بمغفرة ما تقدم من ذنبه وما تأخر.

ب. وبقوله: ﴿وَيَهْدِيَكَ صِراطاً مُسْتَقِيماً﴾ هدايته ﷺ بعد تصفية الجو له إلى الطريق الموصل إلى الغاية الذي سلكه بعد الرجوع من الحديبية من فتح خيبر وبسط سلطة الدين في أقطار الجزيرة حتى) انتهى إلى فتح مكة والطائف.

ج. وبقوله: ﴿وَيَنْصُرَكَ اللهُ نَصْراً عَزِيزاً﴾ نصره له ﷺ ذاك النصر الظاهر الباهر الذي قلما يوجد، أو لا يوجد، له نظير إذ فتح له مكة والطائف وانبسط الإسلام في أرض الجزيرة وانقلع الشرك وذل اليهود وخضع له نصارى الجزيرة والمجوس القاطنون بها، وأكمل تعالى للناس دينهم وأتم عليهم نعمته ورضي لهم الإسلام دينا.

٦. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي في قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً﴾ حدثني أبي عن ابن أبي عمير عن ابن سنان عن أبي عبد الله عليه السلام قال: كان سبب نزول هذه الآية وهذا الفتح العظيم، أن الله جل وعز أمر رسوله ﷺ في النوم، أن يدخل المسجد الحرام ويطوف ويحلق مع المحلقين، فأخبر أصحابه وأمرهم بالخروج فخرجوا، فلما نزل ذا الحليفة أحرموا بالعمرة وساقوا البدن، وساق رسول الله ﷺ ستة وستين بدنة، وأحرموا من ذي الحليفة ملبين بالعمرة، وقد ساق من ساق منهم الهدي معرات مجللات، فلما بلغ قريشا بعثوا خالد بن الوليد، في مائتي فارس كمينا يستقبل رسول الله ﷺ، فكان يعارضه على الجبال، فلما كان في بعض الطريق حضرت صلاة الظهر، فأذن بلال فصلى رسول الله ﷺ بالناس، فقال خالد بن الوليد: لو كنا حملنا عليهم وهم في الصلاة، لأصبناهم لأنهم لا يقطعون صلاتهم، ولكن تجيء الآن لهم صلاة أخرى، أحب إليهم من ضياء أبصارهم، فإذا دخلوا في الصلاة أغرنا عليهم، فنزل جبرئيل على رسول الله ﷺ بصلاة الخوف في قوله عز وجل: ﴿وَإِذا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاةَ﴾ الآية، قال: فلما كان في اليوم الثاني، نزل رسول الله ﷺ الحديبية، وكان رسول الله ﷺ يستنفر الأعراب في طريقه، فلم يتبعه أحد ويقولون: أيطمع محمد وأصحابه أن يدخلوا الحرم، وقد غزتهم قريش في عقر ديارهم فقتلوهم، أنه لا يرجع محمد

وأصحابه إلى المدينة أبدا، الحديث.

ب. وفي المجمع: قال ابن عباس: إن رسول الله ﷺ خرج يريد مكة، فلما بلغ الحديبية وقفت ناقته، فزجرها فلم تنزجر وبركت الناقة، فقال أصحابه: خلأت الناقة، فقال: ما هذا لها عادة ولكن حبسها حابس الفيل، ودعا عمر بن الخطاب ليرسله إلى أهل مكة، ليأذنوا له بأن يدخل مكة ويحل من عمرته وينحر هديه، فقال: يا رسول الله ما لي بها حميم، وإني أخاف قريشا لشدة عداوتي إياها، ولكن أدلك على رجل هو أعز بها مني عثمان بن عفان، فقال: صدقت، فدعا رسول الله ﷺ عثمان، فأرسله إلى أبي سفيان وأشراف قريش، يخبرهم أنه لم يأت لحرب، وإنما جاء زائرا لهذا البيت معظما لحرمته، فاحتبسته قريش عندها، فبلغ رسول الله ﷺ والمسلمين أن عثمان قد قتل، فقال ﷺ: لا نبرح حتى نناجز القوم، ودعا الناس إلى البيعة، فقام رسول الله ﷺ إلى الشجرة واستند إليها، وبايع الناس على أن يقاتلوا المشركين ولا يفروا، قال عبد الله بن مغفل: كنت قائما على رأس رسول الله ﷺ، ذلك اليوم وبيدي غصن من السمرة أذب عنه، وهو يبايع الناس فلم يبايعهم على الموت، وإنما بايعهم على أن لا يفروا.

ج. وروى الزهري وعروة بن الزبير والمسور بن مخرمة قالوا: خرج رسول الله ﷺ من المدينة، في بضع عشرة مائة من أصحابه، حتى إذا كانوا بذي الحليفة، قلد رسول الله ﷺ الهدي وأشعره وأحرم بالعمرة، وبعث بين يديه عينا له من خزاعة يخبره عن قريش، وسار رسول الله ﷺ، حتى إذا كان بغدير الأشطاط قريبا من عسفان، أتاه عينه الخزاعي فقال: إني تركت كعب بن لؤي وعامر بن لؤي، قد جمعوا لك الأحابيش وجمعوا جموعا، وهم قاتلوك أو مقاتلوك وصادوك عن البيت، فقال ﷺ: روحوا فراحوا حتى إذا كانوا ببعض الطريق، قال النبي ﷺ: إن خالد بن الوليد بالغميم، في خيل لقريش طليعة فخذوا ذات اليمين، فسار حتى إذا كان بالثنية بركت راحلته، فقال ﷺ: ما خلأت القصواء ولكن حبسها حابس الفيل، ثم قال: والله لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمات الله، إلا أعطيتهم إياها ثم زجرها فوثبت به، قال: فعدل حتى نزل بأقصى الحديبية على ثمد قليل الماء، إنما يتبرضه الناس تبرضا فشكوا إليه العطش، فانتزع سهما من كنانته ثم أمرهم أن يجعلوه في الماء، فوالله ما زال يجيش لهم بالري حتى صدروا عنه، فبينا هم كذلك إذ جاءهم بديل بن ورقاء الخزاعي، في نفر من خزاعة، وكانوا عيبة نصح رسول الله ﷺ من أهل تهامة، فقال: إني تركت كعب بن لؤي وعامر بن لؤي، ومعهم العوذ المطافيل، وهم مقاتلوك وصادوك

عن البيت، فقال رسول الله ﷺ: إنا لم نجئ لقتال أحد، وإنا جئنا معتمرين، وإن قريشا قد نهكتهم الحرب وأضرت بهم، فإن شاءوا ماددتهم مدة ويخلو بيني وبين الناس، وإن شاءوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا، وإلا فقد جموا، وإن أبوا فوالذي نفسي بيده لأقاتلنهم على أمري هذا، حتى تنفرد سالفتي أو لينفذ الله تعالى أمره، فقال بديل: سأبلغهم ما تقول، فانطلق حتى أتى قريشا فقال: إنا قد جئناكم من عند هذا الرجل وأنه يقول: كذا وكذا، فقام عروة بن مسعود الثقفي فقال: إنه قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها ودعوني آته، فقالوا: ائته فأتاه فجعل يكلم النبي ﷺ، فقال له رسول الله ﷺ نحوا من قوله لبديل، فقال عروة عند ذلك: أي محمد، أرأيت إن استأصلت قومك، هل سمعت بأحد من العرب اجتاح أصله قبلك؟ وإن تكن الأخرى فوالله إني لأرى وجوها، وأرى أشابا من الناس خلقاء أن يفروا ويدعوك، فقال له أبو بكر: امصص بظر اللات أنحن نفر عنه وندعه؟ فقال: من ذا؟ قال: أبو بكر، قال: أما والذي نفسي بيده، لولا يد كانت لك عندي لم أجزك بها لأجبتك، قال: وجعل يكلم النبي ﷺ، وكلما كلمه أخذ بلحيته، والمغيرة بن شعبة قائم على رأس النبي ﷺ، ومعه السيف وعليه المغفر، فكلما أهوى عروة بيده إلى لحية رسول الله ﷺ، ضرب يده بنعل السيف وقال: أخر يدك عن لحية رسول الله ﷺ قبل أن لا ترجع إليك، فقال: من هذا؟ قال المغيرة بن شعبة، قال: أي غدر أولست أسعى في غدرتك، قال: وكان المغيرة صحب قوما في الجاهلية، فقتلهم وأخذ أموالهم، ثم جاء فأسلم، فقال النبي ﷺ: أما الإسلام فقد قبلنا، وأما المال فإنه مال غدر لا حاجة لنا فيه، ثم إن عروة جعل يرمق أصحاب النبي ﷺ، إذا أمرهم رسول الله ﷺ ابتدروا أمره، وإذا توضأ ثاروا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلموا خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدون إليه النظر تعظيما له، قال: فرجع عروة إلى أصحابه وقال: أي قوم والله لقد وفدت على الملوك، ووفدت على قيصر وكسرى والنجاشي، والله إن رأيت ملكا قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد، إذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلموا خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدون إليه النظر تعظيما له، وأنه قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها، فقال رجل من بني كنانة: دعوني آته فقالوا: ائته، فلما أشرف عليهم قال رسول الله ﷺ: هذا فلان وهو من قوم يعظمون البدن، فابعثوها فبعثت له واستقبله القوم يلبون، فلما رأى ذلك قال: سبحان الله، ما ينبغي لهؤلاء أن يصدوا عن البيت، فقام رجل يقال له مكرز بن حفص فقال: دعوني آته، فقالوا: ائته فلما أشرف عليهم قال النبي ﷺ: هذا مكرز وهو رجل فاجر فجعل يكلم

النبي ﷺ، فبينما هو يكلمه إذ جاء سهيل بن عمرو، فقال ﷺ: قد سهل عليكم أمركم، فقال: اكتب بيننا وبينك كتابا، فدعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب، فقال له رسول الله ﷺ: اكتب بسم الله الرحمن الرحيم، فقال سهيل: أما الرحمن فوالله ما أدري ما هو؟ ولكن اكتب باسمك اللهم فقال المسلمون: والله لا نكتب إلا بسم الله الرحمن الرحيم، فقال النبي ﷺ: اكتب باسمك اللهم، هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله، فقال سهيل: لو كنا نعلم أنك رسول الله، ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك، ولكن اكتب محمد بن عبد الله، فقال رسول الله ﷺ: إني لرسول الله وإن كذبتموني، ثم قال لعلي امح رسول الله فقال: يا رسول الله، إن يدي لا تنطلق بمحو اسمك من النبوة، فأخذه رسول الله ﷺ فمحاه، ثم قال: اكتب هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله، وسهيل بن عمرو، واصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين، يأمن فيهن الناس ويكف بعضهم عن بعض، وعلى أنه من قدم مكة من أصحاب محمد حاجا، أو معتمرا أو يبتغي من فضل الله، فهو آمن على دمه وماله، ومن قدم المدينة من قريش مجتازا إلى مصر أو إلى الشام، فهو آمن على دمه وماله، وإن بيننا عيبة مكفوفة، وأنه لا إسلال ولا إغلال، وأنه من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهده دخل فيه، فتواثبت خزاعة فقالوا: نحن في عقد محمد وعهده، وتواثبت بنو بكر فقالوا: نحن في عقد قريش وعهدهم، فقال رسول الله ﷺ: على أن تخلو بيننا، وبين البيت فنطوف، فقال سهيل: والله ما تتحدث العرب أنا أخذنا ضغطة، ولكن ذلك من العام المقبل، فكتب فقال سهيل: على أنه لا يأتيك منا رجل، وإن كان على دينك إلا رددته إلينا، ومن جاءنا ممن معك لم نرده عليك، فقال المسلمون سبحان الله، كيف يرد إلى المشركين وقد جاء مسلما؟ فقال رسول الله ﷺ: من جاءهم منا فأبعده الله، ومن جاءنا منهم رددناه إليهم، فلو علم الله الإسلام من قلبه جعل له مخرجا، فقال سهيل: وعلى أنك ترجع عنا عامك هذا، فلا تدخل علينا مكة، فإذا كان عام قابل خرجنا عنها لك، فدخلتها بأصحابك فأقمت بها ثلاثا، ولا تدخلها بالسلاح إلا السيوف في القراب وسلاح الراكب، وعلى أن هذا الهدي حيث ما حبسناه محله لا تقدمه علينا، فقال: نحن نسوق وأنتم تردون، فبينا هم كذلك إذ جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو، يرسف في قيوده وقد خرج من أسفل مكة، حتى رمى بنفسه بين أظهر المسلمين، فقال سهيل: هذا يا محمد أول ما أقاضيك عليه أن ترده، فقال النبي ﷺ: إنا لم نقض بالكتاب بعد، قال: والله إذا لا أصالحك على شيء أبدا، فقال النبي ﷺ: فأجره لي، فقال: ما أنا بمجيره لك قال: بلى

فافعل، قال ما أنا بفاعل، قال مكرز: بلى قد أجرناه، قال أبو جندل بن سهيل: معاشر المسلمين أرد إلى المشركين، وقد جئت مسلما ألا ترون ما قد لقيت؟، وكان قد عذب عذابا شديدا، فقال عمر بن الخطاب: والله ما شككت مذ أسلمت إلا يومئذ، فأتيت النبي ﷺ فقلت: ألست نبي الله؟ فقال: بلى، قلت: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال: بلى، قلت: فلم نعطي الدنية في ديننا إذا؟ قال: إني رسول الله ولست أعصيه وهو ناصري، قلت: أولست كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف حقا؟ قال: بلى أفأخبرتك أن نأتيه العام؟ قلت: لا، قال: فإنك تأتيه وتطوف به، فنحر رسول الله ﷺ بدنة فدعا بحالقه، فحلق شعره ثم جاءه نسوة مؤمنات، فأنزل الله تعالى: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا جاءَكُمُ الْمُؤْمِناتُ مُهاجِراتٍ﴾ الآية.

د. قال محمد بن إسحاق بن يسار: وحدثني بريدة بن سفيان عن محمد بن كعب: أن كاتب رسول الله ﷺ في هذا الصلح، كان علي بن أبي طالب، فقال له رسول الله ﷺ: اكتب (هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو) فجعل علي يتلكأ ويأبى أن يكتب إلا محمد رسول الله، فقال رسول الله: فإن لك مثلها، تعطيها وأنت مضطهد، فكتب ما قالوا، ثم رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة، فجاءه أبو بصير رجل من قريش وهو مسلم، فأرسلوا في طلبه رجلين فقالوا: العهد الذي جعلت لنا فدفعه إلى الرجلين، فخرجا به حتى بلغا ذا الحليفة، فنزلا يأكلان من تمر لهم، قال أبو بصير لأحد الرجلين: وإني لأرى سيفك جيدا جدا فاستله، فقال: أجل إنه لجيد وجربت به ثم جربت، فقال أبو بصير: أرني أنظر إليه فأمكنه منه، فضربه به حتى برد وفر الآخر حتى بلغ المدينة، فدخل المسجد يعدو فقال رسول الله ﷺ حين رآه: لقد رأى هذا ذعرا، فلما) انتهى إلى النبي ﷺ قال: قتل والله صاحبي وإني لمقتول، قال: فجاء أبو بصير فقال: يا رسول الله، قد أوفى الله ذمتك ورددتني إليهم، ثم أنجاني الله منهم فقال النبي ﷺ: ويل أمه، مسعر حرب لو كان له أحد، فلما سمع ذلك عرف أنه سيرده إليهم، فخرج حتى أتى سيف البحر، وانفلت منهم أبو جندل بن سهيل فلحق بأبي بصير، فلا يخرج من قريش رجل قد أسلم إلا لحق بأبي بصير، حتى اجتمعت عليه عصابة، قال: فوالله لا يسمعون بعير لقريش قد خرجت إلى الشام، إلا اعترضوا لها فقتلوهم وأخذوا أموالهم، فأرسلت قريش إلى النبي ﷺ تناشده الله والرحم، لما أرسل إليهم فمن أتاه منهم فهو آمن، فأرسل ﷺ إليهم فأتوه.

هـ. وفي تفسير القمي، في حديث طويل أوردنا صدره في أول البحث قال: وقال رسول الله ﷺ لأصحابه، بعد ما كتب الكتاب ـ: انحروا بدنكم واحلقوا رءوسكم، فامتنعوا وقالوا: كيف ننحر ونحلق،

ولم نطف بالبيت ولم نسع بين الصفا والمروة، فاغتم رسول الله ﷺ وشكا ذلك إلى أم سلمة، فقالت: يا رسول الله انحر أنت واحلق، فنحر رسول الله وحلق، فنحر القوم على حيث يقين وشك وارتياب.

• أقول: وهو مروي في روايات أخر من طرق الشيعة وأهل السنة، وهذا الذي رواه الطبرسي مأخوذ مع تلخيص ما عما رواه البخاري وأبو داود والنسائي عن مروان والمسور.

و. أخرج البيهقي عن عروة قال: أقبل رسول الله ﷺ من الحديبية راجعا، فقال رجل من أصحاب رسول الله ﷺ: والله ما هذا بفتح لقد صددنا عن البيت وصد هدينا، وعكف رسول الله بالحديبية، ورد رجلين من المسلمين خرجا، فبلغ رسول الله ﷺ قول رجال من أصحابه: إن هذا ليس بفتح، فقال رسول الله ﷺ: بئس الكلام، هذا أعظم الفتح، لقد رضي المشركون أن يدفعوكم بالراح عن بلادهم، ويسألوكم القضية ويرغبون إليكم في الإياب، وقد كرهوا منكم ما كرهوا، وقد أظفركم الله عليهم، وردكم سالمين غانمين مأجورين فهذا أعظم الفتح، أنسيتم يوم أحد إذ تصعدون ولا تلوون على أحد، وأنا أدعوكم في أخراكم؟ أنسيتم يوم الأحزاب إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم، وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر، وتظنون بالله الظنونا؟، قال المسلمون: صدق الله ورسوله هو أعظم الفتوح، والله يا نبي الله ما فكرنا فيما فكرت فيه، ولأنت أعلم بالله وبالأمور منا فأنزل الله سورة الفتح.

• أقول: والأحاديث في قصة الحديبية كثيرة وما أوردناه طرف منها.

ز. وفي تفسير القمي، بإسناده إلى عمر بن يزيد بياع السابري قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام قول الله في كتابه: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَما تَأَخَّرَ﴾ قال: ما كان له ذنب ولا هم بذنب، ولكن الله حمله ذنوب شيعته ثم غفر لها.

ح. وفي العيون، في مجلس الرضا مع المأمون بإسناده إلى ابن الجهم قال: حضرت مجلس المأمون وعنده الرضا عليه السلام، فقال المأمون: يا ابن رسول الله أليس من قولك، إن الأنبياء معصومون؟ قال: بلى، إلى أن قال، قال: فأخبرني عن قول الله عز وجل: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَما تَأَخَّرَ﴾، قال الرضا عليه السلام: لم يكن أحد عند مشركي مكة، أعظم ذنبا من رسول الله ﷺ، لأنهم كانوا يعبدون من دون الله ثلاثمائة وستين صنما، فلما جاءهم بالدعوة إلى كلمة الإخلاص، كبر ذلك عليهم وعظم، وقالوا أجعل الآلهة إلها واحدا، إن هذا لشيء عجاب، وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم، إن هذا

لشيء يراد ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة، إن هذا إلا اختلاق، فلما فتح الله على نبيه ﷺ مكة قال: يا محمد، إنا فتحنا لك فتحا مبينا ليغفر لك الله، ما تقدم من ذنبك وما تأخر عند مشركي مكة، بدعائك إلى توحيد الله فيما تقدم وما تأخر، لأن مشركي مكة أسلم بعضهم، وخرج بعضهم عن مكة، ومن بقي منهم لم يقدر على إنكار التوحيد، إذا دعا الناس إليه، فصار ذنبه عندهم في ذلك مغفورا بظهوره عليهم، فقال المأمون: لله درك يا أبا الحسن.

ط. وفي تفسير العياشي، عن منصور بن حازم عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ما ترك رسول الله ﷺ ﴿إِنِّي أَخافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ حتى نزلت سورة الفتح فلم يعد إلى ذلك الكلام.

• أقول: وهذا المعنى مروي من طرق أهل السنة أيضا، والحديث لا يخلو من شيء لأنه مبني على كون المراد بالذنب في الآية هو المعصية المنافية للعصمة.

٢. إنزال السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً:

المقطع [٢] من سورة الفتح، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الفتح: ٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ٢٥٨»:

١. ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدادُوا إِيماناً مَعَ إِيمانِهِمْ﴾:

أ. الظاهر أن المراد بالسكينة سكون النفس وثباتها واطمئنانها إلى ما آمنت به، ولذا علل إنزالها فيها بقوله: ﴿لِيَزْدادُوا إِيماناً مَعَ إِيمانِهِمْ﴾ وقد تقدم البحث عن السكينة في ذيل قوله تعالى: ﴿أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٤٨] في الجزء الثاني من الكتاب وذكرنا هناك أنها تنطبق على روح الإيمان المذكور في قوله تعالى: ﴿وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢]

ب. وقيل: السكينة هي الرحمة، وقيل: العقل، وقيل: الوقار والعصمة لله ولرسوله، وقيل: الميل إلى ما جاء به الرسول ﷺ، وقيل: ملك يسكن قلب المؤمن، وقيل: شيء له رأس كرأس الهرة، وهذه الأقاويل لا دليل على شيء منها.

ج. والمراد بإنزال السكينة في قلوبهم إيجادها فيها بعد عدمها فكثيرا ما يعبر في القرآن عن الخلق والإيجاد بالإنزال كقوله: ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعامِ ثَمانِيَةَ أَزْواجٍ﴾ [الزمر: ٦]، وقوله: ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ﴾

[الحديد: ٢٥]، وقوله: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنا خَزائِنُهُ وَما نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ [الحجر: ٢١]، وإنما عبر عن الخلق والإيجاد بالإنزال للإشارة إلى علو مبدئه.

د. وقيل: المراد بالإنزال الإسكان والإقرار من قولهم: نزل في مكان كذا أي حط رحله فيه وأنزلته فيه أي حططت رحله فيه هذا، وهو معنى غير معهود في كلامه تعالى مع كثرة وروده فيه، ولعل الباعث لهم على اختيار هذا المعنى تعديته في الآية بلفظة (في) إذ قال: ﴿أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ لكنه عناية كلامية لوحظ فيها تعلق السكينة بالقلوب تعلق الاستقرار فيها كما لوحظ تعلقها تعلق الوقوع عليها من علو في قوله الآتي: ﴿فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾ الآية وقوله: ﴿فَأَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ الآية.

هـ. والمراد بزيادة الإيمان اشتداده فإن الإيمان بشيء هو العلم به مع الالتزام بحيث يترتب عليه آثاره العملية، ومن المعلوم أن كلا من العلم والالتزام المذكورين مما يشتد ويضعف فالإيمان الذي هو العلم المتلبس بالالتزام يشتد ويضعف.

و. فمعنى الآية: الله الذي أوجد الثبات والاطمئنان الذي هو لازم مرتبة من مراتب الروح في قلوب المؤمنين ليشتد به الإيمان الذي كان لهم قبل نزول السكينة فيصير أكمل مما كان قبله.

٢. وضع هنا مبحثا حول [الإيمان وازدياده]، خلاصته:

أ. الإيمان ليس مجرد العلم الحاصل بالشيء، بل لا بد من الالتزام بمقتضاه وعقد القلب على مؤداه، بحيث يترتب عليه آثاره العملية ولو في الجملة، فمن علم بالله ولم يلتزم لم يكن مؤمناً، والعلم قد يجامع الكفر (كآل فرعون: ﴿وَجَحَدُوا بِها وَاسْتَيْقَنَتْها أَنْفُسُهُمْ﴾)

ب. الإيمان ليس هو العمل، لأن العمل يجامع النفاق، فالمنافق له عمل ولا إيمان له.

ج. الإيمان مؤلف من العلم والالتزام، وكل منهما يقبل الزيادة والنقصان والشدة والضعف، فاختلاف المراتب وتفاوت الدرجات من الضروريات، وتدل عليه الآيات (كقوله: ﴿لِيَزْدادُوا إِيماناً مَعَ إِيمانِهِمْ﴾) والأحاديث الدالة على أن الإيمان ذو مراتب.

د. القول بأن الإيمان لا يزيد ولا ينقص (كقول أبي حنيفة وإمام الحرمين) مبني على أن الإيمان اسم للتصديق البالغ حد الجزم، وهو مما لا يتصور فيه الزيادة، لكن هذا القول مردود، لأن الإيمان اسم

للتصديق مع الالتزام، وهذا يقبل القوة والضعف، وقوة الإيمان بمزاولة الطاعات وضعفه بارتكاب المعاصي مما لا ينبغي الارتياب فيه.

هـ. تأويلات النافين للزيادة (كتجدد الأمثال، أو كثرة ما يؤمن به من الأحكام) مردودة، لأنها لا تفسر تفاوت قوة الإيمان وضعفه في مواجهة الشبهات والعواصف، والآيات تدل على أن العمل الصالح يرفع الكلم الطيب، والسيئات تؤدي إلى التكذيب والاستهزاء.

و. النزاع في زيادة الإيمان ونقصانه ليس نزاعاً لفظياً، لأن الإيمان ليس مجرد التصديق، بل تصديق مع التزام، والأعمال ليست هي الإيمان بل أثره، والنزاع في أصل الإيمان لا في آثاره.

٣. ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾:

أ. الجند هو الجمع الغليظ من الناس إذا جمعهم غرض يعملون لأجله ولذا أطلق على العسكر المجتمعين على إجراء ما يأمر به أميرهم، والسياق يشهد أن المراد بجنود السماوات والأرض الأسباب الموجودة في العالم مما يرى ولا يرى من الخلق فهي وسائط متخللة بينه تعالى وبين ما يريده من شيء تطيعه ولا تعصاه.

ب. وإيراد الجملة أعني قوله: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ﴾، بعد قوله: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ﴾، للدلالة على أن له جميع الأسباب والعلل التي في الوجود فله أن يبلغ إلى ما يشاء بما يشاء ولا يغلبه شيء في ذلك، وقد نسبت إلى زيادة إيمان المؤمنين بإنزال السكينة في قلوبهم.

٤. ﴿وَكانَ اللهُ عَزِيزاً حَكِيماً﴾ أي منيعا جانبه لا يغلبه شيء متقنا في فعله لا يفعل إلا ما تقتضيه حكمته والجملة بيان تعليلي لقوله: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ﴾، كما أنه بيان تعليلي لقوله: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ﴾، كأنه قيل: أنزل السكينة لكذا وله ذلك لأن له جميع الجنود والأسباب لأنه العزيز على الإطلاق والحكيم على الإطلاق.

٥. أحاديث وآثار:

أ. في الكافي، بإسناده إلى جميل قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عز وجل: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قال: الإيمان قال عز من قائل: ﴿لِيَزْدادُوا إِيماناً مَعَ إِيمانِهِمْ﴾

• أقول: ظاهر الرواية أنه عليه السلام أخذ قوله تعالى في الآية: ﴿لِيَزْدادُوا إِيماناً مَعَ إِيمانِهِمْ﴾ تفسيرا

للسكينة، وفي معنى الرواية روايات أخر.

ب. وفيه، بإسناده عن أبي عمرو الزبيري عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قلت له: أيها العالم أخبرني أي الأعمال أفضل عند الله؟ قال: ما لا يقبل الله شيئا إلا به، قلت: وما هو؟ قال: الإيمان بالله الذي لا إله إلا هو، أعلى الأعمال درجة وأشرفها منزلة وأسناها حظا، قال: قلت: ألا تخبرني عن الإيمان، أقول هو وعمل أم قول بلا عمل؟ قال: الإيمان عمل كله والقول بعض ذلك العمل، بفرض من الله بين في كتابه واضح نوره ثابتة حجته، يشهد له به الكتاب ويدعوه إليه، قال: قلت: صف لي جعلت فداك حتى أفهمه، قال: الإيمان حالات ودرجات وصفات ومنازل، فمنه التام المنتهي تمامه ومنه الناقص المبين نقصانه، ومنه الراجح الزائد رجحانه، قلت: إن الإيمان ليتم وينقص ويزيد؟ قال: نعم، قلت: كيف ذلك؟ قال: لأن الله تبارك وتعالى فرض الإيمان، على جوارح ابن آدم وقسمه عليها وفرقه فيها، فليس من جوارحه جارحة إلا وقد وكلت من الإيمان، بغير ما وكلت به أختها، فمن لقي الله عز وجل حافظا لجوارحه، موفيا كل جارحة من جوارحه، ما فرض الله عز وجل عليها، لقي الله مستكملا لإيمانه وهو من أهل الجنة، ومن خان في شيء منها أو تعدى ما أمر الله عز وجل فيها، لقي الله عز وجل ناقص الإيمان، قلت: وقد فهمت نقصان الإيمان وتمامه، فمن أين جاءت زيادته؟ فقال: قول الله عز وجل: ﴿وَإِذا ما أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زادَتْهُ هذِهِ إِيماناً فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزادَتْهُمْ إِيماناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ﴾ وقال: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْناهُمْ هُدىً﴾، ولو كان كله واحدا لا زيادة فيه ولا نقصان، لم يكن لأحد منهم فضل على الآخر ولاستوت النعم فيه، ولاستوى الناس وبطل التفضيل، ولكن بتمام الإيمان دخل المؤمنون الجنة، وبالزيادة في الإيمان تفاضل المؤمنون بالدرجات عند الله، وبالنقصان دخل المفرطون النار.

٣. إدخال المؤمنين الجنات وتكفير سيئاتهم:

المقطع [٣] من سورة الفتح، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ٢٦٢»:

١. ﴿لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ﴾:

أ. تعليل آخر لقوله: ﴿أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ على المعنى كما أن قوله: ﴿لِيَزْدادُوا إِيماناً﴾ تعليل له بحسب اللفظ كأنه قيل: خص المؤمنين بإنزال السكينة وحرم على غيرهم ذلك ليزداد إيمان هؤلاء مع إيمانهم وحقيقة ذلك أن يدخل هؤلاء الجنة ويعذب أولئك فيكون قوله: (ليدخل) بدلا أو عطف بيان من قوله: ﴿لِيَزْدادُوا﴾

ب. وفي متعلق لام ﴿لِيُدْخِلَ﴾، أقوال أخر كالقول بتعلقها بقوله: ﴿فَتَحْنا﴾ أو قوله: ﴿لِيَزْدادُوا﴾ أو بجميع ما تقدم إلى غير ذلك مما لا جدوى لإيراده.

ج. وضم المؤمنات إلى المؤمنين في الآية لدفع توهم اختصاص الجنة وتكفير السيئات بالذكور لوقوع الآية في سياق الكلام في الجهاد، والجهاد والفتح واقعان على أيديهم فصرح باسم المؤمنات لدفع التوهم كما قيل.

د. وضمير ﴿خالِدِينَ﴾ و﴿يُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ﴾ للمؤمنين والمؤمنات جميعا على التغليب.

٢. ﴿وَكانَ ذلِكَ عِنْدَ اللهِ فَوْزاً عَظِيماً﴾ بيان لكون ذلك سعادة حقيقية لا ريب فيها لكونه عند الله كذلك وهو يقول الحق.

٤. عذاب المنافقين والمشركين الظانين بالله ظن السوء:

المقطع [٤] من سورة الفتح، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنافِقِينَ وَالْمُنافِقاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكاتِ الظَّانِّينَ بِاللهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَساءَتْ مَصِيرًا﴾ [الفتح: ٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ٢٦٣»:

١. ﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنافِقِينَ وَالْمُنافِقاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكاتِ﴾ معطوف على قوله: ﴿لِيُدْخِلَ﴾ بالمعنى الذي تقدم، وتقديم المنافقين والمنافقات على المشركين والمشركات في الآية لكونهم أضر على المسلمين من أهل الشرك ولأن عذاب أهل النفاق أشد قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾

٢. ﴿الظَّانِّينَ بِاللهِ ظَنَّ السَّوْءِ﴾ السوء بالفتح فالسكون مصدر بمعنى القبح والسوء بالضم اسم مصدر، وظن السوء هو ظنهم أن الله لا ينصر رسوله وقيل: المراد بظن السوء ما يعم ذلك وسائر ظنونهم السيئة من الشرك والكفر.

٣. ﴿عَلَيْهِمْ دائِرَةُ السَّوْءِ﴾ دعاء عليهم أو قضاء عليهم أي ليستضروا بدائرة السوء التي تدور

لتصيب من تصيب من الهلاك والعذاب.

٤. ﴿وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ﴾ معطوف على قوله: ﴿عَلَيْهِمْ دائِرَةُ﴾، وقوله: ﴿وَساءَتْ مَصِيراً﴾ بيان مساءة مصيرهم، كما أن قوله: ﴿وَكانَ ذلِكَ عِنْدَ اللهِ فَوْزاً عَظِيماً﴾ بيان لحسن مصير أهل الإيمان.

٥. لله جنود السموات والأرض:

المقطع [٥] من سورة الفتح، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [الفتح: ٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ٢٦٣»:

١. ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾:

أ. تقدم معناه، والظاهر أنه بيان تعليلي للآيتين أعني قوله: ﴿لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ﴾، إلى قوله: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ﴾ على حذو ما كان مثله فيما تقدم بيانا تعليليا لقوله: ﴿أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ﴾

ب. وقيل: إن مضمونه متعلق بالآية الأخيرة فهو تهديد لهم أنهم في قبضة قدرته فينتقم منهم، والوجه الأول أظهر.

٦. إرسال النبي بشيراً ونذيراً:

المقطع [٦] من سورة الفتح، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفتح: ٨-٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ٢٧٣»:

١. ﴿إِنَّا أَرْسَلْناكَ شاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً﴾:

أ. المراد بشهادته ﷺ شهادته على الأعمال من إيمان وكفر وعمل صالح أو طالح، وقد تكرر في كلامه تعالى ذكر شهادته ﷺ، وتقدم استيفاء الكلام في معنى هذه الشهادة، وهي شهادة حمل في الدنيا، وأداء في الآخرة.

ب. وكونه مبشرا تبشيره لمن آمن واتقى بالقرب من الله وجزيل ثوابه، وكونه نذيرا إنذاره وتخويفه لمن كفر وتولى بأليم عذابه.

٢. ﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾:

أ. القراءة المشهورة بتاء الخطاب في الأفعال الأربعة، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بياء الغيبة في الجميع وقراءتهما أرجح بالنظر إلى السياق.

ب. وكيف كان فاللام في ﴿لِتُؤْمِنُوا﴾ للتعليل أي أرسلناك كذا وكذا لتؤمنوا بالله ورسوله.

ج. والتعزير، على ما قيل، النصر والتوقير التعظيم كما قال تعالى: ﴿ما لَكُمْ لا تَرْجُونَ للهِ وَقاراً﴾ [نوح: ١٣]، والظاهر أن الضمائر في ﴿تُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ﴾ جميعا لله تعالى والمعنى: إنا أرسلناك كذا وكذا ليؤمنوا بالله ورسوله وينصروه تعالى بأيديهم وألسنتهم ويعظموه ويسبحوه، وهو الصلاة، بكرة وأصيلا أي غداة وعشيا.

د. وقيل: الضميران في ﴿تُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ للرسول ﷺ، وضمير ﴿تُسَبِّحُوهُ﴾ لله تعالى ويوهنه لزوم اختلاف الضمائر المتسقة.

٣. أحاديث وآثار: أخرج ابن عدي وابن مردويه والخطيب وابن عساكر في تاريخه عن جابر بن عبد الله قال: لما نزلت على رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿وَتُعَزِّرُوهُ﴾ قال النبي ﷺ لأصحابه: ما ذاك؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: لتنصروه.

٧. بيعة المؤمنين تحت الشجرة:

المقطع [٧] من سورة الفتح، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ١٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ٢٧٤»:

١. ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾:

أ. البيعة نوع من الميثاق ببذل الطاعة قال في المفردات: (وبايع السلطان إذا تضمن بذل الطاعة له بما رضخ له)

ب. والكلمة مأخوذة من البيع بمعناه المعروف فقد كان من دأبهم أنهم إذا أرادوا إنجاز البيع أعطى البائع يده للمشتري فكأنهم كانوا يمثلون بذلك نقل الملك بنقل التصرفات التي يتحقق معظمها باليد إلى المشتري بالتصفيق، وبذلك سمي التصفيق عند بذل الطاعة بيعة ومبايعة، وحقيقة معناه إعطاء المبايع يده

للسلطان مثلا ليعمل به ما يشاء.

ج. فقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبايِعُونَكَ إِنَّما يُبايِعُونَ اللهَ﴾ تنزيل بيعته ﷺ منزلة بيعته تعالى بدعوى أنها هي فما يواجهونه ﷺ به من بذل الطاعة لا يواجهون به إلا الله سبحانه لأن طاعته طاعة الله ثم قرره زيادة تقرير وتأكيد بقوله: ﴿يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ حيث جعل يده ﷺ يد الله كما جعل رميه ﷺ رمى نفسه في قوله: ﴿وَما رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلكِنَّ اللهَ رَمى﴾ [الأنفال: ١٧]

د. وفي نسبة ما له ﷺ من الشأن إلى نفسه تعالى آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطاعَ اللهَ﴾ [النساء: ٨٠]، وقوله: ﴿فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآياتِ اللهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣]، وقوله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨]

٢. ﴿فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّما يَنْكُثُ عَلى نَفْسِهِ﴾ النكث نقض العهد والبيعة، والجملة تفريع على قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبايِعُونَكَ إِنَّما يُبايِعُونَ اللهَ﴾ والمعنى: فإذا كان بيعتك بيعة الله فالناكث الناقض لها ناقض لبيعة الله ولا يتضرر بذلك إلا نفسه كما لا ينتفع بالإيفاء إلا نفسه لأن الله غني عن العالمين.

٣. ﴿وَمَنْ أَوْفى بِما عاهَدَ عَلَيْهُ اللهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً﴾ وعد جميل على حفظ العهد والإيفاء به.

٤. والآية لا تخلو من إيماء إلى أن النبي ﷺ كان عند البيعة يضع يده على أيديهم فكانت يده على أيديهم لا بالعكس.

٥. وللمفسرين في قوله: ﴿يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ أقوال أخر:

أ. فقيل: إنه من الاستعارة التخييلية والاستعارة بالكناية جيء به لتأكيد ما تقدمه وتقرير أن مبايعة الرسول ﷺ كمبايعة الله من غير تفاوت فخيل أنه سبحانه كأحد المبايعين من الناس فأثبتت له يد تقع فوق أيدي المبايعين للرسول ﷺ مكان يد الرسول.

• وفيه أنه غير مناسب لساحة قدسه تعالى أن يخيل على وجه هو منزه عنه.

ب. وقيل: المراد باليد القوة والنصرة أي قوة الله ونصرته فوق قوتهم ونصرتهم أي ثق بنصرة الله لا بنصرتهم.

• وفيه أن المقام مقام إعظام بيعة النبي ﷺ وأن مبايعتهم له مبايعة لله، والوثوق بالله ونصرته وإن كان حسنا في كل حال لكنه أجنبي عن المقام.

ج. وقيل: المراد باليد العطية والنعمة أي نعمة الله عليهم بالثواب أو بتوفيقهم لمبايعتك فوق نعمتهم عليك بالمبايعة.

د. وقيل: نعمته عليهم بالهداية أعظم من نعمتهم عليك بالطاعة.

هـ. إلى غير ذلك من الوجوه التي أوردوها ولا طائل تحتها.

٦. أحاديث وآثار:

أ. في العيون، بإسناده عن عبد السلام بن صالح الهروي قال: قلت لعلي بن موسى الرضا عليه السلام: يا ابن رسول الله، ما تقول في الحديث الذي يرويه أهل الحديث: أن المؤمنين يزورون ربهم من منازلهم في الجنة؟ فقال: يا أبا الصلت إن الله تعالى فضل نبيه محمدا، على جميع خلقه من النبيين والملائكة، وجعل طاعته طاعته، ومبايعته مبايعته، وزيارته في الدنيا والآخرة زيارته، فقال عز وجل: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطاعَ اللهَ﴾ وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبايِعُونَكَ إِنَّما يُبايِعُونَ اللهَ يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ وقال النبي ﷺ: من زارني في حياتي أو بعد موتي فقد زار الله، ودرجته في الجنة أعلى الدرجات، ومن زاره في درجته في الجنة من منزله، فقد زار الله تبارك وتعالى.

ب. وفي إرشاد المفيد، في حديث بيعة الرضا عليه السلام قال: وجلس المأمون ووضع للرضا عليه السلام وسادتين عظيمتين، حتى لحق بمجلسه وفرشه، وأجلس الرضا عليه السلام في الخضرة وعليه عمامة وسيف، ثم أمر ابنه العباس بن المأمون أن يبايع له في أول الناس، فرفع الرضا عليه السلام يده فتلقى بها وجهه وببطنها وجوههم، فقال له المأمون: ابسط يدك للبيعة فقال الرضا عليه السلام: إن رسول الله ﷺ هكذا كان يبايع، فبايعه الناس ويده فوق أيديهم.

٨. اعتذار المتخلفين وكذبهم:

المقطع [٨] من سورة الفتح، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرابِ شَغَلَتْنا أَمْوالُنا وَأَهْلُونا فَاسْتَغْفِرْ لَنا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ ما لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئاً إِنْ أَرادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرادَ بِكُمْ نَفْعاً بَلْ كانَ اللهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيراً﴾ [الفتح: ١١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ٢٧٧»:

١. ﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرابِ﴾:

أ. قال في المجمع: (المخلف هو المتروك في المكان خلف الخارجين من البلد، وهو مشتق من الخلف وضده المقدم)

ب. والأعراب، وعلى ما قالوا، الجماعة من عرب البادية ولا يطلق على عرب الحاضرة، وهو اسم جمع لا مفرد له من لفظه.

ج. ﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرابِ﴾ إخبار عما سيأتي من قولهم للنبي ﷺ، وفي اللفظ دلالة ما على نزول الآيات في رجوعه ﷺ من الحديبية إلى المدينة ولما يردها.

٢. ﴿شَغَلَتْنا أَمْوالُنا وَأَهْلُونا فَاسْتَغْفِرْ لَنا﴾ أي كان الشاغل المانع لنا عن صحابتك والخروج معك هو أموالنا وأهلونا حيث لم يكن هنا من يقوم بأمرنا فخفنا ضيعتها فلزمناها فاستغفر لنا الله تعالى يغفر لنا تخلفنا عنك، وفي سؤال الاستغفار دليل على أنهم كانوا يرون التخلف ذنبا فتعلقهم بأنه شغلتهم الأموال والأهلون ليس اعتذارا للتبري عن الذنب بل ذكرا للسبب الموقع في الذنب.

٣. ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ ما لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ تكذيب لهم في جميع ما أخبروا به وسألوه فلا أن الشاغل لهم هو شغل الأموال والأهلين، ولا أنهم يهتمون باستغفاره ﷺ، وإنما سألوه ليكون ذلك جنة يصرفون بها العتاب والتوبيخ عن أنفسهم.

٤. ﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئاً إِنْ أَرادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرادَ بِكُمْ نَفْعاً﴾:

أ. جواب جلي عما اعتذروا به من شغل الأموال والأهلين محصله أن الله سبحانه له الخلق والأمر وهو المالك المدبر لكل شيء لا رب سواه فلا ضر ولا نفع إلا بإرادته ومشيته فلا يملك أحد منه تعالى شيئا حتى يقهره على ترك الضر أو فعل الخير إن أراد الضر أو على ترك الخير إن أراد ما لا يريده هذا القاهر من الخير، وإذا كان كذلك فانصرافكم عن الخروج مع النبي ﷺ نصرة للدين واشتغالكم بما اعتللتم به من حفظ الأموال والأهلين لا يغني من الله شيئا لا يدفع الضر إن أراد الله بكم ضرا ولا يعين على جلب الخير ولا يعجله إن أراد بكم خيرا.

ب. فقوله: ﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ﴾، جواب عن تعللهم بالشغل على تقدير تسليم صدقهم فيه، ملخصه أن تعلقكم في دفع الضر وجلب الخير بظاهر الأسباب ومنها تدبيركم والقعود بذلك عن مشروع ديني لا يغنيكم شيئا في ضر أو نفع بل الأمر تابع لما أراده الله سبحانه فالآية في معنى قوله تعالى: ﴿قُلْ لَنْ

يُصِيبَنا إِلَّا ما كَتَبَ اللهُ لَنا﴾

ج. والتمسك بالأسباب وعدم إلغائها وإن كان مشروعا مأمورا به لكنه فيما لا يعارض ما هو أهم منها كالدفاع عن الحق وإن كان فيه بعض المكاره المحتملة اللهم إلا إذا تعقب خطرا قطعيا لا أثر معه للدفاع والسعي.

٥. ﴿بَلْ كانَ اللهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيراً﴾ تعريض لهم فيه إشارة إلى كذبهم في قولهم: ﴿شَغَلَتْنا أَمْوالُنا وَأَهْلُونا﴾

٩. ظن المنافقين واستحقاقهم السعير:

المقطع [٩] من سورة الفتح، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الفتح: ١٢-١٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ٢٧٩»:

١. ﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلى أَهْلِيهِمْ أَبَداً وَزُيِّنَ ذلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ﴾، بيان لما يشير إليه قوله: ﴿بَلْ كانَ اللهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيراً﴾ من كذبهم في اعتذارهم، والمعنى: ما تخلفتم عن الخروج بسبب اشتغالكم بالأموال والأهلين بل ظننتم أن الرسول والمؤمنين لن يرجعوا إلى أهليهم أبدا وأن الخارجين سيقتلون بأيدي قريش بما لهم من الجموع والبأس الشديد والشوكة والقدرة ولذلك تخلفتم.

٢. ﴿وَزُيِّنَ ذلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ أي زين الشيطان ذلك الظن في قلوبكم فأخذتم بما يقتضيه ذلك الظن المزين وهو أن تتخلفوا ولا تخرجوا حذرا من أن تهلكوا وتبيدوا.

٣. ﴿وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْماً بُوراً﴾:

أ. البور، على ما قيل، مصدر بمعنى الفساد أو الهلاك أريد به معنى الفاعل أي كنتم قوما فاسدين أو هالكين.

ب. قيل: المراد بظن السوء ظنهم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبدا ولا يبعد أن يكون المراد به ظنهم أن الله لا ينصر رسوله ولا يظهر دينه كما مر في قوله في الآية السادسة من السورة: ﴿الظَّانِّينَ بِاللهِ ظَنَّ السَّوْءِ﴾ بل هو أظهر.

٤. ﴿وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنا لِلْكافِرِينَ سَعِيراً﴾ الجمع في هذه الآيات بين الإيمان بالله ورسوله للدلالة على أن الكفر بالرسول بعدم طاعته كفر بالله، وفي الآية لحن تهديد.

٥. ﴿فَإِنَّا أَعْتَدْنا لِلْكافِرِينَ سَعِيراً﴾ كان مقتضى الظاهر أن يقال: أعتدنا لهم فوضع الظاهر موضع الضمير للإشارة إلى علة الحكم بتعليقه على المشتق، والمعنى: أعتدنا وهيأنا لهم لكفرهم سعيرا أي نارا مسعرة مشتعلة، وتنكير سعيرا للتهويل.

٦. ﴿وَلِلهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ وَكانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾ معنى الآية ظاهر وفيها تأييد لما تقدم، وفي تذييل الملك المطلق بالاسمين: الغفور الرحيم إشارة إلى سبق الرحمة الغضب وحث على الاستغفار والاسترحام.

١٠. طلب المتخلفين الخروج إلى المغانم واتهامهم المؤمنين بالحسد:

المقطع [١٠] من سورة الفتح، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الفتح: ١٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ٢٨٠»:

١. ﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذا انْطَلَقْتُمْ إِلى مَغانِمَ لِتَأْخُذُوها ذَرُونا نَتَّبِعْكُمْ﴾:

أ. إخبار عن أن المؤمنين سيغزون غزوة فيرزقون الفتح ويصيبون مغانم ويسألهم المخلفون أن يتركوهم يتبعونهم طمعا في الغنيمة، وتلك غزوة خيبر اجتاز النبي ﷺ والمؤمنون إليه ففتحوه وأخذوا الغنائم وخصها الله تعالى بمن كان مع النبي ﷺ في سفره الحديبية لم يشرك معهم غيرهم.

ب. والمعنى: أنكم ستنطلقون إلى غزوة فيها مغانم تأخذونها فيقول هؤلاء المخلفون: اتركونا نتبعكم.

٢. ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلامَ اللهِ﴾ قيل: المراد به وعده تعالى أهل الحديبية أن يخصهم بغنائم خيبر بعد فتحه كما سيجيء من قوله: ﴿وَعَدَكُمُ اللهُ مَغانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَها فَعَجَّلَ لَكُمْ هذِهِ﴾ الآية، ويشير إليه في هذه الآية بقوله: ﴿إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلى مَغانِمَ لِتَأْخُذُوها﴾

٣. ﴿قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونا كَذلِكُمْ قالَ اللهُ مِنْ قَبْلُ﴾ أمر منه تعالى للنبي ﷺ أن يمنعهم عن اتباعهم استنادا إلى قوله تعالى من قبل أن يسألوهم الاتباع.

٤. ﴿فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنا﴾:

أ. أي سيقول المخلفون بعد ما منعوا عما سألوه من الاتباع: ﴿بَلْ تَحْسُدُونَنا﴾ وقوله: ﴿بَلْ كانُوا لا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلاً﴾ جواب عن قولهم: ﴿بَلْ تَحْسُدُونَنا﴾ لم يوجه الخطاب إليهم أنفسهم لأن المدعي أنهم لا يفقهون الحديث ولذلك وجه الخطاب بالجواب إلى النبي ﷺ وقال: ﴿بَلْ كانُوا لا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلاً﴾

ب. وذلك أن قولهم: ﴿بَلْ تَحْسُدُونَنا﴾ إضراب عن قول النبي ﷺ لهم بأمر الله: ﴿لَنْ تَتَّبِعُونا كَذلِكُمْ قالَ اللهُ مِنْ قَبْلُ﴾ فمعنى قولهم: إن منعنا من الاتباع ليس عن أمر من قبل الله بل إنما تمنعنا أنت ومن معك من المؤمنين أهل الحديبية أن نشارككم في الغنائم وتريدون أن تختص بكم.

ج. وهذا كلام لا يواجه به مؤمن له عقل وتمييز رسول الله ﷺ المعصوم الذي لا يرد ولا يصدر في شأن إلا بأمر من الله اللهم إلا أن يكون من بساطة العقل وبلادة الفهم فهذا القول الذي واجهوا به النبي ﷺ وهم مدعون للإيمان والإسلام أدل دليل على ضعف تعقلهم وقلة فقههم.

٥. ومن هنا يظهر أن المراد بعدم فقههم إلا قليلا بساطة عقلهم وضعف فقههم للقول لا أنهم يفقهون بعض القول ولا يفقهون بعضه وهو الكثير ولا أن بعضهم يفقه القول وجلهم لا يفقهونه كما فسره به بعضهم.

١١. دعوة المنافقين إلى قتال أولي البأس:

المقطع [١١] من سورة الفتح، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرابِ سَتُدْعَوْنَ إِلى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَما تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذابًا أَلِيمًا﴾ [الفتح: ١٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ٢٨١»:

١. ﴿قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرابِ سَتُدْعَوْنَ إِلى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾:

أ. اختلفوا في هذا القوم من هم؟ فقيل: المراد به هوازن، وقيل: ثقيف، وقيل: هوازن وثقيف، وقيل: هم الروم في غزاة مؤتة وتبوك، وقيل: هم أهل الردة قاتلهم أبو بكر بعد الرحلة، وقيل: هم الفارس، وقيل: أعراب الفارس وأكرادهم.

ب. وظاهر قوله: ﴿سَتُدْعَوْنَ﴾ أنهم بعض الأقوام الذين قاتلهم النبي ﷺ بعد فتح خيبر من هوازن وثقيف والروم في مؤتة، وقوله تعالى سابقا: ﴿قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونا﴾ ناظر إلى نفي اتباعهم في غزوة خيبر على ما

يفيده السياق.

٢. ﴿تُقاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾:

أ. استئناف يدل على التنويع أي إما تقاتلون أو يسلمون أي إنهم مشركون لا تقبل منهم جزية كما تقبل من أهل الكتاب بل إما أن يقاتلوا أو يسلموا.

ب. ولا يصح أخذ ﴿تُقاتِلُونَهُمْ﴾ صفة لقوم لأنهم يدعون إلى قتال القوم لا إلى قتال قوم يقاتلونهم، وكذا لا يصح أخذ حالا من نائب فاعل ﴿سَتُدْعَوْنَ﴾ لأنهم يدعون إلى قتال القوم لا أنهم يدعون إليهم حال قتالهم، كذا قيل.

٣. ثم تمم سبحانه الكلام بالوعد والوعيد على الطاعة والمعصية فقال: ﴿فَإِنْ تُطِيعُوا﴾ أي بالخروج إليهم ﴿يُؤْتِكُمُ اللهُ أَجْراً حَسَناً وَإِنْ تَتَوَلَّوْا﴾ أي بالمعصية وعدم الخروج ﴿كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ﴾ ولم تخرجوا في سفره الحديبية ﴿يُعَذِّبْكُمْ عَذاباً أَلِيماً﴾ أي في الدنيا كما هو ظاهر المقام أو في الدنيا والآخرة معا.

١٢. الأعذار في القتال لمن له عذر:

المقطع [١٢] من سورة الفتح، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفتح: ١٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ٢٨٢»:

١. ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمى حَرَجٌ وَلا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ رفع للحكم بوجوب الجهاد عن ذوي العاهة الذين يشق عليهم الجهاد برفع لازمه وهو الحرج.

٢. ثم تمم الآية أيضا بإعادة نظير ذيل الآية السابقة فقال: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذاباً أَلِيماً﴾

١٣. رضا الله عن المؤمنين وإنزال السكينة والفتح القريب:

المقطع [١٣] من سورة الفتح، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ٢٨٣»:

١. ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾:

أ. الرضا هيئة تطرأ على النفس من تلقي ما يلائمها وتقبله من غير دفع، ويقابله السخط، وإذا نسب إلى الله سبحانه كان المراد الإثابة والجزاء الحسن دون الهيأة الطارئة والصفة العارضة الحادثة لاستحالة ذلك عليه تعالى: فرضاه سبحانه من صفات الفعل لا من صفات الذات.

ب. والرضا، كما قيل، يستعمل متعديا إلى المفعول بنفسه ومتعديا بعن ومتعديا بالباء فإذا عدي بنفسه جاز دخوله على الذات نحو: رضيت زيدا، وعلى المعنى نحو: رضيت إمارة زيد، قال تعالى: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلامَ دِيناً﴾ [المائدة: ٣]، وإذا عدي بعن دخل على الذات كقوله: ﴿رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [البينة: ٨]، وإذا عدي بالباء دخل على المعنى كقوله تعالى: ﴿أَرَضِيتُمْ بِالْحَياةِ الدُّنْيا مِنَ الْآخِرَةِ﴾

ج. ولما كان الرضا المنسوب إليه تعالى صفة فعل له بمعنى الإثابة والجزاء، والجزاء إنما يكون بإزاء العمل دون الذات ففيما نسب من رضاه تعالى إلى الذات وعدي بعن كما في الآية ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ نوع عناية استدعى عد الرضا وهو متعلق بالعمل متعلقا بالذات وهو أخذ بيعتهم التي هي متعلقة الرضا ظرفا للرضى فلم يسع إلا أن يكون الرضا متعلقا بهم أنفسهم.

د. فقوله: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ إخبار عن إثابته تعالى لهم بإزاء بيعتهم له ﷺ تحت الشجرة.

هـ. وقد كانت البيعة يوم الحديبية تحت شجرة سمرة بها بايعه ﷺ من معه من المؤمنين وقد ظهر به أن الظرف في قوله: ﴿إِذْ يُبايِعُونَكَ﴾ متعلق بقوله: ﴿لَقَدْ رَضِيَ﴾ واللام للقسم.

٢. ﴿فَعَلِمَ ما فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً﴾:

أ. تفريع على قوله: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللهُ﴾، والمراد بما في قلوبهم حسن النية وصدقها في مبايعتهم فإن العمل إنما يكون مرضيا عند الله لا بصورته وهيئته بل بصدق النية وإخلاصها.

ب. فالمعنى: فعلم ما في قلوبهم من صدق النية وإخلاصها في مبايعتهم لك.

ج. وقيل: المراد بما في قلوبهم الإيمان وصحته وحب الدين والحرص عليه، وقيل: الهم والأنفة من لين الجانب للمشركين وصلحهم، والسياق لا يساعد على شيء من هذين الوجهين كما لا يخفى.

د. سؤال وإشكال: فإن قلت: المراد بما في قلوبهم ليس مطلق ما فيها بل نيتهم الصادقة المخلصة في

المبايعة كما ذكر، وعلمه تعالى بنيتهم الموصوفة بالصدق والإخلاص سبب يتفرع عليه رضاه تعالى عنهم لا مسبب متفرع على الرضا، ولازم ذلك تفريع الرضا على العلم بأن يقال: لقد علم ما في قلوبهم فرضي عنهم لا تفريع العلم على الرضا كما في الآية، والجواب: كما أن للمسبب تفرعا على السبب من حيث التحقق والوجود كذلك للسبب، سواء كان تاما أو ناقصا، تفرع على المسبب من حيث الانكشاف والظهور، والرضا كما تقدم صفة فعل له تعالى منتزع عن مجموع علمه تعالى بالعمل الصالح وما يثيب به ويجزي صاحب العمل، والذي انتزع عنه الرضا في المقام هو مجموع علمه تعالى بما في قلوبهم وإنزاله السكينة عليهم وإثابتهم فتحا قريبا ومغانم كثيرة يأخذونها:

• فقوله: ﴿فَعَلِمَ ما فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ﴾، تفريع على قوله: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ للدلالة على حقيقة هذا الرضا والكشف عن مجموع الأمور التي بتحققها يتحقق معنى الرضا.

• ثم قوله: ﴿فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾ متفرع على قوله: ﴿فَعَلِمَ ما فِي قُلُوبِهِمْ﴾ وكذا ما عطف عليه من قوله: ﴿وَأَثابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً﴾

٣. أحاديث وآثار:

أ. أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه عن سلمة بن الأكوع قال: بينا نحن قائلون إذ نادى منادي رسول الله ﷺ: أيها الناس البيعة البيعة نزل روح القدس، فثرنا إلى رسول الله ﷺ وهو تحت شجرة سمرة، فبايعناه فذلك قول الله تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ فبايع لعثمان إحدى يديه على الأخرى فقال الناس، هنيئا لابن عفان يطوف بالبيت ونحن هاهنا، فقال رسول الله ﷺ: لو مكث كذا وكذا سنة، ما طاف حتى أطوف.

ب. أخرج عبد بن حميد ومسلم وابن مردويه عن مغفل بن يسار قال: لقد رأيتني يوم الشجرة والنبي ﷺ يبايع الناس، وأنا رافع غصنا من أغصانها عن رأسه، ونحن أربع عشرة مائة ولم نبايعه على الموت، ولكن بايعناه على أن لا نفر.

• أقول: كون المؤمنين يومئذ أربع عشرة مائة مروي في روايات أخرى، وفي بعض الروايات ألف وثلاثمائة وفي بعضها إلى ألف وثمان مائة، وكذا كون البيعة على أن لا يفروا وفي بعضها على الموت.

ج. أخرج أحمد عن جابر ومسلم عن أم بشر عنه عن النبي ﷺ قال: لا يدخل النار أحد ممن بايع

تحت الشجرة.

د. أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿فَعَلِمَ ما فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾ قال: إنما أنزلت السكينة على من علم منه الوفاء.

• أقول: والرواية تخصص ما تقدم عليها ويدل عليه قوله تعالى فيما تقدم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبايِعُونَكَ إِنَّما يُبايِعُونَ اللهَ يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّما يَنْكُثُ عَلى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفى بِما عاهَدَ عَلَيْهُ اللهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً﴾ فاشترط في الأجر، ويلازمه الاشتراط في الرضا، الوفاء وعدم النكث، وقد أورد القمي هذا المعنى في تفسيره وكأنه رواية.

١٤. المغانم الكثيرة والهداية إلى الصراط المستقيم:

المقطع [١٤] من سورة الفتح، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيمًا وَعَدَكُمُ اللهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللهُ بِهَا وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ [الفتح: ١٩ـ٢١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ٢٨٦»:

١. ﴿وَمَغانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَها وَكانَ اللهُ عَزِيزاً حَكِيماً﴾ المراد بالفتح القريب فتح خيبر على ما يفيده السياق وكذا المراد بمغانم كثيرة يأخذونها، غنائم خيبر، وقيل: المراد بالفتح القريب فتح مكة، والسياق لا يساعد عليه.

٢. ﴿وَكانَ اللهُ عَزِيزاً حَكِيماً﴾ أي غالبا فيما أراد متقنا لفعله غير مجازف فيه.

٣. ﴿وَعَدَكُمُ اللهُ مَغانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَها فَعَجَّلَ لَكُمْ هذِهِ﴾:

أ. المراد بهذه المغانم الكثيرة المغانم التي سيأخذها المؤمنون بعد الرجوع من الحديبية أعم من مغانم خيبر وغيرها فتكون الإشارة بقوله: ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هذِهِ﴾ إلى المغانم المذكورة في الآية السابقة وهي مغانم خيبر نزلت منزلة الحاضرة لاقتراب وقوعها.

ب. هذا على تقدير نزول الآية مع الآيات السابقة، وأما على ما قيل: إن الآية نزلت بعد فتح خيبر فأمر الإشارة في قوله: ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هذِهِ﴾ ظاهر لكن المعروف نزول السورة بتمامها في مرجع النبي ﷺ من الحديبية بينها وبين المدينة.

ج. وقيل: الإشارة بهذه إلى البيعة التي بايعوها تحت الشجرة وهو كما ترى.

٤. ﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ﴾:

أ. قيل: المراد بالناس قبيلتا أسد وغطفان هموا بعد مسير النبي ﷺ إلى خيبر أن يغيروا على أموال المسلمين وعيالهم بالمدينة فقذف الله في قلوبهم الرعب وكف أيديهم.

ب. وقيل: المراد مالك بن عوف وعيينة بن حصين مع بني أسد وغطفان جاءوا لنصرة يهود خيبر فقذف الله في قلوبهم الرعب فرجعوا.

ج. وقيل: المراد بالناس أهل مكة ومن والاها حيث لم يقاتلوه ﷺ ورضوا بالصلح.

٥. ﴿وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ﴾:

أ. عطف على مقدر أي وعدهم الله بهذه الإثابة إثابة الفتح والغنائم الكثيرة المعجلة والمؤجلة لمصالح كذا وكذا ولتكون آية للمؤمنين أي علامة وأمارة تدلهم على أنهم على الحق وأن ربهم صادق في وعده ونبيهم ﷺ صادق في إنبائه.

ب. وقد اشتملت السورة على عدة من أنباء الغيب فيها هدى للمتقين كقوله: ﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرابِ شَغَلَتْنا﴾، وقوله: ﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ﴾، وقوله: ﴿قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرابِ سَتُدْعَوْنَ﴾، وما في هذه الآيات من وعد الفتح والمغانم، وقوله بعد: ﴿وَأُخْرى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْها﴾، وقوله بعد: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيا﴾

٦. ﴿وَيَهْدِيَكُمْ صِراطاً مُسْتَقِيماً﴾ عطف على ﴿لِتَكُونَ﴾ أي وليهديكم صراطا مستقيما وهو الطريق الموصل إلى إعلاء كلمة الحق وبسط الدين، وقيل: هو الثقة بالله والتوكل عليه في كل ما تأتون وتذرون، وما ذكرناه أوفق للسياق.

٧. ﴿وَأُخْرى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْها قَدْ أَحاطَ اللهُ بِها وَكانَ اللهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً﴾:

أ. أي وغنائم أخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها إحاطة قدرة وكان الله على كل شيء قديرا.

ب. فقوله: ﴿أُخْرى﴾ مبتدأ و﴿لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْها﴾ صفته وقوله: ﴿قَدْ أَحاطَ اللهُ بِها﴾ خبره الثاني وخبره الأول محذوف، وتقدير الكلام: وثمة غنائم أخرى قد أحاط الله بها.

ج. وقيل: قوله: ﴿أُخْرى﴾ في موضع نصب بالعطف على قوله: ﴿هذِهِ﴾ والتقدير: وعجل لكم

غنائم أخرى، وقيل: في موضع نصب بفعل محذوف، والتقدير: وقضى غنائم أخرى، وقيل: في موضع جر بتقدير رب والتقدير: ورب غنائم أخرى وهذه وجوه لا يخلو شيء منها من وهن.

د. والمراد بالأخرى في الآية، على ما قيل، غنائم هوازن، وقيل: المراد غنائم فارس والروم، وقيل: المراد فتح مكة والموصوف محذوف، والتقدير: وقرية أخرى لم تقدروا عليها أي على فتحها، وأول الوجوه أقربها.

١٥. سنّة الله في نصر المؤمنين وخذلان الكافرين:

المقطع [١٥] من سورة الفتح، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا سُنَّةَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلًا﴾ [الفتح: ٢٢ـ٢٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ٢٨٧»:

١. ﴿وَلَوْ قاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبارَ ثُمَّ لا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلا نَصِيراً﴾ خبر آخر ينبئهم الله سبحانه ضعف الكفار عن قتال المؤمنين بأنفسهم وأن ليس لهم ولي يتولى أمرهم ولا نصير ينصرهم، ويتخلص في أنهم لا يقوون في أنفسهم على قتالكم ولا نصير لهم من الأعراب ينصرهم، وهذا في نفسه بشرى للمؤمنين.

٢. ﴿سُنَّةَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً﴾ ﴿سُنَّةَ اللهِ﴾ مفعول مطلق لفعل مقدر أي سن سنة الله أي هذه سنة قديمة له سبحانه أن يظهر أنبياءه والمؤمنين بهم إذا صدقوا في إيمانهم وأخلصوا نياتهم على أعدائهم من الذين كفروا ﴿وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً﴾ كما قال تعالى: ﴿كَتَبَ اللهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ [المجادلة: ٢١]، ولم يصب المسلمون في شيء من غزواتهم إلا بما خالفوا الله ورسوله بعض المخالفة.

١٦. كف أيدي الكفار عن المؤمنين في بطن مكة:

المقطع [١٦] من سورة الفتح، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ [الفتح: ٢٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ٢٨٧»:

١. ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾، الظاهر

أن المراد بكف أيدي كل من الطائفتين عن الأخرى ما وقع من الصلح بين الفئتين بالحديبية وهي بطن مكة لقربها منها واتصالها بها حتى قيل إن بعض أراضيها من الحرم وذلك أن كلا من الفئتين كانت أعدى عدو للأخرى وقد اهتمت قريش بجمع المجموع من أنفسهم ومن الأحابيش، وبايع المؤمنون النبي ﷺ على أن يقاتلوا، وعزم النبي ﷺ على أن يناجز القوم، وقد أظفر الله النبي والذين آمنوا على الكفار حيث دخلوا أرضهم وركزوا أقدامهم في عقر دارهم فلم يكن ليتوهم بينهم إلا القتال لكن الله سبحانه كف أيدي الكفار عن المؤمنين وأيدي المؤمنين عن الكفار بعد إظفار المؤمنين عليهم وكان الله بما يعملون بصيرا.

١٧. صد الكفار عن المسجد الحرام:

المقطع [١٧] من سورة الفتح، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفتح: ٢٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ٢٨٨»:

١. ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفاً أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ﴾:

أ. العكوف على أمر هو الإقامة عليه، والمعكوف، كما في المجمع: (الممنوع من الذهاب إلى جهة بالإقامة في مكانه، ومنه الاعتكاف وهو الإقامة في المسجد للعبادة.

ب. والمعنى: المشركون مشركو مكة هم الذين كفروا ومنعوكم عن المسجد الحرام ومنعوا الهدي، الذي سقتموه، حال كونه محبوسا من أن يبلغ محله أي الموضع الذي ينحر أو يذبح فيه وهو مكة التي ينحر أو يذبح فيها هدي العمرة كما أن هدي الحج ينحر أو يذبح في منى، وقد كان النبي ﷺ ومن معه من المؤمنين محرمين للعمرة ساقوا هديا لذلك.

٢. ﴿وَلَوْلا رِجالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِساءٌ مُؤْمِناتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَؤُهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾:

أ. الوطء الدوس، والمعرة المكروه، وقوله: ﴿أَنْ تَطَؤُهُمْ﴾ بدل اشتمال من مدخول لو لا، وجواب لولا محذوف، والتقدير: ما كف أيديكم عنهم.

ب. والمعنى: ولو لا أن تدوسوا رجالا مؤمنين ونساء مؤمنات بمكة وأنتم جاهلون بهم لا تعلمون

فتصيبكم من قتلهم وإهلاكهم مكروه لما كف الله أيديكم عنهم.

٣. ﴿لِيُدْخِلَ اللهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشاءُ﴾:

أ. اللام متعلق بمحذوف، والتقدير: ولكن كف أيديكم عنهم ليدخل في رحمته أولئك المؤمنين والمؤمنات غير المتميزين بسلامتهم من القتل وإياكم بحفظكم من أصابه المعرة.

ب. وقيل: المعنى: ليدخل في رحمته من أسلم من الكفار بعد الصلح.

٤. ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذاباً أَلِيماً﴾ التزيل التفرق وضمير ﴿تَزَيَّلُوا﴾ لجميع من تقدم ذكره من المؤمنين والكفار من أهل مكة أي لو تفرقوا بأن يمتاز المؤمنون من الكفار لعذبنا الذين كفروا من أهل مكة عذابا أليما لكن لم نعذبهم لحرمة من اختلط بهم من المؤمنين.

٥. أحاديث وآثار: في كمال الدين، بإسناده عن منصور بن حازم عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله عز وجل: ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذاباً أَلِيماً﴾ قال: لو أخرج الله ما في أصلاب المؤمنين من الكافرين، وما في أصلاب الكافرين من المؤمنين، لعذبنا الذين كفروا.

• أقول: وهذا المعنى مروي في روايات أخر.

١٨. الكفار وحمية الجاهلية والمؤمنون والسكينة وكلمة التقوى:

المقطع [١٨] من سورة الفتح، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [الفتح: ٢٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ٢٨٩»:

١. ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾:

أ. قال الراغب: (وعبر عن القوة الغضبية إذا ثارت وكثرت بالحمية فيقال: حميت على فلان أي غضبت عليه قال تعالى: ﴿حَمِيَّةَ الْجاهِلِيَّةِ﴾ وعن ذلك أستعير قولهم: حميت المكان حمى)

ب. والظرف في قوله: ﴿إِذْ جَعَلَ﴾ متعلق بقوله سابقا: ﴿وَصَدُّوكُمْ﴾ وقيل: متعلق بقوله: ﴿لَعَذَّبْنَا﴾ وقيل: متعلق باذكر المقدر، والجعل بمعنى الإلقاء و﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فاعله والحمية مفعوله و﴿حَمِيَّةَ الْجاهِلِيَّةِ﴾ بيان للحمية والجاهلية وصف موضوع في موضع الموصوف والتقدير الملة الجاهلية.

ج. ولو كان ﴿جَعَلَ﴾ بمعنى صير كان مفعوله الثاني مقدرا والتقدير إذ جعل الذين كفروا الحمية

راسخة في قلوبهم ووضع الظاهر موضع الضمير في قوله: ﴿جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ للدلالة على سبب الحكم.

د. ومعنى الآية: هم الذين كفروا وصدوكم إذ ألقوا في قلوبهم الحمية حمية الملة الجاهلية.

٢. أحاديث وآثار: أخرج ابن أبي شيبة وأحمد والبخاري ومسلم والنسائي وابن جرير والطبراني وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن سهل بن حنيف أنه قال يوم صفين: اتهموا أنفسكم، فلقد رأيتنا يوم الحديبية نرجئ الصلح، الذي كان بين النبي ﷺ وبين المشركين، ولو نرى قتالا لقاتلنا، فجاء عمر إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، ألسنا على الحق وهم على الباطل؟ قال: بلى، قال: أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار؟ قال: بلى، قال: ففيم نعطي الدنية في ديننا؟ ونرجع ولما يحكم الله بيننا وبينهم؟ قال: يا ابن الخطاب إني رسول الله ولن يضيعني الله أبدا، فرجع متغيظا فلم يصبر حتى جاء أبا بكر، فقال: يا أبا بكر ألسنا على الحق وهم على الباطل؟ قال: بلى، قال: أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار؟ قال: بلى، قال: فلم نعطي الدنية في ديننا؟ قال: يا ابن الخطاب، إنه رسول الله ولن يضيعه الله أبدا فنزلت سورة الفتح، فأرسل رسول الله ﷺ إلى عمر فأقرأه إياها، فقال: يا رسول الله أوفتح هو؟ قال: نعم.

٣. ﴿فَأَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ تفريع على قوله: ﴿جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ويفيد نوعا من المقابلة كأنه قيل: جعلوا في قلوبهم الحمية فقابله الله سبحانه بإنزال السكينة على رسوله وعلى المؤمنين فاطمأنت قلوبهم ولم يستخفهم الطيش وأظهروا السكينة والوقار من غير أن يستفزهم الجهالة.

٤. ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾:

أ. أي جعلها معهم لا تنفك عنهم، وهي على ما اختاره جمهور المفسرين كلمة التوحيد وقيل: المراد الثبات على العهد والوفاء به وقيل: المراد بها السكينة وقيل: قولهم: بلى في عالم الذر، وهو أسخف الأقوال.

ب. ولا يبعد أن يراد بها روح الإيمان التي تأمر بالتقوى كما قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢]، وقد أطلق الله الكلمة على الروح في قوله: ﴿وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ [النساء: ١٧١]

٥. ﴿وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾:

أ. أما كونهم أحق بها فلتمام استعدادهم لتلقي هذه العطية الإلهية بما عملوا من الصالحات فهم

أحق بها من غيرهم، وأما كونهم أهلها فلأنهم مختصون بها لا توجد في غيرهم وأهل الشيء خاصته.

ب. وقيل: المراد وكانوا أحق بالسكينة وأهلها، وقيل: إن في الكلام تقديما وتأخيرا والأصل وكانوا أهلها وأحق بها وهو كما ترى.

٦. ﴿وَكانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً﴾ تذييل لقوله: ﴿وَكانُوا أَحَقَّ بِها وَأَهْلَها﴾ أو لجميع ما تقدم، والمعنى على الوجهين ظاهر.

٧. أحاديث وآثار:

أ. في كمال الدين بإسناده عن جميل قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قوله تعالى: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوى﴾ قال: هو الإيمان.

ب. أخرج الترمذي وعبد الله بن أحمد في زوائد المسند وابن جرير والدارقطني في الإفراد وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات عن أبي بن كعب عن النبي ﷺ: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوى﴾ قال: لا إله إلا الله.

• أقول: وروي هذا المعنى أيضا بطرق أخرى عن علي وسلمة بن الأكوع وأبي هريرة، وروي أيضا من طرق الشيعة كما في العلل، بإسناده عن الحسن بن عبد الله عن آبائه عن جده الحسن بن علي عليه السلام عن النبي ﷺ: في حديث يفسر فيه (سبحان الله والحمد لله، ولا إله إلا الله والله أكبر) قال ﷺ: وقوله: لا إله إلا الله يعني وحدانيته، لا يقبل الله الأعمال إلا بها، وهي كلمة التقوى، يثقل الله بها الموازين يوم القيامة.

١٩. تصديق رؤيا النبي بدخول المسجد الحرام آمناً:

المقطع [١٩] من سورة الفتح، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرامَ إِنْ شاءَ اللهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لا تَخافُونَ فَعَلِمَ ما لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذلِكَ فَتْحاً قَرِيباً﴾ [الفتح: ٢٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ٢٩٠»:

١. ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيا بِالْحَقِّ﴾:

أ. قيل: إن صدق وكذب مخففين يتعديان إلى مفعولين يقال: صدقت زيدا الحديث وكذبته الحديث، وإلى المفعول الثاني بفي يقال: صدقته في الحديث وكذبته فيه، ومثقلين يتعديان إلى مفعول واحد يقال: صدقته في حديثه وكذبته في حديثه.

ب. واللام في ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللهُ﴾ للقسم، وقوله: ﴿لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرامَ﴾ جواب القسم.

٢. ﴿بِالْحَقِ﴾ حال من الرؤيا والباء فيه للملابسة، والتعليق بالمشية في قوله: ﴿إِنْ شاءَ اللهُ﴾ لتعليم العباد والمعنى: أقسم لقد صدق الله رسوله في الرؤيا التي أراه لتدخلن أيها المؤمنون المسجد الحرام إن شاء الله حال كونكم آمنين من شر المشركين محلقين رءوسكم ومقصرين لا تخافون المشركين.

٣. ﴿فَعَلِمَ ما لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذلِكَ فَتْحاً قَرِيباً﴾

أ. ﴿ذلِكَ﴾ إشارة إلى ما تقدم من دخولهم المسجد الحرام آمنين.

ب. والمراد بقوله: ﴿مِنْ دُونِ ذلِكَ﴾ أقرب من ذلك والمعنى: فعلم تعالى من المصلحة في دخولكم المسجد الحرام آمنين ما جهلتموه ولم تعلموه، ولذلك جعل قبل دخولكم كذلك فتحا قريبا ليتيسر لكم الدخول كذلك.

٤. ومن هنا يظهر أن المراد بالفتح القريب في هذه الآية فتح الحديبية فهو الذي سوى للمؤمنين الطريق لدخول المسجد الحرام آمنين ويسر لهم ذلك ولو لا ذلك لم يمكن لهم الدخول فيه إلا بالقتال وسفك الدماء ولا عمرة مع ذلك لكن صلح الحديبية وما اشترط من شرط أمكنهم من دخول المسجد معتمرين في العام القابل.

٥. ومن هنا تعرف أن قول بعضهم: إن المراد بالفتح القريب في الآية فتح خيبر بعيد من السياق، وأما القول بأنه فتح مكة فأبعد.

٦. وسياق الآية يعطي:

أ. أن المراد بها إزالة الريب عن بعض من كان مع النبي ﷺ فإن المؤمنين كانوا يزعمون من رؤيا رآها النبي ﷺ من دخولهم المسجد آمنين محلقين رءوسهم ومقصرين، أنهم سيدخلونه كذلك في عامهم ذلك فلما خرجوا قاصدين مكة معتمرين فاعترضهم المشركون بالحديبية وصدوهم عن المسجد الحرام ارتاب بعضهم في الرؤيا فأزال الله ريبهم بما في الآية.

ب. ومحصله: أن الرؤيا حقة أراها الله نبيه ﷺ وقد صدق تعالى في ذلك، وستدخلون المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رءوسكم ومقصرين لا تخافون، لكنه تعالى أخره وقدم عليه هذا الفتح وهو صلح الحديبية ليتيسر لكم دخوله لعلمه تعالى بأنه لا يمكن لكم دخوله آمنين محلقين رءوسكم ومقصرين لا

تخافون إلا بهذا الطريق.

٧. أحاديث وآثار:

أ. في المجمع في قصة فتح خيبر قال: ولما قدم رسول الله ﷺ المدينة من الحديبية، مكث بها عشرين ليلة ثم خرج منها غاديا إلى خيبر.

ب. ذكر ابن إسحاق بإسناده إلى أبي مروان الأسلمي عن أبيه عن جده قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى خيبر، حتى إذا كنا قريبا منها وأشرفنا عليها، قال رسول الله ﷺ: قفوا فوقف الناس، فقال اللهم رب السماوات السبع وما أظللن، ورب الأرضين السبع وما أقللن، ورب الشياطين وما أضللن، إنا نسألك خير هذه القرية وخير أهلها وخير ما فيها، ونعوذ بك من شر هذه القرية وشر أهلها وشر ما فيها، أقدموا بسم الله.

ج. وعن سلمة بن الأكوع قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى خيبر فسرنا ليلا، فقال رجل من القوم لعامر بن الأكوع: ألا تسمعنا من هنيهاتك وكان عامر رجلا شاعرا فجعل يقول:

لا هم لولا أنت ما حجينا...ولا تصدقنا ولا صلينا

فاغفر فداء لك ما اقتنينا...وثبت الأقدام إن لاقينا

وأنزلن سكينة علينا...إنا إذا صيح بنا أتينا

وبالصياح عولوا علينا

فقال رسول الله ﷺ: من هذا السائق؟ قالوا: عامر، قال: يرحمه الله، قال عمر وهو على جمل له وجيب: يا رسول الله لولا أمتعتنا به، وذلك أن رسول الله ﷺ ما استغفر لرجل قط يخصه إلا استشهد، قالوا: فلما جد الحرب وتصاف القوم خرج يهودي وهو يقول:

قد علمت خيبر أني مرحب...شاكي السلاح بطل مجرب

إذا الحروب أقبلت تلهب

فبرز إليه عامر وهو يقول:

قد علمت خيبر أني عامر...شاكي السلاح بطل مغامر

فاختلفا ضربتين فوقع سيف اليهودي في ترس عامر، وكان سيف عامر فيه قصر، فتناول به ساق

اليهودي ليضربه فرجع ذباب سيفه، فأصاب عين ركبة عامر فمات منه، قال سلمة: فإذا نفر من أصحاب رسول الله ﷺ يقولون: بطل عمل عامر قتل نفسه، قال: فأتيت النبي ﷺ وأنا أبكي، فقلت: قالوا: إن عامرا بطل عمله، فقال: من قال ذلك؟ قلت: نفر من أصحابك، فقال: كذب أولئك بل أوتي من الأجر مرتين، قال: فحاصرناهم حتى أصابنا مخمصة شديدة، ثم إن الله فتحها علينا، وذلك أن النبي ﷺ أعطى اللواء عمر بن الخطاب، ونهض من نهض معه من الناس، فلقوا أهل خيبر فانكشف عمر وأصحابه، فرجعوا إلى رسول الله يجبنه أصحابه ويجبنهم، وكان رسول الله ﷺ أخذته الشقيقة فلم يخرج إلى الناس، فقال حين أفاق من وجعه: ما فعل الناس بخيبر؟ فأخبر، فقال: لأعطين الراية غدا رجلا يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله كرارا غير فرار، لا يرجع حتى يفتح الله على يديه.

د. وروى البخاري ومسلم عن قتيبة بن سعيد قال: حدثنا يعقوب عن عبد الرحمن الإسكندراني عن أبي حازم قال: أخبرني سعد بن سهل: أن رسول الله ﷺ قال يوم خيبر: لأعطين هذه الراية غدا رجلا يفتح الله على يديه، يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله، قال: فبات الناس يدوكون بجملتهم أنهم يعطاها؟ فلما أصبح الناس غدوا على رسول الله ﷺ، كلهم يرجون أن يعطاها، فقال: أين علي بن أبي طالب؟ فقالوا: يا رسول الله هو يشتكي عينيه، قال: فأرسلوا إليه فأتي به، فبصق رسول الله ﷺ في عينيه، فبرأ كأن لم يكن به وجع فأعطاه الراية، فقال علي: يا رسول الله أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا، قال: أنفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم، ثم أدعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله، فوالله لأن يهدي الله بك رجلا واحدا، خير لك من أن يكون لك حمر النعم، قال سلمة: فبرز مرحب وهو يقول: قد علمت خيبر أني مرحب.، الأبيات، فبرز له علي وهو يقول:

أنا الذي سمتني أمي حيدرة...كليث غابات كريه المنظرة

أوفيهم بالصاع كيل السندرة

فضرب مرحبا ففلق رأسه فقتله وكان الفتح على يده، أورده مسلم في صحيحة.

هـ. وروى أبو عبد الله الحافظ بإسناده عن أبي رافع مولى رسول الله ﷺ قال: خرجنا مع علي حين بعثه رسول الله ﷺ، فلما دنا من الحصن خرج إليه أهله فقاتلهم فضربه رجل من اليهود فطرح ترسه من يده، فتناول علي باب الحصن فترس به عن نفسه، فلم يزل في يده وهو يقاتل حتى فتح الله عليه، ثم ألقاه

من يده، فلقد رأيتني في نفر مع سبعة أنا ثامنهم، نجهد على أن نقلب ذلك الباب فما استطعنا أن نقلبه.

و. وبإسناده عن ليث بن أبي سليم عن أبي جعفر محمد بن علي قال: حدثني جابر بن عبد الله: أن عليا حمل الباب يوم خيبر، حتى صعد المسلمون عليه فاقتحموها، وأنه حرك بعد ذلك فلم يحمله أربعون رجلا.

ز. قال: وروي من وجه آخر عن جابر: ثم اجتمع عليه سبعون رجلا فكان جهدهم أن أعادوا الباب.

ح. وبإسناده عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: كان علي يلبس في الحر والشتاء القباء، المحشو الثخين وما يبالي الحر، فأتاني أصحابي فقالوا: إنا رأينا من أمير المؤمنين شيئا فهل رأيت؟ فقلت: وما هو؟ قالوا: رأيناه يخرج علينا في الحر الشديد، في القباء المحشو الثخين وما يبالي الحر، ويخرج علينا في البرد الشديد في الثوبين الخفيفين، وما يبالي البرد فهل سمعت في ذاك شيئا؟ فقلت: لا فقالوا: فسل لنا أباك عن ذلك، فإنه يسمر معه فسألته، فقال: ما سمعت في ذلك شيئا، فدخل على علي فسمر معه ثم سأله عن ذلك، فقال: أوما شهدت خيبر؟ قلت: بلى، قال: أفما رأيت رسول الله حين دعا أبا بكر، فعقد له ثم بعثه إلى القوم فانطلق فلقي القوم، ثم جاء بالناس وقد هزم ثم بعث إلى عمر، فعقد له ثم بعثه إلى القوم فانطلق فلقي القوم، فقاتلهم ثم رجع وقد هزم، فقال رسول الله ﷺ: لأعطين الراية اليوم، رجلا يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله، يفتح الله على يديه كرارا غير فرار، فدعاني وأعطاني الراية ثم قال: اللهم اكفه الحر والبرد، فما وجدت بعد ذلك حرا ولا بردا وهذا كله منقول من كتاب دلائل النبوة للإمام أبي بكر البيهقي.

ط. قال الطبرسي: ثم لم يزل رسول الله ﷺ، يفتح الحصون حصنا حصنا ويحوز الأموال، حتى انتهوا إلى حصن الوطيح والسلالم، وكان آخر حصون خيبر افتتح، وحاصرهم رسول الله ﷺ بضع عشرة ليلة.

ي. قال ابن إسحاق: ولما افتتح القموص حصن أبي الحقيق، أتى رسول الله ﷺ بصفية بنت حيي بن أخطب، وبأخرى معها فمر بهما بلال، وهو الذي جاء بهما، على قتلى من قتلى يهود، فلما رأتهم التي معها صفية صاحت وصكت وجهها، وحثت التراب على رأسها، فلما رآها رسول الله ﷺ قال: أعزبوا عني هذه الشيطانة، وأمر بصفية فحيزت خلفه وألقى عليها رداءه، فعرف المسلمون أنه قد اصطفاها لنفسه، وقال

لبلال لما رأى من تلك اليهودية ما رأى: أنزعت منك الرحمة يا بلال، حيث تمر بامرأتين على قتلى رجالهما؟ وكانت صفية قد رأت في المنام، وهي عروس بكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق، أن قمرا وقع في حجرها فعرضت رؤياها على زوجها، فقال: ما هذا إلا أنك تتمنين ملك الحجاز محمدا، ولطم وجهها لطمة اخضرت عينها منها، فأتي بها رسول الله ﷺ وبها أثر منها، فسألها رسول الله ﷺ ما هو؟ فأخبرته، وأرسل ابن أبي الحقيق إلى رسول الله ﷺ أنزل فأكلمك؟ قال: نعم، فنزل وصالح رسول الله ﷺ، على حقن دماء من في حصونهم من المقاتلة، وترك الذرية لهم، ويخرجون من خيبر وأرضها بذراريهم، ويخلون بين رسول الله ﷺ وبين ما كان لهم، من مال وأرض على الصفراء والبيضاء والكراع والحلقة وعلى البز إلا ثوبا على ظهر إنسان، وقال رسول الله ﷺ فبرئت منكم ذمة الله وذمة رسوله، إن كتمتموني شيئا فصالحوه على ذلك، فلما سمع بهم أهل فدك قد صنعوا ما صنعوا، بعثوا إلى رسول الله ﷺ يسألونه أن يسيرهم، ويحقن دماءهم ويخلون بينه وبين الأموال، ففعل وكان ممن مشى بين رسول الله ﷺ، وبينهم في ذلك محيصة بن مسعود أحد بني حارثة، فلما نزل أهل خيبر على ذلك، سألوا رسول الله ﷺ أن يعاملهم الأموال على النصف، وقالوا: نحن أعلم بها منكم وأعمر لها، فصالحهم رسول الله ﷺ على النصف، على أنا إذا شئنا أن نخرجكم أخرجناكم، وصالحه أهل فدك على مثل ذلك، فكانت أموال خيبر فيئا بين المسلمين، وكانت فدك خالصة لرسول الله ﷺ، لأنهم لم يوجفوا عليها بخيل ولا ركاب، ولما اطمأن رسول الله ﷺ، أهدت له زينب بنت الحارث، امرأة سلام بن مشكم وهي ابنة أخي مرحب شاة مصلية، وقد سألت أي عضو أحب إلى رسول الله ﷺ، فقيل لها: الذراع فأكثرت فيها السم، وسمت سائر الشاة ثم جاءت بها، فلما وضعتها بين يديه تناول الذراع، فأخذها ولاك منها مضغة وانتهش منها، ومعه بشر بن البراء بن معرور فتناول عظما فانتهش منه، فقال رسول الله ﷺ: ارفعوا أيديكم، فإن كتف هذه الشاة يخبرني أنها مسمومة، ثم دعاها فاعترفت فقال: ما حملك على ذلك؟ فقالت: بلغت من قومي ما لم يخف عليك، فقلت: إن كان نبيا فسيخبر، وإن كان ملكا استرحت منه، فتجاوز عنها رسول الله ﷺ، ومات بشر بن البراء من أكلته التي أكل، قال: ودخلت أم بشر بن البراء على رسول الله ﷺ، يعوده في مرضه الذي توفي فيه، فقال ﷺ: يا أم بشر ما زالت أكلة خيبر، التي أكلت بخيبر مع ابنك تعاودني، فهذا أوان قطعت أبهري، وكان المسلمون يرون أن رسول الله ﷺ مات شهيدا، مع ما أكرمه الله به من النبوة.

٢٠. إرسال الرسول بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله:

المقطع [٢٠] من سورة الفتح، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [الفتح: ٢٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ٢٩١»:

١. ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾، تقدم تفسيره في سورة التوبة [الآية: ٣٣]

٢. ﴿وَكَفى بِاللهِ شَهِيداً﴾ أي شاهدا على صدق نبوته والوعد إن دينه سيظهر على الدين كله أو على أن رؤياه صادقة، فالجملة تذييل ناظر إلى نفس الآية أو الآية السابقة.

٢١. صفات من تشرفوا بمعيّة النبي:

المقطع [٢١] من سورة الفتح، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ [الفتح: ٢٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ٢٩٩»:

١. ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ﴾، الظاهر أنه مبتدأ وخبر فهو كلام تام، وقيل: ﴿مُحَمَّدٌ﴾ خبر مبتدإ محذوف وهو ضمير عائد إلى الرسول في الآية السابقة والتقدير: هو محمد، و﴿رَسُولُ اللهِ﴾ عطف بيان أو صفة أو بدل، وقيل: ﴿مُحَمَّدٌ﴾ مبتدأ و﴿رَسُولُ اللهِ﴾ عطف بيان أو صفة أو بدل و﴿الَّذِينَ مَعَهُ﴾ معطوف على المبتدإ و﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ﴾، خبر المبتدإ.

٢. ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَماءُ بَيْنَهُمْ﴾:

أ. مبتدأ وخبر، فالكلام مسوق لتوصيف الذين معه والشدة والرحمة المذكورتان من نعوتهم.

ب. وتعقيب قوله: ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ﴾ بقوله: ﴿رُحَماءُ بَيْنَهُمْ﴾ لدفع ما يمكن أن يتوهم أن كونهم أشداء على الكفار يستوجب بعض الشدة فيما بينهم فدفع ذلك بقوله: ﴿رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ وأفادت الجملتان أن سيرتهم مع الكفار الشدة ومع المؤمنين فيما بينهم الرحمة.

٣. ﴿تَراهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً﴾ الركع والسجد جمعا راكع وساجد، والمراد بكونهم ركعا سجدا إقامتهم للصلاة، و﴿تَراهُمْ﴾ يفيد الاستمرار، والمحصل: أنهم مستمرون على الصلاة، والجملة خبر بعد خبر

للذين معه.

٤. ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللهِ وَرِضْواناً﴾:

أ. الابتغاء الطلب، والفضل العطية وهو الثواب، والرضوان أبلغ من الرضا.

ب. والجملة إن كانت مسوقة لبيان غايتهم من الركوع والسجود كان الأنسب أن تكون حالا من ضمير المفعول في ﴿تَراهُمْ﴾ وإن كانت مسوقة لبيان غايتهم من الحياة مطلقا كما هو الظاهر كانت خبرا بعد خبر للذين معه.

٥. ﴿سِيماهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾:

أ. السيما العلامة و﴿سِيماهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ﴾ مبتدأ وخبر و﴿مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ حال من الضمير المستكن في الخبر أو بيان للسيما أي إن سجودهم لله تذللا وتخشعا أثر في وجوههم أثرا وهو سيما الخشوع لله يعرفهم به من رآهم، ويقرب من هذا المعنى ما عن الصادق عليه السلام أنه السهر في الصلاة

ب. وقيل: المراد أثر التراب في جباههم لأنهم كانوا إنما يسجدون على التراب لا على الأثواب.

ج. وقيل: المراد سيماهم يوم القيامة فيكون موضع سجودهم يومئذ مشرقا مستنيرا.

٢٢. مثل من تشرفوا بمعيّة النبي وجزاؤهم:

المقطع [٢٢] من سورة الفتح، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ٢٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ٣٠٠»:

١. ﴿ذلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْراةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ﴾:

أ. المثل هو الصفة أي الذي وصفناهم به من أنهم أشداء على الكفار رحماء بينهم إلخ، وصفهم الذي وصفناهم به في الكتابين التوراة والإنجيل.

ب. فقوله: ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ﴾ معطوف على قوله: ﴿مَثَلُهُمْ فِي التَّوْراةِ﴾ وقيل: إن قوله: ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ﴾، استئناف منقطع عما قبله، وهو مبتدأ خبره قوله: ﴿كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ﴾، فيكون وصفهم في التوراة هو أنهم أشداء على الكفار، إلى قوله ـ: ﴿مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾، ووصفهم في الإنجيل هو

أنهم كزرع أخرج شطأه.

٢. ﴿كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوى عَلى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ﴾:

أ. شطء النبات أفراخه التي تتولد منه وتنبت حوله، والإيزار الإعانة، والاستغلاظ الأخذ في الغلظة، والسوق جمع ساق، والزراع جمع زارع.

ب. والمعنى: هم كزرع أخرج أفراخه فأعانها فقويت وغلظت وقام على سوقه يعجب الزارعين بجودة رشده.

ج. وفيه إشارة إلى أخذ المؤمنين في الزيادة والعدة والقوة يوما فيوما ولذلك عقبه بقوله: ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾

٣. ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً﴾:

أ. ضمير ﴿مِنْهُمْ﴾ للذين معه، و﴿مِنَ﴾ للتبعيض على ما هو الظاهر المتبادر من مثل هذا النظم ويفيد الكلام اشتراط المغفرة والأجر العظيم بالإيمان حدوثا وبقاء وعمل الصالحات فلو كان منهم من لم يؤمن أصلا كالمنافقين الذين لم يعرفوا بالنفاق كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفاقِ لا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ [التوبة: ١٠١]، أو آمن أولا ثم أشرك وكفر كما في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلى أَدْبارِهِمْ مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى﴾، إلى أن قال، ﴿وَلَوْ نَشاءُ لَأَرَيْناكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيماهُمْ﴾ سورة [محمد: ٣٠]، أو آمن ولم يعمل الصالحات كما يستفاد من آيات الإفك وآية التبين في نبأ الفاسق وأمثال ذلك لم يشمله وعد المغفرة والأجر العظيم.

ب. ونظير هذا الاشتراط ما تقدم في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبايِعُونَكَ إِنَّما يُبايِعُونَ اللهَ يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّما يَنْكُثُ عَلى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفى بِما عاهَدَ عَلَيْهُ اللهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً﴾ ويؤيده أيضا ما فهمه ابن عباس من قوله تعالى: ﴿فَعَلِمَ ما فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾ حيث فسره بقوله: إنما أنزلت السكينة على من علم منه الوفاء، وقد تقدمت الرواية.

ج. ونظير الآية أيضا في الاشتراط قوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾، إلى أن قال، ﴿وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ الْفاسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥]

د. وقيل: إن ﴿مِنَ﴾ في الآية بيانية لا تبعيضية فتفيد شمول الوعد لجميع الذين معه، وهو مدفوع،

كما قيل، بأن (من) البيانية لا تدخل على الضمير مطلقا في كلامهم، والاستشهاد لذلك بقوله تعالى: ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ﴾ مبني على إرجاع ضمير ﴿تَزَيَّلُوا﴾ إلى المؤمنين وضمير ﴿مِنْهُمْ﴾ للذين كفروا، وقد تقدم في تفسير الآية أن الضميرين جميعا راجعان إلى مجموع المؤمنين والكافرين من أهل مكة فتكون ﴿مَنْ﴾ تبعيضية لا بيانية.

هـ. وبعد ذلك كله لو كانت العدة بالمغفرة أو نفس المغفرة شملتهم شمولا مطلقا من غير اشتراط بالإيمان والعمل الصالح وكانوا مغفورين، آمنوا أو أشركوا وأصلحوا أو فسقوا، لزمته لزوما بينا لغوية جميع التكاليف الدينية في حقهم وارتفاعها عنهم وهذا مما يدفعه الكتاب والسنة فهذا الاشتراط ثابت في نفسه وإن لم يتعرض له في اللفظ، وقد قال تعالى في أنبيائه: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ ما كانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٨٨]، فأثبته في أنبيائه وهم معصومون فكيف فيمن هو دونهم.

٤. سؤال وإشكال: فإن قيل: اشتراط الوعد بالمغفرة والأجر العظيم بالإيمان والعمل الصالح اشتراط عقلي كما ذكر ولا سبيل إلى إنكاره لكن سياق قوله: ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ مِنْهُمْ﴾ يشهد باتصافهم بالإيمان وعمل الصالحات وأنهم واجدون للشرط، وخاصة بالنظر إلى تأخير ﴿مِنْهُمْ﴾ عن قوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ﴾ حيث يدل على أن عمل الصالحات لا ينفك عنهم بخلاف قوله في آية النور: ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ﴾ [النور: ٥٥]، كما ذكره بعضهم، ويؤيده أيضا قوله في مدحهم ﴿تَراهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللهِ وَرِضْواناً﴾ حيث يدل على الاستمرار، والجواب:

أ. أما تأخير ﴿مِنْهُمْ﴾ في الآية فليس للدلالة على كون العمل الصالح لا ينفك عنهم بل لأن موضوع الحكم هو مجموع ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ﴾ ولا يترتب على مجرد الإيمان من دون العمل الصالح أثر المغفرة والأجر ثم قوله: ﴿مِنْهُمْ﴾ متعلق بمجموع الموضوع فمن حقه أن يذكر بعد تمام الموضوع وهو (الذين آمنوا وعملوا الصالحات)، وأما تقدم الضمير في قوله: ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ﴾ فلانة مسوق سوق البشرى للمؤمنين والأنسب لها التسريع في خطاب من بشر بها لينشط بذلك وينبسط لتلقي البشرى.

ب. وأما دلالة قوله: ﴿تَراهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً﴾، على الاستمرار فإنما يدل عليه في ما مضى إلى أن

ينتهي إلى الحال، وأما في المستقبل فلا ومصب إشكال لغوية الأحكام إنما هو المستقبل دون الماضي إذ مغفرة الذنوب الماضية لا تزاحم تعلق التكليف بل تؤكده بخلاف تعلق المغفرة المطلقة بما سيأتي فإنه لا يجامع بقاء التكليف المولوي على اعتباره فيرتفع بذلك التكاليف وهو مقطوع البطلان، على أن ارتفاع التكاليف يستلزم ارتفاع المعصية ويرتفع بارتفاعها موضوع المغفرة فوجود المغفرة كذلك يستلزم عدمها،، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ٣٠٣»

سورة الحجرات

هذه السورة الكريمة تحتوي على [١٧] مقطعاً، وهذا تعريف بمقاصدها، ومحتويات مقاطعها:

مقاصد السورة ومحتوياتها:

أ. تتضمن السورة مسائل من شرائع الدين، بها تتم الحياة السعيدة للفرد، ويستقر النظام الصالح الطيب في المجتمع:

• منها ما هو أدب جميل للعبد مع الله سبحانه ومع رسوله، كما في الآيات الخمس في مفتتح السورة.

• ومنها ما يتعلق بالإنسان مع أمثاله من حيث وقوعهم في المجتمع الحيوي.

• ومنها ما يتعلق بتفاضل الأفراد، وهو من أهم ما ينتظم به الاجتماع المدني ويهدي الإنسان إلى الحياة السعيدة والعيش الطيب الهنيء، ويتميز به دين الحق من غيره من السنن الاجتماعية القانونية وغيرها.

ب. وتختتم السورة بالإشارة إلى حقيقة الإيمان والإسلام، وامتنانه تعالى بما يفيضه من نور الإيمان.

ج. والسورة مدنية بشهادة مضامين آياتها، سوى ما قيل في قوله تعالى: ﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثى﴾ الآية، وسيجيء.

مقاطع السورة ونظمها:

١. الآيات [١ ـ ١٠] لم يذكر البيان المرتبط بها، وهي تأمر بتوقير النبي ﷺ وعدم التقدم بين يديه، وتأمر بالتبين في الأخبار، وتأمر بالإصلاح بين المؤمنين إذا تخاصموا، وتقرر أن المؤمنين إخوة.

٢. الآيات [١١ ـ ١٨] لم يذكر البيان المرتبط بها، وهي تنهى عن السخرية واللمز والتنابز بالألقاب وسوء الظن والتجسس والغيبة، وتقرر أن أكرم الناس عند الله أتقاهم، وتذكر أن الإيمان الحقيقي هو ما استقر في القلب، وأن الله يعلم ما في السماوات والأرض.

١. تقديم طاعة الله والرسول والتقوى:

المقطع [١] من سورة الحجرات، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الحجرات: ١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ٣٠٥»:

١. ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾:

أ. بين يدي الشيء أمامه وهو استعمال شائع مجازي أو استعاري وإضافته إلى الله ورسوله معا لا إلى الرسول دليل على أنه أمر مشترك بينه تعالى وبين رسوله وهو مقام الحكم الذي يختص بالله سبحانه وبرسوله بإذنه كما قال تعالى: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا للهِ﴾ [يوسف: ٤٠]، وقال: ﴿وَما أَرْسَلْنا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطاعَ بِإِذْنِ اللهِ﴾ [النساء: ٦٤]

ب. ومن الشاهد على ذلك تصدير النهي بقوله: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وتذييله بقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ الظاهر في أن المراد بما بين يدي الله ورسوله هو المقام الذي يربط المؤمنين المتقين بالله ورسوله وهو مقام الحكم الذي يأخذون منه أحكامهم الاعتقادية والعملية.

ج. وبذلك يظهر أن المراد بقوله: ﴿لا تُقَدِّمُوا﴾ تقديم شيء ما من الحكم قبال حكم الله ورسوله إما بالاستباق إلى قول قبل أن يأخذوا القول فيه من الله ورسوله أو إلى فعل قبل أن يتلقوا الأمر به من الله ورسوله لكن تذييله تعالى النهي بقوله: ﴿إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ يناسب تقديم القول دون تقديم الفعل ودون الأعم الشامل للقول والفعل وإلا لقيل: إن الله سميع بصير ليحاذي بالسميع القول وبالبصير الفعل كما يأتي تعالى في كثير من موارد الفعل بمثل قوله: ﴿وَاللهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد: ٤]، فمحصل المعنى: أن لا تحكموا فيما لله ولرسوله فيه حكم إلا بعد حكم الله ورسوله أي لا تحكموا إلا بحكم الله ورسوله ولتكن عليكم سمة الاتباع والاقتفاء.

د. لكن بالنظر إلى أن كل فعل وترك من الإنسان لا يخلو من حكم له فيه وكذلك العزم والإرادة إلى فعل أو ترك يدخل الأفعال والتروك وكذا إرادتها والعزم عليها في حكم الاتباع، ويفيد النهي عن التقديم بين يدي الله ورسوله النهي عن المبادرة والإقدام إلى قول لم يسمع من الله ورسوله، وإلى فعل أو ترك أو عزم وإرادة بالنسبة إلى شيء منهما قبل تلقي الحكم من الله ورسوله فتكون الآية قريبة المعنى من قوله تعالى في صفة الملائكة: ﴿بَلْ عِبادٌ مُكْرَمُونَ لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٧]

هـ. وهذا الاتباع المندوب إليه بقوله: ﴿لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللهِ وَرَسُولِهِ﴾ هو الدخول في ولاية الله والوقوف في موقف العبودية والسير في مسيرها بجعل العبد مشيته تابعة لمشية الله في مرحلة التشريع كما أنها تابعة لها في مرحلة التكوين قال تعالى: ﴿وَما تَشاؤُنَ إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللهُ﴾ [الإنسان: ٣٠]، وقال: ﴿وَاللهُ

وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٦٨]، وقال: ﴿وَاللهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [الجاثية: ١٩]

و. وللقوم في قوله تعالى: ﴿لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللهِ وَرَسُولِهِ﴾ وجوه:

• منها: أن التقديم بمعنى التقدم فهو لازم ومعنى ﴿لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللهِ وَرَسُولِهِ﴾ لا تعجلوا بالأمر والنهي دون الله ورسوله ولا تقطعوا بالأمر والنهي دون الله ورسوله، وربما قيل: إن التقديم في الآية بمعناه المعروف لكنه مستعمل بالإعراض عن متعلقاته كقوله: ﴿يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ [الحديد: ٢]، فيئول المعنى إلى مجرد كون شيء قدام شيء فيرجع إلى معنى التقدم، واللفظ مطلق يشمل التقدم في قول أو فعل حتى التقدم على النبي ﷺ في المشية والجلسة، والتقدم بالطاعات الموقتة قبل وقتها وغير ذلك.

• ومنها: أن المراد النهي عن التكلم قبل رسول الله ﷺ أي إذا كنتم في مجلسه وسئل عن شيء فلا تسبقوه بالجواب حتى يجيب هو أولا.

• ومنها: أن المعنى: لا تسبقوه بقول أو فعل حتى يأمركم به.

• ومنها: أن المعنى: لا تقدموا أقوالكم وأفعالكم على قول النبي ﷺ وفعله ولا تمكنوا أحدا يمشي أمامه.

ز. والظاهر أن تفسير ﴿لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللهِ وَرَسُولِهِ﴾ بالنهي عن التقديم بين يدي رسول الله ﷺ فقط في هذه الوجوه الثلاثة الأخيرة مبني على حملهم ذكر الله تعالى مع رسوله في الآية على نوع من التشريف كقوله: أعجبني زيد وكرمه فيكون ذكره تعالى للإشارة إلى أن السبقة على النبي ﷺ على أي حال في معنى السبقة على الله سبحانه.

ح. ولعل التأمل فيما قدمناه من الوجه يكفيك في المنع عن المصير إلى شيء من هذه الوجوه.

٢. ﴿وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾:

أ. أمر بالتقوى في موقف الاتباع والعبودية ولا ظرف للإنسان إلا ظرف العبودية ولذلك أطلق التقوى.

ب. وفي قوله: ﴿إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ تعليل للنهي والتقوى فيه أي اتقوه بالانتهاء عن هذا النهي فلا تقدموا قولا بلسانكم ولا في سركم لأن الله سميع يسمع أقوالكم عليم يعلم ظاهركم وباطنكم وعلانيتكم وسركم.

٣. أحاديث وآثار: في المجمع في قوله تعالى: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ روى زرارة عن أبي جعفر عليه السلام أنه قال: ما سلت السيوف، ولا أقيمت الصفوف في صلاة ولا زحوف، ولا جهر بأذان، ولا أنزل الله: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ حتى أسلم أبناء قبيلة الأوس والخزرج.

• أقول: وعن ابن عباس أيضا: ما نزل ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ إلا بالمدينة، ولا ﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ إلا بمكة الخبر، وتوقف بعضهم في عموم ذيله، واعلم أن هناك روايات في الدر المنثور، وتفسير القمي، في سبب نزول قوله: ﴿لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللهِ وَرَسُولِهِ﴾ الآية لا تنطبق على الآية ذاك الانطباق تركناها من أراد الوقوف عليها فليراجعها.

٢. التحذير من رفع الصوت فوق صوت النبي:

المقطع [٢] من سورة الحجرات، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات: ٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ٣٠٧»:

١. ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْواتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾، وذلك بأن تكون أصواتهم عند مخاطبته وتكليمه ﷺ أرفع من صوته وأجهر لأن في ذلك كما قيل أحد شيئين: إما نوع استخفاف به وهو الكفر، وإما إساءة الأدب بالنسبة إلى مقامه وهو خلاف التعظيم والتوقير المأمور به.

٢. ﴿وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ فإن من التعظيم عند التخاطب أن يكون صوت المتكلم أخفض من صوت مخاطبه فمطلق الجهر بالخطاب فاقد لمعنى التعظيم فخطاب العظماء بالجهر فيه كخطاب عامة الناس لا يخلو من إساءة الأدب والوقاحة.

٣. ﴿أَنْ تَحْبَطَ أَعْمالُكُمْ وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ﴾:

أ. أي لئلا تحبط أو كراهة أن تحبط أعمالكم، وهو متعلق بالنهيين جميعا أي إنما نهيناكم عن رفع الصوت فوق صوته والجهر له بالقول كجهر بعضكم لبعض لئلا تبطل أعمالكم بذلك من حيث لا تشعرون فإن فيهما الحبط، وقد تقدم القول في الحبط في الجزء الثاني من الكتاب.

ب. وجوز بعضهم كون ﴿أَنْ تَحْبَطَ﴾، تعليلا للمنهي عنه وهو الرفع والجهر، والمعنى: فعلكم ذلك لأجل الحبوط منهي عنه، والفرق بين تعليله للنهي وتعليله للمنهي عنه أن الفعل المنهي عنه معلل

على الأول والفعل المعلل منهي عنه على الثاني، وفيه تكلف ظاهر.

ج. وظاهر الآية أن رفع الصوت فوق صوت النبي ﷺ والجهر له بالقول معصيتان موجبتان للحبط فيكون من المعاصي غير الكفر ما يوجب الحبط.

د. وقد توجه الآية بأن المراد بالحبط فقدان نفس العمل للثواب لا إبطال العمل ثواب سائر الأعمال كما في الكفر، قال في مجمع البيان: (وقال أصحابنا: أن المعنى في قوله: ﴿أَنْ تَحْبَطَ أَعْمالُكُمْ﴾ إنه ينحبط ثواب ذلك العمل لأنهم لو أوقعوه على وجه تعظيم النبي ﷺ وتوقيره لاستحقوا الثواب فلما أوقعوه على خلاف ذلك الوجه استحقوا العقاب وفاتهم ذلك الثواب فانحبط عملهم فلا تعلق لأهل الوعيد بهذه الآية، ولأنه تعالى علق الإحباط في هذه الآية بنفس العمل وهم يعلقونه بالمستحق على العمل وذلك خلاف الظاهر)

• وفيه أن الحبط المتعلق بالكفر الذي لا ريب في تعلقه بثواب الأعمال أيضا متعلق في كلامه بنفس الأعمال كما في هذه الآية فلتحمل هذه على ما حملت عليه ذلك من غير فرق، وكونه خلاف الظاهر ممنوع فإن بطلان العمل بطلان أثره المترتب عليه.

هـ. وقد توجه الآية أيضا بالبناء على اختصاص الحبط بالكفر بأن رفع الصوت فوق صوت النبي ﷺ والجهر له بالقول ليسا بمحبطين من حيث أنفسهما بل من حيث أدائهما أحيانا إلى إيذائه ﷺ وإيذاؤه كفر والكفر محبط للعمل، قال بعضهم: (المراد في الآية النهي عن رفع الصوت مطلقا ومعلوم أن ملاكه التحذر مما يتوقع فيه من إيذاء النبي ﷺ الذي هو كفر محبط للعمل بالاتفاق، فورد النهي عما هو مظنة أذاه، سواء وجد هذا المعنى أو لا، حماية للحومة وحسما للمادة، ثم لما كان هذا المنهي عنه منقسما إلى ما يبلغ حد الكفر وهو المؤذي له عليه الصلاة والسلام وإلى ما لا يبلغ ذلك المبلغ، ولا دليل يميز أحد القسمين من الآخر ولو فرض وجوده لم يلتفت إليه في كثير من الأحيان، لزم المكلف أن يكف عن ذلك مطلقا مخافة أن يقع فيما هو محبط للعمل وهو البالغ حد الأذى، وإلى التباس أحد القسمين بالآخر الإشارة بقوله تعالى: ﴿أَنْ تَحْبَطَ أَعْمالُكُمْ وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ﴾ وإلا فلو كان رفع الصوت والجهر بالقول منهيا عنهما مطلقا سواء بلغا حد الأذى أو لم يبلغا لم يكن موقع لقوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ﴾ إذ الأمر منحصر بين أن يكون رفع الصوت أو الجهر بالقول بالغا حد الأذى فيكون كفرا محبطا قطعا أو غير بالغ فيكون أيضا ذنبا محبطا قطعا

فالإحباط محقق على أي تقدير فلا موقع لإدعام الكلام بعدم الشعور مع أن الشعور ثابت مطلقا للعلم به بعد النهي)

• وفيه أن ظهور قوله: ﴿لا تَرْفَعُوا أَصْواتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ في النهي النفسي دون النهي المقدمي أخذا بالاحتياط مما لا ريب فيه لكن كلا من الفعلين مما يدرك كونه عملا سيئا عقلا قبل ورود النهي الشرعي عنه كالافتراء والإفك، وكان الذين يأتون بهما المؤمنين كما صدر النهي بقوله: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وهم وإن أمكن أن يسامحوا في بعض السيئات بحسبانه هينا لكنهم لا يرضون ببطلان إيمانهم وأعمالهم الصالحة من أصله.

• فنبه سبحانه بقوله: ﴿أَنْ تَحْبَطَ أَعْمالُكُمْ وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ﴾ على أنكم لا تشعرون بما لذلك من الأثر الهائل العظيم فإنما هو إحباط الأعمال فلا تقربوا شيئا منهما أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون.

• فقوله: ﴿وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ﴾ ناظر إلى حالهم قبل النهي حيث كانوا يشعرون بكون الفعل سيئة لكنهم ما كانوا يعلمون بعظمة مساءته لهذا الحد، وأما بعد صدور البيان الإلهي فهم شاعرون بالإحباط.

• فالآية من وجه نظيره قوله تعالى في آيات الإفك: ﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّناً وَهُوَ عِنْدَ اللهِ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٥]، وقوله في آيات القيامة: ﴿وَبَدا لَهُمْ مِنَ اللهِ ما لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزمر: ٤٧]

٣. فضل الذين يغضون أصواتهم عند الرسول:

المقطع [٣] من سورة الحجرات، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْواتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [الحجرات: ٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ٣١٠»:

١. ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْواتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ أُولئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوى﴾:

أ. غض الصوت خلاف رفعه، ومعنى الامتحان الابتلاء والاختبار وإنما يكون لتحصيل العلم بحال الشيء المجهول قبل ذلك، وإذ يستحيل ذلك في حقه تعالى فالمراد به هنا التمرين والتعويد، كما قيل، أو حمل المحنة والمشقة على القلب ليعتاد بالتقوى.

ب. والآية مسوقة للوعد الجميل على غض الصوت عند رسول الله ﷺ بعد توصيفهم بأن قلوبهم ممتحنة للتقوى والذي امتحنهم لذلك هو الله سبحانه، وفيه تأكيد وتقوية لمضمون الآية السابقة وتشويق

للانتهاء بما فيها من النهي.

ج. وفي التعبير عنه ﷺ في هذه الآية برسول الله بعد التعبير عنه في الآية السابقة بالنبي إشارة إلى ملاك الحكم فإن الرسول بما هو رسول ليس له من الأمر شيء فما له فلمرسله، وتعظيمه وتوقيره تعظيم لمرسله وتوقير له

د. فغض الصوت عند رسول الله تعظيم وتكبير لله سبحانه، والمداومة والاستمرار على ذلك، كما يستفاد من قوله: ﴿يَغُضُّونَ﴾ المفيد للاستمرار، كاشف عن تخلقهم بالتقوى وامتحانه تعالى قلوبهم للتقوى.

٢. ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ وعد جميل لهم بإزاء ما في قلوبهم من تقوى الله، والعاقبة للتقوى.

٣. أحاديث وآثار:

أ. أخرج أحمد والبخاري ومسلم وأبو يعلى والبغوي في معجم الصحابة، وابن المنذر والطبراني وابن مردويه والبيهقي في الدلائل، عن أنس قال: لما نزلت ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْواتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾، إلى قوله: ﴿وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ﴾ وكان ثابت بن قيس بن شماس رفيع الصوت، فقال: أنا الذي كنت أرفع صوتي على رسول الله ﷺ، حبط عملي أنا من أهل النار، وجلس في بيته حزينا، ففقده رسول الله ﷺ فانطلق بعض القوم إليه، فقالوا له: فقدك رسول الله ﷺ ما لك؟ قال: أنا الذي أرفع صوتي فوق صوت النبي ﷺ، وأجهر له بالقول حبط عملي وأنا من أهل النار، فأتوا النبي ﷺ فأخبروه بذلك، فقال: لا بل هو من أهل الجنة، فلما كان يوم اليمامة قتل.

• أقول: قوله: (فلما كان يوم اليمامة قتل) من كلام الراوي يريد أنه استشهد يوم اليمامة فكان ذلك تصديق قول النبي ﷺ، والرواية مروية بطرق مختلفة أخرى باختلاف يسير.

ب. أخرج البخاري في الأدب، وابن أبي الدنيا والبيهقي عن داود بن قيس قال: رأيت الحجرات من جريد النخل، مغشي من خارج بمسوح الشعر، وأظن عرض الباب من باب الحجرة، إلى باب البيت نحوا من ستة أو سبعة أذرع، وأحزر البيت الداخل عشرة أذرع، وأظن سمكه بين الثمان والسبع: • أقول: وروي مثل صدره عن ابن سعد عن عطاء الخراساني قال: أدركت حجر أزواج رسول الله ﷺ، من جريد النخل على أبوابها المسوح، من شعر أسود، الحديث.

٤. ذم الذين ينادون من وراء الحجرات وأمرهم بالصبر:

المقطع [٤] من سورة الحجرات، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الحجرات: ٤-٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ٣١١»:

١. ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنادُونَكَ مِنْ وَراءِ الْحُجُراتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ﴾ سياق الآية يؤدي أنه واقع وأنهم كانوا قوما من الجفاة ينادونه ﷺ من وراء حجرات بيته من غير رعاية لمقتضى الأدب وواجب التعظيم والتوقير فذمهم الله سبحانه حيث وصف أكثرهم بأنهم لا يعقلون كالبهائم من الحيوان.

٢. ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكانَ خَيْراً لَهُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾:

أ. أي ولو أنهم صبروا عن ندائك فلم ينادوك حتى تخرج إليهم لكان خيرا لما فيه من حسن الأدب ورعاية التعظيم والتوقير لمقام الرسالة، وكان ذلك مقربا لهم إلى مغفرة الله ورحمته لأنه غفور رحيم.

ب. فقوله: ﴿وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ كالناظر إلى ما ذكر من الصبر ويمكن أن يكون ناظرا إلى كون أكثرهم لا يعقلون والمعنى: أن ما صدر عنهم من الجهالة وسوء الأدب معفو عنه لأنه لم يكن عن تعقل وفهم منهم بل عن قصور في ذلك والله غفور رحيم.

٥. وجوب التثبت في خبر الفاسق:

المقطع [٥] من سورة الحجرات، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ [الحجرات: ٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ٣١١»:

١. ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جاءَكُمْ فاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا﴾:

أ. الفاسق، كما قيل، الخارج عن الطاعة إلى المعصية، والنبأ الخبر العظيم الشأن، والتبين والاستبانة والإبانة، على ما في الصحاح، بمعنى واحد وهي تتعدى ولا تتعدى فإذا تعدت كانت بمعنى الإيضاح والإظهار يقال: تبينت الأمر واستبنته وأبنته أي أوضحته وأظهرته، وإذا لزمت كانت بمعنى الاتضاح والظهور يقال: أبان الأمر واستبان وتبين أي اتضح وظهر.

ب. ومعنى الآية: يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بخبر ذي شأن فتبينوا خبره بالبحث

والفحص للوقوف على حقيقته حذر أن تصيبوا قوما بجهالة فتصيروا نادمين على ما فعلتم بهم.

ج. وقد أمضى الله سبحانه في هذه الآية أصل العمل بالخبر وهو من الأصول العقلائية التي يبتني عليه أساس الحياة الاجتماعية الإنسانية، وأمر بالتبين في خبر الفاسق وهو في معنى النهي عن العمل بخبره، وحقيقته الكشف عن عدم اعتبار حجيته وهذا أيضا كالإمضاء لما بني عليه العقلاء من عدم حجية الخبر الذي لا يوثق بمن يخبر به وعدم ترتيب الأثر على خبره.

د. بيان ذلك: أن حياة الإنسان حياة علمية يبني فيها سلوكه طريق الحياة على ما يشاهده من الخير والشر والنافع والضار والرأي الذي يأخذ به فيه، ولا يتيسر له ذلك إلا فيما هو بمرأى منه ومشهد، وما غاب عنه مما تتعلق به حياته ومعاشه أكثر مما يحضره وأكثر فاضطر إلى تتميم ما عنده من العلم بما هو عند غيره من العلم الحاصل بالمشاهدة والنظر، ولا طريق إليه إلا السمع وهو الخبر.

هـ. فالركون إلى الخبر بمعنى ترتيب الأثر عليه عملا ومعاملة مضمونة معاملة العلم الحاصل للإنسان من طريق المشاهدة والنظر في الجملة مما يتوقف عليه حياة الإنسان الاجتماعية توقفا ابتدائيا، وعليه بناء العقلاء ومدار العمل.

و. فالخبر إن كان متواترا أو محفوفا بقرائن قطعية توجب قطعية مضمونه كان حجة معتبرة من غير توقف فيها فإن لم يكن متواترا ولا محفوفا بما يفيد قطعية مضمونه وهو المسمى بخبر الواحد اصطلاحا كان المعتبر منه عندهم ما هو الموثوق به بحسب نوعه وإن لم يفده بحسب شخصه، وكل ذلك لأنهم لا يعملون إلا بما يرونه علما وهو العلم الحقيقي أو الوثوق والظن الاطمئناني المعدود علما عادة.

ز. إذا تمهد هذا فقوله تعالى في تعليل الأمر بالتبين في خبر الفاسق: ﴿أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهالَةٍ﴾، يفيد أن المأمور به هو رفع الجهالة وحصول العلم بمضمون الخبر عند ما يراد العمل به وترتيب الأثر عليه ففي الآية إثبات ما أثبته العقلاء ونفي ما نفوه في هذا الباب، وهو إمضاء لا تأسيس.

٢. أحاديث وآثار: أخرج أحمد وابن أبي حاتم والطبراني وابن منده وابن مردويه بسند جيد عن الحارث بن ضرار الخزاعي قال: قدمت على رسول الله ﷺ فدعاني إلى الإسلام، فدخلت فيه وأقررت به، ودعاني إلى الزكاة فأقررت بها، قلت: يا رسول الله أرجع إلى قومي، فأدعوهم إلى الإسلام وأداء الزكاة، فمن استجاب لي وترسل إلي يا رسول الله رسولا، إبان كذا وكذا لتأتيك ما جمعت من الزكاة، فلما جمع

الحارث الزكاة ممن استجاب له، وبلغ الإبان الذي أراد رسول الله ﷺ، أن يبعث إليه احتبس الرسول فلم يأت، فظن الحارث أنه قد حدث فيه سخطه من الله ورسوله، فدعا بسروات قومه فقال لهم: إن رسول الله ﷺ كان وقت لي وقتا يرسل إلى رسوله، ليقبض ما كان عندي من الزكاة، وليس من رسول الله ﷺ الخلف، ولا أرى حبس رسوله إلا من سخطه، فانطلقوا فنأتي رسول الله ﷺ، وبعث رسول الله ﷺ الوليد بن عقبة، إلى الحارث ليقبض ما كان عنده مما جمع من الزكاة، فلما أن سار الوليد حتى بلغ بعض الطريق فرق، فرجع فأتى رسول الله ﷺ فقال: إن الحارث منعني الزكاة وأراد قتلي، فضرب رسول الله ﷺ البعث إلى الحارث، فأقبل الحارث بأصحابه حتى إذا استقبل البعث، وفصل عن المدينة لقيهم الحارث فقالوا: هذا الحارث فلما غشيهم قال لهم: إلى من بعثتم؟ قالوا: إليك، قال: ولم؟ قالوا: إن رسول الله ﷺ بعث إليك الوليد بن عقبة، فزعم أنك منعته الزكاة وأردت قتله، قال: لا والذي بعث محمدا بالحق ما رأيته ولا أتاني، فلما دخل الحارث على رسول الله ﷺ قال: منعت الزكاة وأردت قتل رسولي؟ قال: لا والذي بعثك بالحق ما رأيته ولا رآني، وما أقبلت إلا حين احتبس علي رسول الله ﷺ، خشيت أن يكون كانت سخطة من الله ورسوله، فنزل ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جاءَكُمْ فاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا﴾، إلى قوله: ﴿حَكِيمٌ﴾

• أقول: نزول الآية في قصة الوليد بن عقبة مستفيض من طرق أهل السنة والشيعة وقال ابن عبد البر في الاستيعاب: ولا خلاف بين أهل العلم بتأويل القرآن فيما علمت أن قوله عز وجل: ﴿إِنْ جاءَكُمْ فاسِقٌ بِنَبَإٍ﴾ نزلت في الوليد بن عقبة.

٦. عدم التسليم للرسول والعنت:

المقطع [٦] من سورة الحجرات، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ فَضْلًا مِنَ اللهِ وَنِعْمَةً وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الحجرات: ٧-٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ٣١٢»:

١. ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾:

أ. العنت الإثم والهلاك، والطوع والطاعة الانقياد لكن أكثر ما يقال الطاعة في الائتمار لما أمر والارتسام لما رسم على ما ذكره الراغب لكن ربما يعكس الأمر فيسمى جري المتبوع على ما يريده التابع

ويهواه طاعة من المتبوع للتابع ومنه قوله تعالى في الآية: ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ﴾ حيث سمي عمل الرسول على ما يراه ويهواه المؤمنون طاعة منه لهم.

ب. والآية على ما يفيده السياق من تتمة الكلام في الآية السابقة تعمم ما فيها من الحكم وتؤكد ما فيها من التعليل فمضمون الآية السابقة الحكم بوجوب التبين في خبر الفاسق وتعليله بوجوب التحرز عن بناء العمل على الجهالة، ومضمون هذه الآية تنبيه المؤمنين على أن الله سبحانه أوردهم شرع الرشد ولذلك حبب إليهم الإيمان وزينة في قلوبهم وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان فعليهم أن لا يغفلوا عن أن فيهم رسول الله وهو مؤيد من عند الله وعلى بينة من ربه لا يسلك إلا سبيل الرشد دون الغي فعليهم أن يطيعوا الرسول ﷺ فيما يأمرهم به ويريدوا ما أراده ويختاروا ما اختاره، ولا يصروا على أن يطيعهم في آرائهم وأهوائهم فإنه لو يطيعهم في كثير من الأمر جهدوا وهلكوا.

ج. فقوله: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللهِ﴾ عطف على قوله في الآية السابقة: ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾ وتقديم الخبر للدلالة على الحصر، والإشارة إلى ما هو لازمه فإن اختصاصهم بكون رسول الله ﷺ فيهم لازمه أن يتعلقوا بالرشد ويتجنبوا الغي ويرجعوا الأمور إليه ويطيعوه ويتبعوا أثره ولا يتعلقوا بما تستدعيه منهم أهواؤهم.

د. فالمعنى: ولا تنسوا أن فيكم رسول الله، وهو كناية عن أنه يجب عليهم أن يرجعوا الأمور ويسيروا فيما يواجهونه من الحوادث على ما يراه ويأمر به من غير أن يتبعوا أهواء أنفسهم.

٢. ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾ أي جهدتم وهلكتم، والجملة كالجواب لسؤال مقدر كان سائلا يسأل فيقول: لما ذا نرجع إليه ولا يرجع إلينا ولا يوافقنا؟ فأجيب بأنه ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾

٣. ﴿وَلَكِنَّ اللهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾:

أ. استدراك عما يدل عليه الجملة السابقة: ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾ من أنهم مشرفون بالطبع على الهلاك والغي فاستدرك أن الله سبحانه أصلح ذلك بما أنعم عليهم من تحبيب الإيمان وتكريه الكفر والفسوق والعصيان.

ب. والمراد بتحبيب الإيمان إليهم جعله محبوبا عندهم وبتزيينه في قلوبهم تحليته بجمال يجذب

قلوبهم إلى نفسه فيتعلقون به ويعرضون عما يلهيهم عنه.

٤. ﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيانَ﴾ عطف على ﴿حَبَّبَ﴾ وتكريه الكفر وما يتبعه إليهم جعلها مكروهة عندهم تتنفر عنها نفوسهم، والفرق بين الفسوق والعصيان، على ما قيل، إن الفسوق هو الخروج عن الطاعة إلى المعصية، والعصيان نفس المعصية وإن شئت فقل: جميع المعاصي، وقيل: المراد بالفسوق الكذب بقرينة الآية السابقة والعصيان سائر المعاصي.

٥. ﴿أُولئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾:

أ. بيان أن حب الإيمان والانجذاب إليه وكراهة الكفر والفسوق والعصيان هو سبب الرشد الذي يطلبه الإنسان بفطرته ويتنفر عن الغي الذي يقابله فعلى المؤمنين أن يلزموا الإيمان ويتجنبوا الكفر والفسوق والعصيان حتى يرشدوا ويتبعوا الرسول ولا يتبعوا أهواءهم.

ب. ولما كان حب الإيمان والانجذاب إليه وكراهة الكفر ونحوه صفة بعض من كان الرسول فيهم دون الجميع كما يصرح به الآية السابقة، وقد وصف بذلك جماعتهم تحفظا على وحدتهم وتشويقا لمن لم يتصف بذلك منهم غير السياق والتفت عن خطابهم إلى خطاب النبي ﷺ فقال: ﴿أُولئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ والإشارة إلى من اتصف بحب الإيمان وكراهة الكفر والفسوق والعصيان، ليكون مدحا للمتصفين بذلك وتشويقا لغيرهم.

٦. واعلم أن في قوله: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾ إشعارا بأن قوما من المؤمنين كانوا مصرين على قبول نبأ الفاسق الذي تشير إليه الآية السابقة، وهو الوليد بن عقبة أرسله النبي ﷺ إلى بني المصطلق لأخذ زكواتهم فجاء إليهم فلما رآهم هابهم ورجع إلى المدينة وأخبر النبي ﷺ أنهم ارتدوا فعزم النبي ﷺ على قتالهم فنزلت الآية فانصرف وفي القوم بعض من يصر على أن يغزوهم، وسيجيء القصة في البحث الروائي التالي.

٧. ﴿فَضْلاً مِنَ اللهِ وَنِعْمَةً وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ تعليل لما تقدم من فعله تعالى بالمؤمنين من تحبيب الإيمان وتزيينه وتكريه الكفر والفسوق والعصيان أي إن ذلك منه تعالى مجرد عطية ونعمة لا إلى بدل يصل إليه منهم لكن ليس فعلا جزافيا فإنه تعالى عليهم بمورد عطيته ونعمته حكيم لا يفعل ما يفعل جزافا كما قال: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوى وَكانُوا أَحَقَّ بِها وَأَهْلَها وَكانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً﴾ [الفتح: ٢٦]

٨. أحاديث وآثار:

أ. في المحاسن، بإسناده عن زياد الحذاء عن أبي جعفر عليه السلام في حديث له قال: يا زياد ويحك وهل الدين إلا الحب؟ ألا ترى إلى قول الله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾؟ أولا ترون إلى قول الله لمحمد ﷺ: ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ قال: ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ وقال: الحب هو الدين والدين هو الحب.

• أقول: وروي في الكافي، بإسناده عن فضيل بن يسار عن الصادق عليه السلام ما في معناه ولفظه: وهل الإيمان إلا الحب والبغض؟ ثم تلا هذه الآية: ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمانَ﴾

ب. وفي المجمع: (وقيل: الفسوق هو الكذب، عن ابن عباس وابن زيد وهو المروي عن أبي جعفر عليه السلام.

• أقول: وفي هذا المعنى بعض روايات أخر.

٧. الإصلاح بين طائفتي المؤمنين والعدل:

المقطع [٧] من سورة الحجرات، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ٣١٤»:

١. ﴿وَإِنْ طائِفَتانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُما﴾:

أ. الاقتتال والتقاتل بمعنى واحد كالاستباق والتسابق، ورجوع ضمير الجمع في ﴿اقْتَتَلُوا﴾ إلى الطائفتين باعتبار المعنى فإن كلا من الطائفتين جماعة ومجموعها جماعة كما أن رجوع ضمير التثنية إليهما باعتبار المعنى.

ب. ونقل عن بعضهم في وجه التفرقة بين الضميرين: أنهم أولا في حال القتال مختلطون فلذا جمع أولا ضميرهم، وفي حال الصلح متميزون متفارقون فلذا ثنى الضمير.

٢. ﴿فَإِنْ بَغَتْ إِحْداهُما عَلَى الْأُخْرى فَقاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلى أَمْرِ اللهِ﴾ البغي الظلم والتعدي بغير حق، والفيء الرجوع، والمراد بأمر الله ما أمر به الله، والمعنى: فإن تعدت إحدى الطائفتين

على الأخرى بغير حق فقاتلوا الطائفة المتعدية حتى ترجع إلى ما أمر به الله وتنقاد لحكمه.

٣. ﴿فَإِنْ فاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُما بِالْعَدْلِ﴾ أي فإن رجعت الطائفة المتعدية إلى أمر الله فأصلحوا بينهما لكن لا إصلاحا بوضع السلاح وترك القتال فحسب بل إصلاحا متلبسا بالعدل بإجراء أحكام الله فيما تعدت به المتعدية من دم أو عرض أو مال أو أي حق آخر ضيعته.

٤. ﴿وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ الإقساط إعطاء كل ما يستحقه من القسط والسهم وهو العدل فعطف قوله: ﴿وَأَقْسِطُوا﴾ على قوله: ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُما بِالْعَدْلِ﴾ من عطف المطلق على المقيد للتأكيد، وقوله: ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ تعليل يفيد تأكيدا على تأكيد كأنه قيل: أصلحوا بينهما بالعدل وأعدلوا دائما وفي جميع الأمور لأن الله يحب العادلين لعدالتهم.

٥. أحاديث وآثار: أخرج أحمد والبخاري ومسلم وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه والبيهقي في سننه عن أنس قال: قيل للنبي ﷺ: لو أتيت عبد الله بن أبي فانطلق وركب حمارا، وانطلق المسلمون يمشون وهي أرض سبخة، فلما انطلق إليهم قال: إليك عني، فوالله لقد آذاني ريح حمارك، فقال رجل من الأنصار: والله لحمار رسول الله ﷺ أطيب ريحا منك، فغضب لعبد الله رجال من قومه، فغضب لكل منهما أصحابه، فكان بينهم ضرب بالجريد والأيدي والنعال، فأنزل فيهم ﴿وَإِنْ طائِفَتانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُما﴾

• أقول: وفي بعض الروايات كما في المجمع: (أن الذي قال ذلك لعبد الله بن أبي بن سلول هو عبد الله بن رواحة وأن التضارب وقع بين رهطه من الأوس ورهط عبد الله بن أبي من الخزرج، وفي انطباق الآية بموضوعها وحكمها على هذه الروايات خفاء.

٨. أخوة المؤمنين والإصلاح بينهم:

المقطع [٨] من سورة الحجرات، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات: ١٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ٣١٥»:

١. ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ استئناف مؤكد لما تقدم من الإصلاح بين الطائفتين المتقاتلتين من المؤمنين، وقصر النسبة بين المؤمنين في نسبة الإخوة مقدمة ممهدة لتعليل ما في قوله: ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ من حكم الصلح فيفيد أن الطائفتين المتقاتلتين لوجود الإخوة بينهما يجب أن

يستقر بينهما الصلح، والمصلحون لكونهم إخوة للمتقاتلتين يجب أن يسعوا في إصلاح ما بينهما.

٢. ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ ولم يقل: فأصلحوا بين الأخوين من أوجز الكلام وألطفه حيث يفيد أن المتقاتلتين بينهما أخوة فمن الواجب أن يستقر بينهما الصلح وسائر المؤمنين إخوان للمتقاتلتين فيجب عليهم أن يسعوا في الإصلاح بينهما.

٣. ﴿وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ موعظة للمتقاتلتين والمصلحين جميعا.

٤. وضع هنا مبحثا حول [معنى الإخوة]، خلاصته:

أ. قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ هو جعل تشريعي لنسبة الإخوة بين المؤمنين، لها آثار شرعية وحقوق مجعولة.

ب. هناك نوعان من القرابة: قرابة طبيعية (بالانتهاء إلى صلب واحد أو رحم واحدة أو هما)، وقرابة اعتبارية (يجعلها الشرع أو القانون لترتيب آثار خاصة)، وقد يجتمعان (كالأخوين من نكاح مشروع)، وقد يختلفان (كولد الزنا فهو ولد طبيعي لكنه لا يلحق بمولده في الإسلام، وكالداعي الذي هو ولد في بعض القوانين وليس بولد طبيعي)

ج. الاعتبار لمصلحة مقتضية، فالمعنى الاعتباري تابع للمصلحة، فإن اقتضت ترتيب جميع آثار الحقيقة ترتبت جميعاً، وإن اقتضت بعضها ترتب ذلك البعض، كما أن القراءة جزء من الصلاة لكن لا تبطل الصلاة بتركها سهواً، بخلاف الركوع الذي تبطل بزيادته ونقيصته عمداً وسهواً.

د. الآثار الاعتبارية لا تترتب إلا على موضوع اعتباري، فالأخ يرث أخاه في الإسلام ليس لأنه أخ طبيعي، بل لأنه أخ في الشريعة، فولد الزنا لا يرث أخاه الطبيعي، لأنه ليس أخاً شرعياً.

هـ. الإخوة في الإسلام ثلاثة أنواع: أخوة طبيعية (لا أثر لها في الشرع)، وأخوة نسبية (لها آثار في النكاح والإرث)، وأخوة رضاعية (لها آثار في النكاح دون الإرث)، وأخوة دينية (لها آثار اجتماعية ولا أثر لها في النكاح والإرث)

و. بعض المفسرين أخذ إطلاق الإخوة على المؤمنين إطلاقاً مجازياً من باب الاستعارة، أو من باب التشبيه البليغ، لكن التحقيق أنه جعل تشريعي له آثار شرعية.

٥. أحاديث وآثار:

أ. في الكافي، بإسناده عن علي بن عقبة عن أبي عبد الله عليه السلام قال: المؤمن أخو المؤمن عينه ودليله لا يخونه ولا يظلمه، ولا يغشه ولا يعده عدة فيخلفه.

• أقول: وفي معناه روايات أخر عنه عليه السلام وفي بعضها: المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يغتابه.

ب. وفي المحاسن، بإسناده عن أبي حمزة الثمالي عن أبي جعفر عليه السلام قال: المؤمن أخو المؤمن لأبيه وأمه، وذلك أن الله تبارك وتعالى خلق المؤمن، من طينة جنان السماوات، وأجرى فيهم من ريح روحه فلذلك هو أخوه لأبيه وأمه.

٩. النهي عن السخرية والاستهزاء والتحقير:

المقطع [٩] من سورة الحجرات، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ﴾ [الحجرات: ١١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ٣٢١»:

١. ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسى أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ وَلا نِساءٌ مِنْ نِساءٍ عَسى أَنْ يَكُنَّ خَيْراً مِنْهُنَ﴾، السخرية الاستهزاء وهو ذكر ما يستحقر ويستهان به الإنسان بقول أو إشارة أو فعل تقليدا بحيث يضحك منه بالطبع، والقوم الجماعة وهو في الأصل الرجال دون النساء لقيامهم بالأمور المهمة دونهن، وهذا المعنى هو المراد بالقوم في الآية بها قوبل بالنساء.

٢. ﴿عَسى أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ﴾ ﴿عَسى أَنْ يَكُنَّ خَيْراً مِنْهُنَ﴾ حكمة النهي، والمستفاد من السياق أن الملاك رجاء كون المسخور منه خيرا عند الله من الساخر سواء كان الساخر رجلا أو امرأة وكذا المسخور منه فتخصيص النهي في اللفظ بسخرية القوم من القوم وسخرية النساء من النساء لمكان الغلبة عادة.

٣. أحاديث وآثار:

أ. أخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل في قوله تعالى: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ﴾ قال: نزلت في قوم من بني تميم استهزءوا من بلال وسلمان، وعمار وخباب وصهيب وابن فهيرة وسالم مولى أبي حذيفة.

ب. وفي المجمع: نزل قوله: ﴿لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ﴾ في ثابت بن قيس بن شماس وكان في أذنه وقر، وكان إذا دخل المسجد تفسحوا له، حتى يقعد عند النبي ﷺ فيسمع ما يقول، فدخل المسجد يوما والناس قد فرغوا من الصلاة، وأخذوا مكانهم فجعل يتخطى رقاب الناس ويقول: تفسحوا تفسحوا حتى) انتهى إلى رجل، فقال له: أصبت مجلسا فاجلس فجلس خلفه مغضبا، فلما انجلت الظلمة قال: من هذا؟ قال الرجل: أنا فلان فقال ثابت: ابن فلانة ذكر أما له كان يعير بها في الجاهلية، فنكس الرجل رأسه حياء فنزلت الآية: عن ابن عباس.

ج. وفيه: وقوله: ﴿وَلا نِساءٌ مِنْ نِساءٍ﴾ نزل في نساء النبي ﷺ، سخرن من أم سلمة، عن أنس، وذلك أنها ربطت حقويها بسبيبة، وهي ثوب أبيض وسدلت طرفيها خلفها فكانت تجره، فقالت عائشة لحفصة: انظري ما ذا تجر خلفها، كأنه لسان كلب فهذه كانت سخريتهما، وقيل: إنها عيرتها بالقصر، وأشارت بيدها أنها قصيرة: عن الحسن.

١٠. النهي عن اللمز والتنابز بالألقاب:

المقطع [١٠] من سورة الحجرات، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الحجرات: ١١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ٣٢٢»:

١. ﴿وَلا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ اللمز، على ما قيل، التنبيه على المعايب، وتعليق اللمز بقوله: ﴿أَنْفُسَكُمْ﴾ للإشارة إلى أنهم مجتمع واحد بعضهم من بعض فلمز الواحد منهم غيره في الحقيقة لمز نفسه فليجتنب من أن يلمز غيره كما يكره أن يلمزه غيره، ففي قوله: ﴿أَنْفُسَكُمْ﴾ إشارة إلى حكمة النهي.

٢. ﴿وَلا تَنابَزُوا بِالْأَلْقابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمانِ﴾:

أ. النبز بالتحريك هو اللقب، ويختص، على ما قيل، بما يدل على ذم فالتنابز بالألقاب ذكر بعضهم بعضا بلقب السوء مما يكرهه كالفاسق والسفيه ونحو ذلك.

ب. والمراد بالاسم في ﴿بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ﴾ الذكر كما يقال: شاع اسم فلان بالسخاء والجود، وعلى هذا فالمعنى: بئس الذكر ذكر الناس، بعد إيمانهم، بالفسوق فإن الحري بالمؤمن بما هو مؤمن أن يذكر بالخير ولا يطعن فيه بما يسوؤه نحو يا من أبوه كان كذا ويا من أمه كانت كذا.

ج. ويمكن أن يكون المراد بالاسم السمة والعلامة والمعنى: بئست السمة أن يوسم الإنسان بعد الإيمان بالفسوق بأن يذكر بسمة السوء كان يقال لمن اقترف معصية ثم تاب: يا صاحب المعصية الفلانية، أو المعنى: بئس الاسم أن يسم الإنسان نفسه بالفسوق بذكر الناس بما يسوءهم من الألقاب، وعلى أي معنى كان ففي الجملة إشارة إلى حكمة النهي.

٣. ﴿وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾:

أ. أي ومن لم يتب عن هذه المعاصي التي يقترفها بعد ورود النهي فلم يندم عليها ولم يرجع إلى الله سبحانه بتركها فأولئك ظالمون حقا فإنهم لا يرون بها بأسا وقد عدها الله معاصي ونهى عنها.

ب. وفي الجملة أعني قوله: ﴿وَمَنْ لَمْ يَتُبْ﴾، إشعار بأن هناك من كان يقترف هذه المعاصي من المؤمنين.

٤. أحاديث وآثار:

أ. أخرج أحمد وعبد بن حميد والبخاري في الأدب، وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجة وأبو يعلى وابن جرير وابن المنذر والبغوي في معجمه، وابن حبان والشيرازي في الألقاب، والطبراني وابن السني في عمل اليوم والليلة، والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان، عن أبي جبيرة بن الضحاك قال: فينا نزلت في بني سلمة ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾ قدم رسول الله ﷺ المدينة، وليس فينا رجل إلا وله اسمان أو ثلاثة، فكان إذا دعا أحدهم باسم من تلك الأسماء، قالوا: يا رسول الله إنه يكره هذا الاسم، فأنزل الله ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾

ب. وفي العيون، بإسناده عن محمد بن يحيى بن أبي عباد عن عمه قال: سمعت الرضا عليه السلام يوما ينشد وقليلا ما كان ينشد شعرا:

كلنا نأمل مدا في الأجل... والمنايا هن آفات الأمل

لا يغرنك أباطيل المنى... والزم القصد ودع عنك العلل

إنما الدنيا كظل زائل... حل فيه راكب ثم رحل

فقلت: لمن هذا أعز الله الأمير؟ فقال: لعراقي لكم، قلت: أنشدنيه أبو العتاهية لنفسه، فقال: هات اسمه ودع هذا، إن الله سبحانه يقول: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾ ولعل الرجل يكره هذا.

١١. اجتناب كثير من الظن والتجسس:

المقطع [١١] من سورة الحجرات، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ [الحجرات: ١٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ٣٢٣»:

١. ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾:

أ. المراد بالظن المأمور بالاجتناب عنه ظن السوء فإن ظن الخير مندوب إليه كما يستفاد من قوله تعالى: ﴿لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِناتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْراً﴾ [النور: ١٢]

ب. والمراد بالاجتناب عن الظن الاجتناب عن ترتيب الأثر عليه كان يظن بأخيه المؤمن سوء فيرميه به ويذكره لغيره ويرتب عليه سائر آثاره، وأما نفس الظن بما هو نوع من الإدراك النفساني فهو أمر يفاجئ النفس لا عن اختيار فلا يتعلق به النهي اللهم إلا إذا كان بعض مقدماته اختياريا.

ج. وعلى هذا فكون بعض الظن إثما من حيث كون ما يترتب عليه من الأثر إثما كإهانة المظنون به وقذفه وغير ذلك من الآثار السيئة المحرمة، والمراد بكثير من الظن، وقد جيء به نكرة ليدل على كثرته في نفسه لا بالقياس إلى سائر أفراد الظن، هو بعض الظن الذي هو إثم فهو كثير في نفسه وبعض من مطلق الظن، ولو أريد بكثير من الظن أعم من ذلك كأن يراد ما يعلم أن فيه إثما وما لا يعلم منه ذلك كان الأمر بالاجتناب عنه أمرا احتياطيا توقيا من الوقوع في الإثم.

٢. ﴿وَلا تَجَسَّسُوا﴾ التجسس بالجيم تتبع ما استتر من أمور الناس للاطلاع عليها، ومثله التحسس بالحاء المهملة إلا أن التجسس بالجيم يستعمل في الشر والتحسس بالحاء يستعمل في الخير، ولذا قيل: معنى الآية لا تتبعوا عيوب المسلمين لتهتكوا الأمور التي سترها أهلها.

٣. أحاديث وآثار:

أ. في الكافي، بإسناده عن الحسين بن مختار عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام في كلام له: ضع أمر أخيك على أحسنه، حتى يأتيك ما يقلبك منه، ولا تظنن بكلمة خرجت من أخيك سوءا، وأنت تجد لها في الخير محملا.

ب. وفي نهج البلاغة، وقال عليه السلام: إذا استولى الصلاح على الزمان وأهله، ثم أساء رجل الظن برجل لم يظهر منه حوبة فقد ظلم، وإذا استولى الفساد على الزمان وأهله، ثم أحسن رجل الظن

برجل فقد غرر.

• أقول: والروايتان غير متعارضتين فالثانية ناظرة إلى نفس الظن والأولى إلى ترتيب الأثر عليه عملا.

١٢. النهي عن الغيبة وتشبيهها بأكل لحم الميت:

المقطع [١٢] من سورة الحجرات، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ٣٢٣»:

١. ﴿وَلا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ﴾:

أ. الغيبة على ما في مجمع البيان ذكر العيب بظهر الغيب على وجه يمنع الحكمة منه، وقد فسرت بتفاسير مختلفة حسب الاختلاف في مصاديقها سعة وضيقا في الفقه، ويئول إلى أن يذكر من الإنسان في ظهر الغيب ما يسوءه لو ذكر به ولذا لم يعدوا من الغيبة ذكر المتجاهر بالفسق بما تجاهر به.

ب. والغيبة تفسد أجزاء المجتمع واحدا بعد واحد فتسقطها عن صلاحية التأثير الصالح المرجو من الاجتماع وهو أن يخالط كل صاحبه ويمازجه في أمن وسلامة بأن يعرفه إنسانا عدلا سويا يأنس به ولا يكرهه ولا يستقذره، وأما إذا عرفه بما يكرهه ويعيبه به انقطع عنه بمقدار ذلك وضعفت رابطة الاجتماع فهي كالأكلة التي تأكل جثمان من ابتلي بها عضوا بعد عضو حتى تنتهي إلى بطلان الحياة.

ج. والإنسان إنما يعقد المجتمع ليعيش فيه بهوية اجتماعية أعني بمنزلة اجتماعية صالحة لأن يخالطه ويمازج فيفيد ويستفاد منه، وغيبته بذكر عيبه لغيره تسقطه عن هذه المنزلة وتبطل منه هذه الهوية، وفيه تنقيص واحد من عدد المجتمع الصالح ولا يزال ينتقص بشيوع الغيبة حتى يأتي على آخره فيتبدل الصلاح فسادا ويذهب الأنس والأمن والاعتماد وينقلب الدواء داء.

د. فهي في الحقيقة إبطال هوية اجتماعية على حين غفلة من صاحبها ومن حيث لا يشعر به، ولو علم بذلك على ما فيه من المخاطرة لتحرز منه وتوقي انهتاك ستره وهو الستر ألقاه الله سبحانه على عيوب الإنسان ونواقصه ليتم به ما أراده من طريق الفطرة من تألف أفراد الإنسان وتجمعهم وتعاونهم وتعاضدهم، وأين الإنسان والنزاهة من كل عيب.

هـ. وإلى هذه الحقيقة أشار تعالى فيما ذكره من التمثيل بقوله: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ وقد أتي بالاستفهام الإنكاري ونسب الحب المنفي إلى أحدهم ولم يقل: بعضكم ونحو ذلك ليكون النفي أوضح استيعابا وشمولا ولذا أكده بقوله بعد: ﴿فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ فنسب الكراهة إلى الجميع ولم يقل: فكرهه.

و. وبالجملة محصله أن اغتياب المؤمن بمنزلة أن يأكل الإنسان لحم أخيه حال كونه ميتا، وإنما كان لحم أخيه لأنه من أفراد المجتمع الإسلامي المؤلف من المؤمنين وإنما المؤمنون إخوة، وإنما كان ميتا لأنه لغيبته غافل لا يشعر بما يقال فيه.

ز. وفي قوله: ﴿فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ ولم يقل: فتكرهونه إشعار بأن الكراهة أمر ثابت محقق منكم في أن تأكلوا إنسانا هو أخوكم وهو ميت فكما أن هذا مكروه لكم فليكن مكروها لكم اغتياب أخيكم المؤمن بظهر الغيب فإنه في معنى أكل أحدكم أخاه ميتا.

ح. واعلم أن ما في قوله: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ﴾، من التعليل جار في التجسس أيضا كالغيبة، وإنما الفرق أن الغيبة هو إظهار عيب الغير للغير أو التوصل إلى الظهور عليه من طريق نقل الغير، والتجسس هو التوصل إلى العلم بعيب الغير من طريق تتبع آثاره ولذلك لم يبعد أن يكون الجملة أعني قوله: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً﴾، تعليلا لكل من الجملتين أعني ﴿وَلا تَجَسَّسُوا وَلا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً﴾

ط. واعلم أن في الكلام إشعارا أو دلالة على اقتصار الحرمة في غيبة المسلمين، ومن القرينة عليه قوله في التعليل: ﴿لَحْمَ أَخِيهِ﴾ فالأخوة إنما هي بين المؤمنين.

٢. ﴿وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾:

أ. ظاهره أنه عطف على قوله: ﴿اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِ﴾ إن كان المراد بالتقوى هو التجنب عن هذه الذنوب التي كانوا يقترفونها بالتوبة إلى الله سبحانه فالمراد بقوله: ﴿إِنَّ اللهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾ أن الله كثير القبول للتوبة رحيم بعباده التائبين إليه اللائذين به.

ب. وإن كان هو التجنب عنها والتورع فيها وإن لم يكونوا يقترفونها فالمراد بقوله: ﴿إِنَّ اللهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾ أن الله كثير الرجوع إلى عباده المتقين بالهداية والتوفيق والحفظ عن الوقوع في مهالك الشقوة رحيم

بهم.

ج. وذلك أن التوبة من الله توبتان: توبة قبل توبة العبد بالرجوع إليه بالتوفيق للتوبة كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ تابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾ [التوبة: ١١٨]، وتوبة بعد توبة العبد بالرجوع إليه بالمغفرة وقبول التوبة كما في قوله: ﴿فَمَنْ تابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٣٩]

٣. أحاديث وآثار:

أ. أخرج ابن أبي حاتم عن السدي: أن سلمان الفارسي كان مع رجلين في سفر، يخدمهما وينال من طعامهما، وأن سلمان نام نوما فطلبه صاحباه فلم يجداه، فضربا الخباء وقالا ما يريد سلمان شيئا غير هذا، أن يجيء إلى طعام معدود وخباء مضروب، فلما جاء سلمان أرسلاه إلى رسول الله ﷺ، يطلب لهما إداما فانطلق فأتاه، فقال: يا رسول الله بعثني أصحابي لتؤدمهم إن كان عندك، قال: ما يصنع أصحابك بالأدم؟ قد ائتدموا، فرجع سلمان فخبرهما فانطلقا فأتيا رسول الله ﷺ، فقالا: والذي بعثك بالحق ما أصبنا طعاما منذ نزلنا، قال: إنكما قد ائتدمتما سلمان بقولكما، فنزلت ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً﴾

ب. أخرج الضياء المقدسي عن أنس قال: كانت العرب يخدم بعضها بعضا في الأسفار، وكان مع أبي بكر وعمر رجل يخدمهما، فناما واستيقظا ولم يهيئ لهما طعاما، فقالا: إن هذا لنئوم فأيقظاه فقالا: ائت رسول الله ﷺ فقل له: إن أبا بكر وعمر يقرئانك السلام ويستأدمانك، فقال: إنهما ائتدما، فجاءاه، فقالا يا رسول الله بأي شيء ائتدمنا؟ قال: بلحم أخيكما، والذي نفسي بيده إني لأرى لحمه بين ثناياكما، فقالا: استغفر لنا يا رسول الله، قال: مراه فليستغفر لكما.

• أقول: الظاهر أن القصة الموردة في الروايتين واحدة والرجلان المذكوران في الرواية الأولى أبو بكر وعمر والرجل المذكور في الثانية هو سلمان، ويؤيد هذا ما عن جوامع الجامع قال: وروي أن أبا بكر وعمر بعثا سلمان إلى رسول الله ﷺ ليأتي لهما بطعام فبعثه إلى أسامة بن زيد وكان خازن رسول الله ﷺ على رحله فقال: ما عندي شيء فعاد إليهما فقالا: بخل أسامة ولو بعثنا سلمان إلى بئر سميحة لغار ماؤها، ثم انطلقا إلى رسول الله ﷺ فقال لهما: ما لي أرى خضرة اللحم في أفواهكما قالا: يا رسول الله ما تناولنا اليوم لحماً، قال: ظلمتم تأكلون لحم سلمان وأسامة فنزلت.

ج. وفي الخصال، عن أسباط بن محمد بإسناده إلى النبي ﷺ أنه قال: الغيبة أشد من الزنا، فقيل: يا

رسول الله ولم ذلك؟ قال: صاحب الزنا يتوب فيتوب الله عليه، وصاحب الغيبة يتوب فلا يتوب الله عليه، حتى يكون صاحبه الذي يحله.

• أقول: ورواه في الدر المنثور، عن ابن مردويه والبيهقي عن أبي سعيد وجابر عنه ﷺ، ولفظه قال رسول الله ﷺ: الغيبة أشد من الزنا، قالوا: يا رسول الله وكيف الغيبة أشد من الزنا؟ قال: إن الرجل يزني فيتوب فيتوب الله عليه، وإن صاحب الغيبة لا يغفر له حتى يغفرها له صاحبه.

د. وفي الكافي، بإسناده إلى السكوني عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ: الغيبة أسرع في دين الرجل المسلم من الأكلة في جوفه.

هـ. وفيه، بإسناده عن حفص بن عمر عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سئل النبي ﷺ ما كفارة الاغتياب قال: تستغفر الله لمن اغتبته كما ذكرته.

١٣ . غايات خلق الناس من ذكر وأنثى وجعلهم شعوباً وقبائل:

المقطع [١٣] من سورة الحجرات، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ٣٢٥»:

١ . ﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثى وَجَعَلْناكُمْ شُعُوباً وَقَبائِلَ لِتَعارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقاكُمْ﴾:

أ. الشعوب جمع شعب بالكسر فالسكون وهو على ما في المجمع الحي العظيم من الناس كربيعة ومضر، والقبائل جمع قبيلة وهي دون الشعب كتميم من مضر.

ب. وقيل: الشعوب دون القبائل وسميت بها لتشعبها، قال الراغب: (الشعب القبيلة المنشعبة من حي واحد، وجمعه شعوب، قال تعالى: ﴿شُعُوباً وَقَبائِلَ﴾ والشعب من الوادي ما اجتمع منه طرف وتفرق طرف فإذا نظرت إليه من الجانب الذي تفرق أخذت في وهمك واحدا يتفرق، وإذا نظرت من جانب الاجتماع أخذت في وهمك اثنين اجتمعا فلذلك قيل: شعبت إذا جمعت، وشعبت إذا فرقت)

ج. وقيل: الشعوب العجم والقبائل العرب، والظاهر أن مآله إلى أحد القولين السابقين، وسيجيء تمام الكلام فيه.

٢. ذكر المفسرون أن الآية مسوقة لنفي التفاخر بالأنساب:

أ. وعليه فالمراد بقوله: ﴿مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثى﴾ آدم وحواء، والمعنى: أنا خلقناكم من أب وأم تشتركون جميعا فيهما من غير فرق بين الأبيض والأسود والعربي والعجمي وجعلناكم شعوبا وقبائل مختلفة لا لكرامة لبعضكم على بعض بل لأن تتعارفوا فيعرف بعضكم بعضا ويتم بذلك أمرا اجتماعكم فيستقيم مواصلاتكم ومعاملاتكم فلو فرض ارتفاع المعرفة من بين أفراد المجتمع انفصم عقد الاجتماع وبادت الإنسانية فهذا هو الغرض من جعل الشعوب والقبائل لا أن تتفاخروا بالأنساب وتتباهوا بالآباء والأمهات.

ب. وقيل: المراد بالذكر والأنثى مطلق الرجل والمرأة، والآية مسوقة لإلغاء مطلق التفاضل بالطبقات كالأبيض والأسود والعرب والعجم والغني والفقير والمولى والعبد والرجل والمرأة، والمعنى: يا أيها الناس إنا خلقناكم من رجل وامرأة فكل واحد منكم إنسان مولود من إنسانين لا تفترقون من هذه الجهة، والاختلاف الحاصل بالشعوب والقبائل، وهو اختلاف راجع إلى الجعل الإلهي، ليس لكرامة وفضيلة وإنما هو لأن تتعارفوا فيتم بذلك اجتماعكم.

• واعترض عليه بأن الآية مسوقة لنفي التفاخر بالأنساب وذمه كما يدل عليه قوله: ﴿وَجَعَلْناكُمْ شُعُوباً وَقَبائِلَ لِتَعارَفُوا﴾ وترتب هذا الغرض على هذا الوجه غير ظاهر، ويمكن أن يناقش فيه أن الاختلاف في الأنساب من مصاديق الاختلاف الطبقاتي وبناء هذا الوجه على كون الآية مسوقة لنفي مطلق الاختلاف الطبقاتي وكما يمكن نفي التفاخر بالأنساب وذمه استنادا إلى أن الأنساب تنتهي إلى آدم وحواء والناس جميعا مشتركون فيهما، كذلك يمكن نفيه وذمه استنادا إلى أن كل إنسان مولود من إنسانين والناس جميعا مشتركون في ذلك.

ج. والحق أن قوله: ﴿وَجَعَلْناكُمْ شُعُوباً وَقَبائِلَ﴾ إن كان ظاهرا في ذم التفاخر بالأنساب فأول الوجهين أوجه، وإلا فالثاني لكونه أعم وأشمل.

٣. ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقاكُمْ﴾:

أ. استئناف مبين لما فيه الكرامة عند الله سبحانه، وذلك أنه نبههم في صدر الآية على أن الناس بما هم ناس يساوي بعضهم بعضا لا اختلاف بينهم ولا فضل لأحدهم على غيره، وأن الاختلاف المترائي في

الخلقة من حيث الشعوب والقبائل إنما هو للتوصل به إلى تعارفهم ليقوم به الاجتماع المنعقد بينهم إذ لا يتم ائتلاف ولا تعاون وتعاضد من غير تعرف فهذا هو غرض الخلقة من الاختلاف المجعول لا أن تتفاخروا بالأنساب وتتفاضلوا بأمثال البياض والسواد فيستعبد بذلك بعضهم بعضا ويستخدم إنسان إنسانا ويستعلي قوم على قوم فينجر إلى ظهور الفساد في البر والبحر وهلاك الحرث والنسل فينقلب الدواء داء.

ب. ثم نبه سبحانه في ذيل الآية بهذه الجملة أعني قوله: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقاكُمْ﴾ على ما فيه الكرامة عنده، وهي حقيقة الكرامة.

ج. وذلك أن الإنسان مجبول على طلب ما يتميز به من غيره ويختص به من بين أقرانه من شرف وكرامة، وعامة الناس لتعلقهم بالحياة الدنيا يرون الشرف والكرامة في مزايا الحياة المادية من مال وجمال ونسب وحسب وغير ذلك فيبذلون جل جهدهم في طلبها واقتنائها ليتفاخروا بها ويستعلوا على غيرهم.

د. وهذه مزايا وهمية لا تجلب لهم شيئا من الشرف والكرامة دون أن توقعهم في مهابط الهلكة والشقوة، والشرف الحقيقي هو الذي يؤدي الإنسان إلى سعادته الحقيقية وهو الحياة الطيبة الأبدية في جوار رب العزة وهذا الشرف والكرامة هو بتقوى الله سبحانه وهي الوسيلة الوحيدة إلى سعادة الدار الآخرة، وتتبعها سعادة الدنيا قال تعالى: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيا وَاللهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ [الأنفال: ٦٧]، وقال: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوى﴾ [البقرة: ١٩٧]، وإذا كانت الكرامة بالتقوى فأكرم الناس عند الله أتقاهم كما قال تعالى.

هـ. وهذه البغية والغاية التي اختارها الله بعلمه غاية للناس لا تزاحم فيها ولا تدافع بين المتلبسين بها على خلاف الغايات والكرامات التي يتخذها الناس بحسب أوهامهم غايات يتوجهون إليها ويتباهون بها كالغنى والرئاسة والجمال وانتشار الصيت وكذا الأنساب وغيرها.

٤. ﴿إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾:

أ. فيه تأكيد لمضمون الآية وتلويح إلى أن الذي اختاره الله كرامة للناس كرامة حقيقية اختارها الله بعلمه وخبرته بخلاف ما اختاره الناس كرامة وشرفا لأنفسهم فإنها وهمية باطلة فإنها جميعا من زينة الحياة الدنيا قال تعالى: ﴿وَما هذِهِ الْحَياةُ الدُّنْيا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوانُ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ﴾

[العنكبوت: ٦٤]

ب. وفي الآية دلالة على أن من الواجب على الناس أن يتبعوا في غايات الحياة أمر ربهم ويختاروا ما يختاره ويهدي إليه وقد اختار لهم التقوى كما أن من الواجب عليهم أن يختاروا من سنن الحياة ما يختاره لهم من الدين.

٥. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ﴾ قال: الشعوب العجم والقبائل العرب.

• أقول: ونسبه في مجمع البيان، إلى الصادق عليه السلام.

ب. أخرج ابن مردويه والبيهقي عن جابر بن عبد الله قال: خطبنا رسول الله ﷺ في وسط أيام التشريق خطبة الوداع، فقال: يا أيها الناس ألا إن ربكم واحد، ألا إن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأسود على أحمر ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى، إن أكرمكم عند الله أتقاكم، ألا هل بلغت؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال فليبلغ الشاهد الغائب.

ج. وفي الكافي، بإسناده عن أبي بكر الحضرمي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن رسول الله ﷺ زوج مقداد بن الأسود، ضباعة بنت الزبير بن عبد المطلب، إنما زوجه لتضع المناكح، وليتأسوا برسول الله ﷺ، وليعلموا أن أكرمهم عند الله أتقاهم.

د. وفي روضة الكافي، بإسناده عن جميل بن دراج قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: فما الكرم؟ قال: التقوى.

١٤. التمييز بين الإسلام والإيمان:

المقطع [١٤] من سورة الحجرات، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللهَّ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللهَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ٣٢٨»:

١. ﴿قالَتِ الْأَعْرابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾:

أ. الآية وما يليها إلى آخر السورة متعرضة لحال الأعراب في دعواهم الإيمان ومنهم على النبي ﷺ

بإيمانهم، وسياق نقل قولهم وأمر النبي ﷺ أن يجيبهم بقوله: ﴿لَمْ تُؤْمِنُوا﴾ يدل على أن المراد بالأعراب بعض الأعراب البادين دون جميعهم، ويؤيده قوله: ﴿وَمِنَ الْأَعْرابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [التوبة: ٩٩]

ب. ﴿قالَتِ الْأَعْرابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا﴾ أي قالوا لك آمنا وادعوا الإيمان قل لم تؤمنوا وكذبهم في دعواهم، وقوله: ﴿وَلكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنا﴾ استدراك مما يدل عليه سابق الكلام، والتقدير: فلا تقولوا آمنا ولكن قولوا: أسلمنا.

٢. ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾:

أ. لنفي دخول الإيمان في قلوبهم مع انتظار دخوله، ولذلك لم يكن تكرارا لنفي الإيمان المدلول عليه بقوله: ﴿لَمْ تُؤْمِنُوا﴾

ب. وقد نفي في الآية الإيمان عنهم وأوضحه بأنه لم يدخل في قلوبهم بعد وأثبت لهم الإسلام، ويظهر به الفرق بين الإيمان والإسلام بأن الإيمان معنى قائم بالقلب من قبيل الاعتقاد، والإسلام أمر قائم باللسان والجوارح فإنه الاستسلام والخضوع لسانا بالشهادة على التوحيد والنبوة وعملا بالمتابعة العملية ظاهرا سواء قارن الاعتقاد بحقية ما شهد عليه وعمل به أو لم يقارن، وبظاهر الشهادتين تحقن الدماء وعليه تجري المناكح والمواريث.

٣. ﴿وَإِنْ تُطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ لا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمالِكُمْ شَيْئاً﴾:

أ. الليت النقص يقال: لاته يليته ليتا إذا نقصه، والمراد بالإطاعة الإخلاص فيها بموافقة الباطن للظاهر من غير نفاق، وطاعة الله استجابة ما دعا إليه من اعتقاد وعمل، وطاعة رسوله تصديقه واتباعه فيما يأمر به فيما له الولاية عليه من أمور الأمة، والمراد بالأعمال جزاؤها المراد بنقص الأعمال نقص جزائها.

ب. والمعنى: وإن تطيعوا الله فيما يأمركم به من اتباع دينه اعتقادا، وتطيعوا الرسول فيما يأمركم به لا ينقص من أجور أعمالكم شيئا، وقوله: ﴿إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ تعليل لعدم نقصه تعالى أعمالهم إن أطاعوه ورسوله.

٤. أحاديث وآثار:

أ. في الكافي، بإسناده عن يونس بن يعقوب عن أبي عبد الله عليه السلام في حديث قال: إن الإسلام قبل الإيمان وعليه يتوارثون، وعليه يتناكحون والإيمان عليه يثابون.

ب. وفي الخصال، عن الأعمش عن جعفر بن محمد عليه السلام في حديث: والإسلام غير الإيمان، وكل مؤمن مسلم وليس كل مسلم مؤمنا.

ج. وفي الدر المنثور في قوله تعالى: ﴿قالَتِ الْأَعْرابُ آمَنَّا﴾ أخرج ابن جرير عن قتادة: في قوله: ﴿قالَتِ الْأَعْرابُ آمَنَّا﴾ قال: نزلت في بني أسد.

• أقول: وهو مروي أيضا عن مجاهد وغيره.

د. أخرج ابن ماجة وابن مردويه والطبراني والبيهقي في شعب الإيمان، عن علي بن أبي طالب قال: قال رسول الله ﷺ: الإيمان معرفة بالقلب وإقرار باللسان وعمل بالأركان.

١٥. المؤمنون الصادقون والجهاد بأموالهم وأنفسهم:

المقطع [١٥] من سورة الحجرات، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ٣٢٩»:

١. ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتابُوا وَجاهَدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾:

أ. تعريف تفصيلي للمؤمنين بعد ما عرفوا إجمالا بأنهم الذين دخل الإيمان في قلوبهم كما هو لازم قوله: ﴿لَمْ تُؤْمِنُوا﴾ و﴿لَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾

ب. فقوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ فيه قصر المؤمنين في الذين آمنوا بالله ورسوله إلخ، فتفيد تعريفهم بما ذكر من الأوصاف تعريفا جامعا مانعا فمن اتصف بها مؤمن حقا كما أن من فقد شيئا منها ليس بمؤمن حقا.

ج. والإيمان بالله ورسوله عقد القلب على توحيده تعالى وحقية ما أرسل به رسوله وعلى صحة الرسالة واتباع الرسول فيما يأمر به.

٢. ﴿ثُمَّ لَمْ يَرْتابُوا﴾ أي لم يشكوا في حقية ما آمنوا به وكان إيمانهم ثابتا مستقرا لا يزلزله شك، والتعبير بثم دون الواو، كما قيل، للدلالة على انتفاء عروض الريب حينا بعد حين كأنه طري جديد دائما فيفيد ثبوت الإيمان على استحكامه الأولى ولو قيل: ولم يرتابوا كان من الجائز أن يصدق مع الإيمان أولا

مقارنا لعدم الارتياب مع السكوت عما بعد.

٣. ﴿وَجاهَدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ﴾:

أ. المجاهدة بذل الجهد والطاقة وسبيل الله دينه، والمراد بالمجاهدة بالأموال والأنفس العمل بها تسعه الاستطاعة وتبلغه الطاقة في التكاليف المالية كالزكاة وغير ذلك من الإنفاقات الواجبة، والتكاليف البدنية كالصلاة والصوم والحج وغير ذلك.

ب. والمعنى: ويجدون بإتيان التكاليف المالية والبدنية حال كونهم أو حال كون عملهم في دين الله وسبيله.

٤. ﴿أُولئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ تصديق في إيمانهم إذا كانوا على الصفات المذكورة.

١٦. علم الله بدين كل إنسان ومدى التزامه بالحق:

المقطع [١٦] من سورة الحجرات، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ٣٣٠»:

١. ﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللهَ بِدِينِكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾:

أ. توبيخ للأعراب حيث قالوا: آمنا ولازمه دعوى الصدق في قولهم والإصرار على ذلك.

ب. وقيل: لما نزلت الآية السابقة حلفت الأعراب أنهم مؤمنون صادقون في قولهم: آمنا، فنزل: ﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللهَ بِدِينِكُمْ﴾ الآية، ومعنى الآية ظاهر.

١٧. الهداية ومنّة الله على عباده بها:

المقطع [١٧] من سورة الحجرات، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الحجرات: ١٧ـ١٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ٣٣٠»:

١. ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ بَلِ اللهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَداكُمْ لِلْإِيمانِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ﴾:

أ. أي يمنون عليك بأن أسلموا وقد أخطئوا في منهم هذا من وجهين أحدهما أن حقيقة النعمة

التي فيها المن هو الإيمان الذي هو مفتاح سعادة الدنيا والآخرة دون الإسلام الذي له فوائد صورية من حقن الدماء وجواز المناكح والمواريث، وثانيهما أن ليس للنبي ﷺ من أمر الدين إلا أنه رسول مأمور بالتبليغ فلا من عليه لأحد ممن أسلم.

ب. فلو كان هناك من لكان لهم على الله سبحانه لأن الدين دينه لكن لا من لأحد على الله لأن المنتفع بالدين في الدنيا والآخرة هم المؤمنون دون الله الغني على الإطلاق فالمن لله عليهم أن هداهم له.

ج. وقد بدل ثانيا الإسلام من الإيمان للإشارة إلى أن المن إنما هو بالإيمان دون الإسلام الذي إنما ينفعهم في الظاهر فقط.

٢. فقد تضمن قوله: ﴿قُلْ لا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ بَلِ اللهُ يَمُنُّ﴾، الإشارة إلى خطئهم من الجهتين جميعا:

أ. إحداهما: خطئهم من جهة توجيه المن إلى النبي ﷺ وهو رسول ليس له من الأمر شيء، وإليه الإشارة بقوله: ﴿لا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ﴾

ب. وثانيهما: أن المن، لو كان هناك من، إنما هو بالإيمان دون الإسلام، وإليه الإشارة بتبديل الإسلام من الإيمان.

٣. ﴿إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَاللهُ بَصِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ﴾:

أ. ختم للسورة وتأكيد يعلل ويؤكد به جميع ما تقدم في السورة من النواهي والأوامر وما بين فيها من الحقائق وما أخبر فيها عن إيمان قوم وعدم إيمان آخرين فالآية تعلل بمضمونها جميع ذلك.

ب. والمراد بغيب السماوات والأرض ما فيها من الغيب أو الأعم مما فيهما ومن الخارج منهما.

٤. أحاديث وآثار: أخرج النسائي والبزاز وابن مردويه عن ابن عباس قال: جاءت بنو أسد إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله أسلمنا وقاتلك العرب ولم نقاتلك، فنزلت هذه الآية ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا﴾

• أقول: وفي هذا المعنى روايات أخر.

سورة ق

هذه السورة الكريمة تحتوي على [٢١] مقطعاً، وهذا تعريف بمقاصدها، ومحتويات مقاطعها:

مقاصد السورة ومحتوياتها:

أ. السورة تذكر الدعوة وتشير إلى ما فيها من الإنذار بالمعاد، وجحد المشركين به واستعجابهم ذلك بأن الموت يستعقب بطلان الشخصية الإنسانية بصيرورته تراباً لا يبقى معه أثر مما كان عليه، فكيف يرجع ثانياً إلى ما كان عليه قبل الموت.

ب. فتدفع ما أظهروه من الاستعجاب والاستبعاد بأن العلم الإلهي محيط بهم، وعنده الكتاب الحفيظ الذي لا يعزب عنه شيء مما دق وجل من أحوال خلقه، ثم توعدهم بإصابة مثل ما أصاب الأمم الماضية الهالكة.

ج. وتنبه ثانياً على علمه وقدرته تعالى بالإشارة إلى ما جرى من تدبيره تعالى في خلق السماوات وما زينها به من الكواكب والنجوم وغير ذلك، وفي خلق الأرض من حيث مدها وإلقاء الرواسي عليها وإنبات الأزواج النباتية فيها، ثم بإنزال الماء وتهيئة أرزاق العباد وإحياء الأرض به.

د. ثم بيان حال الإنسان من أول ما خلق، وأنه تحت المراقبة الشديدة الدقيقة حتى ما يلفظ به من لفظ، وحتى ما يخطر بباله وتوسوس به نفسه ما دام حياً، ثم إذا أدركه الموت، ثم إذا بعث لفصل القضاء، ثم إذا فرغ من حسابه فأدخل النار إن كان من المكذبين، أو الجنة المزيفة إن كان من المتقين.

هـ. وبالجملة مصب الكلام في السورة هو المعاد، ومن غرر الآيات فيها قوله: ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هذا فَكَشَفْنا عَنْكَ غِطاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾، وقوله: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾، وقوله: ﴿لَهُمْ ما يَشاؤُنَ فِيها وَلَدَيْنا مَزِيدٌ﴾

و. والسورة مكية بشهادة سياق آياتها، إلا ما قيل في قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّماواتِ وَالْأَرْضَ﴾ الآية أو الآيتين، ولا شاهد عليه من اللفظ.

ز. وما أوردناه من الآيات فيه إجمال الإشارة إلى المعاد واستبعادهم له، وإجمال الجواب والتهديد أولاً، ثم الإشارة إلى تفصيل الجواب والتهديد ثانياً.

مقاطع السورة ونظمها:

١. الآيات [١ ـ ١٤] لم يذكر البيان المرتبط بها، وهي تقسم بالقرآن المجيد، وتذكر أن المشركين استبعدوا البعث، وتعدد آيات الله في خلق الإنسان والأرض والسماء، وتذكر أن كل قول يكتب، وتذكر عذاب الأمم السابقة كقوم نوح وعاد وثمود وغيرهم.

٢. الآيات [١٥ ـ ٣٨]:

أ. الآية الأولى متممة لما أورده في الآيات السابقة من الحجة على علمه وقدرته بما خلق السماء والأرض وما فيهما من خلق ودبر ذلك أكمل التدبير وأتمه، وذلك كله هو الخلق الأول والنشأة الأولى.

ب. فتمم ذلك بقوله: ﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ﴾، واستنتج منه أن القادر على الخلق الأول العالم به، قادر على خلق جديد ونشأة ثانية وعالم به، لأنهما مثلان، إذا جاز له خلق أحدهما جاز خلق الآخر، وإنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن.

ج. ثم أضرب عنه أنهم في التباس من خلق جديد مع مماثلة الخلقين، ثم أشار إلى نشأة الإنسان أول مرة وهو يعلم منه حتى خطرات قلبه، وعليه رقباؤه يراقبونه أدق المراقبة، ثم يجيئه سكرة الموت بالحق، ثم البعث، ثم دخول الجنة أو النار.

د. ثم أشار ثانياً إلى ما حل بالقرون الماضية المكذبة من السخط الإلهي وعذاب الاستئصال، وهم أشد بطشاً من هؤلاء، فمن جازاهم بالهلاك قادر على أن يجازي هؤلاء.

٣. الآيات [٣٩ ـ ٤٥]:

أ. خاتمة السورة، يأمر النبي ﷺ فيها أن يصبر على ما يقولون مما يرمونه بنحو السحر والجنون والشعر، وما يتعنتون به باستهزاء المعاد والرجوع إلى الله تعالى.

ب. فيأمره ﷺ بالصبر، وأن يعبد ربه بتسبيحه، وأن يتوقع البعث بانتظار الصيحة، وأن يذكر بالقرآن من يخاف الله بالغيب.

١. القسم بالقرآن المجيد:

المقطع [١] من سورة ق، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ [ق: ١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ٣٣٧»:

١. ﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾:

أ. قال في المجمع: (المجد في كلامهم الشرف الواسع يقال: مجد الرجل ومجد، بضم العين وفتحها، مجدا إذا عظم وكرم، وأصله من قولهم: مجدت الإبل مجودا إذا عظمت بطونها من كثرة أكلها من كلاء الربي)

ب. ﴿وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ قسم وجوابه محذوف يدل عليه الجمل التالية والتقدير والقرآن المجيد أن البعث حق أو إنك لمن المنذرين أو الإنذار حق، وقيل: جواب القسم مذكور وهو قوله: ﴿بَلْ عَجِبُوا﴾، وقيل: هو قوله: ﴿قَدْ عَلِمْنا ما تَنْقُصُ﴾، وقيل: قوله: ﴿ما يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ﴾، وقيل: قوله: ﴿إِنَّ فِي ذلِكَ لَذِكْرى﴾، وقيل: قوله: ﴿ما يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَ﴾، وهذه أقوال سخيفة لا يصار إليها.

٢. أحاديث وآثار:

أ. أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: خلق الله تعالى من وراء هذه الأرض بحرا محيطا بها، ثم خلق من وراء ذلك جبلا يقال له: ق، السماء الدنيا مترفرفة عليه، ثم خلق من وراء ذلك الجبل أرضا، مثل تلك الأرض سبع مرات، ثم خلق من وراء ذلك بحرا محيطا بها، ثم خلق من وراء ذلك جبلا يقال له ق، السماء الثانية مترفرفة عليه حتى عد سبع أرضين، وسبعة أبحر وسبعة أجبل وسبع سماوات، قال: وذلك قوله: ﴿وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾

ب. أخرج ابن المنذر وابن مردويه وأبو الشيخ والحاكم عن عبد الله بن بريدة في قوله تعالى: ﴿ق﴾ قال: جبل من زمرد محيط بالدنيا عليه كنفا السماء.

ج. أخرج ابن أبي الدنيا في العقوبات، وأبو الشيخ في العظمة، عن ابن عباس قال: خلق الله جبلا يقال له ق محيط بالعالم، وعروقه إلى الصخرة التي عليها الأرض، فإذا أراد الله أن يزلزل قرية أمر ذلك الجبل، فحرك العرق الذي يلي تلك القرية فيزلزلها ويحركها، فمن ثم تحرك القرية دون القرية.

• أقول: وروى القمي بإسناده عن يحيى بن ميسرة الخثعمي عن الباقر عليه السلام: مثل ما مر عن عبد الله بن بريدة، وروي ما في معناه مرسلا ومضمرا ولفظه: قال: جبل محيط بالدنيا وراء يأجوج ومأجوج.

• وكيفما كان لا تعويل على هذه الروايات، وبطلان ما فيها يكاد يلحق اليوم بالبديهيات أو هو منها.

٢. عجب المشركين من البعث وإنكارهم له:

المقطع [٢] من سورة ق، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ﴾ [ق: ٢-٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ٣٣٨»:

١. ﴿بَلْ عَجِبُوا أَنْ جاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقالَ الْكافِرُونَ هذا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾:

أ. إضراب عن مضمون جواب القسم المحذوف فكأنه قيل: إنا أرسلناك نذيرا فلم يؤمنوا بك بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم، أو قيل إن البعث الذي أنذرتهم به حق ولم يؤمنوا به بل عجبوا منه واستبعدوه.

ب. وضمير ﴿مِنْهُمْ﴾ في قوله: ﴿بَلْ عَجِبُوا أَنْ جاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ﴾ راجع إليهم بما هم بشر أي من جنسهم وذلك أن الوثنيين ينكرون نبوة البشر كما تقدمت الإشارة إليه مرارا أو راجع إليهم بما هم عرب والمعنى: بل عجبوا أن جاءهم منذر من قومهم وبلسانهم يبين لهم الحق أوفى بيان فيكون أبلغ في تقريعهم.

٢. ﴿فَقالَ الْكافِرُونَ هذا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ وصفهم بالكفر ولم يقل: وقال المشركون ونحو ذلك للدلالة على سترهم للحق لما جاءهم، والإشارة في قولهم: ﴿هذا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾، إلى البعث والرجوع إلى الله كما يفسره قوله بعد: ﴿أَإِذا مِتْنا وَكُنَّا تُراباً﴾

٣. ﴿أَإِذا مِتْنا وَكُنَّا تُراباً ذلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾:

أ. الرجع والرجوع بمعنى والمراد بالبعد البعد عن العقل.

ب. وجواب إذا في قولهم: ﴿أَإِذا مِتْنا وَكُنَّا تُراباً﴾ محذوف يدل عليه قولهم: ﴿ذلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ والتقدير أءذا متنا وكنا ترابا نبعث ونرجع؟ والاستفهام للتعجيب، وإنما حذف للإشارة إلى أنه عجيب بحيث لا ينبغي أن يذكر، إذ لا يقبله عقل ذي عقل والآية في مساق قوله: ﴿وَقالُوا أَإِذا ضَلَلْنا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ الم [السجدة: ١٠]

ج. والمعنى: أنهم يتعجبون ويقولون: أءذا متنا وكنا ترابا، وبطلت ذواتنا بطلانا لا أثر معه منها، نبعث ونرجع؟ ثم كان قائلا يقول لهم: مم تتعجبون؟ فقالوا: ذلك رجع بعيد يستبعده العقل ولا يسلمه.

٤. ﴿قَدْ عَلِمْنا ما تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنا كِتابٌ حَفِيظٌ﴾:

أ. رد منه تعالى لاستبعادهم البعث والرجوع مستندين في ذلك إلى أنهم ستتلاشى أبدانهم بالموت فتصير ترابا متشابه الأجزاء لا تمايز لجزء منها من جزء والجواب أنا نعلم بها تأكله الأرض من أبدانهم وتنقصه منها فلا يفوت علمنا جزء من أجزائهم حتى يتعسر علينا إرجاعه أو يتعذر بالجهل.

ب. أو أنا نعلم من يموت منهم فيدفن في الأرض فتنقصه الأرض من جمعهم، و(من) على أول الوجهين تبعيضية وعلى الثاني تبيينية.

٥. ﴿وَعِنْدَنا كِتابٌ حَفِيظٌ﴾:

أ. أي حافظ لكل شيء ولآثاره وأحواله، أو كتاب ضابط للحوادث محفوظ عن التغيير والتحريف، وهو اللوح المحفوظ الذي فيه كل ما كان وما يكون وما هو كائن إلى يوم القيامة.

ب. وقول بعضهم إن المراد به كتاب الأعمال غير سديد:

• أولا: من جهة أن الله ذكره حفيظا لما تنقص الأرض منهم وهو غير الأعمال التي يحفظه كتاب الأعمال.

• وثانيا: أنه سبحانه إنما وصف في كلامه بالحفظ اللوح المحفوظ دون كتب الأعمال فحمل الكتاب الحفيظ على كتاب الأعمال من غير شاهد.

ب. ومحصل جواب الآية أنهم زعموا أن موتهم وصيرورتهم ترابا متلاشي الذرات غير متمايز الأجزاء يصيرهم مجهولي الأجزاء عندنا فيمتنع علينا جمعها وإرجاعها لكنه زعم باطل فإنا نعلم بمن مات منهم وما يتبدل إلى الأرض من أجزاء أبدانهم وكيف يتبدل وإلى أين يصير؟ وعندنا كتاب حفيظ فيه كل شيء وهو اللوح المحفوظ.

٦. أحاديث وآثار: في تفسير القمي في قوله تعالى: ﴿فَقالَ الْكافِرُونَ هذا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ قال: نزلت في أبي بن خلف قال لأبي جهل: تعال إلي أعجبك من محمد ثم أخذ عظما ففته، ثم قال: يا محمد تزعم أن هذا يحيا؟ فقال الله: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ﴾

٣. تكذيب المشركين بالحق وكونهم في أمر مريج:

المقطع [٣] من سورة ق، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ

مَرِيجٍ﴾ [ق: ٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ٣٤٠»:

١. ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ﴾:

أ. المرج الاختلاط والالتباس، وفي الآية إضراب عما تلوح إليه الآية السابقة فإن اللائح منها أنهم إنما تعجبوا من أمر البعث والرجوع واستبعدوه لجهلهم بأن الله سبحانه عليم لا يعزب عنه شيء من أحوال خلقه وآثارهم وأن جميع ذلك مستطر في اللوح المحفوظ عند الله بحيث لا يشذ عنه شاذ.

ب. فأضرب في هذه الآية أن ذلك ليس من جهلهم وإن تجاهلوا بل كذبوا بالحق لما جاءهم فاستبان لهم أنه حق فهم جاحدون للحق معاندون له وليسوا بجاهلين به قاصرين عن إدراكه فهم في أمر مريج مختلط غير منتظم يدركون الحق ويكذبون به مع أن لازم العلم بشيء تصديقه والإيمان به.

ج. وقيل: المراد بكونهم في أمر مريج أنهم متحيرون بعد إنكار الحق لا يدرون ما يقولون فتارة يقولون: افتراء على الله، وتارة: سحر، وتارة: شعر، وتارة: كهانة وتارة: زجر، ولذلك عقب الكلام بذكر آيات علمه وقدرته توبيخا لهم ثم بالإشارة إلى تكذيب الأمم الماضية الهالكة الذي ساقهم إلى عذاب الاستئصال، تهديدا لهم.

٤. السماء والأرض والجبال والنبات دليل القدرة:

المقطع [٤] من سورة ق، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾ [ق: ٦ـ٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ٣٤٠»:

١. ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّماءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْناها وَزَيَّنَّاها وَما لَها مِنْ فُرُوجٍ﴾ الفروج جمع فرجة: الشقوق والفتوق، وتقييد السماء بكونها فوقهم للدلالة على أنها بمرأى منهم لا تغيب عن أنظارهم، والمراد بتزيينها خلق النجوم اللامعة فيها بما لها من الجمال البديع، فبناء هذا الخلق البديع بما لها من الجمال الرائع من غير شقوق وفتوق أصدق شاهد على قدرته القاهرة وعلمه المحيط بما خلق.

٢. ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْناها وَأَلْقَيْنا فِيها رَواسِيَ وَأَنْبَتْنا فِيها مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾:

أ. مد الأرض بسطها لتلائم عيشة الإنسان، والرواسي جمع الراسية بمعنى الثابتة صفة محذوفة الموصوف وهو الجبال، والمراد جعل الجبال الثابتة على ظهرها، والبهيج من البهجة، قال في المجمع:

(البهجة الحسن الذي له روعة عند الرؤية كالزهرة والأشجار النضرة والرياض الخضرة)، وقيل: المراد بالبهيج الذي من رآه بهج وسر به فهو بمعنى المبهوج به.

ب. والمراد بإنبات كل زوج بهيج إنبات كل صنف حسن المنظر من النبات.

ج. فخلق الأرض وما جرى فيها من التدبير الإلهي العجيب أحسن دليل يدل العقل على كمال القدرة والعلم.

٣. ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾ مفعول له أي فعلنا ما فعلنا من بناء السماء ومد الأرض وعجائب التدبير التي أجريناها فيهما ليكون تبصرة يتبصر بها وذكرى يتذكر بها كل عبد راجع إلى الله سبحانه.

٥. إنزال الماء المبارك وإخراج الجنات والنخل والحب:

المقطع [٥] من سورة ق، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾ [ق: ٩ـ١١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ٣٤١»:

١. ﴿وَنَزَّلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً مُبارَكاً فَأَنْبَتْنا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ﴾ السماء جهة العلو والماء المبارك المطر، وصف بالمباركة لكثرة خيراته العائدة إلى الأرض وأهلها، وحب الحصيد المحصود من الحب وهو من إضافة الموصوف إلى الصفة، والمعنى ظاهر.

٢. ﴿وَالنَّخْلَ باسِقاتٍ لَها طَلْعٌ نَضِيدٌ﴾ الباسقات جمع باسقة وهي الطويلة العالية، والطلع أول ما يطلع من ثمر النخيل، والنضيد بمعنى المنضود بعضه على بعض والمعنى ظاهر.

٣. ﴿رِزْقاً لِلْعِبادِ وَأَحْيَيْنا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً كَذلِكَ الْخُرُوجُ﴾ الرزق ما يمد به البقاء، و﴿رِزْقاً لِلْعِبادِ﴾ مفعول له أي أنبتنا هذه الجنات وحب الحصيد والنخل باسقات بما لها من الطلع النضيد ليكون رزقا للعباد فمن خلق هذه النباتات ليرزق به العباد بما في ذلك من التدبير الوسيع الذي يدهش اللب ويحير العقل هو ذو علم لا يتناهى وقدرة لا تعيى لا يشق عليه إحياء الإنسان بعد موته وإن تلاشت ذرأت جسمه وضلت في الأرض أجزاء بدنه.

٤. ﴿وَأَحْيَيْنا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً كَذلِكَ الْخُرُوجُ﴾:

أ. برهان آخر على البعث غير ما تقدم استنتج من طي الكلام فإن البيان السابق في رد استبعادهم للبعث مستندين إلى صيرورتهم ترابا غير متمايز الأجزاء كان برهانا من مسلك إثبات علمه بكل شيء وقدرته على كل شيء وهذا البرهان الذي يتضمنه قوله: ﴿وَأَحْيَيْنا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً كَذلِكَ الْخُرُوجُ﴾ من مسلك إثبات إمكان الشيء بوقوع مثله فليس الخروج من القبور بالإحياء بعد الموت إلا مثل خروج النبات الميت من الأرض بعد موتها ووقوف قواه عن النماء والنشوء.

ب. وقد قررنا هذا البرهان في ذيل الآيات المستدلة بإحياء الأرض بعد موتها على البعث غير مرة فيما تقدم من أجزاء الكتاب.

٦. تكذيب الأمم السابقة للرسل واستحقاقهم الوعيد:

المقطع [٦] من سورة ق، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ [ق: ١٢-١٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ٣٤٢»:

١. ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾، إلى قوله: ﴿كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾، تهديد وإنذار لهم بما كذبوا بالحق لما جاءهم وتبين لهم عنادا كما أشرنا إليه قبل، وقد تقدم ذكر أصحاب الرس في تفسير سورة الفرقان، وذكر أصحاب الأيكة وهم قوم شعيب في سور الحجر والشعراء وص، وذكر قوم تبع في سورة الدخان.

وفي قوله: ﴿كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ إشارة إلى أن هناك وعيدا بالهلاك ينجز عند تكذيب الرسل قال تعالى: ﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [النحل: ٣٦]

٧. الله لم يعي بالخلق الأول وهم في لبس من خلق جديد:

المقطع [٧] من سورة ق، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [ق: ١٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ٣٤٣»:

١. ﴿أَفَعَيِينا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾:

أ. العي عجز يلحق من تولي الأمر والكلام كذا، قال الراغب: (يقال: أعياني كذا وعييت بكذا أي عجزت عنه والخلق الأول خلق هذه النشأة الطبيعية بنظامها الجاري ومنها الإنسان في حياته الدنيا فلا

وجه لقصر الخلق الأول في خلق السماء والأرض فقط كما مال إليه الرازي في التفسير الكبير ولا لقصره في خلق الإنسان كما مال إليه بعضهم وذلك لأن الخلق الجديد يشمل السماء والأرض والإنسان جميعا كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّماوَاتُ وَبَرَزُوا للهِ الْواحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم: ٤٨]، والخلق الجديد خلق النشأة الثانية وهي النشأة الآخرة، والاستفهام للإنكار، والمعنى: أعجزنا عن الخلق الأول حتى نعجز عن الخلق الجديد؟ أي لم نعجز عن الخلق الأول وهو إبداؤه فلا نعجز عن الخلق الجديد وهو إعادته.

ب. ولو أخذ العي بمعنى التعب كما مال إليه بعضهم كان المعنى: هل تعبنا بسبب الخلق الأول حتى يتعذر أو يتعسر علينا الخلق الجديد؟ وذلك كما أن الإنسان وسائر الحيوان إذا أتى بشيء من الفعل وأكثر منه انتهي به إلى التعب البدني فيكفه ذلك عن الفعل بعد، فما لم يأت به من الفعل لكونه تعبان مثل ما أتى لكنه لا يؤتى به لأن الفاعل لا يستطيعه لتعبه وإن كان الفعل جائزا متشابه الأمثال، وهذا معنى لا بأس به لكن قيل: إن استعمال العي بمعنى العجز أفصح.

ج. على أن سوق الحجة من طريق العجز يفيد استحالة الإتيان ونفيها هو المطلوب بخلاف سوقها من طريق التعب فإنه يفيد تعسره دون استحالة الإتيان ومراد النافين للمعاد استحالته دون تعسره هذا.

٢. ﴿بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾:

أ. اللبس هو الالتباس، والمراد بالخلق الجديد تبديل نشأتهم الدنيا من نشأة أخرى ذات نظام آخر وراء النظام الطبيعي الحاكم في الدنيا فإن في النشأة الأخرى وهي الخلق الجديد بقاء من غير فناء وحياة من غير موت ثم إن كان الإنسان من أهل السعادة فله نعمة من غير نقمة وإن كان من أهل الشقاء ففي نقمة لا نعمة معها، والنشأة الأولى وهي الخلق الأول والنظام الحاكم فيها على خلاف ذلك.

ب. والمعنى: إذا كنا خلقنا العالم بسمائه وأرضه وما فيهما ودبرناه أحسن تدبير لأول مرة بقدرتنا وعلمنا ولم نعجز عن ذلك علما وقدرة فنحن غير عاجزين عن تجديد خلقه وهو تبديله خلقا جديدا فلا ريب في قدرتنا ولا التباس بل هم في التباس لا سبيل لهم مع ذلك إلى الإيمان بخلق جديد.

٣. أحاديث وآثار: في التوحيد، بإسناده إلى عمرو بن شمر عن جابر بن يزيد قال: سألت أبا جعفر عليه السلام عن قول الله عز وجل: ﴿أَفَعَيِينا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ قال: يا جابر

تأويل ذلك أن الله عز وجل، إذا أفنى هذا الخلق وهذا العالم، وسكن أهل الجنة الجنة وأهل النار النار، جدد الله عالما غير هذا العالم، وجدد خلقا من غير فحولة ولا إناث يعبدونه ويوحدونه، وخلق لهم أرضا غير هذه الأرض تحملهم، وسماء غير هذه السماء تظلهم، لعلك ترى أن الله إنما خلق هذا العالم الواحد، أو ترى أن الله لم يخلق بشرا غيركم، بلى والله لقد خلق ألف ألف عالم وألف ألف آدم، أنت في آخر تلك العوالم وأولئك الآدميين.

• أقول: وروي في الخصال، الشطر الأول من الحديث بإسناده عن محمد بن مسلم عنه عليه السلام، ولعل المراد بكون ما ذكر تأويل الآية أنه مما ينطبق عليه.

٨. خلق الإنسان وعلم الله بوسوسته وقربه من حبل الوريد:

المقطع [٨] من سورة ق، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ٣٤٧»:

١. ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ وَنَعْلَمُ ما تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾:

أ. قال الراغب: (الوسوسة الخطرة الرديئة وأصله من الوسواس وهو صوت الحلي والهمس الخفي)

ب. والمراد بخلق الإنسان وجوده المتدرج المتحول خلقا بعد خلق لا أول تكوينه إنسانا وإن عبر عنه بالماضي إذ قال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ﴾ إذ الإنسان، وكذا كل مخلوق له حظ من البقاء، كما يحتاج إلى عطية ربه في أول وجوده كذلك يحتاج إليه في بقائه.

ج. ولما ذكر من النكتة عطف قوله: ﴿وَنَعْلَمُ ما تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ﴾ وهو فعل مضارع مسوق للدلالة على الاستمرار على قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ﴾ وهو فعل ماض لكنه مستمر المعنى، وكذا قوله: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ مفيد للثبوت والدوام والاستمرار باستمرار وجود الإنسان.

د. وللآية اتصال بما تقدم من الاحتجاج على علمه وقدرته تعالى في الخلق الأول بقوله: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّماءِ﴾ واتصال أيضا بقوله تعالى في الآية السابقة: ﴿بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ فهي في سياق يذكر قدرته على الإنسان بخلقه، وعلمه به بلا واسطة وبواسطة الملائكة الحفظة الكتبة، فقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ﴾، واللام للقسم، دال على القدرة عليه بإثبات الخلق.

٢. ﴿وَنَعْلَمُ ما تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ﴾:

أ. في ذكر أخفى أصناف العلم وهو العلم بالخطور النفساني الخفي إشارة إلى استيعاب العلم له كأنه قيل: ونعلم ظاهره وباطنه حتى ما توسوس به نفسه ومما توسوس به الشبهة في أمر المعاد: كيف يبعث الإنسان وقد صار بعد الموت ترابا متلاشي الأجزاء غير متميز بعضها من بعض.

ب. وقد بان أن (ما) في ﴿ما تُوَسْوِسُ بِهِ﴾ موصولة وضمير ﴿بِهِ﴾ عائد إليه والباء للآلة أو للسببية، ونسب الوسوسة إلى النفس دون الشيطان وإن كانت منسوبة إليه أيضا لأن الكلام في إحاطة العلم بالإنسان حتى بما في زوايا نفسه من هاجس ووسوسة.

٣. ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾:

أ. الوريد عرق متفرق في البدن فيه مجاري الدم، وقيل: هو العرق الذي في الحلق، وكيف كان فتسميته حبلا لتشبيهه به، وإضافة حبل الوريد بيانية.

ب. والمعنى: نحن أقرب إلى الإنسان من حبل وريده المخالط لأعضائه المستقر في داخل بدنه فكيف لا نعلم به وبما في نفسه.

ج. وهذا تقريب للمقصود بجملة ساذجة يسهل تلقيها لعامة الأفهام وإلا فأمر قربه تعالى إليه أعظم من ذلك وأعظم فهو سبحانه الذي جعلها نفسا ورتب عليها آثارها فهو الواسطة بينها وبين نفسها وبينها وبين آثارها وأفعالها فهو أقرب إلى الإنسان من كل أمر مفروض حتى في نفسه، ولكون هذا المعنى دقيقا يشق تصوره على أكثر الأفهام عدل سبحانه إلى بيانه بنحو قوله: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ وقريب منه بوجه قوله: ﴿أَنَّ اللهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾

د. ولهم في معنى الآية وجوه كثيرة أخر لا جدوى في نقلها والبحث عنها من أرادها فليراجع كتبهم.

٩. الملكان يكتبان كل قول ورقيب عتيد:

المقطع [٩] من سورة ق، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٧-١٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ٣٤٧»:

١. ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمالِ قَعِيدٌ﴾ التلقي الأخذ والتلقن، والمراد بالمتلقيان

على ما يفيده السياق الملكان الموكلان على الإنسان اللذان يتلقيان عمله فيحفظانه بالكتابة.

٢. ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمالِ قَعِيدٌ﴾ تقديره عن اليمين قعيد وعن الشمال قعيد، والمراد باليمين والشمال يمين الإنسان وشماله، والقعيد القاعد.

٣. والظرف في قوله: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيانِ﴾:

أ. الظاهر أنه متعلق بمحذوف والتقدير اذكر إذ يتلقى المتلقيان، والمراد به الإشارة إلى علمه تعالى بأعمال الإنسان من طريق كتاب الأعمال من الملائكة وراء علمه تعالى بذاته من غير توسط الوسائط.

ب. وقيل: الظرف متعلق بقوله في الآية السابقة: ﴿أَقْرَبُ﴾ والمعنى: نحن أقرب إليه من حبل الوريد في حين يتلقى الملكان الموكلان عليه أعماله ليكتباها.

ج. ولعل الوجه السابق أوفق للسياق فإن بناء هذا الوجه على كون العمدة في الغرض بيان أقربيته تعالى إليه وعلمه به والباقي مقصود لأجله، وظاهر السياق وخاصة بالنظر إلى الآية التالية كون كل من العلم من طريق القرب ومن طريق تلقي الملكين مقصودا بالاستقلال.

د. وقيل: ﴿إِذْ﴾ تعليلية تعلل علمه تعالى المدلول عليه بقوله: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ﴾، بمفاد مدخولها.

• وفيه أن من البعيد من مذاق القرآن أن يستدل على علمه تعالى بعلم الملائكة أو بحفظهم وكتابتهم.

٤. ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمالِ قَعِيدٌ﴾ تمثيل لموقعهما من الإنسان، واليمين والشمال جانبا الخير والشر ينتسب إليهما الحسنة والسيئة.

٥. ﴿ما يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾:

أ. اللفظ الرمي سمي به التكلم بنوع من التشبيه، والرقيب المحافظ، والعتيد المعد المهيأ للزوم الأمر.

ب. والآية تذكر مراقبة الكتبة للإنسان فيما يتكلم به من كلام، وهي بعد قوله: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيانِ﴾، من ذكر الخاص بعد العام لمزيد العناية به.

٦. أحاديث وآثار: عن جوامع الجامع، عن النبي ﷺ: كاتب الحسنات على يمين الرجل، وكاتب

السيئات على شماله، وصاحب اليمين أمير على صاحب الشمال: فإذا عمل حسنة كتبها صاحب اليمين عشرا، وإذا عمل سيئة قال صاحب اليمين لصاحب الشمال: دعه سبع ساعات لعله يسبح أو يستغفر.

• أقول: وفي معناها روايات أخرى، وروي ست ساعات بدل سبع ساعات.

١٠ . سكرة الموت ونفخ الصور ومجيء كل نفس معها سائق وشهيد:

المقطع [١٠] من سورة ق، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ [ق: ١٩-٢١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ٣٤٨»:

١ . ﴿وَجاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذلِكَ ما كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾:

أ. الحيد العدول والميل على سبيل الهرب، والمراد بسكرة الموت ما يعرض الإنسان حال النزع إذ يشتغل بنفسه وينقطع عن الناس كالسكران الذي لا يدري ما يقول ولا ما يقال له.

ب. وفي تقييد مجيء سكرة الموت بالحق إشارة إلى أن الموت داخل في القضاء الإلهي مراد في نفسه في نظام الكون كما يستفاد من قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥]، وقد مر تفسيره فالموت، وهو الانتقال من هذه الدار إلى دار بعدها، حق كما أن البعث حق والجنة حق والنار حق، وفي معنى كون الموت بالحق أقوال أخر لا جدوى في نقلها والتعرض لها.

ج. وفي قوله: ﴿ذلِكَ ما كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ إشارة إلى أن الإنسان يكره الموت بالطبع وذلك أن الله سبحانه زين الحياة الدنيا والتعلق بزخارفها للإنسان ابتلاء وامتحانا، قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنا ما عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَها لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَإِنَّا لَجاعِلُونَ ما عَلَيْها صَعِيداً جُرُزاً﴾ [الكهف: ٨]

٢ . ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ﴾:

أ. هذه نقلة ثانية إلى عالم الخلود بنفخ الصور بعد النقلة الأولى، والمراد بنفخ الصور النفخة الثانية المقيمة للساعة أو مجموع النفختين بإرادة مطلق النفخ.

ب. والمراد بيوم الوعيد يوم القيامة الذي ينجز الله تعالى فيه وعيده على المجرمين من عباده.

٣ . ﴿وَجاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَها سائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾:

أ. السياقة حث الماشية على المسير من خلفها بعكس القيادة فهي جلبها من أمامها.

ب. فقوله: ﴿وَجاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ﴾ أي جاءت إلى الله وحضرت عنده لفصل القضاء، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿إِلى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَساقُ﴾ [القيامة: ٣٠]

ج. والمعنى: وحضرت عنده تعالى كل نفس معها سائق يسوقها وشاهد يشهد بأعمالها ولم يصرح تعالى بكونها من الملائكة أو بكونها هما الكاتبين أو من غير الملائكة، غير أن السابق إلى الذهن من سياق الآيات أنهما من الملائكة، وسيجيء الروايات في ذلك.

د. وكذا لا تصريح بكون الشهادة منحصرة في هذا الشاهد المذكور في الآية بل الآيات الواردة في شهداء يوم القيامة تقضي بعدم الانحصار، وكذا الآيات التالية الذاكرة لاختصام الإنسان وقرينة دالة على أن مع الإنسان يومئذ غير السائق والشهيد.

٤. أحاديث وآثار: في نهج البلاغة ﴿وَجاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَها سائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ سائق يسوقها إلى محشرها وشاهد يشهد عليها بعملها.

١١. كشف الغطاء عن الإنسان يوم القيامة:

المقطع [١١] من سورة ق، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: ٢٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ٣٤٩»:

١. ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هذا فَكَشَفْنا عَنْكَ غِطاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾:

أ. وقوع الآية في سياق آيات القيامة واحتفافها بها يقضي بكونها من خطابات يوم القيامة، والمخاطب بها هو الله سبحانه، والذي خوطب بها هو الإنسان المذكور

ب. في قوله: ﴿وَجاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ﴾ وعليه فالخطاب عام متوجه إلى كل إنسان إلا أن التوبيخ والتقريع اللائح من سياق الآية ربما استدعى اختصاص الخطاب بمنكري المعاد، أضف إلى ذلك، كون الآيات مسوقة لرد منكري المعاد في قولهم: ﴿أَإِذا مِتْنا وَكُنَّا تُراباً ذلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾

ج. والإشارة بقوله: ﴿هذا﴾ إلى ما يشاهده يومئذ ويعاينه من تقطع الأسباب وبوار الأشياء ورجوع الكل إلى الله الواحد القهار، وقد كان تعلق الإنسان في الدنيا بالأسباب الظاهرية وركونه إليها أغفله عن ذلك حتى إذا كشف الله عنه حجاب الغفلة فبدت له حقيقة الأمر فشاهد ذلك مشاهدة عيان لا

علما فكريا.

د. ولذا خوطب بقوله: ﴿لَقَدْ كُنْتَ﴾ في الدنيا ﴿فِي غَفْلَةٍ﴾ أحاطت بك (من هذا) الذي تشاهده وتعاينه وإن كان في الدنيا نصب عينيك لا يغيب لكن تعلقك بذيل الأسباب أذهلك وأغفلك عنه ﴿فَكَشَفْنا عَنْكَ غِطاءَكَ﴾ اليوم ﴿فَبَصَرُكَ﴾ وهو البصيرة وعين القلب ﴿الْيَوْمَ﴾ وهو يوم القيامة ﴿حَدِيدٌ﴾ أي نافذ يبصر ما لم يكن يبصره في الدنيا.

هـ. ويتبين بالآية:

• أولا: أن معرف يوم القيامة أنه يوم ينكشف فيه غطاء الغفلة عن الإنسان فيشاهد حقيقة الأمر، وفي هذا المعنى وما يقرب منه آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ [الانفطار: ١٩]، وقوله: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْواحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [المؤمن: ١٦]، إلى غير ذلك من الآيات.

• وثانيا: أن ما يشاهده الإنسان يوم القيامة موجود مهيأ له وهو في الدنيا غير أنه في غفلة منه، وخاصة يوم القيامة أنه يوم انكشاف الغطاء ومعاينة ما وراءه، وذلك لأن الغفلة إنما يتصور فيما يكون هناك أمر موجود مغفول عنه، والغطاء يستلزم أمرا وراءه وهو يغطيه ويستره، وعدم حدة البصر إنما ينفع فيما إذا كان هناك مبصر دقيق لا ينفذ فيه البصر.

و. ومن أسخف القول ما قيل: إن الآية خطاب منه تعالى لنبيه ﷺ، والمعنى: لقد كنت قبل الرسالة في غفلة من هذا الذي نوحي إليك فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد يدرك الوحي أو يبصر ملك الوحي فيتلقى الوحي، وذلك لأن السياق لا يساعده ولا لفظ الآية ينطبق عليه.

٢. أحاديث وآثار: أخرج ابن أبي الدنيا في ذكر الموت وابن أبي حاتم وأبو نعيم في الحلية، عن جابر بن عبد الله قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن ابن آدم لفي غفلة عما خلق له، إن الله إذا أراد خلقه قال للملك: اكتب رزقه، اكتب أثره، اكتب أجله شقيا أم سعيدا، ثم يرتفع ذلك الملك ويبعث الله ملكا، فيحفظه حتى يدرك ثم يرتفع ذلك الملك، ثم يوكل الله به ملكين يكتبان حسناته وسيئاته، فإذا حضره الموت ارتفع ذلك الملكان، وجاء ملك الموت ليقبض روحه، فإذا أدخل قبره رد الروح في جسده، وجاءه ملكا القبر فامتحناه ثم يرتفعان، فإذا قامت الساعة انحط عليه ملك الحسنات، وملك السيئات، فبسطا كتابا معقودا في عنقه، ثم حضرا معه واحد سائق وآخر شهيد، ثم قال رسول الله ﷺ: إن قدامكم لأمرا

عظيما، لا تقدرونه فاستعينوا بالله العظيم.

١٢. شهادة القرين وإلقاء الكفار المعاندين في جهنم:

المقطع [١٢] من سورة ق، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ﴾ [ق: ٢٣-٢٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ٣٥١»:

١. ﴿وَقالَ قَرِينُهُ هذا ما لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾:

أ. لا يخلو السياق من ظهور في أن المراد بهذا القرين الملك الموكل به فإن كان هو السائق كان معنى قوله: ﴿هذا ما لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾ هذا الإنسان الذي هو عندي حاضر، وإن كان هو الشهيد كان المعنى هذا، وهو يشير إلى أعماله التي حمل الشهادة عليها، ما عندي من أعماله حاضر مهيأ.

ب. وقيل: المراد بالقرين الشيطان الذي يصاحبه ويغويه، ومعنى كلامه على هذا الإنسان هو الذي توليت أمره وملكته حاضر مهيأ لدخول جهنم.

٢. ﴿أَلْقِيا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ﴾:

أ. الكفار اسم مبالغة من الكفر، والعنيد المعاند للحق المستمر على عناده، والمعتدي المتجاوز عن الحد المتخطئ للحق، والمريب الشاك أو المشكك في أمر البعث.

ب. وبين هذه الصفات المعدودة شبه الاستلزام فإن كثرة الكفر برد الإنسان كل حق يواجهه تنتج العناد مع الحق والإصرار عليه، والإصرار على العناد يوجب المنع عن أكثر الخيرات إذ لا خير إلا في الحق ومن ناحيته، وهو يستلزم الخروج عن حد الحق إلى الباطل وتجاوز الإنسان عن حد العبودية إلى الاستكبار والطغيان ويستلزم تشكيك الناس في ما يرومونه من دين الحق.

ج. والخطاب في الآية منه تعالى، وظاهر سياق الآيات أن المخاطب به هما الملكان الموكلان السائق والشهيد، واحتمل بعضهم أن يكون الخطاب إلى ملكين من ملائكة النار وخزنتها.

٣. ﴿الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللهِ إِلهاً آخَرَ فَأَلْقِياهُ فِي الْعَذابِ الشَّدِيدِ﴾ العدول في ذكر صفة الشرك عن الإيجاز إلى الإطناب حيث لم يقل: مشرك وقال: ﴿الَّذِي جَعَلَ﴾، للإشارة إلى أن هذه الصفة أعظم المعاصي وأم الجرائم التي أتى بها والصفات الرذيلة التي عدت له من الكفر والعناد ومنع الخير والاعتداء والإرابة.

٤. ﴿فَأَلْقِياهُ فِي الْعَذابِ الشَّدِيدِ﴾ تأكيد لما تقدم من الأمر بقوله: ﴿أَلْقِيا﴾، ويلوح إلى تشديد الأمر من جهة الشرك، ولذا عقبه بقوله: ﴿فِي الْعَذابِ الشَّدِيدِ﴾

٥. أحاديث وآثار: في المجمع: (وروى أبو القاسم الحسكاني بالإسناد عن الأعمش قال: حدثنا أبو المتوكل التاجر عن أبي السعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: إذا كان يوم القيامة يقول الله لي ولعلي: ألقيا في النار من أبغضكما، وأدخلا في الجنة من أحبكما وذلك قوله: ﴿أَلْقِيا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾

• أقول: ورواه شيخ الطائفة في أماليه، بإسناده عن أبي سعيد الخدري عنه ﷺ.

١٣. القرين يبرئ نفسه ويقول إنه كان في ضلال بعيد:

المقطع [١٣] من سورة ق، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ [ق: ٢٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ٣٥١»:

١. ﴿قالَ قَرِينُهُ رَبَّنا ما أَطْغَيْتُهُ وَلكِنْ كانَ فِي ضَلالٍ بَعِيدٍ﴾:

أ. المراد بهذا القرين قرينه من الشياطين بلا شك، وقد تكرر في كلامه تعالى ذكر القرين من الشيطان وهو الذي يلازم الإنسان ويوحي إليه ما يوحي من الغواية والضلال، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ حَتَّى إِذا جاءَنا قالَ يا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ﴾ [الزخرف: ٣٨]

ب. فقوله: ﴿قالَ قَرِينُهُ﴾ أي شيطانه الذي يصاحبه ويغويه ﴿رَبَّنا﴾ أضاف الرب إلى نفسه والإنسان الذي هو قرينه لأنهما في مقام الاختصام ﴿ما أَطْغَيْتُهُ﴾ أي ما أجبرته على الطغيان ﴿وَلكِنْ كانَ فِي ضَلالٍ بَعِيدٍ﴾ أي متهيئا مستعدا لقبول ما ألقيته إليه تلقاه باختياره فما أنا بمسئولين عن ذنبه في طغيانه.

ج. وقد تقدم في سورة الصافات تفصيل اختصام الظالمين وأزواجهم في قوله: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْواجَهُمْ﴾ [الصافات: ٢٢]، إلى آخر الآيات.

١٤. لا اختصام لدى الله بعد أن جاءت النذر:

المقطع [١٤] من سورة ق، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [ق: ٢٨-٢٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ٣٥٢»:

١. ﴿قالَ لا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ﴾ القائل هو الله سبحانه يخاطبهم وكأنه خطاب واحد لعامة المشركين الطاغين وقرنائهم ينحل إلى خطابات جزئية لكل إنسان وقرينه بمثل قولنا: لا تختصما لدي.

٢. ﴿وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ﴾:

أ. حال من فاعل ﴿لا تَخْتَصِمُوا﴾ و﴿بِالْوَعِيدِ﴾ مفعول ﴿قَدَّمْتُ﴾ والباء للوصلة.

ب. والمعنى: لا تختصموا لدي فلا نفع لكم فيه بعد ما أبلغتكم وعيدي لمن أشرك وظلم، والوعيد الذي قدمه إليهم مثل قوله تعالى لإبليس: ﴿اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزاؤُكُمْ جَزاءً مَوْفُوراً﴾ [الإسراء: ٦٣]، وقوله: ﴿فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٥]، أو قوله: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣]

٣. ﴿ما يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَما أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾:

أ. الذي يعطيه السياق أن تكون الآية استئنافا بمنزلة الجواب عن سؤال مقدر كان قائلا يقول: هب أنك قد قدمت فهلا غيرته وعفوت؟ فأجيب بقوله: ﴿ما يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَ﴾ والمراد بالقول مطلق القضاء المحتوم الذي قضى به الله، وقد قضى لمن مات على الكفر بدخول جهنم وينطبق بحسب المورد على الوعيد الذي أوعده الله لإبليس ومن تبعه.

ب. فقد بان أن الجملة مستأنفة، والمراد بتبديل القول تغيير القضاء المحتوم، و﴿لَدَيَ﴾ متعلق بالتبديل، هذا ما يعطيه السياق، وقد ذكر بعضهم في هذه الجملة وإعراب مفرداتها ومعنى تبديل القول وجوها واحتمالات كثيرة بعيدة عن الفهم لا تزيد في الكلام إلا تعقيدا فأغمضنا عن إيرادها.

٤. ﴿وَما أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾:

أ. متمم لمعنى الجملة السابقة أي لا يبدل قولي فأنتم معذبون لا محالة ولست أظلم عبيدي في عذابهم على طبق ما قدمت إليهم بالوعيد لأنهم مستحقون لذلك بعد إتمام الحجة.

ب. ومن وجه آخر: لا ظلم في مجازاتهم بالعذاب فإنهم إنما يجزون بأعمالهم التي قدموها في أعمالهم ردت إليهم كما هو ظاهر قوله تعالى: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّما تُجْزَوْنَ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التحريم: ٧]

ج. و(ما) في قوله: ﴿وَما أَنَا بِظَلَّامٍ﴾ من نفي الظلم الكثير لا يستوجب جواز الظلم اليسير فإنه تعالى لو ظلم في شيء من الجزاء كان ظلما كثيرا لكثرة أمثاله فإن الخطاب لكل إنسان مشرك ظالم مع قرينه، وهم كثيرون فهو سبحانه لو ظلم في شيء من الجزاء لكان ظلاما.

١٥. طلب جهنم للمزيد:

المقطع [١٥] من سورة ق، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾ [ق: ٣٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ٣٥٣»:

١. ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾:

أ. خطاب منه تعالى لجهنم وجواب منها، وقد اختلف في حقيقة هذا التكليم والتكلم فقيل: الخطاب والجواب بلسان الحال ويرده أنه لو كان بلسان الحال لم يختص به تعالى بل كان لكل من يشاهدها على تلك الحال أن يسألها عن امتلائها فتجيبه بقولها: هل من مزيد؟ فليس لتخصيص الخطاب به تعالى نكتة ظاهرة.

ب. وقيل: حقيقة الخطاب لخزنة جهنم والجواب منهم وإن كانا نسبا إلى جهنم وفيه أنه خلاف الظاهر لا يصار إليه إلا بدليل.

ج. وقيل: الخطاب والجواب على ظاهره، ولا دليل يدل على عدم الجواز، وقد أخبر الله سبحانه عن تكليم الأيدي والأرجل والجلود وغيرها، وهو الوجه وقد تقدم في تفسير سورة فصلت أن العلم والشعور سار في جميع الموجودات.

٢. ﴿هَلِ امْتَلَأْتِ﴾:

أ. استفهام تقريري، وكذا قوله حكاية عنها: ﴿هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾ ولعل إيراد هذا السؤال والجواب للإشارة إلى أن قهره وعذابه لا يقصر عن الإحاطة بالمجرمين وإيفاء ما يستحقونه من الجزاء قال تعالى: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكافِرِينَ﴾ [التوبة: ٤٩]

ب. واستشكل بأنه مناف لصريح قوله تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ الآية وأجيب بأن الامتلاء قد يراد به أنه لا يخلو شيء من طبقاتها من السكنة كما يقال: البلد ممتلئ بأهله.

ج. على أنه يمكن أن يكون هذا القول منها قبل دخول جميع أهل النار فيها.

د. وقيل: الاستفهام في قوله: ﴿هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾ للإنكار والمعنى: لا مزيد أي لا مكان في يزيد على من ألقي في من المجرمين فقد امتلأت فيكون إشارة إلى ما قضى به في قوله: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣]، وقوله: ﴿هَلِ امْتَلَأْتِ﴾ في معنى أن يقال: ﴿حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾، وقوله: ﴿هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾ تقرير وتصديق له.

هـ. وربما أيد هذا الوجه قوله تعالى قبل: ﴿ما يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ﴾ على تقدير أن يراد بالقول قوله تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾

٣. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾ قال: هو استفهام لأن الله وعد النار أن يملأها، فتمتلئ النار ثم يقول لها: ﴿هَلِ امْتَلَأْتِ﴾؟ وتقول: ﴿هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾؟ على حد الاستفهام أي ليس في مزيد.

• أقول: بناؤه على كون الاستفهام إنكاريا.

ب. أخرج أحمد والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن جرير وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: لا تزال جهنم يلقى فيها وتقول: هل من مزيد؟ حتى تضع رب العزة فيها قدمه، فينزوي بعضها إلى بعض وتقول: قط قط وعزتك وكرمك، ولا يزال في الجنة فضل، حتى ينشئ الله لها خلقا آخر، فيسكنهم في قصور الجنة.

• أقول: وضع القدم على النار وقولها: قط قط مروي في روايات كثيرة من طرق أهل السنة.

١٦. إزلاف الجنة للمتقين ووصف نعيمها الخالد:

المقطع [١٦] من سورة ق، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق: ٣١ـ٣٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ٣٥٤»:

١. ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾:

أ. شروع في وصف حال المتقين يوم القيامة، والإزلاف التقريب، و﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ على ما قيل صفة لظرف محذوف والتقدير في مكان غير بعيد.

ب. والمعنى: وقربت الجنة يومئذ للمتقين حال كونها في مكان غير بعيد أي هي بين أيديهم لا تكلف لهم في دخولها.

٢. ﴿هذا ما تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ﴾ الإشارة إلى ما تقدم من الثواب الموعود، والأواب من الأوب بمعنى الرجوع، والمراد كثرة الرجوع إلى الله بالتوبة والطاعة، والحفيظ هو الذي يدوم على حفظ ما عهد الله إليه من أن يترك فيضيع، وقوله: ﴿لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ﴾ خبر بعد خبر لهذا أو حال.

٣. ﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمنَ بِالْغَيْبِ وَجاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾ بيان لكل أواب والخشية بالغيب الخوف من عذاب الله حال كونه غائبا غير مرئي له، والإنابة هو الرجوع، والمجيء إلى ربه بقلب منيب أن يتم عمره بالإنابة فيأتي ربه بقلب متلبس بالإنابة.

٤. ﴿ادْخُلُوها بِسَلامٍ ذلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ﴾ خطاب للمتقين أي يقال لهم: ادخلوا بسلام أي بسلامة وأمن من كل مكروه وسوء، أو بسلام من الله وملائكته عليكم، وقوله: ﴿ذلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ﴾ بشرى يبشرون بها.

٥. ﴿لَهُمْ ما يَشاؤُنَ فِيها﴾:

أ. يمكن أن يكون ﴿فِيها﴾ متعلقا بيشاءون أو بمحذوف هو حال من الموصول، والتقدير: حال كون ما يشاءون فيها أو من الضمير المحذوف الراجع إلى الموصول، والتقدير: ما يشاءونه حال كونه فيها، والأول أوفق لسعة كرامتهم عند الله سبحانه.

ب. والمحصل: أن أهل الجنة وهم في الجنة يملكون كل ما تعلقت به مشيتهم وإرادتهم كائنا ما كان من غير تقييد واستثناء فلهم كلما أمكن أن يتعلق به الإرادة والمشية لو تعلقت.

٦. ﴿وَلَدَيْنا مَزِيدٌ﴾:

أ. أي ولهم عندنا ما يزيد على ذلك، على ما يفيده السياق، وإذ كان لهم كل ما أمكن أن تتعلق به مشيتهم مما يتعلق به علمهم من المطالب والمقاصد فالمزيد على ذلك أمر أعظم مما تتعلق به مشيتهم لكونه فوق ما يتعلق به علمهم من الكمال.

ب. وقيل: المراد بالمزيد الزيادة على ما يشاءون من جنس ما يشتهون فإذا شاءوا رزقا أعطوا منه أكثر مما شاءوا وأفضل وأعجب كما ورد عن بعضهم أنه تمر بهم السحابة فتقول: ما ذا تريدون فأمطره

عليكم فلا يريدون شيئا إلا أمطرته عليهم.

• وفيه أنه تقييد لإطلاق الكلام من غير مقيد فإن ظاهر قوله: ﴿لَهُمْ ما يَشاؤُنَ فِيها﴾ إنهم يملكون كل ما يمكنهم أن يشاءوا لا تملكهم ما شاءوه بالفعل فالمزيد وراء ما يمكن أن تتعلق به مشيتهم.

ج. وقيل: المراد أنه يضاعف لهم الحسنة بعشر أمثالها وفيه ما في سابقه.

٧. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي في قوله تعالى: ﴿لَهُمْ ما يَشاؤُنَ فِيها وَلَدَيْنا مَزِيدٌ﴾ قال: النظر إلى رحمة الله.

ب. أخرج البزاز وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه واللالكائي في السنة والبيهقي في البعث والنشور عن أنس في قوله تعالى: ﴿وَلَدَيْنا مَزِيدٌ﴾ قال: يتجلى لهم الرب عز وجل.

١٧. إهلاك القرون السابقة والعظة لمن له قلب وسمع:

المقطع [١٧] من سورة ق، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٦-٣٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ٣٥٥»:

١. ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشاً فَنَقَّبُوا فِي الْبِلادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ﴾:

أ. التنقيب السير، المحيص المحيد والمنجا.

ب. وفي الآية تذييل الاحتجاج بخلق الإنسان والعلم به وبيان سيره إلى الله بالتخويف والإنذار نظير ما جرى عليه الكلام في صدر السورة من الاحتجاج على المعاد وتذييله بالتخويف والإنذار في قوله: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ﴾

ج. والمعنى: وكثيرا ما أهلكنا قبل هؤلاء المشركين من قرن هم أي أهل ذلك القرن أشد بطشا منهم أي من هؤلاء المشركين فساروا ببطشهم في البلاد ففتحوها وتحكموا عليها هل من محيد ومنجا من إهلاك الله وعذابه؟

٢. ﴿إِنَّ فِي ذلِكَ لَذِكْرى لِمَنْ كانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾:

أ. القلب ما يعقل به الإنسان فيميز الحق من الباطل والخير من الشر والنافع من الضار، فإذا لم يعقل ولم يميز فوجوده بمنزلة عدمه إذ ما لا أثر له فوجوده وعدمه سواء، وإلقاء السمع هو الاستماع كأن

السمع شيء يلقى إلى المسموع فيناله ويدركه والشهيد الحاضر المشاهد.

ب. والمعنى: أن فيما أخبرنا به من الحقائق وأشرنا إليه من قصص الأمم الهالكة لذكرى يتذكر بها من كان يتعقل فيدرك الحق ويختار ما فيه خيره ونفعه أو استمع إلى حق القول ولم يشتغل عنه بغيره والحال أنه شاهد حاضر يعي ما يسمعه.

ج. والترديد بين من كان له قلب ومن استمع شهيدا لمكان أن المؤمن بالحق أحد رجلين إما رجل ذو عقل يمكنه أن يتناول الحق فيتفكر فيه ويرى ما هو الحق فيذعن به، وإما رجل لا يقوى على التفكر حتى يميز الحق والخير والنافع فعليه أن يستمع القول فيتبعه، وأما من لا قلب له يعقل به ولا يسمع شهيدا على ما يقال له ويلقى إليه من الرسالة والإنذار فجاهل متعنت لا قلب له ولا سمع، قال تعالى: ﴿وَقالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ ما كُنَّا فِي أَصْحابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠]

٣. أحاديث وآثار: في الكافي، بعض أصحابنا رفعه عن هشام بن الحكم قال: قال لي أبو الحسن موسى بن جعفر عليه السلام: يا هشام إن الله يقول في كتابه: ﴿إِنَّ فِي ذلِكَ لَذِكْرى لِمَنْ كانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ يعني عقل.

١٨. تنزيه الله عن التعب:

المقطع [١٨] من سورة ق، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ٣٥٦»:

١. ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَما مَسَّنا مِنْ لُغُوبٍ﴾ اللغوب التعب والنصب، والمعنى ظاهر.

٢. أحاديث وآثار: أخرج الخطيب في تاريخه، عن العوام بن حوشب قال: سألت أبا مجلز عن الرجل يجلس، فيضع إحدى رجليه على الأخرى، فقال: لا بأس به إنما كره ذلك اليهود، زعموا أن الله خلق السماوات والأرض في ستة أيام، ثم استراح يوم السبت فجلس تلك الجلسة، فأنزل الله ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَما مَسَّنا مِنْ لُغُوبٍ﴾

• أقول: وروي هذا المعنى عن الضحاك وقتادة، وروى هذا المعنى المفيد في روضة الواعظين، في رواية ضعيفة، وأصل تقسيم خلق الأشياء إلى ستة من أيام الأسبوع واقع في التوراة، والقرآن وإن كرر ذكر

خلق الأشياء في ستة أيام لكنه لم يذكر كون هذه الأيام هي أيام الأسبوع ولا لوح إليه.

• وعلى هذه الروايات اعتمد من قال: إن الآية مدنية، ولا دلالة في ردها قول اليهود أن تكون نازلة بالمدينة، وفي الآيات المكية ما تعرض سبحانه فيه لشأن اليهود كما في سورة الأعراف وغيرها.

١٩. الصبر على أذى المعاندين والدعوة للتسبيح:

المقطع [١٩] من سورة ق، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ﴾ [ق: ٣٩-٤٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ٣٥٩»:

١. ﴿فَاصْبِرْ عَلى ما يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾ تفريع على جميع ما تقدم من إنكار المشركين للبعث، ومن تفصيل القول في البعث والحجة عليه، ومن وعيد المنكرين له المكذبين للنبي ﷺ وتهديدهم بمثل ما جرى على المكذبين من الأمم الماضية.

٢. ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾، أمر بتنزيهه تعالى عما يقولون مصاحبا للحمد ومحصله إثبات جميل الفعل له ونفي كل نقص وشين عنه تعالى، والتسبيح قبل طلوع الشمس يقبل الانطباق على صلاة الصبح، والتسبيح قبل الغروب يقبل الانطباق على صلاة العصر أو عليها وعلى صلاة الظهر.

٣. ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبارَ السُّجُودِ﴾ أي ومن الليل فسبحه فيه، ويقبل الانطباق على صلاتي المغرب والعشاء.

٤. ﴿وَأَدْبارَ السُّجُودِ﴾ الأدبار جمع دبر وهو ما ينتهي إليه الشيء وبعده، وكان المراد بأدبار السجود بعد الصلوات فإن السجود آخر الركعة من الصلاة فينطبق على التعقيب بعد الصلوات، وقيل: المراد به النوافل بعد الفرائض، وقيل: المراد به الركعتان أو الركعات بعد المغرب وقيل: ركعة الوتر في آخر الليل.

٥. أحاديث وآثار:

أ. أخرج الطبراني في الأوسط، وابن عساكر عن جرير بن عبد الله عن النبي ﷺ: في قوله: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾ قبل طلوع الشمس صلاة الصبح، وقبل الغروب صلاة العصر.

ب. وفي المجمع: (روي عن أبي عبد الله عليه السلام أنه سئل عن قوله: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ

طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾ فقال: تقول حين تصبح وحين تمسي عشر مرات: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير.

• أقول: هو مأخوذ من إطلاق التسبيح في الآية وإن كان خصوص مورده صلاتي الصبح والعصر فلا منافاة.

ج. وفي الكافي، بإسناده عن حريز عن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام قال: قلت: ﴿وَأَدْبَارَ السُّجُودِ﴾ قال: ركعات بعد المغرب.

• أقول: ورواه القمي في تفسيره، بإسناده عن ابن أبي نصر عن الرضا عليه السلام ولفظه قال: أربع ركعات بعد المغرب.

د. أخرج مسدد في مسنده، وابن المنذر وابن مردويه عن علي بن أبي طالب قال: سألت رسول الله ﷺ عن أدبار النجوم والسجود، فقال: أدبار السجود الركعتان بعد المغرب، وأدبار النجوم الركعتان قبل الغداة.

• أقول: وروي مثله عن ابن عباس وعمر عنه ﷺ، وأسنده في مجمع البيان، إلى الحسن بن علي عليه السلام أيضا عن النبي ﷺ.

٢٠. استماع المنادي يوم الصيحة والخروج من القبور:

المقطع [٢٠] من سورة ق، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ [ق: ٤١-٤٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ٣٦٠»:

١. ﴿وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ﴾:

أ. فسروا الاستماع بمعان مختلفة والأقرب أن يكون مضمنا معنى الانتظار و﴿يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ﴾ مفعوله والمعنى: وانتظر يوما ينادي فيه المنادي ملقيا سمعك لاستماع ندائه، والمراد بنداء المنادي نفخ صاحب الصور في الصور على ما تفيده الآية التالية.

ب. وكون النداء من مكان قريب لإحاطته بهم فيقع في سمعهم على نسبة سواء لا تختلف بالقرب والبعد فإنما هو نداء البعث وكلمة الحياة.

٢. ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ﴾ بيان ليوم ينادي المنادي، وكون الصيحة بالحق لأنها مقضية قضاء محتوما كما مر في قوله: ﴿وَجاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِ﴾ الآية.

٣. ﴿ذلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ﴾ أي يوم الخروج من القبور كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْداثِ سِراعاً﴾ [المعارج: ٤٣]

٤. ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ﴾ المراد بالإحياء إفاضة الحياة على الأجساد الميتة في الدنيا، وبالإماتة الإماتة في الدنيا وهي النقل إلى عالم القبر، وبقوله: ﴿وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ﴾ الإحياء بالبعث في الآخرة على ما يفيده السياق.

٥. ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِراعاً ذلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنا يَسِيرٌ﴾ أصل ﴿تَشَقَّقُ﴾ تتشقق أي تتصدع عنهم فيخرجون منها مسارعين إلى الداعي.

٦. ﴿ذلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنا يَسِيرٌ﴾ أي ما ذكرنا من خروجهم من القبور المنشقة عنهم سراعا جمع لهم علينا يسير.

٢١. التذكير بالقرآن لمن يخاف الوعيد:

المقطع [٢١] من سورة ق، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِما يَقُولُونَ وَما أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ٣٦١»:

١. ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِما يَقُولُونَ وَما أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخافُ وَعِيدِ﴾ في مقام التعليل لقوله: ﴿فَاصْبِرْ عَلى ما يَقُولُونَ﴾ الآية، والجبار المتسلط الذي يجبر الناس على ما يريد.

٢. والمعنى: فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك وانتظر البعث فنحن أعلم بما يقولون سنجزيهم بما عملوا ولست أنت بمتسلط جبار عليهم حتى تجبرهم على ما تدعوهم إليه من الإيمان بالله واليوم الآخر وإذا كانت حالهم هذه الحال فذكر بالقرآن من يخاف وعيدي.

٣. أحاديث وآثار: في تفسير القمي في قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخافُ وَعِيدِ﴾ قال: ذكر يا محمد ما وعدناه من العذاب.

سورة الذاريات

هذه السورة الكريمة تحتوي على [١٦] مقطعاً، وهذا تعريف بمقاصدها، ومحتويات مقاطعها:

مقاصد السورة ومحتوياتها:

أ. كانت الدعوة النبوية تدعو الوثنية إلى توحيد الربوبية، وإن الله تعالى هو ربهم ورب كل شيء، وكانت الدعوة من طريق الإنذار والتبشير وخاصة بالإنذار، وكان الإنذار بعذاب الله في الدنيا للمكذبين عذاب الاستئصال، وفي الآخرة بالعذاب الخالد يوم القيامة، وهو العمدة في نجاح الدعوة، إذ لولا الحساب والجزاء يوم القيامة كان الإيمان بالوحدانية والنبوة لغواً لا أثر له.

ب. والمشركون باتخاذهم آلهة دون الله سبحانه شددوا الإنكار لأصول التوحيد والنبوة والمعاد، وكانوا يتعنتون بإنكار المعاد والإصرار على نفيه والاستهزاء به من أي طريق ممكن، لما يرون أن في بطلانه بطلان الأصلين الآخرين.

ج. والسورة تذكر المعاد وإنكارهم له، فتبدأ به وتختم عليه، لكن لا من حيث نفسه كما جرى عليه الكلام في مواضع من كلامه، بل من حيث إنه يوم الجزاء، وإن الله الذي وعدهم به هو ربهم، وهو الذي وعدهم به، ووعده صدق لا ريب فيه.

د. ولذلك لما انساق الكلام إلى الاحتجاج عليه، احتجت بأدلة التوحيد من آيات الأرض والسماء والأنفس، وما عاقب الله به الأمم الماضين إثر دعوتهم إلى التوحيد وتكذيبهم لرسله، وليس إلا ليثبت بها التوحيد فيثبت به يوم الجزاء الذي وعده الله، والله لا يخلف الميعاد، وأخبرت به الدعوة النبوية، فيندفع بذلك إنكارهم للجزاء، وقد توسلوا بذلك إلى إبطال دين التوحيد ورسالة الرسول لصيرورة الإيمان به لغواً لا أثر له، كما تقدمت الإشارة إليه.

هـ. والسورة مكية لشهادة سياق آياتها عليه، ولم يختلف في ذلك أحد.

و. ومن غرر آياتها قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾

مقاطع السورة ونظمها:

١. الآيات [١ ـ ١٩] الفصل الذي أوردناه من الآيات مفتتح الكلام، يذكر فيه أن الجزاء الذي

وعدوه صدق، وإنكارهم له وتعنتهم بذلك تخرص، ثم يصف يوم الجزاء وحال المتقين والمنكرين فيه.

٢. الآيات [٢٠ ـ ٥١]:

أ. تشير الآيات إلى عدة من آيات الله الدالة على وحدانيته في الربوبية، ورجوع أمر التدبير في الأرض والسماء والناس وأرزاقهم إليه، ولازمه إمكان نزول الدين الإلهي من طريق الرسالة بل وجوبه.

ب. ولازمه صدق الدعوة النبوية فيما تضمنته من وعد البعث والجزاء، وإن ما يوعدون لصادق، وإن الدين لواقع.

ج. وقد مرت إشارة إلى خصوصية سلوك السورة في احتجاجها في البيان السابق.

٣. الآيات [٥٢ ـ ٦٠] مختتم السورة، وفيه إرجاع الكلام إلى ما في مفتتحها من إنكارهم للبعث الموعود، ومقابلتهم الرسالة بقول مختلف، ثم إيعادهم باليوم الموعود.

١ . القسم بالذاريات على صدق الوعد ووقوع الدين:

المقطع [١] من سورة الذاريات، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ﴾ [الذاريات: ١ـ٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ٣٦٤»:

١ . ﴿وَالذَّارِياتِ ذَرْواً فَالْحامِلاتِ وِقْراً فَالْجارِياتِ يُسْراً فَالْمُقَسِّماتِ أَمْراً﴾:

أ. الذاريات جمع الذارية من قولهم: ذرت الريح التراب تذروه ذروا إذا أطارته والوقر بالكسر فالسكون ثقل الحمل في الظهر أو في البطن.

ب. وفي الآيات إقسام بعد إقسام يفيد التأكيد بعد التأكيد للمقسم عليه وهو الجزاء على الأعمال فقوله: ﴿وَالذَّارِياتِ ذَرْواً﴾ إقسام بالرياح المثيرة للتراب، وقوله: ﴿فَالْحامِلاتِ وِقْراً﴾ بالفاء المفيدة للتأخير والترتيب معطوف على الذاريات وإقسام بالسحب الحاملة لثقل الماء، وقوله: ﴿فَالْجارِياتِ يُسْراً﴾ عطف عليه وإقسام بالسفن الجارية في البحار بيسر وسهولة.

٢. ﴿فَالْمُقَسِّماتِ أَمْراً﴾ عطف على ما سبقه وإقسام بالملائكة الذين يعملون بأمره فيقسمونه باختلاف مقاماتهم فإن أمر ذي العرش بالخلق والتدبير واحد فإذا حمله طائفة من الملائكة على اختلاف أعمالهم انشعب الأمر وتقسم بتقسمهم ثم إذا حمله طائفة هي دون الطائفة الأولى تقسم ثانيا بتقسمهم

وهكذا حتى ينتهي إلى الملائكة المباشرين للحوادث الكونية الجزئية فينقسم بانقسامها ويتكثر بتكثرها.

٣. والآيات الأربع، كما ترى:

أ. تشير إلى عامة التدبير حيث ذكرت أنموذجا مما يدبر به الأمر في البر وهو الذاريات ذروا، وأنموذجا مما يدبر به الأمر في البحر وهو الجاريات يسرا وأنموذجا مما يدبر به الأمر في الجو وهو الحاملات وقرا، وتمم الجميع بالملائكة الذين هم وسائد التدبير وهم المقسمات أمرا.

ب. فالآيات في معنى أن يقال: أقسم بعامة الأسباب التي يتمم بها أمر التدبير في العالم أن كذا كذا، وقد ورد من طرق الخاصة والعامة عن علي عليه أفضل السلام تفسير الآيات الأربع بما تقدم.

ج. وعن الفخر الرازي في التفسير الكبير، أن الأقرب حمل الآيات الأربع جميعا على الرياح فإنها كما تذرو التراب ذروا تحمل السحب الثقال وتجري في الجو بيسر وتقسم السحب على الأقطار من الأرض.

• والحق أن ما استقربه بعيد، وما تقدم من المعنى أبلغ مما ذكره.

٤. ﴿إِنَّما تُوعَدُونَ لَصادِقٌ وَإِنَّ الدِّينَ لَواقِعٌ﴾:

أ. (ما) موصولة، والضمير العائد إليها محذوف أي الذين توعدونه، أو مصدرية، و﴿تُوعَدُونَ﴾ من الوعد كما يؤيده قوله: ﴿وَإِنَّ الدِّينَ لَواقِعٌ﴾ الشامل لمطلق الجزاء، وقيل: من الإيعاد كما يؤيده قوله: ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥]

ب. وعد الوعد صادقا من المجاز في النسبة كما في قوله: ﴿فِي عِيشَةٍ راضِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٢١] أو الصادق بمعنى ذو صدق كما قيل بمثله في قوله: ﴿فِي عِيشَةٍ راضِيَةٍ﴾ والدين الجزاء.

ج. وكيف كان فقوله: ﴿إِنَّما تُوعَدُونَ لَصادِقٌ﴾ جواب القسم، وقوله: ﴿وَإِنَّ الدِّينَ لَواقِعٌ﴾ معطوف عليه بمنزلة التفسير، والمعنى أقسم بكذا وكذا أن الذي توعدونه، وهو الذي يعدهم القرآن أو النبي ﷺ بما أنزل إليه، من يوم البعث وأن الله سيجزيهم فيه بأعمالهم إن خيرا فخيرا وإن شرا فشرا لصادق، وإن الجزاء لواقع.

٥. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي، حدثني أبي عن ابن أبي عمير عن جميل عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَالذَّارِياتِ ذَرْواً﴾ فقال: إن ابن الكوا سأل أمير المؤمنين عليه السلام، عن ﴿الذَّارِياتِ ذَرْواً﴾

قال: الريح، وعن ﴿فَالْحَامِلاتِ وِقْراً﴾ فقال: هي السحاب، وعن ﴿فَالْجارِياتِ يُسْراً﴾ فقال: هي السفن، وعن ﴿فَالْمُقَسِّماتِ أَمْراً﴾ فقال: الملائكة.

• أقول: والحديث مروي من طرق أهل السنة أيضا كما في روح المعاني.

ب. أخرج عبد الرزاق والفاريابي وسعيد بن منصور والحارث بن أبي أسامة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن الأنباري في المصاحف، والحاكم وصححه والبيهقي في شعب الإيمان، من طرق عن علي بن أبي طالب في قوله: ﴿وَالذَّارِياتِ ذَرْواً﴾ قال: الرياح ﴿فَالْحَامِلاتِ وِقْراً﴾ قال: السحاب ﴿فَالْجارِياتِ يُسْراً﴾ قال: السفن ﴿فَالْمُقَسِّماتِ أَمْراً﴾ قال: الملائكة.

ج. وفي المجمع: قال أبو جعفر وأبو عبد الله عليه السلام: لا يجوز لأحد أن يقسم إلا بالله تعالى، والله يقسم بما شاء من خلقه.

٢. السماء ذات الحبك وقول الناس المختلف:

المقطع [٢] من سورة الذاريات، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَالسَّماءِ ذاتِ الْحُبُكِ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ [الذاريات: ٧-٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ٣٦٦»:

١. ﴿وَالسَّماءِ ذاتِ الْحُبُكِ﴾:

أ. الحبك بمعنى الحسن والزينة، وبمعنى الخلق المستوي، ويأتي جمعا لحبيكة أو حباك بمعنى الطريقة كالطرائق التي تظهر على الماء إذا تثنى وتكسر من مرور الرياح عليه.

ب. والمعنى على الأول: أقسم بالسماء ذات الحسن والزينة نظير قوله تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِزِينَةٍ الْكَواكِبِ﴾ [الصافات: ٦]، وعلى الثاني: أقسم بالسماء ذات الخلق المستوي نظير قوله: ﴿وَالسَّماءَ بَنَيْناها بِأَيْدٍ﴾ [الآية: ٤٧] من السورة وعلى الثالث أقسم بالسماء ذات الطرائق نظير قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرائِقَ﴾ [المؤمنون: ١٧]

ج. ولعل المعنى الثالث أظهر لمناسبته لجواب القسم الذي هو اختلاف الناس والتشتت طرائقهم كما أن الأقسام السابقة: ﴿وَالذَّارِياتِ ذَرْواً﴾ كانت مشتركة في معنى الجري والسير مناسبة لجوابها: ﴿إِنَّما تُوعَدُونَ﴾ المتضمن لمعنى الرجوع إلى الله والسير إليه.

٢. ﴿إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ﴾ القول المختلف ما يتناقض ويدفع بعضه بعضا وحيث إن الكلام في

إثبات صدق القرآن أو الدعوة أو النبي ﷺ فيما وعدهم من أمر البعث والجزاء فالمراد بالقول المختلف، على الأقرب، قولهم المختلف في أمر القرآن لغرض إنكار ما يثبته فتارة يقولون: إنه سحر والجائي به ساحر، وتارة يقولون: زجر والجائي به مجنون، وتارة يقولون: إلقاء شياطين الجن والجائي به كاهن، وتارة يقولون: شعر والجائي به شاعر، وتارة أنه افتراء، وتارة يقولون إنما يعلمه بشر، وتارة يقولون: أساطير الأولين اكتتبها.

٣. ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾:

أ. الإفك الصرف، وضمير ﴿عَنْهُ﴾ إلى الكتاب من حيث اشتماله على وعد البعث والجزاء، والمعنى: يصرف عن القرآن من صرف، وقيل: الضمير للنبي ﷺ والمعنى: يصرف عن الإيمان به من صرف، وقد عرفت أن المعنى السابق أوفق للسياق وإن كان مآل المعنيين واحدا.

ب. وحكي عن بعضهم أن ضمير ﴿عَنْهُ﴾ لما توعدون أو للدين أقسم تعالى أولا بالذاريات وغيرها على أن البعث والجزاء حق ثم أقسم بالسماء على أنهم في قول مختلف في وقوعه فمنهم شاك ومنهم جاحد ثم قال تعالى: يؤفك عن الإقرار بأمر البعث والجزاء من هو مأفوك، وهذا الوجه قريب من الوجه السابق.

ج. وعن بعضهم: أن الضمير لقول مختلف و(عن) للتعليل كما في قوله تعالى: ﴿وَما نَحْنُ بِتارِكِي آلِهَتِنا عَنْ قَوْلِكَ﴾ [هود: ٥٣] فيكون الجملة صفة لقول والمعنى: أنكم لفي قول مختلف يؤفك بسببه من أفك، وهو وجه حسن.

د. وقيل: الضمير في ﴿إِنَّكُمْ﴾ للمسلم والكافر جميعا فيكون المراد بالقول المختلف قول المسلمين بوقوع البعث والجزاء وقول الكفار بعدم الوقوع، ولعل السياق لا يلائمه وقيل: بعض وجوه أخر رديئة لا جدوى في التعرض له.

٤. أحاديث وآثار:

أ. أخرج ابن منيع عن علي بن أبي طالب أنه سئل عن قوله: ﴿وَالسَّماءِ ذاتِ الْحُبُكِ﴾ قال: ذات الخلق الحسن.

• أقول: وروي مثله في المجمع: (ولفظه: وقيل: ذات الحسن والزينة: عن علي عليه السلام وفي

جوامع الجامع، ولفظه: وعن علي عليه السلام: حسنها وزينتها.

ب. وفي بعض الأخبار: في قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ تطبيقه على الولاية.

٣. لعنة المكذبين وغفلتهم واستعجالهم للعذاب:

المقطع [٣] من سورة الذاريات، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ [الذاريات: ١٠ـ١٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ٣٦٧»:

١. ﴿قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ ساهُونَ يَسْئَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ﴾:

أ. أصل الخرص القول بالظن والتخمين من غير علم، ولكون القول بغير علم في خطر من الكذب يسمى الكذاب خراصا، والأشبه أن يكون المراد بالخراصين في الآية القوالين من غير علم ودليل وهم الخائضون في أمر البعث والجزاء المنكرون له بغير علم.

ب. وفي قوله: ﴿قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ﴾ دعاء عليهم بالقتل وهو كناية عن نوع من الطرد والحرمان من الفلاح وإليه يئول قول من فسره باللعن.

٢. ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ ساهُونَ﴾:

أ. الغمرة، كما ذكر الراغب، معظم الماء الساتر لمقرها، وجعل مثلا للجهالة التي تغمر صاحبها، والمراد بالسهو، كما قيل، مطلق الغفلة.

ب. ومعنى الآية وهي تصف الخراصين: الذين هم في جهالة أحاطت بهم غافلون عن حقيقة ما أخبروا به.

٣. ﴿يَسْئَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ﴾:

أ. ضمير الجمع للخراصين قول قالوه على طريق الاستعجال استهزاء كقولهم: ﴿مَتى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ﴾ [يس: ٤٨]

ب. والسؤال بأيان، الموضوعة للسؤال عن زمان مدخولها، عن يوم الدين وهو ظاهر في الزمان إنما هو بعناية أن يوم الدين لكونه موعودا ملحق بالزمانيات فيسأل عنه كما يسأل عن الزمانيات بأيان ومتى

كما يقال: متى يوم العيد لكونه ذا شأن ملحقا لذلك بالزمانيات كذا قيل.

ج. ويمكن أن يكون من التوسع في معنى الظرفية بأن يعد أوصاف الظرف الخاصة به ظرفا توسعا فيكون السؤال عن زمان الزمان سؤالا عن أنه بعد أي زمان أو قبل أي زمان؟ كما يقال: متى يوم العيد؟ فيجاب بأنه بعد عشرة أيام مثلا أو قبل يوم كذا، وهو توسع جار في العرف غير مختص بكلام العرب، وفي القرآن منه شيء كثير.

٤. ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ﴾:

أ. ضمير الجمع للخراصين، والفتن في الأصل إدخال الذهب النار ليظهر جودته ثم استعمل في مطلق الإحراق والتعذيب، والظرف متعلق بفعل محذوف أو مبتدأ، والآية جواب عن سؤالهم عدل فيه عن بيان وقت يوم الدين إلى بيان صفته والإشارة إلى حالهم فيه لما أن وقته من الغيب الذي لا يعلمه إلا الله قال تعالى: ﴿لا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ﴾

ب. وتقدير الآية ومعناها: يقع يوم الدين أو هو واقع يوم هم أي الخراصون في النار يعذبون أو يحرقون.

٥. ﴿ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾:

أ. حكاية خطاب منه تعالى أو من الملائكة بأمره للخراصين وهم يفتنون على النار يومئذ.

ب. والمعنى: يقال لهم ذوقوا العذاب الذي يخصكم، هذا العذاب هو الذي كنتم تستعجلون به إذ تقولون استعجالا واستهزاء: أيان يوم الدين.

٤. جزاء المتقين ومظاهر إحسانهم:

المقطع [٤] من سورة الذاريات، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ [الذاريات: ١٥ـ١٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ٣٦٨»:

١. ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾:

أ. بيان لحال المتقين يوم الدين بعد وصف حال أولئك الخراصين.

ب. وتنكير جنات وعيون للإشارة إلى عظم قدرها كأنها بحيث لا يقدر الواصفون على وصفها، وقد ألحقت العيون بالجنات في ظرفيتها توسعا.

٢. ﴿آخِذِينَ ما آتاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كانُوا قَبْلَ ذلِكَ مُحْسِنِينَ﴾ أي قابلين ما أعطاهم ربهم الرءوف بهم راضين عنه وبما أعطاهم كما يفيده خصوص التعبير بالأخذ والإيتاء ونسبة الإيتاء إلى ربهم.

٣. ﴿إِنَّهُمْ كانُوا قَبْلَ ذلِكَ مُحْسِنِينَ﴾ تعليل لما تقدمه أي إن حالهم تلك الحال لأنهم كانوا قبل ذلك أي في الدنيا ذوي إحسان في أعمالهم أي ذوي أعمال حسنة.

٤. ﴿كانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ ما يَهْجَعُونَ﴾:

أ. الآيات تفسير لإحسانهم، والهجوع النوم في الليل وقيل: النوم القليل.

ب. ويمكن أن تكون: ما زائدة و﴿يَهْجَعُونَ﴾ خبر كانوا، و﴿قَلِيلاً﴾ ظرفا متعلقا به أي في زمان قليل أو صفة لمفعول مطلق محذوف أي هجوعا قليلا و﴿مِنَ اللَّيْلِ﴾ متعلقا بقليلا والمعنى: كانوا ينامون في زمان قليل من الليل أو ينامون الليل نوما قليلا.

ج. وأن تكون موصولة والضمير العائد إليها محذوفا و﴿قَلِيلاً﴾ خبر كانوا والموصول فاعله والمعنى: كانوا قليلا من الليل الذي يهجعون فيه.

د. وأن تكون مصدرية والمصدر المسبوك منها ومن مدخولها فاعلا لقوله: ﴿قَلِيلاً﴾ وهو خبر ﴿كانُوا﴾

هـ. وعلى أي حال فالقليل من الليل إما مأخوذ بالقياس إلى مجموع زمان كل ليلة فيفيد أنهم يهجعون كل ليلة زمانا قليلا منها ويصلون أكثرها، وإما مأخوذ بالقياس إلى مجموع الليالي فيفيد أنهم يهجعون في قليل من الليالي ويقومون للصلاة في أكثرها أي لا يفوتهم صلاة الليل إلا في قليل من الليالي.

٥. ﴿وَبِالْأَسْحارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ أي يسألون الله المغفرة لذنوبهم، وقيل: المراد بالاستغفار الصلاة وهو كما ترى.

٦. ﴿وَفِي أَمْوالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾:

أ. الآيتان السابقتان تبينان خاصة سيرتهم في جنب الله سبحانه وهي قيام الليل والاستغفار بالأسحار وهذه الآية تبين خاصة سيرتهم في جنب الناس وهي إيتاء السائل والمحروم.

ب. وتخصيص حق السائل والمحروم بأنه في أموالهم، مع أنه لو ثبت فإنما يثبت في كل مال، دليل على أن المراد أنهم يرون بصفاء فطرتهم أن في أموالهم حقا لهما فيعملون بها يعملون نشرا للرحمة وإيثارا للحسنة.

ج. والسائل هو الذي يسأل العطية بإظهار الفاقة والمحروم هو الذي حرم الرزق فلم ينجح سعيه في طلبه ولا يسأل تعففا.

٧. أحاديث وآثار:

أ. في المجمع في قوله تعالى: ﴿كانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ ما يَهْجَعُونَ﴾ وقيل معناه: كانوا أقل ليلة تمر بهم إلا صلوا فيها: وهو المروي عن أبي عبد الله عليه السلام.

ب. وفيه، في قوله تعالى: ﴿وَبِالْأَسْحارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ وقال أبو عبد الله عليه السلام: كانوا يستغفرون الله في الوتر سبعين مرة في السحر.

ج. أخرج ابن مردويه عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: إن آخر الليل في التهجد أحب إلي من أوله، لأن الله يقول: ﴿وَبِالْأَسْحارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾

د. أخرج ابن مردويه عن ابن عمر عن النبي ﷺ في قوله: ﴿وَبِالْأَسْحارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ قال: يصلون.

• أقول: لعل تفسير الاستغفار بالصلاة من جهة اشتمال الوتر عليه كإرادة الصلاة من القرآن في قوله: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كانَ مَشْهُوداً﴾ [الإسراء: ٧٨]

هـ. وفي تفسير القمي في قوله تعالى: ﴿وَفِي أَمْوالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ قال: السائل الذي يسأل، والمحروم الذي قد منع كده.

و. وفي التهذيب، بإسناده عن صفوان الجمال عن أبي عبد الله عليه السلام في الآية قال: المحروم المحارف، الذي قد حرم كد يده في الشراء والبيع.

ز. قال: وفي رواية أخرى عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليه السلام قال: المحروم الرجل ليس بعقله بأس، ولا يبسط له في الرزق وهو محارف.

٥. آيات الله في الأرض والأنفس والسماء:

المقطع [٥] من سورة الذاريات، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ﴾ [الذاريات: ٢٠-٢٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ٣٧٣»:

١. ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ﴾:

أ. الاستنتاج الآتي في آخر هذه الآيات في قوله: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللهِ﴾، إلى أن قال، ﴿وَلا تَجْعَلُوا مَعَ اللهِ إِلَهاً آخَرَ﴾ الآية، يشهد على أن سوق هذه الآيات والدلائل لإثبات وحدانيته تعالى في الربوبية لا لإثبات أصل وجوده أو انتهاء الخلق إليه ونحو ذلك.

ب. وفي الآية إشارة إلى ما تتضمنه الأرض من عجائب الآيات الدالة على وحدة التدبير القائمة بوحدانية مدبره من بر وبحر وجبال وتلال وعيون وأنهار ومعادن ومنافعها المتصلة بعضها ببعض الملاءمة بعضها لبعض ينتفع بها ما عليها من النبات والحيوان في نظام واحد مستمر من غير اتفاق وصدفة، لائح عليها آثار القدرة والعلم والحكم دال على أن خلقها وتدبير أمرها ينتهي إلى خالق مدبر قادر عليم حكيم.

ج. فأي جانب قصد من جوانبها وأية وجهة وليت من جهات التدبير العام الجاري فيها كانت آية بينة وبرهانا ساطعا على وحدانية ربها لا شريك له ينجلي فيه الحق لأهل اليقين ففيها آيات للموقنين.

٢. ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ﴾:

أ. معطوف على قوله: ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ أي وفي أنفسكم آيات ظاهرة لمن أبصر إليها وركز النظر فيها أفلا تبصرون.

ب. والآيات التي في النفوس منها ما هي في تركب الأبدان من أعضائها وأعضاء أعضائها حتى ينتهي إلى البسائط وما لها من عجائب الأفعال والآثار المتحدة في عين تكثرها المدبرة جميعا لمدبر واحد، وما يعرضها من مختلف الأحوال كالجنينية والطفولية والرهاق والشباب والشيب.

ج. ومنها ما هي من حيث تعلق النفوس أعني الأرواح بها كالحواس من البصر والسمع والذوق والشم واللمس التي هي الطرق الأولية لاطلاع النفوس على الخارج لتميز بذلك الخير من الشر والنافع من الضار لتسعى إلى ما فيه كمالها وتهرب مما لا يلائمها، وفي كل منها نظام وسيع جار فيه منفصل بذاته عن غيره كالبصر لا خبر عنده عما يعمله السمع بنظامه الجاري فيه وهكذا، والجميع مع هذا الانفصال

والتقطع مؤتلفة تعمل تحت تدبير مدبر واحد هو النفس المدبرة والله من ورائهم محيط.

د. ومن هذا القبيل سائر القوى المنبعثة عن النفوس في الأبدان كالقوة الغضبية والقوة الشهوية وما لها من اللواحق والفروع فإنها على ما للواحد منها بالنسبة إلى غيره من البينونة وانفصال النظام الجاري فيه عن غيره واقعة تحت تدبير مدبر واحد تتعاضد جميع شعبها وتأتلف لخدمته.

هـ. ونظام التدبير الذي لكل من هذه المدبرات إنما وجد له حينما وجد وأول ما ظهر من غير فصل فليس مما عملت فيه خيرته وأوجده هو لنفسه عن فكر وروية أو بغيره فنظام تدبيره كنفسه من صانع صنعه وألزمه نظامه بتدبيره.

و. ومنها الآيات الروحانية الواقعة في عالم النفوس الظاهرة لمن رجع إليها وراقب الله سبحانه فيها من آيات الله التي لا يسعها وصف الواصفين وينفتح بها باب اليقين وتدرج المتطلع عليها في زمرة الموقنين فيرى ملكوت السماوات والأرض كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام: ٧٥]

٣. ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ﴾:

أ. قيل: المراد بالسماء جهة العلو فإن كل ما علاك وأظلك فهو سماء لغة، والمراد بالرزق المطر الذي ينزله الله على الأرض فيخرج به أنواع ما يقتاتونه ويلبسونه وينتفعون به وقد قال تعالى: ﴿وَمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [الجاثية: ٥]، فسمي المطر رزقا فالمراد بالرزق سببه أو بتقدير مضاف أي سبب رزقكم.

ب. وقيل: المراد أسباب الرزق السماوية من الشمس والقمر والكواكب واختلاف المطالع والمغارب الراسمة للفصول الأربعة وتوالي الليل والنهار وهي جميعا أسباب الرزق فالكلام على تقدير مضاف أي أسباب رزقكم أو فيه تجوز بدعوى أن وجود الأسباب فيها وجود ذوات الأسباب.

ج. وقيل: المراد بكون الرزق فيها كون تقديره فيها، أو أن الأرزاق مكتوبة في اللوح المحفوظ فيها.

د. ويمكن أن يكون المراد به عالم الغيب فإن الأشياء ومنها الأرزاق تنزل من عند الله سبحانه وقد صرح بذلك في أشياء كقوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ [الزمر: ٦]، وقوله: ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ [الحديد: ٢٥]، وقوله على نحو العموم: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا

نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ [الحجر: ٢١]، والمراد بالرزق كل ما ينتفع به الإنسان في بقائه من مأكل ومشرب وملبس ومسكن ومنكح وولد وعلم وقوة وغير ذلك.

٤. ﴿وَما تُوعَدُونَ﴾:

أ. عطف على ﴿رِزْقُكُمْ﴾ الظاهر أن المراد به الجنة لقوله تعالى: ﴿عِنْدَها جَنَّةُ الْمَأْوى﴾ [النجم: ١٥]، وقول بعضهم: إن المراد به الجنة والنار أو الثواب والعقاب لا يلائمه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْها لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوابُ السَّماءِ وَلا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِياطِ﴾ [الأعراف: ٤٠]

ب. نعم تكرر في القرآن نسبة نزول العذاب الدنيوي إلى السماء كقوله: ﴿فَأَنْزَلْنا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزاً مِنَ السَّماءِ﴾ [البقرة: ٥٩]، وغير ذلك.

ج. وعن بعضهم أن قوله: ﴿وَما تُوعَدُونَ﴾ مبتدأ خبره قوله: ﴿فَوَ رَبِّ السَّماءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ والواو للاستئناف وهو معنى بعيد عن الفهم.

٥. ﴿فَوَ رَبِّ السَّماءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ ما أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ﴾:

أ. النطق التكلم وضمير ﴿إِنَّهُ﴾ راجع إلى ما ذكر من كون الرزق وما توعدون في السماء والحق هو الثابت المحتوم في القضاء الإلهي دون أن يكون أمرا تبعيا أو اتفاقيا.

ب. والمعنى: أقسم برب السماء والأرض أن ما ذكرناه من كون رزقكم وما توعدونه من الجنة، وهو أيضا من الرزق فقد تكرر في القرآن تسمية الجنة رزقا كقوله: ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: ٧٤]، وغير ذلك، في السماء لثابت مقضي مثل نطقكم وتكلمكم الذي هو حق لا ترتابون فيه.

ج. وجوز بعضهم أن يكون ضمير ﴿إِنَّهُ﴾ راجعا إلى ﴿ما تُوعَدُونَ﴾ فقط أو إلى الرزق فقط أو إلى الله أو إلى النبي ﷺ أو إلى القرآن أو إلى الدين في قوله: ﴿وَإِنَّ الدِّينَ لَواقِعٌ﴾ أو إلى اليوم في قوله: ﴿أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ﴾ أو إلى جميع ما تقدم من أول السورة إلى هاهنا، ولعل الأوجه رجوعه إلى ما ذكر في قوله: ﴿وَفِي السَّماءِ رِزْقُكُمْ وَما تُوعَدُونَ﴾ كما قدمنا.

٦. وضع هنا مبحثا حول [تكافؤ الرزق والمرزوق]، خلاصته:

أ. الرزق هو ما يمد شيئاً آخر في بقائه بانضمامه إليه أو لحوقه به، كالغذاء الذي يمد الإنسان في

حياته، والزوج الذي يمد زوجه في إرضاء غريزته وبقاء نسله.

ب. الأشياء المادية يرتزق بعضها ببعض، فما يلحق المرزوق في بقائه من أطوار الكينونة، هي بعينها أطوار لاحقة بالرزق منسوبة إليه، وإن تغيرت الأسماء، فكما أن الإنسان يصير بالتغذي ذا أجزاء جديدة، كذلك الغذاء يصير جزءاً جديداً من بدنه.

ج. القضاء محيط بالكون مستوعب للأشياء، يتعين به ما يجري على كل شيء في نفسه وأطوار وجوده، وسلسلة الحوادث مؤلفة من علل تامة ومعلولات ضرورية.

د. الرزق والمرزوق متلازمان لا يتفارقان، فلا معنى لمرزوق مستمد في بقائه من غير رزق، ولا معنى لرزق متحقق من غير مرزوق له، ولا معنى لزيادة الرزق على ما يحتاج إليه المرزوق، فالرزق داخل في القضاء الإلهي دخولاً أولياً لا بالعرض ولا بالتبع، وهو المعنى بكون الرزق حقاً.

٧. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي في قوله تعالى: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ قال: خلقك سميعا بصيرا، تغضب مرة وترضى مرة، وتجوع مرة وتشبع مرة، وذلك كله من آيات الله.

• أقول: ونسبه في المجمع إلى الصادق عليه السلام.

ب. وفي التوحيد، بإسناده إلى هشام بن سالم قال: سئل أبو عبد الله عليه السلام فقيل له: بما عرفت ربك؟ قال: بفسخ العزم ونقض الهم، عزمت ففسخ عزمي، وهممت فنقض همي.

• أقول: ورواه في الخصال، عنه عن أبيه عن جده عن أمير المؤمنين عليه السلام.

ج. أخرج الخرائطي في مساوي الأخلاق عن علي بن أبي طالب ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ قال: سبيل الغائط والبول.

• أقول: الرواية كالروايتين السابقتين مسوقة لبيان بعض المصاديق من طرق المعرفة.

د. أخرج ابن النقور والديلمي عن علي عن النبي ﷺ في قوله: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ قال: المطر.

• أقول: وروى نحوا منه القمي في تفسيره، مرسلا ومضمرا.

هـ. وفي إرشاد المفيد، عن علي عليه السلام في حديث: اطلبوا الرزق فإنه مضمون لطالبه.

و. وفي التوحيد، بإسناده إلى أبي البختري قال: حدثني جعفر بن محمد عن أبيه عن جده عن علي بن أبي طالب عليه السلام عن النبي ﷺ أنه قال: يا علي: إن اليقين أن لا ترضي أحدا على سخط الله، ولا تحمدن أحدا على ما آتاك الله، ولا تذمن أحدا على ما لم يؤتك الله، فإن الرزق لا يجره حرص حريص، ولا يصرفه كره كاره، الحديث.

٦. قصة ضيف إبراهيم وبشارتهم له بغلام عليم:

المقطع [٦] من سورة الذاريات، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ [الذاريات: ٢٤-٢٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ٣٧٧»:

١. ﴿هَلْ أَتاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْراهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾:

أ. إشارة إلى قصة دخول الملائكة المكرمين على إبراهيم عليه السلام وتبشيرهم له ولزوجه ثم إهلاكهم قوم لوط، وفيها آية على وحدانية الربوبية كما تقدمت الإشارة إليه.

ب. وفي قوله: ﴿هَلْ أَتاكَ حَدِيثُ﴾ تفخيم لأمر القصة و﴿الْمُكْرَمِينَ﴾، وهم الملائكة الداخلون على إبراهيم، صفة ﴿ضَيْفِ﴾ وإفراده لكونه في الأصل مصدرا لا يثنى ولا يجمع.

٢. ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقالُوا سَلاماً قالَ سَلامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾ الظرف متعلق بقوله في الآية السابقة: ﴿حَدِيثُ﴾ و﴿سَلاماً﴾ مقول القول والعامل فيه محذوف أي قالوا: نسلم عليك سلاما.

٣. ﴿قالَ سَلامٌ﴾ قول ومقول و﴿سَلامٌ﴾ مبتدأ محذوف الخبر والتقدير سلام عليكم، وفي إتيانه بالجواب جملة اسمية دالة على الثبوت تحية منه عليه السلام بما هو أحسن من تحيتهم بقولهم: سلاما فإنه جملة فعليه دالة على الحدوث.

٤. ﴿قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾ الظاهر أنه حكاية قول إبراهيم في نفسه، ومعناه أنه لما رآهم استنكرهم وحدث نفسه أن هؤلاء قوم منكرون، ولا ينافي ذلك ما وقع في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأى أَيْدِيَهُمْ لا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ﴾ [هود: ٧٠] حيث ذكر نكره بعد تقريب العجل الحنيذ إليهم فإن ما في هذه السورة حديث نفسه به وما في سورة هود ظهوره في وجهه بحيث يشاهد منه ذلك، وهذا المعنى أوجه من قول جمع من المفسرين:

إنه حكاية قوله عليه السلام لهم والتقدير أنتم قوم منكرون.

٥. ﴿فَراغَ إِلى أَهْلِهِ فَجاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾:

أ. الروغ الذهاب على سبيل الاحتيال على ما قاله الراغب وقال غيره: هو الذهاب إلى الشيء في خفية، والمعنى الأول يرجع إلى الثاني.

ب. والمراد بالعجل السمين المشوي منه بدليل قوله: ﴿فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ﴾ أو الفاء فصيحة والتقدير فجاء بعجل سمين فذبحه وشواه وقربه إليهم.

٦. ﴿فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قالَ أَلا تَأْكُلُونَ﴾ عرض الأكل على الملائكة وهو يحسبهم بشرا.

٧. ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قالُوا لا تَخَفْ﴾ الفاء فصيحة والتقدير فلم يمدوا إليه أيديهم فلما رأى ذلك نكرهم وأوجس منهم خيفة، والإيجاس الإحساس في الضمير والخيفة بناء نوع من الخوف أي أضمر منهم في نفسه نوعا من الخوف.

٨. ﴿قالُوا لا تَخَفْ﴾ جيء بالفصل لا بالعطف لأنه في معنى جواب سؤال مقدر كأنه قيل: فما ذا كان بعد إيجاس الخيفة فقيل: قالوا: لا تخف وبشروه بغلام عليم فبدلوا خوفه أمنة وسرورا والمراد بغلام عليم إسماعيل أو إسحاق وقد تقدم الخلاف فيه.

٧. دهشة امرأة إبراهيم وردّ الملائكة:

المقطع [٧] من سورة الذاريات، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ قَالُوا كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ [الذاريات: ٢٩ـ٣٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ٣٧٨»:

١. ﴿فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾:

أ. في المجمع: (الصرة شدة الصياح وهو من صرير الباب ويقال للجماعة صرة أيضا، قال: والصك الضرب باعتماد شديد)

ب. والمعنى فأقبلت امرأة إبراهيم عليه السلام، لما سمعت البشارة، في ضجة وصياح فلطمت وجهها وقالت: أنا عجوز عقيم فكيف ألد؟ أو المعنى هل عجوز عقيم تلد غلاما؟ وقيل: المراد بالصرة الجماعة وأنها جاءت إليهم في جماعة فصكت وجهها وقالت ما قالت، والمعنى الأول أوفق للسياق.

٢. ﴿قالُوا كَذلِكَ قالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ الإشارة بكذلك إلى ما بشروها به بما لها ولزوجها من حاضر الوضع هي عجوز عقيم وبعلها شيخ مسه الكبر فربها حكيم لا يريد ما يريد إلا بحكمه، عليم لا يخفى عليه وجه الأمر.

٣. أحاديث وآثار: في المجمع ﴿فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ﴾ وقيل: في جماعة، عن الصادق عليه السلام.

٨. إرسال الملائكة لهلاك قوم لوط وإنجاء المؤمنين:

المقطع [٨] من سورة الذاريات، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قالَ فَما خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ قالُوا إِنَّا أُرْسِلْنا إِلى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجارَةً مِنْ طِينٍ مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ فَأَخْرَجْنا مَنْ كانَ فِيها مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَما وَجَدْنا فِيها غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَتَرَكْنا فِيها آيَةً لِلَّذِينَ يَخافُونَ الْعَذابَ الْأَلِيمَ﴾ [الذاريات: ٣١-٣٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ٣٧٩»:

١. ﴿قالَ فَما خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾:

أ. الخطب الأمر الخطير الهام، والحجارة من الطين الطين المتحجر، والتسويم تعليم الشيء بمعنى جعله ذا علامة من السومة بمعنى العلامة.

ب. والمعنى: ﴿قالَ﴾ إبراهيم عليه السلام ﴿فَما خَطْبُكُمْ﴾ والشأن الخطير الذي لكم ﴿أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ من الملائكة.

٢. ﴿قالُوا﴾ أي الملائكة لإبراهيم ﴿إِنَّا أُرْسِلْنا إِلى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ﴾ وهم قوم لوط ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجارَةً مِنْ طِينٍ﴾ طينا متحجرا سماه الله سجيلا ﴿مُسَوَّمَةً﴾ معلمة ﴿عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ تختص بهم لإهلاكهم، والظاهر أن اللام في المسرفين للعهد.

٣. ﴿فَأَخْرَجْنا مَنْ كانَ فِيها مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾:

أ. الفاء فصيحة وقد أوجز بحذف ما في القصة من ذهاب الملائكة إلى لوط وورودهم عليه وهم القوم بهم حتى إذا أخرجوا آل لوط من القرية، وقد فصلت القصة في غير موضع من كلامه تعالى.

ب. فقوله: ﴿فَأَخْرَجْنا﴾ بيان إهلاكهم بمقدمته، وضمير ﴿فِيها﴾ للقرية المفهومة من السياق، و﴿بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ بيت لوط، وقوله: ﴿وَتَرَكْنا فِيها آيَةً﴾ إشارة إلى إهلاكهم وجعل أرضهم عاليها

سافلها، والمراد بالترك الإبقاء كناية وقد بينت هذه الخصوصيات في سائر كلامه تعالى.

ج. والمعنى: فلما ذهبوا إلى لوط وكان من أمرهم ما كان ﴿فَأَخْرَجْنا مَنْ كانَ فِيها﴾ في القرية ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَما وَجَدْنا فِيها غَيْرَ بَيْتٍ﴾ واحد ﴿مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ وهم آل لوط ﴿وَتَرَكْنا فِيها﴾ في أرضهم بقلبها وإهلاكهم ﴿آيَةً﴾ دالة على ربوبيتنا وبطلان الشركاء ﴿لِلَّذِينَ يَخافُونَ الْعَذابَ الْأَلِيمَ﴾ من الناس.

٩. عاقبة فرعون وجنوده حين كذّبوا موسى:

المقطع [٩] من سورة الذاريات، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ [الذاريات: ٣٨ـ٤٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ٣٧٩»:

١. ﴿وَفِي مُوسى إِذْ أَرْسَلْناهُ إِلى فِرْعَوْنَ بِسُلْطانٍ مُبِينٍ﴾ عطف على قوله: ﴿وَتَرَكْنا فِيها آيَةً﴾ والتقدير وفي موسى آية، والمراد بسلطان مبين الحجج الباهرة التي كانت معه من الآيات المعجزة.

٢. ﴿فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ وَقالَ ساحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ التولي الإعراض والباء في قوله: ﴿بِرُكْنِهِ﴾ للمصاحبة، والمراد بركنه جنوده كما يؤيده الآية التالية، والمعنى: أعرض مع جنوده، وقيل: الباء للتعدية، والمعنى: جعل ركنه متولين معرضين.

٣. ﴿وَقالَ ساحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ أي قال تارة هو مجنون كقوله: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ [الشعراء: ٢٧]، وقال أخرى: هو ساحر كقوله: ﴿إِنَّ هذا لَساحِرٌ عَلِيمٌ﴾ [الشعراء: ٣٤]

٤. ﴿فَأَخَذْناهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْناهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾:

أ. النبذ طرح الشيء من غير أن يعتد به، واليم البحر، والمليم الآتي بما يلام عليه من ألام بمعنى أتى بما يلام عليه كأغرب إذا أتى بأمر غريب.

ب. والمعنى: فأخذناه وجنوده وهم ركنه وطرحناهم في البحر والحال أنه أتى من الكفر والجحود والطغيان بما يلام عليه، وإنما خص فرعون بالملامة مع أن الجميع يشاركونه فيها لأنه إمامهم الذي قادهم إلى الهلاك، قال تعالى: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ﴾ [هود: ٩٨]

ج. وفي الكلام من الإيماء إلى عظمة القدرة وهول الأخذ وهو أن أمر فرعون وجنوده ما لا يخفى.

١٠. هلاك عاد بريح عقيم:

المقطع [١٠] من سورة الذاريات، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾ [الذاريات: ٤١-٤٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ٣٨٠»:

١. ﴿وَفِي عادٍ إِذْ أَرْسَلْنا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾:

أ. عطف على ما تقدمه أي وفي عاد أيضا آية إذ أرسلنا عليهم أي أطلقنا عليهم الريح العقيم.

ب. والريح العقيم هي الريح التي عقمت وامتنعت من أن يأتي بفائدة مطلوبة من فوائد الرياح كتنشئة سحاب أو تلقيح شجر أو تذرية طعام أو نفع حيوان أو تصفية هواء كما قيل وإنما أثرها الإهلاك كما تشير إليه الآية التالية.

٢. ﴿ما تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾ ﴿ما تَذَرُ﴾ أي ما تترك، والرميم الشيء الهالك البالي كالعظم البالي السحيق، والمعنى ظاهر.

٣. أحاديث وآثار: أخرج الفاريابي وابن المنذر عن علي بن أبي طالب قال: الريح العقيم النكباء.

١١. عصيان ثمود وقوم نوح وهلاكهم:

المقطع [١١] من سورة الذاريات، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ [الذاريات: ٤٣-٤٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ٣٨٠»:

١. ﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ﴾ عطف على ما تقدمه أي وفي ثمود أيضا آية إذ قيل لهم: تمتعوا حتى حين، والقائل نبيهم صالح عليه السلام إذ قال لهم: ﴿تَمَتَّعُوا فِي دارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ ذلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ [هود: ٦٥] قال لهم ذلك لما عقروا الناقة فأمهلهم ثلاثة أيام ليرجعوا فيها عن كفرهم وعتوهم لكن لم ينفعهم ذلك وحق عليهم كلمة العذاب.

٢. ﴿فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ العتو، على ما ذكره الراغب، النبوء عن الطاعة فينطبق على التمرد، والمراد بهذا العتو العتو عن الأمر والرجوع إلى الله أيام المهلة فلا يستشكل بأن عتوهم عن أمر الله كان مقدما على تمتعهم، كما يظهر من تفصيل القصة، والآية تدل على العكس.

٣. ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ هذا لا ينافي ما في موضع آخر من ذكر الصيحة بدل الصاعقة كقوله: ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ﴾ [هود: ٦٧] لجواز تحققهما معا في عذابهم.

٤. ﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيامٍ﴾ لا يبعد أن يكون ﴿اسْتَطاعُوا﴾ مضمنا معنى تمكنوا، و﴿مِنْ قِيامٍ﴾ مفعوله أي ما تمكنوا من قيام من مجلسهم ليفروا من عذاب الله وهو كناية عن أنهم لم يمهلوا حتى بمقدار أن يقوموا من مجلسهم.

٥. ﴿وَما كانُوا مُنْتَصِرِينَ﴾ عطف على ﴿فَمَا اسْتَطاعُوا﴾ أي ما كانوا منتصرين بنصرة غيرهم ليدفعوا بها العذاب عن أنفسهم، ومحصل الجملتين أنهم لم يقدروا على دفع العذاب عن أنفسهم لا بأنفسهم ولا بناصر ينصرهم.

٦. ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً فاسِقِينَ﴾:

أ. عطف على القصص السابقة، و﴿قَوْمَ نُوحٍ﴾ منصوب بفعل محذوف والتقدير وأهلكنا قوم نوح من قبل عاد وثمود إنهم كانوا فاسقين عن أمر الله.

ب. فهناك أمر ونهي كلف الناس بهما من قبل الله سبحانه وهو ربهم ورب كل شيء دعاهم إلى الدين الحق بلسان رسله فما جاء به الأنبياء عليهم‌السلام حق من عند الله ومما جاءوا به الوعد بالبعث والجزاء.

١٢. قدرة الله على خلق السماء والأرض والأزواج:

المقطع [١٢] من سورة الذاريات، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٧ـ٤٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ٣٨١»:

١. ﴿وَالسَّماءَ بَنَيْناها بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾:

أ. رجوع إلى السياق السابق في قوله: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آياتٌ لِلْمُوقِنِينَ﴾، والأيد القدرة والنعمة، وعلى كل من المعنيين يتعين لقوله: ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ ما يناسبه من المعنى.

ب. فالمعنى على الأول: والسماء بنيناها بقدرة لا يوصف قدرها وإنا لذووا سعة في القدرة لا يعجزها شيء، وعلى الثاني: والسماء بنيناها مقارنا بناؤها لنعمة لا تقدر بقدر وإنا لذووا سعة وغنى لا تنفد

خزائننا بالإعطاء والرزق نرزق من السماء من نشاء فنوسع الرزق كيف نشاء.

ج. ومن المحتمل أن يكون (موسعون) من أوسع في النفقة أي كثرها فيكون المراد توسعة خلق السماء كما تميل إليه الأبحاث الرياضية اليوم.

٢. ﴿وَالْأَرْضَ فَرَشْناها فَنِعْمَ الْماهِدُونَ﴾ الفرش البسط وكذا المهد أي والأرض بسطناها وسطحناها لتستقروا عليها وتسكنوها فنعم الباسطون نحن، وهذا الفرش والبسط لا ينافي كروية الأرض.

٣. ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ الزوجان المتقابلان يتم أحدهما بالآخر: فاعل ومنفعل كالذكر والأنثى، وقيل: المراد مطلق المتقابلات كالذكر والأنثى والسماء والأرض والليل والنهار والبر والبحر والإنس والجن وقيل: الذكر والأنثى.

٤. ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي تتذكرون أن خالقها منزه عن الزوج والشريك واحد موحد.

٥. أحاديث وآثار:

أ. في التوحيد، بإسناده إلى محمد بن مسلم قال: سألت أبا جعفر عليه السلام فقلت: قول الله عز وجل ﴿يا إِبْلِيسُ ما مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِما خَلَقْتُ بِيَدَيَ﴾؟ فقال: اليد في كلام العرب القوة والنعمة، قال الله: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنا داوُدَ ذَا الْأَيْدِ﴾، وقال: ﴿وَالسَّماءَ بَنَيْناها بِأَيْدٍ﴾ أي بقوة، وقال: ﴿وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ﴾ أي بقوة، ويقال: لفلان عندي يد بيضاء أي نعمة.

ب. وفي التوحيد، بإسناده إلى أبي الحسن الرضا عليه السلام خطبة طويلة وفيها: بتشعيره المشاعر عرف أن لا مشعر له، وبتجهيره الجواهر عرف أن لا جوهر له، وبمضادته بين الأشياء عرف أن لا ضد له، وبمقارنته بين الأشياء عرف أن لا قرين له، ضاد النور بالظلمة، واليبس بالبلل، والخشن باللين، والصرد بالحرور، مؤلفا بين متعادياتها، مفرقا بين متدانياتها، دالة بتفريقها على مفرقها، وبتأليفها على مؤلفها وذلك قوله: ﴿مِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾، ففرق بين قبل وبعد، ليعلم أن لا قبل له ولا بعد له، شاهدة بغرائزها أن لا غريزة لمغرزها، مخبرة بتوقيتها أن لا وقت لموقتها، حجب بعضها عن بعض، ليعلم أن لا حجاب بينه وبين خلقه.

١٣. الأمر بالفرار إلى الله ونبذ الشرك:

المقطع [١٣] من سورة الذاريات، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ [الذاريات: ٥٠-٥١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ٣٨٢»:

١. ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ وَلا تَجْعَلُوا مَعَ اللهِ إِلهاً آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾:

أ. في الآيتين تفريع على ما تقدم من الحجج على وحدانيته في الربوبية والألوهية، وفيها قصص عدة من الأمم الماضين كفروا بالله ورسله فانتهى بهم ذلك إلى عذاب الاستئصال.

ب. فالمراد بالفرار إلى الله الانقطاع إليه من الكفر والعقاب الذي يستتبعه، بالإيمان به تعالى وحده واتخاذه إلها معبودا لا شريك له.

٢. ﴿وَلا تَجْعَلُوا مَعَ اللهِ إِلهاً آخَرَ﴾ كالتفسير لقوله: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللهِ﴾ أي المراد بالإيمان به الإيمان به وحده لا شريك له في الألوهية والمعبودية.

٣. وقد كرر قوله: ﴿إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ لتأكيد الإنذار، والآيتان محكيتان عن لسان النبي ﷺ.

٤. أحاديث وآثار: في المجمع في قوله تعالى: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللهِ﴾ وقيل: معناه حجوا، عن الصادق عليه السلام.

• أقول: ورواه في الكافي، وفي المعاني، بالإسناد عن أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام ولعله من التطبيق.

١٤. تكذيب الأمم لرسلهم وأمر النبي بالتذكير:

المقطع [١٤] من سورة الذاريات، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٢-٥٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ٣٨٥»:

١. ﴿كَذلِكَ ما أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قالُوا ساحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾:

أ. أي الأمر كذلك، فقوله: ﴿كَذلِكَ﴾ كالتلخيص لما تقدم من إنكارهم واختلافهم في القول.

ب. ﴿ما أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾، بيان للمشبه.

٢. ﴿أَتَواصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طاغُونَ﴾ التواصي إيصاء القوم بعضهم بعضا بأمر، وضمير ﴿بِهِ﴾

للقول، والاستفهام للتعجيب، والمعنى: هل وصى بعض هذه الأمم بعضا، هل السابق وصي اللاحق؟، على هذا القول؟ لا بل هم قوم طاغون يدعوهم إلى هذا القول طغيانهم.

٣. ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ﴾ تفريع على طغيانهم واستكبارهم وإصرارهم على العناد واللجاج، فالمعنى: فإذا كان كذلك ولم يجيبوك إلا بمثل قولهم ساحر أو مجنون ولم يزدهم دعوتك إلا عنادا فأعرض عنهم ولا تجادلهم على الحق فما أنت بملوم فقد أريت المحجة وأتممت الحجة.

٤. ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ تفريع على الأمر بالتولي عنهم فهو أمر بالتذكير بعد النهي عن الجدال معهم، والمعنى: واستمر على التذكير والعظة فذكر كما كنت تذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين بخلاف الاحتجاج والجدال مع أولئك الطاغين فإنه لا ينفعهم شيئا ولا يزيدهم إلا طغيانا وكفرا.

٥. أحاديث وآثار: في المجمع: (وروي بالإسناد عن مجاهد قال: خرج علي بن أبي طالب معتما مشتملا في قميصة، فقال: لما نزلت ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ﴾ لم يبق أحد منا إلا أيقن بالهلكة، حين قيل للنبي: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ فلما نزل ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ طابت نفوسنا، ومعناه: عظ بالقرآن من آمن من قومك، فإن الذكرى تنفعهم، عن الكلبي.

• أقول: ورواه في الدر المنثور، وروي أيضا ما في معناه عن ابن راهويه وابن مردويه عنه عليه السلام.

١٥. حكمة خلق الجن والإنس للعبادة وليس للحاجة:

المقطع [١٥] من سورة الذاريات، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ إِنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٦ـ٥٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ٣٨٦»:

١. ﴿وَما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ فيه التفات من سياق التكلم بالغير إلى التكلم وحده لأن الأفعال المذكورة سابقا المنسوبة إليه تعالى كالخلق وإرسال الرسل وإنزال العذاب كل ذلك مما يقبل توسيط الوسائط كالملائكة وسائر الأسباب بخلاف الغرض من الخلق والإيجاد فإنه أمر يختص بالله سبحانه لا يشاركه فيه أحد.

٢. ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾:

أ. استثناء من النفي لا ريب في ظهوره في أن للخلقة غرضا وأن الغرض العبادة بمعنى كونهم عابدين لله لا كونه معبودا فقد قال: ليعبدون ولم يقل: لأعبد أو لأكون معبودا لهم.

ب. على أن الغرض كيفما كان أمر يستكمل به صاحب الغرض ويرتفع به حاجته والله سبحانه لا نقص فيه ولا حاجة له حتى يستكمل به ويرتفع به حاجته، ومن جهة أخرى الفعل الذي لا ينتهي إلى غرض لفاعله لغو سفهي ويستنتج منه أن له سبحانه في فعله غرضا هو ذاته لا غرض خارج منه، وأن لفعله غرضا يعود إلى نفس الفعل وهو كمال للفعل لا لفاعله، فالعبادة غرض لخلقة الإنسان وكمال عائد إليه هي وما يتبعها من الآثار كالرحمة والمغفرة وغير ذلك، ولو كان للعبادة غرض كالمعرفة الحاصلة بها والخلوص لله كان هو الغرض الأقصى والعبادة غرضا متوسطا.

ج. سؤال وإشكال: فإن قلت: ما ذكرته من حمل اللام في ﴿لِيَعْبُدُونِ﴾ على الغرض يعارضه قوله تعالى: ﴿لا يَزالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود: ١١٩]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ﴾ [الأعراف: ١٧٩]، فإن ظاهر الآية الأولى كون الغرض من الخلقة الاختلاف، وظاهر الثانية كون الغرض من خلق كثير من الجن والإنس دخول جهنم فلا محيص عن رفع اليد من حمل اللام على الغرض وحملها على الغاية، والجواب: أما الآية الأولى فالإشارة فيها إلى الرحمة دون الاختلاف، وأما الآية الثانية فاللام فيها للغرض لكنه غرض تبعي وبالقصد الثاني لا غرض أصلي وبالقصد الأول وقد تقدم إشباع الكلام في تفسير الآيتين.

د. سؤال وإشكال: فإن قلت: لو كان اللام في ﴿لِيَعْبُدُونِ﴾ للغرض كانت العبادة غرضه تعالى المراد من الخلقة، ومن المحال أن يتخلف مراده تعالى عن إرادته لكن من المعلوم المشاهد عيانا أن كثيرا منهم لا يعبدونه تعالى وهذا نعم الدليل على أن اللام في الآية ليست للغرض أو أنها للغرض لكن المراد بالعبادة العبادة التكوينية كما في قوله: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: ٤٤]، أو أن المراد بخلقهم للعبادة خلقهم على وجه صالح لأن يعبدوا الله بجعلهم ذوي اختيار وعقل واستطاعة، وتنزيل الصلاحية والاستعداد منزلة الفعلية مجاز شائع كما يقال: خلق البقر للحرث، والدار للسكنى، والجواب:

• الإشكال مبني على كون اللام في الجن والإنس للاستغراق فيكون تخلف الغرض في بعض الأفراد منافيا له وتخلفا من الغرض، والظاهر أن اللام فيهما للجنس دون الاستغراق فوجود العبادة في

النوع في الجملة تحقق للغرض لا يضره تخلفه في بعض الأفراد نعم لو ارتفعت العبادة عن جميع الأفراد كان ذلك بطلانا للغرض، ولله سبحانه في النوع غرض كما أن له في الفرد غرضا.

• وأما حمل العبادة على العبادة التكوينية فيضعفه أنها شأن عامة المخلوقات لا موجب لتخصيصه بالجن والإنس مضافا إلى أن السياق سياق توبيخ الكفار على ترك عبادة الله التشريعية وتهديدهم على إنكار البعث والحساب والجزاء وذلك متعلق بالعبادة التشريعية دون التكوينية.

• وأما حمل العبادة على الصلوح والاستعداد بأن يكون الغرض من خلق الجن والإنس كونهما بحيث يصلحان للعبادة ويستعدان لها أو لتعلق الأمر والنهي العباديين فيضعفه أن من البين أن الصلوح والاستعداد إنما يتعلق به الطلب لأجل الفعلية التي يتعلق به الصلوح والاستعداد فلو كان الغرض المطلوب من خلقهما كونهما بحيث يصلحان للعبادة أو لتعلق الأمر والنهي العباديين فقد تعلق الغرض أولا بفعلية عبادتهما ثم بالصلوح والاستعداد لمكان المقدمية.

• ففي حمل العبادة على الصلوح والاستعداد اعتراف بكون الغرض من الخلق أولا وبالذات نفس العبادة ثم الصلوح والاستعداد فيعود الإشكال لو كان هناك إشكال.

• فالحق أن اللام في ﴿الْجِنَّ وَالْإِنْسَ﴾ للجنس دون الاستغراق، والمراد بالعبادة نفسها دون الصلوح والاستعداد، ولو كان المراد هو الصلوح والاستعداد للعبادة لكان ذلك غرضا أدنى مطلوبا لأجل غرض أعلى هو العبادة كما أن نفس العبادة بمعنى ما يأتي به العبد من الأعمال بالجوارح من قيام وركوع وسجود ونحوها غرض مطلوب لأجل غرض آخر هو المثول بين يدي رب العالمين بذلة العبودية وفقر المملوكية المحضة قبال العزة المطلقة والغنى المحض كما ربما استفيد من قوله تعالى: ﴿قُلْ ما يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْ لا دُعاؤُكُمْ﴾ [الفرقان: ٧٧]، حيث بدل العبادة دعاء.

• فحقيقة العبادة نصب العبد نفسه في مقام الذلة والعبودية وتوجيه وجهه إلى مقام ربه، وهذا هو مراد من فسر العبادة بالمعرفة يعني المعرفة الحاصلة بالعبادة.

• فحقيقة العبادة هي الغرض الأقصى من الخلقة وهي أن ينقطع العبد عن نفسه وعن كل شيء ويذكر ربه.

٣. هذا ما يعطيه التدبر في قوله تعالى: ﴿وَما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ ولعل تقديم الجن

على الإنس لسبق خلقهم على خلق الإنس قال تعالى: ﴿وَالْجَانَّ خَلَقْناهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نارِ السَّمُومِ﴾ [الحجر: ٢٧]، والعبادة هي غرض الفعل أي كمال عائد إليه لا إلى الفاعل على ما تقدم.

٤. ويظهر من القصر في الآية بالنفي والاستثناء أن لا عناية لله بمن لا يعبده كما يفيده أيضا قوله: ﴿قُلْ ما يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلا دُعاؤُكُمْ﴾

٥. ﴿ما أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَما أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ﴾:

أ. الإطعام إعطاء الطعام ليطعم ويؤكل قال تعالى: ﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ﴾ [الشعراء: ٧٩]، وقال: ﴿الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ﴾ [الإيلاف: ٤]، فيكون ذكر الإطعام بعد الرزق من قبيل ذكر الخاص بعد العام لتعلق عناية خاصة به وهي أن التغذي أوسع حوائج الإنسان وغيره وأخسها لكونه مسبوقا بالجوع وملحوقا بالدفع.

ب. وقيل: المراد بالرزق رزق العباد والمعنى: ما أريد منهم أن يرزقوا عبادي الذين أرزقهم وما أريد أن يطعموني نفسي.

ج. وقيل: المراد بالإطعام تقديم الطعام إليه كما يقدم العبد الطعام إلى سيده والخادم إلى مخدومه فيكون المراد بالرزق تحصيل أصل الرزق وبالإطعام تقديم ما حصلوه والمعنى: ما أريد منهم رزقا يحصلونه لي فأرتزق به وما أريد منهم أن يقدموا إلى ما ارتزق به وأطعمه.

٦. ﴿إِنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾:

أ. تعليل لقوله: ﴿ما أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ﴾، والالتفات في الآية من التكلم وحده إلى الغيبة لإنهاء التعليل إلى اسم الجلالة الذي منه يبتدئ كل شيء وإليه يرجع كأنه قال: ما أريد منهم رزقا لأني أنا الرزاق لأني أنا الله تبارك اسمه.

ب. والتعبير بالرزاق، اسم مبالغة، وكان الظاهر أن يقال: إن الله هو الرزاق للإشارة إلى أنه تعالى إذا كان رازقا وحده كان رزاقا لكثرة من يرزقه فالآية نظير قوله: ﴿وَما أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾

ج. وذو القوة من أسمائه تعالى بمعنى القوي لكنه أبلغ من القوي، والمتين أيضا من أسمائه تعالى بمعنى القوي.

د. والتعبير بالأسماء الثلاثة للدلالة على انحصار الرزق فيه تعالى وأنه لا يأخذه ضعف في إيصال

الرزق إلى المرتزقين على كثرتهم.

٧. أحاديث وآثار:

أ. في التوحيد، بإسناده عن ابن أبي عمير قال: قلت لأبي الحسن موسى بن جعفر عليه السلام: ما معنى قول رسول الله ﷺ: اعملوا، فكل ميسر لما خلق له؟ فقال: إن الله عز وجل خلق الجن والإنس ليعبدوه، ولم يخلقهم ليعصوه وذلك قوله عز وجل: ﴿وَما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ فيسر كلا لما خلق له، فويل لمن استحب العمى على الهدى.

ب. وفي العلل، بإسناده إلى أبي عبد الله عليه السلام قال: خرج الحسين بن علي عليه السلام على أصحابه فقال: إن الله عز وجل ما خلق العباد إلا ليعرفوه، فإذا عرفوه عبدوه، فإذا عبدوه استغنوا بعبادته عن عبادة من سواه.

ج. وفيه، بإسناده إلى أبي بصير قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عز وجل: ﴿وَما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ قال: خلقهم ليأمرهم بالعبادة.

• أقول: وروى القمي في تفسيره مثله مرسلا ومضمرا، وقد مر في تفسير الآية ما يتضح به معنى هذه الروايات، وأن هناك أغراضا مترتبة: التكليف والعبادة والمعرفة.

د. وفي تفسير العياشي، عن يعقوب بن سعيد عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سألته عن قول الله: ﴿وَما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ قال: خلقهم للعبادة، قال: قلت: قوله: ﴿وَلا يَزالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ فقال: نزلت هذه بعد ذلك.

• أقول: أي نزلت ﴿وَلا يَزالُونَ﴾، بعد ﴿وَما خَلَقْتُ﴾، يريد النسخ، وفي تفسير القمي: وفي حديث آخر هي منسوخة بقوله: ﴿وَلا يَزالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ والمراد بالنسخ البيان ورفع الإبهام دون النسخ المصطلح، وكثيرا ما ورد بهذا المعنى في كلامهم عليه السلام كما أشرنا إليه في تفسير قوله تعالى: ﴿ما نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِها﴾ الآية [البقرة: ١٠٦]

• والمراد أن الغرض الأعلى هو الرحمة الخاصة المترتبة على العبادة وهي السعادة الخاصة بالمعرفة.

هـ. وفي التهذيب، بإسناده إلى سدير قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: أي شيء على الرجل في طلب الرزق؟ فقال: إذا فتحت بابك وبسطت بساطك، فقد قضيت ما عليك.

١٦. تحذير الظالمين من عذاب موعود:

المقطع [١٦] من سورة الذاريات، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا مِثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: ٥٩ـ٦٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٨/ ٣٨٩»:

١. ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوباً مِثْلَ ذَنُوبِ أَصْحابِهِمْ فَلا يَسْتَعْجِلُونِ﴾:

أ. الذنوب النصيب، والاستعجال طلب العجلة والحث عليها، والآية متفرعة على قوله: ﴿وَما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ بلازم معناه.

ب. والمعنى: فإذا كان هؤلاء الظالمون لا يعبدون الله ولا عناية له بهم ولا سعادة من قبله تشملهم فإن لهم نصيبا من العذاب مثل نصيب أصحابهم من الأمم الماضية الهالكة فلا يطلبوا مني أن أعجل لهم العذاب ولا يقولوا متى هذا الوعد إن كنتم صادقين، وأيان يوم الدين.

ج. وفي الآية التفات من الغيبة إلى التكلم وحده وهو في الحقيقة رجوع من سياق الغيبة الذي في قوله: ﴿إِنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ﴾، إلى التكلم وحده الذي في قوله: ﴿وَما خَلَقْتُ﴾، لتفرع الكلام عليه.

٢. ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾:

أ. تفريع على قوله: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوباً﴾، وتنبيه على أن هذا الذنوب محقق لهم يوم القيامة وإن أمكن أن يجعل لهم بعضه، وهو يوم ليس لهم فيه إلا الويل والهلاك وهو يومهم الموعود.

ب. وفي تبديل قوله في الآية السابقة ﴿لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ من قوله في هذه الآية: ﴿لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ تنبيه على أن المراد بالظلم ظلم الكفر.

سورة الطور

هذه السورة الكريمة تحتوي على [١٧] مقطعاً، وهذا تعريف بمقاصدها، ومحتويات مقاطعها:

مقاصد السورة ومحتوياتها:

أ. غرض السورة إنذار أهل التكذيب والعناد من الكفار بالعذاب الذي أعد لهم يوم القيامة، فتبدأ بالإنباء عن وقوع العذاب الذي أنذروا به وتحققه يوم القيامة بأقسام مؤكدة وأيمان مغلظة، وأنه غير تاركهم يومئذ حتى يقع بهم ولا مناص.

ب. ثم تذكر نبذة من صفة هذا العذاب والويل الذي يعمهم ولا يفارقهم، ثم تقابل ذلك بشمة من نعيم أهل النعيم يومئذ، وهم المتقون الذين كانوا في الدنيا مشفقين في أهلهم يدعون الله مؤمنين به موحدين له.

ج. ثم تأخذ في توبيخ المكذبين على ما كانوا يرمون النبي ﷺ وما أنزل عليه من القرآن، وما أتي به من الدين الحق.

د. وتختم الكلام بتكرار التهديد والوعيد، وأمر النبي ﷺ بتسبيح ربه.

هـ. والسورة مكية كما يشهد بذلك سياق آياتها.

مقاطع السورة ونظمها:

١. الآيات [١ ـ ١٠] تبدأ بالإنباء عن وقوع العذاب الذي أنذروا به وتحققه يوم القيامة بأقسام مؤكدة وأيمان مغلظة، وأنه غير تاركهم يومئذ حتى يقع بهم ولا مناص.

٢. الآيات [١١ ـ ٢٨] تذكر الآيات من يقع عليهم هذا العذاب الذي لا ريب في تحققه ووقوعه، وتصف حالهم إذ ذاك، وهذا هو الغرض الأصيل في السورة، كما تقدمت الإشارة إليه، وأما ما وقع في الآيات من وصف حال المتقين يومئذ فهو من باب التطفل لتأكيد الإنذار المقصود.

٣. الآيات [٢٩ ـ ٤٤]:

أ. لما أخبر عن العذاب الواقع يوم القيامة وأنه سيصيب المكذبين، والمتقون في جنات ونعيم قريرة العيون، أمر النبي ﷺ أن يمضي في دعوته وتذكرته، مشيراً إلى أنه صالح لإقامة الدعوة الحقة، ولا عذر

لهؤلاء المكذبين في تكذيبه ورد دعوته.

ب. فنفى جميع الأعذار المتصورة لهم، وهي ستة عشر أمراً، شطر منها راجع إلى النبي ﷺ لو تحقق شيء منه فيه سلب صلاحيته للاتباع وكان مانعاً عن قبول قوله: ككونه كاهناً أو مجنوناً أو شاعراً أو متقولاً مفترياً على الله، وكسؤاله الأجر على دعوته.

ج. وشطر منها راجع إلى المكذبين أنفسهم: مثل كونهم خلقوا من غير شيء، أو كونهم الخالقين، أو أمر عقولهم بالتكذيب، إلى غير ذلك، ولا تخلو الآيات مع ذلك عن توبيخهم الشديد على التكذيب.

٤. الآيات [٤٥ ـ ٤٩]:

أ. الآيات تختم السورة، وتأمر النبي ﷺ أن يترك أولئك المكذبين وشأنهم ولا يتعرض لحالهم، وأن يصبر لحكم ربه ويسبح بحمده.

ب. وفي خلالها مع ذلك تكرار إيعادهم بما أوعدهم به في أول السورة من عذاب واقع ليس له من دافع، وتضيف إليه الإيعاد بعذاب آخر دون ذلك للذين ظلموا.

١. القسم بالطور وغيره على عذاب الرب الواقع:

المقطع [١] من سورة الطور، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَالطُّورِ وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ﴾ [الطور: ١ـ٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ٦»:

١. ﴿وَالطُّورِ﴾:

أ. قيل: الطور مطلق الجبل وقد غلب استعماله في الجبل الذي كلم الله عليه موسى عليه السلام، والأنسب أن يكون المراد به في الآية جبل موسى عليه السلام أقسم الله تعالى به لما قدسه وبارك فيه كما أقسم به في قوله: ﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾ [التين: ٢]، وقال: ﴿وَنادَيْناهُ مِنْ جانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ﴾ [مريم: ٥٢]، وقال في خطابه لموسى عليه السلام: ﴿فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوادِ الْمُقَدَّسِ طُوىً﴾ [طه: ١٢]، وقال: ﴿نُودِيَ مِنْ شاطِئِ الْوادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ﴾ [القصص: ٣٠]

ب. وقيل: المراد مطلق الجبل أقسم الله تعالى به لما أودع فيه من أنواع نعمه قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ فِيها رَواسِيَ مِنْ فَوْقِها وَبارَكَ فِيها﴾ [فصلت: ١٠]

٢. ﴿وَكِتابٍ مَسْطُورٍ فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ﴾:

أ. قيل: الرق مطلق ما يكتب فيه وقيل: هو الورق، وقيل: الورق المأخوذ من الجلد، والنشر هو البسط، والتفريق.

ب. والمراد بهذا الكتاب قيل: هو اللوح المحفوظ الذي كتب الله فيه ما كان وما يكون وما هو كائن تقرؤه ملائكة السماء، وقيل: المراد به صحائف الأعمال تقرؤه حفظة الأعمال من الملائكة، وقيل: هو القرآن كتبه الله في اللوح المحفوظ، وقيل: هو التوراة وكانت تكتب في الرق وتنشر للقراءة.

ج. والأنسب بالنظر إلى الآية السابقة هو القول الأخير.

٣. ﴿وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ﴾:

أ. قيل: المراد به الكعبة المشرفة فإنها أول بيت وضع للناس ولم يزل معمورا منذ وضع إلى يومنا هذا قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبارَكاً وَهُدىً لِلْعالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٦]

ب. وفي الروايات المأثورة أن البيت المعمور بيت في السماء بحذاء الكعبة تزوره الملائكة.

ج. وتنكير ﴿كِتابٍ﴾ للإيماء إلى استغنائه عن التعريف فهو تنكير يفيد التعريف ويستلزمه.

٤. ﴿وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ﴾ هو السماء.

٥. ﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾:

أ. قال الراغب: (السجر تهييج النار)، وفي المجمع: (المسجور المملوء يقال: سجرت التنور أي ملأتها نارا)

ب. وقد فسرت الآية بكل من المعنيين ويؤيد المعنى الأول قوله: ﴿وَإِذَا الْبِحارُ سُجِّرَتْ﴾ [التكوير: ٦]، أي سعرت وقد ورد في الحديث أن البحار تسعر نارا يوم القيامة، وقيل: المراد أنها تغيض مياهها بتسجير النار فيها.

٦. ﴿إِنَّ عَذابَ رَبِّكَ لَواقِعٌ ما لَهُ مِنْ دافِعٍ﴾:

أ. جواب القسم السابق والمراد بالعذاب المخبر بوقوعه عذاب يوم القيامة الذي أوعد الله به الكفار المكذبين كما تشير إليه الآية التالية، وفي قوله: ﴿ما لَهُ مِنْ دافِعٍ﴾ دلالة على أنه من القضاء المحتوم الذي لا محيص عن وقوعه قال تعالى: ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيها وَأَنَّ اللهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ [الحج: ٧]

ب. وفي قوله: ﴿عَذابَ رَبِّكَ﴾ بنسبة العذاب إلى الرب المضاف إلى ضمير الخطاب دون أن يقال: عذاب الله تأييد للنبي ﷺ على مكذبي دعوته وتطييب لنفسه أن ربه لا يخزيه يومئذ كما قال: ﴿يَوْمَ لا يُخْزِي اللهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ [التحريم: ٨]

٧. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي: في قوله تعالى: ﴿وَالطُّورِ وَكِتابٍ مَسْطُورٍ﴾ قال: الطور جبل بطور سيناء.

ب. وفي المجمع ﴿وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ﴾ وهو بيت في السماء الرابعة بحيال الكعبة، يعمره الملائكة بما يكون منها فيه من العبادة، عن ابن عباس ومجاهد، وروي أيضا عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: ويدخله كل يوم سبعون ألف ملك ثم لا يعودون إليه أبدا.

• أقول: كون البيت المعمور بيتا في السماء يطوف عليه الملائكة واقع في عدة أحاديث من طرق الفريقين غير أنها مختلفة في محله ففي أكثرها أنه في السماء الرابعة وفي بعضها أنه في السماء الأولى، وفي بعضها السابعة.

ج. وفيه: ﴿وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ﴾ وهو السماء عن علي عليه السلام.

د. وفي تفسير القمي: ﴿وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ﴾ قال: السماء، ﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾ قال: تسجر يوم القيامة.

هـ. وفي المجمع: ﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾ أي المملوء، عن قتادة، وقيل: هو الموقد المحمي بمنزلة التنور، عن مجاهد والضحاك والأخفش وابن زيد، ثم قيل: إنه تحمى البحار يوم القيامة فتجعل نيرانا، ثم تفجر بعضها في بعض ثم تفجر إلى النار، ورد به الحديث.

٢. أهوال يوم القيامة وعذاب المكذبين:

المقطع [٢] من سورة الطور، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: ٩-١٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ٧»:

١. ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّماءُ مَوْراً وَتَسِيرُ الْجِبالُ سَيْراً﴾:

أ. ظرف لقوله: ﴿إِنَّ عَذابَ رَبِّكَ لَواقِعٌ﴾

ب. والمور، على ما في المجمع: (تردد الشيء بالذهاب والمجيء كما يتردد الدخان ثم يضمحل، ويقرب منه قول الراغب: (إنه الجريان السريع.

ج. وعلى أي حال فيه إشارة إلى انطواء العالم السماوي كما يذكره تعالى في مواضع من كلامه كقوله: ﴿إِذَا السَّماءُ انْفَطَرَتْ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ﴾ [الانفطار: ١-٢] ٢]، وقوله: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّماءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]، وقوله: ﴿وَالسَّماواتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ [الزمر: ٦٧]

د. كما أن قوله: ﴿وَتَسِيرُ الْجِبالُ سَيْراً﴾ إشارة إلى زلزلة الساعة في الأرض التي يذكرها تعالى في مواضع من كلامه كقوله: ﴿إِذا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا وَبُسَّتِ الْجِبالُ بَسًّا فَكانَتْ هَباءً مُنْبَثًّا﴾ [الواقعة: ٦]، وقوله: ﴿وَسُيِّرَتِ الْجِبالُ فَكانَتْ سَراباً﴾ [النبأ: ٢٠]

٢. ﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾:

أ. تفريع على ما دلت عليه الآيات السابقة من تحقق وقوع العذاب يوم القيامة أي إذا كان الأمر كما ذكر ولم يكن محيص عن وقوع العذاب فويل لمن يقع عليه وهم المكذبون لا محالة فالجملة تدل على كون المعذبين هم المكذبين بالاستلزام وعلى تعلق الويل بهم بالمطابقة.

ب. أو التقدير إذا كان العذاب واقعا لا محالة ولا محالة لا يقع إلا على المكذبين لأنهم الكافرون بالله المكذبون ليوم القيامة فويل يومئذ لهم، فالدال على تعلق العذاب بالمكذبين هو قوله: ﴿عَذابَ رَبِّكَ﴾ لأن عذاب الله إنما يقع على من دعاه فلم يجبه وكذب دعوته.

٣. ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ﴾:

أ. الخوض هو الدخول في باطل القول قال الراغب: (الخوض هو الشروع في الماء والمرور فيه، ويستعار في الأمور وأكثر ما ورد في القرآن ورد فيما يذم الشروع فيه)، وتنوين التنكير في ﴿خَوْضٍ﴾ يدل على صفة محذوفة أي في خوض عجيب.

ب. ولما كان الاشتغال بباطل القول لا يفيد نتيجة حقة إلا نتيجة خيالية يزينها الوهم للخائض سماه لعبا، واللعب من الأفعال ما ليس له إلا الأثر الخيالي،

ج. والمعنى: الذين هم مستمرون في خوض عجيب يلعبون بالمجادلة في آيات الله وإنكارها

والاستهزاء بها.

٤. ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلى نارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ الدع هو الدفع الشديد، والظاهر أن ﴿يَوْمَ﴾ بيان لقوله: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾

٥. ﴿هذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِها تُكَذِّبُونَ﴾ أي يقال لهم: هذه النار التي كنتم بها تكذبون، والمراد بالتكذيب بالنار التكذيب بما أخبر به الأنبياء عليهمالسلام بوحي من الله من وجود هذه النار وأنه سيعذب بها المجرمون ومحصل المعنى هذه مصداق ما أخبر به الأنبياء فكذبتم به.

٦. ﴿أَفَسِحْرٌ هذا أَمْ أَنْتُمْ لا تُبْصِرُونَ﴾:

أ. تفريع على قوله: ﴿هذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِها تُكَذِّبُونَ﴾ والاستفهام للإنكار تفريعا لهم أي إذا كانت هذه هي تلك النار التي كنتم تكذبون بها فليس هذا سحرا كما كنتم ترمون إخبار الأنبياء بها أنه سحر وليس هذا أمرا موهوما خرافيا كما كنتم تتفوهون به بل أمر مبصر معاين لكم فالآية في معنى قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هذا بِالْحَقِّ﴾ [الأحقاف: ٣٤]

ب. وبما مر من المعنى يظهر أن ﴿أَمْ﴾ في قوله: ﴿أَمْ أَنْتُمْ لا تُبْصِرُونَ﴾ متصلة وقيل: منقطعة ولا يخلو من بعد.

٧. ﴿اصْلَوْها فَاصْبِرُوا أَوْ لا تَصْبِرُوا سَواءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّما تُجْزَوْنَ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾:

أ. الصلي بالفتح فالسكون مقاساة حرارة النار فمعنى اصلوها قاسوا حرارة نار جهنم.

ب. ﴿فَاصْبِرُوا أَوْ لا تَصْبِرُوا﴾ تفريع على الأمر بالمقاساة، والترديد بين الأمر والنهي كناية عن مساواة الفعل والترك، ولذا أتبعه بقوله: ﴿سَواءٌ عَلَيْكُمْ﴾ أي هذه المقاساة لازمة لكم لا تفارقكم سواء صبرتم أو لم تصبروا فلا الصبر يرفع عنكم العذاب أو يخففه ولا الجزع وترك الصبر ينفع لكم شيئا.

ج. ﴿سَواءٌ عَلَيْكُمْ﴾ خبر مبتدإ محذوف أي هما سواء وإفراد ﴿سَواءٌ﴾ لكونه مصدرا في الأصل.

د. ﴿إِنَّما تُجْزَوْنَ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في مقام التعليل لما ذكر من ملازمة العذاب ومساواة الصبر والجزع.

هـ. والمعنى: إنما يلازمكم هذا الجزاء السيئ ولا يفارقكم لأنكم تجزون بأعمالكم التي كنتم تعملونها ولا تسلب نسبة العمل عن عامله فالعذاب يلازمكم أو إنما تجزون بتبعات ما كنتم تعملون

وجزائه.

٣. نعيم المتقين ووقايتهم من الجحيم:

المقطع [٣] من سورة الطور، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ﴾ [الطور: ١٧-٢٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ١١»:

١. ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ﴾ الجنة البستان تجنيه الأشجار وتستره، والنعيم النعمة الكثيرة أي إن المتصفين بتقوى الله يومئذ في جنات يسكنون فيها ونعمة كثيرة تحيط بهم.

٢. ﴿فاكِهِينَ بِما آتاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقاهُمْ رَبُّهُمْ عَذابَ الْجَحِيمِ﴾:

أ. الفاكهة مطلق الثمرة، وقيل: هي الثمرة غير العنب والرمان، ويقال: تفكه وفكه إذا تعاطى الفكاهة، وتفكه وفكه إذا تناول الفاكهة، وقد فسرت الآية بكل من المعنيين فقيل: المعنى: يتحدثون بما آتاهم ربهم من النعيم، وقيل: المعنى: يتناولون الفواكه والثمار التي آتاهم ربهم، وقيل: المعنى: يتلذذون بإحسان ربهم ومرجعه إلى المعنى الأول، وقيل: معناه فاكهين معجبين بما آتاهم ربهم، ولعل مرجعه إلى المعنى الثاني.

ب. وتكرار ﴿رَبُّهُمْ﴾ في قوله: ﴿وَوَقاهُمْ رَبُّهُمْ عَذابَ الْجَحِيمِ﴾ لإفادة مزيد العناية بهم.

٣. ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾:

أ. أي يقال لهم: كلوا واشربوا أكلا وشربا هنيئا أو طعاما وشرابا هنيئا، فهنيئا وصف قائم مقام مفعول مطلق أو مفعول به.

ب. ﴿بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ متعلق بقوله: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ أو بقوله: ﴿هَنِيئاً﴾

٤. ﴿مُتَّكِئِينَ عَلى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ﴾ الاتكاء الاعتماد على الوسادة ونحوها، والسرر جمع سرير، ومصفوفة من الصف أي مصطفة موصولة بعضها ببعض، والمعنى: متكئين على الوسائد والنمارق قاعدين على سرر مصطفة.

٥. ﴿وَزَوَّجْناهُمْ بِحُورٍ عِينٍ﴾ المراد بالتزويج القرن أي قرناهم بهن دون النكاح بالعقد، والدليل عليه تعديه بالباء فإن التزويج بمعنى النكاح بالعقد متعد بنفسها، قال تعالى: ﴿زَوَّجْناكَها﴾ [الأحزاب:

٣٧] كذا قيل.

٤. لحاق الذرية بالمؤمنين في الجنة وارتهان كل امرئ بكسبه:

المقطع [٤] من سورة الطور، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور: ٢١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ١٢»:

١. ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمانٍ أَلْحَقْنا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَما أَلَتْناهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾:

أ. قيل: الفرق بين الاتباع واللحوق مع اعتبار التقدم والتأخر فيهما جميعا أنه يعتبر في الاتباع اشتراك بين التابع والمتبوع في مورد الاتباع بخلاف اللحوق فاللاحق لا يشارك الملحوق في ما لحق به فيه.

ب. ولات وألات بمعنى نقص فمعنى ما ألتناهم ما نقصناهم شيئا من عملهم بالإلحاق.

ج. وظاهر الآية أنها في مقام الامتنان فهو سبحانه يمتن على الذين آمنوا أنه سيلحق بهم ذريتهم الذين اتبعوهم بإيمان فتقر بذلك أعينهم، وهذا هو القرينة على أن التنوين في ﴿بِإِيمانٍ﴾ للتنكير دون التعظيم.

د. والمعنى: اتبعوهم بنوع من الإيمان وإن قصر عن درجة إيمان آبائهم إذ لا امتنان لو كان إيمانهم أكمل من إيمان آبائهم أو مساويا له.

هـ. وإطلاق الاتباع في الإيمان منصرف إلى اتباع من يصح منه في نفسه الإيمان ببلوغه حدا يكلف به فالمراد بالذرية الأولاد الكبار المكلفون بالإيمان فالآية لا تشمل الأولاد الصغار الذين ماتوا قبل البلوغ، ولا ينافي ذلك كون صغار أولاد المؤمنين محكومين بالإيمان شرعا.

و. اللهم إلا أن يستفاد العموم من تنكير الإيمان ويكون المعنى: واتبعتهم ذريتهم بإيمان ما سواء كان إيمانا في نفسه أو إيمانا بحسب حكم الشرع.

ز. وكذا الامتنان قرينة على أن الضمير في قوله: ﴿وَما أَلَتْناهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ للذين آمنوا كالضميرين في قوله: ﴿وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ﴾ إذ قوله: ﴿وَما أَلَتْناهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ مسوق حينئذ لدفع توهم ورود النقص في الثواب على تقرير الإلحاق وهو ينافي الامتنان ومن المعلوم أن الذي ينافي الامتنان هو النقص في ثواب الآباء الملحق بهم دون الذرية.

ح. فتحصل أن قوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾، استئناف يمتن تعالى فيه على الذين آمنوا بأنه سيلحق بهم أولادهم الذين اتبعوهم بنوع من الإيمان وإن كان قاصرا عن درجة إيمانهم لتقر به أعينهم، ولا ينقص مع ذلك من ثواب عمل الآباء بالإلحاق شيء بل يؤتيهم مثل ما آتاهم أو بنحو لا تزاحم فيه على ما هو أعلم به.

ط. وفي معنى الآية أقوال أخر لا تخلو من سخافة كقول بعضهم إن قوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ معطوف على ﴿بِحُورٍ عِينٍ﴾ والمعنى: وزوجناهم بحور عين وبالذين آمنوا يتمتعون من الحور العين بالنكاح وبالذين آمنوا بالرفاقة والصحبة، وقول بعضهم: إن المراد بالذرية صغار الأولاد فقط، وقول بعضهم: إن الضميرين في ﴿وَما أَلَتْناهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ للذرية والمعنى: وما نقصنا الذرية من عملهم شيئا بسبب إلحاقهم بآبائهم بل نوفيهم أعمالهم من خير أو شر ثم نلحقهم بآبائهم.

٢. ﴿كُلُّ امْرِئٍ بِما كَسَبَ رَهِينٌ﴾:

أ. تعليل لقوله: ﴿وَما أَلَتْناهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ على ما يفيده السياق، والرهن والرهين والمرهون ما يوضع وثيقة للدين على ما ذكره الراغب قال: (ولما كان الرهن يتصور منه حبسه أستعير ذلك لحبس أي شيء كان)

ب. ولعل هذا المعنى الاستعاري هو المراد في الآية والمرء رهن مقبوض ومحفوظ عند الله سبحانه بما كسبه من خير أو شر حتى يوفيه جزاء ما عمله من ثواب أو عقاب فلو نقص شيئا من عمله ولم يوفه ذلك لم يكن رهين ما كسب بل رهين بعض ما عمل وامتلك بعضه الآخر غيره كذريته الملحقين به.

ج. وأما قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ رَهِينَةٌ إِلَّا أَصْحابَ الْيَمِينِ﴾ [المدثر: ٣٩]، فالمراد كونها رهينة العذاب يوم القيامة كما يشهد به سياق ما بعده من قوله: ﴿فِي جَنَّاتٍ يَتَساءَلُونَ عَنِ الْمُجْرِمِينَ﴾ [المدثر: ٤١]

د. وقيل: المراد كون المرء رهين عمله السيئ كما تدل عليه آية سورة المدثر المذكورة آنفا بشهادة استثناء أصحاب اليمين، والآية أعني قوله: ﴿كُلُّ امْرِئٍ بِما كَسَبَ رَهِينٌ﴾ جملة معترضة من صفات أهل النار اعترضت في صفات أهل الجنة.

هـ. وحمل صاحب الكشاف الآية على نوع من الاستعارة فرفع به التنافي بين الآيتين قال: (كان

نفس العبد رهن عند الله بالعمل الصالح الذي هو مطالب به كما يرهن الرجل عبده بدين عليه فإن عمل صالحا فكها وخلصها وإلا أوبقها)

• وأنت خبير بأن مجرد ما ذكره لا يوجه اتصال الجملة أعني قوله: ﴿كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ بما قبلها.

٣. أحاديث وآثار:

أ. في الكافي، بإسناده عن أبي بكر عن أبي عبد الله عليه السلام: في قول الله عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ قال: فقال: قصرت الأبناء عن عمل الآباء، فألحقوا الأبناء بالآباء لتقر بذلك أعينهم.

• أقول: ورواه أيضا في التوحيد، بإسناده إلى أبي بكر الحضرمي عنه عليه السلام.

ب. وفي تفسير القمي، حدثني أبي عن سليمان الديلمي عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن أطفال شيعتنا من المؤمنين تربيهم فاطمة عليه السلام، وقوله: ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ قال: يهدون إلى آبائهم يوم القيامة.

• أقول: وروي في المجمع: (ذيل الحديث عنه عليه السلام مرسلا.

ج. وفي التوحيد، بإسناده عن أبي بصير قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: إذا مات الطفل من أطفال المؤمنين، نادى مناد في ملكوت السماوات والأرض، ألا إن فلان بن فلان قد مات، فإن كان قد مات والداه أو أحدهما، أو بعض أهل بيته من المؤمنين دفع إليه يغذوه، وإلا دفع إلى فاطمة تغذوه حتى يقدم أبواه أو أحدهما، أو بعض أهل بيته من المؤمنين فيدفعه إليه.

د. وفي الفقيه: وفي رواية الحسن بن محبوب عن علي عن الحلبي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن الله تبارك وتعالى كفل إبراهيم وسارة، أطفال المؤمنين يغذوانهم بشجرة في الجنة، لها أخلاف كأخلاف البقر في قصر من درة، فإذا كان يوم القيامة ألبسوا، وطيبوا وأهدوا إلى آبائهم، فهم ملوك في الجنة مع آبائهم، وهذا قول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾

هـ. وفي المجمع: روى زاذان عن علي عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ: إن المؤمنين وأولادهم في الجنة، ثم قرأ هذه الآية.

و. أخرج البزار وابن مردويه عن ابن عباس رفعه إلى النبي ﷺ قال: إن الله يرفع ذرية المؤمن إليه في درجته، وإن كانوا دونه في العمل، ثم قرأ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ، أَلْحَقْنا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَما أَلَتْناهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ قال: وما نقصنا الآباء بما أعطينا الأبناء.

ز. أخرج الطبراني وابن مردويه عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال: إذا دخل الرجل الجنة سأل عن أبويه وذريته وولده فيقال: إنهم لم يبلغوا درجتك وعملك فيقول: يا رب قد عملت لي ولهم فيؤمر بإلحاقهم به وقرأ ابن عباس: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمانٍ﴾ الآية.

• أقول: والآية لا تشمل الآباء المذكورين في الحديث، والأنسب للدلالة عليه ما ذكره تعالى في دعاء الملائكة ﴿رَبَّنا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبائِهِمْ وَأَزْواجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ [غافر: ٨]

٥. إمداد الجنة بأصناف النعيم:

المقطع [٥] من سورة الطور، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَأَمْدَدْناهُمْ بِفاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ﴾ [الطور: ٢٢-٢٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ١٤»:

١. ﴿وَأَمْدَدْناهُمْ بِفاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾:

أ. بيان لبعض تمامهم وتمتعاتهم في الجنة المذكورة إجمالا في قوله السابق: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً﴾

ب. والإمداد الإتيان بالشيء وقتا بعد وقت ويستعمل في الخير كما أن المد يستعمل في الشر قال تعالى: ﴿وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذابِ مَدًّا﴾ [مريم: ٧٩]

ج. والمعنى: أنا نرزقهم بالفاكهة وما يشتهونه من اللحم رزقا بعد رزق ووقتا بعد وقت من غير انقطاع.

٢. ﴿يَتَنازَعُونَ فِيها كَأْساً لا لَغْوٌ فِيها وَلا تَأْثِيمٌ﴾:

أ. التنازع في الكأس تعاطيها والاجتماع على تناولها، والكأس القدح ولا يطلق الكأس إلا فيما كان فيها الشراب.

ب. والمراد باللغو لغو القول الذي يصدر من شاربي الخمر في الدنيا، والتأثيم جعل الشخص ذا

إثم وهو أيضا من آثار الخمر في الدنيا، ونفي اللغو والتأثيم هو القرينة على أن المراد بالكأس التي يتنازعون فيها كأس الخمر.

٣. ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ﴾ المراد به طوافهم عليهم للخدمة قال بعضهم: قيل: ﴿غِلْمانٌ لَهُمْ﴾ بالتنكير ولم يقل: غلمانهم لئلا يتوهم أن المراد بهم غلمانهم الذين كانوا يخدمونهم في الدنيا فهم كالحور من مخلوقات الجنة كأنهم لؤلؤ مكنون مخزون في الحسن والصباحة والصفا.

٤. أحاديث وآثار: في تفسير القمي: قوله: ﴿لا لَغْوٌ فِيها وَلا تَأْثِيمٌ﴾ قال: ليس في الجنة غناء ولا فحش، ويشرب المؤمن ولا يأثم ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ يَتَساءَلُونَ﴾ قال: في الجنة.

٦. لقاءات أهل الجنة وذكر منن الله عليهم:

المقطع [٦] من سورة الطور، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ فَمَنَّ اللهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾ [الطور: ٢٥-٢٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ١٤»:

١. ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ يَتَساءَلُونَ﴾ أي يسأل كل منهم غيره عن حاله في الدنيا وما الذي ساقه إلى الجنة والنعيم؟

٢. ﴿قالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنا مُشْفِقِينَ﴾:

أ. قال الراغب: (والإشفاق عناية مختلطة بخوف لأن المشفق يحب المشفق عليه ويخاف ما يلحقه قال تعالى: ﴿وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ﴾ ﴿مُشْفِقُونَ﴾ فإذا عدي بمن فمعنى الخوف فيه أظهر، وإذا عدي بفي فمعنى العناية فيه أظهر قال تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنا مُشْفِقِينَ﴾)

ب. فالمعنى: أنا كنا في الدنيا ذوي إشفاق في أهلنا نعتني بسعادتهم ونجاتهم من مهلكة الضلال فنعاشرهم بجميل المعاشرة ونسير فيهم ببث النصيحة والدعوة إلى الحق.

٣. ﴿فَمَنَّ اللهُ عَلَيْنا وَوَقانا عَذابَ السَّمُومِ﴾:

أ. المن على ما ذكره الراغب الإنعام بالنعمة الثقيلة ويكون بالفعل وهو حسن، وبالقول وهو قبيح من غيره تعالى، قال تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ بَلِ اللهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَداكُمْ لِلْإِيمانِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ﴾ [الحجرات: ١٧]

ب. ومنه تعالى على أهل الجنة إسعاده إياهم لدخولها بالرحمة وتمامه بوقايتهم عذاب السموم.

ج. والسموم، على ما ذكره الطبرسي، الحر الذي يدخل في مسام البدن يتألم به ومنه ريح السموم.

٤. ﴿إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾ تعليل لقوله: ﴿فَمَنَّ اللهُ عَلَيْنا﴾، كما أن قوله: ﴿إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾ تعليل له.

٥. وتفيد هذه الآية مع الآيتين قبلها:

أ. أن هؤلاء كانوا في الدنيا يدعون الله بتوحيده للعبادة والتسليم لأمره وكانوا مشفقين في أهلهم يقربونهم من الحق ويجنبونهم الباطل فكان ذلك سببا لمن الله عليهم بالجنة ووقايتهم من عذاب السموم، وإنما كان ذلك سببا لذلك لأنه تعالى بر رحيم فيحسن لمن دعاه ويرحمه.

ب. فالآيات الثلاث في معنى قوله: ﴿إِنَّ الْإِنْسانَ لَفِي خُسْرٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَتَواصَوْا بِالْحَقِّ وَتَواصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ٣]

ج. والبر من أسماء الله تعالى الحسنى، وهو من البر بمعنى الإحسان، وفسره بعضهم باللطيف.

٧. رد افتراءات المشركين وتحديهم بالإتيان بمثل القرآن:

المقطع [٧] من سورة الطور، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُمْ بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ [الطور: ٢٩-٣٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ١٨»:

١. ﴿فَذَكِّرْ فَما أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكاهِنٍ وَلا مَجْنُونٍ﴾:

أ. تفريع على ما مر من الإخبار المؤكد بوقوع العذاب الإلهي يوم القيامة، وأنه سيغشى المكذبين والمتقون في وقاية منه متلذذون بنعيم الجنة.

ب. فالآية في معنى أن يقال: إذا كان هذا حقا فذكر فإنما تذكر وتنذر بالحق ولست كما يرمونك كاهنا أو مجنونا.

ج. وتقييد النفي بقوله: ﴿بِنِعْمَةِ رَبِّكَ﴾ يفيد معنى الامتنان على النبي ﷺ خاصة وليس هذا الامتنان الخاص من جهة مجرد انتفاء الكهانة والجنون فأكثر الناس على هذه الصفة بل من وجهه تلبسه ﷺ

بالنعمة الخاصة به المانع من عروض هذه الصفات عليه من كهانة أو جنون وغير ذلك.

٢. ﴿أَمْ يَقُولُونَ شاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ﴾:

أ. أم منقطعة، والتربص الانتظار، وفي مجمع البيان: (التربص الانتظار بالشيء من انقلاب حال له إلى خلافها والمنون المنية والموت، والريب القلق والاضطراب، فريب المنون قلق الموت.

ب. ومحصل المعنى: بل يقولون هو أي النبي ﷺ شاعر ننتظر به الموت حتى يموت ويخمد ذكره وينسى رسمه فنستريح منه.

٣. ﴿قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ﴾ أمر النبي ﷺ أن يأمرهم بالتربص كما رضوا لأنفسهم ذلك، وهو أمر تهديدي أي تربصوا كما ترون لأنفسكم ذلك فإن هناك أمر من حقه أن ينتظر وقوعه، وأنا أنتظره مثلكم لكنه عليكم لا لكم وهو هلاككم ووقوع العذاب عليكم.

٤. ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلامُهُمْ بِهذا﴾:

أ. الأحلام جمع حلم وهو العقل، وأم منقطعة والكلام بتقدير الاستفهام والإشارة بهذا إلى ما يقولونه للنبي ﷺ ويتربصون به.

ب. والمعنى: بل أتأمرهم عقولهم أن يقولوا هذا الذي يقولونه ويتربصوا به الموت؟ فأي عقل يدفع الحق بمثل هذه الأباطيل؟

٥. ﴿أَمْ هُمْ قَوْمٌ طاغُونَ﴾ أي إن عقولهم لم تأمرهم بهذا بل هم طاغون حملهم على هذا طغيانهم.

٦. ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لا يُؤْمِنُونَ﴾ قال في المجمع: (التقول تكلف القول ولا يقال ذلك إلا في الكذب، والمعنى بل يقولون: افتعل القرآن ونسبه إلى الله كذبا وافتراء، لا بل لا يؤمنون فيرمونه بهذه الفرية)

٧. ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كانُوا صادِقِينَ﴾:

أ. جواب عن قولهم: ﴿تَقَوَّلَهُ﴾ بأنه لو كان كلاما للنبي ﷺ كان كلاما بشريا مماثلا لسائر الكلام ويماثله سائر الكلام فكان يمكنهم أن يأتوا بحديث مثله فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين في دعواهم التقول بل هو كلام إلهي لائحة عليه دلائل الإعجاز يعجز البشر عن إتيان مثله، وقد تقدم الكلام في وجوه إعجاز القرآن في تفسير سورة البقرة [الآية: ٢٣] تفصيلا.

ب. ويمكن أن تؤخذ الآية ردا لجميع ما تقدم من قولهم المحكي إنه كاهن أو مجنون أو شاعر أو

متقول لأن عجز البشر عن الإتيان بمثله يأبى إلا أن يكون كلام الله سبحانه لكن الأظهر ما تقدم.

٨. دحض شبهة الخلق من عدم:

المقطع [٨] من سورة الطور، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ﴾ [الطور: ٣٥-٣٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ٢٠»:

١. ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾:

أ. إتيان ﴿شَيْءٍ﴾ منكرا بتقدير صفة تناسب المقام والتقدير من غير شيء خلق منه غيرهم من البشر.

ب. والمعنى: بل أخلق هؤلاء المكذبون من غير شيء خلق منه غيرهم من البشر فصلح لإرسال الرسول والدعوة إلى الحق والتلبس بعبوديته تعالى فهؤلاء لا يتعلق بهم تكليف ولا يتوجه إليهم أمر ولا نهي ولا تستتبع أعمالهم ثوابا ولا عقابا لكونهم مخلوقين من غير ما خلق منه غيرهم.

ج. وفي معنى الجملة أقوال أخر:

- فقيل: المراد أم أحدثوا وقدروا هذا التقدير البديع من غير مقدر وخالق فلا حاجة لهم إلى خالق يدبر أمرهم.
- وقيل: المراد أم خلقوا من غير شيء حي فهم لا يؤمرون ولا ينهون كالجمادات.
- وقيل: المعنى أم خلقوا من غير علة ولا لغاية ثواب وعقاب فهم لذلك لا يسمعون.
- وقيل: المعنى أم خلقوا باطلا لا يحاسبون ولا يؤمرون ولا ينهون.

د. وما قدمناه من المعنى أقرب إلى لفظ الآية وأشمل.

٢. ﴿أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ أي لأنفسهم فليسوا مخلوقين لله سبحانه حتى يربهم ويدبر أمرهم بالأمر والنهي.

٣. ﴿أَمْ خَلَقُوا السَّماوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لا يُوقِنُونَ﴾ أي أم أخلقوا العالم حتى يكونوا أربابا آلهة ويجلوا من أن يستعبدوا ويكلفوا بتكليف العبودية بل هم قوم لا يوقنون.

٩. استنكار ادعاء علم الغيب أو التحكم في الملكوت:

المقطع [٩] من سورة الطور، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ [الطور: ٣٧-٣٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ٢٠»:

١. ﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ﴾ أي بل أعندهم خزائن ربك حتى يرزقوا النبوة من شاءوا ويمسكوها عمن شاءوا فيمنعوك النبوة والرسالة.

٢. ﴿أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ﴾ السيطرة، وربما يقلب سينها صادا، الغلبة والقهر والمعنى: بل أهم الغالبون القاهرون على الله سبحانه حتى يسلبوا عنك ما رزقك الله من النبوة والرسالة.

٣. ﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾:

أ. السلم المرقاة ذات الدرج التي يتوسل بالصعود فيه إلى الأمكنة العالية، والاستماع مضمن معنى الصعود، والسلطان الحجة والبرهان.

ب. والمعنى: بل أعندهم سلم يصعدون فيه إلى السماء فيستمعون بالصعود فيه الوحي فيأخذون ما يوحى إليهم ويردون غيره؟ فليأت مستمعهم أي المدعي للاستماع منهم بحجة ظاهرة.

١٠. استهجان نسبة البنات لله والبنين لأنفسهم:

المقطع [١٠] من سورة الطور، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ﴾ [الطور: ٣٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ٢١»:

١. قيل: فيه تسفيه لعقولهم حيث نسبوا إليه تعالى ما أنفوا منه.

١١. نفي طلب أجر أو مغرم يثقل كاهل النبي:

المقطع [١١] من سورة الطور، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ﴾ [الطور: ٤٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ٢١»:

١. ﴿أَمْ تَسْئَلُهُمْ أَجْراً فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ﴾:

أ. قال الراغب: (الغرم، بالضم فالسكون، ما ينوب الإنسان في ماله من ضرر لغير جناية منه أو خيانة) والإثقال تحميل الثقل وهو كناية عن المشقة.

ب. والمعنى: بل أتسألهم أجرا على تبليغ رسالتك فهم يتحرجون عن تحمل الغرم الذي ينوبهم

بتأدية الأجر؟

١٢. نفي علم الغيب عنهم وإبطال زعمهم:

المقطع [١٢] من سورة الطور، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الطور: ٤١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ٢١»:

١. ﴿أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾:

أ. ذكر بعضهم أن المراد بالغيب اللوح المحفوظ المكتوب فيه الغيوب والمعنى: بل أعندهم اللوح المحفوظ يكتبون منه ويخبرون به الناس فما أخبروا به عنك من الغيب الذي لا ريب فيه.

ب. وقيل: المراد بالغيب علم الغيب، وبالكتابة الإثبات والمعنى: بل أعندهم علم الغيب فهم يثبتون ما علموه شرعا للناس عليهم أن يطيعوهم فيما أثبتوا، وقيل: يكتبون بمعنى يحكمون.

١٣. كيدهم مردود عليهم وتنزيه الله عن الشرك:

المقطع [١٣] من سورة الطور، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الطور: ٤٢-٤٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ٢١»:

١. ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْداً فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾:

أ. الكيد ضرب من الاحتيال على ما ذكره الراغب، وفي المجمع: (الكيد هو المكر، وقيل: هو فعل ما يوجب الغيظ في خفية)

ب. ظاهر السياق أن المراد بكيدهم هو مكرهم بالنبي ﷺ بما رموه به من الكهانة والجنون والشعر والتقول ليعرض عنه الناس ويبتعدوا عنه فتبطل بذلك دعوته وينطفئ نوره، وهذا كيد منهم ومكر بأنفسهم حيث يحرمون لها السعادة الخالدة والركوب على صراط الحق بذلك بل كيد من الله بقطع التوفيق عنهم والطبع على قلوبهم.

ج. وقيل: المراد بالكيد الذي يريدونه هو ما كان منهم في حقه ﷺ في دار الندوة والمراد بالذين كفروا المذكورون من المكذبين وهم أصحاب دار الندوة، وقد قلب الله كيدهم إلى أنفسهم فقتلهم يوم بدر، والكلام على هذا من الإخبار بالغيب لنزول السورة قبل ذلك بكثير، وهو بعيد من السياق.

٢. ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ سُبْحانَ اللهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ فإنهم إذا كان لهم إله غير الله كان هو الخالق لهم والمدبر لأمرهم فاستغنوا بذلك عن الله سبحانه واستجابة دعوة رسوله ونصرهم إلههم ودفع عنهم عذاب الله الذي أوعد به المكذبين وأنذرهم به رسوله.

٣. ﴿سُبْحانَ اللهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ تنزيه له تعالى أن يكون له شريك كما يدعون، وما في قوله: ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ مصدرية أي سبحانه عن شركهم.

١٤. إنكارهم للآيات الباهرة ووصفها بالسحر:

المقطع [١٤] من سورة الطور، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ﴾ [الطور: ٤٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ٢٢»:

١. ﴿وَإِنْ يَرَوْا كِسْفاً مِنَ السَّماءِ ساقِطاً يَقُولُوا سَحابٌ مَرْكُومٌ﴾ الكسف بالكسر فالسكون القطعة، والمركوم المتراكم الواقع بعضه على بعض.

٢. والمعنى: أن كفرهم وإصرارهم على تكذيب الدعوة الحقة بلغ إلى حيث لو رأوا قطعة من السماء ساقطا عليهم لقالوا سحاب متراكم ليست من آية العذاب في شيء فهو كقوله: ﴿وَلَوْ فَتَحْنا عَلَيْهِمْ باباً مِنَ السَّماءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ لَقالُوا إِنَّما سُكِّرَتْ أَبْصارُنا﴾ [الحجر: ١٥]

١٥. الأمر بتركهم حتى يلاقوا عذابهم ولا ينفعهم كيد:

المقطع [١٥] من سورة الطور، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ [الطور: ٤٥-٤٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ٢٣»:

١. ﴿فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾:

أ. ذرهم أمر بمعنى اتركهم وهو فعل لم يستعمل من تصريفاته إلا المستقبل والأمر، و(يصعقون) من الإصعاق بمعنى الإماتة وقيل: من الصعق بمعنى الإماتة.

ب. لما أنذر سبحانه المكذبين لدعوته بعذاب واقع لا ريب فيه ثم رد جميع ما تعلل به أو يفرض أن يتعلل به أولئك المكذبون، وذكر أنهم في الإصرار على الباطل بحيث لو عاينوا أوضح آية للحق أولوه وردوه، أمر نبيه ﷺ أن يتركهم وشأنهم، وهو تهديد كنائي بشمول العذاب لهم وحالهم هذه الحال.

ج. والمراد باليوم الذي فيه يصعقون يوم نفخ الصور الذي يصعق فيه من في السماوات والأرض وهو من أشراط الساعة قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ [الزمر: ٦٨]

د. ويؤيد هذا المعنى قوله في الآية التالية: ﴿يَوْمَ لا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ فإن انتفاء إغناء الكيد والنصر من خواص يوم القيامة الذي يسقط فيه عامة الأسباب والأمر يومئذ لله.

هـ. واستشكل بأنه لا يصعق يوم النفخ إلا من كان حيا وهؤلاء ليسوا بأحياء يومئذ والجواب أنه يصعق فيه جميع من في الدنيا من الأحياء ومن في البرزخ من الأموات وهؤلاء إن لم يكونوا في الدنيا ففي البرزخ.

و. على أنه يمكن أن يكون ضمير ﴿يُصْعَقُونَ﴾ راجعا إلى الأحياء يومئذ، والتهديد إنما هو بالعذاب الواقع في هذا اليوم لا بالصعقة التي فيه.

ز. وقيل: المراد به يوم بدر وهو بعيد، وقيل: المراد به يوم الموت، وفيه أنه لا يلائم السياق الظاهر في التهديد بما وقع في أول السورة وهو عذاب يوم القيامة لا عذاب يوم الموت.

١٦. عذاب الظالمين في الدنيا قبل الآخرة وجهلهم:

المقطع [١٦] من سورة الطور، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الطور: ٤٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ٢٤»:

١. ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذاباً دُونَ ذلِكَ وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ لا يبعد أن يكون المراد به عذاب القبر، وقوله: ﴿وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ مشعر بأن فيهم من يعلم ذلك لكنه يصر على كفره وتكذيبه عنادا وقيل: المراد به يوم بدر لكن ذيل الآية لا يلائمه تلك الملاءمة.

١٧. أمر النبي بالصبر والتسبيح في كل الأوقات:

المقطع [١٧] من سورة الطور، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ﴾ [الطور: ٤٨-٤٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ٢٤»:

١. ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنا﴾:

أ. عطف على قوله: ﴿فَذَرْهُمْ﴾ وظاهر السياق أن المراد بالحكم حكمه تعالى في المكذبين بالإمهال والإملاء والطبع على قلوبهم، وفي النبي ﷺ أن يدعو إلى الحق بما فيه من الأذى في جنب الله فالمراد بقوله: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنا﴾ إنك بمرأى منا نراك بحيث لا يخفى علينا شيء من حالك ولا نغفل عنك ففي تعليل الصبر بهذه الجملة تأكيد للأمر بالصبر وتشديد للخطاب.

ب. وقيل: المراد بقوله: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنا﴾ إنك في حفظنا وحراستنا فالعين مجاز عن الحفظ، ولعل المعنى المتقدم أنسب للسياق.

٢. ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾:

أ. الباء في ﴿بِحَمْدِ﴾ للمصاحبة أي سبح ربك ونزهه حال كونه مقارنا لحمده.

ب. والمراد بقوله: ﴿حِينَ تَقُومُ﴾ قيل هو القيام من النوم، وقيل: هو القيام من القائلة، فهو صلاة الظهر، وقيل: هو القيام من المجلس، وقيل: هو كل قيام، وقيل: هو القيام إلى الفريضة وقيل: هو القيام إلى كل صلاة، وقيل: هو الركعتان قبل فريضة الصبح سبعة أقوال كما ذكره الطبرسي.

٣. ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾ أي من الليل فسبح ربك فيه، والمراد به صلاة الليل، وقيل: المراد صلاتا المغرب والعشاء الآخرة.

٤. ﴿وَإِدْبارَ النُّجُومِ﴾ قيل: المراد به وقت إدبار النجوم وهو اختفاؤها بضوء الصبح، وهو الركعتان قبل فريضة الصبح، وقيل: المراد فريضة الصبح، وقيل: المراد تسبيحه تعالى صباحا ومساء من غير غفلة عن ذكره.

٥. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي: في قوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ قال: لصلاة الليل ﴿فَسَبِّحْهُ﴾ قال: صلاة الليل.

• أقول: وروي هذا المعنى في مجمع البيان، عن زرارة وحمران ومحمد بن مسلم عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليه السلام.

ب. وفيه، بإسناده عن الرضا عليه السلام قال: أدبار السجود أربع ركعات بعد المغرب، وإدبار النجوم ركعتان قبل صلاة الصبح.

• أقول: وروي ذيله في المجمع: (عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليه السلام، والقمي، بإسناده عن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام.

ج. وقد ورد من طرق أهل السنة في عدة من الروايات: أن النبي ﷺ كان إذا قام من مجلسه، سبح الله وحمده، ويقول: إنه كفارة المجلس لكنها غير ظاهرة في كونها تفسيرا للآية.

سورة النجم

هذه السورة الكريمة تحتوي على [٢٤] مقطعاً، وهذا تعريف بمقاصدها، ومحتويات مقاطعها:

مقاصد السورة ومحتوياتها:

أ. غرض السورة تذكير الأصول الثلاثة: وحدانيته تعالى في ربوبيته، والمعاد، والنبوة.

ب. فتبدأ بالنبوة، فتصدق الوحي إلى النبي ﷺ وتصفه، ثم تتعرض للوحدانية فتنفي الأوثان والشركاء أبلغ النفي، ثم تصف انتهاء الخلق والتدبير إليه تعالى من إحياء وإماتة وإضحاك وإبكاء وإغناء وإقناء وإهلاك وتعذيب ودعوة وإنذار.

ج. وتختم الكلام بالإشارة إلى المعاد والأمر بالسجدة والعبادة.

د. والسورة مكية بشهادة سياق آياتها، ولا يصغي إلى قول بعضهم بكون بعض آياتها أو كلها مدنية، وقد قيل: إنها أول سورة أعلن النبي ﷺ بقراءتها، فقرأها على المؤمنين والمشركين جميعاً.

هـ. ومن غرر الآيات فيها قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى﴾، وقوله: ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى﴾

مقاطع السورة ونظمها:

١. الآيات [١ ـ ١٨]:

أ. هي الفصل الأول من فصول السورة الثلاثة، وهي الآيات التي تصدق الوحي إلى النبي ﷺ وتصفه.

ب. لكن هناك روايات مستفيضة عن أئمة أهل البيت عليه السلام ناصة على أن المراد بالآيات ليس بيان صفة كل وحي، بل بيان وحي المشافهة الذي أوحاه الله سبحانه إلى نبيه ﷺ ليلة المعراج، فالآيات متضمنة لقصة المعراج.

ج. وظاهر الآيات لا يخلو من تأييد لهذه الروايات، وهو المستفاد أيضاً من أقوال بعض الصحابة كابن عباس وأنس وأبي سعيد الخدري وغيرهم على ما روي عنهم، وعلى ذلك جرى كلام المفسرين وإن اشتد الخلاف بينهم في تفسير مفرداتها وجملها.

٢. الآيات [١٩ ـ ٣٢] شطر من آيات الفصل الثاني من الفصول الثلاثة في السورة، تتعرض لأمر الأوثان وعبادتها بدعوى أنها ستشفع لهم، والرد عليهم أبلغ الرد، وفيها إشارة إلى أمر المعاد وهو مقصد الفصل الثالث.

٣. الآيات [٣٣ ـ ٦٢]:

أ. سياق التسع الآيات الواقعة في صدر هذا الفصل يصدق ما ورد في أسباب النزول، أن رجلاً من المسلمين كان ينفق من ماله في سبيل الله، فلامه بعض الناس على كثرة الإنفاق وحذره وخوفه بنفاد المال والفقر، وضمن حمل خطاياه وذنوبه، فأمسك عن الإنفاق، فنزلت الآيات.

ب. أشار سبحانه بالتعرض لهذه القصة، ونقل ما نقل من صحف إبراهيم وموسى عليه السلام، إلى بيان وجه الحق فيها، وإلى ما هو الحق الصريح فيما تعرض له الفصل السابق من أباطيل المشركين، من أنهم إنما يعبدون الأصنام لأنها تماثيل الملائكة الذين هم بنات الله، يعبدونهم ليشفعوا لهم عند الله سبحانه، وقد أبطلتها الآيات السابقة أوضح الإبطال.

ج. وقد أوضحت هذه الآيات ما هو وجه الحق في الربوبية والألوهية، وهو أن الخلق والتدبير لله سبحانه، إليه ينتهي كل ذلك، وأنه خلق ما خلق ودبر ما دبر خلقاً وتدبيراً يستعقب نشأة أخرى فيها جزاء الكافر والمؤمن والمجرم والمتقي، ومن لوازمه تشريع الدين وتوجيه التكاليف، وقد فعل، ومن شواهده إهلاك من أهلك من الأمم الدارجة الطاغية كقوم نوح وعاد وثمود والمؤتفكة.

د. ثم عقب سبحانه هذا الذي نقله عن صحف النبيين الكريمين بالتنبيه على أن هذا النذير من النذر الأولى الخالية، وأن الساعة قريبة، وخاطبهم بالأمر بالسجود لله والعبادة، وبذلك تختتم السورة.

١. القسم بالنجم على عدم ضلالة النبي:

المقطع [١] من سورة النجم، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى﴾ [النجم: ١ـ٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ٢٦»:

١. ﴿وَالنَّجْمِ إِذا هَوى﴾:

أ. ظاهر الآية أن المراد بالنجم هو مطلق الجرم السماوي المضيء وقد أقسم الله في كتابه بكثير من خلقه ومنها عدة من الأجرام السماوية كالشمس والقمر وسائر السيارات، وعلى هذا فالمراد بهوى النجم

سقوطه للغروب.

ب. وقيل: المراد بالنجم القرآن لنزوله نجوما، وقيل: الثريا، وقيل: الشعري، وقيل: الشهاب الذي يرمى به شياطين الجن لأن العرب تسميه نجما، وللهوى ما يناسب لكل من هذه الأقوال من المعنى، لكن لفظ الآية لا يساعد على شيء من هذه المعاني.

٢. ﴿ما ضَلَّ صاحِبُكُمْ وَما غَوى﴾:

أ. الضلال الخروج والانحراف عن الصراط المستقيم، والغي خلاف الرشد الذي هو إصابة الواقع، قال الراغب: (الغي جهل من اعتقاد فاسد، وذلك أن الجهل قد يكون من كون الإنسان غير معتقد اعتقادا لا صالحا ولا فاسدا وقد يكون من اعتقاد شيء فاسد، وهذا النحو الثاني يقال له غي، قال تعالى: ﴿ما ضَلَّ صاحِبُكُمْ وَما غَوى﴾)، والمراد بالصاحب هو النبي ﷺ.

ب. والمعنى: ما خرج صاحبكم عن الطريق الموصل إلى الغاية المطلوبة ولا أخطأ في اعتقاده ورأيه فيها، ويرجع المعنى إلى أنه لم يخطئ لا في الغاية المطلوبة التي هي السعادة الإنسانية وهو عبوديته تعالى، ولا في طريقها التي تنتهي إليها.

٣. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي في قوله تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذا هَوى﴾ قال: النجم رسول الله ﷺ ﴿إِذا هَوى﴾ لما أسري به إلى السماء وهو في الهوي.

• أقول: وروي تسميته ﷺ بالنجم بإسناده عن أبيه عن الحسين بن خالد عن الرضا عليه السلام، وهو من البطن.

ب. وفي الكافي، عن القمي عن أبيه عن ابن أبي عمير عن محمد بن مسلم قال: قلت لأبي جعفر عليه السلام: قول الله عز وجل: ﴿وَاللَّيْلِ إِذا يَغْشى﴾ ﴿وَالنَّجْمِ إِذا هَوى﴾ وما أشبه ذلك؟ قال: إن لله عز وجل أن يقسم من خلقه بما شاء، وليس لخلقه أن يقسموا إلا به.

• أقول: وفي الفقيه، عن علي بن مهزيار عن أبي جعفر الثاني: مثله.

ج. في المجمع: (وروت العامة عن جعفر الصادق أنه قال: إن محمدا ﷺ نزل من السماء السابعة ليلة المعراج ولما نزلت السورة أخبر بذلك عتبة بن أبي لهب فجاء إلى النبي ﷺ وطلق ابنته وتفل في وجهه

وقال: كفرت بالنجم ورب النجم، فدعا ﷺ عليه وقال: اللهم سلط عليه كلبا من كلابك، فخرج عتبة إلى الشام فنزل في بعض الطريق، وألقى الله عليه الرعب فقال لأصحابه أنيموني بينكم ليلا ففعلوا فجاء أسد فافترسه من بين الناس.

• أقول: ثم أورد الطبرسي شعر حسان في ذلك، وروي في الدر المنثور، القصة بطرق مختلفة.

٢. نفي نطق النبي عن الهوى:

المقطع [٢] من سورة النجم، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ [النجم: ٣-٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ٢٧»:

١. ﴿وَما يَنْطِقُ عَنِ الْهَوى إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحى﴾ المراد بالهوى هوى النفس ورأيها، والنطق وإن كان مطلقا ورد عليه النفي وكان مقتضاه نفي الهوى عن مطلق نطقه ﷺ لكنه لما كان خطابا للمشركين وهم يرمونه في دعوته وما يتلو عليهم من القرآن بأنه كاذب متقول مفتر على الله سبحانه كان المراد بقرينة المقام أنه ﷺ ما ينطق فيما يدعوكم إلى الله أو فيما يتلوه عليكم من القرآن عن هوى نفسه ورأيه بل ليس ذلك إلا وحيا يوحى إليه من الله سبحانه.

٢. أحاديث وآثار: في الكافي، بإسناده إلى هشام وحماد وغيره قالوا: سمعنا أبا عبد الله عليه السلام يقول: حديثي حديث أبي وحديث أبي حديث جدي وحديث جدي حديث الحسين وحديث الحسين حديث الحسن وحديث الحسن حديث أمير المؤمنين وحديث أمير المؤمنين حديث رسول الله ﷺ وحديث رسول الله ﷺ قول الله عزوجل.

٣. من صفات جبريل معلم النبي:

المقطع [٣] من سورة النجم، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى﴾ [النجم: ٥-٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ٢٨»:

١. ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوى﴾:

أ. ضمير ﴿عَلَّمَهُ﴾ للنبي ﷺ أو للقرآن بما هو وحي أو لمطلق الوحي والمفعول الآخر لعلمه محذوف على أي حال والتقدير علم النبي الوحي أو علم القرآن أو الوحي إياه.

ب. والمراد بشديد القوى، على ما قالوا، جبريل وقد وصفه الله بالقوة في قوله: ﴿ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي

الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ [التكوير: ٢٠]، وقيل: المراد به هو الله سبحانه.

٢. ﴿ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى﴾:

أ. المرة بكسر الميم الشدة، وحصافة العقل والرأي وبناء نوع عن المرور وقد فسرت المرة في الآية بكل من المعاني الثلاثة مع القول بأن المراد بذي مرة جبريل، والمعنى: هو أي جبريل ذو شدة في جنب الله أو هو ذو حصافة في عقله ورأيه، أو هو ذو نوع من المرور بالنبي ﷺ وهو في الهواء.

ب. وقيل: المراد بذو مرة النبي ﷺ فهو ذو شدة في جنب الله أو ذو حصافة في عقله ورأيه أو ذو نوع من المرور عرج فيه إلى السماوات.

٣. ﴿فَاسْتَوَى﴾:

أ. بمعنى استقام أو استولى وضمير الفاعل راجع إلى جبريل والمعنى: فاستقام جبريل على صورته الأصلية التي خلق عليها على ما روي أن جبريل كان ينزل على النبي ﷺ في صور مختلفة، وإنما ظهر له في صورته الأصلية مرتين أو المعنى: فاستولى جبريل بقوته على ما جعل له من الأمر.

ب. وإن كان الضمير للنبي ﷺ فالمعنى فاستقام واستقر.

٤. ﴿وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى﴾:

أ. الأفق الناحية قيل: المراد بالأفق الأعلى ناحية الشرق من السماء لأن أفق المشرق فوق المغرب في صعيد الأرض لا في الهواء وهو كما ترى والظاهر أن المراد به أفق أعلى من السماء من غير اعتبار كونه أفقا شرقيا.

ب. وضمير هو في الآية راجع إلى جبريل أو إلى النبي ﷺ، والجملة حال من ضمير ﴿فَاسْتَوَى﴾

٤. دنو الملك وتدليه:

المقطع [٤] من سورة النجم، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾ [النجم: ٨ـ١٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ٢٨»:

١. ﴿ثُمَّ دَنا فَتَدَلَّى﴾:

أ. الدنو القرب، والتدلي التعلق بالشيء ويكنى به عن شدة القرب، وقيل: الامتداد إلى جهة السفل مأخوذ من الدلو.

ب. والمعنى: على تقدير رجوع الضميرين لجبريل: ثم قرب جبريل فتعلق بالنبي ﷺ ليعرج به إلى السماوات، وقيل: ثم تدلى جبريل من الأفق الأعلى فدنا من النبي ﷺ ليعرج به.

ج. والمعنى: على تقدير رجوع الضميرين إلى النبي ﷺ: ثم قرب النبي من الله سبحانه وزاد في القرب.

٢. ﴿فَكانَ قابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنى﴾:

أ. قال في المجمع: (القاب والقيب والقاد والقيد عبارة عن مقدار الشيء)، والقوس معروفة وهي آلة الرمي، ويقال قوس على الذراع في لغة أهل الحجاز على ما قيل.

ب. والمعنى: فكان البعد قدر قوسين أو قدر ذراعين أو أقرب من ذلك.

ج. وقيل: القاب ما بين مقبض القوس وسيتها ففي الكلام قلب والمعنى: فكان قابي قوس، واعترض عليه بأن قابي قوس وقاب قوسين واحد فلا موجب للقلب.

٣. ﴿فَأَوْحى إِلى عَبْدِهِ ما أَوْحى﴾:

أ. ضمير أوحى في الموضعين لجبريل على تقدير رجوع الضمائر السابقة إلى جبريل، والمعنى: فأوحى جبريل إلى عبد الله وهو النبي ﷺ ما أوحى، قيل: ولا ضير في رجوع الضمير إليه تعالى من عدم سبق الذكر لكونه في غاية الوضوح، أو الضمائر الثلاث لله والمعنى: فأوحى الله بتوسط جبريل إلى عبده ما أوحى أو الضمير الأول لجبريل والثاني والثالث لله والمعنى فأوحى جبريل ما أوحى الله إليه إلى عبد الله.

ب. والضمائر الثلاث كلها لله على تقدير رجوع الضمائر السابقة إلى النبي ﷺ والمعنى: فأوحى الله إلى عبده ما أوحى، وهذا المعنى أقرب إلى الذهن من المعنى السابق الذي لا يرتضيه الذوق السليم وإن كان صحيحا.

٤. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي، بإسناده إلى ابن سنان في حديث: قال أبو عبد الله عليه السلام: وذلك أنه يعني النبي ﷺ أقرب الخلق إلى الله تعالى وكان بالمكان الذي قال له جبرئيل لما أسري به إلى السماء: تقدم يا محمد فقد وطأت موطئا لم يطأه ملك مقرب ولا نبي مرسل، ولو لا أن روحه ونفسه كان من ذلك المكان لما قدر أن يبلغه، وكان من الله عز وجل كما قال الله عز وجل: ﴿قابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنى﴾ أي بل أدنى.

ب. أخرج ابن المنذر وابن مردويه عن أبي سعيد الخدري قال: لما أسري بالنبي ﷺ اقترب من ربه، فكان قاب قوسين أو أدنى، قال: ألم تر إلى القوس ما أقربها من الوتر؟

ج. أخرج ابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه عن ابن عباس: في قوله: ﴿ثُمَّ دَنا فَتَدَلَّى﴾ قال: هو محمد ﷺ دنا فتدلى إلى ربه عز وجل.

د. وفي المجمع: (وروي مرفوعا عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: في قوله: ﴿فَكانَ قابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنى﴾ قال: قدر ذراعين أو أدنى من ذراعين.

هـ. وفي تفسير القمي: في قوله تعالى: ﴿فَأَوْحى إِلى عَبْدِهِ ما أَوْحى﴾ قال: وحي مشافهة.

و. أخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن محمد بن كعب القرظي عن بعض أصحاب النبي ﷺ قال: قالوا: يا رسول الله هل رأيت ربك؟ قال: لم أره بعيني ورأيته بفؤادي مرتين ثم تلا ﴿ثُمَّ دَنا فَتَدَلَّى﴾

• أقول: وروى هذا المعنى النسائي عن أبي ذر على ما في الدر المنثور، ولفظه: رأى رسول الله ﷺ ربه بقلبه ولم يره ببصره.

٥. صدق رؤية الفؤاد وعدم الجدال فيها:

المقطع [٥] من سورة النجم، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى﴾ [النجم: ١١-١٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ٢٩»:

١. ﴿ما كَذَبَ الْفُؤادُ ما رَأى﴾:

أ. الكذب خلاف الصدق يقال: كذب فلان في حديثه، ويقال: كذبه الحديث بالتعدي إلى مفعولين أي حدثه كذبا، والكذب كما يطلق على القول والحديث الذي يلفظه اللسان كذلك يطلق على خطاء القوة المدركة يقال: كذبته عينه أي أخطأت في رؤيتها.

ب. ونفي الكذب عن الفؤاد إنما هو بهذا المعنى سواء أخذ الكذب لازما والتقدير ما كذب الفؤاد فيما رأى أو متعديا إلى مفعولين، والتقدير ما كذب الفؤاد، فؤاد النبي، النبي ما رآه أي إن رؤية فؤاده فيما رآه رؤية صادقة، وعلى هذا فالمراد بالفؤاد فؤاد النبي ﷺ، وضمير الفاعل في ﴿ما رَأى﴾ راجع إلى الفؤاد والرؤية رؤيته.

ج. ولا بدع في نسبة الرؤية وهي مشاهدة العيان إلى الفؤاد فإن للإنسان نوعا من الإدراك الشهودي وراء الإدراك بإحدى الحواس الظاهرة والتخيل والتفكر بالقوى الباطنة كما إننا نشاهد من أنفسنا أننا نرى وليست هذه المشاهدة العيانية إبصارا بالبصر ولا معلوما بفكر، وكذا نرى من أنفسنا أننا نسمع ونشم ونذوق ونلمس ونشاهد أننا نتخيل ونتفكر وليست هذه الرؤية ببصر أو بشيء من الحواس الظاهرة أو الباطنة فإنا كما نشاهد مدركات كل واحدة من هذه القوى بنفس تلك القوة كذلك نشاهد إدراك كل منا لمدركها وليس هذه المشاهدة بنفس تلك القوة بل بأنفسنا المعبر عنها بالفؤاد.

د. وليس في الآية ما يدل على أن متعلق الرؤية هو الله سبحانه وأنه لمرئي له ﷺ بل المرئي هو الأفق الأعلى والدنو والتدلي وأنه أوحى إليه فهذه هي المذكورة في الآيات السابقة وهي آيات له تعالى، ويؤيد ذلك ما ذكره تعالى في النزلة الأخرى من قوله: ﴿ما زاغَ الْبَصَرُ وَما طَغى لَقَدْ رَأى مِنْ آياتِ رَبِّهِ الْكُبْرى﴾

هـ. على أنها لو دلت على تعلق الرؤية به تعالى لم يكن به بأس فإنها رؤية القلب ورؤية القلب غير رؤية البصر الحسية التي تتعلق بالأجسام ويستحيل تعلقها به تعالى وقد قدمنا كلاما في رؤية القلب في تفسير سورة الأعراف [الآية: ١٤٣]

و. وما قيل: إن ضمير ﴿ما رَأى﴾ للنبي ﷺ والمعنى: ما قال فؤاده ﷺ لما رآه ببصره لم أعرفك ولو قال ذلك لكان كاذبا لأنه عرفه بقلبه كما رآه ببصره، ومحصله أن فؤاده صدق بصره فيما رآه.

ز. وكذا ما قيل: إن المعنى أن فؤاده لم يكذب بصره فيما رآه بل صدقه واعتقد به، ويؤيده قراءة من قرأ ﴿ما كَذَّبَ﴾ بتشديد الذال.

• ففيه أن الذي يعطيه سياق الآيات تأييده تعالى صدق النبي ﷺ فيما يدعيه من الوحي ورؤية آيات الله الكبرى، ولو كان ضمير ﴿ما رَأى﴾ للنبي ﷺ كان محصل معنى الآية الاحتجاج على صدق رؤيته باعتقاده ذلك بفؤاده وهو بعيد من دأب القرآن وهذا بخلاف ما لو رجع ضمير ﴿ما رَأى﴾ إلى الفؤاد فإن محصل معناه تصديقه تعالى لفؤاده فيما رآه ويجري الكلام على السياق السابق الأخذ من قوله: ﴿ما ضَلَّ صاحِبُكُمْ وَما غَوى إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحى﴾

ح. سؤال وإشكال: فإن قلت: إنه تعالى يحتج في الآية التالية ﴿أَفَتُمارُونَهُ عَلى ما يَرى﴾ برؤيته ﷺ على صدقه فيما يدعيه فليكن مثله الاحتجاج باعتقاد فؤاده بما يراه بعينه، والجواب: ليس قوله: ﴿أَفَتُمارُونَهُ

عَلَى ما يَرى﴾ مسوقا للاحتجاج برؤيته على صدقه بل توبيخ على مماراتهم إياه ﷺ على أمر يراه ويبصره ومجادلتهم إياه فيه، والمماراة والمجادلة إنما تصح، لو صحت، في الآراء النظرية والاعتقادات الفكرية وأما فيما يرى ويشاهد عيانا فلا معنى للمماراة والمجادلة فيه، وهو ﷺ إنما كان يخبرهم بما يشاهده عيانا لا عن فكر وتعقل.

٢. ﴿أَفَتُمارُونَهُ عَلَى ما يَرى﴾ الاستفهام للتوبيخ والخطاب للمشركين والضمير للنبي ﷺ، والمماراة الإصرار على المجادلة، والمعنى: أفتصرون في جدالكم على النبي ﷺ أن يذعن بخلاف ما يدعيه ويخبركم به وهو يشاهد ذلك عيانا.

٣. أحاديث وآثار:

أ. في التوحيد، بإسناده إلى محمد بن الفضيل قال: سألت أبا الحسن عليه السلام هل رأى رسول الله ﷺ ربه عز وجل؟ فقال: نعم بقلبه رآه، أما سمعت الله عز وجل يقول: ﴿ما كَذَبَ الْفُؤادُ ما رَأى﴾؟ لم يره بالبصر ولكن رآه بالفؤاد.

ب. وعن صحيح مسلم، والترمذي وابن مردويه عن أبي ذر قال: سألت رسول الله ﷺ: هل رأيت ربك؟ فقال: نوراني أراه.

• أقول: (نوراني) منسوب إلى النور على خلاف القياس كجسماني في النسبة إلى جسم، وقرئ (نور إني أراه) بتنوين الراء وكسر الهمزة وتشديد النون ثم ياء المتكلم، والظاهر أنه تصحيف وإن أيد برواية أخرى

ج. عن مسلم في صحيحة وابن مردويه عن أبي ذر: أنه سأل رسول الله ﷺ: هل رأيت ربك؟ فقال: رأيت نورا.

• وكيف كان فالمراد بالرؤية رؤية القلب فلا الرؤية رؤية حسية ولا النور نور حسي.

٦. رؤية النبي للملاك عند سدرة المنتهى:

المقطع [٦] من سورة النجم، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى﴾ [النجم: ١٣ـ١٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ٣١»:

١. ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرى﴾:

أ. النزلة بناء مرة من النزول فمعناه نزول واحد، وتدل الآية على أن هذه قصة رؤية في نزول آخر والآيات السابقة تقص نزولا آخر غيره.

ب. وقد قالوا: إن ضمير الفاعل المستكن في قوله: ﴿رَآهُ﴾ للنبي ﷺ، وضمير المفعول لجبريل، وعلى هذا فالنزلة نزول جبريل عليه ﷺ ليعرج به إلى السماوات، وقوله: ﴿عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهى﴾ ظرف للرؤية لا للنزلة، والمراد برؤيته رؤيته وهو في صورته الأصلية.

ج. والمعنى: أنه نزل عليه ﷺ نزلة أخرى وعرج به إلى السماوات وتراءى له ﷺ عند سدرة المنتهى وهو في صورته الأصلية.

د. وقد ظهر مما تقدم صحة إرجاع ضمير المفعول إليه تعالى والمراد بالرؤية رؤية القلب والمراد بنزلة أخرى نزلة النبي ﷺ عند سدرة المنتهى في عروجه إلى السماوات فالمفاد أنه ﷺ نزل نزلة أخرى أثناء معراجه عند سدرة المنتهى فرآه بقلبه كما رآه في النزلة الأولى.

٢. ﴿عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهى﴾:

أ. السدر شجر معروف والتاء للوحدة والمنتهى، كأنه، اسم مكان ولعل المراد به منتهى السماوات بدليل كون الجنة عندها والجنة في السماء، قال تعالى: ﴿وَفِي السَّماءِ رِزْقُكُمْ وَما تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: ٢٢]

ب. ولا يوجد في كلامه تعالى ما يفسر هذه الشجرة، وكان البناء على الإبهام كما يؤيده قوله بعد: ﴿إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ ما يَغْشى﴾ وقد فسر في الروايات أيضا بأنها شجرة فوق السماء السابعة إليها تنتهي أعمال بني آدم وستمر ببعض هذه الروايات.

٣. ﴿عِنْدَها جَنَّةُ الْمَأْوى﴾ أي الجنة التي يأوي إليها المؤمنون وهي جنة الآخرة فإن جنة البرزخ جنة معجلة محدودة بالبعث، قال تعالى: ﴿فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوى نُزُلاً بِما كانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٩]، وقوله: ﴿فَإِذا جاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرى﴾، إلى أن قال ـ﴿فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوى﴾ [النازعات: ٤١] وهي في السماء على ما يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَفِي السَّماءِ رِزْقُكُمْ وَما تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: ٢٢] وقيل: المراد بها جنة البرزخ.

٤. ﴿إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ ما يَغْشى﴾ غشيان الشيء الإحاطة به، و﴿ما﴾ موصولة والمعنى: إذ يحيط

بالسدرة ما يحيط بها، وقد أبهم تعالى هذا الذي يغشى السدرة ولم يبين ما هو كما تقدمت الإشارة إليه.

٥. أحاديث وآثار:

أ. في الاحتجاج، عن علي بن الحسين عليه السلام في حديث طويل: أنا ابن من علا فاستعلى فجاز سدرة المنتهى، فكان من ربه قاب قوسين أو أدنى.

• أقول: وقد ورد هذا المعنى في كثير من روايات أئمة أهل البيت عليه السلام.

ب. وفي الكافي، بإسناده عن صفوان بن يحيى قال: سألني أبو قرة المحدث أن أدخله إلى أبي الحسن الرضا عليه السلام فاستأذنته في ذلك فأذن لي فدخل عليه فسأله عن الحلال والحرام والأحكام، إلى قوله: قال أبو قرة: فإنه يقول: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرى﴾ فقال أبو الحسن عليه السلام: إن بعد هذه الآية ما يدل على ما رأى حيث قال: ﴿ما كَذَبَ الْفُؤادُ ما رَأى﴾ يقول: ما كذب فؤاد محمد ما رأت عيناه ثم أخبر بما رأى فقال: ﴿لَقَدْ رَأى مِنْ آياتِ رَبِّهِ الْكُبْرى﴾ وآيات الله غير الله.

• أقول: الظاهر أن كلامه عليه السلام مسوق لإلزام أبي قرة حيث كان يريد إثبات رؤيته تعالى بالعين الحسية فألزمه بأن الرؤية إنما تعلقت بالآيات وآيات الله غير الله ولا ينافي ذلك كون رؤية الآيات بما هي آياته رؤيته وإن كانت آياته غيره، وهذه الرؤية إنما كانت بالقلب كما مرت عدة من الروايات في هذا المعنى.

ج. في تفسير القمي، حدثني أبي عن ابن أبي عمير عن هشام عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال النبي ﷺ: انتهيت إلى سدرة المنتهى وإذا الورقة منها تظل أمة من الأمم فكنت من ربي كقاب قوسين أو أدنى.

د. أخرج أحمد وابن جرير عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: انتهيت إلى السدرة فإذا نبقها مثل الجراد، وإذا ورقها مثل آذان الفيلة، فلما غشيها من أمر الله ما غشيها تحولت ياقوتا وزمردا ونحو ذلك.

هـ. وفي تفسير القمي، بإسناده إلى إسماعيل الجعفي عن أبي جعفر عليه السلام في حديث طويل: فلما انتهى به إلى سدرة المنتهى تخلف عنه جبرئيل فقال رسول الله ﷺ: في هذا الموضع تخذلني؟ فقال: تقدم أمامك فوالله لقد بلغت مبلغا لم يبلغه أحد من خلق الله قبلك، فرأيت من نور ربي وحال بيني وبينه السبحة، قلت: وما السبحة جعلت فداك؟ فأومى بوجهه إلى الأرض وأومأ بيده إلى السماء وهو يقول: جلال ربي

جلال ربي ثلاث مرات.

• أقول: السبحة الجلال كما فسر في الرواية، والسبحة ما يدل على تنزهه تعالى من خلقه ومرجعه إلى المعنى الأول، ومحصل ذيل الرواية أنه ﷺ رأى ربه برؤية آياته.

و. وفيه: في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرى عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهى﴾ قال: في السماء السابعة.

ز. وفيه: في قوله تعالى: ﴿إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ ما يَغْشى﴾ قال: لما رفع الحجاب بينه وبين رسول الله ﷺ، غشي نور السدرة.

• أقول: وفي المعاني السابقة روايات أخرى وقد تقدم في أول تفسير سورة الإسراء روايات جامعة لقصة معراجه ﷺ.

• وقد نقلنا هناك في ذيل الروايات الاختلاف في كيفية معراجه ﷺ أنه كان في المنام أو في اليقظة وعلى الثاني بجسمه وروحه معا أو بروحه فحسب، ونقلنا عن صاحب المناقب أن الإمامية ترى أن إسراءه من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى كان بالروح والجسم معا على ما تدل عليه آية الإسراء، وأما من المسجد الأقصى إلى السماوات فقد قال قوم بكونه بالروح والجسم معا أيضا ووافقهم كثير من الشيعة ومال بعضهم إلى كونه بالروح ومال إليه بعض المتأخرين.

• ولا ضير في القول به لو أيدته القرائن الحافة بالآيات والروايات غير أن من الواجب حينئذ أن يحمل قوله تعالى: ﴿عِنْدَها جَنَّةُ الْمَأْوى﴾ على جنة البرزخ ليحمل كونها عندها على نحو من التعلق كما ورد أن القبر إما روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار، أو توجه الآية بما لا ينافي كون العروج في السماوات روحيا.

• وأما كون الإسراء في المنام فقد تقدم في تفسير آية الإسراء أنه مما لا ينبغي أن يلتفت إليه.

• وأما تطبيق الإسراء إلى السماوات على تسييره ﷺ ليلا في الكواكب الأخرى غير الأرض من منظومتنا الشمسية أو في منظومات أخرى غير منظومتنا أو في مجرات أخرى غير مجرتنا فمما لا يلائمه الأخبار الواردة في تفصيل القصة البتة بل ولا محصل مضامين الآيات المتقدمة.

٧. ثبات البصر في المشهد العظيم:

المقطع [٧] من سورة النجم، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾ [النجم:

١٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ٣٢»:

١. ﴿ما زاغَ الْبَصَرُ وَما طَغى﴾:

أ. الزيغ الميل عن الاستقامة، والطغيان تجاوز الحد في العمل، وزيغ البصر إدراكه المبصر على غير ما هو عليه، وطغيانه إدراكه ما لا حقيقة له، والمراد بالبصر بصر النبي ﷺ.

ب. والمعنى: أنه ﷺ لم يبصر ما أبصره على غير صفته الحقيقية ولا أبصر ما لا حقيقة له بل أبصر غير خاطئ في إبصاره.

ج. والمراد بالإبصار رؤيته ﷺ بقلبه لا بجارحة العين فإن المراد بهذا الإبصار ما يعنيه بقوله: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرى﴾ المشير إلى مماثلة هذه الرؤية لرؤية النزلة الأولى التي يشير إليها بقوله: ﴿ما كَذَبَ الْفُؤادُ ما رَأى أَفَتُمارُونَهُ عَلى ما يَرى﴾ فافهم ولا تغفل.

٨. رؤية آيات الرب الكبرى:

المقطع [٨] من سورة النجم، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَأى مِنْ آياتِ رَبِّهِ الْكُبْرى﴾ [النجم: ١٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ٣٢»:

١. ﴿لَقَدْ رَأى مِنْ آياتِ رَبِّهِ الْكُبْرى﴾:

أ. ﴿مِنْ﴾ للتبعيض، والمعنى: أقسم لقد شاهد بعض الآيات الكبرى لربه، وبذلك تم مشاهدة ربه بقلبه فإن مشاهدته تعالى بالقلب إنما هي بمشاهدة آياته بما هي آياته فإن الآية بما هي آية لا تحكي إلا ذا الآية ولا تحكي عن نفسه شيئا وإلا لم تكن من تلك الجهة آية.

ب. وأما مشاهدة ذاته المتعالية من غير توسط آية وتخلل حجاب فمن المستحيل ذلك قال تعالى: ﴿وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً﴾ [طه: ١١٠]

٩. توبيخ عبدة الأصنام أتباع الظن:

المقطع [٩] من سورة النجم، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى﴾ [النجم: ١٩-٢٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ٣٨»:

١. ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرى﴾:

أ. لما سجل في الآيات السابقة صدق النبي ﷺ وأنه وحي يوحى إليه وترتب عليه حقية النبوة المبنية على التوحيد ونفي الشركاء، فرع عليه الكلام في الأوثان: اللات والعزى ومناة وهي عند المشركين تماثيل للملائكة بدعوى أنهم إناث أو بعضها للملائكة وبعضها للإنسان كما قاله بعضهم ونفي ربوبيتها وألوهيتها واستقلال الملائكة الذين هم أرباب الأصنام في الشفاعة وأنوثيتهم وأشار إلى حقائق أخرى تنتج المعاد وجزاء الأعمال.

ب. واللات والعزى ومناة أصنام ثلاث كانت معبودة لعرب الجاهلية، وقد اختلفوا في وصف صورها، وفي موضعها الذي كانت منصوبة عليه، وفي من يعبدها من العرب، وفي الأسباب التي أوجبت عبادتهم لها، وهي أقوال متدافعة لا سبيل إلى الاعتماد على شيء منها، والمتيقن منها ما أوردناه.

ج. والمعنى: إذا كان الأمر على ما ذكرناه من حقية الدعوة وصدق النبي ﷺ في دعوى الوحي والرسالة من عند الله سبحانه فأخبروني عن اللات والعزى ومناة التي هي ثالثة الصنمين وغيرهما وهي التي تدعون أنها أصنام الملائكة الذين هم بنات الله على زعمكم،

٢. ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثى تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزى﴾:

أ. استفهام إنكاري مشوب بالاستهزاء، وقسمة ضيزى أي جائرة غير عادلة.

ب. والمعنى: إذا كان كذلك وكانت أرباب هذه الأصنام من الملائكة بنات الله، وأنتم لا ترضون لأنفسكم إلا الذكر من الأولاد فهل لكم الذكر ولله سبحانه الأنثى من الأولاد؟ تلك القسمة إذا قسمة جائرة غير عادلة، استهزاء،

٣. ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْماءٌ سَمَّيْتُمُوها أَنْتُمْ وَآباؤُكُمْ ما أَنْزَلَ اللهُ بِها مِنْ سُلْطانٍ﴾:

أ. ضمير ﴿هِيَ﴾ للات والعزى ومناة أو لها بما هي أصنام، وضمير ﴿سَمَّيْتُمُوها﴾ للأسماء وتسمية الأسماء جعلها أسماء، والمراد بالسلطان البرهان.

ب. والمعنى: ليست هذه الأصنام الآلهة إلا أسماء جعلتموها أسماء لها أنتم وآباؤكم ليست لهذه الأسماء وراءها مصاديق ومسميات ما أنزل الله معها برهانا يستدل به على ربوبيتها وألوهيتها.

ج. ومحصل الآية الرد على المشركين بعدم الدليل على ألوهية آلهتهم.

٤. ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَما تَهْوَى الْأَنْفُسُ﴾:

أ. ما موصولة والضمير العائد إليها محذوف أي الذي تهواه النفس، وقيل: مصدرية والتقدير هوى النفس والهوى الميل الشهواني للنفس والجملة مسوقة لذمهم في اتباع الباطل وتأكيد لما تقدم من أنه لا برهان لهم على ذلك.

ب. ويؤكده قوله: ﴿وَلَقَدْ جاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدى﴾ والجملة حالية.

ج. والمعنى: إن يتبع هؤلاء المشركون في أمر آلهتهم إلا الظن وما يميل إليه أنفسهم شهوة يتبعون ذلك والحال أنه قد جاءهم من الله وهو ربهم الهدى وهي الدعوة الحقة أو القرآن الذي يهديهم إلى الحق.

د. والالتفات في الآية من الخطاب إلى الغيبة للإشعار بأنهم أحط فهما من أن يخاطبوا بهذا الكلام على أنهم غير مستعدين لأن يخاطبوا بكلام برهاني وهم أتباع الظن والهوى.

١٠. نفي ملكية الإنسان لما يتمناه:

المقطع [١٠] من سورة النجم، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى﴾ [النجم: ٢٤-٢٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ٣٩»:

١. ﴿أَمْ لِلْإِنْسانِ ما تَمَنَّى﴾:

أ. أم منقطعة والاستفهام إنكاري، والكلام مسوق لنفي أن يملك الإنسان ما يتمناه بمجرد أنه يتمناه أي ليس يملك الإنسان ما يتمناه بمجرد أنه يتمناه حتى يملك المشركون ما يتمنونه بهوى أنفسهم من شفاعة الملائكة الذين هم أرباب أصنامهم وبنات لله بزعمهم أو يملكوا ألوهية آلهتهم بمجرد التمني.

ب. وفي الكلام تلويح إلى أنهم ليس لهم للدلالة على صحة ألوهية آلهتهم أو شفاعتهم إلا التمني، ولا يملك شيء بالتمني.

٢. ﴿فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولى﴾ تفريعه على سابقه من تفريع العلة للمعلول للدلالة على التعلق والارتباط ففيه تعليل للجملة السابقة، والمعنى: ليس يملك الإنسان ما تمناه بمجرد التمني لأن الآخرة والأولى لله سبحانه ولا شريك له في ملكه.

١١. عدم نفع شفاعة الملائكة إلا بإذن الله ورضاه:

المقطع [١١] من سورة النجم، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا

تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ [النجم: ٢٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ٣٩»:

١. ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّماواتِ لا تُغْنِي شَفاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللهُ لِمَنْ يَشاءُ وَيَرْضى﴾:

أ. الفرق بين الإذن والرضا أن الإذن إعلام ارتفاع المانع من قبل الآذن، والرضا ملاءمة نفس الراضي للشيء وعدم امتناعها فربما تحقق الإذن بشيء مع عدم الرضا ولا يتحقق رضا إلا مع الإذن بالفعل أو بالقوة.

ب. والآية مسوقة لنفي أن يملك الملائكة من أنفسهم الشفاعة مستغنين في ذلك عن الله سبحانه كما يروم إليه عبدة الأصنام فإن الأمر مطلقا إلى الله تعالى فإنما يشفع من يشفع منهم بعد إذنه تعالى له في الشفاعة ورضاه بها.

ج. وعلى هذا فالمراد بقوله: ﴿لِمَنْ يَشاءُ﴾ الملائكة، ومعنى الآية: وكثير من الملائكة في السماوات لا تؤثر شفاعتهم أثرا إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء منهم أي من الملائكة ويرضى بشفاعته.

د. وقيل: المراد بمن يشاء ويرضى الإنسان، والمعنى: إلا من بعد أن يأذن الله في شفاعة من يشاء أن يشفع له من الإنسان ويرضى، وكيف يأذن ويرضى بشفاعة من كفر به وعبد غيره؟

هـ. والآية تثبت الشفاعة للملائكة في الجملة، وتقيد شفاعتهم بالإذن والرضا من الله سبحانه.

١٢. تسمية المشركين للملائكة تسمية الأنثى واتباع الظن:

المقطع [١٢] من سورة النجم، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنْثَى وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ [النجم: ٢٧-٢٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ٤٠»:

١. ﴿إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنْثى﴾:

أ. رد لقولهم بأنوثية الملائكة بعد رد قولهم بشفاعتهم.

ب. والمراد بتسميتهم الملائكة تسمية الأنثى قولهم: إن الملائكة بنات الله فالمراد بالأنثى الجنس أعم من الواحد والكثير.

ج. وقيل: إن الملائكة في معنى استغراق المفرد فيكون التقدير ليسمون كل واحد من الملائكة تسمية الأنثى أي يسمونه بنتا فالكلام على وزان كسانا الأمير حلة أي كسا كل واحد منا حلة.

د. قال بعضهم: (في تعليق التسمية بعدم الإيمان بالآخرة إشعار بأنها في الشناعة والفظاعة واستتباع العقوبة في الآخرة بحيث لا يجترئ عليها إلا من لا يؤمن بها رأسا)

٢. ﴿وَما لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾:

أ. العلم هو التصديق المانع من النقيض، والظن هو التصديق الراجح ويسمى المرجوح وهما، وقولهم بأنوثية الملائكة كما لم يكن معلوما لهم كذلك لم يكن مظنونا إذ لا سبيل إلى ترجيح القول به على خلافه لكنه لما كان عن هوى أنفسهم أثبته الهوى في أنفسهم وزينه لهم فلم يلتفتوا إلى خلافه، وكلما لاح لهم لائح خلافه أعرضوا عنه وتعلقوا بما يهوونه، وبهذه العناية سمي ظنا وهو في الحقيقة تصور فقط.

ب. وبهذا يظهر استقامة قول من قال: إن الظن في هذه الآية وفي قوله السابق: ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَما تَهْوَى الْأَنْفُسُ﴾ بمعنى التوهم دون الاعتقاد الراجح وأيد بما يظهر من كلام الراغب: (إن الظن ربما يطلق على التوهم.

٣. ﴿إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً﴾:

أ. الحق ما هو عليه الشيء وظاهر أنه لا يدرك إلا بالعلم الذي هو الاعتقاد المانع من النقيض لا غير وأما غير العلم مما فيه احتمال الخلاف فلا يتعين فيه المدرك على ما هو عليه في الواقع فلا يجوز لأن يعتمد عليه في الحقائق قال تعالى: ﴿وَلا تَقْفُ ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: ٣٦]

ب. وأما العمل بالظن في الأحكام العملية فإنما هو لقيام دليل عليه يقيد به إطلاق الآية، وتبقى الأمور الاعتقادية تحت إطلاق الآية.

ج. قال بعضهم: وضع الظاهر موضع المضمر في قوله: ﴿إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي﴾ ليجري الكلام مجرى المثل.

١٣. الإعراض عن المعرضين وبيان غاية علمهم الدنيا:

المقطع [١٣] من سورة النجم، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ

اهْتَدَى﴾ [النجم: ٢٩ـ٣٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ٤١»:

١. ﴿فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَياةَ الدُّنْيا﴾:

أ. تفريع على اتباعهم الظن وهوى الأنفس، فقوله: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ﴾، أمر بالإعراض عنهم وإنما لم يقل: فأعرض عنهم، ووضع قوله: ﴿مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنا﴾، موضع الضمير للدلالة على علة الأمر بالإعراض كأنه قيل: إن هؤلاء يتركون العلم ويتبعون الظن وما تهوى الأنفس وإنما فعلوا ذلك لأنهم تولوا عن الذكر وأرادوا الحياة الدنيا فلا هم لهم إلا الدنيا فهي مبلغهم من العلم، وإذا كان كذلك فأعرض عنهم لأنهم في ضلال.

ب. والمراد بالذكر إما القرآن الذي يهدي متبعيه إلى الحق الصريح ويرشدهم إلى سعادة الدار الآخرة التي وراء الدنيا بالحجج القاطعة والبراهين الساطعة التي لا تبقى معها وصمة شك.

ج. وأما ذكر الله بالمعنى المقابل للغفلة فإن ذكره تعالى بما يليق بذاته المتعالية من الأسماء والصفات يهدي إلى سائر الحقائق العلمية في المبدأ والمعاد هداية علمية لا ريب معها.

٢. ﴿ذلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾ الإشارة بذلك إلى أمر الدنيا وهو معلوم من الآية السابقة وكونه مبلغ علمهم من قبيل الاستعارة كان العلم يسير إلى المعلوم وينتهي إليه وعلمهم انتهى في مسيره إلى الدنيا وبلغها ووقف عندها ولم يتجاوزها، ولازم ذلك أن تكون الدنيا متعلق إرادتهم وطلبهم، وموطن هممهم، وغاية آمالهم لا يطمئنون إلى غيرها ولا يقبلون إلا عليها.

٣. ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ﴾، تأكيد لمضمون الجملة السابقة وشهادة منه تعالى عليه.

١٤. ملكية الله للكون ومجازاة المحسن والمسيء:

المقطع [١٤] من سورة النجم، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَللهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ٤١»:

١. ﴿وَللهِ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَساؤُا بِما عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾:

أ. يمكن أن يكون صدر الآية حالا من فاعل ﴿أَعْلَمُ﴾ في الآية السابقة والواو للحال، والمعنى:

أن ربك هو أعلم بالفريقين الضالين والمهتدين والحال أنه يملك ما في السماوات وما في الأرض فكيف يمكن أن لا يعلم بهم وهو مالكهم؟

ب. وعلى هذا فالظاهر تعلق قوله: ﴿لِيَجْزِيَ﴾، بقوله السابق: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى﴾، والمعنى: أعرض عنهم وكل أمرهم إلى الله ليجزيهم كذا وكذا ويجزيك ويجزي المحسنين كذا وكذا.

ج. ويمكن أن يكون قوله: ﴿وَللهِّ ما فِي السَّماواتِ﴾، كلاما مستأنفا للدلالة على أن الأمر بالإعراض عنهم لا لإهمالهم وتركهم سدى بل الله سبحانه يجزي كلا بعمله إن سيئا وإن حسنا، ووضع اسم الجلالة وهو ظاهر موضع الضمير للدلالة على كمال العظمة.

د. ﴿للهِّ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ﴾ إشارة إلى ملكه تعالى للكل ومعناه قيام الأشياء به تعالى لكونه خالقهم الموجد لهم فالملك ناشئ من الخلق وهو مع ذلك منشأ للتدبير فالجملة دالة على الخلق والتدبير كأنه قيل: ولله الخلق والتدبير.

هـ. وبهذا المعنى يتعلق قوله: ﴿لِيَجْزِيَ﴾، واللام للغاية، والمعنى: له الخلق والتدبير وغاية ذلك والغرض منه أن يجزي الذين أساءوا، والمراد بالجزاء ما يخبر عنه الكتاب من شئون يوم القيامة، والمراد بالإساءة والإحسان المعصية والطاعة، والمراد بما عملوا جزاء ما عملوا أو نفس ما عملوا، وبالحسنى المثوبة الحسنى.

و. والمعنى: ليجزي الله الذين عصوا بمعصيتهم أو بجزاء معصيتهم ويجزي الذين أطاعوا بالمثوبة الحسنى، وقد أوردوا في الآية احتمالات أخرى وما قدمناه هو أظهرها.

١٥. سعة مغفرة الله لمن يجتنب الكبائر والفواحش:

المقطع [١٥] من سورة النجم، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ [النجم: ٣٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ٤٢»:

١. ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَواحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ واسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾:

أ. الإثم هو الذنب وأصله، كما ذكره الراغب، الفعل المبطئ عن الثواب والخير، وكبائر الإثم المعاصي الكبيرة وهو على ما في الرواية ما أوعد الله عليه النار، وقد تقدم البحث عنها في تفسير قوله تعالى:

﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبائِرَ ما تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ﴾ الآية: [النساء: ٣١]

ب. والفواحش الذنوب الشنيعة الفظيعة، وقد عد تعالى في كلامه الزنا واللواط من الفواحش ولا يبعد أن يستظهر من الآية اتحادها مع الكبائر.

ج. وأما اللمم فقد اختلفوا في معناه فقيل: هو الصغيرة من المعاصي، وعليه فالاستثناء منقطع، وقيل: هو أن يلم بالمعصية ويقصدها ولا يفعل والاستثناء أيضا منقطع، وقيل: هو المعصية حينا بعد حين من غير عادة أي المعصية على سبيل الاتفاق فيكون أعم من الصغيرة والكبيرة وينطبق مضمون الآية على معنى قوله تعالى في وصف المتقين المحسنين: ﴿وَالَّذِينَ إِذا فَعَلُوا فاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلى ما فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥]

د. وقد فسر في روايات أئمة أهل البيت عليه السلام بثالث المعاني.

هـ. والآية تفسر ما في الآية السابقة من قوله: ﴿الَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾ فهم الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش ومن الجائز أن يقع منهم لمم.

و. وفي قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ واسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾ تطميعهم في التوبة رجاء المغفرة.

٢. ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾ قال الراغب: (النشء والنشأة إحداث الشيء وتربيته)، فإنشاؤهم من الأرض ما جرى عليهم في بدء خلقهم طورا بعد طور من أخذهم من المواد العنصرية إلى أن يتكونوا في صورة المني ويردوا الأرحام.

٣. ﴿وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهاتِكُمْ﴾ الأجنة جمع جنين، والكلام معطوف على ﴿إِذْ﴾ السابق أي وهو أعلم بكم إذ كنتم أجنة في أرحام أمهاتكم يعلم ما حقيقتكم وما أنتم عليه من الحال وما في سركم وإلى ما يئول أمركم.

٤. ﴿فَلا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ﴾ تفريع على العلم أي إذا كان الله أعلم من أول أمر فلا تزكوا أنفسكم بنسبتها إلى الطهارة هو أعلم بمن اتقى.

١٦. توبيخ من تولى وبخل:

المقطع [١٦] من سورة النجم، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى وَأَعْطى قَلِيلًا وَأَكْدى أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرى﴾ [النجم: ٣٣-٣٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ٤٥»:

١. ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى وَأَعْطى قَلِيلاً وَأَكْدى﴾:

أ. التولي هو الإعراض والمراد به بقرينة الآية التالية الإعراض عن الإنفاق في سبيل الله، والإعطاء الإنفاق والإكداء قطع العطاء، والتفريع الذي في قوله: ﴿أَفَرَأَيْتَ﴾ مبني على ما قدمنا من تفرع مضمون هذه الآيات على ما قبلها.

ب. والمعنى: فأخبرني عمن أعرض عن الإنفاق وأعطى قليلا من المال وأمسك بعد ذلك أشد الإمساك.

٢. ﴿أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرى﴾:

أ. الضمائر لمن تولى والاستفهام للإنكار والمعنى: أيعلم الغيب فيترتب عليه أن يعلم أن صاحبه يتحمل عنه ذنوبه ويعذب مكانه يوم القيامة لو استحق العذاب، كذا فسروا.

ب. والظاهر أن المراد نفي علمه بما غاب عنه من مستقبل حاله في الدنيا والمعنى: أيعلم الغيب فهو يعلم أنه لو أنفق ودام على الإنفاق نفد ماله وابتلي بالفقر وأما تحمل الذنوب والعذاب فالمتعرض له قوله الآتي: ﴿أَلَّا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى﴾

٣. أحاديث وآثار:

أ. في الكشاف: في قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى﴾، روي أن عثمان كان يعطي ماله في الخير فقال له عبد الله بن سعد بن أبي سرح وهو أخوه من الرضاعة: يوشك أن لا يبقى لك شيء فقال عثمان: إن لي ذنوبا وخطايا، وإني أطلب بما أصنع رضا الله تعالى وأرجو عفوه فقال عبد الله: أعطني ناقتك برحلها وأنا أتحمل عنك ذنوبك كلها فأعطاه وأشهد عليه وأمسك عن العطاء فنزلت، ومعنى: ﴿تَوَلَّى﴾ ترك المركز يوم أحد فعاد عثمان إلى أحسن من ذلك وأجمل.

• أقول: وأورد القصة في مجمع البيان ونسبها إلى ابن عباس والسدي والكلبي وجماعة من المفسرين، وفي انطباق (تولى) على تركه المركز يوم أحد نظر والآيات مكية.

ب. أخرج الفاريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد: في قوله: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى﴾ قال: الوليد بن المغيرة كان يأتي النبي ﷺ وأبا بكر فسمع ما يقولان وذلك ما أعطى من نفسه، أعطى الاستماع ﴿وَأَكْدى﴾ قال: انقطع عطاؤه نزل في ذلك ﴿أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ﴾ قال: الغيب

القرآن أرأى فيه باطلا أنفذه ببصره إذ كان يختلف إلى النبي ﷺ وأبي بكر.

• أقول: وأنت خبير بأن الآيات بظاهرها لا تنطبق على ما ذكره.

ج. وروي: أنها نزلت في العاص بن وائل، وروي أنها نزلت في رجل لم يذكر اسمه.

١٧. التذكير بصحف موسى وإبراهيم وقاعدة تحمّل كل إنسان نتائج عمله:

المقطع [١٧] من سورة النجم، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى﴾ [النجم: ٣٦-٤١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ٤٦»:

١. ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِما فِي صُحُفِ مُوسى وَإِبْراهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾:

أ. صحف موسى التوراة، وصحف إبراهيم، ما نزل عليه من الكتاب والجمع للإشارة إلى كثرته بكثرة أجزائه.

ب. والتوفية تأدية الحق بتمامه وكماله، وتوفيته عليه السلام تأديته ما عليه من الحق في العبودية أتم التأدية وأبلغها قال تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْراهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِماتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ [البقرة: ١٢٤]

ج. وما نقله الله سبحانه في الآيات التالية من صحف إبراهيم وموسى عليه السلام وإن لم يذكر في القرآن بعنوان أنه من صحفهما قبل هذه الآيات لكنه مذكور بعنوان الحكم والمواعظ والقصص والعبر فمعنى الآيتين: أم لم ينبأ بهذه الأمور وهي في صحف إبراهيم وموسى.

٢. ﴿أَلَّا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى﴾:

أ. الوزر الثقل وكثر استعماله في الإثم، والوازرة النفس التي من شأنها أن تحمل الإثم، والآية بيان ما في صحف إبراهيم وموسى عليه السلام، وكذا سائر الآيات المصدرة بأن وأن إلى تمام سبع عشرة آية.

ب. والمعنى: ما في صحفهما هو أنه لا تحمل نفس إثم نفس أخرى أي لا تتأثم نفس بما لنفس أخرى من الإثم فلا تؤاخذ نفس بإثم نفس أخرى.

٣. ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى﴾:

أ. قال الراغب: (السعي المشي السريع وهو دون العدو، ويستعمل للجد في الأمر خيرا كان أو شرا قال تعالى: ﴿وَسَعى فِي خَرابِها﴾) واستعماله في الجد في الفعل استعمال استعاري.

ب. ومعنى اللام في قوله: ﴿لِلْإِنْسانِ﴾ الملك الحقيقي الذي يقوم بصاحبه قياما باقيا ببقائه يلازمه ولا يفارقه بالطبع وهو الذي يكتسبه الإنسان بصالح العمل أو طالحه من خير أو شر، وأما ما يراه الإنسان مملوكا لنفسه وهو في ظرف الاجتماع من مال وبنين وجاه وغير ذلك من زخارف الحياة الدنيا وزينتها فكل ذلك من الملك الاعتباري الوهمي الذي يصاحب الإنسان ما دام في دار الغرور ويودعه عند ما أراد الانتقال إلى دار الخلود وعالم الآخرة.

ج. فالمعنى: وأنه لا يملك الإنسان ملكا يعود إليه أثره من خير أو شر أو نفع أو ضر حقيقة إلا ما جد فيه من عمل فله ما قام بفعله بنفسه وأما ما قام به غيره من عمل فلا يلحق بالإنسان أثره خيرا أو شرا.

د. وأما الانتفاع من شفاعة الشفعاء يوم القيامة لأهل الكبائر فلهم في ذلك سعي جميل حيث دخلوا في حضيرة الإيمان بالله وآياته، وكذا استفادة المؤمن بعد موته من استغفار المؤمنين له، والأعمال الصالحة التي تهدي إليه مثوباتها هي مرتبطة بسعيه في الدخول في زمرة المؤمنين وتكثير سوادهم وتأييد إيمانهم الذي من آثاره ما يأتون به من الأعمال الصالحة.

هـ. وكذا من سن سنة حسنة فله ثوابها وثواب من عمل بها، ومن سن سنة سيئة كان له وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة فإن له سعيا في عملهم حيث سن السنة وتوسل بها إلى أعمالهم كما تقدم في تفسير قوله تعالى: ﴿وَنَكْتُبُ ما قَدَّمُوا وَآثارَهُمْ﴾ [يس: ١٢]، وقد تقدم في تفسير قوله: ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعافاً خافُوا عَلَيْهِمْ﴾ [النساء: ٩]، وتفسير قوله: ﴿لِيَمِيزَ اللهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ [الأنفال: ٣٧]، كلام نافع في هذا المقام.

٤. ﴿وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرى﴾:

أ. المراد بالسعي ما سعى فيه من العمل وبالرؤية المشاهدة، وظرف المشاهدة يوم القيامة بدليل تعقيبه بالجزاء فالآية قريبة المعنى من قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وَما عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ﴾ [آل عمران: ٣٠]، وقوله: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتاتاً لِيُرَوْا أَعْمالَهُمْ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾

ب. وإتيان قوله: ﴿سَوْفَ يُرى﴾ مبنيا للمفعول لا يخلو من إشعار بأن هناك من يشاهد العمل غير عامله.

٥. ﴿ثُمَّ يُجْزاهُ الْجَزاءَ الْأَوْفى﴾:

أ. الوفاء بمعنى التمام لأن الشيء التام يفي بجميع ما يطلب من صفاته، والجزاء الأوفى الجزاء الأتم.

ب. وضمير ﴿يُجْزاهُ﴾ للسعي الذي هو العمل والمعنى: ثم يجزي الإنسان عمله أي بعمله أتم الجزاء.

٦. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي: في قوله تعالى: ﴿وَإِبْراهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ قال: وفى بما أمره الله به من الأمر والنهي وذبح ابنه.

ب. وفي الكافي، بإسناده عن إسحاق بن عمار عن أبي إبراهيم عليه السلام قال: سألته عن الرجل يحج فيجعل حجته وعمرته، أو بعض طوافه لبعض أهله، وهو عنه غائب في بلد آخر؟ قال: قلت: فينتقص ذلك من أجره؟ قال: هي له ولصاحبه وله أجر سوى ذلك بما وصل، قلت: وهو ميت أيدخل ذلك عليه؟ قال: نعم حتى يكون مسخوطا عليه فيغفر له، أو يكون مضيقا عليه فيوسع له، قلت: فيعلم هو في مكانه أنه عمل ذلك لحقه؟ قال: نعم، قلت: وإن كان ناصبا ينفعه ذلك؟ قال: نعم يخفف عنه.

• أقول: مورد الرواية إهداء ثواب العمل دون العمل نيابة عن الميت.

ج. وفيه، بإسناده عن عبد الله بن سنان عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ: يقول الله عز وجل للملك الموكل بالمؤمن إذا مرض: اكتب له ما كنت تكتب له في صحته، فإني أنا الذي صيرته في حبالي.

د. وفي الخصال، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ليس يتبع الرجل بعد موته من الأجر إلا ثلاث خصال: صدقة أجراها في حياته، فهي تجري بعد موته إلى يوم القيامة، صدقة موقوفة لا تورث، وسنة هدى سنها، وكان يعمل بها وعمل بها من بعده غيره، وولد صالح يستغفر له.

• أقول: وهذه الروايات الثلاث، وفي معناها روايات كثيرة جدا عن أئمة أهل البيت عليه السلام، توسع معنى السعي في قوله تعالى: ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى﴾ وقد تقدمت إشارة إليها.

١٨. الإشارة إلى أن المنتهى إلى الله وحده:

المقطع [١٨] من سورة النجم، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى﴾ [النجم: ٤٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ٤٧»:

١. ﴿وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى﴾:

أ. المنتهى مصدر ميمي بمعنى الانتهاء وقد أطلق إطلاقا فيفيد مطلق الانتهاء، فما في الوجود من شيء موجود إلا وينتهي في وجوده وآثار وجوده إلى الله سبحانه بلا واسطة أو مع الواسطة، ولا فيه أمر من التدبير والنظام الجاري جزئيا أو كليا إلا وينتهي إليه سبحانه إذ ليس التدبير الجاري بين الأشياء إلا الروابط الجارية بينها القائمة بها وموجد الأشياء هو الموجد لروابطها المجري لها بينها فالمنتهى المطلق لكل شيء هو الله سبحانه، قال تعالى: ﴿اللهُ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ لَهُ مَقالِيدُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الزمر: ٦٣]، وقال: ﴿أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]

ب. والآية تثبت الربوبية المطلقة لله سبحانه بإنهاء كل تدبير وكل التدبير إليه وتشمل انتهاء الأشياء إليه من حيث البدء وهو الفطر، وانتهاءها إليه من حيث العود والرجوع وهو الحشر.

ج. ومما تقدم يظهر ضعف ما قيل في تفسير الآية أن المراد بذلك رجوع الخلق إليه سبحانه يوم القيامة، وكذا ما قيل: إن المعنى أن إلى ثواب ربك وعقابه آخر الأمر، وكذا ما قيل: المعنى أن إلى حساب ربك منتهاهم، وكذا ما قيل: إليه سبحانه ينتهي الأفكار وتقف دونه، ففي جميع هذه التفاسير تقييد الآية من غير مقيد.

٢. أحاديث وآثار:

أ. في أصول الكافي، بإسناده إلى سليمان بن خالد قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: إن الله يقول: ﴿وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى﴾ فإذا انتهى الكلام إلى الله فأمسكوا.

• أقول: وهو من التوسعة في معنى الانتهاء.

ب. وفيه، بإسناده إلى أبي عبيدة الحذاء قال: قال أبو جعفر عليه السلام: يا زياد إياك والخصومات فإنها تورث الشك، وتحبط العمل، وتردي صاحبها، وعسى أن يتكلم بالشيء فلا يغفر له، أنه كان فيما مضى قوم تركوا علم ما وكلوا به، وطلبوا علم ما كفوه حتى انتهى كلامهم إلى الله، فتحيروا حتى كان الرجل يدعى من بين يديه، فيجيب من خلفه، ويدعى من خلفه فيجيب من بين يديه، قال: وفي رواية

أخرى: حتى تاهوا في الأرض.

ج. أخرج أبو الشيخ عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في الله فتهلكوا.

• أقول: وفي النهي عن التفكر في الله سبحانه روايات كثيرة أخر مودعة في جوامع الفريقين، والنهي إرشادي متعلق بمن لا يحسن الورود في المسائل العقلية العميقة فيكون خوضه فيها تعرضا للهلاك الدائم.

١٩. إثبات قدرة الله على الإضحاك والإبكاء والإماتة والإحياء:

المقطع [١٩] من سورة النجم، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَى﴾ [النجم: ٤٣ـ٤٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ٤٨»:

١. ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى﴾:

أ. الآية وما يتلوها إلى تمام اثنتي عشرة آية بيان لموارد من انتهاء الخلق والتدبير إلى الله سبحانه.

ب. والسياق في جميع هذه الآيات سياق الحصر، وتفيد انحصار الربوبية فيه تعالى وانتفاء الشريك، ولا ينافي ما في هذه الموارد من الحصر توسط أسباب أخر طبيعية أو غير طبيعية فيها كتوسط السرور والحزن وأعضاء الضحك والبكاء من الإنسان في تحقق الضحك والبكاء، وكذا توسط الأسباب المناسبة الطبيعية وغير الطبيعية في الإحياء والإماتة وخلق الزوجين والغنى والقنى وإهلاك الأمم الهالكة وذلك أنها لما كانت مسخرة لأمر الله غير مستقلة في نفسها ولا منقطعة عما فوقها كانت وجوداتها وآثار وجوداتها وما يترتب عليها لله وحده لا يشاركه في ذلك أحد.

ج. فمعنى قوله: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى﴾ إنه تعالى هو أوجد الضحك في الضاحك وأوجد البكاء في الباكي لا غيره تعالى:

د. ولا منافاة بين انتهاء الضحك والبكاء في وجودهما إلى الله سبحانه وبين انتسابها إلى الإنسان وتلبسه بهما لأن نسبة الفعل إلى الإنسان بقيامه به ونسبة الفعل إليه تعالى بالإيجاد وكم بينهما من فرق.

هـ. ولا أن تعلق الإرادة الإلهية بضحك الإنسان مثلا يوجب بطلان إرادة الإنسان للضحك وسقوطها عن التأثير لأن الإرادة الإلهية لم تتعلق بمطلق الضحك كيفما كان وإنما تعلقت بالضحك

الإرادي الاختياري من حيث إنه صادر عن إرادة الإنسان واختياره فإرادة الإنسان سبب لضحكه في طول إرادة الله سبحانه لا في عرضها حتى تتزاحما ولا تجتمعا معا فنضطر إلى القول بأن أفعال الإنسان الاختيارية مخلوقة لله ولا صنع للإنسان فيها كما يقوله الجبري أو أنها مخلوقة للإنسان ولا صنع لله سبحانه فيها كما يقوله المعتزلي.

و. ومما تقدم يظهر فساد قول بعضهم: إن معنى الآية أنه خلق قوتي الضحك والبكاء، وقول آخرين: إن المعنى أنه خلق السرور والحزن، وقول آخرين: إن المعنى أنه أضحك الأرض بالنبات وأبكى السماء بالمطر، وقول آخرين: إن المعنى أنه أضحك أهل الجنة وأبكى أهل النار.

٢. ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَماتَ وَأَحيا﴾ الكلام في انتساب الموت والحياة إلى أسباب أخر طبيعية وغير طبيعية كالملائكة كالكلام في انتساب الضحك والبكاء إلى غيره تعالى مع انحصار الإيجاد فيه تعالى، وكذا الكلام في الأمور المذكورة في الآيات التالية.

٣. ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثى مِنْ نُطْفَةٍ إِذا تُمْنى﴾:

أ. النطفة ماء الرجل والمرأة الذي يخلق منه الولد، وأمنى الرجل أي صب المني، وقيل: معناه التقدير، وقوله: ﴿الذَّكَرَ وَالْأُنْثى﴾ بيان للزوجين.

ب. قيل: لم يذكر الضمير في الآية على طرز ما تقدم، أنه هو، لأنه لا يتصور نسبة خلق الزوجين إلى غيره تعالى.

٤. ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرى﴾ النشأة الأخرى الخلقة الأخرى الثانية وهي الدار الآخرة التي فيها جزاء، وكون ذلك عليه تعالى قضاؤه قضاء حتم وقد وعد به ووصف نفسه بأنه لا يخلف الميعاد.

٥. أحاديث وآثار: في تفسير القمي: في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكى﴾ قال: أبكى السماء بالمطر، وأضحك الأرض بالنبات.

• أقول: هو من التوسعة في معنى الإبكاء والإضحاك.

٢٠. إثبات قدرة الله على الإغناء والإفقار وكونه رب الشعرى:

المقطع [٢٠] من سورة النجم، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنى وَأَقْنى وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرى﴾ [النجم: ٤٨ـ٤٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ٤٩»:

١. ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنى وَأَقْنى﴾:

أ. أي أعطى الغنى وأعطى القنية، والقنية ما يدوم من الأموال ويبقى ببقاء نفسه كالدار والبستان والحيوان، وعلى هذا فذكر ﴿أَقْنى﴾ بعد ﴿﴿أَغْنى﴾﴾ من التعرض للخاص بعد العام لنفاسته وشرفه.

ب. وقيل: الإغناء التمويل والإقناء الإرضاء بذلك، وقال بعضهم: معنى الآية أنه هو أغنى وأفقر.

٢. ﴿وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرى﴾:

أ. كان المراد بالشعرى الشعرى اليمانية وهي كوكبة مضيئة من الثوابت شرقي صورة الجبار في السماء.

ب. قيل: كانت الخزاعة وحمير تعبد هذه الكوكبة، وممن كان يعبده أبو كبشة أحد أجداد النبي ﷺ من جهة أمه، وكان المشركون يسمونه ﷺ ابن أبي كبشة لمخالفته إياهم في الدين كما خالف أبو كبشة قومه في عبادة الشعرى.

٣. أحاديث وآثار:

أ. في المعاني، بإسناده إلى السكوني عن جعفر بن محمد عن آبائهم عليه السلام قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام: في قول الله عز وجل: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنى وَأَقْنى﴾ قال: أغنى كل إنسان بمعيشته، وأرضاه بكسب يده.

ب. وفي تفسير القمي: في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرى﴾ قال: النجم في السماء يسمى الشعرى كانت قريش وقوم من العرب يعبدونه، وهو نجم يطلع في آخر الليل.

• أقول: الظاهر أن قوله: وهو نجم يطلع في آخر الليل تعريف له بحسب زمان صدور الحديث وكان في الصيف وإلا فهو يستوفي في مجموع السنة جميع ساعات الليل والنهار.

٢١. إهلاك الله تعالى الأمم الطاغية كعاد وثمود وقوم نوح والمؤتفكة:

المقطع [٢١] من سورة النجم، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى﴾ [النجم: ٥٠ـ٥٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ٥٠»:

١. ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عاداً الْأُولى﴾ وهم قوم هود النبي عليه السلام ووصفوا بالأولى لأن هناك عادا ثانية هم بعد عاد الأولى.

٢. ﴿وَثَمُودَ فَما أَبْقى﴾ وهم قوم صالح النبي عليه السلام أهلك الله الكفار منهم عن آخرهم، وهو المراد من قوله: ﴿فَما أَبْقى﴾ وإلا فهو سبحانه نجى المؤمنين منهم من الهلاك كما قال: ﴿وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكانُوا يَتَّقُونَ﴾ [فصلت: ١٨]

٣. ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغى﴾ عطف كسابقه على قوله: ﴿عاداً﴾ والإصرار بالتأكيد على كونهم أظلم وأطغى، أي من القومين عاد وثمود على ما يعطيه السياق لأنهم لم يجيبوا دعوة نوح عليه السلام ولم يتعظوا بموعظته فيما يقرب من ألف سنة ولم يؤمن منهم معه إلا أقل قليل.

٤. ﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوى فَغَشَّاها ما غَشَّى﴾:

أ. قيل: إن المؤتفكة قرى قوم لوط ائتفكت بأهلها أي انقلبت والائتفاك الانقلاب، والأهواء الإسقاط.

ب. والمعنى: وأسقط القرى المؤتفكة إلى الأرض بقلبها وخسفها فشملها وأحاط بها من العذاب ما شملها وأحاط بها.

ج. واحتمل أن يكون المراد بالمؤتفكة ما هو أعم من قرى قوم لوط وهي كل قرية نزل عليها العذاب فباد أهلها فبقيت خربة داثرة معالمها خاوية على عروشها.

٥. ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكَ تَتَمارى﴾:

أ. الآلاء جمع إلى بمعنى النعمة، والتماري التشكك، والجملة متفرعة على ما تقدم ذكره مما ينسب إليه تعالى من الأفعال.

ب. والمعنى: إذا كان الله سبحانه هو الذي نظم هذا النظام البديع من صنع وتدبير بالإضحاك والإبكاء والإماتة والإحياء والخلق والإهلاك إلى آخر ما قيل فبأي نعم ربك تتشكك وفي أيها تريب؟

ج. وعد مثل الإبكاء والإماتة وإهلاك الأمم الطاغية نعما لله سبحانه لما فيها من الدخل في تكون النظام الأتم الذي يجري في العالم وتنساق به الأمور في مرحلة استكمال الخلق ورجوع الكل إلى الله سبحانه.

د. والخطاب في الآية للذي تولى وأعطى قليلا وأكدى أو للنبي ﷺ من باب إياك أعني واسمعي يا جارة، والاستفهام للإنكار.

٢٢. تأكيد أن ما جاء به النبي نذير من النذر الأولى:

المقطع [٢٢] من سورة النجم، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الْأُولَى﴾ [النجم: ٥٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ٥١»:

١. قيل: النذير يأتي مصدرا بمعنى الإنذار ووصفا بمعنى المنذر ويجمع على النذر بضمتين على كلا المعنيين والإشارة بهذا إلى القرآن أو النبي ﷺ.

٢٣. اقتراب الساعة وليس لها كاشفة من دون الله:

المقطع [٢٣] من سورة النجم، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أَزِفَتِ الْآزِفَةُ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ [النجم: ٥٧-٥٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ٥١»:

١. ﴿أَزِفَتِ الْآزِفَةُ﴾ أي قربت القيامة والآزفة من أسماء القيامة قال تعالى: ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ﴾ [١٨]

٢. ﴿لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللهِ كَاشِفَةٌ﴾ أي نفس كاشفة والمراد بالكشف إزالة ما فيها من الشدائد والأهوال، والمعنى: ليس نفس تقدر على إزالة ما فيها من الشدائد والأهوال إلا أن يكشفها الله سبحانه.

٣. أحاديث وآثار: في تفسير القمي: في قوله تعالى: ﴿أَزِفَتِ الْآزِفَةُ﴾ قال قربت القيامة.

٢٤. توبيخ المشركين على تعجبهم من القرآن وضحكهم بدل البكاء:

المقطع [٢٤] من سورة النجم، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا﴾ [النجم: ٥٩-٦٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ٥١»:

١. ﴿أَفَمِنْ هذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ وَتَضْحَكُونَ وَلا تَبْكُونَ وَأَنْتُمْ سامِدُونَ﴾:

أ. الإشارة بهذا الحديث إلى ما تقدم من البيان، والسمود اللهو، والآية متفرعة على ما تقدم من البيان، والاستفهام للتوبيخ.

ب. والمعنى: إذا كان الله هو ربكم الذي ينتهي إليه كل أمر وعليه النشأة الأخرى وكانت القيامة

قريبة وليس لها من دون الله كاشفة كان عليكم أن تبكوا لما فرطتم في جنب الله، وتعرضتم للشقاء الدائم أفمن هذا البيان الذي يدعوكم إلى النجاة تعجبون إنكارا وتضحكون استهزاء ولا تبكون؟

٢. ﴿فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا﴾ تفريع آخر على ما تقدم من البيان والمعنى: إذا كان كذلك فعليكم أن تسجدوا لله وتعبدوه ليكشف عنكم ما ليس له من دونه كاشفة.

٣. أحاديث وآثار:

أ. في المجمع في قوله تعالى: ﴿أَفَمِنْ هذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ﴾ يعني بالحديث ما تقدم من الأخبار.

ب. أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية على النبي ﷺ ﴿أَفَمِنْ هذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ وَتَضْحَكُونَ وَلا تَبْكُونَ﴾ فما رئي النبي بعدها ضاحكا حتى ذهب من الدنيا.

سورة القمر

هذه السورة الكريمة تحتوي على [١٢] مقطعاً، وهذا تعريف بمقاصدها، ومحتويات مقاطعها:

مقاصد السورة ومحتوياتها:

أ. سورة ممحضة في الإنذار والتخويف، إلا آيتين من آخرها تبشران المتقين بالجنة والحضور عند ربهم.

ب. تبدأ السورة بالإشارة إلى آية شق القمر التي أتى بها رسول الله ﷺ عن اقتراح من قومه، وتذكر رميهم له بالسحر وتكذيبهم به واتباعهم الأهواء، مع ما جاءهم أنباء زاجرة من أنباء يوم القيامة وأنباء الأمم الماضين الهالكين.

ج. ثم يعيد تعالى عليهم نبذة من تلك الأنباء إعادة ساخط معاتب، فيذكر سيئ حالهم يوم القيامة عند خروجهم من الأجداث وحضورهم للحساب.

د. ثم تشير إلى قصص قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وآل فرعون، وما نزل بهم من أليم العذاب إثر تكذيبهم بالنذر، وليس قوم النبي ﷺ بأعز عند الله منهم، وما هم بمعجزين.

هـ. وتختتم السورة ببشرى للمتقين.

و. والسورة مكية بشهادة سياق آياتها، ولا يعبأ بما قيل: إنها نزلت ببدر، وكذا بما قيل: إن بعض آياتها مدنية.

ز. ومن غرر آياتها ما في آخرها من آيات القدر.

مقاطع السورة ونظمها:

١. الآيات [١ ـ ٨]:

أ. تبدأ السورة بالإشارة إلى آية شق القمر التي أتى بها رسول الله ﷺ عن اقتراح من قومه.

ب. وتذكر رميهم له بالسحر وتكذيبهم به واتباعهم الأهواء، مع ما جاءهم أنباء زاجرة من أنباء يوم القيامة وأنباء الأمم الماضين الهالكين.

ج. ثم يعيد تعالى عليهم نبذة من تلك الأنباء إعادة ساخط معاتب، فيذكر سيئ حالهم يوم القيامة

عند خروجهم من الأجداث وحضورهم للحساب.

٢. الآيات [٩ ـ ٤٢]:

أ. إشارة إلى بعض ما فيه مزدجر من أنباء الأمم الدارجة، خص بالذكر من بينهم قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وآل فرعون، فذكرهم بأنبائهم وأعاد عليهم إجمال ما قص عليهم سابقاً من قصصهم، وما آل إليه تكذيبهم بآيات الله ورسله من أليم العذاب وهائل العقاب، تقريراً لقوله: ﴿وَلَقَدْ جاءَهُمْ مِنَ الْأَنْباءِ ما فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾

ب. ولتوكيد التقرير وتمثيل ما في هذه القصص الزاجرة من الزجر القارع للقلوب، عقب كل واحدة من القصص بقوله خطاباً لهم: ﴿فَكَيْفَ كانَ عَذابِي وَنُذُرِ﴾، ثم ثناه بذكر الغرض من الإنذار والتخويف فقال: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾

٣. الآيات [٤٣ ـ ٥٥]:

أ. الآيات في معنى أخذ النتيجة مما أعيد ذكره من الأنباء التي فيها مزدجر، وهي نبأ الساعة المذكور أولاً، ثم أنباء الأمم الهالكة المذكورة ثانياً.

ب. فهي تنعطف أولاً على أنباء الأمم الهالكة، فتخاطب قوم النبي ﷺ أن كفاركم ليسوا خيراً من أولئك الأمم الطاغية الجبارة، وقد أهلكهم الله على أذل وجه وأهونه، ولا لكم براءة مكتوبة من عذاب الله، ولا أن جمعكم ينفعكم في الذب عن العقاب.

ج. ثم تنعطف إلى ما مر من نبأ الساعة، بأنها موعدهم الصعب أن أجرموا وكذبوا، والساعة أدهى وأمر.

د. ثم تشير إلى موطن المتقين يومئذ، وعند ذلك تختتم السورة.

١. اقتراب الساعة وانشقاق القمر وإعراض المكذبين:

المقطع [١] من سورة القمر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْواءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ﴾ [القمر: ١ـ٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ٥٥»:

١. ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ﴾ الاقتراب زيادة في القرب فقوله: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ﴾ أي قربت جدا،

والساعة هي الظرف الذي تقوم فيه القيامة.

٢. ﴿وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾:

أ. أي انفصل بعضه عن بعض فصار فرقتين شقتين تشير الآية إلى آية شق القمر التي أجراها الله تعالى على يد النبي ﷺ بمكة قبل الهجرة إثر سؤال المشركين من أهل مكة، وقد استفاضت الروايات على ذلك، واتفق أهل الحديث والمفسرون على قبولها كما قيل.

ب. ولم يخالف فيه منهم إلا الحسن وعطاء والبلخي حيث قالوا: معنى قوله: ﴿انْشَقَّ الْقَمَرُ﴾ سينشق القمر عند قيام الساعة وإنما عبر بلفظ الماضي لتحقق الوقوع.

• وهو مزيف مدفوع بدلالة الآية التالية ﴿وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ﴾ فإن سياقها أوضح شاهد على أن قوله: ﴿آيَةً﴾ مطلق شامل لانشقاق القمر فعند وقوعه إعراضهم وقولهم: سحر مستمر ومن المعلوم أن يوم القيامة يوم يظهر فيه الحقائق ويلجئون فيه إلى المعرفة، ولا معنى حينئذ لقولهم في آية ظاهرة: أنها سحر مستمر فليس إلا أنها آية قد وقعت للدلالة على الحق والصدق وتأتي لهم أن يرموها عنادا بأنها سحر.

ج. ومثله في السقوط ما قيل: إن الآية إشارة إلى ما ذهب إليه الرياضيون أخيرا أن القمر قطعة من الأرض كما أن الأرض جزء منفصل من الشمس فقوله: ﴿وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾ إشارة إلى حقيقة علمية لم ينكشف يوم النزول بعد.

• وذلك أن هذه النظرية على تقدير صحتها لا يلائمها قوله: ﴿وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ﴾ إذ لم ينقل عن أحد أنه قال للقمر: هو سحر مستمر.

• على أن انفصال القمر عن الأرض اشتقاق والذي في الآية الكريمة انشقاق، ولا يطلق الانشقاق إلا على تقطع الشيء في نفسه قطعتين دون انفصاله من شيء بعد ما كان جزء منه.

د. ومثله في السقوط ما قيل: إن معنى انشقاق القمر انكشاف الظلمة عند طلوعه وكذا ما قيل: إن انشقاق القمر كناية عن ظهور الأمر ووضوح الحق.

هـ. والآية لا تخلو من إشعار بأن انشقاق القمر من لوازم اقتراب الساعة.

٣. ﴿وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ﴾:

أ. الاستمرار من الشيء مرور منه بعد مرور مرة بعد مرة، ولذا يطلق على الدوام والاطراد فقولهم: سحر مستمر أي سحر بعد سحر مداوما.

ب. ﴿آيَةً﴾ نكرة في سياق الشرط فتفيد العموم، والمعنى وكل آية يشاهدونها يقولون فيها أنها سحر بعد سحر، وفسر بعضهم المستمر بالمحكم الموثق، وبعضهم بالذاهب الزائل، وبعضهم بالمستبشع المنفور، وهي معان بعيدة.

٤. ﴿وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ﴾:

أ. متعلق التكذيب بقرينة ذيل الآية هو النبي ﷺ وما أتى به من الآيات أي وكذبوا بالنبي ﷺ وما أتى به من الآيات والحال أن كل أمر مستقر سيستقر في مستقره فيعلم أنه حق أو باطل وصدق أو كذب فسيعلمون أن النبي ﷺ صادق أو كاذب، على الحق أو لا فقوله: ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ﴾ في معنى قوله: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾ [ص: ٨٨]

ب. وقيل متعلق التكذيب انشقاق القمر والمعنى: وكذبوا بانشقاق القمر واتبعوا أهواءهم، وجملة ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ﴾ لا تلائمه تلك الملاءمة.

٥. وضع هنا مبحثا حول [تحقيق معنى آية انشقاق القمر وبيان دلالتها على وقوع المعجزة]، خلاصته:

أ. بيان أن آية انشقاق القمر دلت على وقوع المعجزة باقتراح من المشركين، وأن القرآن والسنة يدلان عليها، وأن وقوعها ممكن عقلاً وجائز شرعاً.

ب. الرد على الاعتراض بأن إرسال الآيات الاقتراحية منفي بقوله: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ﴾، وبيان أن النفي خاص بالآيات التي تستعقب العذاب الفوري، لا بالآيات المعجزة المؤيدة للرسالة.

ج. توضيح أن المانع من نزول العذاب هو وجود النبي ﷺ فيهم، فإذا زال المانع بهجرته، نزل العذاب على من كذب بالآية يوم بدر.

د. بيان أن آية انشقاق القمر من الآيات الاقتراحية التي لم تستعقب عذاباً فورياً، بل أخر العذاب إلى يوم بدر، لأن الله لا يعذب قوماً وفيهم نبي وفيهم مؤمنون.

هـ. الرد على الاعتراض بأن الانشقاق كان ينبغي أن يراه جميع الناس، وبيان أن عدم وروده في التواريخ لا يدل على عدم وقوعه، وأن المراصد لم تكن منتشرة في الحجاز.

و. الرد على الاعتراض بأن الانشقاق يستحيل الالتيام بعده، وبيان أن ذلك استحالة عادية لا عقلية، وجواز خرق العادة ثابت بالقرآن.

٦. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ﴾ قال: اقتربت القيامة، فلا يكون بعد رسول الله ﷺ إلا القيامة، وقد انقضت النبوة والرسالة، ﴿وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾ فإن قريشا سألت رسول الله ﷺ أن يريهم آية، فدعا الله فانشق القمر نصفين حتى نظروا إليه ثم التأم، فقالوا: هذا سحر مستمر أي صحيح.

ب. وفي أمالي الشيخ، بإسناده عن عبيد الله بن علي عن الرضا عن آبائه عن علي عليه السلام قال: انشق القمر بمكة فلقتين، فقال رسول الله ﷺ: اشهدوا اشهدوا.

• أقول: ورد انشقاق القمر لرسول الله ﷺ في روايات الشيعة عن أئمة أهل البيت عليه السلام كثيرا وقد تسلمه محدثوهم والعلماء من غير توقف.

ج. أخرج عبد الرزاق وأحمد وعبد بن حميد ومسلم وابن جرير وابن المنذر والترمذي وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن أنس قال: سأل أهل مكة النبي ﷺ آية فانشق القمر بمكة فرقتين، فنزلت ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾ إلى قوله: ﴿سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ﴾ أي ذاهب.

د. أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقي وكلاهما في الدلائل من طريق مسروق عن ابن مسعود قال: انشق القمر على عهد النبي ﷺ فقال قريش: هذا سحر ابن أبي كبشة فقالوا: انتظروا ما يأتيكم به السفار فإن محمدا لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم فجاء السفار فسألوهم فقالوا: نعم قد رأيناه فأنزل الله ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾

هـ. أخرج مسلم والترمذي وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه والحاكم والبيهقي وأبو نعيم في الدلائل من طريق مجاهد عن ابن عمر: في قوله: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾ قال: كان ذلك على عهد رسول الله ﷺ، انشق فرقتين: فرقة من دون الجبل وفرقة خلفه، فقال النبي ﷺ: اللهم اشهد.

و. أخرج أحمد وعبد بن حميد والترمذي وابن جرير والحاكم وأبو نعيم والبيهقي عن جبير بن

مطعم: في قوله: ﴿وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾ قال: انشق القمر ونحن بمكة على عهد رسول الله ﷺ حتى صار فرقتين: فرقة على هذا الجبل وفرقة على هذا الجبل فقال الناس: سحرنا محمد فقال رجل: إن كان سحركم فإنه لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم.

ز. وفيه أخرج ابن جرير وابن مردويه وأبو نعيم في الدلائل عن ابن عباس في قوله: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾ قال: قد مضى ذلك قبل الهجرة انشق القمر حتى رأوا شقيه.

ح. وفيه أخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وعبد الله بن أحمد في زوائد الزهد وابن جرير وابن مردويه وأبو نعيم عن أبي عبد الرحمن السلمي قال: خطبنا حذيفة بن اليمان بالمدائن فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: اقتربت الساعة وانشق القمر، ألا وإن الساعة قد اقتربت، ألا وإن القمر قد انشق على عهد رسول الله ﷺ، ألا وإن الدنيا قد آذنت بفراق، ألا وإن اليوم المضمار وغدا السباق.

• أقول: وقد روي انشقاق القمر بدعاء النبي ﷺ بطرق مختلفة كثيرة عن هؤلاء النفر من الصحابة وهم أنس، وعبد الله بن مسعود، وابن عمر، وجبير بن مطعم، وابن عباس، وحذيفة بن اليمان، وعد في روح المعاني ممن روي عنه الحديث من الصحابة عليا عليه السلام ثم نقل عن السيد الشريف في شرح المواقف وعن ابن السبكي في شرح المختصر أن الحديث متواتر لا يمترى في تواتره، هذه حال الحديث عند أهل السنة وقد عرفت حاله عند الشيعة.

٢. وصول الأنباء المشتملة على الزجر والحكمة البالغة:

المقطع [٢] من سورة القمر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ﴾ [القمر: ٤ـ٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ٥٦»:

١. ﴿لَقَدْ جاءَهُمْ مِنَ الْأَنْباءِ ما فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾ المزدجر مصدر ميمي وهو الاتعاظ، وقوله: ﴿مِنَ الْأَنْباءِ﴾ بيان لما فيه مزدجر، والمراد بالأنباء أخبار الأمم الدارجة الهالكة أو أخبار يوم القيامة وقد احتمل كل منهما، والظاهر من تعقيب الآية بأنباء يوم القيامة ثم بأنباء عدة من الأمم الهالكة أن المراد بالأنباء التي فيها مزدجر جميع ذلك.

٢. ﴿حِكْمَةٌ بالِغَةٌ فَما تُغْنِ النُّذُرُ﴾ الحكمة كلمة الحق التي ينتفع بها، والبلوغ وصول الشيء إلى ما تنتهي إليه المسافة ويكنى به عن تمام الشيء وكماله فالحكمة البالغة هي الحكمة التامة الكاملة التي لا نقص

فيها من حيث نفسها ومن حيث أثرها.

٣. ﴿فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ﴾:

أ. الفاء فيه فصيحة تفصح عن جملة مقدرة تترتب عليها الكلام، والنذر جمع نذير بمعنى المنذر أو بمعنى الإنذار والكل صحيح وإن كان الأول أقرب إلى الفهم.

ب. والمعنى: هذا القرآن أو الذي يدعون إليه حكمة بالغة كذبوا بها واتبعوا أهواءهم فما تغني المنذرون أو الإنذارات؟

٣. يوم القيامة يوم عسير ووصف كيفية خروجهم:

المقطع [٣] من سورة القمر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ [القمر: ٦-٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ٥٧»:

١. ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ﴾ التولي الإعراض والفاء في ﴿فَتَوَلَ﴾ لتفريع الأمر بالتولي على ما تقدمه من وصف حالهم أي إذا كانوا مكذبين بك متبعين أهواءهم لا يغني فيهم النذر ولا تؤثر فيهم الزواجر فتول عنهم ولا تلح عليهم بالدعوة.

٢. ﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ﴾:

أ. قال الراغب: (الإنكار ضد العرفان يقال: أنكرت كذا ونكرت، وأصله أن يرد على القلب ما لا يتصوره، وذلك ضرب من الجهل قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ﴾، قال: والنكر الدهاء والأمر الصعب الذي لا يعرف)

ب. وقد تم الكلام في قوله: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ ببيان حالهم تجاه الحكمة البالغة التي ألقيت إليهم والزواجر التي ذكروا بها على سبيل الإنذار، ثم أعاد سبحانه نبذة من تلك الزواجر التي هي أنباء من حالهم يوم القيامة ومن عاقبة حال الأمم المكذبين من الماضين في لحن العتاب والتوبيخ الشديد الذي تهز قلوبهم للانتباه وتقطع منابت أعذارهم في الإعراض.

ج. فقوله: ﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ﴾، كلام مفصول عما قبله لذكر الزواجر التي أشير إليها سابقا في مقام الجواب عن سؤال مقدر كأنه لما قال: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ سئل فقيل: فإلى م يئول أمرهم؟ فقيل: ﴿يَوْمَ يَدْعُ﴾،

أي هذه حال آخرتهم وتلك عاقبة دنيا أشياعهم وأمثالهم من قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم، وليسوا خيرا منهم.

د. وعلى هذا فالظرف في ﴿يَوْمَ يَدْعُ﴾ متعلق بما سيأتي من قوله: ﴿يَخْرُجُونَ﴾ والمعنى: يخرجون من الأجداث يوم يدعو الداعي إلى شيء نكر، إلخ وإما متعلق بمحذوف، والتقدير اذكر يوم يدعو الداعي، والمحصل اذكر ذاك اليوم وحالهم فيه، والآية في معنى قوله: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ﴾ [الزخرف: ٦٦]، وقوله: ﴿فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ [يونس: ١٠٢]

هـ. ولم يسم سبحانه هذا الداعي من هو؟ وقد نسب الدعوة في موضع من كلامه إلى نفسه فقال: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: ٥٢]

و. وإنما أورد من أنباء القيامة نبأ دعوتهم للخروج من الأجداث والحضور لفصل القضاء وخروجهم منها خشعا أبصارهم مهطعين إلى الداعي ليحاذي به دعوتهم في الدنيا إلى الإيمان بالآيات وإعراضهم وقولهم: سحر مستمر.

ز. ومعنى الآية: اذكر يوم يدعو الداعي إلى أمر صعب عليهم وهو القضاء والجزاء.

٣. ﴿خُشَّعاً أَبْصارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْداثِ كَأَنَّهُمْ جَرادٌ مُنْتَشِرٌ﴾:

أ. الخشع جمع خاشع والخشوع نوع من الذلة ونسب إلى الأبصار لأن ظهوره فيها أتم.

ب. والأجداث جمع جدث وهو القبر، والجراد حيوان معروف، وتشبيههم في الخروج من القبور بالجراد المنتشر من حيث إن الجراد في انتشاره يدخل البعض منه في البعض ويختلط البعض بالبعض في جهات مختلفة فكذلك هؤلاء في خروجهم من القبور، قال تعالى: ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْداثِ سِراعاً كَأَنَّهُمْ إِلى نُصُبٍ يُوفِضُونَ خاشِعَةً أَبْصارُهُمْ﴾ [المعارج: ٤٤]

٤. ﴿مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكافِرُونَ هذا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ أي حال كونهم مسرعين إلى الداعي مطيعين مستجيبين دعوته يقول الكافرون: هذا يوم عسر أي صعب شديد.

٤. قصة نوح ودعوته وإهلاك قومه بالطوفان:

المقطع [٤] من سورة القمر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا

فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ [القمر: ٩-١٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ٦٥»:

١. ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ﴾:

أ. التكذيب الأول منزل منزلة اللازم أي فعلت التكذيب، وقوله: ﴿فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا﴾، تفسيره كما في قوله: ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ﴾ الخ، [هود: ٤٥]

ب. وقيل: المراد بالتكذيب الأول التكذيب المطلق وهو تكذيبهم بالرسل وبالثاني التكذيب بنوح خاصة كقوله في سورة الشعراء: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٥]، والمعنى: كذبت قوم نوح المرسلين فترتب عليه تكذيبهم لنوح، وهو وجه حسن.

ج. وقيل: المراد بتفريع التكذب على التكذيب الإشارة إلى كونه تكذيبا إثر تكذيب بطول زمان دعوته فكلما انقرض قرن منهم مكذب جاء بعدهم قرن آخر مكذب، وهو معنى بعيد.

د. ومثله قول بعضهم: إن المراد بالتكذيب الأول قصده وبالثاني فعله.

٢. ﴿فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا﴾ في التعبير عن نوح عليه السلام بقوله: ﴿عَبْدَنَا﴾ في مثل المقام تجليل لمقامه وتعظيم لأمره وإشارة إلى أن تكذيبهم له يرجع إليه تعالى لأنه عبد لا يملك شيئا وما له فهو لله.

٣. ﴿وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ﴾:

أ. المراد بالازدجار زجر الجن له أثر الجنون، والمعنى: ولم يقتصروا على مجرد التكذيب بل نسبوه إلى الجنون فقالوا هو مجنون وازدجره الجن فلا يتكلم إلا عن زجر وليس كلامه من الوحي السماوي في شيء.

ب. وقيل: الفاعل المحذوف للازدجار هو القوم، والمعنى: وازدجره القوم عن الدعوة والتبليغ بأنواع الإيذاء والتخويف، ولعل المعنى الأول أظهر.

٤. ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ﴾ الانتصار الانتقام، وقوله: ﴿أَنِّي مَغْلُوبٌ﴾ أي بالقهر والتحكم دون الحجة، وهذا الدعاء تلخيص لتفصيل دعائه، وتفصيل دعائه مذكور في سورة نوح وتفصيل حججه في سورة هود وغيرها.

٥. ﴿فَفَتَحْنا أَبْوابَ السَّماءِ بِماءٍ مُنْهَمِرٍ﴾ قال في المجمع: (الهمر صب الدمع والماء بشدة، والانهمار الانصباب)، وفتح أبواب السماء وهي الجو بماء منصب استعارة تمثيلية عن شدة انصباب الماء وجريان المطر متواليا كأنه مدخر وراء باب مسدود يمنع عن انصبابه ففتح الباب فانصب أشد ما يكون.

٦. ﴿وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُوناً فَالْتَقَى الْماءُ عَلى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾:

أ. قال في المجمع: (التفجير تشقيق الأرض عن الماء، والعيون جمع عين الماء وهو ما يفور من الأرض مستديرا كاستدارة عين الحيوان)

ب. والمعنى: جعلنا الأرض عيونا منفجرة عن الماء تجري جريانا متوافقا متتابعا.

٧. ﴿فَالْتَقَى الْماءُ عَلى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾:

أ. أي فالتقى الماءان ماء السماء وماء الأرض مستقرا على أمر قدره الله تعالى أي حسب ما قدر من غير نقيصة ولا زيادة ولا عجل ولا مهل.

ب. فالماء اسم جنس أريد به ماء السماء وماء الأرض ولذلك لم يثن، والمراد بأمر قد قدر الصفة التي قدرها الله لهذا الطوفان.

٨. ﴿وَحَمَلْناهُ عَلى ذاتِ أَلْواحٍ وَدُسُرٍ﴾ المراد بذات الألواح والدسر السفينة، والألواح جمع لوح وهو الخشبة التي يركب بعضها على بعض في السفينة، والدسر جمع دسار ودسر وهو المسمار الذي تشد بها الألواح في السفينة، وقيل فيه معان أخر لا تلائم الآية تلك الملاءمة.

٩. ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنا جَزاءً لِمَنْ كانَ كُفِرَ﴾ أي تجري السفينة على الماء المحيط بالأرض بأنواع من مراقبتنا وحفظنا وحراستنا، وقيل: المراد تجري بأعين أوليائنا ومن وكلناه بها من الملائكة.

١٠. ﴿جَزاءً لِمَنْ كانَ كُفِرَ﴾ أي جريان السفينة كذلك وفيه نجاة من فيها من الهلاك ليكون جزاء لمن كان كفر به وهو نوح عليه السلام كفر به وبدعوته قومه، فالآية في معنى ﴿وَنَجَّيْناهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾، إلى أن قال: ﴿إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [الصافات: ٨٠]

١١. ﴿وَلَقَدْ تَرَكْناها آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾:

أ. ضمير ﴿تَرَكْناها﴾ للسفينة على ما يفيده السياق واللام للقسم، والمعنى: أقسم لقد أبقينا تلك السفينة التي نجينا بها نوحا والذين معه، وجعلناها آية يعتبر بها من اعتبر فهل من متذكر يتذكر بها وحدانيته

تعالى وأن دعوة أنبيائه حق، وأن أخذه أليم شديد؟ ولازم هذا المعنى بقاء السفينة إلى حين نزول هذه الآيات علامة دالة على واقعة الطوفان مذكرة لها، وقد قال بعضهم في تفسير الآية على ما نقل: أبقى الله سفينة نوح على الجودي حتى أدركها أوائل هذه الأمة)

ب. وقد أوردنا في تفسير سورة هود في آخر الأبحاث حول قصة نوح خبر أنهم عثروا في بعض قلل جبل آراراط وهو الجودي قطعات أخشاب من سفينة متلاشية وقعت هناك، فراجع.

ج. وقيل: ضمير ﴿تَرَكْناها﴾ لما مر من القصة بما أنها فعله.

١٢. ﴿فَكَيْفَ كانَ عَذابِي وَنُذُرِ﴾:

أ. النذر جمع نذير بمعنى الإنذار، وقيل: مصدر بمعنى الإنذار، والظاهر أن ﴿كانَ﴾ ناقصة واسمها ﴿عَذابِي﴾ وخبرها ﴿فَكَيْفَ﴾، ويمكن أن تكون تامة فاعلها قوله: ﴿عَذابِي﴾ وقوله: ﴿فَكَيْفَ﴾ حالا منه.

ب. وكيف كان فالاستفهام للتهويل يسجل به شدة العذاب وصدق الإنذار.

١٣. ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾:

أ. التيسير التسهيل وتيسير القرآن للذكر هو إلقاؤه على نحو يسهل فهم مقاصده للعامي والخاصي والأفهام البسيطة والمتعمقة كل على مقدار فهمه.

ب. ويمكن أن يراد به تنزيل حقائقه العالية ومقاصده المرتفعة عن أفق الأفهام العادية إلى مرحلة التكليم العربي تناله عامة الأفهام كما يستفاد من قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتابِ لَدَيْنا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [الزخرف: ٤]

ج. والمراد بالذكر ذكره تعالى بأسمائه أو صفاته أو أفعاله، قال في المفردات: (الذكر تارة يقال ويراد به هيئة للنفس بها يمكن للإنسان أن يحفظ ما يقتنيه من المعرفة وهو كالحفظ إلا أن الحفظ يقال اعتبارا بإحرازه، والذكر يقال اعتبارا باستحضاره وتارة يقال لحضور الشيء القلب أو القول، ولذلك قيل: الذكر ذكران: ذكر بالقلب وذكر باللسان وكل واحد منهما ضربان: ذكر عن نسيان وذكر لا عن نسيان بل عن إدامة الحفظ، وكل قول يقال له ذكر)

د. ومعنى الآية: وأقسم لقد سهلنا القرآن لأن يتذكر به، فيذكر الله تعالى وشئونه، فهل من متذكر

يتذكر به فيؤمن بالله ويدين بما يدعو إليه من الدين الحق؟

هـ. فالآية دعوة عامة إلى التذكر بالقرآن بعد تسجيل صدق الإنذار وشدة العذاب الذي أنذر به.

١٤. أحاديث وآثار: في تفسير القمي في قوله: ﴿فَفَتَحْنا أَبْوابَ السَّماءِ بِماءٍ مُنْهَمِرٍ﴾ قال: صب بلا قطر ﴿وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُوناً فَالْتَقَى الْماءُ﴾ قال: ماء السماء وماء الأرض ﴿عَلى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ وَحَمَلْناهُ﴾ يعني نوحا ﴿عَلى ذاتِ أَلْواحٍ وَدُسُرٍ﴾ قال: الألواح السفينة والدسر المسامير.

٥. قصة عاد وهلاكهم في يوم نحس مستمر:

المقطع [٥] من سورة القمر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٨-٢٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ٧٠»:

١. ﴿كَذَّبَتْ عادٌ فَكَيْفَ كانَ عَذابِي وَنُذُرِ﴾ شروع في قصة أخرى من القصص التي فيها الازدجار ولم يعطف على ما قبلها، ومثلها القصص الآتية، لأن كل واحدة من هذه القصص مستقلة كافية في الزجر والردع والعظة لو اتعظوا بها.

٢. ﴿فَكَيْفَ كانَ عَذابِي وَنُذُرِ﴾ مسوق لتوجيه قلوب السامعين إلى ما يلقى إليهم من كيفية العذاب الهائل بقوله: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنا﴾، وليس مسوقا للتهويل وتسجيل شدة العذاب وصدق الإنذار كسابقه وإلا لتكرر قوله بعد: ﴿فَكَيْفَ كانَ﴾، كذا قيل وهو وجه حسن.

٣. ﴿إِنَّا أَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ﴾:

أ. بيان لما استفهم عنه في قوله: ﴿فَكَيْفَ كانَ عَذابِي وَنُذُرِ﴾ والصرصر، على ما في المجمع: (الريح الشديدة الهبوب، والنحس بالفتح فالسكون مصدر كالنحوسة بمعنى الشؤم، و﴿﴿مُسْتَمِرٍّ﴾﴾ صفة لنحس، ومعنى إرسال الريح في يوم نحس مستمر إرسالها في يوم متلبس بالنحوسة والشأمة بالنسبة إليهم المستمرة عليهم لا يرجى فيه خير لهم ولا نجاة.

ب. والمراد باليوم قطعة من الزمان لا اليوم الذي يساوي سبع الأسبوع لقوله تعالى في موضع آخر من كلامه: ﴿فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي أَيَّامٍ نَحِساتٍ﴾ [فصلت: ١٦]، وفي موضع آخر: ﴿سَخَّرَها عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيالٍ وَثَمانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً﴾ [الحاقة: ٧]

ج. وفسر بعضهم النحس بالبرد.

٤. ﴿تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ﴾ فاعل ﴿تَنْزِعُ﴾ ضمير راجع إلى الريح أي تنزع الريح الناس من الأرض، وأعجاز النخل أسافله، والمنقعر المقلوع من أصله، والمعنى ظاهر، وفي الآية إشعار ببسطة القوم أجساما.

٥. ﴿فَكَيْفَ كانَ عَذابِي﴾، إلى قوله ﴿مُدَّكِرٍ﴾ تقدم تفسير الآيتين.

٦. وضع هنا مبحثا حول [سعادة الأيام ونحوستها والطيرة والفأل]، خلاصته:

أ. نحوسة اليوم أو الزمان هي أن لا يعقب الحوادث الواقعة فيه إلا الشر، وسعادته خلافه، ولا سبيل لإقامة برهان عقلي على سعادة يوم أو نحوستة، لأن الزمان متشابه الأجزاء، ولا إحاطة لنا بالعلل والأسباب المؤثرة، والتجربة الكافية غير متأتية، فالبعد لا يستلزم الاستحالة.

ب. في القرآن ذكر للنحوسة (كقوله: ﴿فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ﴾، و﴿فِي أَيَّامٍ نَحِساتٍ﴾) والسعادة (كقوله: ﴿فِي لَيْلَةٍ مُبارَكَةٍ﴾)، لكنها خاصة بزمان العذاب أو ليلة القدر التي تبارك بفضل العبادة ونزول الملائكة والروح.

ج. الروايات في سعد ونحس الأيام كثيرة، أكثرها ضعاف، وتعليل النحوسة بوقوع حوادث دينية (كرحلة النبي، وشهادة الحسين، وإلقاء إبراهيم في النار) يحمل على التقوى وتقوية الروح الدينية، والروايات تأمر بالصدقة والدعاء لدفع النحوسة.

د. الكلام في سعادة الكواكب ونحوستها من حيث النظر العقلي كالكلام في الأيام، فلا برهان على شيء من ذلك، لكن الارتباط بين الأوضاع السماوية والحوادث الأرضية لا يمكن إنكاره جملة، وإن كان لا بالجملة، والقول بتأثيرها لا يخالف الدين ما لم يقل باستقلالها أو ربوبيتها.

هـ. الروايات في النجوم على أقسام: منها ما يسلم السعادة والنحوسة (ويمكن حملها على التقية)، ومنها ما ينهى عن الاعتقاد بها (لئلا يؤدي إلى الشرك)، ومنها ما يقر بوجود علم النجوم لكن قليله لا ينفع وكثيره لا يدرك.

و. التفاؤل والتطير: التفاؤل استدلال بالخير وترقبه، والتطير استدلال بالشر، الإسلام أمر بالتفاؤل ونهى عن التطير، لأن تأثيرهما نفساني، والطيرة على ما تجعلها، فإن هونتها تهونت، وإن شددتها

تشددت، وكفارتها التوكل على الله.

٧. أحاديث وآثار:

أ. أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس: لولا أن الله يسره على لسان الآدميين، ما استطاع أحد من الخلق أن يتكلم بكلام الله تعالى.

ب. قال: وأخرج الديلمي مرفوعا عن أنس مثله، ثم قال: ولعل خبر أنس إن صح ليس تفسيرا للآية.

• أقول: وليس من البعيد أن يكون المراد المعنى الثاني الذي قدمناه في تفسير الآية.

٦. قصة ثمود وعقر الناقة وحلول الصيحة بهم:

المقطع [٦] من سورة القمر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ فَقَالُوا أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ [القمر: ٢٣-٣٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ٧٩»:

١. ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ﴾ النذر إما مصدر كما قيل والمعنى: كذبت ثمود بإنذار نبيهم صالح عليه السلام، وإما جمع نذير بمعنى المنذر، والمعنى: كذبت ثمود بالأنبياء لأن تكذيبهم بالواحد منهم تكذيب منهم بالجميع لأن رسالتهم واحدة لا اختلاف فيها فيكون في معنى قوله: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٤١]، وإما جمع نذير بمعنى الإنذار ومرجعه إلى أحد المعنيين السابقين.

٢. ﴿فَقالُوا أَبَشَراً مِنَّا واحِداً نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذاً لَفِي ضَلالٍ وَسُعُرٍ﴾:

أ. تفريع على التكذيب والسعر جمع سعير بمعنى النار المشتعلة، واحتمل أن يكون بمعنى الجنون وهو أنسب للسياق، والظاهر أن المراد بالواحد الواحد العددي، والمعنى: كذبوا به فقالوا: أبشرا من نوعنا وهو شخص واحد لا عدة له ولا جموع معه نتبعه إنا إذا مستقرون في ضلال عجيب وجنون.

ب. فيكون هذا القول توجيها منهم لعدم اتباعهم لصالح لفقده العدة والقوة وهم قد اعتادوا على

اتباع من عنده ذلك كالملوك والعظماء وقد كان صالح عليه السلام يدعوهم إلى طاعة نفسه ورفض طاعة عظمائهم كما يحكيه الله سبحانه عنه بقوله: ﴿فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ وَلا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الشعراء: ١٥١]

ج. ولو أخذ الواحد واحدا نوعيا كان المعنى: أبشرا هو واحد منا أي هو مثلنا ومن نوعنا نتبعه؟ وكانت الآية التالية مفسرة لها.

٣. ﴿أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنا بَلْ هُوَ كَذّابٌ أَشِرٌ﴾:

أ. الاستفهام كسابقه للإنكار والمعنى: أأنزل الوحي عليه واختص به من بيننا ولا فضل له علينا؟ لا يكون ذلك أبدا، والتعبير بالإلقاء دون الإنزال ونحوه للإشعار بالعجلة كما قيل.

ب. ومن المحتمل أن يكون المراد نفي أن يختص بإلقاء الذكر من بينهم وهو بشر مثلهم فلو كان الوحي حقا وجاز أن ينزل على البشر لنزل على البشر كلهم فما باله اختص بها من شأنه أن يرزقه الجميع؟ فتكون الآية في معنى قولهم له كما في سورة الشعراء: ﴿ما أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنا﴾ [الشعراء: ١٥٤]

٤. ﴿بَلْ هُوَ كَذّابٌ أَشِرٌ﴾ أي شديد البطر متكبر يريد أن يتعظم علينا بهذا الطريق.

٥. ﴿سَيَعْلَمُونَ غَداً مَنِ الْكَذّابُ الْأَشِرُ﴾:

أ. حكاية قوله سبحانه لصالح عليه السلام كالآيتين بعدها.

ب. والمراد بالغد العاقبة من قولهم: إن مع اليوم غدا، يشير سبحانه به إلى ما سينزل عليهم من العذاب فيعلمون عند ذلك علم عيان من هو الكذاب الأشر صالح أو هم؟

٦. ﴿إِنّا مُرْسِلُوا النّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ﴾ في مقام التعليل لما أخبر من أنهم سينزل عليهم العذاب والمفاد أنهم سينزل عليهم العذاب لأنا فاعلون كذا وكذا، والفتنة الامتحان والابتلاء، والمعنى: أنا مرسلون، على طريق الإعجاز، الناقة التي يسألونها امتحانا لهم فانتظرهم واصبر على أذاهم.

٧. ﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْماءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ﴾ ضمير الجمع الأول للقوم والثاني للقوم والناقة على سبيل التغليب، والقسمة بمعنى المقسوم، والشرب النصيب من شرب الماء، والمعنى: وخبرهم بعد إرسال الناقة أن الماء مقسوم بين القوم وبين الناقة كل نصيب من الشرب يحضر عنده صاحبه فيحضر القوم عند شربهم والناقة عند شربها قال تعالى: ﴿قالَ هذِهِ ناقَةٌ لَها شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾

[الشعراء: ١٥٥]

٨. ﴿فَنادَوْا صاحِبَهُمْ فَتَعاطى فَعَقَرَ﴾ المراد بصاحبهم عاقر الناقة، والتعاطي التناول والمعنى: فنادى القوم عاقر الناقة لعقرها فتناول عقرها فعقرها وقتلها.

٩. ﴿فَكَيْفَ كانَ عَذابِي وَنُذُرِ إِنَّا أَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً واحِدَةً فَكانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ﴾ المحتظر صاحب الحظيرة وهي كالحائط يعمل ليجعل فيه الماشية، وهشيم المحتظر الشجر اليابس ونحوه يجمعه صاحب الحظيرة لماشيته، والمعنى ظاهر.

١٠. ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا﴾ تقدم تفسيره.

١١. أحاديث وآثار: في تفسير القمي: في قوله تعالى: ﴿فَنادَوْا صاحِبَهُمْ﴾ قال: قدار الذي عقر الناقة، وقوله: ﴿كَهَشِيمِ﴾ قال: الحشيش والنبات.

٧. قصة لوط وإنجاء أهله وحلول العذاب بالباقين:

المقطع [٧] من سورة القمر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ﴾ [القمر: ٣٣-٤٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ٨١»:

١. ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ﴾ تقدم تفسيره في نظيره.

٢. ﴿إِنَّا أَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ حاصِباً إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْناهُمْ بِسَحَرٍ﴾:

أ. الحاصب الريح التي تأتي بالحجارة والحصباء، والمراد بها الريح التي أرسلت فرمتهم بسجيل منضود.

ب. وقال في مجمع البيان: (سحر إذا كان نكرة يراد به سحر من الأسحار يقال: رأيت زيدا سحرا من الأسحار فإذا أردت سحر يومك قلت: أتيته بسحر، بالفتح، وأتيته سحر، من غير تنوين)، والمعنى ظاهر.

٣. ﴿نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنا كَذلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ﴾ ﴿نِعْمَةً﴾ مفعول له من ﴿نَجَّيْناهُمْ﴾ أي نجيناهم

ليكون نعمة من عندنا نخصهم بها لأنهم كانوا شاكرين لنا وجزاء الشكر لنا النجاة.

٤. ﴿وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنا فَتَمارَوْا بِالنُّذُرِ﴾ ضمير الفاعل في ﴿أَنْذَرَهُمْ﴾ للوط عليه السلام، والبطشة الأخذة الشديدة بالعذاب، والتماري الإصرار على الجدال وإلقاء الشك، والنذر الإنذار، والمعنى: أقسم لقد خوفهم لوط أخذنا الشديد فجادلوا في إنذاره وتخويفه.

٥. ﴿وَلَقَدْ راوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذابِي وَنُذُرِ﴾ مراودته عن ضيفه طلبهم منه أن يسلم إليهم أضيافه وهم الملائكة، وطمس أعينهم محوها، وقوله: ﴿فَذُوقُوا عَذابِي وَنُذُرِ﴾ التفات إلى خطابهم تشديدا وتقريعا، والنذر مصدر أريد به ما يتعلق به الإنذار وهو العذاب، والمعنى ظاهر.

٦. ﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذابٌ مُسْتَقِرٌّ﴾ قال في مجمع البيان: (وقوله: ﴿بُكْرَةً﴾ ظرف زمان فإذا كان معرفة بأن تريد بكرة يومك تقول: أتيته بكرة وغدوة لم تصرفها فبكرة هنا، وقد نون، نكرة، والمراد باستقرار العذاب حلوله بهم وعدم تخلفه عنهم.

٧. ﴿فَذُوقُوا عَذابِي﴾، إلى قوله: ﴿مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ تقدم تفسيره.

٨. ﴿وَلَقَدْ جاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ كَذَّبُوا بِآياتِنا كُلِّها فَأَخَذْناهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ﴾ المراد بالنذر الإنذار، وقوله: ﴿كَذَّبُوا بِآياتِنا﴾ مفصول من غير عطف لكونه جوابا لسؤال مقدر كأنه لما قيل: ﴿وَلَقَدْ جاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ﴾ قيل: فما فعلوا؟ فأجيب بقوله: ﴿كَذَّبُوا بِآياتِنا﴾، وفرع عليه قوله: ﴿فَأَخَذْناهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ﴾

٩. أحاديث وآثار: في الكافي بإسناده عن أبي يزيد عن أبي عبد الله عليه السلام في حديث يذكر فيه قصة قوم لوط قال: فكابروه يعني لوطا حتى دخلوا البيت فصاح به جبرئيل فقال: يا لوط دعهم فلما دخلوا أهوى جبرئيل بإصبعه نحوهم فذهبت أعينهم وهو قول الله عز وجل: ﴿فَطَمَسْنا أَعْيُنَهُمْ﴾

٨. توبيخ كفار مكة وتوعدهم بالهزيمة:

المقطع [٨] من سورة القمر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَراءَةٌ فِي الزُّبُرِ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ [القمر: ٤٣-٤٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ٨٣»:

١. ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَراءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾:

أ. الظاهر أنه خطاب لقوم النبي ﷺ من مسلم وكافر على ما تشعر به الإضافة في ﴿كُفَّارُكُمْ﴾ والخيرية هي الخيرية في زينة الدنيا وزخارف حياتها كالمال والبنين أو من جهة الأخلاق العامة في مجتمعهم كالسخاء والشجاعة والشفقة على الضعفاء، والإشارة بأولئكم إلى الأقوام المذكورة أنباؤهم: قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وآل فرعون، والاستفهام للإنكار.

ب. والمعنى: ليس الذين كفروا منكم خيرا من أولئكم الأمم المهلكين المعذبين حتى يشملهم العذاب دونكم.

ج. ويمكن أن يكون خطاب ﴿أَكُفَّارُكُمْ﴾ لخصوص الكفار بعناية أنهم قوم النبي ﷺ وفيهم كفار وهم هم.

٢. ﴿أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾ ظاهره أيضا عموم الخطاب، والزبر جمع زبور وهو الكتاب، وقد ذكروا أن المراد بالزبر الكتب السماوية المنزلة على الأنبياء، والمعنى: بل ألكم براءة في الكتب السماوية التي نزلت من عند الله أنكم في أمن من العذاب والمؤاخذة وإن كفرتم وأجرمتم واقترفتم ما شئتم من الذنوب.

٣. ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ﴾ الجميع المجموع والمراد به وحدة مجتمعهم من حيث الإرادة والعمل، والانتصار الانتقام أو التناصر كما في خطابات يوم القيامة: ﴿ما لَكُمْ لا تَناصَرُونَ﴾ [الصافات: ٢٥]، والمعنى: بل أيقولون أي الكفار نحن قوم مجتمعون متحدون ننتقم ممن أرادنا بسوء أو ينصر بعضنا بعضا فلا ننهزم.

٤. ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾:

أ. اللام في ﴿الْجَمْعُ﴾ للعهد الذكري وفي ﴿الدُّبُرَ﴾ للجنس، وتولي الدبر الإدبار، والمعنى: سيهزم الجمع الذي يتبجحون به ويولون الأدبار ويفرون.

ب. وفي الآية إخبار عن مغلوبية وانهزام لجمعهم، ودلالة على أن هذه المغلوبية انهزام منهم في حرب سيقدمون عليها، وقد وقع ذلك في غزاة بدر، وهذا من ملاحم القرآن الكريم.

٩. تأكيد أن الساعة موعدهم وعذابها أدهى وأمر:

المقطع [٩] من سورة القمر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ

بِقَدَرٍ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [القمر: ٤٦ـ٥٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ٨٤»:

١. ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهى وَأَمَرُّ﴾:

أ. ﴿أَدْهى﴾ اسم تفضيل من الدهاء وهو عظم البلية المنكرة التي ليس إلى التخلص منها سبيل، و﴿أَمَرُّ﴾ اسم تفضيل من المرارة ضد الحلاوة، وفي الآية إضراب عن إيعادهم بالانهزام والعذاب الدنيوي إلى إيعادهم بما سيجري عليهم في الساعة وقد أشير إلى نبئها في أول الأنباء الزاجرة، والكلام يفيد الترقي.

ب. والمعنى: وليس الانهزام والعذاب الدنيوي مقام عقوبتهم بل الساعة التي أشرنا إلى نبئها هي موعدهم والساعة أدهى من كل داهية وأمر من كل مر.

٢. ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلالٍ وَسُعُرٍ﴾ جمع سعير وهي النار المسعرة وفي الآية تعليل لما قبلها من قوله: ﴿وَالسَّاعَةُ أَدْهى وَأَمَرُّ﴾، والمعنى: إنما كانت الساعة أدهى وأمر لهم لأنهم مجرمون والمجرمون في ضلال عن موطن السعادة وهو الجنة ونيران مسعرة.

٣. ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾:

أ. السحب جر الإنسان على وجهه، و﴿يَوْمَ﴾ ظرف لقوله: ﴿فِي ضَلالٍ وَسُعُرٍ﴾، و﴿سَقَرَ﴾ من أسماء جهنم ومسها هو إصابتها لهم بحرها وعذابها.

ب. والمعنى: كونهم في ضلال وسعر في يوم يجرون في النار على وجوههم يقال لهم: ذوقوا ما تصيبكم جهنم بحرها وعذابها.

٤. ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْناهُ بِقَدَرٍ﴾ لأهمية ما أورده في تفسير الآية الكريمة، ولعلاقتها بالكثير من المباحث، فقد وضعنا ما ذكره في تفسيرها المفصل ضمن الجزء الخاص بالبحوث التفسيرية، وقد عنوناه بـ [تحقيق معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْناهُ بِقَدَرٍ﴾ وبيان دلالته على نظام الخلق والقدر]، خلاصته:

أ. بيان أن الآية تدل على أن كل شيء مخلوق بمقدار محدد، وأن القدر هو الحد الذي لا يتعداه الشيء في خلقه ووجوده.

ب. إثبات أن الآية في مقام التعليل لعذاب المجرمين يوم القيامة، وأن التعليل الإلهي يختلف عن التعليل البشري، لأن أفعال الله هي نفس الوجود العيني، والأصول العقلية منتزعة عنها لا حاكمة عليها.

ج. توضيح أن تعليل أفعال الله في القرآن يأتي على ثلاثة أوجه: تعليل بغايات تعود إلى الخلق،

وتعليل بصفات الله الفعلية، وتعليل بفعل عام يشمل الخاص.

د. الرد على من زعم أن تعليل العذاب بالقدر مصادرة، وبيان أن التعليل في الآية هو تعليل الفعل الخاص ﴿الْعَذَابَ﴾ بالفعل العام ﴿الْقَدْرِ﴾، وأن القدر هو النظام المحكم الذي جعل الله فيه لكل شيء حده وغايته.

هـ. توضيح أن السؤال عن فعل الله بمعنى طلب السبب الخارجي غير جائز، لأن الله لا سبب دونه يعينه في فعله، وإنما السؤال الجائز هو عن الحكمة والغاية التي تعود إلى الخلق.

٥. وضع هنا مبحثا حول [تحقيق معنى القدر والخلق والقضاء في ضوء القرآن والروايات]، خلاصته:

أ. بيان أن القدر هو هندسة الشيء وحد وجوده، وهو ملازم للإنزال من الخزائن الإلهية، وأن الخزائن نفسها غير مقدرة بهذا القدر.

ب. توضيح أن للتقدير مرتبتين: مرتبة تعم جميع الموجودات سوى الله وهي تحديد أصل الوجود بالإمكان والحاجة، ومرتبة تخص عالمنا المشهود وهي تحديد وجود الأشياء من حيث العرض والطول وسائر الخصوصيات.

ج. إثبات أن التقدير لا ينافي الاختيار، وأن الطريق الذي يسره الله للإنسان هو طريق اختياري، لا اضطراري.

د. بيان الفرق بين القدر والقضاء: فالقدر هو التقدير الذي قد لا يتخلف، والقضاء هو الحكم البتي الذي لا مرد له، وقد يجتمعان وقد يفترقان.

هـ. توضيح أن القدر في الموجودات المجردة (كالعقول والنفوس) والقضاء فيها واحد، ولا يتخلف القدر عن التحقق، بخلاف الموجودات المادية التي لها علل مركبة.

و. عرض الروايات الواردة في معنى القدر والقضاء، وبيان أن القدر هو التقدير من حيث الطول والعرض والهيئة، والقضاء هو الإمضاء الذي لا مرد له.

٦. ﴿وَما أَمْرُنا إِلَّا واحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾:

أ. قال في المجمع: (اللمح النظر بالعجلة وهو خطف البصر)

ب. والمراد بالأمر ما يقابل النهي لكنه الأمر التكويني بإرادة وجود الشيء، قال تعالى: ﴿إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢] فهو كلمة كن ولعله لكونه كلمة اعتبر الخبر مؤنثا فقيل: ﴿إِلَّا واحِدَةٌ﴾

ج. والذي يفيده السياق أن المراد بكون الأمر واحدة أنه لا يحتاج في مضيه وتحقق متعلقه إلى تعدد وتكرار بل أمر واحد بإلقاء كلمة كن يتحقق به المتعلق المراد كلمح بالبصر من غير تأن ومهل حتى يحتاج إلى الأمر ثانيا وثالثا.

د. وتشبيه الأمر من حيث تحقق متعلقه بلمح بالبصر لا لإفادة أن زمان تأثيره قصير كزمان تحقق اللمح بالبصر بل لإفادة أنه لا يحتاج في تأثيره إلى مضي زمان ولو كان قصيرا فإن التشبيه باللمح بالبصر في الكلام يكنى به عن ذلك، فأمره تعالى وهو إيجاده وإرادة وجوده لا يحتاج في تحققه إلى زمان ولا مكان ولا حركة كيف لا؟ ونفس الزمان والمكان والحركة إنما تحققت بأمره تعالى.

هـ. والآية وإن كانت بحسب مؤداها في نفسها تعطي حقيقة عامة في خلق الأشياء وأن وجودها من حيث إنه فعل الله سبحانه كلمح بالبصر وإن كان من حيث إنه وجود لشيء كذا تدريجيا حاصلا شيئا فشيئا، إلا أنها بحسب وقوعها في سياق إيعاد الكفار بعذاب يوم القيامة ناظرة إلى إتيان الساعة وأن أمرا واحدا منه تعالى يكفي في قيام الساعة وتجديد الخلق بالبعث والنشور فتكون متممة لما أقيم من الحجة بقوله: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْناهُ بِقَدَرٍ﴾

و. فيكون مفاد الآية الأولى أن عذابهم بالنار على وفق الحكمة ولا محيص عنه بحسب الإرادة الإلهية لأنه من القدر، ومفاد هذه الآية أن تحقق الساعة التي يعذبون فيها بمضي هذه الإرادة وتحقق متعلقها لا مئونة فيه عليه سبحانه لأنه يكفي فيه أمر واحد منه تعالى كلمح بالبصر.

٧. أحاديث وآثار:

أ. في كمال الدين، بإسناده إلى علي بن سالم عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سألته عن الرقى أتدفع من القدر شيئا؟ فقال: هي من القدر، وقال: إن القدرية مجوس هذه الأمة، وهم الذين أرادوا أن يصفوا الله بعدله، فأخرجوه من سلطانه وفيهم نزلت هذه الآية: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلى وُجُوهِهِمْ، ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْناهُ بِقَدَرٍ﴾

• أقول: المراد بالقدرية النافون للقدر وهم المعتزلة القائلون بالتفويض، وقوله: إنهم مجوس هذه الأمة ذلك لقولهم: إن خالق الأفعال الاختيارية هو الإنسان والله خالق لما وراء ذلك فأثبتوا إلهين اثنين كما أثبتت المجوس إلهين اثنين: خالق الخير وخالق الشر.

• وقوله: أرادوا أن يصفوا الله بعدله فأخرجوه من سلطانه، وذلك أنهم قالوا بخلق الإنسان لأفعاله فرارا عن القول بالجبر المنافي للعدل فأخرجوا الله من سلطانه على أعمال عباده بقطع نسبتها عنه تعالى.

• وقوله: وفيهم نزلت هذه الآية، المراد به جري الآيات فيهم دون كونهم سببا للنزول وموردا له لما عرفت في تفسير الآيات من كونها عامة بحسب السياق، وفي نزول الآيات فيهم روايات أخرى مروية عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليه السلام، ومن طرق أهل السنة أيضا روايات في هذا المعنى عن ابن عباس وابن عمر ومحمد بن كعب وغيرهم.

ب. أخرج أحمد عن حذيفة بن اليمان قال: قال رسول الله ﷺ: إن لكل أمة مجوسا، وإن مجوس هذه الأمة الذين يقولون: لا قدر، الخبر.

• أقول: ورواه في ثواب الأعمال، بإسناده عن الصادق عن آبائه عن علي عليه السلام ولفظه: لكل أمة مجوس، ومجوس هذه الأمة الذين يقولون: لا قدر.

١٠. تذكيرهم بإهلاك أشياعهم من الأمم السابقة:

المقطع [١٠] من سورة القمر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ [القمر: ٥١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ٨٨»:

أ. الأشياع جمع شيعة والمراد، كما قيل، الأشباه والأمثال في الكفر وتكذيب الأنبياء من الأمم الماضية.

ب. والمراد بالآية والآيتين بعدها تأكيد الحجة السابقة التي أقيمت على شمول العذاب لهم لا محالة.

ج. ومحصل المعنى: أن ليس ما أنذرناكم به من عذاب الدنيا وعذاب الساعة مجرد خبر أخبرناكم به ولا قول ألقيناه إليكم فهذه أشياعكم من الأمم الماضية شرع فيهم بذلك فقد أهلكناهم وهو عذابهم في الدنيا وسيلقون عذاب الآخرة فإن أعمالهم مكتوبة مضبوطة في كتب محفوظة عندنا سنحاسبهم بها

ونجازيهم بما عملوا.

١١. إحصاء كل شيء صغيره وكبيره في الزبر:

المقطع [١١] من سورة القمر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ﴾ [القمر: ٥٢-٥٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ٨٨»:

١. الزبر كتب الأعمال وتفسيره باللوح المحفوظ سخيف، والمراد بالصغير والكبير صغير الأعمال وكبيرها على ما يفيده السياق.

١٢. وصف نعيم المتقين في جنات ونهر عند ملك مقتدر:

المقطع [١٢] من سورة القمر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ﴾ [القمر: ٥٤-٥٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ٨٨»:

١. ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ﴾ أي في جنات عظيمة الشأن بالغة الوصف ونهر كذلك، قيل: المراد بالنهر الجنس، وقيل: النهر بمعنى السعة.

٢. ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ﴾:

أ. المقعد المجلس، المليك صيغة مبالغة للملك على ما قيل، وليس من إشباع كسر لام الملك، والمقتدر القادر العظيم القدرة وهو الله سبحانه.

ب. والمراد بالصدق صدق المتقين في إيمانهم وعملهم أضيف إليه المقعد لملابسة ما ويمكن أن يراد به كون مقامهم وما لهم فيه صدقا لا يشوبه كذب فلهم حضور لا غيبة معه، وقرب لا بعد معه، ونعمة لا نقمة معها، وسرور لا غم معه، وبقاء لا فناء معه.

ج. ويمكن أن يراد به صدق هذا الخبر من حيث إنه تبشير ووعد جميل للمتقين، وعلى هذا ففيه نوع مقابلة بين وصف عاقبة المتقين والمجرمين حيث أوعد المجرمون بالعذاب والضلال وقرر ذلك بأنه من القدر ولن يتخلف، ووعد المتقون بالثواب والحضور عند ربهم المليك المقتدر وقرر ذلك بأنه صدق لا كذب فيه.

٣. أحاديث وآثار:

أ. أخرج ابن مردويه بسند رواه عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: النهر الفضاء والسعة ليس

بنهر جار.

ب. أخرج أبو نعيم عن جابر قال: بينا رسول الله ﷺ يوما في مسجد المدينة فذكر بعض أصحابه الجنة فقال النبي ﷺ: يا أبا دجانة أما علمت أن من أحبنا وابتلي بمحبتنا أسكنه الله تعالى معنا؟ ثم تلا ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ﴾

ج. وفي روح المعاني في قوله: ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾ الآية، وقال جعفر الصادق رضي الله عنه: مدح المكان بالصدق فلا يقعد فيه إلا أهل الصدق.

سورة الرحمن

هذه السورة الكريمة تحتوي على [٢٢] مقطعاً، وهذا تعريف بمقاصدها، ومحتويات مقاطعها:

مقاصد السورة ومحتوياتها:

أ. تتضمن السورة الإشارة إلى خلقه تعالى العالم بأجزائه من سماء وأرض وبر وبحر وإنس وجن، ونظم أجزائه نظماً ينتفع به الثقلان الإنس والجن في حياتهما، وينقسم بذلك العالم إلى نشأتين: نشأة دنيا ستفنى بفناء أهلها، ونشأة أخرى باقية تتميز فيها السعادة من الشقاء والنعمة من النقمة.

ب. وبذلك يظهر أن دار الوجود من دنياها وآخرتها ذات نظام واحد مؤتلف الأجزاء مرتبط الأبعاض قويم الأركان، يصلح بعضه ببعض ويتم شطر منه بشطر.

ج. فما فيه من عين وأثر، من نعمه تعالى وآلائه، ولذا يستفهمهم مرة بعد مرة استفهاماً مشوباً بعتاب بقوله: ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ﴾، فقد كررت الآية في السورة إحدى وثلاثين مرة.

د. ولذلك افتتحت السورة بذكره تعالى بصفة رحمته العامة الشاملة للمؤمن والكافر والدنيا والآخرة، واختتمت بالثناء عليه بقوله: ﴿تَبارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلالِ وَالْإِكْرامِ﴾

هـ. والسورة يحتمل كونها مكية أو مدنية، وإن كان سياقها بالسياق المكي أشبه، وهي السورة الوحيدة في القرآن افتتحت بعد البسملة باسم من أسماء الله عز اسمه.

و. وفي المجمع، عن موسى بن جعفر عن آبائه عليهم السلام عن النبي ﷺ قال: لكل شيء عروس، وعروس القرآن سورة الرحمن جل ذكره، ورواه في الدر المنثور عن البيهقي عن علي عليه السلام عن النبي ﷺ.

مقاطع السورة ونظمها:

١. الآيات [١ ـ ٣٠]:

أ. افتتحت السورة بذكره تعالى بصفة رحمته العامة الشاملة للمؤمن والكافر والدنيا والآخرة.

ب. والإشارة إلى خلقه تعالى العالم بأجزائه من سماء وأرض وبر وبحر وإنس وجن، ونظم أجزائه نظماً ينتفع به الثقلان الإنس والجن في حياتهما.

٢. الآيات [٣١ـ ٧٨] هذا هو الفصل الثاني من آيات السورة، يصف نشأة الثقلين الثانية، وهي نشأة الرجوع إلى الله وجزاء الأعمال، ويعد آلاء الله تعالى عليهم، كما كانت الآيات السابقة فصلاً أولاً يصف النشأة الأولى ويعد آلاء الله فيها عليهم.

١. افتتاح السورة بذكر تعليم القرآن وخلق الإنسان:

المقطع [١] من سورة الرحمن، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ [الرحمن: ١ـ٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ٩٤»:

١. ﴿الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾:

أ. الرحمن كما تقدم في تفسير سورة الفاتحة صيغة مبالغة تدل على كثرة الرحمة ببذل النعم ولذلك ناسب أن يعم ما يناله المؤمن والكافر من نعم الدنيا وما يناله المؤمن من نعم الآخرة، ولعمومه ناسب أن يصدر به الكلام لاشتمال الكلام في السورة على أنواع النعم الدنيوية والأخروية التي ينتظم بها عالم الثقلين الإنس والجن.

ب. ذكروا أن الرحمن من الأسماء الخاصة به تعالى لا يسمى به غيره بخلاف مثل الرحيم والراحم.

٢. ﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾:

أ. شروع في عد النعم الإلهية، ولما كان القرآن أعظم النعم قدرا وشأنا وأرفعها مكانا، لأنه كلام الله الذي يخط صراطه المستقيم ويتضمن بيان نهج السعادة التي هي غاية ما يأمله آمل ونهاية ما يسأله سائل، قدم ذكر تعليمه على سائر النعم حتى على خلق الإنس والجن اللذين نزل القرآن لأجل تعليمهما.

ب. وحذف مفعول ﴿عَلَّمَ﴾ الأول وهو الإنسان أو الإنس والجن والتقدير علم الإنسان القرآن أو علم الإنس والجن القرآن، وهذا الاحتمال الثاني وإن لم يتعرضوا له لكنه أقرب الاحتمالين لأن السورة تخاطب في تضاعيف آياتها الجن كالإنس ولو لا شمول التعليم في قوله: ﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ لهم لم يتم ذلك.

ج. وقيل: المفعول المحذوف محمد ﷺ أو جبرئيل والأنسب للسياق ما تقدم.

٣. ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ ذكر خلق الإنسان وسيذكر خصوصية خلقه بقوله: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ﴾، والإنسان من أعجب مخلوقات الله تعالى أو هو أعجبها يظهر ذلك بقياس وجوده إلى وجود غيره من المخلوقات والتأمل فيما خط له من طريق الكمال في ظاهره وباطنه ودنياه

وآخرته، قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ثُمَّ رَدَدْناهُ أَسْفَلَ سافِلِينَ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ﴾ [التين: ٦]

٤. ﴿عَلَّمَهُ الْبَيانَ﴾:

أ. البيان الكشف عن الشيء والمراد به الكلام الكاشف عما في الضمير، وهو من أعجب النعم وتعليمه للإنسان من عظيم العناية الإلهية المتعلقة به فليس الكلام مجرد إيجاد صوت ما باستخدام الرئة وقصبتها والحلقوم ولا ما يحصل من التنوع في الصوت الخارج من الحلقوم باعتماده على مخارج الحروف المختلفة في الفم.

ب. بل يجعل الإنسان بإلهام باطني من الله سبحانه الواحد من هذه الأصوات المعتمدة على مخرج من مخارج الفم المسمى حرفا أو المركب من عدة من الحروف علامة مشيرة إلى مفهوم من المفاهيم يمثل به ما يغيب عن حس السامع وإدراكه فيقدر به على إحضار أي وضع من أوضاع العالم المشهود وإن جل ما جل أو دق ما دق من موجود أو معدوم ماض أو مستقبل، ثم على إحضار أي وضع من أوضاع المعاني غير المحسوسة التي ينالها الإنسان بفكره ولا سبيل للحس إليها يحضرها جميعا لسامعه ويمثلها لحسه كأنه يشخصها له بأعيانها.

ج. ولا يتم للإنسان اجتماعه المدني ولا تقدم في حياته هذا التقدم الباهر إلا بتنبهه لوضع الكلام وفتحه بذلك باب التفهيم والتفهم، ولو لا ذلك لكان هو والحيوان العجم سواء في جمود الحياة وركودها.

د. ومن أقوى الدليل على أن اهتداء الإنسان إلى البيان بإلهام إلهي له أصل في التكوين اختلاف اللغات باختلاف الأمم والطوائف في الخصائص الروحية والأخلاق النفسانية وبحسب اختلاف المناطق الطبيعية التي يعيشون فيها، قال تعالى: ﴿وَمِنْ آياتِهِ خَلْقُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوانِكُمْ﴾ [الروم: ٢٢]

هـ. وليس المراد بقوله: ﴿عَلَّمَهُ الْبَيانَ﴾ أن الله سبحانه وضع اللغات ثم علمها الإنسان بالوحي إلى نبي من الأنبياء أو بالإلهام فإن الإنسان بوقوعه في ظرف الاجتماع مندفع بالطبع إلى اعتبار التفهيم والتفهم بالإشارات والأصوات وهو التكلم والنطق لا يتم له الاجتماع المدني دون ذلك.

و. على أن فعله تعالى هو التكوين والإيجاد والرابطة بين اللفظ ومعناه اللغوي وضعية اعتبارية لا

حقيقية خارجية بل الله سبحانه خلق الإنسان وفطره فطرة تؤديه إلى الاجتماع المدني ثم إلى وضع اللغة بجعل اللفظ علامة للمعنى بحيث إذا ألقي اللفظ إلى سامعه فكأنما يلقى إليه المعنى ثم إلى وضع الخط بجعل الأشكال المخصوصة علائم للألفاظ فالخط مكمل لغرض الكلام، وهو يمثل الكلام كما أن الكلام يمثل المعنى.

ز. وبالجملة البيان من أعظم النعم والآلاء الربانية التي تحفظ لنوع الإنسان موقفه الإنساني وتهديه إلى كل خير.

ح. هذا ما هو الظاهر المتبادر من الآيتين، ولهم في معناهما أقوال: فقيل: الإنسان هو آدم عليه السلام والبيان الأسماء التي علمه الله إياها، وقيل: الإنسان محمد ﷺ والبيان القرآن أو تعليمه المؤمنين القرآن، وقيل: البيان الخير والشر علمهما الإنسان، وقيل: سبيل الهدى وسبيل الضلال إلى غير ذلك وهي أقوال بعيدة عن الفهم.

٢. نظام الشمس والقمر وسجود النجم والشجر:

المقطع [٢] من سورة الرحمن، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ [الرحمن: ٥-٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ٩٦»:

١. ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ الحسبان مصدر بمعنى الحساب، والشمس مبتدأ والقمر معطوف عليه، وبحسبان خبره، والجملة خبر بعد خبر لقوله: ﴿الرَّحْمَنُ﴾ والتقدير الشمس والقمر يجريان بحساب منه على ما قدر لهما من نوع الجري.

٢. ﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدانِ﴾:

أ. قالوا: المراد بالنجم ما ينجم من النبات ويطلع من الأرض ولا ساق له، والشجر ما له ساق من النبات، وهو معنى حسن يؤيده الجمع والقرن بين النجم والشجر وإن كان ربما أوهم سبق ذكر الشمس والقمر كون المراد بالنجم هو الكواكب.

ب. وسجود النجم والشجر انقيادهما للأمر الإلهي بالنشوء والنمو على حسب ما قدر لهما كما قيل، وأدق منه أنهما يضربان في التراب بأصولهما وأعراقهما لجذب ما يحتاجان إليه من المواد العنصرية التي يغتذيان بها وهذا السقوط على الأرض إظهارا للحاجة إلى المبدأ الذي يقضي حاجتهما، وهو في الحقيقة الله

الذي يربيهما كذلك، سجود منهما له تعالى.

ج. والكلام في إعراب قوله: ﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدانِ﴾ وهو معطوف على الآية السابقة كالكلام في قوله: ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبانٍ﴾ والتقدير والنجم والشجر يسجدان له.

د. قال في الكشاف: (فإن قلت: كيف اتصلت هاتان الجملتان بالرحمن يعني قوله: ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾، إلى قوله: ﴿يَسْجُدانِ﴾؟ قلت: استغني فيهما عن الوصل اللفظي بالوصل المعنوي لما علم أن الحسبان حسبانه والسجود له لا لغيره)، وقال في وجه إخلاء الآيات السابقة ﴿خَلَقَ الْإِنْسانَ عَلَّمَهُ الْبَيانَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبانٍ﴾، عن العاطف ما محصله أن هذه الجمل الأول واردة على سنن التعديد ليكون كل واحدة من الجمل مستقلة في تفريع الذين أنكروا الرحمن وآلاءه كما يبكت منكر أيادي المنعم عليه من الناس بتعديدها عليه فيقال: زيد أغناك بعد فقر، أعزك بعد ذل، كثرك بعد قلة، فعل بك ما لم يفعل أحد بأحد فما تنكر من إحسانه؟، ثم رد الكلام إلى منهاجه بعد التبكيت في وصل ما يجب وصله للتناسب والتقارب بالعاطف (فقيل: ﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدانِ وَالسَّماءَ رَفَعَها﴾)

٣. رفع السماء ووضع الميزان للحفاظ على العدل:

المقطع [٣] من سورة الرحمن، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٧-٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ٩٧»:

١. ﴿وَالسَّماءَ رَفَعَها وَوَضَعَ الْمِيزانَ﴾:

أ. المراد بالسماء إن كان جهة العلو فرفعها خلقها مرفوعة لا رفعها بعد خلقها وإن كان ما في جهة العلو من الأجرام فرفعها تقدير محالها بحيث تكون مرفوعة بالنسبة إلى الأرض بالفتق بعد الرتق كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ كانَتا رَتْقاً فَفَتَقْناهُما﴾ [الأنبياء: ٣٠]، والرفع على أي حال رفع حسي.

ب. وإن كان المراد ما يشمل منازل الملائكة الكرام ومصادر الأمر الإلهي والوحي فالرفع معنوي أو ما يشمل الحسي والمعنوي.

٢. ﴿وَوَضَعَ الْمِيزانَ﴾:

أ. المراد بالميزان كل ما يوزن أي يقدر به الشيء أعم من أن يكون عقيدة أو قولا أو فعلا ومن مصاديقه الميزان الذي يوزن به الأثقال، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلَنا بِالْبَيِّناتِ وَأَنْزَلْنا مَعَهُمُ الْكِتابَ وَالْمِيزانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥]

ب. فظاهره مطلق ما يميز به الحق من الباطل والصدق من الكذب والعدل من الظلم والفضيلة من الرذيلة على ما هو شأن الرسول أن يأتي به من عند ربه.

ج. وقيل: المراد بالميزان العدل أي وضع الله العدل بينكم لتسووا به بين الأشياء بإعطاء كل ذي حق حقه.

د. وقيل: المراد الميزان الذي يوزن به الأثقال والمعنى الأول أوسع وأشمل.

٣. ﴿أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزانِ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزانَ﴾:

أ. الظاهر أن المراد بالميزان الميزان المعروف وهو ميزان الأثقال، فقوله: ﴿أَلَّا تَطْغَوْا﴾ على تقدير أن يراد بالميزان في الآية السابقة أيضا ميزان الأثقال، وهو بيان وضع الميزان، والمعنى أن معنى وضعنا الميزان بينكم هو أن اعدلوا في وزن الأثقال ولا تطغوا فيه.

ب. وعلى تقدير أن يراد به مطلق التقدير الحق أو العدل هو استخراج حكم جزئي من حكم كلي، والمعنى أن لازم ما وضعناه من التقدير الحق أو العدل بينكم هو أن تزنوا الأثقال بالقسط ولا تطغوا فيه.

ج. وعلى أي حال الظاهر أن (إن) في قوله: ﴿أَلَّا تَطْغَوْا﴾ تفسيرية، و(لا تطغوا) نهي عن الطغيان في الميزان و﴿أَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ﴾ أمر معطوف عليه، والقسط العدل و﴿لا تُخْسِرُوا الْمِيزانَ﴾ نهي آخر مبين لقوله: (﴿أَلَّا تَطْغَوْا﴾، ومؤكد له، والإخسار في الميزان التطفيف به بزيادة أو نقيصة بحيث يخسر البائع أو المشتري.

د. وأما جعل ﴿الْمِيزانِ﴾ ناصبة و﴿أَلَّا تَطْغَوْا﴾ نفيا، والتقدير: لئلا تطغوا، فيحتاج إلى تكلف توجيه في عطف الإنشاء على الإخبار في قوله: ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ﴾

٤. تسخير الأرض للأنام وما فيها من فاكهة ونخل وحب:

المقطع [٤] من سورة الرحمن، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ وَضَعَها لِلْأَنامِ فِيها فاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذاتُ الْأَكْمامِ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحانُ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ﴾ [الرحمن: ١٠-١٣]، وفيه

المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ٩٨»:

١. ﴿وَالْأَرْضَ وَضَعَها لِلْأَنامِ﴾ الأنام الناس، وقيل: الإنس والجن، وقيل: كل ما يدب على الأرض، وفي التعبير في الأرض بالوضع قبال التعبير في السماء بالرفع لطف ظاهر.

٢. ﴿فِيها فاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذاتُ الْأَكْمامِ﴾ المراد بالفاكهة الثمرة غير التمر، والأكمام جمع كم بضم الكاف وكسرها وعاء التمر وهو الطلع، وأما كم القميص فهو مضموم الكاف لا غير كما قيل.

٣. ﴿وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحانُ﴾ معطوف على قوله: ﴿فاكِهَةٌ﴾ أي وفيها الحب والريحان، والحب ما يقتات به كالحنطة والشعير والأرز، والعصف ما هو كالغلاف للحب وهو قشره، وفسر بورق الزرع مطلقا وبورق الزرع اليابس، والريحان النبات الطيب الرائحة.

٤. ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ﴾:

أ. الآلاء جمع إلى بمعنى النعمة.

ب. والخطاب في الآية لعامة الثقلين: الجن والإنس ويدل على ذلك توجيه الخطاب إليهما صريحا فيما سيأتي من قوله: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلانِ﴾ وقوله: ﴿يا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ﴾، وقوله: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُما شُواظٌ﴾، فلا يصغي إلى قول من قال: إن الخطاب في الآية للذكر والأنثى من بني آدم، ولا إلى قول من قال: إنه من خطاب الواحد بخطاب الاثنين ويفيد تكرر الخطاب نحو يا شرطي اضربا عنقه أي اضرب عنقه اضرب عنقه.

ج. وتوجيه الخطاب إلى عالمي الجن والإنس هو المصحح لعد ما سنذكره من شدائد يوم القيامة وعقوبات المجرمين من أهل النار من آلائه ونعمه تعالى، فإن سوق المسيئين وأهل الشقوة في نظام الكون إلى ما تقتضيه شقوتهم ومجازاتهم بتبعات أعمالهم من لوازم صلاح النظام العام الجاري في الكل الحاكم على الجميع فذلك نعمة بالقياس إلى الكل وإن كان نقمة بالنسبة إلى طائفة خاصة منهم وهم المجرمون وهذا نظير ما نجده في السنن والقوانين الجارية في المجتمعات فإن التشديد على أهل البغي والفساد مما يتوقف عليه حياة المجتمع وبقاؤه وليس يتنعم به أهل الصلاح خاصة كما أن إثابة أهل الصلاح بالثناء الجميل والأجر الحسن كذلك.

د. فما في النار من عذاب وعقاب لأهلها وما في الجنة من كرامة وثواب آلاء ونعم على معشر الجن

والإنس كما أن الشمس والقمر والسماء المرفوعة والأرض الموضوعة والنجم والشجر وغيرها آلاء ونعم على أهل الدنيا.

هـ. ويظهر من الآية أن للجن تنعما في الجملة بهذه النعم المعدودة في خلال الآيات كما للإنس وإلا لم يصح إشراكهم مع الإنس في التوبيخ.

٥. أحاديث وآثار: في الكافي، روى محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله قال: لما قرأ رسول الله ﷺ الرحمن على الناس سكتوا، فلم يقولوا شيئا، فقال رسول الله ﷺ: الجن كانوا أحسن جوابا منكم، لما قرأت عليهم ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ﴾ قالوا: لا ولا بشيء من آلاء ربنا نكذب.

• أقول: وروي هذا المعنى في الدر المنثور، عن عدة من أصحاب الجوامع، وصححه، عن ابن عمر عنه ﷺ.

٥. خلق الإنسان من صلصال والجان من مارج من نار:

المقطع [٥] من سورة الرحمن، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ١٤-١٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ٩٩»:

١. ﴿خَلَقَ الْإِنْسانَ مِنْ صَلْصالٍ كَالْفَخَّارِ﴾:

أ. الصلصال الطين اليابس الذي يتردد منه الصوت إذا وطأ، والفخار الخزف.

ب. والمراد بالإنسان نوعه والمراد بخلقه من صلصال كالفخار انتهاء خلقه إليه، وقيل: المراد بالإنسان آدم عليه السلام.

٢. ﴿وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مارِجٍ مِنْ نارٍ﴾ المارج هو اللهب الخالص من النار، وقيل: اللهب المختلط بسواد، والكلام في الجان كالكلام في الإنسان فالمراد به نوع الجن، وعدهم مخلوقين من النار باعتبار انتهاء خلقتهم إليها، وقيل: المراد بالجان أبو الجن.

٣. أحاديث وآثار: في العيون، بإسناده عن الرضا عليه السلام: فيما سأل الشامي عليا عليه السلام وفيه: سأله عن اسم أبي الجن فقال: شؤمان وهو الذي خلق من مارج من نار.

٦. ربوبية الله للمشرقين والمغربين والتذكير بالنعم:

المقطع [٦] من سورة الرحمن، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ١٧ـ١٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ٩٩»:

١. ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾ المراد بالمشرقين مشرق الصيف ومشرق الشتاء، وبذلك تحصل الفصول الأربعة وتنتظم الأرزاق، وقيل: المراد بالمشرقين مشرق الشمس والقمر وبالمغربين مغرباهما.

٢. أحاديث وآثار: في الاحتجاج، عن علي عليه السلام في حديث: وأما قوله: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾ فإن مشرق الشتاء على حدة ومشرق الصيف على حدة، أما تعرف ذلك من قرب الشمس وبعدها؟

• أقول: وروى هذا المعنى القمي في تفسيره، مرسلا مضمرا.

٧. مرج البحرين واستخراج اللؤلؤ والمرجان:

المقطع [٧] من سورة الرحمن، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ١٩ـ٢٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ٩٩»:

١. ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيانِ بَيْنَهُما بَرْزَخٌ لا يَبْغِيانِ﴾ المرج الخلط والمرج الإرسال، يقال: مرجه أي خلطه ومرجه أي أرسله والمعنى الأول أظهر، والظاهر أن المراد بالبحرين العذب الفرات والملح الأجاج، قال تعالى: ﴿وَما يَسْتَوِي الْبَحْرانِ هذا عَذْبٌ فُراتٌ سائِغٌ شَرابُهُ وَهذا مِلْحٌ أُجاجٌ وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْماً طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَها﴾ [فاطر: ١٢]

٢. وأمثل ما قيل في الآيتين:

أ. أن المراد بالبحرين جنس البحر المالح الذي يغمر قريبا من ثلاثة أرباع الكرة الأرضية من البحار المحيطة، وغير المحيطة والبحر العذب المدخر في مخازن الأرض التي تنفجر الأرض عنها فتجري العيون والأنهار الكبيرة فتصب في البحر المالح، ولا يزالان يلتقيان، وبينهما حاجز وهو نفس المخازن الأرضية والمجاري يحجز البحر المالح أن يبغي على البحر العذب فيغشيه ويبدله بحرا مالحا وتبطل بذلك الحياة، ويحجز البحر العذب أن يزيد في الانصباب على البحر المالح فيبدله ماء عذبا فتبطل بذلك مصلحة ملوحته من تطهير الهواء وغيره.

ب. ولا يزال البحر المالح يمد البحر العذب بالأمطار التي تأخذها منه السحب فتمطر على الأرض وتدخرها المخازن الأرضية والبحر العذب يمد البحر المالح بالانصباب عليه.

ج. فمعنى الآيتين، والله أعلم، خلط البحرين العذب الفرات والملح الأجاج حال كونهما مستمرين في تلاقيهما بينهما حاجز لا يطغيان بأن يغمر أحدهما الآخر فيذهب بصفته من العذوبة والملوحة فيختل نظام الحياة والبقاء.

٣. ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجانُ﴾ أي من البحرين العذب والمالح جميعا وذلك من فوائدهما التي ينتفع بها الإنسان، وقد تقدم فيه الكلام في تفسير قوله تعالى: ﴿وَما يَسْتَوِي الْبَحْرانِ﴾ [فاطر: ١٢]

٤. أحاديث وآثار: أخرج ابن مردويه عن ابن عباس: في قوله: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيانِ﴾ قال: علي وفاطمة ﴿بَيْنَهُما بَرْزَخٌ لا يَبْغِيانِ﴾ قال: النبي ﷺ ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجانُ﴾ قال: الحسن والحسين.

• أقول: ورواه أيضا عن ابن مردويه عن أنس بن مالك مثله، ورواه في مجمع البيان، عن سلمان الفارسي وسعيد بن جبير وسفيان الثوري، وهو من البطن.

٨. تسخير السفن الجارية في البحر كالأعلام:

المقطع [٨] من سورة الرحمن، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنْشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ٢٤-٢٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ١٠٠»:

١. ﴿وَلَهُ الْجَوارِ الْمُنْشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلامِ﴾:

أ. الجواري جمع جارية وهي السفينة، والمنشئات اسم مفعول من الإنشاء وهو إحداث الشيء وتربيته، والأعلام جمع علم بفتحتين وهو الجبل.

ب. وعد الجواري مملوكة له تعالى مع كونها من صنع الإنسان لأن الأسباب العاملة في إنشائها من خشب وحديد وسائر أجزائها التي تتركب منها والإنسان الذي يركبها وشعوره وفكره وإرادته كل ذلك مخلوق له ومملوك فما ينتجه عملها من ملكه، فهو تعالى المنعم بها للإنسان ألهمه طريق صنعها والمنافع المترتبة عليها وسبيل الانتفاع بمنافعها الجمة.

٩. فناء كل من على الأرض وبقاء وجه الله الكريم:

المقطع [٩] من سورة الرحمن، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ٢٦-٢٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ١٠٠»:

١. ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْها فانٍ وَيَبْقى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالْإِكْرامِ﴾:

أ. ضمير ﴿عَلَيْها﴾ للأرض أي كل ذي شعور وعقل على الأرض سيفنى وفيه تسجيل الزوال والدثور على الثقلين.

ب. وإنما أتى باللفظ الدال على أولي العقل، كل من عليها، ولم يقل: كل ما عليها كذلك لأن الكلام مسرود في السورة لتعداد نعمه وآلائه تعالى للثقلين في نشأتيهم الدنيا والآخرة.

ج. وظهور قوله: ﴿فانٍ﴾ في الاستقبال كما يستفاد أيضا من السياق يعطي أن قوله: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْها فانٍ﴾ يشير إلى انقطاع أمد النشأة الدنيا وارتفاع حكمها بفناء من عليها وهم الثقلان وطلوع النشأة الأخرى عليهم، وكلاهما أعني فناء من عليها وطلوع نشأة الجزاء عليهم من النعم والآلاء لأن الحياة الدنيا حياة مقدمية لغرض الآخرة والانتقال من المقدمة إلى الغرض والغاية نعمة.

د. سؤال وإشكال: وبذلك يندفع قول من قال: أي نعمة في الفناء حتى يجعل من النعم ويعد من الآلاء، والجواب: محصل الجواب أن حقيقة هذا الفناء الرجوع إلى الله بالانتقال من الدنيا كما تفسره آيات كثيرة في كلامه تعالى وليس هو الفناء المطلق.

٢. ﴿وَيَبْقى وَجْهُ رَبِّكَ﴾ وجه الشيء ما يستقبل به غيره ويقصده به غيره، وهو فيه سبحانه صفاته الكريمة التي تتوسط بينه وبين خلقه فتنزل بها عليهم البركات من خلق وتدبير كالعلم والقدرة والسمع والبصر والرحمة والمغفرة والرزق وقد تقدم في تفسير سورة الأعراف كلام مبسوط في كون أسمائه وصفاته تعالى وسائط بينه وبين خلقه.

٣. ﴿ذُو الْجَلالِ وَالْإِكْرامِ﴾:

أ. في الجلال شيء من معنى الاعتلاء والترفع المعنوي على الغير فيناسب من الصفات ما فيه شائبة الدفع والمنع كالعلو والتعالي والعظمة والكبرياء والتكبر والإحاطة والعزة والغلبة.

ب. ويبقى للإكرام من المعنى ما فيه نعت البهاء والحسن الذي يجذب الغير ويوله كالعلم والقدرة

والحياة والرحمة والجود والجمال والحسن ونحوها وتسمى صفات الجمال كما تسمى القسم الأول صفات الجلال وتسمى الأسماء أيضا على حسب ما فيها من صفات الجمال أو الجلال بأسماء الجمال أو الجلال.

ج. فذو الجلال والإكرام اسم من الأسماء الحسنى جامع بمفهومه بين أسماء الجمال وأسماء الجلال جميعا.

د. والمسمى به بالحقيقة هو الذات المقدسة كما في قوله في آخر السورة: ﴿تَبارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلالِ وَالْإِكْرامِ﴾ لكن أجرى في هذه الآية، ﴿وَيَبْقى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالْإِكْرامِ﴾ على الوجه، وهو إما لكونه وصفا مقطوعا عن الوصفية للمدح، والتقدير هو ذو الجلال والإكرام، وإما لأن المراد بالوجه كما تقدم هو صفته الكريمة واسمه المقدس وإجراء الاسم على الاسم مآله إلى إجراء الاسم على الذات.

هـ. ومعنى الآية على تقدير أن يراد بالوجه ما يستقبل به الشيء غيره وهو الاسم، ومن المعلوم أن بقاء الاسم فرع بقاء المسمى ـ: ويبقى ربك عز اسمه بما له من الجلال والإكرام من غير أن يؤثر فناؤهم فيه أثرا أو يغير منه شيئا.

و. وعلى تقدير أن يراد بالوجه ما يقصده به غيره ومصداقه كل ما ينتسب إليه تعالى فيكون مقصودا بنحو للمتوجه إليه كأنبيائه وأوليائه ودينه وثوابه وقربه وسائر ما هو من هذا القبيل فالمعنى: ويبقى بعد فناء أهل الدنيا ما هو عنده تعالى وهو من صقعه وناحيته كأنواع الجزاء والثواب والقرب منه، قال تعالى: ﴿ما عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَما عِنْدَ اللهِ باقٍ﴾ [النحل: ٩٦]

ز. وقد تقدم في تفسير قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨] من الكلام بعض ما لا يخلو من نفع في المقام.

٤. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي: في قوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْها فانٍ﴾ قال من على وجه الأرض ﴿وَيَبْقى وَجْهُ رَبِّكَ﴾ قال: دين ربك، وقال علي بن الحسين عليه السلام: نحن الوجه الذي يؤتى الله منه.

ب. وفي مناقب ابن شهرآشوب قوله: ﴿وَيَبْقى وَجْهُ رَبِّكَ﴾ قال الصادق عليه السلام: نحن وجه الله.

- أقول: وفي معنى هاتين الروايتين غيرهما، وقد تقدم ما يوجه به تفسير الوجه بالدين وبالإمام.

١٠. حاجة كل من في السموات والأرض لله:

المقطع [١٠] من سورة الرحمن، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ٢٩-٣٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ١٠٢»:

١. ﴿يَسْئَلُهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ سؤالهم سؤال حاجة فهم في حاجة من جميع جهاتهم إليه تعالى متعلقو الوجودات به متمسكون بذيل غناه وجوده، قال تعالى: ﴿أَنْتُمُ الْفُقَراءُ إِلَى اللهِ وَاللهُ هُوَ الْغَنِيُّ﴾ [فاطر: ١٥]، وقال في هذا المعنى من السؤال: ﴿وَآتاكُمْ مِنْ كُلِّ ما سَأَلْتُمُوهُ﴾ [إبراهيم: ٣٤]

٢. ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾:

أ. تنكير ﴿شَأْنٍ﴾ للدلالة على التفرق والاختلاف فالمعنى: كل يوم هو تعالى في شأن غير ما في سابقه ولاحقه من الشأن فلا يتكرر فعل من أفعاله مرتين ولا يماثل شأن من شئونه شأنا آخر من جميع الجهات وإنما يفعل على غير مثال سابق وهو الإبداع، قال تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١١٧]

ب. ومعنى ظرفية اليوم إحاطته تعالى في مقام الفعل على الأشياء فهو سبحانه في كل زمان وليس في زمان وفي كل مكان وليس في مكان ومع كل شيء ولا يداني شيئا.

٣. أحاديث وآثار:

أ. في الكافي، في خطبة لعلي عليه السلام: الحمد لله الذي لا يموت ولا ينقضي عجائبه، لأنه كل يوم هو في شأن من إحداث بديع لم يكن.

ب. وفي تفسير القمي: في الآية قال: يحيي ويميت ويزيد وينقص.

ج. وفي المجمع: (عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ: في قوله: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ قال: من شأنه أن يغفر ذنبا، ويفرج كربا، ويرفع قوما، ويضع آخرين.

• أقول: ورواه عنه في الدر المنثور، وروي ما في معناه عن ابن عمر عنه ﷺ ولفظه: يغفر ذنبا ويفرج كربا.

١١. تهديد الثقلين بالحساب والتفرغ لهم:

المقطع [١١] من سورة الرحمن، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ٣١-٣٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ١٠٦»:

١. ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلانِ﴾:

أ. يقال: فرغ فلان لأمر كذا إذا كان مشتغلا قبلا بأمور ثم تركها وقصر الاشتغال بذاك الأمر اهتماما به.

ب. فمعنى ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ﴾ سنطوي بساط النشأة الأولى ونشتغل بكم، وتبين الآيات التالية أن المراد بالاشتغال بهم بعثهم وحسابهم ومجازاتهم بأعمالهم خيرا أو شرا فالفراغ لهم استعارة بالكناية عن تبدل النشأة.

ج. ولا ينافي الفراغ لهم كونه تعالى لا يشغله شأن عن شأن فإن الفراغ المذكور ناظر إلى تبدل النشأة وكونه لا يشغله شأن عن شأن ناظر إلى إطلاق القدرة وسعتها كما لا ينافي كونه تعالى كل يوم هو في شأن الناظر إلى اختلاف الشئون كونه تعالى لا يشغله شأن عن شأن.

د. والثقلان الجن والإنس، وإرجاع ضمير الجمع في ﴿لَكُمْ﴾ و﴿إِنِ اسْتَطَعْتُمْ﴾ وغيرهما إليهما لكونهما جمعا ذا أفراد.

١٢. تحدى الجن والإنس بالنفوذ من أقطار السموات والأرض:

المقطع [١٢] من سورة الرحمن، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ٣٣-٣٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ١٠٦»:

١. ﴿يا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطارِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا﴾:

أ. الخطاب، على ما يفيده السياق، من خطابات يوم القيامة وهو خطاب تعجيزي.

ب. والمراد بالاستطاعة القدرة، وبالنفوذ من الأقطار الفرار، والأقطار جمع قطر وهو الناحية.

ج. والمعنى: يا معشر الجن والإنس، وقدم الجن لأنهم على الحركات السريعة أقدر، إن قدرتم أن تفروا بالنفوذ من نواحي السماوات والأرض والخروج من ملك الله والتخلص من مؤاخذته ففروا

وانفذوا.

٢. ﴿لا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطانٍ﴾:

أ. أي لا تقدرون على النفوذ إلا بنوع من السلطة على ذلك وليس لكم والسلطان القدرة الوجودية، والسلطان البرهان أو مطلق الحجة، والسلطان الملك.

ب. وقيل: المراد بالنفوذ المنفي في الآية النفوذ العلمي في السماوات والأرض من أقطارهما، وقد عرفت أن السياق لا يلائمه.

٣. ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُما شُواظٌ مِنْ نارٍ وَنُحاسٌ﴾ الشواظ، على ما ذكره الراغب، اللهب الذي لا دخان فيه، ويقرب منه ما في المجمع: (أنه اللهب الأخضر المنقطع من النار، والنحاس الدخان وقال الراغب: (هو اللهب بلا دخان والمعنى ظاهر.

٤. ﴿فَلا تَنْتَصِرانِ﴾ أي لا تتناصران بأن ينصر بعضكم بعضا لرفع البلاء والتخلص عن العناء لسقوط تأثير الأسباب ولا عاصم اليوم من الله.

٥. أحاديث وآثار: في المجمع: وقد جاء في الخبر: يحاط على الخلق بالملائكة، وبلسان من نار ثم ينادون: ﴿يا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ﴾، إلى قوله: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُما شُواظٌ مِنْ نارٍ﴾

• أقول: وروي هذا المعنى عن مسعدة بن صدقة عن كليب عن أبي عبد الله عليه السلام.

١٣. انشقاق السماء واصفرارها وسؤال المجرمين عن ذنوبهم:

المقطع [١٣] من سورة الرحمن، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّماءُ فَكانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهانِ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ فَيَوْمَئِذٍ لا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلا جانٌّ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ﴾ [الرحمن: ٣٧ـ٤٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ١٠٧»:

١. ﴿فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّماءُ فَكانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهانِ﴾ أي كانت حمراء كالدهان وهو الأديم الأحمر.

٢. ﴿فَيَوْمَئِذٍ لا يُسْئَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلا جانٌّ﴾ الآية وما يتلوها من الآيات إلى آخر السورة تصف الحساب والجزاء تصف حال المجرمين والخائفين مقام ربهم وما ينتهي إليه.

٣. ثم الآية تصف سرعة الحساب وقد قال تعالى: ﴿وَاللهُ سَرِيعُ الْحِسابِ﴾ [النور: ٣٩]

٤. والمراد بيومئذ يوم القيامة، والسؤال المنفي هو النحو المألوف من السؤال، ولا ينافي نفي السؤال

في هذه الآية إثباته في قوله: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْؤُلُونَ﴾ [الصافات: ٢٤] وقوله: ﴿فَوَ رَبِّكَ لَنَسْئَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٩٢]، لأن اليوم ذو مواقف مختلفة يسأل في بعضها، ويختم على الأفواه في بعضها وتكلم الأعضاء، ويعرف بالسيماء في بعضها.

١٤. تمييز المجرمين بسيماهم وأخذهم بالنواصي والأقدام:

المقطع [١٤] من سورة الرحمن، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ٤١-٤٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ١٠٧»:

١. ﴿يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ﴾ في مقام الجواب عن سؤال مقدر كأنه قيل: فإذا لم يسألوا عن ذنبهم فما يصنع بهم؟ فأجيب بأنه يعرف المجرمون بسيماهم إلخ، ولذا فصلت الجملة ولم يعطف، والمراد بسيماهم علامتهم البارزة في وجوههم.

٢. ﴿فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ﴾:

أ. الكلام متفرع على المعرفة المذكورة، والنواصي جمع ناصية وهي شعر مقدم الرأس، والأقدام جمع قدم، وقوله: ﴿بِالنَّوَاصِي﴾ نائب فاعل يؤخذ.

ب. والمعنى: لا يسأل أحد عن ذنبه، يعرف المجرمون بعلامتهم الظاهرة في وجوههم فيؤخذ بالنواصي والأقدام من المجرمين فيلقون في النار.

١٥. وصف جهنم وطواف المجرمين بينها وبين الحميم:

المقطع [١٥] من سورة الرحمن، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ٤٣-٤٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ١٠٧»:

١. ﴿هذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ﴾:

أ. مقول قول مقدر أي يقال يومئذ هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون، وقال الطبرسي: (ويمكن أنه لما أخبر الله سبحانه أنهم يؤخذون بالنواصي والأقدام قال للنبي ﷺ: هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون من قومك فسيردونها فليهن عليك أمرهم)

ب. والحميم الماء الحار، والآني الذي انتهت حرارته والباقي ظاهر.

١٦. وصف أولى الجنتين وما فيهما من نعيم مقيم:

المقطع [١٦] من سورة الرحمن، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ذَوَاتَا أَفْنَانٍ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦ـ٥٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ١٠٨»:

١. ﴿وَلِمَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ جَنَّتانِ﴾:

أ. شروع في وصف حال السعداء من الخائفين مقام ربهم، والمقام مصدر ميمي بمعنى القيام مضاف إلى فاعله، والمراد قيامه تعالى عليه بعمله وهو إحاطته تعالى وعلمه بما عمله وحفظه له وجزاؤه عليه قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قائِمٌ عَلى كُلِّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ﴾ [الرعد: ٣٣]

ب. ويمكن أن يكون المقام اسم مكان والإضافة لامية والمراد به مقامه وموقفه تعالى من عبده وهو أنه تعالى ربه الذي يدبر أمره ومن تدبير أمره أنه دعاه بلسان رسله إلى الإيمان والعمل الصالح وقضى أن يجازيه على ما عمل خيرا أو شرا هذا وهو محيط به وهو معه سميع بما يقول بصير بما يعمل لطيف خبير.

ج. والخوف من الله تعالى ربما كان خوفا من عقابه تعالى على الكفر به ومعصيته، ولازمه أن يكون عبادة من يعبده خوفا بهذا المعنى يراد بها التخلص من العقاب لا لوجه الله محضا وهو عبادة العبيد يعبدون مواليهم خوفا من السياسة كما أن عبادة من يعبده طمعا في الثواب غايتها الفوز بما تشتهيه النفس دون وجهه الكريم وهي عبادة التجار كما في الروايات وقد تقدم شطر منها.

د. والخوف المذكور في الآية، ﴿وَلِمَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ﴾، ظاهره غير هذا الخوف فإن هذا خوف من العقاب وهو غير الخوف من قيامه تعالى على عبده بما عمل أو الخوف من مقامه تعالى من عبده فهو تأثر خاص ممن ليس له إلا الصغار والحقارة تجاه ساحة العظمة والكبرياء، وظهور أثر المذلة والهوان والاندكاك قبال العزة والجبروت المطلقين.

هـ. وعبادته تعالى خوفا منه بهذا المعنى من الخوف خضوع له تعالى لأنه الله ذو الجلال والإكرام لا لخوف من عقابه ولا طمعا في ثوابه بل فيه إخلاص العمل لوجهه الكريم، وهذا المعنى من الخوف هو

الذي وصف الله به المكرمين من ملائكته وهم معصومون آمنون من عقاب المخالفة وتبعة المعصية قال تعالى: ﴿يَخافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٥٠]

و. فتبين مما تقدم أن الذين أشار إليهم بقوله: ﴿وَلِمَنْ خافَ﴾ أهل الإخلاص الخاضعون لجلاله تعالى العابدون له لأنه الله عز اسمه لا خوفا من عقابه ولا طمعا في ثوابه، ولا يبعد أن يكونوا هم الذين سموا سابقين في قوله: ﴿وَكُنْتُمْ أَزْواجاً ثَلاثَةً﴾، إلى أن قال ـ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾ [الواقعة: ١١]

٢. ﴿جَنَّتانِ﴾:

أ. قيل: إحداهما منزله ومحل زيارة أحبابه له والأخرى منزل أزواجه وخدمه.

ب. وقيل: بستانان بستان داخل قصره وبستان خارجه.

ج. وقيل: منزلان ينتقل من أحدهما إلى الآخر ليكمل به التذاذه.

د. وقيل: جنة لعقيدته وجنة لعمله.

هـ. وقيل: جنة لفعل الطاعات وجنة لترك المعاصي.

و. وقيل: جنة جسمانية وجنة روحانية.

• وهذه الأقوال، كما ترى، لا دليل على شيء منها.

ز. وقيل: جنة يثاب بها وجنة يتفضل بها عليه، ويمكن أن يستشعر ذلك من قوله تعالى: ﴿لَهُمْ ما يَشاؤُنَ فِيها وَلَدَيْنا [مَزِيدٌ﴾ ٣٥]، على ما مر في تفسيره.

٣. ﴿ذَواتا أَفْنانٍ﴾ ذواتا تثنية ذات، و﴿أَفْنانٍ﴾ إما جمع فن بمعنى النوع والمعنى: ذواتا أنواع من الثمار ونحوها، وإما جمع فنن بمعنى الغصن الرطب اللين والمعنى: ذواتا أغصان لينة أشجارهما.

٤. ﴿فِيهِما عَيْنانِ تَجْرِيانِ﴾ وقد أبهمت العينان وفيه دلالة على فخامة أمرهما.

٥. ﴿فِيهِما مِنْ كُلِّ فاكِهَةٍ زَوْجانِ﴾ أي صنفان قيل: صنف معروف لهم شاهدوه في الدنيا وصنف غير معروف لم يروه في الدنيا، وقيل: غير ذلك، ولا دلالة في الكلام على شيء من ذلك.

٦. ﴿مُتَّكِئِينَ عَلى فُرُشٍ بَطائِنُها مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾، الفرش جمع فراش، والبطائن جمع بطانة وهي داخل الشيء وجوفه مقابل الظهائر جمع ظهارة، والإستبرق الحرير الغليظ قال في المجمع: (ذكر البطانة ولم يذكر

الظهارة لأن البطانة تدل على أن لها ظهارة والبطانة دون الظهارة فدل على أن الظهارة فوق الإستبرق)

٧. ﴿وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دانٍ﴾ الجنى الثمر المجتنى و﴿دانٍ﴾ اسم فاعل من الدنو بمعنى القرب أي ما يجتنى من ثمار الجنتين قريب.

٨. أحاديث وآثار:

أ. في الكافي، بإسناده عن داود الرقي عن أبي عبد الله عليه السلام: في قول الله عز وجل: ﴿وَلِمَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ جَنَّتانِ﴾ قال: من علم أن الله يراه ويسمع ما يقول، ويعلم ما يعمله من خير أو شر، فيحجزه ذلك عن القبيح من الأعمال، فذلك الذي خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى.

ب. أخرج ابن أبي شيبة وأحمد وابن منيع والحكيم في نوادر الأصول والنسائي والبزار وأبو يعلى وابن جرير وابن أبي حاتم وابن المنذر والطبراني وابن مردويه عن أبي الدرداء: أن النبي ﷺ قرأ هذه الآية ﴿وَلِمَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ جَنَّتانِ﴾ فقلت: (أوإن زنى وإن سرق يا رسول الله؟ فقال النبي ﷺ الثانية ﴿وَلِمَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ جَنَّتانِ﴾ فقلت: وإن زنى وإن سرق؟ فقال: نعم وإن رغم أنف أبي الدرداء.

• أقول: الرواية لا تخلو من شيء فإن الخوف من مقامه تعالى لا يجامع هذه الكبائر الموبقة، وقد روي عن أبي الدرداء نفسه ما يدفع هذه الرواية فأخرج ابن جرير وابن المنذر عن يسار مولى لآل معاوية عن أبي الدرداء: في قوله: ﴿وَلِمَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ جَنَّتانِ﴾ قال: قيل: يا أبا الدرداء وإن زنى وإن سرق؟ قال: من خاف مقام ربه لم يزن ولم يسرق.

١٧. وصف الحور العين في الجنتين كالياقوت والمرجان:

المقطع [١٧] من سورة الرحمن، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ٥٦-٥٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ١١٠»:

١. ﴿فِيهِنَّ قاصِراتُ الطَّرْفِ﴾ ضمير ﴿فِيهِنَ﴾ للفرش وجوز أن يرجع إلى الجنان فإنها جنان لكل واحد من أولياء الله منها جنتان، والطرف جفن العين، والمراد بقصور الطرف اكتفاؤهن بأزواجهن فلا يردن غيرهم.

٢. ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ﴾ الطمث الافتضاض والنكاح بالتدمية، والمعنى: لم

يمسسهن بالنكاح إنس ولا جان قبل أزواجهن.

٣. ﴿كَأَنَّهُنَّ الْياقُوتُ وَالْمَرْجانُ﴾ أي في صفاء اللون والبهاء والتلالؤ.

٤. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي: في قوله تعالى: ﴿قاصِراتُ الطَّرْفِ﴾ قال: الحور العين يقصر الطرف عنها من ضوء نورها.

ب. أخرج ابن مردويه عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ: في قوله: ﴿قاصِراتُ الطَّرْفِ﴾ قال: لا ينظرن إلا إلى أزواجهن.

ج. وفي المجمع في قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُنَّ الْياقُوتُ وَالْمَرْجانُ﴾ في الحديث أن المرأة من أهل الجنة يرى مخ ساقها، من وراء سبعين حلة من حرير.

• أقول: وهذا المعنى وارد في عدة روايات.

١٨. جزاء الإحسان هو الإحسان:

المقطع [١٨] من سورة الرحمن، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ٦٠-٦١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ١١٠»:

١. ﴿هَلْ جَزاءُ الْإِحْسانِ إِلَّا الْإِحْسانُ﴾:

أ. استفهام إنكاري في مقام التعليل لما ذكر من إحسانه تعالى عليهم بالجنتين وما فيهما من أنواع النعم والآلاء فيفيد أنه تعالى يحسن إليهم هذا الإحسان جزاء لإحسانهم بالخوف من مقام ربهم.

ب. وتفيد الآية أن ما أوتوه من الجنة ونعيمها جزاء لأعمالهم وأما ما يستفاد من بعض الآيات أنهم يعطون فضلا وراء جزاء أعمالهم فلا تعرض في هذه الآيات لذلك إلا أن يقال: الإحسان إنما يتم إذا كان يربو على ما أحسن به المحسن إليه فإطلاق الإحسان في قوله: ﴿إِلَّا الْإِحْسانُ﴾ يفيد الزيادة.

٢. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير العياشي، بإسناده عن علي بن سالم قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: آية في كتاب الله مسجلة، قلت: وما هي؟ قال: قول الله عز وجل: ﴿هَلْ جَزاءُ الْإِحْسانِ إِلَّا الْإِحْسانُ﴾ جرى في الكافر والمؤمن والبر والفاجر، ومن صنع إليه معروف فعليه أن يكافئ به، وليس المكافأة أن يصنع كما

صنع حتى يربى، فإن صنعت كما صنع كان له الفضل بالابتداء.

ب. وفي المجمع في قوله: ﴿هَلْ جَزاءُ الْإِحْسانِ إِلَّا الْإِحْسانُ﴾ جاءت الرواية من أنس بن مالك قال: قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية فقال: هل تدرون ما يقول ربكم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: فإن ربكم يقول: هل جزاء من أنعمنا عليه بالتوحيد إلا الجنة؟

ج. وفي تفسير القمي: في الآية قال: ما جزاء من أنعمت عليه بالمعرفة إلا الجنة.

• أقول: الرواية مروية عن النبي ﷺ وأئمة أهل البيت عليه السلام وقد أسندها في التوحيد إلى جعفر بن محمد عن آبائه عن علي عليه السلام عن النبي ﷺ، ولفظها ـ: أن الله عز وجل قال: ما جزاء من أنعمت عليه بالتوحيد إلا الجنة، وأسندها في العلل، إلى الحسن بن علي عليه السلام عن النبي ﷺ، واللفظ ـ: هل جزاء من قال: لا إله إلا الله إلا الجنة؟

• وروي الرواية بألفاظها المختلفة في الدر المنثور، بطرق مختلفة عن النبي ﷺ وقوله: أنعمت عليه، إشارة إلى أن إحسان العبد بالحقيقة إحسان من الله إليه.

١٩. وصف الجنتين الأخريين وما فيهما من نخل ورمان وعيون:

المقطع [١٩] من سورة الرحمن، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ مُدْهَامَّتَانِ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ٦٢-٦٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ١١٠»:

١. ﴿وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾:

أ. ضمير التثنية للجنتين الموصوفتين في الآيات السابقة ومعنى، ﴿مِنْ دُونِهِمَا﴾ أي أنزل درجة وأحط فضلا وشرفا منهما وإن كانتا شبيهتين بالجنتين السابقتين في نعمهما وآلائهما، وقد تقدم أن الجنتين السابقتين لأهل الإخلاص الخائفين مقام ربهم فهاتان الجنتان لمن دونهم من المؤمنين العابدين لله سبحانه خوفا من النار أو طمعا في الجنة وهم أصحاب اليمين.

ب. وقيل: معنى ﴿مِنْ دُونِهِمَا﴾ بالقرب منهما، ويستفاد من السياق حينئذ أن هاتين الجنتين أيضا لأهل الجنتين المذكورتين قبلا بل ادعى بعضهم أن هاتين الجنتين أفضل من السابقتين والصفات المذكورة فيهما أمدح.

ج. وأنت بالتدبر فيما قدمناه في معنى لمن خاف مقام ربه وما يستفاد من كلامه تعالى أن أهل الجنة صنفان: المقربون أهل الإخلاص وأصحاب اليمين تعرف قوة الوجه السابق.

٢. ﴿مُدْهامَّتانِ﴾ الادهيمام من الدهمة اشتداد الخضرة بحيث تضرب إلى السواد وهو ابتهاج الشجرة.

٣. ﴿فِيهِما عَيْنانِ نَضَّاخَتانِ﴾ أي فوارتان تخرجان من منبعهما بالدفع.

٤. ﴿فِيهِما فاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ المراد بالفاكهة والرمان شجرتهما بقرينة النخل.

٥. أحاديث وآثار:

أ. في المجمع في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ دُونِهِما جَنَّتانِ﴾ عن العلاء بن سيابة عن أبي عبد الله عليه السلام: قلت له: إن الناس يتعجبون منا إذا قلنا: يخرج قوم من النار فيدخلون الجنة، فيقولون لنا فيكونون مع أولياء الله في الجنة؟ فقال يا علي إن الله يقول: ﴿وَمِنْ دُونِهِما جَنَّتانِ﴾ ما يكونون مع أولياء الله.

ب. أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبي موسى عن النبي ﷺ: في قوله: ﴿وَلِمَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ جَنَّتانِ﴾ وقوله: ﴿وَمِنْ دُونِهِما جَنَّتانِ﴾ قال: جنتان من ذهب للمقربين، وجنتان من ورق لأصحاب اليمين.

• أقول: والروايتان تؤيدان ما قدمناه في تفسير الآيتين.

ج. أخرج الطبراني وابن مردويه عن أبي أيوب قال: سألت النبي ﷺ عن قوله: ﴿مُدْهامَّتانِ﴾ قال: خضراوان.

د. وفي تفسير القمي، بإسناده إلى يونس بن ظبيان عن أبي عبد الله عليه السلام: في قوله تعالى: ﴿نَضَّاخَتانِ﴾ قال: تفوران.

٢٠. وصف الخيرات الحسان والحور المقصورات في الخيام:

المقطع [٢٠] من سورة الرحمن، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ٧٠-٧٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ١١١»:

١. ﴿فِيهِنَّ خَيْراتٌ حِسانٌ﴾:

أ. ضمير ﴿فِيهِنَّ﴾ للجنان باعتبار أنها جنتان من هاتين الجنتين، وقيل: مرجع الضمير الجنات الأربع المذكورة في الآيات، وقيل: الضمير للفاكهة والنخل والرمان.

ب. وأكثر ما يستعمل الخير في المعاني كما أن أكثر استعمال الحسن في الصور، وعلى هذا فمعنى خيرات حسان أنهن حسان في أخلاقهن حسان في وجوههن.

٢. ﴿حُورٌ مَقْصُوراتٌ فِي الْخِيامِ﴾ الخيام جمع خيمة وهي الفسطاط، وكونهن مقصورات في الخيام أنهن مصونات غير مبتذلات لا نصيب لغير أزواجهن فيهن.

٣. ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ﴾ تقدم معناه.

٤. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي في قوله: ﴿فِيهِنَّ خَيْراتٌ حِسانٌ﴾ قال: جوار نابتات على شط الكوثر، كلما أخذت منها نبتت مكانها أخرى.

ب. وفي المجمع: (في قوله: ﴿خَيْراتٌ حِسانٌ﴾ أي نساء خيرات الأخلاق حسان الوجوه: روته أم سلمة عن النبي ﷺ.

ج. وفي الفقيه، قال الصادق عليه السلام: الخيرات الحسان من نساء أهل الدنيا، وهن أجمل من الحور العين.

د. وفي روضة الكافي، بإسناده عن الحلبي قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عز وجل: ﴿فِيهِنَّ خَيْراتٌ حِسانٌ﴾ قال: هن صوالح المؤمنات العارفات.

• أقول: وفي انطباق الآية بالنظر إلى سياقها على مورد الروايتين إبهام.

٢١. وصف الرفرف الخضر والعبقري الحسان والاتكاء عليها:

المقطع [٢١] من سورة الرحمن، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ٧٦-٧٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ١١١»:

١. في الصحاح: (الرفرف ثياب خضر تتخذ منها المجالس)، وقيل: هي الوسائد، وقيل: غير ذلك، والخضر جمع أخضر صفة لرفرف، والعبقري قيل: الزرابي، وقيل: الطنافس، وقيل: الثياب الموشاة، وقيل: الديباج.

٢٢. ختم السورة بتبارك اسم الرب ذي الجلال والإكرام:

المقطع [٢٢] من سورة الرحمن، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٧٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ١١١»:

١. ﴿تَبارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلالِ وَالْإِكْرامِ﴾:

أ. ثناء جميل له تعالى بها امتلأت النشأتان الدنيا والآخرة بنعمه وآلائه وبركاته النازلة من عنده برحمته الواسعة، وبذلك يظهر أن المراد باسمه المتبارك هو الرحمن المفتتحة به السورة، والتبارك كثرة الخيرات والبركات الصادرة.

ب. فقوله: ﴿تَبارَكَ اسْمُ رَبِّكَ﴾ تبارك الله المسمى بالرحمن بما أفاض هذه الآلاء.

٢. ﴿ذِي الْجَلالِ وَالْإِكْرامِ﴾:

أ. إشارة إلى تسميه بأسمائه الحسنى واتصافه بما يدل عليه من المعاني الوصفية ونعوت الجلال والجمال، ولصفات الفاعل ظهور في أفعاله وأثر فيها يرتبط به الفعل بفاعله فهو تعالى خلق الخلق ونظم النظام لأنه بديع خالق مبدئ فأتقن الفعل لأنه عليم حكيم وجازى أهل الطاعة بالخير لأنه ودود شكور غفور رحيم وأهل الفسق بالشر لأنه منتقم شديد العقاب.

ب. فتوصيف الرب، الذي أثنى على سعة رحمته، بذي الجلال والإكرام للإشارة إلى أن لأسمائه الحسنى وصفاته العليا دخلا في نزول البركات والخيرات من عنده، وأن نعمه وآلاءه عليها طابع أسمائه الحسنى وصفاته العليا تبارك وتعالى.

سورة الواقعة

هذه السورة الكريمة تحتوي على [١٨] مقطعاً، وهذا تعريف بمقاصدها، ومحتويات مقاطعها:

مقاصد السورة ومحتوياتها:

أ. تصف السورة القيامة الكبرى التي فيها بعث الناس وحسابهم وجزاؤهم.

ب. فتذكر أولاً شيئاً من أهوالها مما يقرب من الإنسان والأرض التي يسكنها، فتذكر تقليبها للأوضاع والأحوال بالخفض والرفع، وارتجاج الأرض وانبثاث الجبال، وتقسم الناس إلى ثلاثة أزواج إجمالاً.

ج. ثم تذكر ما ينتهي إليه حال كل من الأزواج السابقين: وأصحاب اليمين وأصحاب الشمال.

د. ثم تحتج على أصحاب الشمال المنكرين لربوبيته وللبعث، المكذبين بالقرآن الداعي إلى التوحيد والإيمان بالبعث.

هـ. ثم تختم الكلام بذكر الاحتضار بنزول الموت، وانقسام الناس إلى ثلاثة أزواج.

و. والسورة مكية بشهادة سياق آياتها.

مقاطع السورة ونظمها:

١. الآيات [١ ـ ١٠] تذكر أولاً شيئاً من أهوالها مما يقرب من الإنسان والأرض التي يسكنها، فتذكر تقليبها للأوضاع والأحوال بالخفض والرفع، وارتجاج الأرض وانبثاث الجبال، وتقسم الناس إلى ثلاثة أزواج إجمالاً.

٢. الآيات [١١ ـ ٥٦] الآيات تفصل ما ينتهي إليه حال كل واحد من الأزواج الثلاثة يوم القيامة.

٣. الآيات [٥٧ ـ ٩٦]:

أ. لما فصل سبحانه القول فيما ينتهي إليه حال كل من الأزواج الثلاثة، ففصل حال أصحاب الشمال، وأن الذي ساقهم إلى ذلك نقضهم عهد العبودية وتكذيبهم للبعث والجزاء، وأمر نبيه ﷺ أن يرد عليهم بتقرير البعث والجزاء وبيان ما يجزون به يوم البعث.

ب. وبخهم على تكذيبهم بالمعاد، مع أن الذي يخبرهم به هو خالقهم الذي يدبر أمرهم ويقدر لهم

الموت ثم الإنشاء، فهو يعلم ما يجري عليهم مدى وجودهم وما ينتهي إليه حالهم، ومع أن الكتاب الذي ينبئهم بالمعاد هو قرآن كريم مصون من أن تلعب به أيدي الشياطين وأولياؤهم المضلين.

ج. ثم يعيد الكلام إلى ما بدئ به من حال الأزواج الثلاثة، ويذكر أن اختلاف أحوال الأقسام يأخذ من حين الموت، وبذلك تختتم السورة.

١. بيان حقيقة وقوع الواقعة وأنها ليست بكاذبة:

المقطع [١] من سورة الواقعة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾ [الواقعة: ١-٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ١١٥»:

١. ﴿إِذا وَقَعَتِ الْواقِعَةُ﴾:

أ. وقوع الحادثة هو حدوثها، والواقعة صفة توصف بها كل حادثة، والمراد بها هاهنا واقعة القيامة وقد أطلقت إطلاق الأعلام كأنها لا تحتاج إلى موصوف مقدر ولذا قيل: إنها من أسماء القيامة في القرآن كالحاقة والقارعة والغاشية.

ب. والجملة ﴿إِذا وَقَعَتِ الْواقِعَةُ﴾ مضمنة معنى الشرط ولم يذكر جزاء الشرط إعظاما له وتفخيما لأمره وهو على أي حال أمر مفهوم مما ستصفه السورة من حال الناس يوم القيامة، والتقدير نحو من قولنا: فاز المؤمنون وخسر الكافرون.

٢. ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِها كاذِبَةٌ﴾:

أ. قال في المجمع: (الكاذبة مصدر كالعافية والعاقبة)

ب. وعليه فالمعنى: ليس في وقعتها وتحققها كذب، وقيل: كاذبة صفة محذوفة الموصوف والتقدير: ليس لوقعتها قضية كاذبة.

٣. أحاديث وآثار:

أ. في الخصال، عن الزهري قال: سمعت علي بن الحسين عليه السلام يقول: من لم يتعز بعزاء الله، تقطعت نفسه على الدنيا حسرات، والله ما الدنيا والآخرة إلا ككفتي ميزان، فأيهما رجح ذهب بالآخر ثم تلا قوله عز وجل: ﴿إِذا وَقَعَتِ الْواقِعَةُ﴾ يعني القيامة ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِها كاذِبَةٌ خافِضَةٌ﴾ خفضت والله بأعداء الله في النار ﴿رافِعَةٌ﴾ رفعت والله أولياء الله إلى الجنة.

ب. وفي تفسير القمي: ﴿إِذا وَقَعَتِ الْواقِعَةُ لَيْسَ لِوَقْعَتِها كاذِبَةٌ﴾ قال: القيامة هي حق، وقوله: ﴿خافِضَةٌ﴾ قال: بأعداء الله ﴿رافِعَةٌ﴾ لأولياء الله ﴿إِذا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا﴾ قال: يدق بعضها على بعض ﴿وَبُسَّتِ الْجِبالُ بَسًّا﴾ قال: قلعت الجبال قلعا ﴿فَكانَتْ هَباءً مُنْبَثًّا﴾ قال: الهباء الذي في الكوة من شعاع الشمس.

٢. خفض الواقعة لأقوام ورفعها لآخرين:

المقطع [٢] من سورة الواقعة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ﴾ [الواقعة: ٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ١١٥»:

١. ﴿خافِضَةٌ رافِعَةٌ﴾ خبران مبتدؤهما الضمير الراجع إلى الواقعة، والخفض خلاف الرفع وكونها خافضة رافعة كناية عن تقليبها نظام الدنيا المشهود فتظهر السرائر وهي محجوبة اليوم وتحجب وتستر آثار الأسباب وروابطها وهي ظاهرة اليوم وتذل الأعزة من أهل الكفر والفسق وتعز المتقين.

٣. أهوال يوم القيامة:

المقطع [٣] من سورة الواقعة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا﴾ [الواقعة: ٤-٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ١١٦»:

١. ﴿إِذا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا﴾ الرج تحريك الشيء تحريكا شديدا إشارة إلى زلزلة الساعة التي يعظمها الله سبحانه في قوله: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج: ١]، وقد عظمها في هذه الآية حيث عبر عنها برج الأرض ثم أكد شدتها بتنكير قوله: ﴿رَجًّا﴾ أي رجا لا يوصف شدته، والجملة بدل أو بيان لقوله: ﴿إِذا وَقَعَتِ الْواقِعَةُ﴾

٢. ﴿وَبُسَّتِ الْجِبالُ بَسًّا فَكانَتْ هَباءً مُنْبَثًّا﴾ عطف على ﴿رُجَّتِ﴾ والبس الفت وهو عود الجسم بدق ونحوه أجزاء صغارا متلاشية كالدقيق، وقيل: البس هو التسيير فهو في معنى قوله: ﴿وَسُيِّرَتِ الْجِبالُ﴾ [النبأ: ٢٠]

٣. ﴿فَكانَتْ هَباءً مُنْبَثًّا﴾ الهباء قيل: هو الغبار وقيل: هو الذرة من الغبار الظاهر في شعاع الشمس الداخل من كوة، والانبثاث التفرق، والمعنى ظاهر.

٤. أحاديث وآثار: أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن علي بن أبي طالب قال: الهباء

المنبث رهج الذرات، والهباء المنثور غبار الشمس، الذي تراه في شعاع الكوة.

٤. تقسيم الناس يوم القيامة إلى ثلاثة أزواج:

المقطع [٤] من سورة الواقعة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾ [الواقعة: ٧-١٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ١١٦»:

١. ﴿وَكُنْتُمْ أَزْواجاً ثَلاثَةً﴾ الزوج بمعنى الصنف والخطاب لعامة البشر.

٢. ﴿فَأَصْحابُ الْمَيْمَنَةِ ما أَصْحابُ الْمَيْمَنَةِ﴾:

أ. متفرع على ما قبلها تفرع البيان على المبين، فهذه الآية والآيتان بعدها بيان للأزواج الثلاثة.

ب. والميمنة من اليمن مقابل الشؤم، فأصحاب الميمنة أصحاب السعادة واليمن مقابل أصحاب المشأمة أصحاب الشقاء والشؤم، وما قيل: إن المراد بالميمنة اليمين، أي ناحية اليمين لأنهم يؤتون كتابهم بيمينهم وغيرهم يؤتونه بشمالهم يرده مقابلة أصحاب الميمنة بأصحاب المشأمة، ولو كان كما قيل لقيل أصحاب الشمال وهو ظاهر.

ج. وما في قوله: ﴿ما أَصْحابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ استفهامية ومبتدأ خبره ﴿فَأَصْحابُ الْمَيْمَنَةِ﴾، والمجموع خبر لقوله: ﴿فَأَصْحابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ وفي الاستفهام إعظام لأمرهم وتفخيم لشأنهم.

٣. ﴿وَأَصْحابُ الْمَشْئَمَةِ ما أَصْحابُ الْمَشْئَمَةِ﴾ المشأمة مصدر كالشؤم مقابل اليمين، والميمنة والمشأمة السعادة والشقاء.

٤. ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾:

أ. الذي يصلح أن يفسر به السابقون الأول قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ ظالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سابِقٌ بِالْخَيْراتِ بِإِذْنِ اللهِ﴾ [فاطر: ٣٢]، وقوله: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيها فَاسْتَبِقُوا الْخَيْراتِ﴾ [البقرة: ١٤٨]، وقوله: ﴿أُولئِكَ يُسارِعُونَ فِي الْخَيْراتِ وَهُمْ لَها سابِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٦١]

ب. فالمراد بالسابقين، الأول، في الآية السابقون بالخيرات من الأعمال، وإذا سبقوا بالخيرات سبقوا إلى المغفرة والرحمة التي بإزائها كما قال تعالى: ﴿سابِقُوا إِلى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ﴾ [الحديد: ٢١]، فالسابقون بالخيرات هم السابقون بالرحمة وهو قوله: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾

ج. وقيل: المراد بالسابقون الثاني هو الأول على حد قوله: أنا أبو النجم وشعري شعري.

د. ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾ مبتدأ وخبر، وقيل: الأول مبتدأ والثاني تأكيد، والخبر قوله: ﴿أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾

هـ. ولهم في تفسير السابقين أقوال أخر:

أ. فقيل: هم المسارعون إلى كل ما دعا الله إليه.

ب. وقيل: هم الذين سبقوا إلى الإيمان والطاعة من غير توان.

ج. وقيل: هم الأنبياء عليهمالسلام لأنهم مقدمو أهل الأديان.

د. وقيل: هم مؤمن آل فرعون وحبيب النجار المذكور في سورة يس وعلي عليه السلام السابق إلى الإيمان بالنبي ﷺ وهو أفضلهم.

هـ. وقيل: هم السابقون إلى الهجرة.

و. وقيل: هم السابقون إلى الصلوات الخم.

ز. وقيل: هم الذين صلوا إلى القبلتين.

ح. وقيل: هم السابقون إلى الجهاد، وقيل غير ذلك.

• والقولان الأولان راجعان إلى ما تقدم من المعنى، والثالث والرابع ينبغي أن يحملا على التمثيل، والباقي كما ترى إلا أن يحمل على نحو من التمثيل.

٥. أحاديث وآثار:

أ. ﴿وَكُنْتُمْ أَزْواجاً ثَلاثَةً﴾ قال: يوم القيامة ﴿فَأَصْحابُ الْمَيْمَنَةِ ما أَصْحابُ الْمَيْمَنَةِ وَأَصْحابُ الْمَشْئَمَةِ ما أَصْحابُ الْمَشْئَمَةِ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾ الذين سبقوا إلى الجنة.

• أقول: قوله: الذين سبقوا إلى الجنة تفسير للسابقون الثاني.

ب. أخرج ابن مردويه عن ابن عباس: في قوله: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾ قال: نزلت في حزقيل مؤمن آل فرعون، وحبيب النجار الذي ذكر في يس وعلي بن أبي طالب، كل رجل منهم سابق أمته وعلي أفضلهم سبقا.

ج. وفي المجمع عن أبي جعفر عليه السلام قال: السابقون أربعة: ابن آدم المقتول، وسابق أمة

موسى وهو مؤمن آل فرعون، وسابق أمة عيسى وهو حبيب، والسابق في أمة محمد ﷺ وهو علي بن أبي طالب عليه السلام.

• أقول: وروي هذا المعنى في روضة الواعظين، عن الصادق عليه السلام.

د. وفي أمالي الشيخ، بإسناده إلى ابن عباس قال: سألت رسول الله ﷺ عن قول الله عز وجل: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولئِكَ الْمُقَرَّبُونَ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ فقال: قال لي جبرئيل: ذلك علي وشيعته، هم السابقون إلى الجنة المقربون من الله بكرامته لهم.

هـ. وفي كمال الدين، بإسناده إلى خيثمة الجعفي عن أبي جعفر عليه السلام في حديث: ونحن السابقون السابقون ونحن الآخرون.

و. وفي العيون، في باب ما جاء عن الرضا عليه السلام من الأخبار المجموعة بإسناده عن علي عليه السلام قال: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾ في نزلت.

ز. وفي المجمع في الآية: وقيل: إلى الصلوات الخمس، عن علي عليه السلام.

• أقول: الوجه حمل جميع هذه الأخبار على التمثيل كما تقدم.

٥. وصف نعيم السابقين المقربين في جنات النعيم:

المقطع [٥] من سورة الواقعة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ وَحُورٌ عِينٌ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا﴾ [الواقعة: ١١ـ٢٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ١٢٠»:

١. ﴿أُولئِكَ الْمُقَرَّبُونَ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾:

أ. الإشارة بأولئك إلى السابقين، و﴿أُولئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾ مبتدأ وخبر، والجملة استئنافية، وقيل: خبر لقوله: ﴿وَالسَّابِقُونَ﴾، وقيل: مبتدأ خبره في جنات النعيم، وأول الوجوه الثلاثة أوجه بالنظر إلى سياق تقسيم الناس إلى ثلاثة أزواج أولا ثم تفصيل ما ينتهي إليه أمر كل منهم.

ب. والقرب والبعد معنيان متضائفان تتصف بهما الأجسام بحسب النسبة المكانية ثم توسع فيهما

فاعتبرا في غير المكان من الزمان ونحوه، يقال: الغد قريب من اليوم والأربعة أقرب إلى الثلاثة من الخمسة، والخضرة أقرب إلى السواد من البياض ثم توسع فيهما فاعتبرا في غير الأجسام والجسمانيات من الحقائق.

ج. وقد اعتبر القرب وصفا له تعالى بما له من الإحاطة بكل شيء، قال تعالى: ﴿وَإِذا سَأَلَكَ عِبادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ١٨٦]، وقال: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ﴾ [الواقعة: ٨٥]، وقال: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦]، وهذا المعنى أعني كونه تعالى أقرب إلى الشيء من نفسه أعجب ما يتصور من معنى القرب، وقد أشرنا إلى تصويره في تفسير الآية.

د. واعتبر القرب أيضا وصفا للعباد في مرحلة العبودية ولما كان أمرا اكتسابيا يستعمل فيه لفظ التقرب فالعبد يتقرب بصالح العمل إلى الله سبحانه وهو وقوعه في معرض شمول الرحمة الإلهية بزوال أسباب الشقاء والحرمان، والله سبحانه يقرب العبد بمعنى إنزاله منزلة يختص بنيل ما لا يناله من دونه من إكرامه تعالى ومغفرته ورحمته، قال تعالى: ﴿كِتابٌ مَرْقُومٌ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ [المطففين: ٢١]، وقال: ﴿وَمِزاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ﴾ [المطففين: ٢٨]

هـ. فالمقربون هم النمط الأعلى من أهل السعادة كما يشير إليه قوله: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾ ولا يتم ذلك إلا بكمال العبودية كما قال: ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْداً لِلَّهِ وَلَا الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ [النساء: ١٧٢]، ولا تكمل العبودية إلا بأن يكون العبد تبعا محضا في إرادته وعمله لمولاه لا يريد ولا يعمل إلا ما يريده وهذا هو الدخول تحت ولاية الله فهؤلاء هم أولياء الله.

٢. ﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾:

أ. أي كل واحد منهم في جنة النعيم فالكل في جنات النعيم، ويمكن أن يراد به أن كلا منهم في جنات النعيم لكن يبعده قوله في آخر السورة: ﴿فَأَمَّا إِنْ كانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ فَرَوْحٌ وَرَيْحانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ﴾

ب. وقد تقدم غير مرة أن النعيم هي الولاية وأن جنة النعيم هي جنة الولاية وهو المناسب لما تقدم آنفا أن المقربين هم أهل ولاية الله.

٣. ﴿ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾:

أ. الثلة، على ما قيل، الجماعة الكثيرة، والمراد بالأولين الأمم الماضون للأنبياء السابقين، وبالآخرين هذه الأمة على ما هو المعهود من كلامه تعالى في كل موضع ذكر فيه الأولين والآخرين معا ومنها ما سيأتي

من قوله: ﴿أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ أَوَآباؤُنَا الْأَوَّلُونَ قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ لَمَجْمُوعُونَ إِلى مِيقاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾ فمعنى الآيتين: هم أي المقربون جماعة كثيرة من الأمم الماضين وقليل من هذه الأمة.

ب. وبما تقدم يظهر أن قول بعضهم: إن المراد بالأولين والآخرين أولوا هذه الأمة وآخروها غير سديد.

٤. ﴿عَلى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ مُتَّكِئِينَ عَلَيْها مُتَقابِلِينَ﴾ الوضن النسج وقيل: نسج الدرع وإطلاقه على نسج السرر استعارة يراد بها إحكام نسجها.

٥. ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَيْها﴾:

أ. حال من الضمير العائد إلى المقربين والضمير للسرر، وقوله: ﴿مُتَقابِلِينَ﴾ حال آخر منه أو من ضمير ﴿مُتَّكِئِينَ﴾ وتقابلهم كناية عن بلوغ أنسهم وحسن عشرتهم وصفاء باطنهم فلا ينظرون في قفاء صاحبهم ولا يعيبونه ولا يغتابونه.

ب. والمعنى: هم أي المقربون مستقرون على سرر منسوجة حال كونهم متكئين عليها حال كونهم متقابلين.

٦. ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدانٌ مُخَلَّدُونَ﴾ الولدان جمع ولد وهو الغلام، وطوافهم عليهم كناية عن خدمتهم لهم، والمخلدون من الخلود بمعنى الدوام أي باقون أبدا على هيئتهم من حداثة السن، وقيل من الخلد بفتحتين وهو القرط، والمراد أنهم مقرطون بالخلد.

٧. ﴿بِأَكْوابٍ وَأَبارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ﴾ الأكواب جمع كوب وهو الإناء الذي لا عروة له ولا خرطوم، والأباريق جمع إبريق وهو الإناء الذي له خرطوم، وقيل: عروة وخرطوم معا، والكأس معروف، قيل: أفرد الكأس لأنها لا تسمى كأسا إلا إذا كانت ممتلئة، والمراد بالمعين الخمر المعين وهو الظاهر للبصر الجاري.

٨. ﴿لا يُصَدَّعُونَ عَنْها وَلا يُنْزِفُونَ﴾ أي لا يأخذهم صداع لأجل خمار يحصل من الخمر كما في خمر الدنيا ولا يزول عقلهم بالسكر الحاصل منها.

٩. ﴿وَفاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾:

أ. الفاكهة والطير معطوفان على قوله: ﴿بِأَكْوابٍ﴾، والمعنى: يطوف عليهم الولدان بفاكهة مما

يختارون وبلحم طير مما يشتهون.

ب. ولا يستشكل بما ورد في الروايات أن أهل الجنة إذا اشتهوا فاكهة تدلى إليهم غصن شجرتها بما لها من ثمرة فيتناولونها، وإذا اشتهوا لحم طير وقع مقليا مشويا في أيديهم فيأكلون منها ما أرادوا ثم حيي وطار.

ج. وذلك لأن لهم ما شاءوا ومن فنون التنعم تناول ما يريدونه من أيدي خدمهم وخاصة حال اجتماعهم واحتفالهم كما أن من فنونه تناولهم أنفسهم من غير توسيط خدمهم فيه.

١٠. ﴿وَحُورٌ عِينٌ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ﴾ مبتدأ محذوف الخبر على ما يفيده السياق والتقدير ولهم حور عين أو وفيها حور عين والحور العين نساء الجنة وقد تقدم معنى الحور العين في تفسير سورة الدخان.

١١. ﴿كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ﴾ أي اللؤلؤ المصون المخزون في الصدف لم تمسه الأيدي فهو منته في صفائه.

١٢. ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ قيد لجميع ما تقدم وهو مفعول له، والمعنى: فعلنا بهم ما فعلنا ليكون جزاء لهم قبال ما كانوا يستمرون عليه من العمل الصالح.

١٣. ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا﴾ اللغو من القول ما لا فائدة فيه ولا أثر يترتب عليه، والتأثيم النسبة إلى الإثم أي لا يخاطب أحدهم صاحبه بما لا فائدة فيه ولا ينسبه إلى الإثم إذ لا إثم هناك، وفسر بعضهم التأثيم بالكذب.

١٤. ﴿إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا﴾:

أ. استثناء منقطع من اللغو والتأثيم، والقيل مصدر كالقول، و﴿سَلَامًا﴾ بيان لقوله: ﴿قِيلًا﴾ وتكراره يفيد تكرر الوقوع، والمعنى: إلا قولا هو السلام بعد السلام.

ب. قيل: ويمكن أن يكون ﴿سَلَامًا﴾ مصدرا بمعنى الوصف وصفة لقيلا، والمعنى: إلا قولا هو سالم.

١٥. أحاديث وآثار:

أ. أخرج ابن مردويه وابن عساكر من طريق عروة بن رويم عن جابر بن عبد الله قال: لما نزلت إذا وقعت الواقعة ذكر فيها ﴿ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾ قال عمر: يا رسول الله ثلة من الأولين

وثلة من الآخرين، فقال رسول الله ﷺ: تعال واستمع ما قد أنزل الله، ﴿ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾، ألا وإن من آدم إلى ثلة وأمتي ثلة، ولن نستكمل ثلتنا حتى نستعين بالسودان رعاة الإبل، ممن يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، قال السيوطي وأخرجه ابن أبي حاتم من وجه آخر عن عروة بن رويم مرسلا أخرج ابن مردويه عن أبي هريرة قال: لما نزلت ﴿ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾ حزن أصحاب رسول الله ﷺ وقالوا: إذن لا يكون من أمة محمد إلا قليل فنزلت نصف النهار ﴿ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾ تقابلون الناس فنسخت الآية ﴿وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾

• أقول: قال في الكشاف، في تفسير الآية: (فإن قلت: فقد روي أنها لما نزلت شق ذلك على المسلمين فما زال رسول الله ﷺ يراجع ربه حتى نزلت ﴿ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾، قلت: هذا لا يصح لأمرين: أحدهما: أن هذه الآية واردة في السابقين ورودا ظاهرا وكذلك الثانية في أصحاب اليمين، ألا ترى كيف عطف أصحاب اليمين ووعدهم على السابقين ووعدهم؟ الثاني: أن النسخ في الأخبار غير جائز)

• وأجيب عنه بأنه يمكن أن يحمل الحديث على أن الصحابة لما سمعوا الآية الأولى حسبوا أن الأمر في هذه الأمة يذهب على هذا النهج فيكون أصحاب اليمين ثلة من الأولين وقليلا منهم فيكون الفائزون بالجنة في هذه الأمة أقل منهم في الأمم السالفة فنزلت ﴿ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾ فزال حزنهم، ومعنى نسخ الآية السابقة إزالة حسبانهم المذكور.

• وأنت خبير بأنه حمل على ما لا دليل عليه من جهة اللفظ واللفظ يأباه وخاصة حمل نسخ الآية على إزالة الحسبان، وحال الرواية الأولى وخاصة من جهة ذيلها كحال هذه الرواية.

ب. وفي المجمع: (في قوله تعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ﴾ اختلف في هذه الولدان فقيل: إنهم أولاد أهل الدنيا لم يكن لهم حسنات فيثابوا عليها ولا سيئات فيعاقبوا عليها فأنزلوا هذه المنزلة.

ج. قال: وقد روي عن النبي ﷺ: أنه سئل عن أطفال المشركين؟ فقال: هم خدم أهل الجنة.

• أقول: ورواه في الدر المنثور عن الحسن، والرواية ضعيفة لا تعويل عليها.

د. أخرج ابن أبي الدنيا في صفة الجنة والبزار وابن مردويه والبيهقي في البعث عن عبد الله بن مسعود قال: قال لي رسول الله ﷺ: إنك لتنظر إلى الطير في الجنة، فتشتهيه فيخر بين يديك مشويا.

• أقول: وفي هذا المعنى روايات كثيرة وفي بعضها أن المؤمن يأكل ما يشتهيه ثم يعود الباقي إلى ما

كان عليه ويحيا فيطير إلى مكانه ويباهي بذلك.

هـ. وفي تفسير القمي: في قوله تعالى: ﴿لا يَسْمَعُونَ فِيها لَغْواً وَلا تَأْثِيماً﴾ قال: الفحش والكذب والغنا.

• أقول: لعل المراد بالغنا ما يكون منه لهوا أو الغنا مصحف الخنا.

٦. وصف نعيم أصحاب اليمين:

المقطع [٦] من سورة الواقعة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ وَظِلٍّ مَمْدُودٍ وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا عُرُبًا أَتْرَابًا لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾ [الواقعة: ٢٧ـ٤٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ١٢٣»:

١. ﴿وَأَصْحابُ الْيَمِينِ ما أَصْحابُ الْيَمِينِ﴾ شروع في تفصيل ما) انتهى إليه حال أصحاب الميمنة وفي تبديله من أصحاب اليمين يعلم أن أصحاب اليمين وأصحاب الميمنة واحد وهم الذين يؤتون كتابهم بيمينهم، والجملة استفهامية مسوقة لتفخيم أمرهم والتعجيب من حالهم وهي خبر لقوله: ﴿وَأَصْحابُ الْيَمِينِ﴾

٢. ﴿فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ﴾ السدر شجرة النبق، والمخضود ما قطع شوكة فلا شوك له.

٣. ﴿وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ﴾ الطلح شجر الموز، وقيل: ليس بالموز بل شجر له ظل بارد رطب، وقيل: شجرة أم غيلان لها أنوار طيبة الرائحة، ونضد الأشياء جعل بعضها على بعض، والمعنى: وفي شجر موز منضود الثمر بعضه على بعض من أسفله إلى أعلاه.

٤. ﴿وَظِلٍّ مَمْدُودٍ وَماءٍ مَسْكُوبٍ﴾ قيل: الممدود من الظل هو الدائم الذي لا تنسخه شمس فهو باق لا يزول، والماء المسكوب هو المصبوب الجاري من غير انقطاع.

٥. ﴿وَفاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ لا مَقْطُوعَةٍ وَلا مَمْنُوعَةٍ﴾ أي لا مقطوعة في بعض الأزمان كانقطاع الفواكه في شتاء ونحوه في الدنيا، ولا ممنوعة التناول لمانع من قبل أنفسهم كسأمة أو شبع أو من خارج كبعد المكان أو شوكة تمنع القطف أو غير ذلك.

٦. ﴿وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ﴾ الفرش جمع فراش وهو البساط، والمرفوعة العالية، وقيل: المراد بالفرش

المرفوعة النساء المرتفعات قدرا في عقولهن وجمالهن وكمالهن والمرأة تسمى فراشا، ويناسب هذا المعنى قوله بعد: ﴿إِنَّا أَنْشَأْناهُنَّ إِنْشاءً﴾

٧. ﴿إِنَّا أَنْشَأْناهُنَّ إِنْشاءً فَجَعَلْناهُنَّ أَبْكاراً﴾ أي إنا أوجدناهن وأحدثناهن وربيناهن أحداثا وتربية خاصة، وفيه تلويح إلى أنهن لا يختلف حالهن بالشباب والشيب وصباحة المنظر وخلافها، وقوله: ﴿فَجَعَلْناهُنَّ أَبْكاراً﴾ أي خلقناهن عذارى كلما أتاهن أزواجهن وجدوهن أبكارا.

٨. ﴿عُرُباً أَتْراباً﴾ العرب جمع عروب وهي المتحننة إلى زوجها أو الغنجة أو العاشقة لزوجها، والأتراب جمع ترب بالكسر فالسكون بمعنى المثل أي أنهن أمثال أو أمثال في السن لأزواجهن.

٩. ﴿لِأَصْحابِ الْيَمِينِ ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾ يتضح معناه بما تقدم، ويستفاد من الآيات أن أصحاب اليمين في الآخرين جمع كثير كالأولين لكن السابقين المقربين في الآخرين أقل جمعا منهم في الأولين.

١٠. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي في قوله تعالى: ﴿وَأَصْحابُ الْيَمِينِ ما أَصْحابُ الْيَمِينِ﴾ قال: علي بن أبي طالب عليه السلام وأصحابه وشيعته.

• أقول: الرواية مبنية على ما ورد في ذيل قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُناسٍ بِإِمامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ [الإسراء: ٧١]، إن اليمين هو الإمام الحق ومعناها أن اليمين هو علي عليه السلام وأصحاب اليمين شيعته، والرواية من الجري.

ب. وفيه: في قوله تعالى: ﴿فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ﴾ شجر لا يكون له ورق ولا شوك فيه، وقرأ أبو عبد الله عليه السلام: (وطلع منضود) قال: بعضه على بعض.

ج. أخرج الحاكم وصححه والبيهقي في البعث عن أبي أمامة قال: كان أصحاب رسول الله ﷺ يقولون: إن الله ينفعنا بالأعراب ومسائلهم، أقبل أعرابي يوما فقال: يا رسول الله، لقد ذكر الله في القرآن شجرة مؤذية، وما كنت أرى أن في الجنة شجرة تؤذي صاحبها، فقال رسول الله ﷺ: وما هي؟ قال: السدر فإن لها شوكا، فقال رسول الله ﷺ: أليس يقول الله: ﴿فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ﴾ يخضده الله من شوكة، فيجعل مكان كل شوكة ثمرة، أنها تنبت ثمرا تفتق الثمر منها، عن اثنين وسبعين لونا من الطعام، ما فيها لون يشبه

الآخر.

د. وفي المجمع: ورووت العامة عن علي عليه السلام: أنه قرأ رجل عنده ﴿وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ﴾ فقال: ما شأن الطلح إنما هو (وطلع) كقوله: ﴿وَنَخْلٍ طَلْعُها هَضِيمٌ﴾ فقيل له: ألا تغيره؟ قال: إن القرآن لا يهاج اليوم ولا يحرك، رواه عنه ابنه الحسن عليه السلام وقيس بن سعد.

هـ. أخرج عبد الرزاق والفاريابي وهناد وعبد بن حميد وابن جرير وابن مردويه عن علي بن أبي طالب: في قوله: ﴿وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ﴾ قال: هو الموز.

و. وفي المجمع: (ورد في الخبر: أن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة سنة، لا يقطعها اقرءوا إن شئتم ﴿وَظِلٍّ مَمْدُودٍ﴾ وروي أيضا: أن أوقات الجنة كغدوات الصيف، لا يكون فيها حر ولا برد.

• أقول: وروي الأول في الدر المنثور عن أبي سعيد وأنس وغيرهما عن النبي ﷺ.

ز. وفي روضة الكافي، بإسناده عن علي بن إبراهيم عن ابن محبوب عن محمد بن إسحاق المدني عن أبي جعفر عليه السلام عن النبي ﷺ: في حديث يصف فيه الجنة وأهلها: ويزور بعضهم بعضا ويتنعمون في جناتهم، في ظل ممدود في مثل ما بين طلوع الفجر، إلى طلوع الشمس وأطيب من ذلك.

ح. وفي تفسير القمي: وقوله: ﴿إِنَّا أَنْشَأْناهُنَّ إِنْشاءً﴾ قال: الحور العين في الجنة ﴿فَجَعَلْناهُنَّ أَبْكاراً عُرُباً﴾ قال: لا يتكلمون إلا بالعربية.

ط. أخرج ابن أبي حاتم عن جعفر بن محمد عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: في قوله: ﴿عُرُباً﴾ قال: كلامهن عربي.

• أقول: وفيه روايات أخر أن عربا جمع عروب وهي الغنجة.

ي. أخرج مسدد في مسنده وابن المنذر والطبراني وابن مردويه بسند حسن عن أبي بكرة عن النبي ﷺ: في قوله تعالى: ﴿ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾ قال: هما جميعا من هذه الأمة.

• أقول: وهذا المعنى مروي في غير واحد من الروايات لكن ظاهر آيات السورة أن القسمة لكافة البشر لا لهذه الأمة خاصة، ولعل المراد من هذه الروايات بيان بعض المصاديق وإن كان بعيدا، وكذا المراد مما ورد أن أصحاب اليمين أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام، وما ورد أن أصحاب الشمال أعداء آل محمد عليه السلام.

٧. وصف عذاب أصحاب الشمال:

المقطع [٧] من سورة الواقعة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنْثِ الْعَظِيمِ﴾ [الواقعة: ٤١-٤٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ١٢٤»:

١. ﴿وَأَصْحابُ الشِّمالِ ما أَصْحابُ الشِّمالِ﴾ مبتدأ وخبر، والاستفهام للتعجيب والتهويل، وقد بدل أصحاب المشأمة من أصحاب الشمال إشارة إلى أنهم الذين يؤتون كتابهم بشمالهم كما مر نظيره في أصحاب اليمين.

٢. ﴿فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ لا بارِدٍ وَلا كَرِيمٍ﴾ السموم، على ما في الكشاف، حر نار ينفذ في المسام، والحميم الماء الشديد الحرارة، والتنوين فيهما لتعظيم الأمر، واليحموم الدخان الأسود، وقوله: ﴿لا بارِدٍ وَلا كَرِيمٍ﴾ الظاهر أنهما صفتان للظل لا ليحموم، وذلك أن الظل هو الذي يتوقع منه أن يتبرد بالاستظلال به ويستراح فيه دون الدخان.

٣. ﴿إِنَّهُمْ كانُوا قَبْلَ ذلِكَ مُتْرَفِينَ﴾:

أ. تعليل لاستقرار أصحاب الشمال في العذاب، والإشارة بذلك إلى ما ذكر من عذابهم يوم القيامة، وإتراف النعمة الإنسان إبطارها وإطغاؤها له، وذلك إشغالها نفسه بحيث يغفل عما وراءها فكون الإنسان مترفا تعلقه بما عنده من نعم الدنيا وما يطلبه منها سواء كانت كثيرة أو قليلة.

ب. فلا يرد ما استشكل من أن كثيرا من أصحاب الشمال ليسوا من المترفين بمعنى المتوسعين في التنعم وذلك أن الإنسان محفوف بنعم ربه وليست النعمة هي المال فحسب فاشتغاله بنعم ربه عن ربه ترفه منه، والمعنى: أنا إنما نعذبهم بما ذكر لأنهم كانوا قبل ذلك في الدنيا بطرين طاغين بالنعم.

٤. ﴿وَكانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنْثِ الْعَظِيمِ﴾:

أ. في المجمع: (الحنث نقض العهد المؤكد بالحلف، والإصرار أن يقيم عليه فلا يقلع عنه)

ب. ولعل المستفاد من السياق أن إصرارهم على الحنث العظيم هو استكبارهم عن عبودية ربهم التي عاهدوا الله عليها بحسب فطرتهم وأخذ منهم الميثاق عليها في عالم الذر فيطيعون غير ربهم وهو الشرك المطلق.

ج. وقيل: الحنث الذنب العظيم فتوصيفه بالعظيم مبالغة والحنث العظيم الشرك بالله، وقيل: الحنث العظيم جنس المعاصي الكبيرة، وقيل: هو القسم على إنكار البعث المشار إليه بقوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لا يَبْعَثُ اللهُ مَنْ يَمُوتُ﴾ [النحل: ٣٨]، ولفظ الآية مطلق.

٥. أحاديث وآثار:

أ. في المحاسن، بإسناده عن معاوية بن وهب عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سألته عن الشرب بنفس واحد فكرهه، وقال: ذلك شرب الهيم، قلت: وما الهيم؟ قال: الإبل.

ب. وفيه، بإسناده عن الحلبي عن أبي عبد الله عليه السلام: أنه كان يكره أن يتشبه بالهيم، قلت: وما الهيم؟ قال الرمل.

• أقول: والمعنيان جميعا واردان في روايات أخر.

٨. استهزاء أصحاب الشمال بالبعث:

المقطع [٨] من سورة الواقعة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾ [الواقعة: ٤٧ـ٥٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ١٢٥»:

١. ﴿وَكانُوا يَقُولُونَ أَإِذا مِتْنا وَكُنَّا تُراباً وَعِظاماً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ أَوَآباؤُنَا الْأَوَّلُونَ﴾ قول منهم مبني على الاستبعاد ولذا أكدوا استبعاد بعث أنفسهم ببعث آبائهم لأن الاستبعاد في موردهم آكد، والتقدير أوآباؤنا الأولون مبعوثون.

٢. ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ لَمَجْمُوعُونَ إِلى مِيقاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾:

أ. أمر منه تعالى لنبيه ﷺ أن يجيب عن استبعادهم البعث بتقريره ثم إخبارهم عما يعيشون به يوم البعث من طعام وشراب وهما الزقوم والحميم.

ب. ومحصل القول إن الأولين والآخرين، من غير فرق بينهم لا كما فرقوا فجعلوا بعث أنفسهم مستبعدا وبعث آبائهم الأولين أشد استبعادا وآكد، لمجموعون محشورين إلى ميقات يوم معلوم.

ج. والميقات ما وقت به الشيء وهو وقته المعين، والمراد بيوم معلوم يوم القيامة المعلوم عند الله فإضافة الميقات إلى يوم معلوم بيانية.

٩. وعيد الضالين المكذبين بأكلهم من شجرة الزقوم وشرب الحميم:

المقطع [٩] من سورة الواقعة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ لَآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الواقعة: ٥١ـ٥٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ١٢٥»:

١. ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ لَآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ﴾:

أ. من تمام كلام النبي ﷺ يخبرهم عما ينتهي إليه حالهم يوم القيامة ويعيشون به من طعام وشراب.

ب. وفي خطابهم بالضالين المكذبين إشارة إلى ملاك شقائهم وخسرانهم يوم البعث وهو ضلالهم عن طريق الحق واستقرار ذلك في نفوسهم باستمرارهم على تكذيبهم وإصرارهم على الحنث، ولو كانوا ضالين فحسب من غير تكذيب لكان من المرجو أن ينجوا ولا يهلكوا.

ج. و﴿مِنْ﴾ في قوله: ﴿مِنْ شَجَرٍ﴾ للابتداء، وفي قوله: ﴿مِنْ زَقُّومٍ﴾ بيانية ويحتمل أن يكون ﴿مِنْ زَقُّومٍ﴾ بدلا من ﴿مِنْ شَجَرٍ﴾، وضمير ﴿مِنْهَا﴾ للشجر أو الثمر وكل منهما يؤنث ويذكر ولذا جيء هاهنا بضمير التأنيث وفي الآية التالية في قوله: ﴿فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ﴾ بضمير التذكير، والباقي ظاهر.

٢. ﴿فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ﴾:

أ. كلمة (على) للاستعلاء وتفيد في المورد كون الشرب عقيب الأكل من غير ريث، والهيم جمع هيماء الإبل التي أصابها الهيام بضم الهاء وهو داء شبه الاستسقاء يصيب الإبل فتشرب الماء حتى تموت أو تسقم سقما شديدا، وقيل: الهيم الرمال التي لا تروى بالماء.

ب. والمعنى: فشاربون عقيب ما أكلتم من الزقوم من الماء الشديد الحرارة فشاربون كشرب الإبل الهيم أو كشرب الرمال الهيم وهذا آخر ما أمر النبي ﷺ أن يقوله لهم.

٣. ﴿هذا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ﴾ أي يوم الجزاء والنزل ما يقدم للضيف النازل من طعام وشراب إكراما له، والمعنى: هذا الذي ذكر من طعامهم وشرابهم هو نزل الضالين المكذبين ففي تسمية ما أعد لهم بالنزل نوع تهكم، والآية من كلامه تعالى خطابا للنبي ﷺ، ولو كان من كلام النبي ﷺ خطابا لهم لقيل: هذا نزلكم.

١٠. الاستدلال بخلق الإنسان والموت والبعث على قدرة الله:

المقطع [١٠] من سورة الواقعة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ

أَفَرَأَيْتُم مَا تُمْنُونَ أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنْشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٥٧ـ٦٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ١٣١»:

١. ﴿نَحْنُ خَلَقْناكُمْ فَلَوْلا تُصَدِّقُونَ﴾:

أ. السياق سياق الكلام في البعث والجزاء وقد أنكروه وكذبوا به، فقوله: ﴿فَلَوْلا تُصَدِّقُونَ﴾ تحضيض على تصديق حديث المعاد وترك التكذيب به، وقد علله بقوله: ﴿نَحْنُ خَلَقْناكُمْ﴾ كما يستفاد من التفريع الذي في قوله: ﴿فَلَوْلا تُصَدِّقُونَ﴾

ب. وإيجاب خلقه تعالى لهم وجوب تصديقه فيما يخبر به من المعاد من وجهين:

• أحدهما: أنه تعالى خلقهم أول مرة فهو قادر على إعادة خلقهم ثانيا كما قال: ﴿قالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظامَ وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَها أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٩]

• وثانيهما: أنه تعالى لما كان هو خالقهم وهو المدبر لأمرهم المقدر لهم خصوصيات خلقهم وأمرهم فهو أعلم بما يفعل بهم وسيجري عليهم فإذا أنبأهم بأنه سيبعثهم بعد موتهم ويجزيهم بما عملوا إن خيرا وإن شرا لم يكن بد من تصديقه فلا عذر لمن كذب بما أخبر به كتابه من البعث والجزاء، قال تعالى: ﴿أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾، وقال: ﴿كَما بَدَأْنا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنا إِنَّا كُنَّا فاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]، وقال: ﴿وَعْدَ اللهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ قِيلاً﴾ [النساء: ١٢٢]

ج. فمحصل الآية: نحن خلقناكم ونعلم ما فعلنا وما سنفعل بكم فنخبركم أنا سنبعثكم ونجزيكم بما عملتم فهلا تصدقون بما نخبركم به فيما أنزلناه من الكتاب.

د. وفي الآية وما يتلوها من الآيات التفات من الغيبة إلى الخطاب لأن السياق سياق التوبيخ والمعاتبة وذلك بالخطاب أوقع وآكد.

٢. ﴿أَفَرَأَيْتُم ما تُمْنُونَ﴾ الأمناء قذف المني وصبه والمراد قذفه وصبه في الأرحام، والمعنى: أفرأيتم المني الذي تصبونه في أرحام النساء.

٣. ﴿أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخالِقُونَ﴾ أي أأنتم تخلقونه بشرا مثلكم أم نحن خالقوه بشرا.

٤. ﴿نَحْنُ قَدَّرْنا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَما نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾:

أ. تدبير أمر الخلق بجميع شئونه وخصوصياته من لوازم الخلق بمعنى إفاضة الوجود فوجود الإنسان المحدود بأول كينونته إلى آخر لحظة من حياته الدنيا بجميع خصوصياته التي تتحول عليه بتقدير من خالقه عز وجل، فموته أيضا كحياته بتقدير منه، وليس يعتريه الموت لنقص من قدرة خالقه أن يخلقه بحيث لا يعتريه الموت أو من جهة أسباب وعوامل تؤثر فيه بالموت فتبطل الحياة التي أفاضها عليه خالقه تعالى فإن لازم ذلك أن تكون قدرته تعالى محدودة ناقصة وأن يعجزه بعض الأسباب وتغلب إرادته إرادته وهو محال كيف؟ والقدرة مطلقة والإرادة غير مغلوبة.

ب. ويتبين بذلك أن المراد بقوله: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ﴾ أن الموت حق مقدر وليس أمرا يقتضيه ويستلزمه نحو وجود الحي بل هو تعالى قدر له وجودا كذا ثم موتا يعقبه.

ج. وأن المراد بقوله: ﴿وَما نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ والسبق هو الغلبة والمسبوق المغلوب، ولسنا مغلوبين في عروض الموت عن الأسباب المقارنة له بأن نفيض عليكم حياة نريد أن يدوم ذلك عليكم فيسبقنا الأسباب وتغلبنا فتبطل بالموت الحياة التي كنا نريد دوامها.

٥. ﴿عَلى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثالَكُمْ وَنُنْشِئَكُمْ فِي ما لا تَعْلَمُونَ﴾:

أ. ﴿عَلى﴾ متعلقة بقوله: ﴿قَدَّرْنا﴾ وجملة الجار والمجرور في موضع الحال أي نحن قدرنا بينكم الموت حال كونه على أساس تبديل الأمثال والإنشاء فيما لا تعلمون.

ب. والأمثال جمع مثل بالكسر فالسكون ومثل الشيء ما يتحد معه في نوعه كالفرد من الإنسان بالنسبة إلى فرد آخر، والمراد بقوله: ﴿أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثالَكُمْ﴾ أن نبدل أمثالكم من البشر منكم أو نبدل أمثالكم مكانكم، والمعنى على أي حال تبديل جماعة من أخرى وجعل الأخلاف مكان الأسلاف.

٦. ﴿وَنُنْشِئَكُمْ فِي ما لا تَعْلَمُونَ﴾:

أ. ﴿ما﴾ موصولة والمراد به الخلق والجملة معطوفة على ﴿نُبَدِّلَ﴾ والتقدير وعلى أن ننشئكم ونوجدكم في خلق آخر لا تعلمونه وهو الوجود الأخروي غير الوجود الدنيوي الفاني.

ب. ومحصل معنى الآيتين أن الموت بينكم إنما هو بتقدير منا لا لنقص في قدرتنا بأن لا يتيسر لنا إدامة حياتكم ولا لغلبة الأسباب المهلكة المبيدة وقهرها وتعجيزها لنا في حفظ حياتكم وإنما قدرناه بينكم على أساس تبديل الأمثال وإذهاب قوم والإتيان بآخرين وإنشاء خلق لكم يناسب الحياة الآخرة وراء

الخلق الدنيوي الداثر فالموت انتقال من دار إلى دار وتبدل خلق إلى خلق آخر وليس بانعدام وفناء.

ج. واحتمل بعضهم أن يكون الأمثال في الآية جمع مثل بفتحتين وهو الوصف فتكون الجملتان ﴿عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ﴾، و﴿نُنْشِئَكُمْ﴾، تفيدان معنى واحدا، والمعنى: على أن نغير أوصافكم وننشئكم في وصف لا تعرفونه أو لا تعلمونه كحشركم في صفة الكلب أو الخنزير أو غيرهما من الحيوان بعد ما كنتم في الدنيا على صفة الإنسان، والمعنى السابق أجمع وأكثر فائدة.

٧. ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولى فَلَوْلا تَذَكَّرُونَ﴾:

أ. المراد بالنشأة الأولى نشأة الدنيا، والعلم بها بخصوصياتها يستلزم الإذعان بنشأة أخرى خالدة فيها الجزاء، فإن من المعلوم من النظام الكوني أن لا لغو ولا باطل في الوجود فلهذه النشأة الفانية غاية باقية، وأيضا من ضروريات هذا النظام هداية كل شيء إلى سعادة نوعه وهداية الإنسان تحتاج إلى بعث الرسل وتشريع الشرائع وتوجيه الأمر والنهي، والجزاء على خير الأعمال وشرها وليس في الدنيا فهو في دار أخرى وهي النشأة الآخرة.

ب. على أنهم شاهدوا النشأة الأولى وعرفوها وعلموا أن الذي أوجدها عن كتم العدم هو الله سبحانه وإذ قدر عليها أولا فهو على إيجاد مثلها ثانيا قادر، قال تعالى: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [يس: ٧٩]، وهذا برهان على الإمكان يرتفع به استبعادهم للبعث.

ج. وبالجملة يحصل لهم بالعلم بالنشأة الأولى علم بمبادئ البرهان على إمكان البعث فيرتفع به استبعاد البعث فلا استبعاد مع الإمكان.

د. وهذا، كما ترى، برهان على إمكان حشر الأجساد، محصله أن البدن المحشور مثل البدن الدنيوي وإذ جاز صنع البدن الدنيوي وإحياؤه فليجز صنع البدن الأخروي وإحياؤه لأنه مثله وحكم الأمثال فيما يجوز وفيما لا يجوز واحد.

هـ. فمن العجيب قول الزمخشري في الكشاف، في الآية: (وفي هذا دليل على صحة القياس حيث جهلهم في ترك قياس النشأة الأخرى بالأولى)

• وذلك لأن الذي في الآية قياس برهاني منطقي والذي يستدل بها عليه قياس فقهي مفيد للظن فأين أحدهما من الآخر؟

و. وقال في روح المعاني، في الآية: (فهلا تتذكرون أن من قدر عليها يعني على النشأة الأولى فهو على النشأة الأخرى أقدر وأقدر فإنها أقل صنعا لحصول المواد وتخصيص الأجزاء وسبق المثال، وهذا على ما قالوا دليل على صحة القياس لكن قيل: لا يدل إلا على قياس الأولي لأنه الذي في الآية)

• وفيه ما في سابقه، على أن الذي في الآية ليس من قياس الأولي في شيء لأن الجامع بين النشأة الأولى والأخرى أنهما مثلان ومبدأ القياس أن حكم الأمثال فيما يجوز وفيما لا يجوز واحد.

• وأما قوله: إن النشأة الأخرى أقل صنعا لحصول المواد وتخصيص الأجزاء، فهو ممنوع فإن المواد تحتاج إلى إفاضة الوجود بقاء كما تحتاج إليها في حدوثها وأول حصولها، وكذا تخصص الأجزاء يحتاج إليها بقاء كما تحتاج إليها فالصنع ثانيا كالصنع أولا.

• وأما قوله: وسبق المثال، فقد خلط بين المثل والمثال فالبدن الأخروي بالنظر إلى نفسه مثل البدن الدنيوي لا على مثاله ولو كان على مثاله كانت الآخرة دنيا لا آخرة.

ز. سؤال وإشكال: فإن قلت: لو كان البدن الأخروي مثلا للبدن الدنيوي ومثل الشيء غيره كان الإنسان المعاد في الآخرة غير الإنسان المبتدء في الدنيا لأنه مثله لا عينه، والجواب: قد تقدم في المباحث السابقة غير مرة أن شخصية الإنسان بروحه لا ببدنه، والروح لا تنعدم بالموت وإنما يفسد البدن وتتلاشى أجزاؤه ثم إذا سوي ثانيا مثل ما كان في الدنيا ثم تعلقت به الروح كان الإنسان عين الإنسان الذي في الدنيا كما كان زيد الشائب مثلا عين زيد الشاب لبقاء الروح على شخصيتها مع تغير البدن لحظة بعد لحظة.

١١. الاستدلال بإنزال المطر وإنبات الزرع على قدرة الله:

المقطع [١١] من سورة الواقعة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ [الواقعة: ٦٣-٦٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ١٣٥»:

١. ﴿أَفَرَأَيْتُم ما تَحْرُثُونَ﴾:

أ. بعد ما ذكرهم بكيفية خلق أنفسهم وتقدير الموت بينهم تمهيدا للبعث والجزاء وكل ذلك من لوازم ربوبيته عد لهم أمورا ثلاثة من أهم ما يعيشون به في الدنيا وهي الزرع الذي يقتاتون به والماء الذي يشربونه والنار التي يصطلون بها ويتوسلون بها إلى جمل من مآربهم، وتثبت بذلك ربوبيته لهم فليست

الربوبية إلا التدبير عن ملك.

ب. فقال: ﴿أَفَرَأَيْتُم ما تَحْرُثُونَ﴾ الحرث العمل في الأرض وإلقاء البذر عليها ﴿أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ﴾ أي تنبتونه وتنمونه حتى يبلغ الغاية، وضمير ﴿تَزْرَعُونَهُ﴾ للبذر أو الحرث المعلوم من المقام ﴿أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾ المنبتون المنمون حتى يكمل زرعا ﴿لَوْ نَشاءُ لَجَعَلْناهُ حُطاماً﴾ أي هشيما متكسرا متفتتا ﴿فَظَلْتُمْ﴾ أي فظللتم وصرتم ﴿تَفَكَّهُونَ﴾ أي تتعجبون مما أصيب به زرعكم وتتحدثون بها جرى قائلين ﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ﴾ موقعون في الغرامة والخسارة ذهب مالنا وضاع وقتنا وخاب سعينا ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ ممنوعون من الرزق والخير.

ج. ولا منافاة بين نفي الزرع عنهم ونسبته إليه تعالى وبين توسط عوامل وأسباب طبيعية في نبات الزرع ونموه فإن الكلام عائد في تأثير هذه الأسباب وصنعها وليس نحو تأثيرها باقتضاء من ذاتها منقطعة عنه تعالى بل بجعله ووضعه وموهبته، وكذا الكلام في أسباب هذه الأسباب، وينتهي الأمر إلى الله سبحانه وأن إلى ربك المنتهى.

٢. أحاديث وآثار: في المجمع في قوله تعالى: ﴿أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾ وروي عن النبي ﷺ قال: لا يقولن أحدكم زرعت وليقل حرثت.

• أقول: ورواه في الدر المنثور، عن عدة من أصحاب الجوامع عن أبي هريرة عنه ﷺ.

١٢. الاستدلال بإنزال الماء العذب من المزن على قدرة الله:

المقطع [١٢] من سورة الواقعة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ [الواقعة: ٦٨-٧٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ١٣٥»:

١. ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْماءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ﴾ المزن السحاب، وقوله: ﴿فَلَوْلا تَشْكُرُونَ﴾ تحضيض على الشكر، وشكره تعالى جميل ذكره تعالى على نعمه وهو إظهار عبوديته قولا وعملا، والباقي ظاهر.

٢. أحاديث وآثار: في تفسير القمي: ﴿أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ﴾ قال: من السحاب ﴿نَحْنُ جَعَلْناها تَذْكِرَةً﴾ لنار يوم القيامة ﴿وَمَتاعاً لِلْمُقْوِينَ﴾ قال: المحتاجين.

١٣. الاستدلال بإيجاد النار من الشجر على قدرة الله:

المقطع [١٣] من سورة الواقعة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ [الواقعة: ٧١ـ٧٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ١٣٥»:

١. ﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ﴾ قال في المجمع: (الإيراء إظهار النار بالقدح، يقال أورى يوري، قال: ويقال قدح فأورى إذا أظهر فإذا لم يور يقال: قدح فأكبى، وقال: والمقوي النازل بالقواء من الأرض ليس بها أحد، وأقوت الدار خلت من أهلها)، والمعنى ظاهر.

٢. ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾:

أ. خطاب للنبي ﷺ، لما ذكر سبحانه شواهد ربوبيته لهم وأنه الذي يخلقهم ويدبر أمرهم ومن تدبيره أنه سيبعثهم ويجزيهم بأعمالهم وهم مكذبون بذلك أعرض عن خطابهم والتفت إلى خطاب النبي ﷺ إشعارا بأنهم لا يفقهون القول فأمر النبي ﷺ أن ينزهه تعالى عن إشراكهم به وإنكارهم البعث والجزاء.

ب. فقوله: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ﴾، الفاء لتفريع التسبيح على ما تقدم من البيان، والباء للاستعانة أو الملابسة، والمعنى: فإذا كان كذلك فسبح مستعينا بذكر اسم ربك، أو المراد بالاسم الذكر لأن إطلاق اسم الشيء ذكر له كما قيل أو الباء للتعدية لأن تنزيه اسم الشيء تنزيه له، والمعنى: نزه اسم ربك من أن تذكر له شريكا أو تنفي عنه البعث والجزاء، والعظيم صفة الرب أو الاسم.

٣. أحاديث وآثار: في المجمع: (في قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ فقد صح عن النبي ﷺ: أنه لما نزلت هذه الآية قال: اجعلوها في ركوعكم.

- أقول: ورواه في الفقيه، مرسلا، ورواه في الدر المنثور، عن الجهني عنه ﷺ.

١٤. القسم بمواقع النجوم على عظمة القرآن وطهارته:

المقطع [١٤] من سورة الواقعة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الواقعة: ٧٥ـ٨٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ١٣٦»:

١. ﴿فَلا أُقْسِمُ﴾:

أ. قسم وقيل: لا زائدة وأقسم هو القسم، وقيل: لا نافية وأقسم هو القسم.

ب. و(مواقع) جمع موقع وهو المحل، والمعنى: أقسم بمحال النجوم من السماء، وقيل: مواقع جمع موقع مصدر ميمي بمعنى السقوط يشير به إلى سقوط الكواكب يوم القيامة أو وقوع الشهب على الشياطين، أو مساقط الكواكب في مغاربها، وأول الوجوه هو السابق إلى الذهن.

٢. ﴿وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ تعظيم لهذا القسم وتأكيد على تأكيد.

٣. ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾:

أ. لما كان إنكارهم حديث وحدانيته تعالى في ربوبيته وألوهيته وكذا إنكارهم للبعث والجزاء إنما أبدوه بإنكار القرآن النازل على النبي ﷺ الذي فيه نبأ التوحيد والبعث كان إنكارهم منشعبا إلى إنكار أصل التوحيد والبعث أصلا، وإلى إنكار ذلك بما أن القرآن ينبئهم به، فأورد تعالى أولا بيانا لإثبات أصل الوحدانية والبعث بذكر شواهد من آياته تثبت ذلك وهو قوله: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ﴾، إلى قوله: ﴿وَمَتَاعاً لِلْمُقْوِينَ﴾، وثانيا بيانا يؤكد فيه كون القرآن الكريم كلامه المحفوظ عنده النازل منه ووصفه بأحسن أوصافه.

ب. فقوله: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾ جواب للقسم السابق، الضمير للقرآن المعلوم من السياق السابق ويستفاد من توصيفه بالكريم من غير تقييد في مقام المدح أنه كريم على الله عزيز عنده وكريم محمود الصفات وكريم بذال نفاع للناس لما فيه من أصول المعارف التي فيها سعادة الدنيا والآخرة.

٤. ﴿فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ﴾ وصف ثان للقرآن أي محفوظ مصون عن التغيير والتبديل، وهو اللوح المحفوظ كما قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾ [البروج: ٢٢]

٥. ﴿لا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾:

أ. صفة الكتاب المكنون ويمكن أن يكون وصفا ثالثا للقرآن ومآل الوجهين على تقدير كون لا نافية واحد.

ب. والمعنى: لا يمس الكتاب المكنون الذي فيه القرآن إلا المطهرون أو لا يمس القرآن الذي في الكتاب إلا المطهرون.

ج. والكلام على أي حال مسوق لتعظيم أمر القرآن وتجليله فمسه هو العلم به وهو في الكتاب المكنون كما يشير إليه قوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾

[الزخرف: ٤]

د. والمطهرون، اسم مفعول من التطهير، هم الذين طهر الله تعالى نفوسهم من أرجاس المعاصي وقذارات الذنوب أو مما هو أعظم من ذلك وأدق وهو تطهير قلوبهم من التعلق بغيره تعالى، وهذا المعنى من التطهير هو المناسب للمس الذي هو العلم دون الطهارة من الخبث أو الحدث كما هو ظاهر.

هـ. فالمطهرون هم الذين أكرمهم الله تعالى بتطهير نفوسهم كالملائكة الكرام والذين طهرهم الله من البشر، قال تعالى: ﴿إِنَّما يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ [الأحزاب: ٣٣]، ولا وجه لتخصيص المطهرين بالملائكة كما عن جل المفسرين لكونه تقييدا من غير مقيد.

و. وربما جعل ﴿لا﴾ في ﴿لا يَمَسُّهُ﴾ ناهية، والمراد بالمس على هذا مس كتابة القرآن، وبالطهارة الطهارة من الحدث أو الحدث والخبث جميعا، وقرئ (المطهرون) بتشديد الطاء والهاء وكسر الهاء أي المتطهرون، ومدلول الآية تحريم مس كتابة القرآن على غير طهارة.

ز. ويمكن حمل الآية على هذا المعنى على تقدير كون ﴿لا﴾ نافية بأن تكون الجملة إخبارا أريد به الإنشاء وهو أبلغ من الإنشاء.

ح. قال في الكشاف: (وإن جعلتها يعني جملة ﴿لا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ صفة للقرآن فالمعنى: لا ينبغي أن يمسه إلا من هو على الطهارة من الناس يعني مس المكتوب منه) وقد عرفت صحة أن يراد بالمس العلم والاطلاع على تقدير كونها صفة للقرآن كما يصح على تقدير كونها صفة لكتاب مكنون.

٦. ﴿تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ﴾:

أ. وصف آخر للقرآن، والمصدر بمعنى اسم المفعول أي منزل من عند الله إليكم تفهمونه وتعقلونه بعد ما كان في كتاب مكنون لا يمسه إلا المطهرون.

ب. والتعبير عنه تعالى برب العالمين للإشارة إلى أن ربوبيته تعالى منبسطة على جميع العالمين وهم من جملتهم فهو تعالى ربهم وإذا كان ربهم كان عليهم أن يؤمنوا بكتابه ويصغوا لكلامه ويصدقوه من غير تكذيب.

٧. أحاديث وآثار:

أ. أخرج النسائي وابن جرير ومحمد بن نصر والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في شعب

الإيمان عن ابن عباس قال: أنزل القرآن في ليلة القدر من السماء العليا إلى السماء الدنيا جملة واحدة ثم فرق في السنين وفي لفظ ثم نزل من السماء الدنيا إلى الأرض نجوما ثم قرأ ﴿فَلا أُقْسِمُ بِمَواقِعِ النُّجُومِ﴾

• أقول: وظاهره تفسير مواقع النجوم بأوقات نزول نجوم القرآن.

ب. وفي تفسير القمي وقوله: ﴿فَلا أُقْسِمُ بِمَواقِعِ النُّجُومِ﴾ قال: معناه أقسم بمواقع النجوم.

ج. أخرج ابن مردويه بسند رواه عن ابن عباس عن النبي ﷺ: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ فِي كِتابٍ مَكْنُونٍ﴾ قال: عند الله في صحف مطهرة ﴿لا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ قال: المقربون.

• أقول: وتفسير المطهرين بالمقربين يؤيد ما أوردناه في البيان المتقدم، وقد أوردنا في ذيل قوله: ﴿هذا كِتابُنا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ﴾ الآية: [الجاثية: ٢٩]، حديثا عن الصادق عليه السلام في الكتاب المكنون.

د. وفي المجمع: في قوله تعالى: ﴿لا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ وقالوا: لا يجوز للجنب والحائض والمحدث مس المصحف: عن محمد بن علي عليه السلام.

• أقول: المراد بمس المصحف مس كتابته بدليل الروايات الأخر.

هـ. وفي الكافي، بإسناده عن داود بن فرقد عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سألته عن التعويذ يعلق على الحائض، قال: نعم لا بأس، وقال: تقرؤه وتكتبه ولا تصيبه يدها.

و. أخرج عبد الرزاق وابن أبي داود وابن المنذر عن عبد الله بن أبي بكر عن أبيه قال: في كتاب النبي ﷺ لعمرو بن حزم: ولا تمس القرآن إلا عن طهور.

• أقول: والروايات فيه كثيرة من طرق الشيعة وأهل السنة.

ز. وفيه أخرج مسلم وابن المنذر وابن مردويه عن ابن عباس قال: مطر الناس على عهد رسول الله ﷺ فقال النبي ﷺ: أصبح من الناس شاكر ومنهم كافر، قالوا: هذه رحمة وضعها الله، وقال بعضهم: لقد صدق نوء كذا، فنزلت هذه الآية ﴿فَلا أُقْسِمُ بِمَواقِعِ النُّجُومِ﴾ حتى بلغ ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾

• أقول: وقد استفاضت الرواية من طرق أهل السنة أن الآيات نزلت في الأنواء وظاهرها أنها مدنية لكنها لا تلائم سياق آيات السورة كما عرفت.

١٥. توبيخهم على استهانتهم بالقرآن وتكذيبهم له:

المقطع [١٥] من سورة الواقعة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: ٨١-٨٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ١٣٨»:

١. ﴿أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ﴾ الإشارة بهذا الحديث إلى القرآن، والإدهان به التهاون به وأصله التليين بالدهن أستعير للتهاون، والاستفهام للتوبيخ يوبخهم تعالى على عدهم أمر القرآن هينا لا يعتنى به.

٢. ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾:

أ. قيل: المراد بالرزق حظهم من الخير، والمعنى: وتجعلون حظكم من الخير الذي لكم أن تنالوه بالقرآن أنكم تكذبون به أي تضعونه موضعه.

ب. وقيل: المراد بالرزق القرآن رزقهم الله إياه، والمعنى: تأخذون التكذيب مكان هذا الرزق الذي رزقتموه.

ج. وقيل: الكلام بحذف مضاف والتقدير: وتجعلون شكر رزقكم أنكم تكذبون أي وضعتم التكذيب موضع الشكر.

٣. أحاديث وآثار: في المجمع: (وقراءة علي عليه السلام وابن عباس ورويت عن النبي ﷺ: وتجعلون شكركم.

• أقول: ورواه في الدر المنثور، عن النبي ﷺ وعلي عليه السلام.

١٦. مشهد الاحتضار وقرب الله من العبد:

المقطع [١٦] من سورة الواقعة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الواقعة: ٨٣-٨٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ١٣٨»:

١. ﴿فَلَوْلا إِذا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ﴾:

أ. رجوع إلى أول الكلام بالتفريع على تكذيبهم بأنكم إن كنتم صادقين في نفيكم للبعث مصيبين في تكذيبكم لهذا القرآن الذي ينبئكم بالبعث رددتم نفس المحتضر التي بلغت الحلقوم إذ لو لم يكن الموت

بتقدير من الله كان من الأمور الاتفاقية التي ربما أمكن الاحتيال لدفعها، فإذا لم تقدروا على رجوعها وإعادة الحياة معها فاعلموا أن الموت حق مقدر من الله لسوق النفوس إلى البعث والجزاء.

ب. فقوله: ﴿فَلَوْلا إِذا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ﴾ تفريع على تكذيبهم بالقرآن وبما أخبر به من البعث والجزاء، ولو لا للتحضيض تعجيزا وتبكيتا لهم، وضمير ﴿بَلَغَتِ﴾ للنفس، وبلوغ النفس الحلقوم كناية عن الإشراف التام للموت.

٢. ﴿وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ﴾ أي تنظرون إلى المحتضر أي هو بمنظر منكم.

٣. ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلكِنْ لا تُبْصِرُونَ﴾ أي والحال أنا أقرب إليه منكم لإحاطتنا به وجودا ورسلنا القابضون لروحه أقرب إليه منكم ولكن لا تبصروننا ولا رسلنا، قال تعالى: ﴿اللهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِها﴾ [الزمر: ٢٦]، وقال: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [السجدة: ١١]، وقال: ﴿حَتَّى إِذا جاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنا﴾ [الأنعام: ٦١]

٤. ﴿فَلَوْلا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ﴾ تكرار لولا لتأكيد لولا السابقة، و﴿مَدِينِينَ﴾ أي مجزيين من دان يدين بمعنى جزى يجزي، والمعنى: إن كنتم غير مجزيين ثوابا وعقابا بالبعث.

٥. ﴿تَرْجِعُونَها إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ﴾ أي إن كنتم صادقين في دعواكم أن لا بعث ولا جزاء، وقوله: ﴿تَرْجِعُونَها﴾ مدخول لولا التحضيضية بحسب التقدير وترتيب الآيات بحسب التقدير فلو لا ترجعونها إذا بلغت الحلقوم إن كنتم مدينين.

٦. أحاديث وآثار: في تفسير القمي: في قوله: ﴿غَيْرَ مَدِينِينَ﴾ قال: معناه فلو كنتم غير مجازين على أعمالكم ﴿تَرْجِعُونَها﴾ يعني به الروح إذا بلغت الحلقوم، تردونها في البدن ﴿إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ﴾

١٧. مصير المقربين وأصحاب اليمين والمكذبين عند الموت:

المقطع [١٧] من سورة الواقعة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾ [الواقعة: ٨٨-٩٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ١٣٩»:

١. ﴿فَأَمَّا إِنْ كانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ فَرَوْحٌ وَرَيْحانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ﴾:

أ. رجوع إلى بيان حال الأزواج الثلاثة المذكورة في أول السورة عند الموت وبعده وضمير ﴿كانَ﴾ للمتوفى المعلوم من السياق، والمراد بالمقربين السابقون المقربون المذكورون سابقا، والروح الراحة، والريحان الرزق، وقيل: هو الريحان المشموم من ريحان الجنة يؤتى به إليه فيشمه ويتوفى.

ب. والمعنى: فأما إن كان المتوفى من المقربين فله، أو فجزاؤه، راحة من كل هم وغم وألم ورزق من رزق الجنة وجنة نعيم.

٢. ﴿وَأَمَّا إِنْ كانَ مِنْ أَصْحابِ الْيَمِينِ فَسَلامٌ لَكَ مِنْ أَصْحابِ الْيَمِينِ﴾:

أ. يمكن أن يكون اللام للاختصاص الملكي ومعنى ﴿فَسَلامٌ لَكَ﴾ أنك تختص بالسلام من أصحاب اليمين الذين هم قرناؤك ورفقاؤك فلا ترى منهم إلا خيرا وسلاما.

ب. وقيل: لك بمعنى عليك أي يسلم عليك أصحاب اليمين، وقيل غير ذلك.

ج. والالتفات من الغيبة إلى الخطاب للدلالة على أنه يخاطب بهذا الخطاب: سلام لك من أصحاب اليمين.

٣. ﴿وَأَمَّا إِنْ كانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾:

أ. تصلية النار الإدخال فيها، وقيل: مقاساة حرها وعذابها.

ب. والمعنى: وأما إن كان من أهل التكذيب والضلال فلهم نزل من ماء شديد الحرارة، ومقاساة حر نار جحيم.

ج. وقد وصفهم الله بالمكذبين الضالين فقدم التكذيب على الضلال لأن ما يلقونه من العذاب تبعة تكذيبهم وعنادهم للحق ولو كان ضلالا بلا تكذيب وعناد كانوا مستضعفين غير نازلين هذه المنزلة، وأما قوله سابقا: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ﴾ فإذ كان المقام هناك مقام الرد لقولهم: ﴿أَإِذا مِتْنا وَكُنَّا تُراباً وَعِظاماً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾، كان الأنسب توصيفهم أولا بالضلال ثم بالتكذيب.

٤. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي بإسناده عن أبي بصير قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: ﴿فَأَمَّا إِنْ كانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ فَرَوْحٌ وَرَيْحانٌ﴾ في قبره ﴿وَجَنَّةُ نَعِيمٍ﴾ في الآخرة.

ب. أخرج القاسم بن مندة في كتاب الأحوال والإيمان بالسؤال عن سلمان قال: قال رسول الله

ﷺ: إن أول ما يبشر به المؤمن عند الوفاة، بروح وريحان وجنة نعيم، وإن أول ما يبشر به المؤمن في قبره أن يقال: أبشر برضا الله تعالى والجنة قدمت خير مقدم، قد غفر الله لمن شيعك إلى قبرك، وصدق من شهد لك، واستجاب لمن استغفر لك.

ج. أخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس: في قوله: ﴿فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ قال: تأتيه الملائكة بالسلام من قبل الله، تسلم عليه وتخبره أنه من أصحاب اليمين.

• أقول: وما أورده من المعنى مبني على كون الآية حكاية خطاب الملائكة، والتقدير قالت الملائكة سلام لك حال كونك من أصحاب اليمين فهي سلام وبشارة.

١٨. تأكيد أن هذا هو حق اليقين وأمر بالتسبيح:

المقطع [١٨] من سورة الواقعة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ [الواقعة: ٩٥-٩٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ١٤٠»:

١. ﴿إِنَّ هذا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ﴾:

أ. الحق هو العلم من حيث إن الخارج الواقع يطابقه، واليقين هو العلم الذي لا لبس فيه ولا ريب فإضافة الحق إلى اليقين نحو من الإضافة البيانية جيء بها للتأكيد.

ب. والمعنى: أن هذا الذي ذكرناه من حال أزواج الناس الثلاثة هو الحق الذي لا تردد فيه والعلم الذي لا شك يعتريه.

٢. ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾:

أ. تقدم تفسيره، وهو تفريع على ما تقدمه من صفة القرآن وبيان حال الأزواج الثلاثة بعد الموت وفي الحشر.

ب. والمعنى: فإذا كان القرآن على هذه الصفات وصادقا فيما ينبئ به من حال الناس بعد الموت فنزه ربك العظيم مستعينا أو ملابسا باسمه وأنف ما يراه ويدعيه هؤلاء المكذبون الضالون.

سورة الحديد

هذه السورة الكريمة تحتوي على [٢٤] مقطعاً، وهذا تعريف بمقاصدها، ومحتويات مقاطعها:

مقاصد السورة ومحتوياتها:

أ. غرض السورة حث المؤمنين وترغيبهم في الإنفاق في سبيل الله، كما يشعر به تأكيد الأمر به مرة بعد مرة في خلال آياتها: ﴿آمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ الآية، ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضاً حَسَناً﴾ الآية، ﴿إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقاتِ وَأَقْرَضُوا اللهَ قَرْضاً حَسَناً﴾

ب. وقد سمت إنفاقهم ذلك إقراضاً منه لله عز اسمه، فالله سبحانه خير مطلوب، وهو لا يخلف الميعاد، وقد وعدهم إن أقرضوه أن يضاعفه لهم، وأن يؤتيهم أجراً كريماً كثيراً.

ج. وقد أشار إلى أن هذا الإنفاق من التقوى والإيمان بالرسول، وأنه يستتبع مغفرة الذنوب وإتيان كفلين من الرحمة ولزوم النور، بل واللحوق بالصديقين والشهداء عند الله سبحانه.

د. وفي خلال آياتها معارف راجعة إلى المبدأ والمعاد، ودعوة إلى التقوى وإخلاص الإيمان والزهد وموعظة.

هـ. والسورة مدنية بشهادة سياق آياتها، وقد ادعى بعضهم إجماع المفسرين على ذلك.

مقاطع السورة ونظمها:

١. الآيات [١ ـ ٦] افتتحت السورة بتسبيحه وتنزيهه تعالى بُعيده من أسمائه الحسنى، لما في غرض السورة وهو الحث على الإنفاق من شائبة توهم الحاجة والنقص في ناحيته، ونظيرتها في ذلك جميع السور المفتتحة بالتسبيح وهي سور الحشر والصف والجمعة والتغابن المصدرة بسبح أو يسبح.

٢. الآيات [٧ ـ ١٥] أمر مؤكد بالإنفاق في سبيل الله وخاصة الجهاد، على ما يؤيده قوله: ﴿لا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقاتَلَ﴾ الآية، ويتأيد بذلك ما قيل: إن قوله: ﴿آمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا﴾ نزل في غزوة تبوك.

٣. الآيات [١٦ ـ ٢٤]:

أ. جرى على وفق مقصد الكلام السابق، وهو الحث والترغيب في الإيمان بالله ورسوله والإنفاق

في سبيل الله، وتتضمن عتاب المؤمنين على ما يظهر من علامات قسوة القلوب منهم، وتأكيد الحث على الإنفاق ببيان درجة المنفقين عند الله، والأمر بالمسابقة إلى المغفرة والجنة، وذم الدنيا وأهلها الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل.

ب. وقد تغير السياق خلال الآيات إلى سياق عام يشمل المسلمين وأهل الكتاب، بعد اختصاص السياق السابق بالمسلمين، وسيجيء توضيحه.

٤. الآيات [٢٥ ـ ٢٩]:

أ. ثم إنه تعالى إثر ما أشار إلى قسوة قلوب المؤمنين وتثاقلهم وفتورهم في امتثال التكاليف الدينية وخاصة في الإنفاق في سبيل الله، الذي به قوام أمر الجهاد، وشبههم بأهل الكتاب حيث قست قلوبهم لما طال عليهم الأمد.

ب. ذكر أن الغرض الإلهي من إرسال الرسل وإنزال الكتاب والميزان معهم أن يقوم الناس بالقسط، وأن يعيشوا في مجتمع عادل، وقد أنزل الحديد ليمتحن عباده في الدفاع عن مجتمعهم الصالح وبسط كلمة الحق في الأرض، مضافاً إلى ما في الحديد من منافع ينتفعون بها.

ج. ثم ذكر أنه أرسل نوحاً وإبراهيم عليه السلام، وجعل في ذريتهما النبوة والكتاب، وأتبعهم بالرسول بعد الرسول، فاستمر الأمر في كل من الأمم على إيمان بعضهم واهتدائه، وكثير منهم فاسقون.

د. ثم ختم الكلام في السورة بدعوتهم إلى تكميل إيمانهم ليؤتوا كفلين من الرحمة.

١. تسبيح ما في السموات والأرض:

المقطع [١] من سورة الحديد، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿سَبَّحَ للهَّ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الحديد: ١ـ٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ١٤٤»:

١. ﴿سَبَّحَ للهَّ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾:

أ. التسبيح التنزيه وهو نفي ما يستدعي نقصا أو حاجة مما لا يليق بساحة كماله تعالى، و﴿ما﴾ موصولة والمراد بها ما يعم العقلاء مما في السماوات والأرض كالملائكة والثقلين وغير العقلاء كالجمادات والدليل عليه ما ذكر بعد من صفاته المتعلقة بالعقلاء كالإحياء والعلم بذات الصدور.

ب. فالمعنى: نزه الله سبحانه ما في السماوات والأرض من شيء وهو جميع العالم.

ج. والمراد بتسبيحها حقيقة معنى التسبيح دون المعنى المجازي الذي هو دلالة وجود كل موجود في السماوات والأرض على أن له موجدا منزها من كل نقص متصفا بكل كمال، ودون عموم المجاز وهو دلالة كل موجود على تنزهه تعالى إما بلسان القال كالعقلاء وإما بلسان الحال كغير العقلاء من الموجودات وذلك لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤]، حيث استدرك أنهم لا يفقهون تسبيحهم ولو كان المراد بتسبيحهم دلالة وجودهم على وجوده وهي قيام الحجة على الناس بوجودهم أو كان المراد تسبيحهم وتحميدهم بلسان الحال وذلك مما يفقه الناس لم يكن للاستدراك معنى.

د. فتسبيح ما في السماوات والأرض تسبيح ونطق بالتنزيه بحقيقة معنى الكلمة وإن كنا لا نفقهه، قال تعالى: ﴿قالُوا أَنْطَقَنَا اللهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [فصلت: ٢١]

٢. ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي المنيع جانبه يغلب ولا يغلب، المتقن فعله لا يعرض على فعله ما يفسده عليه ولا يتعلق به اعتراض معترض.

٣. ﴿لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ الكلام موضوع على الحصر فهو المليك في السماوات والأرض يحكم ما يشاء لأنه الموجد لكل شيء فما في السماوات والأرض يقوم به وجوده وآثار وجوده فلا حكم إلا له فلا ملك ولا سلطنة إلا له.

٤. ﴿يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ إشارة إلى اسمية المحيي والمميت، وإطلاق ﴿يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ يفيد شمولهما لكل إحياء وإماتة كإيجاده الملائكة أحياء من غير سبق موت، وإحيائه الجنين في بطن أمه وإحيائه الموتى في البعث وإيجاده الجماد ميتا من غير سبق حياة وإماتته الإنسان في الدنيا وإماتته ثانيا في البرزخ على ما يشير إليه قوله: ﴿رَبَّنا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ﴾ وفي ﴿يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ دلالة على الاستمرار.

٥. ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيه إشارة إلى صفة قدرته وأنها مطلقة غير مقيدة بشيء دون شيء، وفي تذييل الآية بالقدرة على كل شيء مناسبة مع ما تقدمها من الإحياء والإماتة لما ربما يتوهم المتوهم أن لا قدرة على إحياء الموتى ولا عين منهم ولا أثر.

٦. أحاديث وآثار:

أ. أخرج أحمد وأبو داود والترمذي وحسنه والنسائي وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان عن عرباض بن سارية: أن رسول الله ﷺ كان يقرأ المسبحات قبل أن يرقد، وقال: إن فيهن آية أفضل من ألف آية.

• أقول: ورواه أيضا عن ابن الضريس عن يحيى بن أبي كثير عنه ﷺ.

ب. وفي الكافي، بإسناده عن عاصم بن حميد قال: سئل علي بن الحسين عليه السلام عن التوحيد فقال: إن الله عز وجل علم أنه يكون في آخر الزمان، أقوام متعمقون فأنزل الله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ والآيات من سورة الحديد إلى قوله: ﴿عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ﴾ فمن رام وراء ذلك فقد هلك.

ج. وفي تفسير القمي: ﴿سَبَّحَ لِلهِ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ قال: هو قوله: أوتيت جوامع الكلم، وقوله: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ﴾ قال: أي قبل كل شيء ﴿وَالْآخِرُ﴾ قال: يبقى بعد كل شيء ﴿وَهُوَ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ﴾ قال: بالضمائر.

٢. إثبات صفات الأولية والآخرية والظهور والبطون لله:

المقطع [٢] من سورة الحديد، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْباطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: ٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ١٤٥»:

١. ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْباطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾:

أ. لما كان تعالى قديرا على كل شيء مفروض كان محيطا بقدرته على كل شيء من كل جهة فكل ما فرض أولا فهو قبله فهو الأول دون الشيء المفروض أولا، وكل ما فرض آخرا فهو بعده لإحاطة قدرته به من كل جهة فهو الآخر دون الشيء المفروض آخرا، وكل شيء فرض ظاهرا فهو أظهر منه لإحاطة قدرته به من فوقه فهو الظاهر دون المفروض ظاهرا، وكل شيء فرض أنه باطن فهو تعالى أبطن منه لإحاطته به من ورائه فهو الباطن دون المفروض باطنا فهو تعالى الأول والآخر والظاهر والباطن على الإطلاق وما في غيره تعالى من هذه الصفات فهي إضافية نسبية.

ب. وليست أوليته تعالى ولا آخريته ولا ظهوره ولا بطونه زمانية ولا مكانية بمعنى مظروفيته لهما وإلا لم يتقدمهما ولا تنزه عنهما سبحانه بل هو محيط بالأشياء على أي نحو فرضت وكيفما تصورت.

ج. فبان مما تقدم أن هذه الأسماء الأربعة الأول والآخر والظاهر والباطن من فروع اسمه المحيط

وهو فرع إطلاق القدرة فقدرته محيطة بكل شيء ويمكن تفريع الأسماء الأربعة على إحاطة وجوده بكل شيء فإنه تعالى ثابت قبل ثبوت كل شيء وثابت بعد فناء كل شيء وأقرب من كل شيء ظاهر وأبطن من الأوهام والعقول من كل شيء خفي باطن.

د. وكذا للأسماء الأربعة نوع تفرع على علمه تعالى ويناسبه تذييل الآية بقوله: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾

٢. أقوال أخرى:

أ. فسر بعضهم الأسماء الأربعة بأنه الأول قبل كل شيء والآخر بعد هلاك كل شيء الظاهر بالأدلة الدالة عليه والباطن غير مدرك بالحواس.

ب. وقيل: الأول قبل كل شيء بلا ابتداء، والآخر بعد كل شيء بلا انتهاء، والظاهر الغالب العالي على كل شيء فكل شيء دونه، والباطن العالم بكل شيء فلا أحد أعلم منه.

ج. وقيل: الأول بلا ابتداء والآخر بلا انتهاء والظاهر بلا اقتراب والباطن بلا احتجاب.

د. وهناك أقوال أخر في معناها غير جيدة أغمضنا عن إيرادها.

٣. أحاديث وآثار:

أ. في الكافي، وروي: أنه يعني عليا عليه السلام سئل أين كان ربنا، قبل أن يخلق سماء وأرضا؟ قال: أين سؤال عن مكان وكان الله ولا مكان.

ب. وفي التوحيد، خطبة للحسن بن علي عليه السلام وفيها: الحمد لله الذي لم يكن فيه أول معلوم، ولا آخر متناه، ولا قبل مدرك، ولا بعد محدود، فلا تدرك العقول وأوهامها، ولا الفكر وخطراتها ولا الألباب وأذهانها صفته، فتقول: متى ولا بدئ مما، ولا ظاهر على ما، ولا باطن فيما.

• أقول: وقوله أول معلوم، أوصاف توضيحية أي ليس له أول ولو كان له أول كان من الجائز أن يتعلق به علم ولا آخر ولو كان له آخر كان متناهيا، ولا قبل ولو كان لكان جائز الإدراك ولا بعد وإلا لكان محدودا.

• وقوله: ولا بدئ مما أي لم يبتدأ من شيء حتى يكون له أول ولا ظاهر على ما أي يتفوق على شيء بالوقوع والاستقرار عليه كالجسم على الجسم (ولا باطن فيما) أي لم يتبطن في شيء بالدخول فيه والاستتار

به.

ج. وفي نهج البلاغة: وكل ظاهر غيره غير باطن، وكل باطن غيره غير ظاهر.

• أقول: معناه أن حيثية الظهور في غيره تعالى غير حيثية البطون وبالعكس، وأما هو تعالى فلما كان أحدي الذات لا تنقسم ولا تتجزى إلى جهة وجهة كان ظاهرا من حيث هو باطن وباطنا من حيث هو ظاهر فهو باطن خفي من كمال ظهوره وظاهر جلي من كمال بطونه.

د. وفيه: الحمد لله الأول فلا شيء قبله، والآخر فلا شيء بعده، والظاهر فلا شيء فوقه، والباطن فلا شيء دونه.

• أقول: المراد بالقبلية والبعدية ليس هو القبلية والبعدية الزمانية بأن يفرض هناك امتداد زماني غير متناهي الطرفين وقد حل العالم قطعة منه خاليا عنه طرفاه ويكون وجوده تعالى وتقدس منطبقا على الزمان كله غير خال عنه شيء من جانبيه وإن ذهبا إلى غير النهاية فيتقدم وجوده تعالى على العالم زمانا ويتأخر عنه زمانا ولو كان كذلك لكان تعالى متغيرا في ذاته وأحواله بتغير الأزمنة المتجددة عليه، وكان قبليته وبعديته بتبع الزمان وكان الزمان هو الأول والآخر بالأصالة.

• وكذلك ليست ظاهريته وباطنيته بحسب المكان بنظير البيان بل هو تعالى سابق بنفس ذاته المتعالية على كل شيء مفروض وآخر بنفس ذاته عن كل أمر مفروض أنه آخر، وظاهر، وباطن كذلك، والزمان مخلوق له متأخر عنه.

هـ. أخرج أبو الشيخ في العظمة عن ابن عمر وأبي سعيد عن النبي ﷺ قال: لا يزال الناس يسألون عن كل شيء حتى يقولوا: هذا الله كان قبل كل شيء فما ذا كان قبل الله، فإن قالوا لكم ذلك فقولوا: هو الأول قبل كل شيء وهو الآخر فليس بعده شيء، وهو الظاهر فوق كل شيء، وهو الباطن دون كل شيء وهو بكل شيء عليم.

و. وفي التوحيد، بإسناده إلى أبي بصير قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: لم يزل الله عز وجل ربنا والعلم ذاته ولا معلوم، فلما أحدث الأشياء وقع العلم منه على المعلوم.

• أقول: ليس المراد بهذا العلم الصور الذهنية فيكون تعالى كباني دار يتصور للدار صورة وهيئة قبل بنائها ثم يبنيها على ما تصور فتنطبق الصورة الذهنية على البناء الخارجي ثم تنهدم الدار والصورة

الذهنية على حالها، وهذا هو المسمى بالعلم الكلي وهو مستحيل عليه تعالى بل ذاته تعالى عين العلم بمعلومه ثم المعلوم إذا تحقق في الخارج كان ذات المعلوم عين علمه تعالى به، ويسمى الأول العلم الذاتي والثاني العلم الفعلي.

ز. وفيه، خطبة لعلي عليه السلام وفيها: وعلمها لا بأداة لا يكون العلم إلا بها، وليس بينه وبين معلومه علم غيره.

- أقول: المراد به أن ذاته تعالى عين علمه، وليست هناك صورة زائدة.

٣. خلق السموات والأرض واستواء الله على العرش وعلمه المحيط:

المقطع [٣] من سورة الحديد، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [الحديد: ٤-٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ١٤٦»:

١. ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ تقدم تفسيره.

٢. ﴿ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ ما يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَما يَخْرُجُ مِنْها وَما يَنْزِلُ مِنَ السَّماءِ وَما يَعْرُجُ فِيها﴾ تقدم تفصيل القول في معنى العرش في سورة الأعراف [آية: ٥٤]، وتقدم أن الاستواء على العرش كناية عن الأخذ في تدبير الملك ولذا عقبه بالعلم بجزئيات الأحوال لأن العلم من لوازم التدبير.

٣. ﴿يَعْلَمُ ما يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَما يَخْرُجُ مِنْها وَما يَنْزِلُ مِنَ السَّماءِ وَما يَعْرُجُ فِيها﴾ الولوج، كما قال الراغب، الدخول في مضيق، والعروج ذهاب في صعود، والمعنى: يعلم ما يدخل وينفذ في الأرض كماء المطر والبذور وغيرهما وما يخرج من الأرض كأنواع النبات والحيوان والماء وما ينزل من السماء كالأمطار والأشعة والملائكة وما يعرج فيها ويصعد كالأبخرة والملائكة وأعمال العباد.

٤. ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ ما كُنْتُمْ﴾:

أ. لإحاطته بكم فلا تغيبون عنه أينما كنتم وفي أي زمان عشتم وفي أي حال فرضتم فذكر عموم الأمكنة ﴿أَيْنَ ما كُنْتُمْ﴾ لأن الأعرف في مفارقة شيء شيئا وغيبته عنه أن يتوسل إلى ذلك بتغيير المكان وإلا

فنسبته تعالى إلى الأمكنة والأزمنة والأحوال سواء.

ب. وقيل: المعية مجاز مرسل عن الإحاطة العلمية.

٥. ﴿وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ كالفرع المترتب على ما قبله من كونه معهم أينما كانوا وكونه بكل شيء عليما فإن لازم حضوره عندهم من دون مفارقة ما واحتجاب وهو عليم أن يكون بصيرا بأعمالهم يبصر ظاهر عملهم، وما في باطنهم من نية وقصد.

٦. ﴿لَهُ مُلْكُ السَّماوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ كرر قوله: ﴿لَهُ مُلْكُ﴾، لابتناء رجوع الأشياء إليه على عموم الملك فصرح به ليفيد الابتناء، قال تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ بارِزُونَ لا يَخْفى عَلَى اللهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ للهِّ الْواحِدِ الْقَهَّارِ﴾

٧. ﴿وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾:

أ. الأمور جمع محلى باللام يفيد العموم كقوله: ﴿أَلا إِلَى اللهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ [الشورى: ٥٣]، فما من شيء إلا ويرجع إلى الله، ولا راد إليه تعالى إلا هو لاختصاص الملك به فله الأمر وله الحكم.

ب. وفي الآية وضع الظاهر موضع الضمير في ﴿إِلَى اللهِ﴾ وكذا في الآية السابقة ﴿وَاللهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ ولعل الوجه في ذلك أن تقرع الجملتان قلوبهم كما يقرع المثل السائر لما سيجيء من ذكر يوم القيامة وجزيل أجر المنفقين في سبيل الله فيه.

٨. ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ وَيُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ﴾:

أ. إيلاج الليل في النهار وإيلاج النهار في الليل اختلاف الليل والنهار في الطول والقصر باختلاف فصول السنة في كل من البقاع الشمالية والجنوبية بعكس الأخرى، وقد تقدم في كلامه تعالى غير مرة.

ب. والمراد بذات الصدور الأفكار المضمرة والنيات المكنونة التي تصاحب الصدور وتلازمها لما أنها تنسب إلى القلوب والقلوب في الصدور، والجملة أعني قوله: ﴿وَهُوَ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ﴾ بيان لإحاطة علمه بما في الصدور بعد بيان إحاطة بصره بظواهر أعمالهم بقوله: ﴿وَاللهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾

٤. الأمر بالإيمان والإنفاق والأجر الكبير:

المقطع [٤] من سورة الحديد، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿آمِنُوا بِاللهِّ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الحديد: ٧]، وفيه المسائل التالية

«الميزان: ١٩/ ١٥١»:

١. ﴿آمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾:

أ. المستفاد من سياق الآيات أن الخطاب في الآية للمؤمنين بالله ورسوله لا للكفار ولا للمؤمنين والكفار جميعا كما قيل، وأمر الذين تلبسوا بالإيمان بالله ورسوله بالإيمان معناه الأمر بتحقيق الإيمان بترتيب آثاره عليه إذ لو كانت صفة من الصفات كالسخاء والعفة والشجاعة ثابتة في نفس الإنسان حق ثبوتها لم يتخلف عنها أثرها الخاص ومن آثار الإيمان بالله ورسوله الطاعة فيما أمر الله ورسوله به.

ب. ومن هنا يظهر:

• أولا: أن أمر المؤمن بالإيمان في الحقيقة أمر للمتحقق بمرتبة من الإيمان أن يتلبس بمرتبة هي أعلى منها، وهذا النوع من الأمر فيه إيماء إلى أن الذي عند المأمور من المأمور به لا يرضي الآمر كل الإرضاء.

• وثانيا: أن قوله: ﴿آمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا﴾ أمر بالإنفاق مع التلويح إلى أنه أثر صفة هم متلبسون بها فعليهم أن ينفقوا لما اتصفوا بها فيئول إلى تعليل الإنفاق بإيمانهم.

٢. ﴿وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾:

أ. استخلاف الإنسان جعله خليفة، والمراد به إما خلافتهم عن الله سبحانه يخلفونه في الأرض كما يشير إليه قوله: ﴿إِنِّي جاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]، والتعبير عما بأيديهم من المال بهذا التعبير لبيان الواقع ولترغيبهم في الإنفاق فإنهم إذا أيقنوا أن المال لله وهم مستخلفون عليه وكلاء من ناحيته يتصرفون فيه كما أذن لهم سهل عليهم إنفاقه ولم تتحرج نفوسهم من ذلك.

ب. وإما خلافتهم عمن سبقهم من الأجيال كما يخلف كل جيل سابقه، وفي التعبير به أيضا ترغيب في الإنفاق فإنهم إذا تذكروا أن هذا المال كان لغيرهم فلم يدم عليهم علموا أنه كذلك لا يدوم لهم وسيتركونه لغيرهم وهان عليهم إنفاقه وسخت بذلك نفوسهم.

٣. ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ وعد للأجر على الإنفاق تأكيدا للترغيب، والمراد بالإيمان الإيمان بالله ورسوله.

٥. الحث على الإيمان استجابة لدعوة الرسول والميثاق:

المقطع [٥] من سورة الحديد، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالرَّسُولُ

يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الحديد: ٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ١٥٢»:

١. ﴿وما لَكُمْ لا تُؤْمِنونَ بِاللهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ﴾، المراد بالإيمان الإيمان بحيث يترتب عليه آثاره ومنها الإنفاق في سبيل الله، وإن شئت فقل: المراد ترتيب آثار ما عندهم من الإيمان عليه،

٢. ﴿وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ﴾ عبر الرب بالرب وإضافة إليهم تلويحا إلى علة توجه الدعوة والأمر كأنه قيل: يدعوكم لتؤمنوا بالله لأنه ربكم يجب عليكم أن تؤمنوا به.

٣. ﴿وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾:

أ. تأكيد للتوبيخ المفهوم من أول الآية، وضمير ﴿أَخَذَ﴾ لله سبحانه أو للرسول وعلى أي حال المراد بالميثاق المأخوذ هو الذي تدل عليه شهادتهم على وحدانية الله ورسالة رسوله يوم آمنوا به ﷺ من أنهم على السمع والطاعة.

ب. وقيل: المراد بالميثاق هو الميثاق المأخوذ منهم في الذر، وعلى هذا فضمير ﴿أَخَذَ﴾ لله سبحانه، وفيه أنه بعيد عن سياق الاحتجاج عليهم فإنهم غافلون عنه، على أن أخذ الميثاق في الذر لا يختص بالمؤمنين بل يعم المنافقين والكفار.

٦. إنزال الآيات البينات لإخراج الناس من الظلمات إلى النور:

المقطع [٦] من سورة الحديد، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحديد: ٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ١٥٢»:

١. ﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آياتٍ بَيِّناتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ﴾، المراد بالآيات البينات آيات القرآن الكريم المبينة لهم ما عليهم من فرائض الدين، وفاعل ﴿لِيُخْرِجَكُمْ﴾ الضمير العائد إلى الله أو إلى رسوله ﷺ ومرجع الثاني أيضا هو الأول فالميثاق ميثاقه وقد أخذه بواسطة رسوله أو بغير واسطته كما أن الإيمان به وبرسوله إيمان به ولذلك قال في صدر الآية: ﴿وَما لَكُمْ لا تُؤْمِنُونَ بِاللهِ﴾ فذكر نفسه ولم يذكر رسوله إشارة إلى أن الإيمان برسوله إيمان به.

٢. ﴿وَإِنَّ اللهَ بِكُمْ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ﴾ في تذييل الآية برأفته تعالى ورحمته إشارة إلى أن الإيمان الذي

يدعوهم إليه رسوله خير لهم وأصلح وهم الذين ينتفعون به دون الله ورسوله، ففيه تأكيد ترغيبهم على الإيمان والإنفاق.

٧. الحث على الإنفاق والجهاد وبيان فضل السابقين:

المقطع [٧] من سورة الحديد، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَللهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللهُ الْحُسْنَى وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [الحديد: ١٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ١٥٢»:

١. ﴿وَما لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَللهِ مِيراثُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾:

أ. الميراث والتراث المال الذي ينتقل من الميت إلى من بقي بعده من وراثه، وإضافة الميراث إلى السماوات والأرض بيانية فالسماوات والأرض هي الميراث بما فيهما من الأشياء التي خلق منهما مما يمتلكه ذوو الشعور من سكنتهما فالسماوات والأرض شاملة لما فيهما مما خلق منهما

ب. ويتصرف فيها ذوو الشعور كالإنسان مثلا بتخصيص ما يتصرفون فيه لأنفسهم وهو الملك الاعتباري الذي هداهم الله سبحانه إلى اعتباره فيما بينهم لينتظم بذلك جهات حياتهم الدنيا.

ج. غير أنهم لا يبقون ولا يبقى لهم بل يذهبهم الموت المقدر بينهم فينتقل ما في أيديهم إلى من بعدهم وهكذا حتى يفنى الجميع ولا يبقى إلا هو سبحانه.

د. فالأرض مثلا وما فيها وعليها من مال ميراث من جهة أن كل جيل من سكانها يرثها ممن قبله فكانت ميراثا دائما دائرا بينهم خلفا عن سلف، وميراث من جهة أنهم سيفنون جميعا ولا يبقى لها إلا الله الذي استخلفهم عليها.

هـ. ولله سبحانه ميراث السماوات والأرض بكلا المعنيين:

أ. أما الأول: فلأنه الذي يملكهم المال وهو المالك لما ملكهم، قال تعالى: ﴿للهِ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ [لقمان: ٢٦]، وقال: ﴿وَللهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ [النور: ٤٢]، وقال: ﴿وَآتُوهُمْ مِنْ مالِ اللهِ الَّذِي آتاكُمْ﴾ [النور: ٣٣]

ب. وأما الثاني: فظاهر آيات القيامة كقوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْها فانٍ﴾ [الرحمن: ٢٦] وغيره،

والذي يسبق إلى الذهن أن المراد بكونهما ميراثا هو المعنى الثاني.

و. وكيف كان ففي الآية توبيخ شديد لهم على عدم إنفاقهم في سبيل الله من المال الذي لا يرثه بالحقيقة إلا هو تعالى ولا يبقى لهم ولا لغيرهم، والإظهار في موضع الإضمار في قوله: ﴿وَلِلَّهِ﴾ لتشديد التوبيخ.

٢. ﴿لا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقاتَلَ أُولئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقاتَلُوا﴾:

أ. الاستواء بمعنى التساوي، وقسيم قوله: ﴿مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقاتَلَ﴾ محذوف إيجازا لدلالة قوله: ﴿أُولئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقاتَلُوا﴾ عليه.

ب. والمراد بالفتح، كما قيل، فتح مكة أو فتح الحديبية وعطف القتال على الإنفاق لا يخلو من إشعار بل دلالة على أن المراد بالإنفاق في سبيل الله المندوب إليه في الآيات هو الإنفاق في الجهاد.

ج. وكان الآية مسوقة لبيان أن الإنفاق في سبيل الله كلما عجل إليها كان أحب عند الله وأعظم درجة ومنزلة وإلا فظاهر أن هذه الآيات نزلت بعد الفتح والقتال الذي بادروا إليه قبل الفتح وبعض المقاتل التي بعده.

٣. ﴿وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنى﴾ أي وعد الله المثوبة الحسنى كل من أنفق وقاتل قبل الفتح أو أنفق وقاتل بعده وإن كانت الطائفة الأولى أعظم درجة من الثانية، وفيه تطييب لقلوب المتأخرين إنفاقا وقتالا أن لهم نيلا من رحمته وليسوا بمحرومين مطلقا فلا موجب لأن ييأسوا منها وإن تأخروا.

٤. ﴿وَاللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ تذييل متعلق بجميع ما تقدم ففيه تشديد للتوبيخ وتقرير وتثبيت لقوله: ﴿لا يَسْتَوِي مِنْكُمْ﴾، ولقوله: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنى﴾ ويمكن أن يتعلق بالجملة الأخيرة لكن تعلقه بالجميع أعم وأشمل.

٥. أحاديث وآثار:

أ. أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه وأبو نعيم في الدلائل من طريق زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد الخدري قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ عام الحديبية، حتى إذا كان بعسفان قال رسول الله ﷺ، يوشك أن يأتي قوم تحقرون أعمالكم مع أعمالهم، قلنا: من هم يا رسول الله أقريش؟

قال: لا ولكنهم أهل اليمن هم أرق أفئدة وألين قلوبا، قلنا: أهم خير منا يا رسول الله؟ قال: لو كان لأحدهم جبل من ذهب، فأنفقه ما أدرك مد أحدكم ولا نصيفه، ألا إن هذا فصل ما بيننا وبين الناس ﴿لا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقاتَلَ﴾ الآية.

• أقول: روي هذا المعنى بغير واحد من الطرق بألفاظ متقاربة وهي مشتملة على الآية ويشكل بأن ظاهر سياق الآيات أنها نزلت بعد الفتح والمراد به إما الحديبية أو فتح مكة فلا تنطبق على ما قبل الفتح.

ب. أخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن عكرمة قال: لما نزلت هذه الآية ﴿لا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقاتَلَ﴾ قال أبو الدحداح: والله لأنفقن اليوم نفقة أدرك بها من قبلي، ولا يسبقني بها أحد بعدي، فقال: اللهم كل شيء يملكه أبو الدحداح، فإن نصفه لله حتى بلغ فرد نعله ثم قال: وهذا.

٨. فضل القرض الحسن ومضاعفته والأجر الكريم:

المقطع [٨] من سورة الحديد، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَّ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ [الحديد: ١١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ١٥٤»:

١. ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾:

أ. قال الراغب: (وسمي ما يدفع إلى الإنسان من المال بشرط رد بدله قرضا)

ب. وقال في المجمع: (وأصله القطع فهو قطعة عن مالكه بإذنه على ضمان رد مثله، قال: والمضاعفة الزيادة على المقدار مثله أو أمثاله)

ج. وقال الراغب: (الأجر والأجرة ما يعود من ثواب العمل دنيويا كان أو أخرويا قال: ولا يقال إلا في النفع دون الضر بخلاف الجزاء فإنه يقال في النفع والضر)

د. وما يعطيه تعالى من الثواب على عمل العبد تفضل منه من غير استحقاق من العبد فإن العبد وما يأتيه من عمل ملك طلق له سبحانه ملكا لا يقبل النقل والانتقال غير أنه اعتبر اعتبارا تشريعيا العبد مالكا وملكه عمله، وهو المالك لما ملكه وهو تفضل آخر ثم اختار ما أحبه من عمله فوعده ثوابا على عمله وسماه أجرا وجزاء وهو تفضل آخر، ولا ينتفع به في الدنيا والآخرة إلا العبد قال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٧٢]، وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [فصلت: ٨]، وقال بعد وصف الجنة ونعيمها: ﴿إِنَّ هذا كانَ لَكُمْ جَزاءً وَكانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُوراً﴾

[الإنسان: ٢٢]، وما وعده من الشكر وعدم المن عند إيتاء الثواب تمام التفضل.

٢. وفي الآية حث بليغ على ما ندب إليه من الإنفاق في سبيل الله حيث استفهم عن الذي ينفق منهم في سبيل الله ومثل إنفاقه بأنه قرض يقرضه الله سبحانه وعليه أن يرده ثم قطع أنه لا يرد مثله إليه بل يضاعفه ولم يكتف بذلك بل أضاف إليه أجرا كريما في الآخرة والأجر الكريم هو المرضي في نوعه والأجر الأخروي كذلك لأنه غاية ما يتصور من النعمة عند غاية ما يتصور من الحاجة.

٩. يوم القيامة ونور المؤمنين وبشارتهم بالجنات:

المقطع [٩] من سورة الحديد، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [الحديد: ١٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ١٥٥»:

١. ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ يَسْعى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمانِهِمْ﴾:

أ. اليوم ظرف لقوله: ﴿لَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ والمراد به يوم القيامة، والخطاب في ﴿تَرَى﴾ للنبي ﷺ أو لكل سامع يصح خطابه، والظاهر أن الباء في ﴿بِأَيْمانِهِمْ﴾ بمعنى في.

ب. والمعنى: لمن أقرض الله قرضا حسنا أجر كريم يوم ترى أنت يا رسول الله، أو كل من يصح منه الرؤية، المؤمنين بالله ورسوله والمؤمنات يسعى نورهم أمامهم وفي أيمانهم واليمين هو الجهة التي منها سعادتهم.

ج. والآية مطلقة تشمل مؤمني جميع الأمم ولا تختص بهذه الأمة، والتعبير عن إشراق النور بالسعي يشعر بأنهم ساعون إلى درجات الجنة التي أعدها الله سبحانه لهم وتستنير لهم جهات السعادة ومقامات القرب واحدة بعد واحدة حتى يتم لهم نورهم كما قال تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَراً﴾ [الزمر: ٧٣]، وقال: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمنِ وَفْداً﴾ [مريم: ٨٥]، وقال: ﴿يَوْمَ لا يُخْزِي اللهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنا أَتْمِمْ لَنا نُورَنا﴾ [التحريم: ٨]

د. وللمفسرين في تفسير مفردات الآية أقوال مختلفة أغمضنا عنها لعدم دليل من لفظ الآية عليها، وسيوافيك ما في الروايات المأثورة في البحث الروائي الآتي إن شاء الله.

٢. ﴿بُشْراكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها﴾ حكاية ما يقال للمؤمنين

والمؤمنات يوم القيامة، والقائل الملائكة بأمر من الله والتقدير يقال لهم: ﴿بُشْراكُمُ﴾، والمراد بالبشرى ما يبشر به وهو الجنة والباقي ظاهر.

٣. ﴿ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ كلام الله سبحانه والإشارة إلى ما ذكر من سعي النور والبشرى أو من تمام قول الملائكة والإشارة إلى الجنات والخلود فيها.

١٠. مشهد المنافقين وسورهم وبابهم وعذابهم:

المقطع [١٠] من سورة الحديد، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [الحديد: ١٣-١٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ١٥٥»:

١. ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنافِقُونَ وَالْمُنافِقاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ﴾:

أ. النظر إذا تعدى بنفسه أفاد معنى الانتظار والإمهال، وإذا عدي بإلى نحو نظر إليه كان بمعنى إلقاء البصر نحو الشيء وإذا عدي بفي كان بمعنى التأمل، والاقتباس أخذ قبس من النار.

ب. والسياق يفيد أنهم اليوم في ظلمة أحاطت بهم سرادقها وقد ألجئوا إلى المسير نحو دارهم التي يخلدون فيها غير أن المؤمنين والمؤمنات يسيرون بنورهم الذي يسعى بين أيديهم وبأيمانهم فيبصرون الطريق ويهتدون إلى مقاماتهم، وأما المنافقون والمنافقات فهم مغشيون بالظلمة لا يهتدون سبيلا وهم مع المؤمنين كما كانوا في الدنيا معهم ومعدودين منهم فيسبق المؤمنون والمؤمنات إلى الجنة ويتأخر عنهم المنافقون والمنافقات في ظلمة تغشاهم فيسألون المؤمنين والمؤمنات أن ينتظروهم حتى يلحقوا بهم ويأخذوا قبسا من نورهم ليستضيئوا به في طريقهم.

٢. ﴿قِيلَ ارْجِعُوا وَراءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُوراً﴾:

أ. القائل به إما الملائكة أو قوم من كمل المؤمنين كأصحاب الأعراف.

ب. وكيف كان فهو من الله وبإذنه، والخطاب بقوله: ﴿ارْجِعُوا وَراءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُوراً﴾ قيل: إنه

خطاب مبني على التهكم والاستهزاء كما كانوا يستهزءون في الدنيا بالمؤمنين، والأظهر على هذا أن يكون المراد بالوراء الدنيا، ومحصل المعنى: ارجعوا إلى الدنيا التي تركتموها وراء ظهوركم وعملتم فيها ما عملتم على النفاق، والتمسوا من تلك الأعمال نورا فإنما النور نور الأعمال أو الإيمان ولا إيمان لكم ولا عمل.

ج. ويمكن أن يجعل هذا وجها على حياله من غير معنى الاستهزاء بأن يكون قوله: ﴿ارْجِعُوا﴾ أمرا بالرجوع إلى الدنيا واكتساب النور بالإيمان والعمل الصالح وليسوا براجعين ولا يستطيعون فيكون الأمر بالرجوع كالأمر بالسجود المذكور في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ ساقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلا يَسْتَطِيعُونَ خاشِعَةً أَبْصارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سالِمُونَ﴾ [القلم: ٤٣]

د. وقيل: المراد ارجعوا إلى المكان الذي قسم فيه النور والتمسوا من هناك فيرجعون فلا يجدون شيئا فينصرفون إليهم وقد ضرب بينهم بسور، وهذا خدعة منه تعالى يخدعهم بها كما كانوا في الدنيا يخادعونه كما قال: ﴿إِنَّ الْمُنافِقِينَ يُخادِعُونَ اللهَ وَهُوَ خادِعُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢]

٣. ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ﴾:

أ. سور المدينة حائطها الحاجز بينها وبين الخارج منها، والضمير في ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ﴾ راجع إلى المؤمنين والمنافقين جميعا أي ضرب بين المؤمنين وبين المنافقين بسور حاجز يحجز إحدى الطائفتين عن الأخرى.

ب. قيل: السور هو الأعراف وهو غير بعيد وقد تقدمت إشارة إليه في تفسير قوله تعالى: ﴿وَبَيْنَهُما حِجابٌ وَعَلَى الْأَعْرافِ رِجالٌ﴾ الآية: [الأعراف: ٤٦]، وقيل: السور غير الأعراف.

٤. ﴿لَهُ بابٌ﴾ أي للسور باب وهذا يشبه حال المنافقين في الدنيا فقد كانوا فيها بين المؤمنين لهم اتصال بهم وارتباط وهم مع ذلك محجوبون عنهم بحجاب، على أنهم يرون أهل الجنة ويزيد بذلك حسرتهم وندامتهم.

٥. ﴿باطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذابُ﴾:

أ. ﴿باطِنُهُ﴾ مبتدأ وجملة ﴿فِيهِ الرَّحْمَةُ﴾ مبتدأ وخبر وهي خبر ﴿باطِنُهُ﴾ وكذا ﴿ظاهِرُهُ﴾ مبتدأ وجملة ﴿مِنْ قِبَلِهِ الْعَذابُ﴾ مبتدأ وخبر هي خبره، وضميرا ﴿فِيهِ﴾ و﴿مِنْ قِبَلِهِ﴾ للباطن والظاهر.

ب. ويظهر من كون باطن السور فيه رحمة وظاهره من قبله العذاب أن السور محيط بالمؤمنين وهم

في داخله والمنافقون في الخارج منه.

ج. وفي اشتمال داخله الذي يلي المؤمنين على الرحمة وظاهره الذي يلي المنافقين على العذاب مناسبة لحال الإيمان في الدنيا فإنه نعمة لأهل الإخلاص من المؤمنين يبتهجون بها ويلتذون وعذاب لأهل النفاق يتحرجون من التلبس به ويتألمون منه.

٦. ﴿يُنادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ﴾:

أ. استئناف في معنى جواب السؤال كأنه قيل: فما ذا يفعل المنافقون والمنافقات بعد ضرب السور ومشاهدة العذاب من ظاهره؟ فقيل: ينادونهم.

ب. والمعنى: ينادي المنافقون والمنافقات المؤمنين والمؤمنات بقولهم: ﴿أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ﴾ يريدون به كونهم في الدنيا مع المؤمنين والمؤمنات في ظاهر الدين.

٧. ﴿قالُوا بَلى﴾:

أ. جواب المؤمنين والمؤمنات لهم والمعنى: ﴿قالُوا﴾ أي قال المؤمنون والمؤمنات جوابا لهم ﴿بَلى﴾ كنتم في الدنيا معنا ﴿وَلكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ﴾ أي محنتم وأهلكتم ﴿أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ﴾ الدوائر بالدين وأهله ﴿وَارْتَبْتُمْ﴾ وشككتم في دينكم ﴿وَغَرَّتْكُمُ الْأَمانِيُّ﴾ ومنها أمنيتكم أن الدين سيطفأ نوره ويتركه أهله ﴿حَتَّى جاءَ أَمْرُ اللهِ﴾ وهو الموت ﴿وَغَرَّكُمْ بِاللهِ الْغَرُورُ﴾ بفتح الغين وهو الشيطان.

ب. والآية، كما ترى، تفيد أن المنافقين والمنافقات يستنصرون المؤمنين والمؤمنات على ما هم فيه من الظلمة متوسلين بأنهم كانوا معهم في الدنيا ثم تفيد أن المؤمنين والمؤمنات يجيبون بأنهم كانوا معهم لكن قلوبهم كانت لا توافق ظاهر حالهم حيث يفتنون أنفسهم ويتربصون ويرتابون وتغرهم الأماني ويغرهم بالله الغرور، وهذه الصفات الخبيثة آفات القلوب فكانت القلوب غير سليمة ولا ينفع يوم القيامة إلا القلب السليم قال تعالى: ﴿يَوْمَ لا يَنْفَعُ مالٌ وَلا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٩]

٨. ﴿فَالْيَوْمَ لا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ تتمة كلام المؤمنين والمؤمنات يخاطبون به المنافقين والمنافقات ويضيفون إليهم الكفار وهم المعلنون لكفرهم أنهم رهناء أعمالهم كما قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر: ٣٨]، لا يؤخذ منهم فدية يخلصون بها أنفسهم والفدية أحد الأمرين اللذين بهما التخلص من الرهانة والآخر ناصر ينصر فينجي وقد نفوه بقولهم: ﴿مَأْواكُمُ النَّارُ﴾

٩. ﴿مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾:

أ. ينفي أي ناصر ينصرهم وينجيهم من النار غير النار على ما يفيده قوله: ﴿هِيَ مَوْلَاكُمْ﴾ من الحصر، والمولى هو الناصر والجملة مسوقة للتهكم.

ب. ويمكن أن يكون المولى بمعنى من يلي الأمر فإنهم كانوا يدعون لحوائجهم من المأكل والمشرب والملبس والمنكح والمسكن غير الله سبحانه وحقيقته النار فاليوم مولاهم النار وهي التي تعد لهم ذلك فمأكلهم من الزقوم ومشربهم من الحميم وملبسهم من ثياب قطعت من النار وقرناؤهم الشياطين ومأواهم النار على ما أخبر الله سبحانه به في آيات كثيرة من كلامه.

١٠. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي: في قوله: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ، يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾ قال: يقسم النور بين الناس يوم القيامة، على قدر إيمانهم، يقسم للمنافق فيكون نوره بين إبهام رجله اليسرى، فينظر نوره ثم يقول للمؤمنين: مكانكم حتى أقتبس من نوركم، فيقول المؤمنون لهم: ارجعوا وراءكم، فالتمسوا نورا ويضرب بينهم بسور له باب، فينادون من وراء السور للمؤمنين: ﴿أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا: بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ قال: بالمعاصي ﴿وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ﴾ قال: أي شككتم وتربصتم، ﴿فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ﴾ قال: والله ما عنى بذلك اليهود والنصارى، وما عنى به إلا أهل القبلة، ثم قال: ﴿مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ﴾ قال: هي أولى بكم.

• أقول: يعني بأهل القبلة المنافقين منهم.

ب. وفي الكافي، بإسناده عن أبان بن تغلب قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: تجنبوا المنى فإنها تذهب بهجة ما خولتم، وتستصغرون بها مواهب الله جل وعز عندكم، وتعقبكم الحسرات فيما وهمتم به أنفسكم.

١١. الحث على خشوع القلوب لذكر الله وتجنب قسوة القلب:

المقطع [١١] من سورة الحديد، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد: ١٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ١٦١»:

١. ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَما نَزَلَ مِنَ الْحَقِ﴾:

أ. يقال: أنى يأني إنى وإناء أي جاء وقته، وخشوع القلب تأثره قبال العظمة والكبرياء، والمراد بذكر الله ما يذكر به الله، وما نزل من الحق هو القرآن النازل من عنده تعالى و﴿مِنَ الْحَقِ﴾ بيان لما نزل، ومن شأن ذكر الله تعالى عند المؤمن أن يعقب خشوعا كما أن من شأن الحق النازل من عنده تعالى أن يعقب خشوعا ممن آمن بالله ورسله.

ب. وقيل: المراد بذكر الله وما نزل من الحق جميعا القرآن، وعلى هذا فذكر القرآن بوصفيه لكون كل من الوصفين مستدعيا لخشوع المؤمن فالقرآن لكونه ذكر الله يستدعي الخشوع كما أنه لكونه حقا نازلا من عنده تعالى يستدعي الخشوع.

ج. وفي الآية عتاب للمؤمنين على ما عرض لقلوبهم من القسوة وعدم خشوعها لذكر الله والحق النازل من عنده تعالى وتشبيه لحالهم بحال أهل الكتاب الذين نزل عليهم الكتاب وطال عليهم الأمد فقست قلوبهم.

٢. ﴿وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ مِنْ قَبْلُ فَطالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾:

أ. عطف على قوله: ﴿تَخْشَعَ﴾، والمعنى: ألم يأن لهم أن تخشع قلوبهم وأن لا يكونوا.، والأمد الزمان، قال الراغب: (الفرق بين الزمان والأمد أن الأمد يقال باعتبار الغاية والزمان عام في المبدأ والغاية ولذلك قال بعضهم: إن المدى والأمد يتقاربان)

ب. وقد أشار سبحانه بهذا الكلام إلى صيرورة قلوبهم كقلوب أهل الكتاب القاسية والقلب القاسي حيث يفقد الخشوع والتأثر عن الحق ربما خرج عن زي العبودية فلم يتأثر عن المناهي واقترف الإثم والفسوق، ولذا أردف قوله: ﴿فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ بقوله: ﴿وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فاسِقُونَ﴾

٣. أحاديث وآثار:

أ. أخرج ابن المبارك وعبد الرزاق وابن المنذر عن الأعمش قال: لما قدم أصحاب رسول الله ﷺ المدينة، فأصابوا من لين العيش ما أصابوا، بعد ما كان بهم من الجهد، فكأنهم فتروا عن بعض ما كانوا عليه، فعوتبوا فنزلت: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾

• أقول: هذه أعدل الروايات في نزول السورة وهناك رواية عن ابن مسعود قال: ما كان بين

إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ﴾ إلا أربع سنين، وظاهره كون السورة مكية، وفي معناه ما ورد أن عمر آمن بعد نزول هذه السورة وقد عرفت أن سياق آيات السورة تأبى إلا أن تكون مدنية، ويمكن حمل رواية ابن مسعود على كون آية ﴿أَلَمْ يَأْنِ﴾، أو هي والتي تتلوها مما نزل بمكة دون باقي آيات السورة.

ب. وفي رواية عن النبي ﷺ: استبطأ الله قلوب المهاجرين، بعد سبع عشرة من نزول القرآن، فأنزل الله ﴿أَلَمْ يَأْنِ﴾ الآية، ولازمه نزول السورة سنة أربع أو خمس من الهجرة، وفي رواية أخرى عن ابن عباس قال: إن الله استبطأ قلوب المهاجرين، فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة سنة من نزول القرآن، فقال: ﴿أَلَمْ يَأْنِ﴾، ولازمه نزول السورة أيام الهجرة، والروايتان أيضا لا تلائمان سياق آياتها.

١٢ . الإشارة إلى إحياء الأرض بعد موتها كدليل على البعث:

المقطع [١٢] من سورة الحديد، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللهَّ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الحديد: ١٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ١٦٢»:

١ . ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾:

أ. في تعقيب عتاب المؤمنين على قسوة قلوبهم بهذا التمثيل تقوية لرجائهم وترغيب لهم في الخشوع.

ب. ويمكن أن يكون من تمام العتاب السابق ويكون تنبيها على أن الله لا يخلي هذا الدين على ما هو عليه من الحال بل كلما قست قلوب وحرموا الخشوع لأمر الله جاء بقلوب حية خاشعة له يعبد بها كما يريد.

ج. فتكون الآية في معنى قوله: ﴿ها أَنْتُمْ هؤُلاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّما يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ وَاللهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَراءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثالَكُمْ﴾ سورة [محمد: ٣٨]، ولذلك ذيل الآية بقوله: ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾

١٣ . وعد المتصدقين والمقرضين بالمضاعفة والأجر الكريم:

المقطع [١٣] من سورة الحديد، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللهَّ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ [الحديد: ١٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ١٦٢»:

١. ﴿إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللهَ قَرْضاً حَسَناً يُضاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾:

أ. تكرار لحديث المضاعفة والأجر الكريم للترغيب في الإنفاق في سبيل الله وقد أضيف إلى الذين أقرضوا الله قرضا حسنا المصدقون والمصدقات.

ب. والمصدقون والمصدقات، بتشديد الصاد والدال، المتصدقون والمتصدقات، وقوله: ﴿وَأَقْرَضُوا اللهَ﴾ عطف على مدخول اللام في ﴿الْمُصَّدِّقِينَ﴾، والمعنى: أن الذين تصدقوا والذين أقرضوا الله قرضا حسنا يضاعف لهم ما أعطوه ولهم أجر كريم.

١٤. وصف المؤمنين بالصديقين والشهداء ووعيد الكافرين بالجحيم:

المقطع [١٤] من سورة الحديد، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [الحديد: ١٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ١٦٢»:

١. ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ أُولئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَداءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾:

أ. لم يقل: آمنوا بالله ورسوله كما قال في أول السورة: ﴿آمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا﴾ وقال في آخرها: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ﴾ لأنه تعالى لما ذكر أهل الكتاب في الآية السابقة بقوله: ﴿وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ مِنْ قَبْلُ﴾ عدل عن السياق السابق إلى سياق عام يشمل المسلمين وأهل الكتاب جميعا كما قال بعد: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلَنا بِالْبَيِّناتِ﴾ وأما الآيتان المذكورتان في أول السورة وآخرها فالخطاب فيهما لمؤمني هذه الأمة خاصة ولذا جيء فيهما بالرسول مفردا.

ب. والمراد بالإيمان بالله ورسله محض الإيمان الذي لا يفارق بطبعه الطاعة والاتباع كما مرت الإشارة إليه في قوله: ﴿آمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ﴾ الآية، والمراد بقوله: ﴿أُولئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَداءُ﴾ إلحاقهم بالصديقين والشهداء بقرينة قوله: ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ وقوله: ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ فهم ملحقون بالطائفتين يعامل معهم معاملة الصديقين والشهداء فيعطون مثل أجرهم ونورهم.

ج. والظاهر أن المراد بالصديقين والشهداء هم المذكورون في قوله: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُولئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَداءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولئِكَ رَفِيقاً﴾ [النساء: ٦٩]، وقد تقدم في تفسير الآية أن المراد بالصديقين هم الذين سرى الصدق في قولهم وفعلهم

فيفعلون ما يقولون ويقولون ما يفعلون، والشهداء هم شهداء الأعمال يوم القيامة دون الشهداء بمعنى المقتولين في سبيل الله.

د. فهؤلاء الذين آمنوا بالله ورسله ملحقون بالصديقين والشهداء منزلون منزلتهم عند الله أي بحكم منه لهم أجرهم ونورهم.

٢. ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾:

أ. ضمير ﴿لَهُمْ﴾ للذين آمنوا، وضمير ﴿أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ للصديقين والشهداء أي للذين آمنوا أجر من نوع أجر الصديقين والشهداء ونور من نوع نورهم، وهذا معنى قول من قال: إن المعنى: لهم أجر كأجرهم ونور كنورهم.

ب. وربما قيل: إن الآية مسوقة لبيان أنهم صديقون وشهداء على الحقيقة من غير إلحاق وتنزيل فهم هم لهم أجرهم ونورهم، ولعل السياق لا يساعد عليه.

ج. وربما قيل: إن قوله: ﴿وَالشُّهَدَاءُ﴾ ليس عطفا على قوله: ﴿الصِّدِّيقُونَ﴾ بل استئناف و﴿الشُّهَدَاءُ﴾ مبتدأ خبره ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ وخبره الآخر ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ فقد قيل: والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون، وقد تم الكلام ثم استؤنف وقيل: ﴿وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ كما قيل: ﴿بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٩]، والمراد بالشهداء المقتولون في سبيل الله، ثم تم الكلام بقوله: ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾

٣. ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾:

أ. أي لا يفارقونها وهم فيها دائمين.

ب. وقد تعرض سبحانه في الآية لشأن الملحقين بالصديقين والشهداء وهم خيار الناس والناجون قطعا، والكفار المكذبين لآياته وهم شرار الناس والهالكون قطعا وبقي فريق بين الفريقين وهم المؤمنون المقترفون للمعاصي والذنوب على طبقاتهم في التمرد على الله ورسوله، وهذا دأب القرآن في كثير من موارد التعرض لشأن الناس يوم القيامة، وذلك ليكون بعثا لقريحتي الخوف والرجاء في ذلك الفريق المتخلل بين الخيار والشرار فيميلوا إلى السعادة ويختاروا النجاة على الهلاك.

ج. ولذلك أعقب الآية بذم الحياة الدنيا التي تعلق بها هؤلاء الممتنعون من الإنفاق في سبيل الله

ثم بدعوتهم إلى المسابقة إلى المغفرة والجنة ثم بالإشارة إلى أن ما يصيبهم من المصيبة في أموالهم وأنفسهم مكتوبة في كتاب سابق وقضاء متقدم فليس ينبغي لهم أن يخافوا الفقر في الإنفاق في سبيل الله، فيبخلوا ويمسكوا أو يخافوا الموت في الجهاد في سبيل الله فيتخلفوا ويقعدوا.

٤. أحاديث وآثار:

أ. أخرج ابن جرير عن البراء بن عازب قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: مؤمنوا أمتي شهداء، ثم تلا النبي ﷺ: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالله وَرُسُلِهِ أُولئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ، وَالشُّهَداءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾

ب. وفي تفسير العياشي، بإسناده عن منهال القصاب قال: لأبي عبد الله عليه السلام: ادع الله أن يرزقني الشهادة، فقال: إن المؤمن شهيد وقرأ هذه الآية.

• أقول: وفي معناه روايات أخرى وظاهر بعضها كهذه الرواية تفسير الشهادة بالقتل في سبيل الله.

١٥. وصف حقيقة الدنيا وضرب المثل لها:

المقطع [١٥] من سورة الحديد، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [الحديد: ٢٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ١٦٤»:

١. ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾:

أ. اللعب عمل منظوم لغرض خيالي كلعب الأطفال، واللهو ما يشغل الإنسان عما يهمه، والزينة بناء نوع وربما يراد به ما يتزين به وهي ضم شيء مرغوب فيه إلى شيء آخر ليرغب فيه بما اكتسب به من الجمال، والتفاخر المباهاة بالأنساب والأحساب، والتكاثر في الأموال والأولاد.

ب. والحياة الدنيا عرض زائل وسراب باطل لا يخلو من هذه الخصال الخمس المذكورة: اللعب واللهو والزينة والتفاخر والتكاثر وهي التي يتعلق بها هوى النفس الإنسانية ببعضها أو بجميعها وهي أمور وهمية وأعراض زائلة لا تبقى للإنسان وليست ولا واحدة منها تجلب للإنسان كمالا نفسيا ولا خيرا حقيقيا.

ج. وعن شيخنا البهائي رحمه الله أن الخصال الخمس المذكورة في الآية مترتبة بحسب سني عمر

الإنسان ومراحل حياته فيتولع أولا باللعب وهو طفل أو مراهق ثم إذا بلغ واشتد عظمه تعلق باللهو والملاهي ثم إذا بلغ أشده اشتغل بالزينة من الملابس الفاخرة والمراكب البهية والمنازل العالية وتوله للحسن والجمال ثم إذا اكتهل أخذ بالمفاخرة بالأحساب والأنساب ثم إذا شاب سعى في تكثير المال والولد.

٢. ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطاماً﴾:

أ. مثل لزينة الحياة الدنيا التي يتعلق بها الإنسان غرورا ثم لا يلبث دون أن يسلبها.

ب. والغيث المطر والكفار جمع كافر بمعنى الحارث، ويهيج من الهيجان وهو الحركة، والحطام الهشيم المتكسر من يابس النبات.

ج. والمعنى: أن مثل الحياة الدنيا في بهجتها المعجبة ثم الزوال كمثل مطر أعجب الحراث نباته الحاصل بسببه ثم يتحرك إلى غاية ما يمكنه من النمو فتراه مصفر اللون ثم يكون هشيما متكسرا، متلاشيا تذروه الرياح،

٣. ﴿وَفِي الْآخِرَةِ عَذابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللهِ وَرِضْوانٌ﴾ سبق المغفرة على الرضوان لتطهير المحل ليحل به الرضوان، وتوصيف المغفرة بكونه من الله دون العذاب لا يخلو من إيماء إلى أن المطلوب بالقصد الأول هو المغفرة وأما العذاب فليس بمطلوب في نفسه وإنما يتسبب إليه الإنسان بخروجه عن زي العبودية كما قيل.

٤. ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيا إِلَّا مَتاعُ الْغُرُورِ﴾ أي متاع التمتع منه هو الغرور به، وهذا للمتعلق المغرور بها.

٥. والكلام أعني قوله: ﴿وَفِي الْآخِرَةِ عَذابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللهِ وَرِضْوانٌ﴾ إشارة إلى وجهي الحياة الآخرة ليأخذ السامع حذره فيختار المغفرة والرضوان على العذاب، ثم في قوله: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيا إِلَّا مَتاعُ الْغُرُورِ﴾ تنبيه وإيقاظ لئلا تغره الحياة الدنيا بخاصة غروره.

١٦. الحث على المسارعة إلى مغفرة الله وجنته الواسعة:

المقطع [١٦] من سورة الحديد، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ١٦٥»:

١. ﴿سابِقُوا إِلى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُها كَعَرْضِ السَّماءِ وَالْأَرْضِ﴾:

أ. المسابقة هي المغالبة في السبق للوصول إلى غرض بأن يريد كل من المسابقين جعل حركته أسرع من حركة صاحبه ففي معنى المسابقة ما يزيد على معنى المسارعة فإن المسارعة الجد في تسريع الحركة والمسابقة الجد في تسريعها بحيث تزيد في السرعة على حركة صاحبه.

ب. وعلى هذا فقوله: ﴿سابِقُوا إِلى مَغْفِرَةٍ﴾، يتضمن من التكليف ما هو أزيد مما يتضمنه قوله: ﴿سارِعُوا إِلى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّماواتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣]

ج. ويظهر به عدم استقامة ما قيل: إن آية آل عمران في السابقين المقربين والآية التي نحن فيها في عامة المؤمنين حيث لم يذكر فيها إلا الإيمان بالله ورسله بخلاف آية آل عمران فإنها مذيلة بجملة الأعمال الصالحة، ولذا أيضا وصف الجنة الموعودة هناك بقوله: ﴿عَرْضُهَا السَّماواتُ وَالْأَرْضُ﴾ بخلاف ما هاهنا حيث قيل: ﴿عَرْضُها كَعَرْضِ السَّماءِ وَالْأَرْضِ﴾ فدل على أن جنة أولئك أوسع من جنة هؤلاء.

• وجه عدم الاستقامة ما عرفت أن المكلف به في الآية المبحوث عنها معنى فوق ما كلف به في آية آل عمران، على أن اللام في ﴿السَّماءِ﴾ للجنس فتنطبق على ﴿السَّماواتُ﴾ في تلك الآية.

د. وتقديم المغفرة على الجنة في الآية لأن الحياة في الجنة حياة طاهرة في عالم الطهارة فيتوقف التلبس بها على زوال قذارات الذنوب وأوساخها.

هـ. والمراد بالعرض السعة دون العرض المقابل للطول وهو معنى شائع، والكلام كأنه مسوق للدلالة على انتهائها في السعة.

و. وقيل: المراد بالعرض ما يقابل الطول والاقتصار على ذكر العرض أبلغ من ذكر الطول معه فإن العرض أقصر الامتدادين وإذا كان كعرض السماء والأرض كان طولها أكثر من طولهما.

• ولا يخلو الوجه من تحكم إذ لا دليل على مساواة طول السماء والأرض لعرضهما ثم على زيادة طول الجنة على عرضها حتى يلزم زيادة طول الجنة على طولهما والطول قد يساوي العرض كما في المربع والدائرة وسطح الكرة وغيرها وقد يزيد عليه.

٢. ﴿أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ﴾:

أ. قد عرفت في ذيل قوله: ﴿آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ﴾ وقوله: ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ﴾ أن المراد

بالإيمان بالله ورسله هو مرتبة عالية من الإيمان تلازم ترتب آثاره عليه من الأعمال الصالحة واجتناب الفسوق والإثم.

ب. وبذلك يظهر أن قول بعضهم: إن في الآية بشارة لعامة المؤمنين حيث قال: ﴿أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ﴾ ولم يقيد الإيمان بشيء من العمل الصالح ونحوه غير سديد فإن خطاب الآية وإن كان بظاهر لفظه يعم الكافر والمؤمن الصالح والطالح لكن وجه الكلام إلى المؤمنين يدعوهم إلى الإيمان الذي يصاحب العمل الصالح، ولو كان المراد بالإيمان بالله ورسله مجرد الإيمان ولو لم يصاحبه عمل صالح وكانت الجنة معدة لهم والآية تدعو إلى السباق إلى المغفرة والجنة كان خطاب ﴿سابِقُوا﴾ متوجها إلى الكفار فإن المؤمنين قد سبقوا وسياق الآيات يأباه.

٣. ﴿ذلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ﴾ وقد شاء أن يؤتيه الذين آمنوا بالله ورسله، وقد تقدم بيان أن ما يؤتيه الله من الأجر لعباده المؤمنين فضل منه تعالى من غير أن يستحقوه عليه.

٤. ﴿وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ إشارة إلى عظمة فضله، وأن ما يثيبهم به من المغفرة والجنة من عظيم فضله.

١٧. بيان أن كل مصيبة مكتوبة من قبل لتجنب الحزن والبطر:

المقطع [١٧] من سورة الحديد، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [الحديد: ٢٢-٢٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ١٦٦»:

١. ﴿ما أَصابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَها﴾:

أ. المصيبة الواقعة التي تصيب الشيء مأخوذة من إصابة السهم الغرض وهي بحسب المفهوم أعم من الخير والشر لكن غلب استعمالها في الشر فالمصيبة هي النائبة، والمصيبة التي تصيب في الأرض كالجدب وعاهة الثمار والزلزلة المخربة ونحوها، والتي تصيب في الأنفس كالمرض والجرح والكسر والقتل والموت، والبرء والبروء الخلق من العدم.

ب. وضمير ﴿نَبْرَأَها﴾ للمصيبة، وقيل: للأنفس، وقيل: للأرض، وقيل: للجميع من الأرض والأنفس والمصيبة، ويؤيد الأول أن المقام مقام بيان ما في الدنيا من المصائب الموجبة لنقص الأموال

والأنفس التي تدعوهم إلى الإمساك عن الإنفاق والتخلف عن الجهاد.

ج. والمراد بالكتاب اللوح المكتوب فيه ما كان وما يكون وما هو كائن إلى يوم القيامة كما تدل عليه الآيات والروايات وإنما اقتصر على ذكر ما يصيب في الأرض وفي أنفسهم من المصائب لكون الكلام فيها.

د. قيل: إنما قيد المصيبة بما في الأرض وفي الأنفس لأن مطلق المصائب غير مكتوبة في اللوح لأن اللوح متناه والحوادث غير متناهية ولا يكون المتناهي ظرفا لغير المتناهي.

هـ. والكلام مبني على أن المراد باللوح لوح فلزي أو نحوه منصوب في ناحية من نواحي الجو مكتوب فيه الحوادث بلغة من لغاتنا بخط يشبه خطوطنا، وقد مر كلام في معنى اللوح والقلم وسيجيء له تتمة.

و. وقيل: المراد بالكتاب علمه تعالى وهو خلاف الظاهر إلا أن يراد به أن الكتاب المكتوب فيه الحوادث من مراتب علمه الفعلي.

ز. وختم الآية بقوله: ﴿إِنَّ ذلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ﴾ للدلالة على أن تقدير الحوادث قبل وقوعها والقضاء عليها بقضاء لا يتغير لا صعوبة فيه عليه تعالى.

٢. ﴿لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلى ما فاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِما آتاكُمْ﴾:

أ. تعليل راجع إلى الآية السابقة وهو تعليل للإخبار عن كتابة الحوادث قبل وقوعها لا لنفس الكتابة، والأسى الحزن، والمراد بما فات وما آتى النعمة الفائتة والنعمة المؤتاة.

ب. والمعنى: أخبرناكم بكتابة الحوادث قبل حدوثها وتحققها لئلا تحزنوا بما فاتكم من النعم ولا تفرحوا بما أعطاكم الله منها لأن الإنسان إذا أيقن أن الذي أصابه مقدر كائن لا محالة لم يكن ليخطئه وأن ما أوتيه من النعم وديعة عنده إلى أجل مسمى لم يعظم حزنه إذا فاته ولا فرحه إذا أوتيه.

ج. قيل: إن اختلاف الإسناد في قوليه: ﴿ما فاتَكُمْ﴾ و﴿بِما آتاكُمْ﴾ حيث أسند الفوت إلى نفس الأشياء والإيتاء إلى الله سبحانه لأن الفوات والعدم ذاتي للأشياء فلو خليت ونفسها لم تبق بخلاف حصولها وبقائها فإنه لا بد من استنادهما إلى الله تعالى.

٣. ﴿وَاللهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتالٍ فَخُورٍ﴾ المختال من أخذته الخيلاء وهي التكبر عن تخيل فضيلة تراءت له من نفسه، على ما ذكره الراغب، والفخور الكثير الفخر والمباهاة والاختيال والفخر ناشئان عن

توهم الإنسان أنه يملك ما أوتيه من النعم باستحقاق من نفسه، وهو مخالف لما هو الحق من استناد ذلك إلى تقدير من الله لا لاستقلال من نفس الإنسان فهما من الرذائل والله لا يحبها.

٤. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي، بإسناده عن حفص بن غياث قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: جعلت فداك، فما حد الزهد في الدنيا؟ فقال: قد حده الله في كتابه فقال عز وجل: ﴿لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلى ما فاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِما آتاكُمْ﴾

ب. وفي نهج البلاغة، قال عليه السلام: الزهد كله بين كلمتين من القرآن قال الله تعالى: ﴿لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلى ما فاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِما آتاكُمْ﴾ ومن لم يأس على الماضي ولم يفرح بالآتي، فقد أخذ الزهد بطرفيه.

• أقول: والأساس الذي يبتنيان عليه عدم تعلق القلب بالدنيا، وفي الحديث المعروف: حب الدنيا رأس كل خطيئة.

١٨. ذم البخل والأمر به وبيان غنى الله وحمده:

المقطع [١٨] من سورة الحديد، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [الحديد: ٢٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ١٦٨»:

١. ﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ﴾ وصف لكل مختال فخور يفيد تعليل عدم حبه تعالى، والوجه في بخلهم الاحتفاظ للمال الذي يعتمد عليه اختيالهم وفخرهم والوجه في أمرهم الناس بالبخل أنهم يحبونه لأنفسهم فيحبونه لغيرهم، ولأن شيوع السخاء والجود بين الناس وإقبالهم على الإنفاق في سبيل الله يوجب أن يعرفوا بالبخل المذموم.

٢. ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ أي ومن يعرض عن الإنفاق ولم يتعظ بعظة الله ولا اطمأن قلبه بما بينه من صفات الدنيا ونعت الجنة وتقدير الأمور فإن الله هو الغني فلا حاجة له إلى إنفاقهم، والمحمود في أفعاله.

٣. والآيات الثلاث أعني قوله: ﴿ما أَصابَ مِنْ مُصِيبَةٍ﴾، إلى قوله: ﴿الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ كما ترى حث على الإنفاق وردع عن البخل والإمساك بتزهيدهم عن الأسى بما فاتهم والفرح بما آتاهم لأن الأمور

مقدرة مقضية مكتوبة في كتاب معينة قبل أن يبرأها الله سبحانه.

١٩. إرسال الرسل بالبينات وإنزال الكتاب والميزان لإقامة العدل:

المقطع [١٩] من سورة الحديد، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ١٧١»:

١. ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾:

أ. استئناف يتبين به معنى تشريع الدين بإرسال الرسل وإنزال الكتاب والميزان وأن الغرض من ذلك قيام الناس بالقسط وامتحانهم بذلك وبإنزال الحديد ليتميز من ينصر الله بالغيب ويتبين أن أمر الرسالة لم يزل مستمرا بين الناس ولم يزالوا يهتدي من كل أمة بعضهم وكثير منهم فاسقون.

ب. فقوله: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي بالآيات البينات التي يتبين بها أنهم مرسلون من جانب الله سبحانه من المعجزات الباهرة والبشارات الواضحة والحجج القاطعة.

٢. ﴿وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ﴾ وهو الوحي الذي يصلح أن يكتب فيصير كتابا، المشتمل على معارف الدين من اعتقاد وعمل وهو خمسة: كتاب نوح وكتاب إبراهيم والتوراة والإنجيل والقرآن.

٣. ﴿وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾:

أ. فسروا الميزان بذي الكفتين الذي يوزن به الأثقال، وأخذوا قوله: ﴿لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ غاية متعلقة بإنزال الميزان والمعنى: وأنزلنا الميزان ليقوم الناس بالعدل في معاملاتهم فلا يخسروا باختلال الأوزان والنسب بين الأشياء فقوام حياة الإنسان بالاجتماع، وقوام الاجتماع بالمعاملات الدائرة بينهم والمبادلات في الأمتعة والسلع وقوام المعاملات في ذوات الأوزان بحفظ النسب بينها وهو شأن الميزان.

ب. ولا يبعد، والله أعلم، أن يراد بالميزان الدين فإن الدين هو الذي يوزن به عقائد أشخاص الإنسان وأعمالهم، وهو الذي به قوام حياة الناس السعيدة مجتمعين ومنفردين، وهذا المعنى أكثر ملائمة للسياق المتعرض لحال الناس من حيث خشوعهم وقسوة قلوبهم وجدهم ومساهلتهم في أمر الدين، وقيل: المراد بالميزان هنا العدل وقيل: العقل.

٤. أحاديث وآثار: عن جوامع الجامع، روي: أن جبرئيل نزل بالميزان فدفعه إلى نوح عليه السلام، وقال: مر قومك يزنوا به.

٢٠. إنزال الحديد وما فيه من بأس شديد ومنافع واختبار النصرة لله:

المقطع [٢٠] من سورة الحديد، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد: ٢٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ١٧٢»:

١. ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ﴾ الظاهر أنه كقوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ [الزمر: ٦]، وقد تقدم في تفسير الآية أن تسمية الخلق في الأرض إنزالا إنما هو باعتبار أنه تعالى يسمي ظهور الأشياء في الكون بعد ما لم يكن إنزالا لها من خزائنه التي عنده ومن الغيب إلى الشهادة قال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ [الحجر: ٢١]

٢. ﴿فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾:

أ. البأس هو الشدة في التأثير ويغلب استعماله في الشدة في الدفاع والقتال، ولا تزال الحروب والمقاتلات وأنواع الدفاع ذات حاجة شديدة إلى الحديد وأقسام الأسلحة المعمولة منه منذ تنبه البشر له واستخرجه.

ب. وأما ما فيه من المنافع للناس فلا يحتاج إلى البيان فله دخل في جميع شعب الحياة وما يرتبط بها من الصنائع.

٣. ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ﴾ غاية معطوفة على محذوف والتقدير وأنزلنا الحديد لكذا وليعلم الله من ينصره إلخ، والمراد بنصره ورسله الجهاد في سبيله دفاعا عن مجتمع الدين وبسطا لكلمة الحق، وكون النصر بالغيب كونه في حال غيبته منهم أو غيبتهم منه، والمراد بعلمه بمن ينصره ورسله تميزهم ممن لا ينصر.

٤. وختم الآية بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ وكان وجهه الإشارة إلى أن أمره تعالى لهم بالجهاد إنما هو ليتميز الممتثل منهم من غيره لا لحاجة منه تعالى إلى ناصر ينصره أنه تعالى قوي لا سبيل للضعف إليه عزيز لا سبيل للذلة إليه.

٥. أحاديث وآثار: في الاحتجاج، عن علي عليه السلام في حديث وقال: ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ فإنزاله ذلك خلقه إياه.

٢١. إرسال نوح وإبراهيم وجعل النبوة والكتاب في ذريتها:

المقطع [٢١] من سورة الحديد، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد: ٢٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ١٧٢»:

١. ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً وَإِبْراهِيمَ وَجَعَلْنا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فاسِقُونَ﴾:

أ. شروع في الإشارة إلى أن الاهتداء والفسق جاريان في الأمم الماضية حتى اليوم فلم تصلح أمة من الأمم بعامة أفرادها بل لم يزل كثير منهم فاسقين.

ب. وضمير ﴿فَمِنْهُمْ﴾ و﴿فَمِنْهُمْ﴾ للذرية والباقي ظاهر.

٢٢. قصة عيسى والإنجيل والرهبانية المبتدعة وعدم رعايتها:

المقطع [٢٢] من سورة الحديد، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد: ٢٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ١٧٢»:

١. ﴿ثُمَّ قَفَّيْنا عَلى آثارِهِمْ بِرُسُلِنا وَقَفَّيْنا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْناهُ الْإِنْجِيلَ﴾:

أ. في المجمع: (التقفية جعل الشيء في إثر شيء على الاستمرار فيه، ولهذا قيل لمقاطع الشعر قواف إذ كانت تتبع البيت على أثره مستمرة في غيره على منهاجه)

ب. وضمير ﴿عَلى آثارِهِمْ﴾ لنوح وإبراهيم والسابقين من ذريتهما، والدليل عليه أنه لا نبي بعد نوح إلا من ذريته لأن النسل بعده له، على أن عيسى من ذرية إبراهيم قال تعالى في نوح: ﴿وَجَعَلْنا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْباقِينَ﴾ [الصافات: ٧٧]، وقال: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ داوُدَ وَسُلَيْمانَ﴾، إلى أن قال ـ﴿وَعِيسى﴾ [الأنعام: ٨٥]، فالمراد بقوله: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنا عَلى آثارِهِمْ بِرُسُلِنا﴾، التقفية باللاحقين من ذريتهما على آثارهما والسابقين من ذريتهما.

ج. وفي قوله: ﴿عَلى آثارِهِمْ﴾ إشارة إلى أن الطريق المسلوك واحد يتبع فيه بعضهم أثر بعض.

٢. ﴿وَقَفَّيْنا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْناهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾:

أ. الرأفة والرحمة، على ما قالوا، مترادفان، ونقل عن بعضهم أن الرأفة يقال في درء الشر والرحمة في جلب الخير.

ب. والظاهر أن المراد بجعل الرأفة والرحمة في قلوب الذين اتبعوه توفيقهم للرأفة والرحمة فيما بينهم فكانوا يعيشون على المعاضدة والمسالمة كما وصف الله سبحانه الذين مع النبي ﷺ بالرحمة إذ قال: ﴿رُحَماءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]، وقيل: المراد بجعل الرأفة والرحمة في قلوبهم الأمر بهما والترغيب فيهما ووعد الثواب عليهما.

٣. ﴿وَرَهْبانِيَّةً ابْتَدَعُوها ما كَتَبْناها عَلَيْهِمْ﴾:

أ. الرهبانية من الرهبة وهي الخشية، ويطلق عرفا على انقطاع الإنسان من الناس لعبادة الله خشية منه، والابتداع إتيان ما لم يسبق إليه في دين أو سنة أو صنعة، وقوله: ﴿ما كَتَبْناها عَلَيْهِمْ﴾ في معنى الجواب عن سؤال مقدر كأنه قيل: ما معنى ابتداعهم لها؟ فقيل: ما كتبناها عليهم.

ب. والمعنى: أنهم ابتدعوا من عند أنفسهم رهبانية من غير أن نشرعه نحن لهم.

٤. ﴿إِلَّا ابْتِغاءَ رِضْوانِ اللهِ فَما رَعَوْها حَقَّ رِعايَتِها﴾:

أ. استثناء منقطع معناه ما فرضناها عليهم لكنهم وضعوها من عند أنفسهم ابتغاء لرضوان الله وطلبا لمرضاته فما حافظوا عليها حق محافظتها بتعديهم حدودها.

ب. وفيه إشارة إلى أنها كانت مرضية عنده تعالى وإن لم يشرعها بل كانوا هم المبتدعين لها.

٥. ﴿فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فاسِقُونَ﴾ إشارة إلى أنهم كالسابقين من أمم الرسل منهم مؤمنون مأجورون على إيمانهم وكثير منهم فاسقون، والغلبة للفسق.

٦. أحاديث وآثار: في المجمع: (عن ابن مسعود قال: كنت رديف رسول الله على الحمار فقال: يا ابن أم عبد، هل تدري من أين أحدثت بنو إسرائيل الرهبانية؟ فقلت: الله ورسوله أعلم، فقال: ظهرت عليهم الجبابرة بعد عيسى عليه السلام، يعملون بمعاصي الله فغضب أهل الإيمان فقاتلوهم، فهزم أهل الإيمان ثلاث مرات فلم يبق منهم إلا القليل، فقالوا: إن ظهرنا لهؤلاء أفنونا، ولم يبق للدين أحد يدعو إليه فتعالوا نتفرق في الأرض، إلى أن يبعث الله النبي الذي وعدنا به عيسى، يعنون محمدا ﷺ، فتفرقوا في غيران

الجبال وأحدثوا رهبانية، فمنهم من تمسك بدينه، ومنهم من كفر، ثم تلا هذه الآية ﴿وَرَهْبانِيَّةً ابْتَدَعُوها، ما كَتَبْناها عَلَيْهِمْ﴾ إلى آخرها، ثم قال: يا ابن أم عبد أتدري ما رهبانية أمتي؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: الهجرة والجهاد والصلاة والصوم والحج والعمرة.

٢٣. دعوة المؤمنين للتقوى والإيمان بالرسول لنيل كفلين من الرحمة:

المقطع [٢٣] من سورة الحديد، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَّ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُّ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الحديد: ٢٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ١٧٣»:

١. ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾:

أ. أمر الذين آمنوا بالتقوى والإيمان بالرسول مع أن الذين استجابوا الدعوة فآمنوا بالله آمنوا برسوله أيضا دليل على أن المراد بالإيمان بالرسول الاتباع التام والطاعة الكاملة لرسوله فيما يأمر به وينهى عنه سواء كان ما يأمر به أو ينهى عنه حكما من الأحكام الشرعية أو صادرا عنه بما له من ولاية أمور الأمة كما قال تعالى: ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيما شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾ [النساء: ٦٥]

ب. فهذا إيمان بعد إيمان ومرتبة فوق مرتبة الإيمان الذي ربما يتخلف عنه أثره فلا يترتب عليه لضعفه، وبهذا يناسب قوله: ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ والكفل الحظ والنصيب فله ثواب على ثواب كما أنه إيمان على إيمان.

ج. وقيل: المراد بإيتاء كفلين من الرحمة إيتاؤهم أجرين كمؤمني أهل الكتاب كأنه قيل: يؤتكم ما وعد من آمن من أهل الكتاب من الأجرين لأنكم مثلهم في الإيمان بالرسل المتقدمين وبخاتمهم عليه السلام لا تفرقون بين أحد من رسله.

٢. ﴿وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ﴾:

أ. قيل: يعني يوم القيامة وهو النور الذي أشير إليه بقوله: ﴿يَسْعى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمانِهِمْ﴾

• وفيه أنه تقييد من غير دليل بل لهم نورهم في الدنيا وهو المدلول عليه بقوله تعالى: ﴿أَوَمَنْ كانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْناهُ وَجَعَلْنا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُماتِ لَيْسَ بِخارِجٍ مِنْها﴾ [الأنعام: ١٢٢]،

ونورهم في الآخرة وهو المدلول عليه بقوله: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ يَسْعى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمانِهِمْ﴾ [الآية: ١٢] من السورة وغيره.

ب. ثم كمل تعالى وعده بإيتائهم كفلين من رحمته وجعل نور يمشون به بالمغفرة فقال: ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

٣. أحاديث وآثار:

أ. في الكافي، بإسناده عن أبي الجارود قال: قلت لأبي جعفر عليه السلام لقد آتى الله أهل الكتاب خيرا كثيرا، قال: وما ذاك؟ قلت: قول الله عز وجل: ﴿الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ﴾، إلى قوله: ﴿أُولئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِما صَبَرُوا﴾ قال: فقال: آتاكم الله كما آتاهم ثم تلا: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ، يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ﴾ يعني إماما تأتمون به.

ب. وفي المجمع: عن سعيد بن جبير: بعث رسول الله ﷺ جعفرا، في سبعين راكبا إلى النجاشي يدعوه، فقدم عليه ودعاه فاستجاب له وآمن به، فلما كان عند انصرافه، قال ناس ممن آمن به من أهل مملكته، وهم أربعون رجلا: ائذن لنا فنأتي هذا النبي فنسلم به، فقدموا مع جعفر فلما رأوا ما بالمسلمين من الخصاصة، استأذنوا رسول الله ﷺ وقالوا: يا نبي الله إن لنا أموالا، ونحن نرى ما بالمسلمين من الخصاصة، فإن أذنت لنا انصرفنا فجئنا بأموالنا، فواسينا المسلمين بها فأذن لهم، فانصرفوا فأتوا بأموالهم فواسوا بها المسلمين، فأنزل الله فيهم: ﴿الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ مِنْ قَبْلِهِ، هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ﴾، إلى قوله: ﴿وَمِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ فكانت النفقة التي واسوا بها المسلمين، فلما سمع أهل الكتاب ممن لم يؤمن به قوله: ﴿أُولئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِما صَبَرُوا﴾ فخروا على المسلمين فقالوا: يا معشر المسلمين، أما من آمن منا بكتابنا وكتابكم فله أجران، ومن آمن منا بكتابنا فله أجر كأجوركم، فما فضلكم علينا؟ فنزل قوله: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ، وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ﴾ الآية، فجعل لهم أجرين وزادهم النور والمغفرة، ثم قال: ﴿لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتابِ﴾

٢٤. إعلام أهل الكتاب بأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء:

المقطع [٢٤] من سورة الحديد، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢٩]، وفيه

المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ١٧٥»:

١. ﴿لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللهِ﴾:

أ. ظاهر السياق أن في الآية التفاتا من خطاب المؤمنين إلى خطاب النبي ﷺ، والمراد بالعلم مطلق الاعتقاد كالزعم، و﴿أَنَ﴾ مخففة من الثقيلة، وضمير ﴿يَقْدِرُونَ﴾ للمؤمنين، وفي الكلام تعليل لمضمون الآية السابقة.

ب. والمعنى: إنما أمرناهم بالإيمان بعد الإيمان ووعدناهم كفلين من الرحمة وجعل النور والمغفرة لئلا يعتقد أهل الكتاب أن المؤمنين لا يقدرون على شيء من فضل الله بخلاف المؤمنين من أهل الكتاب حيث يؤتون أجرهم مرتين أن آمنوا.

ج. وقيل: إن ﴿لِئَلَّا﴾ في ﴿لِئَلَّا يَعْلَمَ﴾ زائدة وضمير ﴿يَقْدِرُونَ﴾ لأهل الكتاب، والمعنى: إنما وعدنا المؤمنين بما وعدنا لأن يعلم أهل الكتاب القائلون: إن من آمن منا بكتابكم فله أجران ومن لم يؤمن فله أجر واحد لإيمانه بكتابنا، إنهم لا يقدرون على شيء من فضل الله إن لم يؤمنوا.

• هذا ولا يخفى عليك ما فيه من التكلف.

٢. ﴿وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ معطوف على ﴿لِئَلَّا يَعْلَمَ﴾، والمعنى: إنما وعدنا بما وعدنا لأن كذا كذا ولأن الفضل بيد الله والله ذو الفضل العظيم.

٣. وفي الآية أقوال واحتمالات أخر لا جدوى في إيرادها والبحث عنها.

سورة المجادلة

هذه السورة الكريمة تحتوي على [١٧] مقطعاً، وهذا تعريف بمقاصدها، ومحتويات مقاطعها:

مقاصد السورة ومحتوياتها:

أ. تتعرض السورة لمعان متنوعة من حكم وأدب وصفة، فشطر منها في حكم الظهار والنجوى وأدب الجلوس في المجالس، وشطر منها يصف حال الذين يحادون الله ورسوله، والذين يوادون أعداء الدين، ويصف الذين يتحرزون من موادتهم من المؤمنين ويعدهم وعداً جميلاً في الدنيا والآخرة.

ب. والسورة مدنية بشهادة سياق آياتها.

مقاطع السورة ونظمها:

١. الآيات [١ ـ ٦] آيات في حكم الظهار وأحكامه.

٢. الآيات [٧ ـ ١٣] آيات في النجوى وبعض آداب المجالسة.

٣. الآيات [١٤ ـ ٢٢]:

أ. تذكر الآيات قوماً من المنافقين يتولون اليهود ويوادونهم، وهم يحادون الله ورسوله، وتذمهم على ذلك وتهددهم بالعذاب والشقوة تهديداً شديداً.

ب. وتقطع بالآخرة أن الإيمان بالله واليوم الآخر يمنع عن موادة من يحاد الله ورسوله كائناً من كان.

ج. وتمدح المؤمنين المتبرئين من أعداء الله، وتعدهم إيماناً مستقراً وروحاً من الله وجنة ورضواناً.

١. سماع الله لقول المجادلة في زوجها وشكواها:

المقطع [١] من سورة المجادلة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللهِ وَاللهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: ١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ١٧٧»:

١. ﴿قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِها وَتَشْتَكِي إِلَى اللهِ وَاللهُ يَسْمَعُ تَحاوُرَكُما﴾:

أ. قال في المجمع: (الاشتكاء إظهار ما بالإنسان من مكروه، والشكاية إظهار ما يصنعه به غيره

من المكروه، قال: والتحاور التراجع وهي المحاورة يقال: حاوره محاورة أي راجعه الكلام وتحاورا)

ب. الآيات الأربع أو الست نزلت في الظهار وكان من أقسام الطلاق عند العرب الجاهلي كان الرجل يقول لامرأته: أنت مني كظهر أمي فتنفصل عنه وتحرم عليه مؤبدة وقد ظاهر بعض الأنصار من امرأته ثم ندم عليه فجاءت امرأته إلى رسول الله ﷺ تسائله فيه لعلها تجد طريقا إلى رجوعه إليها وتجادله ﷺ في ذلك وتشتكي إلى الله فنزلت الآيات.

ج. والمراد بالسمع في قوله: ﴿قَدْ سَمِعَ اللهُ﴾ استجابة الدعوة وقضاء الحاجة من باب الكناية وهو شائع والدليل عليه قوله: ﴿تُجادِلُكَ فِي زَوْجِها وَتَشْتَكِي إِلَى اللهِ﴾ الظاهر في أنها كانت تتوخى طريقا إلى أن لا تنفصل عن زوجها، وأما قوله: ﴿وَاللهُ يَسْمَعُ تَحاوُرَكُما﴾ فالسمع فيه بمعناه المعروف.

د. والمعنى: قد استجاب الله للمرأة التي تجادلك في زوجها، وقد ظاهر منها، وتشتكي غمها وما حل بها من سوء الحال إلى الله والله يسمع تراجعكما في الكلام أن الله سميع للأصوات بصير بالمبصرات.

٢. أحاديث وآثار:

أ. أخرج ابن ماجة وابن أبي حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي عن عائشة قالت: تبارك الذي وسع سمعه كل شيء، إني لأسمع كلام خولة بنت ثعلبة ويخفى علي بعضه، وهي تشتكي زوجها إلى رسول الله ﷺ وهي تقول: يا رسول الله أكل شبابي ونثرت له بطني، حتى إذا كبر سني وانقطع ولدي ظاهر مني، اللهم إني أشكو إليك، فما برحت حتى نزل جبرئيل بهذه الآيات ﴿قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِي تُجادِلُكَ فِي زَوْجِها﴾، وهو أوس بن الصامت.

• أقول: والروايات من طرق أهل السنة في هذا المعنى كثيرة جدا، واختلفت في اسم المرأة واسم أبيها واسم زوجها واسم أبيه والأعرف أن اسمها خولة بنت ثعلبة واسم زوجها أوس بن الصامت الأنصاري وأورد القمي إجمال القصة في رواية، وله رواية أخرى ستوافيك.

ب. وفي تفسير القمي، حدثنا علي بن الحسين قال: حدثنا محمد بن أبي عبد الله عن الحسن بن محبوب عن أبي ولاد عن حمران عن أبي جعفر عليه السلام قال: إن امرأة من المسلمات أتت النبي ﷺ، فقالت: يا رسول الله إن فلانا زوجي، وقد نثرت له بطني وأعنته على دنياه وآخرته، لم تر مني مكروها أشكوه إليك، قال: فيم تشكونيه؟ قالت: إنه قال: أنت علي حرام كظهر أمي، وقد أخرجني من منزلي فانظر

في أمري، فقال لها رسول الله ﷺ: ما أنزل الله تبارك وتعالى كتابا، أقضي فيه بينك وبين زوجك، وأنا أكره أن أكون من المتكلفين، فجعلت تبكي وتشتكي ما بها إلى الله عز وجل، وإلى رسول الله ﷺ وانصرفت، قال: فسمع الله تبارك وتعالى مجادلتها لرسول الله ﷺ، في زوجها وما شكت إليه، وأنزل الله في ذلك قرآنا ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ، قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِي تُجادِلُكَ فِي زَوْجِها﴾، إلى قوله: ﴿وَإِنَّ اللهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾، قال: فبعث رسول الله ﷺ إلى المرأة فأتته، فقال لها: جيئي بزوجك، فأتته فقال له: أقلت لامرأتك هذه: أنت حرام علي كظهر أمي؟ فقال: قد قلت لها ذلك، فقال له رسول الله ﷺ: قد أنزل الله تبارك وتعالى فيك وفي امرأتك قرآنا، وقرأ: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ، قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِي تُجادِلُكَ﴾، إلى قوله: ﴿إِنَّ اللهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾، فضم إليك امرأتك، فإنك قد قلت منكرا من القول وزورا، وقد عفا الله عنك وغفر لك ولا تعد، قال: فانصرف الرجل وهو نادم على ما قال لامرأته، وكره الله عز وجل ذلك للمؤمنين بعد وأنزل الله: ﴿الَّذِينَ يُظاهِرُونَ مِنْ نِسائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِما قالُوا﴾ يعني لما قال الرجل لامرأته: أنت علي كظهر أمي، قال: فمن قالها بعد ما عفا الله وغفر للرجل الأول، فإن عليه ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَماسَّا﴾ يعني مجامعتها ﴿ذلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيامُ شَهْرَيْنِ مُتَتابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَماسَّا، فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعامُ سِتِّينَ مِسْكِيناً﴾ قال: فجعل الله عقوبة من ظاهر بعد النهي هذا، ثم قال: ﴿ذلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللهِ﴾ قال: هذا حد الظهار، الحديث.

• أقول: الآية بما لها من السياق وخاصة ما في آخرها من ذكر العفو والمغفرة أقرب انطباقا على ما سيق من القصة في هذه الرواية، ولا بأس بها من حيث السند أيضا غير أنها لا تلائم ظاهر ما في الآية من قوله: ﴿الَّذِينَ يُظاهِرُونَ مِنْ نِسائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِما قالُوا﴾

٢. حكم الظهار:

المقطع [٢] من سورة المجادلة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ [المجادلة: ٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ١٧٨»:

١. ﴿الَّذِينَ يُظاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسائِهِمْ ما هُنَّ أُمَّهاتِهِمْ إِنْ أُمَّهاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ﴾:

أ. نفي لحكم الظهار المعروف عندهم وإلغاء لتأثيره بالطلاق والتحريم الأبدي بنفي أمومة الزوجة

للزوج بالظهار فإن سنة الجاهلية تلحق الزوجة بالأم بسبب الظهار فتحرم على زوجها حرمة الأم على ولدها حرمة مؤبدة.

ب. فقوله: ﴿ما هُنَّ أُمَّهاتِهِمْ﴾ أي بحسب اعتبار الشرع بأن يلحقن شرعا بهن بسبب الظهار فيحرمن عليهم أبدا ثم أكده بقوله: ﴿إِنْ أُمَّهاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ﴾ أي ليس أمهات أزواجهن إلا النساء اللاتي ولدنهم.

ج. ثم أكد ذلك ثانيا بقوله: ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَراً مِنَ الْقَوْلِ وَزُوراً﴾ بما فيه من سياق التأكيد أي وإن هؤلاء الأزواج المظاهرين ليقولون بالظهار منكرا من القول ينكره الشرع حيث لم يعتبره ولم يسنه، وكذبا باعتبار أنه لا يوافق الشرع كما لا يطابق الخارج الواقع في الكون فأفادت الآية أن الظهار لا يفيد طلاقا وهذا لا ينافي وجوب الكفارة عليه لو أراد المواقعة بعد الظهار فالزوجية على حالها وإن حرمت المواقعة قبل الكفارة.

٢. ﴿وَإِنَّ اللهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ لا يخلو من دلالة على كونه ذنبا مغفورا لكن ذكر الكفارة في الآية التالية مع تذييلها بقوله: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللهِ وَلِلْكافِرِينَ عَذابٌ أَلِيمٌ﴾ ربما دل على أن المغفرة مشروطة بالكفارة.

٣. أحاديث وآثار: في المجمع: في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُظاهِرُونَ مِنْ نِسائِهِمْ، ثُمَّ يَعُودُونَ لِما قالُوا﴾ فأما ما ذهب إليه أئمة الهدى، من آل محمد عليه السلام، فهو أن المراد بالعود إرادة الوطء، ونقض القول الذي قاله، فإن الوطء لا يجوز له إلا بعد الكفارة، ولا يبطل حكم قوله الأول إلا بعد الكفارة.

٣. بيان كفارة الظهار بالعتق أو الصيام أو الإطعام:

المقطع [٣] من سورة المجادلة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المجادلة: ٣-٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ١٧٩»:

١. ﴿وَالَّذِينَ يُظاهِرُونَ مِنْ نِسائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِما قالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا﴾:

أ. الكلام في معنى الشرط ولذلك دخلت الفاء في الخبر لأنه في معنى الجزاء والمحصل: أن الذين ظاهروا منهن ثم أرادوا العود لما قالوا فعليهم تحرير رقبة.

ب. وفي قوله: ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا﴾ دلالة على أن الحكم في الآية لمن ظاهر ثم أراد الرجوع إلى ما كان عليه قبل الظهار وهو قرينة على أن المراد بقوله: ﴿يَعُودُونَ لِمَا قالُوا﴾ إرادة العود إلى نقض ما أبرموه بالظهار.

ج. والمعنى: والذين يظاهرون من نسائهم ثم يريدون أن يعودوا إلى ما تكلموا به من كلمة الظهار فينقضوها بالمواقعة فعليهم تحرير رقبة من قبل أن يتماسا.

د. وقيل: المراد بعودهم لما قالوا ندمهم على الظهار، وفيه أن الندم عليه يصلح أن يكون محصل المعنى لا أن يكون معنى الكلمة ﴿يَعُودُونَ لِمَا قالُوا﴾

هـ. وقيل: المراد بعودهم لما قالوا رجوعهم إلى ما تلفظوا به من كلمة الظهار بأن يتلفظوا بها ثانيا وفيه أن لازمه ترتب الكفارة دائما على الظهار الثاني دون الأول والآية لا تفيد ذلك والسنة إنما اعتبرت تحقق الظهار دون تعدده.

و. ثم ذيل الآية بقوله: ﴿ذلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ إيذانا بأن ما أمر به من الكفارة توصية منه بها عن خبره بعملهم ذاك، فالكفارة هي التي ترتفع بها ما لحقهم من تبعة العمل.

٢. ﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيامُ شَهْرَيْنِ مُتَتابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَماسَّا﴾ خصلة ثانية من الكفارة مترتبة على الخصلة الأولى لمن لا يتمكن منها وهي صيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا، وقيد ثانيا بقوله: ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَماسَّا﴾ لدفع توهم اختصاص القيد بالخصلة الأولى.

٣. ﴿فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعامُ سِتِّينَ مِسْكِيناً﴾ بيان للخصلة الثالثة فمن لم يطق صيام شهرين متتابعين فعليه إطعام ستين مسكينا وتفصيل الكلام في ذلك كله في الفقه.

٤. ﴿ذلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي ما جعلناه من الحكم وافترضناه من الكفارة فأبقينا علقة الزوجية ووضعنا الكفارة لمن أراد أن يرجع إلى المواقعة جزاء بما أتى بسنة من سنن الجاهلية كل ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله وترفضوا أباطيل السنن.

٥. ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللهِ وَلِلْكافِرِينَ عَذابٌ أَلِيمٌ﴾:

أ. حد الشيء ما ينتهي إليه ولا يتعداه وأصله المنع، والمراد أن ما افترضناه من الخصال أو ما نضعها من الأحكام حدود الله فلا تتعدوها بالمخالفة وللكافرين بما حكمنا به في الظهار أو بما شرعناه من الأحكام

بالمخالفة والمحادة عذاب أليم.

ب. والظاهر أن المراد بالكفر رد الحكم والأخذ بالظهار بما أنه سنة مؤثرة مقبولة، ويؤيده قوله: ﴿ذلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي تذعنوا بأن حكم الله حق وأن رسوله صادق أمين في تبليغه، وقد أكده بقوله: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللهِ﴾، ويمكن أن يكون المراد بالكفر الكفر في مقام العمل وهو العصيان.

٤. وعيد من يحادون الله ورسوله وبيان كبتهم وعذابهم المهين:

المقطع [٤] من سورة المجادلة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [المجادلة: ٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ١٨٠»:

١. ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾:

أ. المحادة الممانعة والمخالفة، والكبت الإذلال والإخزاء.

ب. والآية والتي تتلوها وإن أمكن أن تكونا استئنافا يبين أمر محادة الله ورسوله من حيث تبعتها وأثرها لكن ظاهر السياق أن تكونا مسوقتين لتعليل ذيل الآية السابقة الذي معناه النهي عن محادة الله ورسوله، والمعنى: إنما أمرناكم بالإيمان بالله ورسوله ونهيناكم عن تعدي حدود الله والكفر بها لأن الذين يحادون الله ورسوله بالمخالفة أذلوا وأخزوا كما أذل وأخزى الذين من قبلهم.

ج. ثم أكده بقوله: ﴿وَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ أي لا ريب في كونها منا وفي أن رسولنا صادق أمين في تبليغها، وللكافرين بها الرادين لها عذاب مهين مخز.

٥. البعث والإحصاء والنسيان والشهادة:

المقطع [٥] من سورة المجادلة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللهُ وَنَسُوهُ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المجادلة: ٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ١٨٠»:

١. ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا﴾ ظرف لقوله: ﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي لهم أليم العذاب في يوم يبعثهم الله وهو يوم الحساب والجزاء فيخبرهم بحقيقة جميع ما عملوا في الدنيا.

٢. ﴿أَحْصَاهُ اللهُ وَنَسُوهُ﴾ الإحصاء الإحاطة بعدد الشيء من غير أن يفوت منه شيء، قال

الراغب: (الإحصاء التحصيل بالعدد يقال: أحصيت كذا، وذلك من لفظ الحصى، واستعمال ذلك فيه من حيث إنهم كانوا يعتمدونه في العد كاعتمادنا فيه على الأصابع)

٣. ﴿وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ تعليل لقوله: ﴿أَحْصاهُ اللهُ﴾ وقد مر تفسير شهادة الله على كل شيء في آخر سورة حم السجدة.

٦. علم الله المحيط بكل شيء وبالنجوى وكونه معهم أينما كانوا:

المقطع [٦] من سورة المجادلة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَّ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللهَّ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المجادلة: ٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ١٨٤»:

١. ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ﴾ الاستفهام إنكاري، والمراد بالرؤية العلم اليقيني على سبيل الاستعارة، والجملة تقدمه يعلل بها ما يتلوها من كونه تعالى مع أهل النجوى مشاركا لهم في نجواهم.

٢. ﴿ما يَكُونُ مِنْ نَجْوى ثَلاثَةٍ إِلَّا هُوَ رابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سادِسُهُمْ﴾ النجوى مصدر بمعنى التناجي وهو المسارة، وضمائر الإفراد لله سبحانه، والمراد بقوله: ﴿رابِعُهُمْ﴾ و﴿سادِسُهُمْ﴾ جاعل الثلاثة أربعة وجاعل الخمسة ستة بمشاركته لهم في العلم بما يتناجون فيه ومعيته لهم في الاطلاع على ما يسارون فيه كما يشهد به ما احتف بالكلام من قوله في أول الآية: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ﴾، وفي آخرها من قوله: ﴿إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾

٣. ﴿وَلا أَدْنى مِنْ ذلِكَ وَلا أَكْثَرَ﴾ أي ولا أقل مما ذكر من العدد ولا أكثر مما ذكر، وبهاتين الكلمتين يشمل الكلام عدد أهل النجوى أيا ما كان أما الأدنى من ذلك فالأدنى من الثلاثة الاثنان والأدنى من الخمسة الأربعة، وأما الأكثر فالأكثر من خمسة الستة فما فوقها.

٤. ومن لطف سياق الآية ترتب ما أشير إليه من مراتب العدد: الثلاثة والأربعة والخمسة والستة من غير تكرار فلم يقل: من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا أربعة إلا هو خامسهم وهكذا.

٥. ﴿إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ ما كانُوا﴾:

أ. المراد به المعية من حيث العلم بما يتناجون به والمشاركة لهم فيه.

ب. وبذلك يظهر أن المراد بكونه تعالى رابع الثلاثة المتناجين وسادس الخمسة المتناجين معيته لهم في العلم ومشاركته لهم في الاطلاع على ما يسارون لا مماثلته لهم في تتميم العدد فإن كلا منهم شخص واحد جسماني يكون بانضمامه إلى مثله عدد الاثنين وإلى مثليه الثلاثة والله سبحانه منزه عن الجسمية بريء من المادية.

ج. وذلك أن مقتضى السياق أن المستثنى من قوله: ﴿ما يَكُونُ مِنْ نَجْوى﴾، معنى واحد وهو أن الله لا يخفى عليه نجوى فقوله: ﴿إِلَّا هُوَ رابِعُهُمْ﴾ ﴿إِلَّا هُوَ سادِسُهُمْ﴾ في معنى قوله: ﴿إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ﴾ وهو المعية العلمية أي أنه يشاركهم في العلم ويقارنهم فيه أو المعية الوجودية بمعنى أنه كلما فرض قوم يتناجون فالله سبحانه هناك سميع عليم.

د. وفي قوله: ﴿أَيْنَ ما كانُوا﴾ تعميم من حيث المكان إذ لما كانت معيته تعالى لهم من حيث العلم لا بالاقتران الجسماني لم يتفاوت الحال ولم يختلف باختلاف الأمكنة بالقرب والبعد فالله سبحانه لا يخلو منه مكان وليس في مكان.

هـ. وبما تقدم يظهر أيضا أن، ما تفيده الآية من معيته تعالى لأصحاب النجوى وكونه رابع الثلاثة منهم وسادس الخمسة منهم لا ينافي ما تقدم تفصيلا في ذيل قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قالُوا إِنَّ اللهَ ثالِثُ ثَلاثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣]، من أن وحدته تعالى ليست وحدة عددية بل وحدة أحدية يستحيل معها فرض غير معه يكون ثانيا له فالمراد بكونه معهم ورابعا للثلاثة منهم وسادسا للخمسة منهم أنه عالم بما يتناجون به وظاهر مكشوف له ما يخفونه من غيرهم لا أن له وجودا محدودا يقبل العد يمكن أن يفرض له ثان وثالث وهكذا.

٦. ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِما عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيامَةِ﴾ أي يخبرهم بحقيقة ما عملوا من عمل ومنه نجواهم ومسارتهم.

٧. ﴿إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾:

أ. تعليل لقوله: ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ﴾، وتأكيد لما تقدم من علمه بما في السماوات وما في الأرض، وكونه مع أصحاب النجوى.

ب. والآية تصلح أن تكون توطئة وتمهيدا لمضمون الآيات التالية ولا يخلو ذيلها من لحن شديد يرتبط بما في الآيات التالية من الذم والتهديد.

٧. توبيخ المنافقين على تناجيهم بالإثم والعدوان ومعصية الرسول:

المقطع [٧] من سورة المجادلة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [المجادلة: ٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ١٨٥»:

١. ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾:

أ. سياق الآيات يدل على أن قوما من المنافقين والذين في قلوبهم مرض من المؤمنين كانوا قد أشاعوا بينهم النجوى محادة للنبي ﷺ والمؤمنين يتناجون بينهم بالإثم والعدوان ومعصية الرسول وليؤذوا بذلك المؤمنين ويحزنون وكانوا يصرون على ذلك من غير أن ينتهوا بنهي فنزلت الآيات.

ب. فقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ ذم وتوبيخ غيابي لهم، وقد خاطب النبي ﷺ ولم يخاطبهم أنفسهم مبالغة في تحقير أمرهم وإبعادا لهم عن شرف المخاطبة.

ج. والمعنى: ألم تنظر إلى الذين نهوا عن التناجي بينهم بما يغم المؤمنين ويحزنهم ثم يعودون إلى التناجي الذي نهوا عنه عود بعد عودة، وفي التعبير بقوله: ﴿يَعُودُونَ﴾ دلالة على الاستمرار، وفي العدول عن ضمير النجوى إلى الموصول والصلة حيث قيل: ﴿يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ ولم يقل يعودون إليها دلالة على سبب الذم والتوبيخ ومساءة العود لأنها أمر منهي عنه.

٢. ﴿يَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ﴾:

أ. المقابلة بين الأمور الثلاثة: الإثم والعدوان ومعصية الرسول تفيد أن المراد بالإثم هو العمل الذي له أثر سيئ لا يتعدى نفس عامله كشرب الخمر والميسر وترك الصلاة مما يتعلق من المعاصي بحقوق الله، والعدوان هو العمل الذي فيه تجاوز إلى الغير مما يتضرر به الناس ويتأذون مما يتعلق من المعاصي بحقوق الناس، والقسمان أعني الإثم والعدوان جميعا من معصية الله، ومعصية الرسول مخالفته في الأمور التي هي جائزة في نفسها لا أمر ولا نهي من الله فيها لكن الرسول أمر بها أو نهى عنها لمصلحة الأمة بما له

ولاية أمورهم والنبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم كما نهاهم عن النجوى وإن لم يشتمل على معصية.

ب. كان ما تقدم من قوله: ﴿الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوى ثُمَّ يَعُودُونَ لِما نُهُوا عَنْهُ﴾ ذما وتوبيخا لهم على نفس نجواهم بما أنها منهي عنها مع الغض عن كونها بمعصية أو غيرها:

ج. وهذا الفصل أعني قوله: ﴿وَيَتَناجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ﴾ ذم وتوبيخ لهم بما يشتمل عليه تناجيهم من المعصية بأنواعها وهؤلاء القوم هم المنافقون ومرضى القلوب كانوا يكثرون من النجوى بينهم ليغتم بها المؤمنون ويحزنوا ويتأذوا.

د. وقيل: المنافقون واليهود كان يناجي بعضهم بعضا ليحزنوا المؤمنين ويلقوا بينهم الوحشة والفزع ويوهنوا عزمهم لكن في شمول قوله: ﴿الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوى ثُمَّ يَعُودُونَ لِما نُهُوا عَنْهُ﴾ لليهود خفاء.

٣. ﴿وَإِذا جاؤُكَ حَيَّوْكَ بِما لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللهُ﴾ فإن الله حياة بالتسليم وشرع له ذلك تحية من عند الله مباركة طيبة وهم كانوا يحيونه بغيره، قالوا: هؤلاء هم اليهود كانوا إذا أتوا النبي ﷺ قالوا: السام عليك، والسام هو الموت، وهم يوهمون أنهم يقولون: السلام عليك، ولا يخلو من شيء فإن الضمير في ﴿جاؤُكَ﴾ و﴿حَيَّوْكَ﴾ للموصول في قوله: ﴿الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوى﴾ وقد عرفت أن في شموله لليهود خفاء.

٤. ﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْ لا يُعَذِّبُنَا اللهُ بِما نَقُولُ﴾:

أ. معطوف على ﴿حَيَّوْكَ﴾ أو حال وظاهره أن ذلك منهم من حديث النفس مضمرين ذلك في قلوبهم، وهو تحضيض بداعي الطعن والتهكم فيكون من المنافقين إنكارا لرسالة النبي ﷺ على طريق الكناية والمعنى: أنهم يحيونك بما لم يحيك به الله وهم يحدثون أنفسهم بدلالة قولهم ذلك، ولو لا يعذبهم الله به، على أنك لست برسول من الله ولو كنت رسوله لعذبهم بقولهم.

ب. وقيل: المراد بقوله: ﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ يقولون فيما بينهم بتحديث بعض منهم لبعض ولا يخلو من بعد.

ج. وقد رد الله عليهم احتجاجهم بقولهم: ﴿لَوْ لا يُعَذِّبُنَا اللهُ بِما نَقُولُ﴾ بقوله: ﴿حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَها فَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ أي إنهم مخطئون في نفيهم العذاب فهم معذبون بما أعد لهم من العذاب وهو جهنم التي يدخلونها ويقاسون حرها وكفى بها عذابا لهم.

د. وكان المنافقين ومن يلحق بهم لما لم ينتهوا بهذه المناهي والتشديدات نزل قوله تعالى: ﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لا يُجاوِرُونَكَ فِيها إِلَّا قَلِيلاً، مَلْعُونِينَ أَيْنَما ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً﴾ الآيات [الأحزاب: ٦١]

٥. أحاديث وآثار:

أ. في المجمع: قرأ حمزة ورويس عن يعقوب (ينتجون) والباقون ﴿يَتَناجَوْنَ﴾ ويشهد لقراءة حمزة قول النبي ﷺ في علي عليه السلام، لما قال له بعض أصحابه: أتناجيه دوننا؟ ما أنا انتجيته بل الله انتجاه.

ب. أخرج أحمد وعبد بن حميد والبزار وابن المنذر والطبراني وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان بسند جيد عن ابن عمر: أن اليهود كانوا يقولون لرسول الله ﷺ: سام عليك يريدون بذلك شتمه ثم يقولون في أنفسهم: ﴿لَوْلا يُعَذِّبُنَا اللهُ بِما نَقُولُ﴾ فنزلت هذه الآية ﴿وَإِذا جاؤُكَ حَيَّوْكَ بِما لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللهُ﴾

ج. أخرج عبد الرزاق وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس: في هذه الآية قال: كان المنافقون يقولون لرسول الله ﷺ: سام عليك فنزلت.

• أقول: وهذه الرواية أقرب إلى التصديق من سابقتها لما تقدم في تفسير الآية، وفي رواية القمي في تفسيره أنهم كانوا يحيونه بقولهم: أنعم صباحا وأنعم مساء، وهو تحية أهل الجاهلية.

٨. الأمر بالتناجي بالبر والتقوى وترك الإثم والعدوان:

المقطع [٨] من سورة المجادلة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [المجادلة: ٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ١٨٧»:

١. ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا تَناجَيْتُمْ فَلا تَتَناجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ﴾، لا يخلو سياق الآيات من دلالة على أن الآية نزلت في رفع الخطر وقد خوطب فيها المؤمنون فأجيز لهم النجوى واشترط عليهم أن لا يكون تناجيا بالإثم والعدوان ومعصية الرسول وأن يكون تناجيا بالبر والتقوى والبر وهو التوسع في فعل الخير يقابل العدوان، والتقوى مقابل الإثم ثم أكد الكلام بالأمر بمطلق التقوى بإنذارهم بالحشر بقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾

٩. بيان أن النجوى من الشيطان:

المقطع [٩] من سورة المجادلة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [المجادلة: ١٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ١٨٨»:

١. ﴿إِنَّمَا النَّجْوى مِنَ الشَّيْطانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضارِّهِمْ شَيْئاً إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ﴾:

أ. المراد بالنجوى، على ما يفيده السياق، هو النجوى الدائرة في تلك الأيام بين المنافقين ومرضى القلوب وهي من الشيطان فإنه الذي يزينها في قلوبهم ليتوسل بها إلى حزنهم ويشوش قلوبهم ليوهمهم أنها في نائبة حلت بهم وبلية أصابتهم.

ب. ثم طيب الله سبحانه قلوب المؤمنين بتذكيرهم أن الأمر إلى الله سبحانه وأن الشيطان أو التناجي لا يضرهم شيئا إلا بإذن الله فليتوكلوا عليه ولا يخافوا ضره وقد نص سبحانه في قوله: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣] إنه يكفي من توكل عليه، واستنهضهم على التوكل بأنه من لوازم إيمان المؤمن فإن يكونوا مؤمنين فليتوكلوا عليه فهو يكفيهم، وهذا معنى قوله: ﴿وَلَيْسَ بِضارِّهِمْ شَيْئاً إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾

١٠. الأمر بالتفسح في المجالس والانشاز:

المقطع [١٠] من سورة المجادلة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [المجادلة: ١١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ١٨٨»:

١. ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللهُ لَكُمْ﴾:

أ. التفسح الاتساع وكذا الفسح، والمجالس جمع مجلس اسم مكان، والاتساع في المجلس أن يتسع الجالس ليسع المكان غيره وفسح الله له أن يوسع له في الجنة.

ب. والآية تتضمن أدبا من آداب المعاشرة، ويستفاد من سياقها أنهم كانوا يحضرون مجلس النبي ﷺ فيجلسون ركاما لا يدع لغيرهم من الواردين مكانا يجلس فيه فأدبوا بقوله: ﴿إِذا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا﴾، والحكم عام وإن كان مورد النزول مجلس النبي ﷺ.

ج. والمعنى: يا أيها الذين آمنوا إذا قيل لكم توسعوا في المجالس ليسع المكان معكم غيركم فتوسعوا وسع الله لكم في الجنة.

٢. ﴿وَإِذا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا﴾:

أ. يتضمن أدبا آخر، والنشوز، كما قيل، الارتفاع عن الشيء بالذهاب عنه، والنشوز عن المجلس أن يقوم الإنسان عن مجلسه ليجلس فيه غيره إعظاما له وتواضعا لفضله.

ب. والمعنى: وإذا قيل لكم قوموا ليجلس مكانكم من هو أفضل منكم في علم أو تقوى فقوموا.

٣. ﴿يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجاتٍ﴾:

أ. لا ريب في أن لازم رفعه تعالى درجة عبد من عباده مزيد قربه منه تعالى، وهذا قرينة عقلية على أن المراد بهؤلاء الذين أوتوا العلم العلماء من المؤمنين فتدل الآية على انقسام المؤمنين إلى طائفتين: مؤمن ومؤمن عالم، والمؤمن العالم أفضل وقد قال تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩]

ب. ويتبين بذلك أن ما ذكر من رفع الدرجات في الآية مخصوص بالذين أوتوا العلم ويبقى لسائر المؤمنين من الرفع الرفع درجة واحدة ويكون التقدير يرفع الله الذين آمنوا منكم درجة ويرفع الذين أوتوا العلم منكم درجات.

ج. وفي الآية من تعظيم أمر العلماء ورفع قدرهم ما لا يخفى، وأكد الحكم بتذييل الآية بقوله: ﴿وَاللهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾

٤. أحاديث وآثار: في المجمع: في قوله تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ، وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجاتٍ﴾ وقد ورد أيضا في الحديث أنه ﷺ قال: فضل العالم على الشهيد درجة، وفضل الشهيد على العابد درجة، وفضل النبي على العالم درجة، وفضل القرآن على سائر الكلام، كفضل الله على سائر خلقه، وفضل العالم على سائر الناس كفضلي على أدناهم: رواه جابر بن عبد الله.

• أقول: وذيل الرواية لا يخلو من شيء فإن ظاهر رجوع الضمير في (أدناهم) إلى الناس اعتبار مراتب في الناس فمنهم الأعلى ومنهم المتوسط، وإذا كان فضل العالم على سائر الناس وفيهم الأعلى رتبة كفضل النبي على أدنى الناس كان العالم أفضل من النبي وهو كما ترى.

• اللهم إلا أن يكون أدنى بمعنى الأقرب والمراد بأدناهم أقربهم من النبي وهو العالم كما يلوح من قوله: وفضل النبي على العالم درجة، فيكون المفاد أن فضل العالم على سائر الناس كفضلي على أقربهم مني وهو العالم.

١١. تقديم الصدقة قبل نجوى الرسول:

المقطع [١١] من سورة المجادلة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المجادلة: ١٢-١٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ١٨٩»:

١. ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إذا ناجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْواكُمْ صَدَقَةً﴾، أي إذا أردتم أن تناجوا الرسول فتصدقوا قبلها.

٢. ﴿ذلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ﴾:

أ. تعليل للتشريع نظير قوله: ﴿وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٤]، ولا شك أن المراد بكونها خيرا لهم وأطهر أنها خير لنفوسهم وأطهر لقلوبهم ولعل الوجه في ذلك أن الأغنياء منهم كانوا يكثرون من مناجاة النبي ﷺ يظهرون بذلك نوعا من التقرب إليه والاختصاص به وكان الفقراء منهم يحزنون بذلك وينكسر قلوبهم فأمروا أن يتصدقوا بين يدي نجواهم على فقرائهم بما فيها من ارتباط النفوس وإثارة الرحمة والشفقة والمودة وصلة القلوب بزوال الغيظ والحنق.

ب. وفي قوله: ﴿ذلِكَ﴾ التفات إلى خطاب النبي ﷺ بين خطابين للمؤمنين وفيه تجليل لطيف له ﷺ حيث إن حكم الصدقة مرتبط بنجواه ﷺ والالتفات إليه فيما يرجع إليه من الكلام مزيد عناية به.

٣. ﴿فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾:

أ. أي فإن لم تجدوا شيئا تتصدقون به فلا يجب عليكم تقديمها وقد رخص الله لكم في نجواه وعفا عنكم إنه غفور رحيم فقوله: ﴿فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ من وضع السبب موضع المسبب.

ب. وفيه دلالة على رفع الوجوب عن المعدمين كما أنه قرينة على إرادة الوجوب في قوله: ﴿فَقَدِّمُوا﴾، ووجوبه على الموسرين.

٤. ﴿أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْواكُمْ صَدَقاتٍ﴾:

أ. الآية ناسخة لحكم الصدقة المذكور في الآية السابقة، وفيه عتاب شديد لصحابة النبي ﷺ والمؤمنين حيث إنهم تركوا مناجاته ﷺ خوفا من بذل المال بالصدقة فلم يناجه أحد منهم إلا علي عليه السلام فإنه ناجاه عشر نجوات كلما ناجاه قدم بين يدي نجواه صدقة ثم نزلت الآية ونسخت الحكم.

ب. والإشفاق الخشية، وقوله: ﴿أَنْ تُقَدِّمُوا﴾، مفعوله والمعنى: أخشيتم التصدق وبذل المال للنجوى، واحتمل أن يكون المفعول محذوفا والتقدير أخشيتم الفقر لأجل بذل المال.

ج. قال بعضهم: جمع الصدقات لما أن الخوف لم يكن في الحقيقة من تقديم صدقة واحدة لأنه ليس مظنة الفقر بل من استمرار الأمر وتقديم صدقات.

٥. ﴿فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتابَ اللهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكاةَ﴾:

أ. أي فإذ لم تفعلوا ما كلفتم به ورجع الله إليكم العفو والمغفرة فأثبتوا على امتثال سائر التكاليف من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة.

ب. ففي قوله: ﴿وَتابَ اللهُ عَلَيْكُمْ﴾ دلالة على كون ذلك منهم ذنبا ومعصية غير أنه تعالى غفر لهم ذلك.

ج. وفي كون قوله: ﴿فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ﴾، متفرعا على قوله: ﴿فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا﴾، دلالة على نسخ حكم الصدقة قبل النجوى.

د. وفي قوله: ﴿وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ﴾ تعميم لحكم الطاعة لسائر التكاليف بإيجاب الطاعة المطلقة، وفي قوله: ﴿وَاللهُ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ﴾ نوع تشديد يتأكد به حكم وجوب طاعة الله ورسوله.

٦. أحاديث وآثار:

أ. أخرج سعيد بن منصور وابن راهويه وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والحاكم وصححه عن علي قال: إن في كتاب الله لآية ما عمل بها أحد قبلي، ولا يعمل بها بعدي، آية النجوى ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا ناجَيْتُمُ الرَّسُولَ، فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْواكُمْ صَدَقَةً﴾ كان عندي دينار فبعته بعشرة دراهم، فكنت كلما ناجيت النبي ﷺ، قدمت بين يدي نجواي درهما، ثم نسخت فلم يعمل بها أحد، فنزلت ﴿أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْواكُمْ صَدَقاتٍ﴾ الآية.

ب. وفي تفسير القمي، بإسناده عن أبي بصير عن أبي جعفر عليه السلام قال: سألته عن قول الله عز وجل: ﴿إِذا ناجَيْتُمُ الرَّسُولَ، فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْواكُمْ صَدَقَةً﴾ قال: قدم علي بن أبي طالب عليه السلام بين يدي نجواه صدقة، ثم نسخها بقوله: ﴿أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْواكُمْ صَدَقاتٍ﴾

• أقول: وفي هذا المعنى روايات أخر من طرق الفريقين.

١٢. توبيخ من تولى قوماً مغضوباً عليهم:

المقطع [١٢] من سورة المجادلة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللهُ عَلَيْهِم مَا هُم مِنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [المجادلة: ١٤ـ١٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ١٩٣»:

١. ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ﴾، القوم المغضوب عليهم هم اليهود، قال تعالى: ﴿مَنْ لَعَنَهُ اللهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ [المائدة: ٦٠]

٢. ﴿ما هُمْ مِنْكُمْ وَلا مِنْهُمْ﴾:

أ. ضمير ﴿عَلَيْهِمْ﴾ للمنافقين وضمير ﴿مِنْهُمْ﴾ لليهود، والمعنى: أن هؤلاء المنافقين لتذبذبهم بين الكفر والإيمان ليسوا منكم ولا من اليهود، قال تعالى: ﴿مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذلِكَ لا إِلى هؤُلاءِ وَلا إِلى هؤُلاءِ﴾ [النساء: ١٤٣]

ب. وهذه صفتهم بحسب ظاهر حالهم وأما بحسب الحقيقة فهم ملحقون بمن تولوهم، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٥١]، فلا منافاة بين قوله: ﴿ما هُمْ مِنْكُمْ وَلا مِنْهُمْ﴾ وقوله: ﴿فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾

ج. واحتمل بعضهم أن ضمير ﴿عَلَيْهِمْ﴾ للقوم وهم اليهود وضمير ﴿مِنْهُمْ﴾ للموصول وهم المنافقون، والمعنى: تولوا اليهود الذين ليسوا منكم وأنتم مؤمنون ولا من هؤلاء المنافقين أنفسهم بل أجنبيون برآء من الطائفتين، وفيه نوع من الذم، وهو بعيد.

٣. ﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أي يحلفون لكم على الكذب أنهم منكم مؤمنون أمثالكم وهم يعلمون أنهم كاذبون في حلفهم.

٤. ﴿أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ عَذاباً شَدِيداً إِنَّهُمْ ساءَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ﴾:

أ. الإعداد التهيئة، وقوله: ﴿إِنَّهُمْ ساءَ﴾، تعليل للإعداد، وفي قوله: ﴿كانُوا يَعْمَلُونَ﴾ دلالة على أنهم كانوا مستمرين في عملهم مداومين عليه.

ب. والمعنى: هيأ الله لهم عذابا شديدا لاستمرارهم على عملهم السيئ.

٥. ﴿اتَّخَذُوا أَيْمانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ فَلَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ﴾:

أ. الأيمان جمع يمين وهو الحلف، والجنة السترة التي يتقى بها الشر كالترس، والمهين اسم فاعل من الإهانة بمعنى الإذلال والإخزاء.

ب. والمعنى: اتخذوا أيمانهم سترة يدفعون بها عن نفوسهم التهمة والظنة كلما ظهر منهم أمر يريب المؤمنين فصرفوا أنفسهم وغيرهم عن سبيل الله وهو الإسلام فلهم، لأجل ذلك عذاب مذل مخز.

١٣. عدم إغناء الأموال والأولاد عن المنافقين وحلفهم يوم القيامة:

المقطع [١٣] من سورة المجادلة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ [المجادلة: ١٧-١٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ١٩٤»:

١. ﴿لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ مِنَ اللهِ شَيْئاً أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ﴾ أي إن الذي دعاهم إلى ما هم عليه متاع الحياة الدنيا الذي هو الأموال والأولاد لكنهم في حاجة إلى التخلص من عذاب خالد لا يقضيها لهم إلا الله سبحانه فهم في فقر إليه لا يغنيهم عنه أموالهم ولا أولادهم شيئا فليؤمنوا به وليعبدوه.

٢. ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَما يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلى شَيْءٍ﴾:

أ. ظرف لما تقدم من قوله: ﴿أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ عَذاباً شَدِيداً﴾ أو لقوله: ﴿أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ﴾ وقوله: ﴿فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَما يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾ أي يحلفون لله يوم البعث كما يحلفون لكم في الدنيا.

ب. وقد قدمنا في تفسير قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قالُوا وَاللهِ رَبِّنا ما كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣] أن حلفهم على الكذب يوم القيامة مع ظهور حقائق الأمور يومئذ من ظهور ملكاتهم هناك

لرسوخها في نفوسهم في الدنيا فقد اعتادوا فيها على إظهار الباطل على الحق بالأيمان الكاذبة وكما يعيشون يموتون وكما يموتون يبعثون.

ج. ومن هذا القبيل سؤالهم الرد إلى الدنيا يومئذ، والخروج من النار وخصامهم في النار وغير ذلك مما يقصه القرآن الكريم، وهم يشاهدون مشاهدة عيان أن لا سبيل إلى شيء من ذلك واليوم يوم جزاء لا يوم عمل.

د. وأما قوله: ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ﴾ أي مستقرون على شيء يصلح أن يستقر عليه ويتمكن فيه فيمكنهم الستر على الحق والمنع عن ظهور كذبهم بمثل الإنكار والحلف الكاذب.

هـ. فيمكن أن يكون قيدا لقوله: ﴿كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾ فيكون إشارة إلى وصفهم في الدنيا وأنهم يحسبون أن حلفهم لكم ينفعهم ويرضيكم، ويكون قوله: ﴿أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ قضاء منه تعالى في حقهم بأنهم كاذبون فلا يصغي إلى ما يهذون به ولا يعتنى بما يحلفون به.

و. ويمكن أن يكون قيدا لقوله: ﴿فَيَحْلِفُونَ لَهُ﴾ فيكون من قبيل ظهور الملكات يومئذ كما تقدم في معنى حلفهم آنفا، ويكون قوله: ﴿أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ حكما منه تعالى بكذبهم يوم القيامة أو مطلقا.

١٤. استحواذ الشيطان على المنافقين:

المقطع [١٤] من سورة المجادلة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنْسَاهُمْ ذِكْرَ اللهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [المجادلة: ١٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ١٩٥»:

١. ﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطانُ فَأَنْساهُمْ ذِكْرَ اللهِ أُولئِكَ حِزْبُ الشَّيْطانِ أَلا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطانِ هُمُ الْخاسِرُونَ﴾ الاستحواذ الاستيلاء والغلبة، والباقي ظاهر.

١٥. وعيد من يحادون الله ورسوله بأنهم في الأذلين:

المقطع [١٥] من سورة المجادلة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ﴾ [المجادلة: ٢٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ١٩٥»:

أ. تعليل لكونهم هم الخاسرين أي إنما كانوا خاسرين لأنهم يحادون الله ورسوله بالمخالفة والمعاندة والمحادون لله ورسوله في جملة الأذلين من خلق الله تعالى.

ب. قيل: إنما كانوا في الأذلين لأن ذلة أحد المتخاصمين على مقدار عزة الآخر وإذ كانت العزة لله جميعا فلا يبقى لمن حاده إلا الذلة محضا.

١٦. وعد الله بالنصر لرسله وقوته وعزته:

المقطع [١٦] من سورة المجادلة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿كَتَبَ اللهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللهَّ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ١٩٥»:

١. ﴿كَتَبَ اللهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾:

أ. الكتابة هي القضاء منه تعالى.

ب. وظاهر إطلاق الغلبة شمولها للغلبة من حيث الحجة ومن حيث التأييد الغيبي ومن حيث طبيعة الإيمان بالله ورسوله.

ج. أما من حيث الحجة فإن الإنسان مفطور على صلاحية إدراك الحق والخضوع له فلو بين له الحق من السبيل التي يألفها لم يلبث دون أن يعقله وإذا عقله اعترفت له فطرته وخضعت له طويته وإن لم يخضع له عملا اتباعا لهوى أو أي مانع يمنعه عن ذلك.

د. وأما الغلبة من حيث التأييد الغيبي والقضاء للحق على الباطل فيكفي فيها أنواع العذاب التي أنزلها الله تعالى على مكذبي الأمم الماضين كقوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب وعلى آل فرعون وغيرهم ممن يشير تعالى إليهم بقوله: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنا رُسُلَنا تَتْرا كُلَّ ما جاءَ أُمَّةً رَسُولُها كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنا بَعْضَهُمْ بَعْضاً وَجَعَلْناهُمْ أَحادِيثَ فَبُعْداً لِقَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون: ٤٤]، وعلى ذلك جرت السنة الإلهية وقد أجمل ذكرها في قوله: (﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذا جاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ [يونس: ٤٧]

هـ. وأما الغلبة من حيث طبيعة الإيمان بالله ورسوله فإن إيمان المؤمن يدعوه إلى الدفاع والذب عن الحق والمقاومة تجاه الباطل مطلقا وهو يرى أنه إن قتل فاز وإن قتل فاز فثباته على الدفاع غير مقيد بقيد ولا محدود بحد وهذا بخلاف من يدافع لا عن الحق بما هو حق بل عن شيء من المقاصد الدنيوية فإنه إنما يدافع لأجل نفسه فلو شاهد نفسه مشرفة على هلكة أو راكبة مخاطرة تولى منهزما فهو إنما يدافع على شرط وإلى حد وهو سلامة النفس وعدم الإشراف على الهلكة ومن الضروري أن العزيمة المطلقة تغلب العزيمة

المقيدة بقيد المحدودة بحد ومن الشاهد عليه غزوات رسول الله ﷺ بما أدت إليه من الفتح والظفر في عين أنها كانت سجالا لكن لم تنته إلا إلى تقدم المسلمين وغلبتهم.

و. ولم تقف الفتوحات الإسلامية ولا تفرقت جموع المسلمين أيادي سبإ إلا بفساد نياتهم وتبديل سيرة التقوى والإخلاص لله وبسط الدين الحق من بسط السلطة وتوسعة المملكة ﴿ذلِكَ بِأَنَّ اللهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَها عَلى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ﴾ وقد اشترط الله عليهم حين أكمل دينهم وأمنهم من عدوهم أن يخشوه إذ قال: ﴿الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ﴾

ز. ويكفي في تسجيل هذه الغلبة قوله تعالى فيما يخاطب المؤمنين: ﴿وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩]

٢. أحاديث وآثار: في المجمع: في قوله تعالى: ﴿كَتَبَ اللهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ روي أن المسلمين قالوا، لما رأوا ما يفتح الله عليهم من القرى: ليفتحن الله علينا الروم وفارس، فقال المنافقون: أتظنون أن فارس والروم، كبعض القرى التي غلبتم عليها؟ فأنزل الله هذه الآية.

• أقول: الظاهر أنه من قبيل تطبيق الآية على القصة ونظائره كثيرة، ولذا ورد في قوله تعالى: ﴿لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ إنه نزل في أبي عبيدة بن الجراح قتل أباه يوم بدر، وفي بعضها: أنه نزل في أبي بكر سب النبي ﷺ، فصكه أبو بكر صكة سقط على الأرض فنزلت الآية، وفي عبد الرحمن بن ثابت بن قيس بن الشماس، استأذن النبي ﷺ أن يزور خاله من المشركين فأذن له، فلما قدم قرأ عليه النبي ﷺ، ومن حوله من المسلمين الآية.

• وهذه روايات لا يلائمها ما في الآيات من الاتصال الظاهر.

١٧. نفي المودة بين المؤمنين وأعداء الله ووصف حزب الله بالمفلحين:

المقطع [١٧] من سورة المجادلة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ١٩٦»:

١. ﴿لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كانُوا آباءَهُمْ أَوْ أَبْناءَهُمْ أَوْ إِخْوانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾:

أ. نفي وجدان قوم على هذه الصفة كناية عن أن الإيمان الصادق بالله واليوم الآخر لا يجامع موادة أهل المحادة والمعاندة من الكفار ولو قارن أي سبب من أسباب المودة كالأبوة والبنوة والأخوة وسائر أقسام القرابة فبين الإيمان وموادة أهل المحادة تضاد لا يجتمعان لذلك.

ب. وقد بان أن قوله: ﴿وَلَوْ كانُوا آباءَهُمْ﴾، إشارة إلى أسباب المودة مطلقا وقد خصت مودة النسب بالذكر لكونه أقوى أسباب المودة من حيث ثباته وعدم تغيره.

٢. ﴿أُولئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمانَ﴾ الإشارة إلى القوم بما ذكر لهم من الصفة، والكتابة الإثبات بحيث لا يتغير ولا يزول والضمير لله وفيه نص على أنهم مؤمنون حقا.

٣. ﴿وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ﴾:

أ. التأييد التقوية، وضمير الفاعل في ﴿أَيَّدَهُمْ﴾ لله تعالى وكذا ضمير ﴿مِنْهُ﴾ ومن ابتدائية، والمعنى: وقواهم الله بروح من عنده تعالى، وقيل: الضمير للإيمان، والمعنى: وقواهم الله بروح من جنس الإيمان يحيي بها قلوبهم، ولا بأس به.

ب. وقيل: المراد بالروح جبرائيل، وقيل: القرآن، وقيل: المراد بها الحجة والبرهان، وهذه وجوه ضعيفة لا شاهد لها من جهة اللفظ.

ج. ثم الروح، على ما يتبادر من معناها، هي مبدأ الحياة التي تترشح منها القدرة والشعور فإبقاء قوله: ﴿وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ﴾ على ظاهره يفيد أن للمؤمنين وراء الروح البشرية التي يشترك فيها المؤمن والكافر روحا أخرى تفيض عليهم حياة أخرى وتصاحبها قدرة وشعور جديدان، وإلى ذلك يشير قوله تعالى: ﴿أَوَمَنْ كانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْناهُ وَجَعَلْنا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُماتِ لَيْسَ بِخارِجٍ مِنْها﴾ [الأنعام: ١٢٢]، وقوله: ﴿مَنْ عَمِلَ صالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَياةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧]

د. وما في الآية من طيب الحياة يلازم طيب أثرها وهو القدرة والشعور المتفرع عليهما الأعمال الصالحة، وهما المعبر عنهما في آية الأنعام المذكورة آنفا بالنور ونظيرها قوله: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ

وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ﴾ [الحديد: ٢٨]

هـ. وهذه حياة خاصة كريمة لها آثار خاصة ملازمة لسعادة الإنسان الأبدية وراء الحياة المشتركة بين المؤمن والكافر التي لها آثار مشتركة فلها مبدأ خاص وهو روح الإيمان التي تذكرها الآية وراء الروح المشتركة بين المؤمن والكافر.

و. وعلى هذا فلا موجب لما ذكروا أن (المراد بالروح نور القلب وهو نور العلم الذي يحصل به الطمأنينة وأن تسميته روحا مجاز مرسل لأنه سبب للحياة الطيبة الأبدية أو من الاستعارة لأنه في ملازمته وجوه العلم الفائض على القلب، والعلم حياة القلب كما أن الجهل موته، يشبه الروح المفيض للحياة)

٤. ﴿وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها﴾ وعد جميل ووصف لحياتهم الآخرة الطيبة.

٥. ﴿رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ استئناف يعلل قوله: ﴿وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ﴾، ورضا الله سبحانه عنهم رحمته لهم لإخلاصهم الإيمان له ورضاهم عنه وابتهاجهم بما رزقهم من الحياة الطيبة والجنة.

٦. ﴿أُولئِكَ حِزْبُ اللهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾:

أ. تشريف لهؤلاء المخلصين في إيمانهم بأنهم حزبه تعالى كما أن أولئك المنافقين الموالين لأعداء الله حزب الشيطان وهؤلاء مفلحون كما أن أولئك خاسرون.

ب. وفي قوله: ﴿أَلا إِنَّ حِزْبَ اللهِ﴾ وضع الظاهر موضع الضمير ليجري الكلام مجرى المثل السائر.

٧. أحاديث وآثار:

أ. أخرج الطيالسي وابن أبي شيبة عن البراء بن عازب قال: قال رسول الله ﷺ: أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله.

ب. وفي الكافي، بإسناده إلى أبان بن تغلب عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ما من مؤمن إلا ولقلبه أذنان في جوفه: أذن ينفث فيها الوسواس الخناس، وأذن ينفث فيها الملك، فيؤيد الله المؤمن بالملك، فذلك قوله: ﴿وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ﴾

• أقول: ليس معناه تفسير الروح بالملك بل الملك يصاحب الروح ويعمل به، قال تعالى: ﴿يُنَزِّلُ

الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ﴾ [النحل: ٢]

ج. وفيه، بإسناده إلى ابن بكير قال: قلت لأبي جعفر عليه السلام: في قول رسول الله ﷺ، إذا زنا الرجل فارقه روح الإيمان، قال: هو قوله: ﴿وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ﴾ ذلك الذي يفارقه.

د. وفيه، بإسناده إلى محمد بن سنان عن أبي خديجة قال: دخلت على أبي الحسن عليه السلام فقال لي: إن الله تبارك وتعالى أيد المؤمن بروح، تحضره في كل وقت يحسن فيه ويتقي وتغيب عنه في كل وقت يذنب فيه ويعتدي، فهي معه تهتز سرورا عند إحسانه، وتسيخ في الثرى عند إساءته، فتعاهدوا عباد الله نعمه بإصلاحكم أنفسكم، تزدادوا يقينا وتربحوا نفيسا ثمينا، رحم الله امرءا هم بخير فعمله أو هم بشر فارتدع عنه، ثم قال: نحن نؤيد الروح بالطاعة لله والعمل له.

• أقول: قد تبين مما تقدم في ذيل الآية أن هذه الروح من مراتب الروح الإنساني ينالها المؤمن عند ما يستكمل الإيمان فليست مفارقة له كما أن الروح النباتية والحيوانية والإنسانية المشتركة بين المؤمن والكافر من مراتب روحه غير مفارقة له غير أنها تبتدئ هيئة حسنة في النفس ربما زالت لعروض هيئة سيئة تضادها ثم ترجع إذا زالت الموانع المضادة حتى إذا استقرت ورسخت وتصورت النفس بها ثبتت ولم تتغير.

• وبذلك يظهر أن المراد بقوله عليه السلام: بروح تحضره، وقوله: فهي معه، حضور صورتها حضور الهيأة العارضة القابلة للزوال، وبقوله: تسيخ في الثرى زوال الهيأة على طريق الاستعارة، وكذا قوله ﷺ في الرواية السابقة: فارقه روح الإيمان.

سورة الحشر

هذه السورة الكريمة تحتوي على [١٨] مقطعاً، وهذا تعريف بمقاصدها، ومحتويات مقاطعها:

مقاصد السورة ومحتوياتها:

أ. تشير السورة إلى قصة إجلاء بني النضير من اليهود لما نقضوا العهد بينهم وبين المسلمين، وإلى وعد المنافقين لهم بالنصر والملازمة ثم غدرهم، وما يلحق بذلك من حكم فيئهم.

ب. ومن غرر الآيات فيها الآيات السبع في آخرها، يأمر الله سبحانه عباده فيها بالاستعداد للقائه من طريق المراقبة والمحاسبة، ويذكر عظمة قوله وجلالة قدره بوصف عظمة قائله عز من قائل بما له من الأسماء الحسنى والصفات العليا.

ج. والسورة مدنية بشهادة سياق آياتها.

مقاطع السورة ونظمها:

١. الآيات [١ ـ ١٠] تشير إلى قصة إجلاء بني النضير من اليهود لما نقضوا العهد بينهم وبين المسلمين.

٢. الآيات [١١ ـ ١٧] إشارة إلى حال المنافقين ووعدهم لبني النضير بالنصر إن قوتلوا، والخروج معهم إن أخرجوا، وتكذيبهم فيما وعدوا.

٣. الآيات [١٨ ـ ٢٤]:

أ. الذي تتضمنه الآيات الكريمة كالنتيجة المأخوذة مما تقدم من آيات السورة، فقد أشير فيها إلى مشاقة بني النضير من اليهود ونقضهم العهد، وذاك الذي أوقعهم في خسران دنياهم وأخراهم، وتحريض المنافقين لهم على مشاقة الله ورسوله، وهو الذي أهلكهم، وحقيقة السبب في ذلك أنهم لم يراقبوا الله في أعمالهم ونسوه، فأنساهم أنفسهم، فلم يختاروا ما فيه خير أنفسهم وصلاح عاجلهم وآجلهم، فتاهوا وهلكوا.

ب. فعلى من آمن بالله ورسوله واليوم الآخر أن يذكر ربه ولا ينساه، وينظر فيما يقدمه من العمل ليوم الرجوع إلى ربه، فإن ما عمله محفوظ عليه، يحاسبه به الله يومئذ فيجازيه عليه جزاء لازماً لا يفارقه.

ج. وهذا هو الذي يرومه قوله: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ ما قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ الآيات، فتندب المؤمنين إلى أن يذكروا الله سبحانه ولا ينسوه، وينظروا في أعمالهم التي على صلاحها وطلاحها يدور رحى حياتهم الآخرة، فيراقبوا أعمالهم أن تكون صالحة خالصة لوجهه الكريم مراقبة مستمرة، ثم يحاسبوا أنفسهم فيشكروا الله على ما عملوا من حسنة، ويوبخوها ويزجروها على ما اقترفت من سيئة ويستغفروا.

د. وذكر الله تعالى بما يليق بساحة عظمته وكبريائه من أسمائه الحسنى وصفاته العليا التي بينها القرآن الكريم في تعليمه، هو السبيل الوحيد الذي ينتهي بسالكه إلى كمال العبودية، ولا كمال للإنسان فوقه.

هـ. وذلك أن الإنسان عبد محض ومملوك طلق لله سبحانه، فهو مملوك من كل جهة مفروضة لا استقلال له من جهة، كما أنه تعالى مالكه من كل جهة مفروضة له الاستقلال من كل جهة، وكمال الشيء محوضيته في نفسه وآثاره، فكمال الإنسان في أن يرى نفسه مملوكاً لله من غير استقلال، وأن يتصف من الصفات بصفات العبودية كالخضوع والخشوع والذلة والاستكانة والفقر بالنسبة إلى ساحة العظمة والعزة والغنى، وأن تجري أعماله وأفعاله على ما يريده الله لا ما يهواه نفسه، من غير غفلة في شيء من هذه المراحل: الذات والصفات والأفعال.

و. ولا يتم له النظر إلى ذاته وصفاته وأفعاله بنظرة التبعية المحضة والمملوكية الطلقة، إلا مع التوجه الباطني إلى ربه الذي هو على كل شيء شهيد وبكل شيء محيط، وهو القائم على كل نفس بما كسبت من غير أن يغفل عنه أو ينساه، وعندئذ يطمئن قلبه كما قال تعالى: ﴿أَلا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]، ويعرف الله سبحانه بصفات كماله التي تتضمنها أسماؤه الحسنى، ويظهر منه قبال ذلك صفات عبوديته وجهات نقصه من خضوع وخشوع وذلة وفقر وحاجة.

ز. ويتعقب ذلك أعماله الصالحة بدوام الحضور واستمرار الذكر، قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصالِ وَلا تَكُنْ مِنَ الْغافِلِينَ، إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٦]، وقال: ﴿فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهارِ وَهُمْ لا يَسْأَمُونَ﴾ [فصلت: ٣٨]

ح. وإلى ما ذكرنا من معرفته تعالى بصفات كماله ومعرفة النفس بما يقابلها من صفات النقص والحاجة، يشير بمقتضى السياق قوله: ﴿لَوْ أَنْزَلْنا هذَا الْقُرْآنَ﴾ إلى آخر الآيات.

١. تسبيح ما في السموات والأرض لله العزيز الحكيم:

المقطع [١] من سورة الحشر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿سَبَّحَ للهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الحشر: ١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ٢٠١»:

١. ﴿سَبَّحَ للهِ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾:

أ. افتتاح مطابق لما في مختتم السورة من قوله: ﴿يُسَبِّحُ لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾

ب. وإنما افتتح بالتنزيه لما وقع في السورة من الإشارة إلى خيانة اليهود ونقضهم العهد ثم وعد المنافقين لهم بالنصر غدرا كمثل الذين كانوا من قبلهم قريبا ذاقوا وبال أمرهم، وبالنظر إلى ما أذاقهم الله من وبال كيدهم، وكون ذلك على ما يقتضيه الحكمة والمصلحة ذيل الآية بقوله: ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾

٢. إخراج أهل الكتاب من ديارهم وقذف الرعب في قلوبهم:

المقطع [٢] من سورة الحشر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللهِ فَأَتَاهُمُ اللهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [الحشر: ٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ٢٠١»:

١. ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ مِنْ دِيارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ﴾:

أ. تأييد لما ذكر في الآية السابقة من تنزهه تعالى وعزته وحكمته، والمراد بإخراج الذين كفروا من أهل الكتاب إجلاء بني النضير حي من أحياء اليهود كانوا يسكنون خارج المدينة وكان بينهم وبين النبي ﷺ عهد أن لا يكونوا له ولا عليه ثم نقضوا العهد فأجلاهم النبي ﷺ وستأتي قصتهم في البحث الروائي التالي إن شاء الله.

ب. والحشر إخراج الجماعة بإزعاج، و﴿لِأَوَّلِ الْحَشْرِ﴾ من إضافة الصفة إلى الموصوف، واللام بمعنى في كقوله: ﴿أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ﴾ [الإسراء: ٧٨]

ج. والمعنى: الله الذي أخرج بني النضير من اليهود من ديارهم في أول إخراجهم من جزيرة العرب.

٢. ثم أشار تعالى إلى أهمية إخراجهم بقوله: ﴿ما ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا﴾ لما كنتم تشاهدون فيهم من القوة والشدة والمنعة ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللهِ﴾ فلن يغلبهم الله وهم متحصنون فيها وعد حصونهم بحسب ظنهم مانعة من الله لا من المسلمين لما أن إخراجهم منها منسوب في الآية السابقة إليه تعالى وكذا إلقاء الرعب في قلوبهم في ذيل الآية، وفي الكلام دلالة على أنه كانت لهم حصون متعددة.

٣. ثم ذكر فساد ظنهم وخبطهم في مزعمتهم بقوله: ﴿فَأَتاهُمُ اللهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا﴾ والمراد به نفوذ إرادته تعالى فيهم لا من طريق احتسبوه وهو طريق الحصون والأبواب بل من طريق باطنهم وهو طريق القلوب.

٤. ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾ والرعب الخوف الذي يملأ القلب.

٥. ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ﴾:

أ. لئلا تقع في أيدي المؤمنين بعد خروجهم وهذه من قوة سلطانه تعالى عليهم حيث أجرى ما أراده بأيدي أنفسهم ﴿وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ حيث أمرهم بذلك ووفقهم لامتثال أمره وإنفاذ إرادته ﴿فَاعْتَبِرُوا﴾ وخذوا بالعظة ﴿يا أُولِي الْأَبْصارِ﴾ بما تشاهدون من صنع الله العزيز الحكيم بهم قبال مشاقتهم له ولرسوله.

ب. وقيل: كانوا يخربون البيوت ليهربوا ويخربها المؤمنون ليصلوا.

ج. وقيل: المراد بتخريب البيوت اختلال نظام حياتهم فقد خربوا بيوتهم بأيديهم حيث نقضوا الموادعة، وبأيدي المؤمنين حيث بعثوهم على قتالهم.

• وفيه أن ظاهر قوله: ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ﴾ أنه بيان لقوله: ﴿فَأَتاهُمُ اللهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا﴾، من حيث أثره فهو متأخر عن نقض الموادعة.

٦. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي: في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ مِنْ دِيارِهِمْ﴾ الآية، قال: سبب ذلك أنه كان بالمدينة ثلاثة أبطن من اليهود: بني النضير وقريظة وقينقاع، وكان بينهم

وبين رسول الله ﷺ عهد ومدة فنقضوا عهدهم، وكان سبب ذلك بني النضير في نقض عهدهم، أنه أتاهم رسول الله ﷺ يستسلفهم دية رجلين، قتلهما رجل من أصحابه غيلة، يعني يستقرض، وكان بينهم كعب بن الأشرف، فلما دخل على كعب قال: مرحبا يا أبا القاسم وأهلا، وقام كأنه يصنع له الطعام، وحدث نفسه أن يقتل رسول الله ﷺ ويتبع أصحابه، فنزل جبرئيل فأخبره بذلك، فرجع رسول الله ﷺ إلى المدينة، وقال لمحمد بن مسلمة الأنصاري: اذهب إلى بني النضير فأخبرهم، إن الله عز وجل قد أخبرني بما هممتم به من الغدر، فإما أن تخرجوا من بلدنا وإما أن تأذنوا بحرب، فقالوا: نخرج من بلادك، فبعث إليهم عبد الله بن أبي: لا تخرجوا وتقيموا وتنابذوا محمدا الحرب، فإني أنصركم أنا وقومي وحلفائي، فإن خرجتم خرجت معكم وإن قاتلتم قاتلت معكم، فأقاموا وأصلحوا بينهم حصونهم وتهيئوا للقتال، وبعثوا إلى رسول الله ﷺ أنا لا نخرج، فاصنع ما أنت صانع، فقام رسول الله ﷺ وكبر وكبر أصحابه، وقال لأمير المؤمنين: تقدم على بني النضير، فأخذ أمير المؤمنين الراية وتقدم، وجاء رسول الله ﷺ وأحاط بحصنهم، وغدر بهم عبد الله بن أبي، وكان رسول الله ﷺ إذا ظهر بمقدم بيوتهم، حصنوا ما يليهم وخربوا ما يليه، وكان الرجل منهم ممن كان له بيت حسن خربه، وقد كان رسول الله ﷺ أمر بقطع نخلهم، فجزعوا من ذلك وقالوا: يا محمد إن الله يأمرك بالفساد؟ إن كان لك هذا فخذه وإن كان لنا فلا تقطعه، فلما كان بعد ذلك قالوا: يا محمد نخرج من بلادك، فأعطنا مالنا، فقال: لا ولكن تخرجون، ولكم ما حملت الإبل، فلم يقبلوا ذلك فبقوا أياما ثم قالوا: نخرج ولنا ما حملت الإبل، فقال: لا ولكن تخرجون ولا يحمل أحد منكم شيئا، فمن وجدنا معه شيئا من ذلك قتلناه، فخرجوا على ذلك ووقع منهم قوم إلى فدك ووادي القرى، وخرج قوم منهم إلى الشام، فأنزل الله فيهم ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، إلى قوله: ﴿فَإِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقابِ﴾ وأنزل الله عليه فيما عابوه من قطع النخل ﴿ما قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوها قائِمَةً عَلى أُصُولِها، فَبِإِذْنِ اللهِ﴾، إلى قوله: ﴿رَبَّنا إِنَّكَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ﴾، وأنزل الله عليه في عبد الله بن أبي وأصحابه ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نافَقُوا﴾، إلى قوله: ﴿ثُمَّ لا يُنْصَرُونَ﴾

ب. وفي المجمع: (عن ابن عباس: كان النبي ﷺ حاصرهم حتى بلغ منهم كل مبلغ فأعطوه ما أراد منهم فصالحهم على أن يحقن لهم دماءهم، وأن يخرجهم من أرضهم وأوطانهم وأن يسيرهم إلى أذرعات بالشام وجعل لكل ثلاثة منهم بعيرا وسقاء، فخرجوا إلى أذرعات بالشام وأريحا إلا أهل بيتين منهم آل أبي

الحقيق وآل حيي بن أخطب فإنهم لحقوا بخيبر ولحقت طائفة منهم بالحيرة.

ج. وفيه، عن محمد بن مسلمة: أن رسول الله ﷺ بعثه إلى بني النضير، وأمره أن يؤجلهم في الجلاء ثلاث ليال.

د. وفيه، عن محمد بن إسحاق: كان إجلاء بني النضير مرجع النبي ﷺ من أحد، وكان فتح قريظة مرجعه من الأحزاب، وكان الزهري يذهب إلى أن إجلاء بني النضير، كان قبل أحد على رأس ستة أشهر من وقعة بدر.

هـ. وفي التوحيد، عن علي عليه السلام: وقد سئل عما اشتبه على السائل من الآيات، قال في قوله تعالى: ﴿فَأَتَاهُمُ اللهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا﴾ يعني أرسل عليهم عذابا.

٣. بيان سبب عذاب أهل الكتاب:

المقطع [٣] من سورة الحشر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِّ اللهَ فَإِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الحشر: ٣-٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ٢٠٢»:

١. ﴿وَلَوْلا أَنْ كَتَبَ اللهُ عَلَيْهِمُ الْجَلاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذابُ النَّارِ﴾:

أ. الجلاء ترك الوطن وكتابة الجلاء عليهم قضاؤه في حقهم، والمراد بعذابهم في الدنيا عذاب الاستئصال أو القتل والسبي.

ب. والمعنى: ولولا أن قضى الله عليهم الخروج من ديارهم وترك وطنهم لعذبهم في الدنيا بعذاب الاستئصال أو القتل والسبي كما فعل ببني قريظة ولهم في الآخرة عذاب النار.

٢. ﴿ذلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِّ اللهَ فَإِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقابِ﴾ المشاقة المخالفة بالعناد، والإشارة بذلك إلى ما ذكر من إخراجهم واستحقاقهم العذاب لو لم يكتب عليهم الجلاء، وفي تخصيص مشاقتهم بالله في قوله: ﴿وَمَنْ يُشَاقِّ اللهَ﴾ بعد تعميمه لله ورسوله في قوله: ﴿شَاقُّوا اللهَ وَرَسُولَهُ﴾ تلويح إلى أن مشاقة الرسول مشاقة الله والباقي ظاهر.

٤. حكم قطع النخيل أو تركه بإذن الله وإخزاء الفاسقين:

المقطع [٤] من سورة الحشر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً

عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الحشر: ٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ٢٠٢»:

١. ﴿ما قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوها قائِمَةً عَلى أُصُولِها فَبِإِذْنِ الله وَلِيُخْزِيَ الْفاسِقِينَ﴾:

أ. ذكر الراغب أن اللينة النخلة الناعمة من دون اختصاص منه بنوع منها دون نوع، رووا: أن النبي ﷺ أمر بقطع نخيلهم، فلما قطع بعضها نادوه: يا محمد قد كنت تنهى عن الفساد في الأرض، فما بال النخيل تقطع فنزلت الآية، فأجيب عن قولهم بأن ما قطعوا من نخلة، أو تركوها قائمة على أصولها فبإذن الله، ولله في حكمه هذا غايات حقة وحكم بالغة، منها إخزاء الفاسقين وهم بنو النضير.

ب. فقوله: ﴿وَلِيُخْزِيَ الْفاسِقِينَ﴾ اللام فيه للتعليل وهو معطوف على محذوف والتقدير: القطع والترك بإذن الله ليفعل كذا وكذا وليخزي الفاسقين فهو كقوله: ﴿وَكَذلِكَ نُرِي إِبْراهِيمَ مَلَكُوتَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام: ٧٥]

٥. حكم الفيء وما أوجف عليه من خيل ولا ركاب:

المقطع [٥] من سورة الحشر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الحشر: ٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ٢٠٣»:

١. ﴿وَما أَفاءَ اللهُ عَلى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَما أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلا رِكابٍ وَلكِنَّ اللهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلى مَنْ يَشاءُ﴾:

أ. الإفاءة الإرجاع من الفيء بمعنى الرجوع، وضمير ﴿مِنْهُمْ﴾ لبني النضير والمراد من أموالهم.

ب. وإيجاف الدابة تسييرها بإزعاج وإسراع والخيل الفرس، والركاب الإبل و﴿مِنْ خَيْلٍ وَلا رِكابٍ﴾ مفعول ﴿فَما أَوْجَفْتُمْ﴾ و﴿مِنْ﴾ زائدة للاستغراق.

ج. والمعنى: والذي أرجعه الله إلى رسوله من أموال بني النضير، خصه به وملكه وحده إياه، فلم تسيروا عليه فرسا ولا إبلا بالركوب حتى يكون لكم فيه حق بل مشيتم إلى حصونهم مشاة لقربها من المدينة، ولكن الله يسلط رسله على من يشاء والله على كل شيء قدير وقد سلط النبي ﷺ على بني النضير فله فيئهم يفعل فيه ما يشاء.

٢. أحاديث وآثار:

أ. في المجمع: (عن ابن عباس: نزل قوله تعالى: ﴿ما أَفاءَ اللهُ عَلى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرى﴾ الآية، في أموال كفار أهل القرى، وهم قريظة وبنو النضير وهما بالمدينة، وفدك وهي من المدينة على ثلاثة أميال، وخيبر وقرى عرينة وينبع، جعلها الله لرسوله يحكم فيها ما أراد، وأخبر أنها كلها له فقال أناس: فهلا قسمها فنزلت الآية.

ب. وفي التهذيب، بإسناده عن الحلبي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ﴿ما أَفاءَ اللهُ عَلى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَما أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ﴾ الآية قال الفيء ما كان من أموال لم يكن فيها هراقة دم أو قتل والأنفال مثل ذلك وهو بمنزلته.

ج. وفي المجمع: (روى المنهال بن عمر عن علي بن الحسين عليه السلام: قلت: قوله: ﴿وَلِذِي الْقُرْبى وَالْيَتامى وَالْمَساكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ قال: هم قربانا ومساكيننا وأبناء سبيلنا.

• أقول: وروي هذا المعنى في التهذيب، عن سليم بن قيس عن أمير المؤمنين عليه السلام، وقال في المجمع: (بعد نقل الرواية السابقة: وقال جميع الفقهاء: هم يتامى الناس عامة وكذلك المساكين وأبناء السبيل وقد روي ذلك أيضا عنهم عليه السلام.

٦. مصارف الفيء وبيان أنه ليس دولة بين الأغنياء:

المقطع [٦] من سورة الحشر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿مَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ﴾ [الحشر: ٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ٢٠٣»:

١. ﴿ما أَفاءَ اللهُ عَلى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبى وَالْيَتامى وَالْمَساكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾، ظاهره أنه بيان لموارد مصرف الفيء المذكور في الآية السابقة مع تعميم الفيء لفيء أهل القرى أعم من بني النضير وغيرهم.

٢. ﴿فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾ أي منه ما يختص بالله والمراد به صرفه وإنفاقه في سبيل الله على ما يراه الرسول ومنه ما يأخذه الرسول لنفسه ولا يصغي إلى قول من قال: إن ذكره تعالى مع أصحاب السهام لمجرد التبرك.

٣. ﴿وَلِذِي الْقُرْبى﴾:

أ. المراد بذي القربى قرابة النبي ﷺ، ولا معنى لحملة على قرابة عامة المؤمنين وهو ظاهر، والمراد باليتامى الفقراء منهم كما يشعر به السياق وإنما أفرد وقدم على ﴿الْمَساكِينِ﴾ مع شموله له اعتناء بأمر اليتامى.

ب. وقد ورد عن أئمة أهل البيت عليه السلام أن المراد بذي القربى أهل البيت واليتامى والمساكين وابن السبيل منهم.

٤. ﴿كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِياءِ مِنْكُمْ﴾ أي إنما حكمنا في الفيء بما حكمنا كيلا يكون دولة بين الأغنياء منكم والدولة ما يتداول بين الناس ويدور يدا بيد.

٧. الأمر بأخذ ما آتاه الرسول والانتهاء عما نهاه وتقوى الله:

المقطع [٧] من سورة الحشر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللهَّ إِنَّ اللهَّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الحشر: ٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ٢٠٤»:

١. ﴿وَما آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَما نَهاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾:

أ. أي ما أعطاكم الرسول من الفيء فخذوه كما أعطى منه المهاجرين ونفرا من الأنصار، وما نهاكم عنه ومنعكم فانتهوا ولا تطلبوا، وفيه إشعار بأنهم سألوا النبي ﷺ أن يقسم الفيء بينهم جميعا فأرجعه إلى نبيه وجعل موارد مصرفه ما ذكره في الآية وجعل للنبي ﷺ أن ينفقه فيها على ما يرى.

ب. والآية مع الغض عن السياق عامة تشمل كل ما آتاه النبي من حكم فأمر به أو نهى عنه.

٢. ﴿وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقابِ﴾ تحذير لهم عن مخالفة النبي ﷺ تأكيدا لقوله: ﴿وَما آتاكُمُ الرَّسُولُ﴾

٣. أحاديث وآثار: في الكافي، بإسناده عن زرارة أنه سمع أبا جعفر وأبا عبد الله عليه السلام يقولان: إن الله عز وجل فوض إلى نبيه ﷺ أمر خلقه، لينظر كيف طاعتهم ثم تلا هذه الآية ﴿ما آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَما نَهاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾

• أقول: والروايات عنهم عليه السلام في هذا المعنى كثيرة والمراد بتفويضه أمر خلقه كما يظهر من الروايات إمضاؤه تعالى ما شرعه النبي ﷺ لهم وافتراض طاعته في ذلك، وولايته أمر الناس وأما التفويض بمعنى سلبه تعالى ذلك عن نفسه وتقليده ﷺ لذلك فمستحيل.

٨. وصف المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم:

المقطع [٨] من سورة الحشر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحشر: ٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ٢٠٤»:

١. ﴿لِلْفُقَراءِ الْمُهاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ وَأَمْوالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللهِ وَرِضْواناً﴾:

أ. قيل: إن قوله: ﴿لِلْفُقَراءِ﴾ بدل من قوله: ﴿لِذِي الْقُرْبى﴾ وما بعده وذكر الله لمجرد التبرك فيكون الفيء مختصا بالرسول والفقراء من المهاجرين، وقد وردت الرواية أن النبي ﷺ قسم فيء بني النضير بين المهاجرين ولم يعط منه الأنصار شيئا إلا رجلين من فقرائهم أو ثلاثة.

ب. وقيل: إنه بدل من اليتامى والمساكين وابن السبيل فيكون ذوو السهام هم النبي ﷺ وذا القربى غنيهم وفقيرهم والفقراء من المهاجرين يتاماهم ومساكينهم وأبناء السبيل منهم، ولعل هذا مراد من قال: إن قوله: ﴿لِلْفُقَراءِ الْمُهاجِرِينَ﴾ بيان المساكين في الآية السابقة.

ج. والأنسب لما تقدم نقله عن أئمة أهل البيت عليه السلام أن يكون قوله: ﴿لِلْفُقَراءِ الْمُهاجِرِينَ﴾، بيان مصداق لصرف سبيل الله الذي أشير إليه بقوله: ﴿فَلِلَّهِ﴾ لا بأن يكون الفقراء المهاجرون أحد السهماء في الفيء بل بأن يكون صرفه فيهم وإعطاؤهم إياه صرفا له في سبيل الله.

د. ومحصل المعنى على هذا: أن الله سبحانه أفاء الفيء وأرجعه إلى النبي ﷺ فله أن يتصرف فيه كيف يشاء ثم دله على موارد صرفه وهي سبيل الله والرسول وذو القربى ويتاماهم ومساكينهم وابن السبيل منهم ثم أشار إلى مصداق الصرف في السبيل أو بعض مصاديقه وهم الفقراء المهاجرون إلخ، ينفق منه الرسول لهم على ما يرى.

هـ. وعلى هذا ينبغي أن يحمل ما ورد أن النبي ﷺ قسم فيء بني النضير بين المهاجرين ولم يعط الأنصار شيئا إلا ثلاثة من فقرائهم: أبا دجانة سماك بن خرشة وسهل بن حنيف والحارث بن الصمة فقد صرف فيهم بما أنه صرف في سبيل الله لا بما أنهم سهماء في الفيء.

و. وكيف كان فقوله: ﴿لِلْفُقَراءِ الْمُهاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ وَأَمْوالِهِمْ﴾ المراد بهم من هاجر من المسلمين من مكة إلى المدينة قبل الفتح وهم الذين أخرجهم كفار مكة بالاضطرار إلى الخروج

فتركوا ديارهم وأموالهم وهاجروا إلى مدينة الرسول.

٢. ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللهِ وَرِضْواناً﴾ الفضل الرزق أي يطلبون من الله رزقا في الدنيا ورضوانا في الآخرة.

٣. ﴿وَيَنْصُرُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي ينصرونه ورسوله بأموالهم وأنفسهم، وقوله: ﴿أُولئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ تصديق لصدقهم في أمرهم وهم على هذه الصفات.

٩. وصف الأنصار وإيثارهم على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة:

المقطع [٩] من سورة الحشر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ٢٠٥»:

١. ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُا الدَّارَ وَالْإِيمانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾:

أ. قيل: إنه استئناف مسوق لمدح الأنصار لتطيب بذلك قلوبهم إذ لم يشركوا في الفيء، ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُا﴾، والمراد بهم الأنصار، مبتدأ خبره ﴿يُحِبُّونَ﴾، والمراد بتبوي الدار وهو تعميرها بناء مجتمع ديني يأوي إليه المؤمنون على طريق الكناية، والإيمان معطوف على ﴿الدَّارَ﴾ وتبوي الإيمان وتعميره رفع نواقصه من حيث العمل بحيث يستطاع العمل بما يدعو إليه من الطاعات والقربات من غير حجر ومنع كما كان بمكة.

ب. واحتمل أن يعطف ﴿الْإِيمانَ﴾ على تبوؤا وقد حذف الفعل العامل فيه، والتقدير: وآثروا الإيمان.

ج. وقيل: إن قوله: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُا﴾، معطوف على قوله: ﴿الْمُهاجِرِينَ﴾ وعلى هذا يشارك الأنصار المهاجرين في الفيء، والإشكال عليه بأن المروي أن النبي ﷺ قسمه بين المهاجرين ولم يعط الأنصار منه شيئا إلا ثلاثة من فقرائهم مدفوع بأن الرواية من شواهد العطف دون الاستئناف إذ لو لم يجز إعطاؤه للأنصار لم يجز لا، للثلاثة ولا للواحد فإعطاء بعضهم منه دليل على مشاركتهم لهم غير أن الأمر لما كان راجعا إلى النبي ﷺ كان له أن يصرفه كيف يشاء فرجح أن يقسمه بينهم على تلك الوتيرة.

د. والأنسب لما تقدم من كون ﴿لِلْفُقَراءِ﴾، بيانا لمصاديق سهم السبيل هو عطف ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُا﴾، وكذا قوله الآتي: ﴿وَالَّذِينَ جاؤُ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ على قوله: ﴿الْمُهاجِرِينَ﴾، دون الاستئناف.

هـ. بل ما ورد من إعطائه ﷺ للثلاثة يؤيد هذا الوجه بعينه إذ لو كان السهيم فيه الفقراء المهاجرين فحسب لم يعط الأنصار ولا لثلاثة منهم، ولو كان للفقراء من الأنصار كالمهاجرين فيه سهم، وظاهر الآية أن جمعا منهم كانوا فقراء بهم خصاصة والتاريخ يؤيده، لأعطى غير الثلاثة من فقراء الأنصار كما أعطى فقراء المهاجرين واستوعبهم.

و. فقوله: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُا الدَّارَ وَالْإِيمانَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ ضمير ﴿مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ للمهاجرين والمراد من قبل مجيئهم وهجرتهم إلى المدينة.

٢. ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ أي يحبون من هاجر إليهم لأجل هجرتهم من دار الكفر إلى دار الإيمان ومجتمع المسلمين.

٣. ﴿وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حاجَةً مِمَّا أُوتُوا﴾:

أ. ضميرا ﴿يَجِدُونَ﴾ و﴿صُدُورِهِمْ﴾ للأنصار، وضمير ﴿أُوتُوا﴾ للمهاجرين، والمراد بالحاجة ما يحتاج إليه ومن تبعيضية وقيل: بيانية والمعنى: لا يخطر ببالهم شيء مما أعطيه المهاجرون فلا يضيق نفوسهم من تقسيم الفيء بين المهاجرين دونهم ولا يحسدون.

ب. وقيل: المراد بالحاجة ما يؤدي إليه الحاجة وهو الغيظ.

٤. ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كانَ بِهِمْ خَصاصَةٌ﴾:

أ. إيثار الشيء اختياره وتقديمه على غيره، والخصاصة الفقر والحاجة، قال الراغب: (خصاص البيت فرجه وعبر عن الفقر الذي لم يسد بالخصاصة كما عبر عنه بالخلة)

ب. والمعنى: ويقدمون المهاجرين على أنفسهم ولو كان بهم فقر وحاجة، وهذه الخصيصة أغزر وأبلغ في مدحهم من الخصيصة السابقة فالكلام في معنى الإضراب كأنه قيل: إنهم لا يطمحون النظر فيما بأيدي المهاجرين بل يقدمونهم على أنفسهم فيما بأيديهم أنفسهم في عين الفقر والحاجة.

٥. ﴿وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ قال الراغب: (الشح بخل مع حرص فيما كان عادة)، و(يوق) فعل مضارع مجهول من الوقاية بمعنى الحفظ، والمعنى: ومن يحفظ، أي يحفظه الله، من

ضيق نفسه من بذل ما بيده من المال أو من وقوع مال في يد غيره فأولئك هم المفلحون.

٦. أحاديث وآثار:

أ. في المجمع: (عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ يوم بني النضير للأنصار: إن شئتم قسمتم للمهاجرين من أموالكم ودياركم، وتشاركونهم في هذه الغنيمة، وإن شئتم كانت لكم دياركم وأموالكم، ولم يقسم لكم شيء من الغنيمة، فقال الأنصار: بل نقسم لهم من ديارنا وأموالنا، ونؤثرهم بالغنيمة ولا نشاركهم فيها، فنزلت: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ الآية.

• أقول: وروي في إيثارهم ونزول الآية فيه قصص أخرى، والظاهر أن ذلك من قبيل تطبيق الآية على القصة، وقد روي المعاني السابقة في الدر المنثور بطرق كثيرة مختلفة.

ب. وفيه، بإسناده عن أبي عبد الله عليه السلام في حديث: الإيمان بعضه من بعض وهو دار وكذلك الإسلام دار والكفر دار.

ج. وفي المحاسن، بإسناده عن أبي عبيدة عن أبي جعفر عليه السلام في حديث قال: يا زياد ويحك وهل الدين إلا الحب، ألا ترى إلى قول الله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ أولا ترون إلى قول الله لمحمد ﷺ: ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ وقال: ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ وقال: الدين هو الحب والحب هو الدين.

د. وفي المجمع: (وفي الحديث: لا يجتمع الشح والإيمان في قلب رجل مسلم، ولا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان جهنم في جوف رجل مسلم.

هـ. وفي الفقيه، روى الفضل بن أبي قرة السمندي قال: قال لي أبو عبد الله عليه السلام: أتدري من الشحيح؟ قلت: هو البخيل، قال: الشح أشد من البخل إن البخيل يبخل بما في يده والشحيح يشح بما في أيدي الناس وعلى ما في يده حتى لا يرى في أيدي الناس شيئا إلا تمنى أن يكون له بالحل والحرام، ولا يقنع بما رزقه الله عز وجل.

١٠. دعاء الذين جاءوا من بعدهم للمغفرة والإخاء ونفي الغل:

المقطع [١٠] من سورة الحشر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾

[الحشر: ١٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ٢٠٧»:

١. ﴿وَالَّذِينَ جاؤُ مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنا وَلِإِخْوانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونا بِالْإِيمانِ﴾:

أ. استئناف أو عطف نظير ما تقدم في قوله: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُا الدَّارَ وَالْإِيمانَ (مِنْ قَبْلِهِمْ) يُحِبُّونَ﴾ وعلى الاستئناف فالموصول مبتدأ خبره قوله: ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا﴾

ب. والمراد بمجيئهم بعد المهاجرين والأنصار إيمانهم بعد انقطاع الهجرة بالفتح وقيل: المراد أنهم خلفوهم.

ج. وقولهم: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنا وَلِإِخْوانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونا بِالْإِيمانِ﴾ دعاء لأنفسهم والسابقين من المؤمنين بالمغفرة، وفي تعبيرهم عنهم بإخواننا إشارة إلى أنهم يعدونهم من أنفسهم كما قال الله تعالى: ﴿بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ [النساء: ٢٥]، فهم يحبونهم كما يحبون أنفسهم ويحبون لهم ما يحبون لأنفسهم.

د. ولذلك عقبوه بقولهم: ﴿وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنا إِنَّكَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ﴾ فسألوا أن لا يجعل الله في قلوبهم غلا للذين آمنوا والغل العداوة.

هـ. وفي قوله: ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ تعميم لعامة المؤمنين منهم وممن سبقهم وتلويح إلى أنه لا بغية لهم إلا الإيمان.

١١. كشف نفاق المنافقين وكذبهم مع إخوانهم من أهل الكتاب:

المقطع [١١] من سورة الحشر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ﴾ [الحشر: ١١-١٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ٢١١»:

١. ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ﴾:

أ. الإخوان كالأخوة جمع أخ والأخوة الاشتراك في الانتساب إلى أب ويتوسع فيه فيستعمل في المشتركين في اعتقاد أو صداقة ونحو ذلك، ويكثر استعمال الأخوة في المشتركين في النسبة إلى أب واستعمال الإخوان في المشتركين في اعتقاد ونحوه على ما قيل.

ب. والاستفهام في الآية للتعجيب، والمراد بالذين نافقوا عبد الله بن أبي وأصحابه، والمراد

بإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب بنو النضير على ما يؤيده السياق فإن مفاد الآيات أنهم كانوا قوما من أهل الكتاب دار أمرهم بين الخروج والقتال بعد قوم آخر كذلك وليس إلا بني النضير بعد بني قينقاع.

٢. ﴿لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَداً أَبَداً وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ﴾ مقول قول المنافقين، واللام في ﴿لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ﴾ للقسم أي نقسم لئن أخرجكم المسلمون من دياركم لنخرجن من ديارنا معكم ملازمين لكم ولا نطيع فيكم أي في شأنكم أحدا يشير علينا بمفارقتكم أبدا، وإن قاتلكم المسلمون لننصرنكم عليهم.

٣. ﴿وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ﴾ تكذيب لوعد المنافقين، وتصريح بأنهم لا يفون بوعدهم.

٤. ﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا لا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لا يَنْصُرُونَهُمْ﴾ تكذيب تفصيلي لوعدهم بعد تكذيبه الإجمالي بقوله: ﴿وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ﴾ وقد كرر فيه لام القسم، والمعنى: أقسم لئن أخرج بنو النضير لا يخرج معهم المنافقون، وأقسم لئن قوتلوا لا ينصرونهم.

٥. ﴿وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبارَ ثُمَّ لا يُنْصَرُونَ﴾ إشارة إلى أن نصرهم على تقدير وقوعه منهم، ولن يقع أبدا، لا يدوم ولا ينفعهم بل يولون الأدبار فرارا ثم لا ينصرون بل يهلكون من غير أن ينصرهم أحد.

٦. أحاديث وآثار:

أ. أخرج ابن إسحاق وابن المنذر وأبو نعيم في الدلائل عن ابن عباس: أن رهطا من بني عوف بن الحارث، منهم عبد الله بن أبي بن سلول، ووديعة بن مالك وسويد وداعس، بعثوا إلى بني النضير أن اثبتوا وتمنعوا، فإنا لا نسلمكم وإن قوتلتم قاتلنا معكم، وإن خرجتم خرجنا معكم فتربصوا ذلك من نصرهم، فلم يفعلوا وقذف الله الرعب في قلوبهم، فسألوا رسول الله ﷺ أن يجليهم ويكف عن دمائهم على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا الحلقة ففعل فكان الرجل منهم يهدم بيته فيضعه على ظهر بعيره فينطلق به فخرجوا إلى خيبر ومنهم من سار إلى الشام.

- أقول: والرواية تخالف ما في عدة من الروايات: أن النبي ﷺ هو الذي عرض لهم أن يخرجوا بما تحمله الإبل من الأموال فلم يقبلوا ثم رضوا بذلك بعد أيام فلم يقبل النبي ﷺ، إلا أن يخرجوا بأنفسهم وأهليهم من غير أن يحملوا شيئا فخرجوا كذلك وجعل النبي ﷺ لكل ثلاثة منهم بعيرا وسقاء.

ب. أخرج ابن مردويه عن ابن عباس: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نافَقُوا﴾ قال: عبد الله بن أبي بن سلول ورفاعة بن تابوت وعبد الله بن نبتل وأوس بن قيظي، و﴿لِإِخْوانِهِمُ﴾ بنو النضير.

• أقول: المراد به عد بعضهم فلا ينافي ما في الرواية السابقة.

١٢ . بيان شدة رهبة المعتدين من أهل الكتاب من المؤمنين وتفرق قلوبهم:

المقطع [١٢] من سورة الحشر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الحشر: ١٣-١٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ٢١٢»:

١ . ﴿لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللهِ﴾، ضمائر الجمع للمنافقين، والرهبة الخشية، والآية في مقام التعليل لقوله: ﴿وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبارَ﴾ أي ذلك لأنهم يرهبونكم أشد من رهبتهم لله فلا يقاومونكم لو قاتلتم ولا يثبتون لكم.

٢ . وعلل ذلك بقوله: ﴿ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ﴾ والإشارة بذلك إلى كون رهبتهم للمؤمنين أشد من رهبتهم لله أي رهبتهم لكم كذلك لأنهم قوم لا يفهمون حق الفهم ولو فقهوا حقيقة الأمر بأن لهم أن الأمر إلى الله تعالى وليس لغيره من الأمر شيء سواء في ذلك المسلمون وغيرهم، ولا يقوى غيره تعالى على عمل خير أو شر أو نافع أو ضار إلا بحول منه تعالى وقوة فلا ينبغي أن يرهب إلا هو عز وجل.

٣ . ﴿لا يُقاتِلُونَكُمْ جَمِيعاً إِلَّا فِي قُرىً مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَراءِ جُدُرٍ﴾ بيان لأثر رهبتهم وجبنهم جميعا والمعنى: لا يقاتلكم بنو النضير والمنافقون جميعا بأن يبرزوا بل في قرى حصينة محكمة أو من وراء جدر من غير بروز.

٤ . ﴿بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ﴾ أي هم فيما بينهم شديد البطش غير أنهم إذا برزوا لحربكم وشاهدوكم يجبنون بما ألقى الله في قلوبهم من الرعب.

٥ . ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى﴾ أي تظن أنهم مجتمعون في ألفة واتحاد والحال أن قلوبهم متفرقة غير متحدة وذلك أقوى عامل في الخزي والخذلان، ذلك بأنهم قوم لا يعقلون ولو عقلوا لاتحدوا ووحدوا الكلمة.

١٣. تشبيههم بمثل الذين من قبلهم وذاقوا وبال أمرهم:

المقطع [١٣] من سورة الحشر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الحشر: ١٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ٢١٣»:

١. ﴿كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيباً ذاقُوا وَبالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ﴾ الوبال العاقبة السيئة وقوله: ﴿قَرِيباً﴾ قائم مقام الظروف منصوب على الظرفية أي في زمان قريب.

٢. ﴿كَمَثَلِ﴾:

أ. خبر مبتدإ محذوف والتقدير (مثلهم كمثل)، والمعنى: مثلهم أي مثل بني النضير من اليهود في نقضهم العهد ووعد المنافقين لهم بالنصر كذبا ثم الجلاء مثل الذين من قبلهم في زمان قريب وهم بنو قينقاع رهط آخر من يهود المدينة نقضوا العهد بعد غزوة بدر فأجلاهم رسول الله ﷺ إلى أذرعات وقد كان وعدهم المنافقون أن يكلموا النبي ﷺ فيهم ويمنعوه من إجلائهم فغدروا بهم فذاق بنو قينقاع وبال أمرهم ولهم في الآخرة عذاب أليم.

ب. وقيل: المراد بالذين من قبلهم كفار مكة يوم بدر وما تقدم أنسب للسياق.

ج. والمثل على أي حال مثل لبني النضير لا للمنافقين على ما يعطيه السياق.

١٤. ضرب مثل الشيطان مع الإنسان في الكفر والتبرؤ منه:

المقطع [١٤] من سورة الحشر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللهَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ [الحشر: ١٦-١٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ٢١٣»:

١. ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطانِ إِذْ قالَ لِلْإِنْسانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ﴾:

أ. ظاهر السياق أنه مثل للمنافقين في غرورهم بني النضير بوعد النصر ثم خذلانهم عند الحاجة.

ب. وظاهر سياق يفيد أن المراد بالشيطان والإنسان الجنس والإشارة إلى غرور الشيطان للإنسان بدعوته إلى الكفر بتزيين أمتعة الحياة له وتسويل الإعراض عن الحق بمواعيده الكاذبة والأماني السرابية حتى إذا طلعت له طلائع الآخرة وعاين أن ما اغتر به من أماني الحياة الدنيا لم يكن إلا سرابا يغره وخيالا يلعب به تبرأ منه الشيطان ولم يف بها وعده وقال: إني بريء منك إني أخاف الله رب العالمين.

ج. وبالجملة مثل المنافقين في دعوتهم بني النضير إلى مخالفة النبي ﷺ ووعدهم النصر ثم الغدر بهم وخلف الوعد كمثل هذا الشيطان في دعوة الإنسان إلى الكفر بمواعيده الكاذبة ثم تبريه منه بعد الكفر عند الحاجة.

د. وقيل: المراد بالتمثيل الإشارة إلى قصة برصيصا العابد الذي زين له الشيطان الفجور ففجر بامرأة ثم كفر وسيأتي القصة في البحث الروائي التالي إن شاء الله.

هـ. وقيل: المثل السابق المذكور في قوله: ﴿كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيباً﴾ مثل كفار مكة يوم بدر، كما تقدم، والمراد بالإنسان في هذا المثل أبو جهل وبقول الشيطان له اكفر ما قصه الله تعالى بقوله في القصة: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ وَقالَ لا غالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَراءَتِ الْفِئَتانِ نَكَصَ عَلى عَقِبَيْهِ وَقالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرى ما لا تَرَوْنَ إِنِّي أَخافُ اللهَ وَاللهُ شَدِيدُ الْعِقابِ﴾ [الأنفال: ٤٨]

• وعلى هذا الوجه فقول الشيطان: ﴿إِنِّي أَخافُ اللهَ رَبَّ الْعالَمِينَ﴾ قول جدي لأنه كان يخاف تعذيب الملائكة النازلين لنصرة المؤمنين ببدر وأما على الوجهين الأولين فهو نوع من الاستهزاء والإخزاء.

٢. ﴿فَكانَ عاقِبَتَهُما أَنَّهُما فِي النَّارِ خالِدَيْنِ فِيها وَذلِكَ جَزاءُ الظَّالِمِينَ﴾ الظاهر أن ضمائر التثنية للشيطان والإنسان المذكورين في المثل ففي الآية بيان عاقبة الشيطان في غروره الإنسان وإضلاله والإنسان في اغتراره به وضلاله، وإشارة إلى أن ذلك عاقبة المنافقين في وعدهم لبني النضير وغدرهم بهم وعاقبة بني النضير في اغترارهم بوعدهم الكاذب وإصرارهم على المشاقة والمخالفة، ومعنى الآية ظاهر.

٣. أحاديث وآثار: أخرج ابن أبي الدنيا في مكايد الشيطان وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان عن عبيد بن رفاعة الدارمي يبلغ به النبي ﷺ قال: كان راهب في بني إسرائيل فأخذ الشيطان جارية فخنقها فألقى في قلوب أهلها أن دواءها عند الراهب، فأتى بها الراهب فأبى أن يقبلها فلم يزالوا به حتى قبلها فكانت عنده، فأتاه الشيطان فوسوس له وزين له فلم يزل به حتى وقع عليها فلما حملت وسوس له الشيطان فقال: الآن تفتضح يأتيك أهلها فاقتلها فإن أتوك فقل: ماتت فقتلها ودفنها فأتى الشيطان أهلها فوسوس إليهم وألقى في قلوبهم أنه أحبلها ثم قتلها فأتاه أهلها فسألوه فقال: ماتت فأخذوه، فأتاه الشيطان فقال: أنا الذي ألقيت في قلوب أهلها، وأنا الذي أوقعتك في هذا، فأطعني تنج واسجد لي سجدتين فسجد

له سجدتين، فهو الذي قال الله: ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطانِ إِذْ قالَ لِلْإِنْسانِ اكْفُرْ﴾ الآية.

• أقول: والقصة مشهورة رويت مختصرة ومفصلة في روايات كثيرة.

١٥. الأمر بتقوى الله والاهتمام بالإعداد للآخرة والنهي عن نسيان الله:

المقطع [١٥] من سورة الحشر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [الحشر: ١٨-١٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ٢١٧»:

١. ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ ما قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾:

أ. أمر للمؤمنين بتقوى الله وبأمر آخر وهو النظر في الأعمال التي قدموها ليوم الحساب أهي صالحة فليرج بها ثواب الله أو طالحة فليخش عقاب الله عليها ويتدارك بالتوبة والإنابة وهو محاسبة النفس.

ب. أما التقوى وقد فسر في الحديث بالورع عن محارم الله فحيث تتعلق بالواجبات والمحرمات جميعا كانت هي الاجتناب عن ترك الواجبات وفعل المحرمات.

ج. وأما النظر فيما قدمت النفس لغد فهو أمر آخر وراء التقوى نسبته إلى التقوى كنسبة النظر الإصلاحي ثانيا من عامل في عمله أو صانع فيما صنعه لتكميله ورفع نواقصه التي غفل عنها أو أخطأ فيها حين العمل والصنع.

د. فعلى المؤمنين جميعا أن يتقوا الله فيما وجه إليهم من التكاليف فيطيعوه ولا يعصوه ثم ينظروا فيما قدموه من الأعمال التي يعيشون بها في غد بعد ما حوسبوا بها أصالح فيرجى ثوابه أم طالح فيخاف عقابه فيتوبوا إلى الله ويستغفروه.

هـ. وهذا تكليف عام يشمل كل مؤمن لحاجة الجميع إلى إصلاح العمل وعدم كفاية نظر بعضهم عن نظر الآخرين غير أن القائم به من أهل الإيمان في نهاية القلة بحيث يكاد يلحق بالعدم وإلى ذلك يلوح لفظ الآية ﴿وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ﴾

٢. ﴿وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ ما قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ خطاب عام لجميع المؤمنين لكن لما كان المشتغل بهذا النظر من بين أهل الإيمان بل من بين أهل التقوى منهم في غاية القلة بل يكاد يلحق بالعدم لاشتغالهم بأعراض الدنيا واستغراق أوقاتهم في تدبير المعيشة وإصلاح أمور الحياة ألقى الخطاب في صورة الغيبة وعلقه بنفس ما

منكرة فقال: ﴿وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ﴾ وفي هذا النوع من الخطاب مع كون التكليف عاما بحسب الطبع عتاب وتقريع للمؤمنين مع التلويح إلى قلة من يصلح لامتثاله منهم.

٣. ﴿ما قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾:

أ. استفهام من ماهية العمل الذي قدمت لغد وبيان للنظر، ويمكن أن تكون ﴿ما﴾ موصولة وهي وصلتها متعلقا بالنظر.

ب. والمراد بغد يوم القيامة وهو يوم حساب الأعمال وإنما عبر عنه بغد للإشارة إلى قربه منهم كقرب الغد من أمسه، قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً وَنَراهُ قَرِيباً﴾ [المعارج: ٧]

ج. والمعنى: يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله بطاعته في جميع ما يأمركم به وينهاكم عنه، ولتنظر نفس منكم فيما عملته من عمل ولتر ما الذي قدمته من عملها ليوم الحساب أهو عمل صالح أو طالح وهل عملها الصالح صالح مقبول أو مردود.

٤. ﴿وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ﴾:

أ. أمر بالتقوى ثانيا و﴿إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ﴾، تعليل له وتعليل هذه التقوى بكونه تعالى خبيرا بالأعمال يعطي أن المراد بهذه التقوى المأمور بها ثانيا هي التقوى في مقام المحاسبة والنظر فيها من حيث إصلاحها وإخلاصها لله سبحانه وحفظها عما يفسدها، وأما قوله في صدر الآية: ﴿اتَّقُوا اللهَ﴾ فالمراد به التقوى في أصل إتيان الأعمال بقصرها في الطاعات وتجنب المعاصي.

ب. ومن هنا تبين أن المراد بالتقوى في الموضعين مختلف فالأولى هي التقوى في أصل إتيان الأعمال، والثانية هي التقوى في الأعمال المأتية من حيث إصلاحها وإخلاصها.

ج. وظهر أيضا أن قول بعضهم: إن الأولى للتوبة عما مضى من الذنوب والثانية لاتقاء المعاصي في المستقبل غير سديد ومثله ما قيل: إن الأولى في أداء الواجبات والثانية في ترك المحرمات، ومثله ما قيل: إن الأمر الثاني لتأكيد الأمر الأول فحسب.

٥. ﴿وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللهَ فَأَنْساهُمْ أَنْفُسَهُمْ﴾، النسيان زوال صورة المعلوم عن النفس بعد حصولها فيها مع زوال مبدئه ويتوسع فيه مطلق على مطلق الإعراض عن الشيء بعدم ترتيب الأثر عليه قال تعالى: ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْساكُمْ كَما نَسِيتُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هذا وَمَأْواكُمُ النَّارُ وَما لَكُمْ مِنْ ناصِرِينَ﴾

[الجاثية: ٣٤]

٦. والآية بحسب لب معناها:

أ. كالتأكيد لمضمون الآية السابقة كأنه قيل: قدموا ليوم الحساب والجزاء عملا صالحا تحيى به أنفسكم ولا تنسوه، ثم لما كان سبب نسيان النفس نسيان الله تعالى إذ بنسيانه تعالى تنسى أسماؤه الحسنى وصفاته العليا التي ترتبط بها صفات الإنسان الذاتية من الذلة والفقر والحاجة فيتوهم الإنسان نفسه مستقلة في الوجود ويخيل إليه أن له لنفسه حياة وقدرة وعلما وسائر ما يتراءى له من الكمال ونظراؤه في الاستقلال سائر الأسباب الكونية الظاهرية تؤثر فيه وتتأثر عنه.

ب. وعند ذلك يعتمد على نفسه وكان عليه أن يعتمد على ربه ويرجو ويخاف الأسباب الظاهرية وكان عليه أن يرجو ويخاف ربه، يطمئن إلى غير ربه وكان عليه أن يطمئن إلى ربه.

ج. وبالجملة ينسى ربه والرجوع إليه ويعرض عنه بالإقبال إلى غيره، ويتفرع عليه أن ينسى نفسه فإن الذي يخيل إليه من نفسه أنه موجود مستقل الوجود يملك ما ظهر فيه من كمالات الوجود وإليه تدبير أمره مستمدا مما حوله من الأسباب الكونية وليس هذا هو الإنسان بل الإنسان موجود متعلق الوجود جهل كله عجز كله ذلة كله فقر كله وهكذا، وما له من الكمال كالوجود والعلم والقدرة والعزة والغنى وهكذا فلربه وإلى ربه انتهاؤه ونظراؤه في ذلك سائر الأسباب الكونية.

د. والحاصل لما كان سبب نسيان النفس نسيان الله تعالى حول النهي عن نسيان النفس في الآية إلى النهي عن نسيانه تعالى لأن انقطاع المسبب بانقطاع سببه أبلغ وآكد، ولم يقنع بمجرد النهي الكلي عن نسيانه بأن يقال: ولا تنسوا الله فينسيكم أنفسكم بل جرى بمثل إعطاء الحكم بالمثال ليكون أبلغ في التأثير وأقرب إلى القبول فنهاهم أن يكونوا كالذين نسوا الله مشيرا به إلى من تقدم ذكرهم من يهود بني النضير وبني قينقاع ومن حاله حالهم في مشاقة الله ورسوله، فقال: ﴿وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللهَ﴾ ثم فرع عليه قوله: ﴿فَأَنْساهُمْ أَنْفُسَهُمْ﴾ تفريع المسبب على سببه ثم عقبه بقوله: ﴿أُولئِكَ هُمُ الْفاسِقُونَ﴾ فدل على أنهم فاسقون حقا خارجون عن زي العبودية.

هـ. والآية وإن كانت تنهى عن نسيانه تعالى المتفرع عليه نسيان النفس لكنها بورودها في سياق الآية السابقة تأمر بذكر الله ومراقبته.

و. فقد بان من جميع ما تقدم في الآيتين أن الآية الأولى تأمر بمحاسبة النفس والثانية تأمر بالذكر والمراقبة.

٧. أحاديث وآثار:

أ. في الحديث النبوي المشهور: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا قبل أن توزنوا وتجهزوا للغرض الأكبر.

ب. وفي الكافي، بإسناده إلى أبي الحسن الماضي عليه السلام قال: ليس منا من لم يحاسب نفسه في كل يوم فإن عمل حسنا ازداد لله شكرا وإن عمل سيئا استغفر الله وتاب إليه.

• أقول: وفيها يقرب من هذا المعنى روايات أخر، وقد أوردنا روايات عنهم عليه السلام في معنى ذكر الله في ذيل تفسير قوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ الآية: [البقرة: ١٥٢]، وقوله: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللهَ ذِكْراً كَثِيراً﴾ [الأحزاب: ٢١]، فليراجعها من شاء.

١٦. بيان عدم استواء أصحاب النار وأصحاب الجنة:

المقطع [١٦] من سورة الحشر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [الحشر: ٢٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ٢٢٠»:

١. ﴿لا يَسْتَوِي أَصْحابُ النَّارِ وَأَصْحابُ الْجَنَّةِ أَصْحابُ الْجَنَّةِ هُمُ الفائِزُونَ﴾:

أ. قال الراغب: (الفوز الظفر بالخير مع حصول السلامة)، والسياق يشهد بأن المراد بأصحاب النار هم الناسون لله وبأصحاب الجنة هم الذاكرون لله المراقبون.

ب. والآية حجة تامة على وجوب اللحوق بالذاكرين لله المراقبين له دون الناسين، تقريرها أن هناك قبيلين لا ثالث لهما وهما الذاكرون لله والناسون له لا بد للإنسان أن يلحق بأحدهما وليسا بمساويين حتى يتساوى اللحوقان ولا يبالي الإنسان بأيهما لحق؟ بل هناك راجح ومرجوح يجب اختيار الراجح على المرجوح والرجحان لقبيل الذاكرين لأنهم الفائزون لا غير فالترجيح لجانبهم فمن الواجب لكل نفس أن يختار اللحوق بقبيل الذاكرين.

١٧. خشوع الجبل لتنزل القرآن من خشية الله:

المقطع [١٧] من سورة الحشر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ

لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ٢٢١»:

١. ﴿لَوْ أَنْزَلْنا هذَا الْقُرْآنَ عَلى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللهِ﴾:

أ. في المجمع: (التصدع التفرق بعد التلاؤم ومثله التفطر)

ب. والكلام مسوق سوق المثل مبني على التخييل والدليل عليه قوله في ذيل الآية: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثالُ نَضْرِبُها لِلنَّاسِ﴾

ج. والمراد تعظيم أمر القرآن بما يشتمل عليه من حقائق المعارف وأصول الشرائع والعبر والمواعظ والوعد والوعيد وهو كلام الله العظيم، والمعنى: لو كان الجبل مما يجوز أن ينزل عليه القرآن فأنزلناه عليه لرأيته، مع ما فيه من الغلظة والقسوة وكبر الجسم وقوة المقاومة قبال النوازل، متأثرا متفرقا من خشية الله فإذا كان هذا حال الجبل بما هو عليه فالإنسان أحق بأن يخشع لله إذا تلاه أو تلي عليه، وما أعجب حال أهل المشاقة والعناد لا تلين قلوبهم له ولا يخشعون ولا يخشون.

د. والالتفات من التكلم مع الغير إلى الغيبة في قوله: ﴿مِنْ خَشْيَةِ اللهِ﴾ للدلالة على علة الحكم فإنما يخشع ويتصدع الجبل بنزول القرآن لأنه كلام الله عز اسمه.

٢. ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثالُ نَضْرِبُها لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾:

أ. من وضع الحكم الكلي موضع الجزئي للدلالة على أن الحكم ليس ببدع في مورده بل جار سار في موارد أخرى كثيرة.

ب. فقوله: ﴿لَوْ أَنْزَلْنا هذَا الْقُرْآنَ عَلى جَبَلٍ﴾، مثل ضربه الله للناس في أمر القرآن لتقريب عظمته وجلالة قدره بما أنه كلام لله تعالى وبما يشتمل عليه من المعارف رجاء أن يتفكر فيه الناس فيتلقوا القرآن بما يليق به من التلقي ويتحققوا بما فيه من الحق الصريح ويهتدوا إلى ما يهدي إليه من طريق العبودية التي لا طريق إلى كمالهم وسعادتهم وراءها، ومن ذلك ما ذكر في الآيات السابقة من المراقبة والمحاسبة.

١٨. ختم السورة بأسماء الله الحسنى:

المقطع [١٨] من سورة الحشر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿هُوَ اللهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ هُوَ اللهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ

الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ هُوَ اللهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الحشر: ٢٢-٢٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ٢٢١»:

١. ﴿هُوَ اللهُ الَّذِي لا إِلهَ إِلَّا هُوَ عالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ هُوَ الرَّحْمنُ الرَّحِيمُ﴾:

أ. هذه الآية والآيتان بعدها وإن كانت مسوقة لتعداد قبيل من أسمائه تعالى الحسنى والإشارة إلى تسميته تعالى بكل اسم أحسن وتنزهه بشهادة ما في السماوات والأرض لكنها بانضمامها إلى ما مر من الأمر بالذكر تفيد أن على الذاكرين أن يذكروه بأسمائه الحسنى فيعرفوا أنفسهم بما يقابلها من أسماء النقص، فافهم ذلك.

ب. وبانضمامها إلى الآية السابقة وما فيها من قوله: ﴿مِنْ خَشْيَةِ اللهِ﴾ تفيد تعليل خشوع الجبل وتصدعه من خشية الله كأنه قيل: وكيف لا وهو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة، إلى آخر الآيات.

٢. ﴿هُوَ اللهُ الَّذِي لا إِلهَ إِلَّا هُوَ﴾ يفيد الموصول والصلة معنى اسم من أسمائه وهو وحدانيته تعالى في ألوهيته ومعبوديته، وقد تقدم بعض ما يتعلق بالتهليل في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ﴾ [البقرة: ١٦٣]

٣. ﴿عالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ﴾ الشهادة هي المشهود الحاضر عند المدرك والغيب خلافها وهما معنيان إضافيان فمن الجائز أن يكون شيء شهادة بالنسبة إلى شيء وغيبا بالنسبة إلى آخر ويدور الأمر مدار نوع من الإحاطة بالشيء حسا أو خيالا أو عقلا أو وجودا وهو الشهادة وعدمها وهو الغيب، وكل ما فرص من غيب أو شهادة فهو من حيث هو محاط له تعالى معلوم فهو تعالى عالم الغيب والشهادة وغيره لا علم له بالغيب لمحدودية وجوده وعدم إحاطته إلا ما علمه تعالى كما قال: ﴿عالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلى غَيْبِهِ أَحَداً إِلَّا مَنِ ارْتَضى مِنْ رَسُولٍ﴾ [الجن: ٢٧]، وأما هو تعالى فغيب على الإطلاق لا سبيل إلى الإحاطة به لشيء أصلا كما قال: ﴿وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً﴾

٤. ﴿هُوَ الرَّحْمنُ الرَّحِيمُ﴾ قد تقدم الكلام في معنى الاسمين في تفسير سورة الفاتحة.

٥. ﴿هُوَ اللهُ الَّذِي لا إِلهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ﴾:

أ. الملك هو المالك لتدبير أمر الناس والحكم فيهم، والقدوس مبالغة في القدس وهو النزاهة

والطهارة، والسلام من يلاقيك بالسلام والعافية من غير شر وضر، والمؤمن الذي يعطي الأمن، والمهيمن الفائق المسيطر على الشيء.

ب. والعزيز الغالب الذي لا يغلبه شيء أو من عنده ما عند غيره من غير عكس، والجبار مبالغة من جبر الكسر أو الذي تنفذ إرادته ويجبر على ما يشاء، والمتكبر الذي تلبس بالكبرياء وظهر بها.

٦. ﴿سُبْحانَ اللهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ثناء عليه تعالى كما في قوله: ﴿وَقالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَداً سُبْحانَهُ﴾ [البقرة: ١١٦]

٧. ﴿هُوَ اللهُ الْخالِقُ الْبارِئُ الْمُصَوِّرُ﴾، الخالق هو الموجد للأشياء عن تقدير، والبارئ المنشئ للأشياء ممتازا بعضها من بعض، والمصور المعطي لها صورا يمتاز بها بعضها من بعض، والأسماء الثلاثة تتضمن معنى الإيجاد باعتبارات مختلفة وبينها ترتب فالتصوير فرع البرء والبرء فرع الخلق وهو ظاهر.

٨. وإنما صدر الآيتين السابقتين بقوله: ﴿الَّذِي لا إِلهَ إِلَّا هُوَ﴾ فوصف به ﴿اللهُ﴾ وعقبه بالأسماء بخلاف هذه الآية إذ قال: ﴿هُوَ اللهُ الْخالِقُ﴾:

أ. لأن الأسماء الكريمة المذكورة في الآيتين السابقتين وهي أحد عشر اسما من لوازم الربوبية ومالكية التدبير التي تتفرع عليها الألوهية والمعبودية بالحق وهي على نحو الأصالة والاستقلال لله سبحانه وحده لا شريك له في ذلك فاتصافه تعالى وحده بها يستوجب اختصاص الألوهية واستحقاق المعبودية به تعالى.

ب. فالأسماء الكريمة بمنزلة التعليل لاختصاص الألوهية به تعالى كأنه قيل لا إله إلا هو لأنه عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم، ولذا أيضا ذيل هذه الأسماء بقوله ثناء عليه: ﴿سُبْحانَ اللهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ردا على القول بالشركاء كما يقوله المشركون.

ج. وأما قوله: ﴿هُوَ اللهُ الْخالِقُ الْبارِئُ الْمُصَوِّرُ﴾ فالمذكور فيه من الأسماء يفيد معنى الخلق والإيجاد واختصاص ذلك به تعالى لا يستوجب اختصاص الألوهية به كما يدل عليه أن الوثنيين قائلون باختصاص الخلق والإيجاد به تعالى وهم مع ذلك يدعون من دونه أربابا وآلهة ويثبتون له شركاء.

د. وأما وقوع اسم الجلالة في صدر الآيات الثلاث جميعا فهو علم للذات المستجمع لجميع صفات الكمال يرتبط به ويجري عليه جميع الأسماء وفي التكرار مزيد تأكيد وتثبيت للمطلوب.

٩. ﴿لَهُ الْأَسْماءُ الْحُسْنى﴾ إشارة إلى بقية الأسماء الحسنى عن آخرها لكون الأسماء جمعا محلى باللام وهو يفيد العموم.

١٠. ﴿يُسَبِّحُ لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي جميع ما في العالم من المخلوقات حتى نفس السماوات والأرض وقد تقدم توضيح معنى الجملة مرارا.

١١. ثم ختم الآيات بقوله: ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾:

أ. أي الغالب غير المغلوب الذي فعله متقن لا مجازفة فيه فلا يعجزه فيما شرعه ودعا إليه معصية العاصين ولا مشاقة المعاندين ولا يضيع عنده طاعة المطيعين وأجر المحسنين.

ب. والعناية إلى ختم الكلام بالاسمين والإشارة بذلك إلى كون القرآن النازل من عنده كلام عزيز حكيم هو الذي دعا إلى تكرار اسمه العزيز وذكره مع الحكيم مع تقدم ذكره بين الأسماء.

ج. وقد وصف القرآن أيضا بالعزة والحكمة كما قال: ﴿وَإِنَّهُ لَكِتابٌ عَزِيزٌ﴾ [فصلت: ٤١]، وقال: ﴿وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ﴾ [يس: ٢]

١٢. أحاديث وآثار:

أ. في المجمع في قوله تعالى: ﴿عالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ﴾ عن أبي جعفر عليه السلام قال: الغيب ما لم يكن والشهادة ما قد كان.

• أقول: وهو تفسير ببعض المصاديق، وقد أوردنا أحاديث عنهم عليه السلام في معنى اسم الجلالة والاسمين الرحمن الرحيم في ذيل تفسير البسملة من سورة الفاتحة.

ب. وفي التوحيد، بإسناده عن أبي بصير عن أبي جعفر عليه السلام في حديث: لم يزل حيا بلا حياة وملكا قادرا، قبل أن ينشئ شيئا وملكا جبارا، بعد إنشائه للكون.

• أقول: قوله: لم يزل حيا بلا حياة أي بلا حياة زائدة على الذات، وقوله: لم يزل ملكا قادرا قبل أن ينشئ شيئا إرجاع للملك وهو من صفات الفعل إلى القدرة وهي من صفات الذات ليستقيم تحققه قبل الإيجاد.

ج. وفي الكافي، بإسناده عن هشام الجواليقي قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله: ﴿سُبْحانَ اللهِ﴾ ما يعني به؟ قال: تنزيه.

د. وفي نهج البلاغة: والخالق لا بمعنى حركة ونصب.

• أقول: وقد أوردنا عدة من الروايات في الأسماء الحسنى وإحصائها في البحث عن الأسماء الحسنى في الجزء الثامن من الكتاب.

سورة الممتحنة

هذه السورة الكريمة تحتوي على [١١] مقطعاً، وهذا تعريف بمقاصدها، ومحتويات مقاطعها:

مقاصد السورة ومحتوياتها:

أ. تذكر السورة موالاة المؤمنين لأعداء الله من الكفار وموادتهم، وتشدد النهي عن ذلك تفتتح به وتختتم.

ب. وفيها شيء من أحكام النساء المهاجرات وبيعة المؤمنات.

ج. وكونها مدنية ظاهر.

مقاطع السورة ونظمها:

١. الآيات [١ ـ ٩] موالاة المؤمنين لأعداء الله من الكفار وموادتهم، وتشدد النهي عن ذلك.

٢. الآيات [١٠ ـ ١٣] تختتم، وفيها شيء من أحكام النساء المهاجرات وبيعة المؤمنات.

١. النهي عن موالاة أعداء الله وإلقاء المودة إليهم:

المقطع [١] من سورة الممتحنة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [الممتحنة: ١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ٢٢٦»:

١. ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِياءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ﴾:

أ. سياق الآيات يدل على أن بعض المؤمنين من المهاجرين كانوا يسرون الموادة إلى المشركين بمكة ليحموا بذلك من بقي من أرحامهم وأولادهم بمكة بعد خروجهم أنفسهم منها بالمهاجرة إلى المدينة فنزلت الآيات ونهاهم الله عن ذلك، ويتأيد بهذا ما ورد أن الآيات نزلت في حاطب بن أبي بلتعة أسر كتابا إلى المشركين بمكة يخبرهم فيه بعزم رسول الله ﷺ على الخروج إليها لفتحها، فعل ذلك ليكون يدا له عليهم يقي بها من كان بمكة من أرحامه وأولاده فأخبر الله بذلك نبيه ﷺ ونزلت، وستوافيك قصته في البحث

الروائي التالي إن شاء الله تعالى.

ب. فقوله: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِياءَ﴾ العدو معروف ويطلق على الواحد والكثير والمراد في الآية هو الكثير بقرينة قوله: ﴿أَوْلِياءَ﴾ و﴿إِلَيْهِمْ﴾ وغير ذلك، وهم المشركون بمكة، وكونهم عدوه من جهة اتخاذهم له شركاء يعبدونهم ولا يعبدون الله ويردون دعوته ويكذبون رسوله، وكونهم أعداء للمؤمنين لإيمانهم بالله وتفديتهم أموالهم وأنفسهم في سبيله فمن يعادي الله يعاديهم.

ج. وذكر عداوتهم للمؤمنين مع كفاية ذكر عداوتهم لله في سوق النهي لتأكيد التحذير والمنع كأنه قيل: من كان عدوا لله فهو عدو لكم فلا تتخذوه وليا.

٢. ﴿تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ﴾ بالمودة مفعول ﴿تُلْقُونَ﴾ والباء زائدة كما في قوله: ﴿وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥]، والمراد بإلقاء المودة إظهارها أو إيصالها، والجملة صفة أو حال من فاعل ﴿لا تَتَّخِذُوا﴾

٣. ﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِما جاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ﴾ هو الدين الحق الذي يصفه كتاب الله ويدعو إليه النبي ﷺ، والجملة حالية.

٤. ﴿يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللهِ رَبِّكُمْ﴾:

أ. الجملة حالية والمراد بإخراج الرسول وإخراجهم اضطرارهم الرسول والمؤمنين إلى الخروج من مكة والمهاجرة إلى المدينة، و﴿أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللهِ رَبِّكُمْ﴾ بتقدير اللام متعلق بيخرجون، والمعنى: يجبرون الرسول وإياكم على المهاجرة من مكة لإيمانكم بالله ربكم.

ب. وتوصيف الله بقوله: ﴿رَبِّكُمْ﴾ للإشارة إلى أنهم يؤاخذونهم على أمر حق مفروض ليس بجرم فإن إيمان الإنسان بربه مفروض عليه وليس من الجرم في شيء.

٥. ﴿إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهاداً فِي سَبِيلِي وَابْتِغاءَ مَرْضاتِي﴾:

أ. متعلق بقوله: ﴿لا تَتَّخِذُوا﴾ وجزاء الشرط محذوف يدل عليه المتعلق، و﴿جِهاداً﴾ مصدر مفعول له، و﴿ابْتِغاءَ﴾ بمعنى الطلب و(المرضاة) مصدر كالرضا، والمعنى: لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء إن كنتم هاجرتم للمجاهدة في سبيلي ولطلب رضاي.

ب. وتقييد النهي عن ولائهم واشتراطه بخروجهم للجهاد وابتغائهم مرضاته من باب اشتراط الحكم بأمر محقق الوقوع تأكيدا له وإيذانا بالملازمة بين الشرط والحكم كقول الوالد لولده: إن كنت ولدي فلا تفعل كذا.

٦. ﴿تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ﴾:

أ. أسررت إليه حديثا أي أفضيت إليه في خفية فمعنى ﴿تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ﴾ تطلعونهم على ما تسرون من مودتهم، على ما قاله الراغب، والإعلان خلاف الإخفاء، و﴿أَنَا أَعْلَمُ﴾، حال من فاعل ﴿تُسِرُّونَ﴾ و﴿أَعْلَمُ﴾ اسم تفضيل، واحتمل بعضهم أن يكون فعل المتكلم وحده من المضارع متعديا بالباء لأن العلم ربما يتعدى بها.

ب. وجملة: ﴿تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ﴾، استئناف بيانية كأنه قيل بعد استماع النهي السابق: ما ذا فعلنا فأجيب: تطلعونهم سرا على مودتكم لهم وأنا أعلم بما أخفيتم وما أظهرتم أي أنا أعلم بقولكم وفعلكم علما يستوي بالنسبة إليه إخفاؤكم وإظهاركم.

ج. ومنه يعلم أن قوله: ﴿بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ﴾ معا يفيدان معنى واحدا وهو استواء الإخفاء والإعلان عنده تعالى لإحاطته بما ظهر وما بطن فلا يرد أن ذكر ﴿بِمَا أَخْفَيْتُمْ﴾ يغني عن ذكر ﴿مَا أَعْلَنْتُمْ﴾ لأن العالم بما خفي عالم بما ظهر بطريق أولى.

٧. ﴿وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ الإشارة بذلك إلى إسرار المودة إليهم وهو الموالاة، و﴿سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ من إضافة الصفة إلى الموصوف أي السبيل السوي والطريق المستقيم وهو مفعول ﴿ضَلَّ﴾ أو منصوب بنزع الخافض والتقدير فقد ضل عن سواء السبيل، والسبيل سبيل الله تعالى.

٨. وضع هنا مبحثا حول [تحقيق معنى قصة حاطب بن أبي بلتعة ودلالة آيات الممتحنة على النهي عن ولاية الكفار]،خلاصته:

أ. بيان أن آيات سورة الممتحنة نزلت في شأن حاطب بن أبي بلتعة، وأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فالنهي عن ولاية الكفار يشمل جميع المؤمنين.

ب. إثبات أن قصة حاطب لا تدل على أن البدريين معصومون أو مرفوع عنهم القلم، بل العفو عنه كان لسبب خاص، وهو أنه بدري، مع بقاء التكليف والأحكام العامة.

ج. الرد على ما توهم من أن قوله: (اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غُفِرَ لَكُمْ) يدل على الإباحة العامة، وبيان أن المراد به أن ما صدر منهم مغفور لهم، لا أن لهم أن يفعلوا ما يشاؤون في المستقبل.

د. توضيح أن نسبة فعل البعض إلى الكل في الخطابات القرآنية أمر شائع، ولا يدل على أن البعض مبرأ من التكليف، بل هو من باب التغليب والوعظ العام.

هـ. بيان أن آيات الممتحنة نزلت في حاطب، ومع ذلك وجهت الخطاب والوعيد إلى جميع المؤمنين، مما يبطل دعوى رفع التكليف عن البدريين.

و. الرد على من زعم أن مغفرة الذنوب تشمل الكبائر كالشرك والقتل، وبيان أن التوبة شرط في المغفرة، ولا مجال للعفو عن الكبائر مع الإصرار.

٢. عداوة الكفار للمؤمنين وعدم نفع الأرحام يوم القيامة:

المقطع [٢] من سورة الممتحنة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الممتحنة: ٢-٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ٢٢٨»:

١. ﴿إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْداءً﴾:

أ. قال الراغب: (الثقف، بالفتح فالسكون، الحذق في إدراك الشيء وفعله، قال: ويقال: ثقفت كذا إذا أدركته ببصرك لحذق في النظر ثم يتجوز به فيستعمل في الإدراك وإن لم يكن معه ثقافة)، وفسره غيره بالظفر ولعله بمعونة مناسبة المقام، والمعنيان متقاربان.

ب. والآية مسوقة لبيان أنه لا ينفعهم الإسرار بالمودة للمشركين في جلب محبتهم ورفع عداوتهم شيئا وأن المشركين على الرغم من إلقاء المودة إليهم أن يدركوهم ويظفروا بهم يكونوا لهم أعداء من دون أن يتغير ما في قلوبهم من العداوة.

٢. ﴿وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾:

أ. بمنزلة عطف التفسير لقوله: ﴿يَكُونُوا لَكُمْ أَعْداءً﴾ وبسط الأيدي بالسوء كناية عن القتل والسبي وسائر أنحاء التعذيب وبسط الألسن بالسوء كناية عن السب والشتم.

ب. والظاهر أن قوله: ﴿وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ عطف على الجزاء والماضي بمعنى المستقبل كما

يقتضيه الشرط والجزاء، والمعنى: أنهم يبسطون إليكم الأيدي والألسن بالسوء ويودون بذلك لو تكفرون كما كانوا يفتنون المؤمنين بمكة ويعذبونهم يودون بذلك أن يرتدوا عن دينهم، والله أعلم.

٣. ﴿لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحامُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ﴾:

أ. دفع لما ربما يمكن أن يتوهم عذرا لإلقاء المودة إليهم إن في ذلك صيانة لأرحامهم وأولادهم الذين تركوهم بمكة بين المشركين من أذاهم.

ب. والجواب أن أمامكم يوما تجازون فيه على معصيتكم وطالح عملكم ومنه موالاة الكفار ولا ينفعكم اليوم أرحامكم ولا أولادكم الذين قدمتم صيانتهم من أذى الكفار على صيانة أنفسكم من عذاب الله بترك موالاة الكفار.

٤. ﴿يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ﴾:

أ. أي يفصل الله يوم القيامة بينكم بتقطع الأسباب الدنيوية كما قال تعالى: ﴿فَإِذا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلا أَنْسابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ﴾ [المؤمنون: ١٠١]، وذلك أن القرابة وهي انتهاء إنسانين أو أكثر إلى رحم واحدة إنما تؤثر آثارها من الرحمة والمودة والألفة والمعاونة والمعاضدة والعصبية والخدمة وغير ذلك من الآثار في ظرف الحياة الاجتماعية التي تسوق الإنسان إليه حاجته إليها بالطبع بحسب الآراء والعقائد الاعتبارية التي أوجدها فيه فهمه الاجتماعي، ولا خبر عن هذه الآراء في الخارج عن ظرف الحياة الاجتماعية.

ب. وإذا برزت الحقائق وارتفع الحجاب وانكشف الغطاء يوم القيامة ضلت عن الإنسان هذه الآراء والمزاعم وانقطعت روابط الاستقلال بين الأسباب ومسبباتها كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ ما كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [الأنعام: ٩٤]، وقال: ﴿وَرَأَوُا الْعَذابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبابُ﴾ [البقرة: ١٦٦]

ج. فيومئذ تتقطع رابطة الأنساب ولا ينتفع ذو قرابة من قرابته شيئا فلا ينبغي للإنسان أن يخون الله ورسوله بموالاة أعداء الدين لأجل أرحامه وأولاده فليسوا يغنونه عن الله يومئذ.

د. وقيل: المراد أنه يفرق الله بينكم يوم القيامة بما فيه من الهول الموجب لفرار كل منكم من الآخر حسبما نطق به قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَصاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٧]، والوجه السابق أنسب للمقام.

هـ. وقيل: المراد أنه يميز بعضكم يومئذ من بعض فيدخل أهل الإيمان والطاعة الجنة، وأهل الكفر والمعصية النار ولا يرى القريب المؤمن في الجنة قريبه الكافر في النار.

• وفيه أنه وكان لا بأس به في نفسه لكنه غير مناسب للمقام إذ لا دلالة في المقام على كفر أرحامهم وأولادهم.

و. وقيل: المراد بالفصل فصل القضاء والمعنى: أن الله يقضي بينكم يوم القيامة.

• وفيه ما في سابقه من عدم المناسبة للمورد فإن فصل القضاء إنما يناسب الاختلاف كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [السجدة: ٢٠]، ولا ارتباط في الآية بذلك.

٥. ﴿وَاللهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ متمم لقوله: ﴿لَنْ تَنْفَعَكُمْ﴾ كالمؤكد له والمعنى: لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم يوم القيامة في رفع تبعة هذه الخيانة وأمثالها والله بما تعملون بصير لا يخفى عليه ما هي هذه الخيانة فيؤاخذكم عليها لا محالة.

٣. التأسي بإبراهيم ومن معه في البراءة من الكفر والتوكل على الله:

المقطع [٣] من سورة الممتحنة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الممتحنة: ٤-٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ٢٣٠»:

١. ﴿قَدْ كانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْراهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ الخطاب للمؤمنين، والأسوة الاتباع والاقتداء، وفي قوله: ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ بظاهره دلالة على أنه كان معه من آمن به غير زوجته ولوط.

٢. ﴿إِذْ قالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ أي إنا بريئون منكم ومن أصنامكم بيان لما فيه الأسطورة والاقتداء.

٣. ﴿كَفَرْنا بِكُمْ وَبَدا بَيْنَنا وَبَيْنَكُمُ الْعَداوَةُ وَالْبَغْضاءُ أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللهِ وَحْدَهُ﴾:

أ. بيان لمعنى البراءة بأثرها وهو الكفر بهم وعداوتهم ما داموا مشركين حتى يوحدوا الله سبحانه.

ب. والمراد بالكفر بهم الكفر بشركهم بدليل قوله: ﴿حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللهِ وَحْدَهُ﴾، والكفر بشركهم مخالفتهم فيه عملا كما أن العداوة بينونة ومخالفة قلبا.

ج. فقد فسروا براءتهم منهم بأمور ثلاثة: مخالفتهم لشركهم عملا، والعداوة والبغضاء بينهم قلبا، واستمرار ذلك ما داموا على شركهم إلا أن يؤمنوا بالله وحده.

٤. ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْراهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَما أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللهِ مِنْ شَيْءٍ﴾:

أ. استثناء مما تدل عليه الجمل المتقدمة أن إبراهيم والذين معه تبرءوا من قومهم المشركين قولا مطلقا، وقطعوا أي رابطة تربطهم بالقوم وتصل بينهم إلا ما قال إبراهيم لأبيه: ﴿لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾

ب. ولم يكن قوله: ﴿لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ توليا منه بل وعدا وعده إياه رجاء أن يتوب عن الشرك ويؤمن بالله وحده كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَما كانَ اسْتِغْفارُ إِبْراهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَها إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ للهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ [التوبة: ١١٤]، حيث يفيد أنه عليه السلام إنما وعده لأنه لم يتبين له بعد أنه عدو لله راسخ في عداوته ثابت في شركه فكان يرجو أن يرجع عن شركه ويطمع في أن يتوب ويؤمن فلما تبين له رسوخ عداوته ويئس من إيمانه تبرأ منه.

ج. على أن قوله تعالى في قصة محاجته أباه في سورة مريم: ﴿قالَ سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كانَ بِي حَفِيًّا وَأَعْتَزِلُكُمْ وَما تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ [مريم: ٤٨]، يتضمن وعده أباه بالاستغفار وإخباره بالاعتزال ولو كان وعده الاستغفار توليا منه لأبيه لكان من الحري أن يقول: واعتزل القوم، لا أن يقول: وأعتزلكم فيدخل أباه فيمن يعتزلهم وليس الاعتزال إلا التبري.

د. فالاستثناء استثناء متصل من أنهم لم يكلموا قومهم إلا بالتبري والمحصل من المعنى: أنهم إنما ألقوا إليهم القول بالتبري إلا قول إبراهيم لأبيه: لأستغفرن لك فلم يكن تبريا ولا توليا بل وعدا وعده أباه رجاء أن يؤمن بالله.

هـ. وهاهنا شيء وهو أن مؤدى آية التوبة ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ للهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ أن تبريه الجازم إنما كان بعد الوعد وبعد تبين عداوته لله، وقوله تعالى في الآية التي نحن فيها: ﴿إِذْ قالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآؤُا مِنْكُمْ﴾ إخبار عن تبريهم الجازم القاطع فيكون ما وقع في الاستثناء من قول إبراهيم لأبيه وعدا واقعا قبل تبريه الجازم ومن غير جنس المستثنى منه فيكون الاستثناء منقطعا لا متصلا.

و. وعلى تقدير كون الاستثناء منقطعا يجوز أن يكون الاستثناء من قوله: ﴿قَدْ كانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْراهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ بما أنه مقيد بقوله: ﴿إِذْ قالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآؤُا مِنْكُمْ﴾، والمعنى: قد كان لكم اقتداء حسن بتبري إبراهيم والذين معه من قومهم إلا أن إبراهيم قال لأبيه كذا وكذا وعدا.

ز. وأما على تقدير كون الاستثناء متصلا فالوجه ما تقدم، وأما كون المستثنى منه هو قوله: ﴿قَدْ كانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْراهِيمَ﴾، والمعنى: لكم في إبراهيم أسوة في جميع خصاله إلا في قوله لأبيه: ﴿لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ فلا أسوة فيه.

• ففيه أن قوله: ﴿لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْراهِيمَ﴾، غير مسوق لإيجاب التأسي بإبراهيم عليه السلام في جميع خصاله حتى يكون الوعد بالاستغفار أو نفس الاستغفار، وذلك من خصاله، مستثنى منها بل إنما سيق لإيجاب التأسي به في تبريه من قومه المشركين، والوعد بالاستغفار رجاء للتوبة والإيمان ليس من التبري وإن كان ليس توليا أيضا.

٥. ﴿وَما أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللهِ مِنْ شَيْءٍ﴾:

أ. تتمة قول إبراهيم عليه السلام، وهو بيان لحقيقة الأمر من أن سؤاله المغفرة وطلبها من الله ليس من نوع الطلب الذي يملك فيه الطالب من المطلوب منه ما يطلبه، وإنما هو سؤال يدعو إليه فقر العبودية وذلتها قبال غنى الربوبية وعزتها فله تعالى أن يقبل بوجهه الكريم فيستجيب ويرحم، وله أن يعرض ويمسك الرحمة فإنه لا يملك أحد منه تعالى شيئا وهو المالك لكل شيء، قال تعالى: ﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللهِ شَيْئاً﴾ [المائدة: ١٧]

ب. وبالجملة قوله: ﴿ما أَمْلِكُ﴾، نوع اعتراف بالعجز استدراكا لما يستشعر من قوله: ﴿لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ من شائبة إثبات القدرة لنفسه نظير قول شعيب عليه السلام: ﴿وَما تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللهِ﴾ استدراكا لما يشعر به قوله لقومه: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾ [هود: ٨٨]، من إثبات القوة والاستطاعة لنفسه بالأصالة والاستقلال.

٦. ﴿رَبَّنا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنا وَإِلَيْكَ أَنَبْنا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾:

أ. من تمام القول المنقول عن إبراهيم والذين معه المندوب إلى التأسي بهم فيه، وهو دعاء منهم لربهم وابتهال إليه إثر ما تبرءوا من قومهم ذاك التبري العنيف ليحفظهم من تبعاته ويغفر لهم فلا يخيبهم

في إيمانهم.

ب. وقد افتتحوا دعاءهم بتقدمة يذكرون فيها حالهم فيما هم فيه من التبري من أعداء الله فقالوا: ﴿رَبَّنا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنا وَإِلَيْكَ أَنَبْنا﴾ يعنون به أنا كنا في موقف من الحياة تتمكن فيه أنفسنا وندبر فيه أمورنا أما أنفسنا فأنبنا ورجعنا بها إليك وهو الإنابة، وأما أمورنا التي كان علينا تدبيرها فتركناها لك وجعلنا مشيتك مكان مشيتنا فأنت وكيلنا فيها تدبرها بما تشاء وكيف تشاء وهو التوكل.

ج. ثم قالوا: ﴿وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ يعنون به أن مصير كل شيء من فعل أو فاعل إليك فقد جرينا في توكلنا عليك وإنابتنا إليك مجرى ما عليه حقيقة الأمر من مصير كل شيء إليك حيث هاجرنا بأنفسنا إليك وتركنا تدبير أمورنا لك.

٧. ﴿رَبَّنا لا تَجْعَلْنا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنا رَبَّنا﴾:

أ. متن دعائهم يسألونه تعالى أن يعيذهم من تبعة تبريهم من الكفار ويغفر لهم.

ب. والفتنة ما يمتحن به، والمراد بجعلهم فتنة للذين كفروا تسليط الكفار عليهم ليمتحنهم فيخرجوا ما في وسعهم من الفساد فيؤذوهم بأنواع الأذى أن آمنوا بالله ورفضوا آلهتهم وتبرءوا منهم ومما يعبدون.

ج. وقد كرروا نداءه تعالى، ربنا، في دعائهم مرة بعد مرة لإثارة الرحمة الإلهية.

٨. ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾:

أ. أي غالب غير مغلوب متقن لأفعاله لا يعجز أن يستجيب دعاءهم فيحفظهم من كيد أعدائه ويعلم بأي طريق يحفظ.

ب. وللمفسرين في تفسير الآيتين أنظار مختلفة أخرى أغمضنا عن إيرادها رعاية للاختصار من أرادها فليراجع المطولات.

٩. أحاديث وآثار:

أ. في الكافي، بإسناده عن سعيد الأعرج عن أبي عبد الله عليه السلام قال: من أوثق عرى الإيمان أن تحب في الله وتبغض في الله وتعطي في الله وتمنع في الله جل وعز.

ب. وفي تفسير القمي، بإسناده إلى إسحاق بن عمار عن أبي عبد الله عليه السلام قال: كل من لم

يحب على الدين ولم يبغض على الدين فلا دين له.

٤. إبراهيم ومن معه أسوة الحسنة لمن يرجو الله واليوم الآخر:

المقطع [٤] من سورة الممتحنة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [الممتحنة: ٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ٢٣٣»:

١. ﴿لَقَدْ كانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كانَ يَرْجُوا اللهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾:

أ. تكرار حديث الأسوة لتأكيد الإيجاب ولبيان أن هذه الأسوة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر، وأيضا أنهم كما يتأسى بهم في تبريهم من الكفار كذلك يتأسى بهم في دعائهم وابتهالهم.

ب. والظاهر أن المراد برجائه تعالى رجاء ثوابه بالإيمان به وبرجاء اليوم الآخر رجاء ما وعد الله وأعد للمؤمنين من الثواب، وهو كناية عن الإيمان.

٢. ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ استغناء منه تعالى عن امتثالهم لأمره بتبريهم من الكفار وأنهم هم المتفعون بذلك والله سبحانه غني في ذاته عنهم وعن طاعتهم حميد فيما يأمرهم وينهاهم إذ ليس في ذلك إلا صلاح حالهم وسعادة حياتهم.

٥. الرجاء في جعل المودة بين المؤمنين وبين من عادوهم:

المقطع [٥] من سورة الممتحنة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الممتحنة: ٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ٢٣٣»:

١. ﴿عَسَى اللهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً وَاللهُ قَدِيرٌ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾:

أ. ضمير ﴿مِنْهُمْ﴾ للكفار الذين أمروا بمعاداتهم وهم كفار مكة، والمراد بجعل المودة بين المؤمنين وبينهم جعلها بتوفيقهم للإسلام كما وقع ذلك لما فتح الله لهم مكة، وليس المراد به نسخ حكم المعاداة والتبري.

ب. والمعنى: مرجو من الله أن يجعل بينكم معشر المؤمنين وبين الذين عاديتم من الكفار وهم كفار مكة مودة بتوفيقهم للإسلام فتنقلب المعاداة مودة والله قدير والله غفور لذنوب عباده رحيم بهم إذا تابوا

وأسلموا فعلى المؤمنين أن يرجوا من الله أن يبدل معاداتهم مودة بقدرته ومغفرته ورحمته.

٦. الأمر بالبر والقسط مع غير المعتدين:

المقطع [٦] من سورة الممتحنة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ٢٣٣»:

١. ﴿لا يَنْهاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ﴾:

أ. في هذه الآية والتي تتلوها توضيح للنهي الوارد في أول السورة، والمراد بالذين لم يقاتلوا المؤمنين في الدين ولم يخرجوهم غير أهل مكة ممن لم يقاتلوهم ولم يخرجوهم من ديارهم من المشركين من أهل المعاهدة، والبر والإحسان، والأقساط المعاملة بالعدل، و﴿أَنْ تَبَرُّوهُمْ﴾ بدل من ﴿الَّذِينَ﴾، وقوله: ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ تعليل لقوله: ﴿لا يَنْهاكُمُ اللهُ﴾

ب. والمعنى: لا ينهاكم الله بقوله: ﴿لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِياءَ﴾ عن أن تحسنوا وتعاملوا بالعدل الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم لأن ذلك منكم أقساط والله يحب المقسطين.

ج. قيل: إن الآية منسوخة بقوله: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥]

• وفيه أن الآية التي نحن فيها لا تشمل بإطلاقها إلا أهل الذمة وأهل المعاهدة وأما أهل الحرب فلا، وآية التوبة إنما تشمل أهل الحرب من المشركين دون أهل المعاهدة فكيف تنسخ ما لا يزاحمها في الدلالة.

٢. أحاديث وآثار:

أ. أخرج البخاري وابن المنذر والنحاس والبيهقي في شعب الإيمان عن أسماء بنت أبي بكر قالت: أتتني أمي راغبة وهي مشركة في عهد قريش، إذ عاهدوا رسول الله ﷺ فسألت النبي ﷺ أأصلها؟ فأنزل الله ﴿لا يَنْهاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ﴾ فقال: نعم صلي.

ب. أخرج أبو داود في تاريخه وابن المنذر عن قتادة: ﴿لا يَنْهاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ﴾ نسختها ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾

• أقول: قد عرفت الكلام فيه.

٧. النهي عن موالاة الظالمين بأصنافهم المختلفة:

المقطع [٧] من سورة الممتحنة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الممتحنة: ٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ٢٣٤»:

١. ﴿إِنَّما يَنْهاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ قاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيارِكُمْ وَظاهَرُوا عَلى إِخْراجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ﴾، المراد بالذين قاتلوكم، مشركو مكة، والمظاهرة على الإخراج المعاونة والمعاضدة عليه، وقوله: ﴿أَنْ تَوَلَّوْهُمْ﴾ بدل من ﴿الَّذِينَ قاتَلُوكُمْ﴾

٢. ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ قصر إفراد أي المتولون لمشركي مكة ومن ظاهرهم على المسلمين هم الظالمون المتمردون عن النهي دون مطلق المتولين للكفار أو تأكيد للنهي عن توليهم.

٨. حكم المهاجرات المؤمنات وامتحانهن وعدم ردهن إلى الكفار:

المقطع [٨] من سورة الممتحنة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُمْ مَا أَنْفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنْفَقُوا ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الممتحنة: ١٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ٢٤٠»:

١. ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا جاءَكُمُ الْمُؤْمِناتُ مُهاجِراتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ﴾:

أ. سياق الآية يعطي أنها نزلت بعد صلح الحديبية، وكان في العهد المكتوب بين النبي ﷺ وبين أهل مكة أنه إن لحق من أهل مكة رجل بالمسلمين ردوه إليهم وإن لحق من المسلمين رجل بأهل مكة لم يردوه إليهم ثم إن بعض نساء المشركين أسلمت وهاجرت إلى المدينة فجاء زوجها يستردها فسأل النبي ﷺ أن يردها إليه فأجابه النبي ﷺ أن الذي شرطوه في العهد رد الرجل دون النساء ولم يردها إليهم وأعطاه ما أنفق عليها من المهر وهو الذي تدل عليه الآية مع ما يناسب ذلك من أحكامهن.

ب. فقوله: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا جاءَكُمُ الْمُؤْمِناتُ مُهاجِراتٍ﴾ سماهن مؤمنات قبل امتحانهن

والعلم بإيمانهن لتظاهرهن بذلك.

٢. ﴿فَامْتَحِنُوهُنَ﴾ أي اختبروا إيمانهن بما يظهر به ذلك من شهادة وحلف يفيد العلم والوثوق، وفي قوله: ﴿اللهُ أَعْلَمُ بِإِيمانِهِنَ﴾ إشارة إلى أنه يجزي في ذلك العلم العادي والوثوق دون اليقين بحقيقة الإيمان الذي هو تعالى أعلم به علما لا يتخلف عنه معلومه.

٣. ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِناتٍ فَلا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ﴾ ذكرهم بوصف الإيمان للإشارة إلى أنه السبب للحكم وانقطاع علقة الزوجية بين المؤمنة والكافر.

٤. ﴿لا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَ﴾ مجموع الجملتين كناية عن انقطاع علقة الزوجية، وليس من توجيه الحرمة إليهن وإليهم في شيء.

٥. ﴿وَآتُوهُمْ ما أَنْفَقُوا﴾ أي أعطوا الزوج الكافر ما أنفق عليها من المهر.

٦. ﴿وَلا جُناحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَ﴾ رفع المانع من نكاح المؤمنات المهاجرات إذا أوتين أجورهن والأجر المهر.

٧. ﴿وَلا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوافِرِ﴾:

أ. العصم جمع عصمة وهي النكاح الدائم يعصم المرأة ويحصنها، وإمساك العصمة إبقاء الرجل، بعد ما أسلم، زوجته الكافرة على زوجيتها فعليه بعد ما أسلم أن يخلي عن سبيل زوجته الكافرة سواء كانت مشركة أو كتابية.

ب. وقد تقدم في تفسير قوله: ﴿وَلا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ﴾ [البقرة: ٢٢١]، وقوله: ﴿وَالْمُحْصَناتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ [المائدة: ٥]، أن لا نسخ بين الآيتين وبين الآية التي نحن فيها.

٨. ﴿وَسْئَلُوا ما أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْئَلُوا ما أَنْفَقُوا﴾ ضمير الجمع في ﴿وَسْئَلُوا﴾ للمؤمنين وفي ﴿لْيَسْئَلُوا﴾ للكفار أي إن لحقت امرأة منكم بالكفار فاسألوهم ما أنفقتم لها من مهر ولهم أن يسألوا مهر من لحقت بكم من نسائهم.

٩. ثم تمم الآية بالإشارة إلى أن ما تضمنته الآية حكم الله الذي شرع لهم فقال: ﴿ذلِكُمْ حُكْمُ اللهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾

١٠. أحاديث وآثار:

أ. في المجمع: عن ابن عباس: صالح رسول الله ﷺ بالحديبية مشركي مكة على أن من أتاه من أهل مكة رده عليهم، ومن أتى أهل مكة من أصحاب رسول الله ﷺ فهو لهم ولم يردوه عليه وكتبوا بذلك كتابا وختموا عليه، فجاءت سبيعة بنت الحارث الأسلمية مسلمة بعد الفراغ من الكتاب والنبي ﷺ بالحديبية فأقبل زوجها مسافر من بني مخزوم وقال مقاتل: هو صيفي بن الراهب في طلبها وكان كافرا فقال: يا محمد اردد علي امرأتي فإنك قد شرطت لنا أن ترد علينا من أتاك منا وهذه طينة الكتاب لم تجف بعد فنزلت الآية ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا جاءَكُمُ الْمُؤْمِناتُ مُهاجِراتٍ﴾ من دار الكفر إلى دار الإسلام ﴿فَامْتَحِنُوهُنَ﴾، قال ابن عباس: امتحانهن أن يستحلفن ما خرجت من بغض زوج، ولا رغبة عن أرض إلى أرض، ولا التماس دنيا، وما خرجت إلا حبا لله ولرسوله فاستحلفها رسول الله ﷺ ما خرجت بغضا لزوجها، ولا عشقا لرجل منا، وما خرجت إلا رغبة في الإسلام فحلفت بالله الذي لا إله إلا هو على ذلك فأعطى رسول الله ﷺ زوجها مهرها وما أنفق عليها ولم يردها عليه فتزوجها عمر بن الخطاب، فكان رسول الله ﷺ يرد من جاءه من الرجال، ويحبس من جاءه من النساء إذا امتحن ويعطي أزواجهن مهورهن.

ب. قال: قال الزهري: ولما نزلت هذه الآية وفيها قوله: ﴿وَلا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوافِرِ﴾ طلق عمر بن الخطاب امرأتين كانتا له بمكة مشركتين: قريبة بنت أبي أمية بن المغيرة فتزوجها بعده معاوية بن أبي سفيان وهما على شركهما بمكة، والأخرى أم كلثوم بنت عمرو بن جرول الخزاعية أم عبد الله بن عمر فتزوجها أبو جهم بن حذاقة بن غانم رجل من قومها وهما على شركهما، وكانت عند طلحة بن عبيد الله أروى بنت ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب ففرق بينهما الإسلام حين نهى القرآن عن التمسك بعصم الكوافر، وكان طلحة قد هاجر وهي بمكة عند قومها كافرة ثم تزوجها في الإسلام بعد طلحة خالد بن سعيد بن العاص بن أمية وكانت ممن فرت إلى رسول الله ﷺ من نساء الكفار فحبسها وزوجها خالدا، وأمية بنت بشر كانت عند الثابت بن الدحداحة ففرت منه، وهو يومئذ كافر، إلى رسول الله ﷺ فزوجها رسول الله ﷺ سهل بن حنيف فولدت عبد الله بن سهل.

ج. قال: قال الشعبي: وكانت زينب بنت رسول الله ﷺ امرأة أبي العاص بن الربيع فأسلمت ولحقت بالنبي ﷺ في المدينة وأقام أبو العاص مشركا بمكة ثم أتى المدينة فأمنته زينب ثم أسلم فردها عليه

رسول الله ﷺ.

د. قال: وقال الجبائي: لم يدخل في شرط صلح الحديبية إلا رد الرجال دون النساء ولم يجز للنساء ذكر، وإن أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط جاءت مسلمة مهاجرة من مكة فجاء أخواها إلى المدينة فسألا رسول الله ﷺ ردها عليهما فقال رسول الله ﷺ: أن الشرط بيننا في الرجال لا في النساء فلم يردها عليهما.

• أقول: وهذه المعاني مروية في روايات أخرى من طرق أهل السنة أورد كثيرا منها السيوطي في الدر المنثور، وروى امتحان المهاجرات كما تقدم ثم عدم ردهن على الكفار وإعطاءهم المهر القمي في تفسيره.

هـ. وفيه، وقال الزهري: فكان جميع من لحق بالمشركين من نساء المؤمنين المهاجرين راجعات عن الإسلام ست نسوة: أم الحكم بنت أبي سفيان كانت تحت عياض بن شداد الفهري، وفاطمة بنت أبي أمية بن المغيرة أخت أم سلمة كانت تحت عمر بن الخطاب فلما أراد عمر أن يهاجر أبت وارتدت، وبروع بنت عقبة كانت تحت شماس بن عثمان، وعبدة بنت عبد العزى بن فضلة وزوجها عمرو بن عبد ود، وهند بنت أبي جهل بن هشام كانت تحت هشام بن العاص بن وائل، وكلثوم بنت جرول كانت تحت عمر فأعطاهم رسول الله ﷺ مهور نسائهم من الغنيمة.

و. وفي الكافي بإسناده عن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام قال: لا ينبغي نكاح أهل الكتاب قلت: جعلت فداك وأين تحريمه؟ قال: قوله: ﴿وَلا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوافِرِ﴾

• أقول: والرواية مبنية على عموم الإمساك بالعصم للنكاح الدائم إحداثا وإبقاء، وفيه، بإسناده أيضا إلى زرارة عن أبي جعفر عليه السلام: عن قول الله تعالى: ﴿وَالْمُحْصَناتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ فقال: هذه منسوخة بقوله: ﴿وَلا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوافِرِ﴾

• أقول: ولعل المراد بنسخ آية الإمساك بالعصم لآية حلية محصنات أهل الكتاب اختصاص آية الممتحنة بالنكاح الدائم وتخصص آية المائدة بالنسبة إلى النكاح الدائم بها، واختصاص ما تدل عليه من الحلية بالنكاح المنقطع، وليس المراد به النسخ المصطلح كيف؟ وآية الممتحنة سابقة نزولا على آية المائدة ولا وجه لنسخ السابق للاحق، على أن آية المائدة مسوقة سوق الامتنان، وما هذا شأنه يأبى النسخ.

ز. وفي المجمع: في قوله تعالى: ﴿وَالْمُحْصَناتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ﴾ وروى أبو الجارود عن

أبي جعفر عليه السلام: أنه منسوخ بقوله: ﴿وَلا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكاتِ حَتَّى يُؤْمِنَ﴾ وبقوله: ﴿وَلا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوافِرِ﴾

• أقول: ويضعف الرواية، مضافا إلى ضعف راويها، أن قوله: ﴿وَلا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكاتِ﴾، إنما يشمل المشركات من الوثنيين، وقوله: ﴿وَالْمُحْصَناتُ﴾، يفيد حلية نكاح أهل الكتاب فلا تدافع بين الآيتين حتى تنسخ إحداهما الأخرى، وقد تقدم آنفا الكلام في نسخ آية الممتحنة لقوله: ﴿وَالْمُحْصَناتُ﴾، وقد تقدم في تفسير قوله: ﴿وَالْمُحْصَناتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ [المائدة: ٥]، ما ينفع في هذا المقام.

٩. حكم ما فات من أزواج المؤمنين إلى الكفار:

المقطع [٩] من سورة الممتحنة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا وَاتَّقُوا اللهَّ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ [الممتحنة: ١١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ٢٤١»:

١. ﴿وَإِنْ فاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْواجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْواجُهُمْ مِثْلَ ما أَنْفَقُوا﴾:

أ. قال الراغب: (الفوت بعد الشيء عن الإنسان بحيث يتعذر إدراكه، قال تعالى: ﴿وَإِنْ فاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْواجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ﴾)

ب. وفسر المعاقبة والعقاب بمعنى الوصول والانتهاء إلى عقبى الشيء، والمراد عاقبتم من الكفار أي أصبتم منهم غنيمة وهي عقبى الغزو، وقيل: عاقب بمعنى عقب، وقيل: عاقب مأخوذ من العقبة بمعنى النوبة.

ج. والأقرب أن يكون المراد بالشيء المهر و﴿مِنْ﴾ في ﴿مِنْ أَزْواجِكُمْ﴾ لابتداء الغاية و﴿إِلَى الْكُفَّارِ﴾ متعلق بقوله: ﴿فاتَكُمْ﴾ والمراد بالذين ذهبت أزواجهم، بعض المؤمنين وإليهم يعود ضمير ﴿أَنْفَقُوا﴾

د. والمعنى: وإن ذهب وانفلت منكم إلى الكفار مهر من أزواجكم بلحوقهن بهم وعدم ردهم ما أنفقتم من المهر إليكم فأصبتم منهم بالغزو غنيمة فأعطوا المؤمنين الذين ذهبت أزواجهم إليهم مما أصبتم من الغنيمة مثل ما أنفقوا من المهر.

هـ. وفسرت الآية بوجوه أخرى بعيدة عن الفهم أغمضنا عنها.

٢. ﴿وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ أمر بالتقوى، وتوصيفه تعالى بالموصول والصلة لتعليل الحكم فإن من مقتضى الإيمان بالله تقواه.

٣. أحاديث وآثار: في تفسير القمي، في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام: ﴿وَإِنْ فاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْواجِكُمْ﴾ فلحقن بالكفار من أهل عهدكم، فاسألوهم صداقها، وإن لحقن بكم من نسائهم شيء، فأعطوهم صداقها ذلكم حكم الله يحكم بينكم.

• أقول: ظاهره تفسير ﴿شَيْءٌ﴾ بالمرأة.

١٠. شروط مبايعة النبي للمؤمنات والاستغفار لهن:

المقطع [١٠] من سورة الممتحنة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الممتحنة: ١٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ٢٤٢»:

١. ﴿يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذا جاءَكَ الْمُؤْمِناتُ يُبايِعْنَكَ﴾:

أ. تتضمن الآية حكم بيعة النساء المؤمنات للنبي ﷺ، وقد شرطت عليهن في ﴿عَلَى أَنْ لا يُشْرِكْنَ﴾، أمورا منها ما هو مشترك بين الصنفين: الرجال والنساء كالتحرز من الشرك ومن معصية الرسول في معروف ومنها ما هو أمس بهن من حيث إن تدبير المنزل بحسب الطبع إليهن وهن السبيل إلى حفظ عفة البيت والحصول على الأنسال وطهارة مواليدهم، وهي التجنب من السرقة والزنا وقتل الأولاد وإلحاق غير أولاد أزواجهن بهم، وإن كانت هذه الأمور بوجه من المشتركات.

ب. فقوله: ﴿يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذا جاءَكَ الْمُؤْمِناتُ يُبايِعْنَكَ﴾ شرط جوابه قوله: ﴿فَبايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللهَ﴾

٢. ﴿عَلى أَنْ لا يُشْرِكْنَ بِاللهِ شَيْئاً﴾ أي من الأصنام والأوثان والأرباب، وهذا شرط لا غنى عنه لإنسان في حال.

٣. ﴿وَلا يَسْرِقْنَ﴾ أي لا من أزواجهن ولا من غيرهم وخاصة من أزواجهن كما يفيده السياق،

وقوله: ﴿وَلا يَزْنِينَ﴾ أي باتخاذ الأخدان وغير ذلك وقوله: ﴿وَلا يَقْتُلْنَ أَوْلادَهُنَ﴾ بالوأد وغيره وإسقاط الأجنة.

٤. ﴿وَلا يَأْتِينَ بِبُهْتانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَ﴾ وذلك بأن يحملن من الزنا ثم يضعنه وينسبنه إلى أزواجهن فإلحاقهن الولد كذلك بأزواجهن ونسبته إليهم كذبا بهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن لأن الولد إذا وضعته أمه سقط بين يديها ورجليها، ولا يغني عن هذا الشرط شرط الاجتناب عن الزنا لأنهما متغايران وكل مستقل بالنهي والتحريم.

٥. ﴿وَلا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾:

أ. نسب المعصية إلى النبي ﷺ دون الله مع أنها تنتهي إليه تعالى لأن المراد أن لا يتخلفن بالمعصية عن السنة التي يستنها النبي ﷺ وينفذها في المجتمع الإسلامي فيكون ما سنه هو المعروف عند المسلمين وفي المجتمع الإسلامي.

ب. ومن هنا يظهر أن المعصية في المعروف أعم من ترك المعروف كترك الصلاة والزكاة وفعل المنكر كتبرجهن تبرج الجاهلية الأولى.

ج. وفي قوله: ﴿إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ بيان لمقتضى المغفرة وتقوية للرجاء.

٦. أحاديث وآثار:

أ. في الكافي، بإسناده عن أبان عن أبي عبد الله عليه السلام قال: لما فتح رسول الله ﷺ مكة بايع الرجال، ثم جاءت النساء يبايعنه فأنزل الله عز وجل: ﴿يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذا جاءَكَ الْمُؤْمِناتُ يُبايِعْنَكَ﴾، قالت هند: أما الولد فقد ربيناهم صغارا وقتلتهم كبارا، وقالت أم حكيم بنت الحارث بن هشام، وكانت عند عكرمة بن أبي جهل: يا رسول الله ما ذاك المعروف الذي أمرنا الله، أن لا نعصيك فيه؟ قال: لا تلطمن خدا، ولا تخمشن وجها، ولا تنتفن شعرا، ولا تشققن جيبا، ولا تسودن ثوبا، ولا تدعين بويل، فبايعهن رسول الله ﷺ على هذا، فقالت: يا رسول الله كيف نبايعك؟ قال: إنني لا أصافح النساء، فدعا بقدح من ماء فأدخل يده ثم أخرجها، فقال: أدخلن أيديكن في هذا الماء.

- أقول: والروايات مستفيضة في هذه المعاني من طرق الشيعة وأهل السنة.

ب. وفي تفسير القمي، بإسناده عن عبد الله بن سنان قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول

الله: ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾ قال: هو ما فرض الله عليهن من الصلاة والزكاة، وما أمرهن به من خير.

• أقول: والرواية تشهد بأن ما ورد في الروايات من تفسير المعروف بمثل قوله: لا تلطمن خدا.، وفي بعضها أن لا تتبرجن تبرج الجاهلية الأولى من قبيل الإشارة إلى بعض المصاديق.

١١. النهي عن موالاة قوم غضب الله عليهم:

المقطع [١١] من سورة الممتحنة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ﴾ [الممتحنة: ١٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ٢٤٣»:

١. ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ﴾، المراد بهم اليهود المغضوب عليهم وقد تكرر في كلامه تعالى فيهم ﴿وَباؤُ بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ﴾ [البقرة: ٦١]، ويشهد بذلك ذيل الآية فإن الظاهر أن المراد بالقوم غير الكفار.

٢. ﴿يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَما يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحابِ الْقُبُورِ﴾:

أ. المراد بالآخرة ثوابها، والمراد بالكفار الكافرون بالله المنكرون للبعث، وقيل: المراد مشركو مكة واللام للعهد، و﴿مِنَ﴾ في ﴿مِنْ أَصْحابِ الْقُبُورِ﴾ لابتداء الغاية.

ب. والجملة بيان لشقائهم الخالد وهلاكهم المؤبد ليحذر المؤمنون من موالاتهم وموادتهم والاختلاط بهم والمعنى: قد يئس اليهود من ثواب الآخرة كما يئس منكرو البعث من الموتى المدفونين في القبور.

ج. وقيل: المراد بالكفار الذين يدفنون الموتى ويوارونهم في الأرض، من الكفر بمعنى الستر،

د. وقيل: المراد بهم كفار الموتى و﴿مِنَ﴾ بيانية والمعنى: يئسوا من ثواب الآخرة كما يئس الكفار المدفونون في القبور منه لقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَماتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللهِ﴾ [البقرة: ١٦١]